طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

مجتمع المغرب الأقصى

حتى منتصف القرن الرابع الهجري
منتصف القرن العاشر الميلادي

إعداد:
الأستاذ هاشم العلوي القاسمي

الجزء الثاني

1415هـ - 1995م

الباب الثاني

تطور التاريخ الاجتماعي للمغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

رصد مرجعي-ومتابعة وقائعية تحليلية

الباب الثاني:
تطور التاريخ الاجتماعي للمغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

تمهيد:

نعترف مبدئيا، بأننا لم نحط بجميع الأصول والبنيات التي انبنى عليها «المجتمع المغربي» في عصره الإسلامي الأول، الذي هيكل تاريخ المغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري/10م. لكن المتابعة المصدرية، والرصد المرجعي لهذه المرحلة، من شأنها أن تميط اللثام عن جوانب أخرى، وتفضي بنا إلى «تنميط جديد». فالفرق بين ماحاولنا معالجته في الباب الأول الذي وسمناه بـ«الأصول والبنيات»، وما نحاول دراسته في هذا الباب الثاني. والذي خصصناه للتطور التاريخي للمغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري/10م بمستوياته الإجتماعية، هو الملاحظة المباشرة على أساس المتابعة الإستقرائية والتفصيلية للوقائع والأحداث قدر المستطاع، وماتوفر لنا من مادة مصدرية موثوقة، وماتمكنه لنا الأبحاث الحديثة التي أمكننا الإطلاع عليها.

فالمسلمة الأساسية الأولى التي أمكننا استخلاصها من متابعة التاريخ الإجتماعي للمغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري/ 10م، هي طغيان النظام البدوي على النظام الحضري، والمسلمة الثانية هي تحكم الظواهر الطبيعية من مناخ وتضاريس في حياة الإنسان المغربي التاريخي، مما أعطى لانساقه الإجتماعية نكهة متميزة تكاد تكون من خصوصياته الإجتماعية المتفردة، والمسلمة الثالثة هي التعددية الجهوية ضمن الوحدة الشمولية الجذابة.

هذه المسلمات طبعت شخصية المغاربة، وأدت إلى خلق ديناميكية تحرك تطوره باستمرار على أساس انتمائه في هذا العصر إلى مجتمع رعوي -زراعي- تجاري. تفاعلت هذه الأقانيم فكونت في واقع حالة «ثقافة المغاربة اجتماعيا»، فانعكس في أشكال الاتصال والتواصل ، وارتباطاته السياسية، ومواقفه من التحديات الخارجية عن ذاته، فاستمر بناؤه القبلي متأرجحا بين المحلية والبحث عن الوجود الشمولي، ولم يتجاوز المغربي قبليته، كما لم تتمكن المدينة اختراق الظاهرة القبلية، والانتصار عليها بذوبانها أو على الأقل التلطيف من حدتها، مما جعل التمدين يظهر باهتا، لم يتجاوز مرحلة المعاناة من أجل بقائه ووجوده.

والمسلمة الإجتماعية المسيطرة في مسار التاريخ المغربي العام على امتداد هذا القرن وما بعده، هي «ظاهرة التجمع القبلي» بحيث برزت باعتبارها مؤسسة اجتماعية لايمكن اختراقها أو تجاوزها. فهي في القرن الرابع الهجري/10م بالمغرب، وجود اجتماعي وسياسي وعسكري في نفس الوقت، وبذلك انصهر فيها واقع الحياة الإجتماعية المغربية. فكانت «القبيلة» هي «النسق الإجتماعي» للمغرب الأقصى مع ملاحظة توجهاتها الجهوية. وعلى أساسها تشكلت تحركاتها على شكل «إمارات قبلية» محكومة بطموحات قبلية، تلبس لاجل ذلك كل لبوس يفضي إلى هدفها المحدود. ولعل هذا هو الذي جعل ظاهرة «التجزئة والتبعثر» هي الميزة السائدة في المجتمع السياسي المغربي في هذا القرن. واتسمت الأقاليم المغربية بتحركات بشرية، إما بدوافع نفعية مصلحية إدارية، أو نتيجة لسلسلة طويلة من النزوح القسري، وخاصة أثناء التدخلات العسكرية العبيدية وحلفائهم، أو الأندلسية وأنصارهم. وأثر ذلك على طبيعة «الزعامة والقيادة القبلية المغربية» في هذا العصر (قـ 4هـ). كانت قوة القبيلة أو على الأصح «الحلف القبلي» تقاس بصرامة الزعماء،

وقدرتهم على جمع واكتساب الاتباع والأنصار، وتحقيق التحالفات القبلية. وهذا ما أكسب الوضعية الخاصة لنظام «الأحلاف» في هذا القرن الرابع الهجري /10م ميزة وطبيعة «التقلب والتحول السريع». ولهذا ركزنا على دراسة ومتابعة تلك التقلبات والتحولات باعتبارها أساسا بنيويا لهذه التركيبة الإجتماعية، وتنظيماتها الإقتصادية والسياسية، ولم نعالجها على أنها مرحلة انتقالية من البداوة إلى التحضر، كما فعل ابن خلدون، ولكن على أنها من «تاريخية العصر».

والمسلمة الاجتماعية الأخيرة هي أن النوعية البشرية التي تألف منها «الإنسان المغربي» في القرن الرابع الهجري /10م هي «البربر» وهؤلاء هم الذين يكونون الأغلبية المطلقة على «تنوعهم الجهوي» من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب. وبعدهم يأتي «المغاربة من أصول مشرقية: عرب وغيرهم، وقد بدأ وصولهم مع حركة الفتح الإسلامي واستقر أغلبهم في المركز الحضرية أو في الضواحي المدنية، باعتبارهم من «الجند الإسلامي» أو من الأطر الدينية». وبعد هؤلاء تأتي عناصر أخرى وخاصة تلك التي وفدت أو جيئ بها من الصحراء الإفريقية عبر حقب التاريخ السابقة على مرحلة دراستنا هاته (القرن 4هـ/10م). واستمر هؤلاء في ظل الأحداث التاريخية لايظهرون إلا بالتبعية للقوات المتحركة في التاريخ المغربي عموما. وهؤلاء ارتبطت فعاليتهم بالحياة الإقتصادية وخاصة في المراكز المدنية أو القروية ونقط العبور القوافلية.

هذه المسلمات العامة من شأنها أن توحي بوجود «ظاهرة التنوع والتجانس» في تركيب المجتمع التاريخي المغربي ودورها في ضبط مقومات «هويته الداخلية الكلية» ثم مساهمتها في منظومة «دار الرسلام الكبرى». ولا تعالج هذه المسألة -في رأينا- إلا على أساس «التوافق الإجتماعي التكاملي».

وأساس هذا الرأي هو التطور الذي لمسناه في الانتقال الذي عرفته قواعد الضبط الإجتماعي والسلوكي اليومي، من القواعد الموروثة القديمة قبل العصر الإسلامي، إلى قواعد التنظيم الجديدة، حيث بات واضحا تلاحم العرف والعادة والمذهب الديني الإسلامي.

لمعالجة هذه الظواهر الإجتماعية المغربية، حاولنا دراسة مسألة صراع الأحلاف القبلية بين «زناتة» و«صنهاجة» ثم «مصمودة» وتفاعلاتها المفضية إلى الإنقسام والتجزئة ونسقية حياتها الإجتماعية والسياسية.

وهذا ما نحاول تحليله في فصول هذا الباب، على أساس أننا انتهينا في الباب الأول إلى أن «القبيلة-الدولة»لم تتجاوز المرحلة الإجتماعية «الجنينية»، وأن مرحلة القرن الرابع الهجري /10م، اعتبرناها مدخلا لميلاد العصبيات الكبرى، بحيث اعتبرنا ماقبل القرن الخامس الهجري/11م خارجا عن الزمن الخلدوني المبني على تفسير التاريخ المغربي- عبر أزمنته التاريخية كلها- على أساس نظام العصبيات التي شرحها ابن خلدون، وحدد قواعدها الإجتماعية في مقدمة تاريخه الموسوعي «العبر وديوان المبتدأ والخبر...». فالعصبية عند ابن خلدون هي المرحلة الأولى لتكوين الجماعات السياسية، وتقوم عنده على التماسك الإجتماعي، إما عن طريق «النسب» وهذه هي العصبية القبلية، وإما عن طريق الدين ، وهذه هي العصبية الدينية. وهذا في رأينا منطبق تماما على عصر ابن خلدون. وتختلف مرحلة دراستنا على هذا الوضع عن المرحلة المرينية الخلدونية.

فالقرن الرابع الهجري /10م بالنسبة للتاريخ الإجتماعي الداخلي للمغرب الكبير كله، يعتبر مرحلة «مخاض جديدة» انعكست آثاره على جميع أصوله الوقائعية، وبنياته الإجتماعية. فكيف تطورت ظواهره؟ وكيف تكونت علاقاته الداخلية بالمغرب الأقصى باعتباره موضوعا لبحثنا هذا؟.

الفصل الأول من الباب الثاني

المغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري/10م مجتمع البداوة وإرهاص التمدين (رصد مرجعي)

الفصل الأول من الباب الثاني
مجتمع البداوة بالمغرب الأقصى
وإرهاص التمدين في القرن الرابع
الهجري/العاشرالميلادي

ننطلق أساسا من مبدأ الحركة والتطور، فلايمكن إقامة نظام إجتماعي خارج قوانين التطور، ومن هنا نرى ضرورة المعالجة على أساسا نمو وتطور المجتمع المغربي. فالتاريخ الذي نقوم بدراسته ليس هو تتابع الأحداث، وإنما هو العلاقات فيما بينها.

لقد تبين لنا في الباب الأول كيف تولد التنظيم القبلي - العشائري في المجتمع المغربي القديم.. وانتشر هذا التنظيم متنوعا في المجالات الجغرافية البيئية، من صحراوية وسهلية وجبلية. وتبين لنا أيضا كيف كانت بداية الظاهرة التمدينية في البيئات التي شهدت ميلاد التنظيمات السياسية الأولى. وكانت عناصر التماسك الجماعية فيها هي التبادل التجاري، والمجال الاقتصادي الحيوي جغرافيا، ثم الشعائر الدينية. ويعني هذا أن تفكك وتجزؤ المجتمع إلى مجموعات إثنية وطوائف مختلفة، وقبائل وعشائر متضادة، كان هو مصدر «الخوف » ومطلب «للحماية» في أن واحد. وأدى ذلك إلى البحث عن وسائل الدفاع التي سمحت بها ظروف هذا القرن الرابع الهجري/10م. فكانت النتيجة هي التضامن العصبي التجمعي في القرن الخامس الهجري/11م. فالعصبية التي ابتكرها ابن خلدون صحيحة ابتداء من مرحلة الظهور المرابطي فما بعد، وليس قبله. فالتعددية الإجتماعية تعتبر في هذه المرحلة التي ندرسها، نتيجة لتعدد الجهوية، ولايمكن منطقيا أن تتولد من التعددية الدموية أو السلالية، كما اعتبرتها أو انفصلت على مضمونها النسبي المصادر

التقليدية ومن ضمنها ابن خلدون، ومن جاء بعده من المؤلفين المتأخرين مثل المؤرخ أحمد الناصري مؤلف كتاب «الإستقصا في تاريخ المغرب الأقصى».

وهنا نقرر أن «التحالف القبلي» الذي وجدناه في المجتمع المغربي في عصر دراستنا هو غير التنظيم. فالأول هو ظاهرة اجتماعية تضامنية خارجية فقط، والثاني هيكلي بنيوي. فلو اندرجت القيادات المتحالفة في تنظيم هرمي قائم على مبدأ تدرج السلطات لبطلت فعاليات الاغتيالات السياسية التي سادت في المجتمع المغربي في القرن الرابع الهجري/10م. فالمجتمع القبلي المغربي آنئذ ساد في نظامه «النظام غير الهرمي» الذي تتطلبه «الدولة» في بداية نشأتها[1]. والذي يحصل به التمايز والتراتب في هذه المرحلة هو عامل الولاء، وعامل الرئاسة. إن التجمع والإنقسام في النظام القبلي المغربي لهذا العهد ينشئان من التنافس المستمر على المراكز الحيوية ولذلك إنبنى الوجود والبقاء على مدى توسع نطاق الحلف القبلي، وقوته الدفاعية. وهذا ما جعل التجمعات البشرية الجهوية، قوة حربية، تستنفر للحرب بسرعة وباستمرار، ومسالمة حتى في حالة الحرب. وانطلاقا من هذا الطرح العام ننتقل مباشرة إلى:

أولا: مسألة العصبيات القبلية هل هي قضية دموية سلالية، أم هي موضوع تحالف متجانس إجتماعي وثقافي؟

المنطق المركزي في معالجتنا لهذه المرحلة، هو قراءة التاريخ المغربي من محليته المغربية إلى شمولية دار الإسلام، وبناء على ذلك يظهر تاريخه في

---

(1) النظام الهرمي للدولة ينبني على الأسس الثلاثة الآتية:
أ- كثافة سكانية مقبولة.
ب- مصادر اقتصادية مستديمة ومستقرة ومنظمة.
جـ- وجود نظام إجتماعي تراتبي التركيب.

السياق مواكبا لتاريخ أطراف المجتمع الإسلامي المركزي بالمشرق، فالمشرق الإسلامي استمر منذ الفتح الإسلامي إلى مرحلة هذه الدراسة يزود المغرب الإسلامي عموما بـ «فائض قيمته الفكرية» من تراث أدبي وفقهي ومعرفي عموما. أما المغرب الإسلامي فقد استمر يمد المشرق الإسلامي بـ«فائض قيمته الإنتاجية المادية». فكان النشاط التجاري هو المقابل على مستوى طرق القوافل، ولم يكن النشاط الزراعي هو قاعدة هذا التبادل. فهل يرجع عامل الإدماج في العالم الإسلامي الوسيط إلى الدين وما أنتجه من فكر وتراث عقلي؟ أم إلى هذا الجانب ونشاط الحركة التجارية بأبعادها الإجتماعية والإقتصادية؟

عالج ابن خلدون تاريخ المغرب بآلياته التحليلية المنطلقة من نظرية العصبية التي قسمها إلى نوعين: عصبية خاصة وهي التي حلل بها الصراع والتنافس القبلي. وعصبية عامة وبها حلل مسألة الدولة وقيام ونهاية الملك وسلطة الدولة، وما زالت دراسة الأستاذ العابد الجابري من أفضل الأبحاث المختصة في تفسيرها على المستوى النظري[2].

---

(2) العابد الجابري: العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، ط . دار الثقافة- الدار البيضاء، 1971، ص ص 271-336 (الفصلان الثاني والثالث من القسم الثاني)، وتعددت التعريفات التي عرف بها المحللون مفهوم العصبية وكلها تجتمع في أساس واحد وكونها «رابطة الجماعة الإنسانية إما في نطاق محدود أو كلي». ونظرا لاختلاف الآراء في فهمها تعددت ترجمتها إلى اللغات الاروبية:
1) كوتيي Gautier أعطاها معنى «روح الطائفة: L'Esprit de Clan».
2) وترجمها «دي سلان :De slan» بـ «روح الجماعة :L'Esprit de corps». كما أعطاها أيضا معنى «التضامن الإجتماعي: «Solidarité Sociale».
3) ثم قارن بما جاء في الموسوعة الإسلامية (النص الفرنسي من طبعتها الجديدة. L'Encyclopédie de l'Islam (N.E.). T.I.;PP.701-702 حيث أعطاها صاحب المقال «F. Gabrieli» مضمونا قرابيا : L'Esprit de parenté». وفي جميع هذه الترجمات ندرك عدم استيفاء هؤلاء الباحثين لمضمون العصبية بمعناها الخلدوني، مما يفرض الاحتفاظ بالمصطلح العربي الخلدوني بصيغتها العربية «العصبية:Açabiya».

لقد تحقق في القرون الخمسة الأولى من الفتح الإسلامي مجموعة من القواعد التنظيمية الجديدة في المجتمع المغربي، فتأسس نظام جديد من الولاءات والأفكار التي يمكن أن تصبح الإطار المعياري للمجتمع المغربي الجديد، تحت تأثير «التمركز» و«التأطير الروحي العام». لكن هذا التغيير لم يستطع قلب «معادلة التبعثر والتجزئة» وتجاوز ظاهرة «الصراع القبلي». ولهذا السبب نلاحظ أن العصبية لاتمثل أداة تفسير وتحليل كافية في القرن الرابع الهجري/ 10م. نعم يمكن مراعاة دورها في «التجييش العام» وفي «الاستنفار القبلي الجماعي»، ولكن لاتمثل مفتاحا لتفسير المعضلات التاريخية الكبرى التي يطرحها العصرالمذكور. ودورها هنا يشبه إلى حد كبير دور «الرأي العام» أو «استطلاع الرأي العام» في عصرنا الحالي (آخر القرن العشرين). وعلاقة هذا الرأي بمؤسسة الشورى» ومفهومها الإجتماعي والسياسي والديني.

فالأساس الذي نراه جوهريا في ضبط وضعية القبائل هو مسألة «الإنتماء» إلى المجموعة المتحالفة بأي شكل من أشكال تحقيقه ووقوعه. مع مراعاة اختلاف البيئات الطبيعية المحقق فيها. وعليه لايمكن أن نتكلم على عصبية منتصرة، وأخرى ذائبة في القرن الرابع الهجري /10م، بقدر ما نتكلم على عنصر التلاحم الإجتماعي وعنصر التشتت والتبعثر.

فالسؤال المطروح هل العصبية قضية دم وسلالة نسبية أم الموضوع مسألة توافق إجتماعي ثقافي؟

فالسؤال لايهدف في عمقه إلى نقض نظرية العصبية. ورفضها في التفسير التاريخي المغربي كلية، وإنما يهدف إلى إثبات عدم موافقتها ونجاحها في تفسير التاريخ المغربي في عصور ماقبل العصر الرابطي أي قبل نجاح الجنوب المغربي في تحقيق فعاليتها التاريخية. فالقرن الخامس الهجري هام

جدا في هذا السياق ، ودليلنا على ذلك هو: أن المجموعات القبلية في تحالفاتها وتنظيماتها قبل هذه المرحلة لم تكن مبنية على النظام العصبي الذي شرحه العلامة ابن خلذون، وإنما على شروط أخرى أهمها التوافق المصلحي والإجتماعي. وهذا ماندركه من المصادر المهتمة بتاريخ المغرب التي ألفت قبل «زمن العصبية»، فالمصادر المرابطية والموحدية والمرينية خاصة تتردد فيها المفاهيم العصبية. والدفاع عن مواقفها، أما ما ألف من مصادر قبل القرن الخامس فلانجد فيها الا مادة تتحدث عن البربر المغاربة باعتبارهم قوة واحدة وليس باعتبارهم عصبيات سلالية دموية متمايزة. وكأننا في هذه الحالة نلمس صورة أخرى في تفسير الحياة الإجتماعية متماثلة مع تطور التفسير الديني الذي يمكن تلخيصه في الدين الإسلامي قبل نشوء المذاهب! والدين الإسلامي بعد نشوء المذاهب! فتحديد المعطى «البربري» في تاريخ المغرب طيلة القرن الرابع الهجري/10م وتفكيك منظوماته الفكرية وأنساقه الإجتماعية يثبت مانراه في هذا الإتجاه.

فالمصادر الكلاسيكية قبل الفتح الإسلامي تتحدث عن مجموعات كثيرة من البربر، ولكنها لم تصنفهم على أساس سلالي عرقي متمايز، كما أنها لم تميز بين تلك المجموعات على أساس مفهوم العصبية، وإنما على معطى بيئي وجهوي أو نمطي معاشي، وهذا هو الذي اعتمدته الموسوعة الإسلامية. في المقالات الخاصة بالبربر(3).

والمهم أن «ظاهرة العصبية» في التحليل الخلدوني هي أداة منهجية لتفسير«الفعل السياسي» للمجموعات البشرية المتجانسة إجتماعيا. ومن المتابعة التفسيرية التي استقصاها «ابن خلدون» في أبحاثه ندرك أنها تكاد

---

(3) دائرة المعارف الإسلامية ج 3 ص 501، وكذلك في طبعتها الجديدة (النص الفرنسي- E.I.2ème Ed.T.I.P.1209) .

تكون مفتاحا سحريا بتفسير وتحليل الحركات السياسة التي أنتجتها المجموعات القبلية الرعوية - الرحل. وكأن نظرية العصبية لاتصح إلا في المجتمع الرعوي الذي أنتج كيانا أو كيانات سياسية سلطوية بمضمونها القبلي.

لهذا نطرح الأسئلة الآتية: أين دور الفلاحين؟ وبماذا نفسر تحركهم التاريخي؟ وهل المسألة مبنية على أنهم لم يكونوا قوة حربية كما كان البدو الرعاة؟.

فالمجتمع الفلاحي المغربي يكاد يكون غائبا في الفعل السياسي المغربي طيلة القرون الخمسة الأولى، ولانجدهم إلا في الجانب التنظيمي الذي عمل التشريع الإسلامي على إعادة تقنينه وضبطه[4]. وقد غابت مصادر هذا الإتجاه المعرفي عن أبحاث المؤرخين على أساس أنها لاتتحدث عن الظواهر مباشرة وبتحديد زمني، مما جعل محتواها يبقى «نظريا» لايتناسب دائما مع الواقع المعاش، فكانت بذلك «أقرت ما تكون إلى العمل الذهني»[5]. ورغم كل شيء فإننا نجد في هذه الأصول المصدرية الجديدة مادة غنية وخصبة، إذا أمكن استخلاصها وحسن استخدامها وأدركت منهجية استغلالها. فالعرف وماجرى به العمل الذي يتردد باستمرار في هذه المادة المصدرية أقوى حجة على وجود «المادة التاريخية الواقعية».

إن الشريحة الإجتماعية الفلاحية هي التي خضعت للدراسة على أوسع نطاق في المصادر الفقهية الإسلامية، ولا نلمسها في هذه النصوص باعتبارها

---

(4) لهذا السبب نجد أنفسنا مجبرين على دراسة المصادر الفقهية فهي وحدها التي تمدنا بالصورة التقريبية من مجتمع الزراع والفلاحين بوجه عام. ولهذا تكون مدونة الإمام مالك وشراحها من المغاربة هي الأساس المصدري في هذا الجانب.

(5) محمد بن حسن: القبائل والأرياف المغربية، تونس 1986، ص 29.

Berque.(J): L'Intérieur du Maghreb, Paris 1978, PP.25-29.

قوة متحركة بهدف سياسي. وإنما نراها قوة إنتاجية إقتصاديا في علاقتها مع الأرض، وملكيتها لها. فهل هذا الواقع هو الذي جعل العلامة ابن خلدون يهمشها في نظرية العصبية؟ ومهما كان الأمر فإننا سنحاول البحث عنها في هذه الدراسة ولو بشكل أولي، وليس بصورة استقصائية، وذلك بهدف إثبات وجودها في الفعل التاريخي المغربي.

تطور المجتمع الزراعي المغربي إلى القرن الخامس الهجري/ 11م.

إن الأدبيات الكلاسيكية القديمة(6)، والحفريات الأثرية(7)، أثبتت وجود حياة زراعية ومجتمع فلاحي قديم تطور مع تطور التاريخ المغربي. وقد بين علماءالنبات أن القمح الصلب والشعير، قد زرعا في شمال أفريقيا (المغرب الكبير) قبل وصول الفنيقيين بكثير. وكذلك الفول والحمص(8). كما أثبتت الأبحاث أن البربر «عرفوا تطعيم شجر الزيتون البري قبل أن ينشر القرطاجيون زراعة الزيتون»(9)، وكذلك الكروم والنخيل. كما كانت «التين» فاكهة البربر المفضلة.

كل هذا يثبت وجود جماعات مغربية كبيرة كانت تمارس الزراعة بالمغرب في العصور القديمة. وقد أثبت الباحث «كامبس: Camps قدم الثقافة

---

(6) نقصد بها النصوص التاريخية المهتمة بالمغرب الكبير قبل الفتح الإسلامي لهذه المنطقة من إغريقية يونانية، ولاتينية وقد سبق أن استخدمنا بعضها في الباب الأول من هذه الدراسة.

(7) نحيل هنا على الأبحاث التي تنشرها مصلحة الاثار المغربية في« النشرة الأثرية المغربية»، الرباط- Bulletin d'Archéologie Marocaine, Rabat.

(8) اليونسكو: تاريخ إفريقيا العام، ج2 ص 443.

(9) نفسه ص ص 443-444.

الفلاحية للمغاربة القدماء، وكان الانتشار الجغرافي للزراعة واسعا جدا. ويتأكد تطور النشاط الفلاحي في المنطقة بظهور بداية البحث الزراعي والإنتاج الفكري المهتم بالفلاحة(10). ونؤكد مرة أخرى أن التقدم الزراعي في المغرب الكبير مختلف من شرق المنطقة إلى غربها، وهذا يعني أن الموريطانيتين أقل تطورا في هذا المجال عن إفريقية :Africa ونوميديا. في المراحل القديمة من تاريخ المنطقة المغربية.

وتشير الأبحاث المختصة في تاريخ المغرب في العصر الروماني إلى حدوث تطور جديد في التاريخ الزراعي على مستوى أساليب الاستغلال الزراعي(11)، ففي القرن الرابع الميلادي أسندت الامبراطورية الرومانية مهمة مراقبة القبائل الأهلية، إلى فرق الحدود على امتداد الليمس الروماني. فكونت فرق هذا الجيش من «الجنود الفلاحين». وكانوا يعيشون بالقرب من المعسكرات الرومانية، واصطبغوا بالصبغة الرومانية. وخصصت لهم قطع فلاحية على طول الليمس الروماني، وقد أعفاهم النظام الروماني من أداء الضرائب في مقابل حراسة الحدود والخدمة العسكرية. وتبين الأدلة الأثرية أن قوات حرس الحدود كانت تجتمع حول المزارع الخصبة، وتعيش على الأرض التي تستخدم غالبا «الري بالقنوات» مما يمكننا من استخلاص أن هؤلاء دفعوا بعجلة التقدم الزراعي والاستيطان البشري إلى تخوم الصحراء(12).

---

(10) نشير هنا إلى بحوث الزراعة لماقون في العهد القرطاجي بالمغرب.

(11) أصدر النظام الروماني قانونا لتنظيم حياة الفلاحين، وخاصة قانون «مانكيا= Les Mauciana» . أنظر : م. رستوفيتريف: تاريخ الامبراطورية الرومانية الإجتماعي والإقتصادي . ترجمة زكي علي- ومحمد سليم سالم، ط. القاهرة، ص ص 379-402. اليونسكو: تاريخ إفريقيا، العام ج2 ص514.

(12) اليونسكو: تاريخ إفريقيا العام، ج2 ص 483.

هذه الظواهر تؤكد أن الزراعة كانت عماد الإقتصاد في العصور القديمة، وكانت الأرض هي المصدر الرئيسي لكسب الثروة والتقدير الإجتماعي. ولكن التحولات البنيوية التي عرفها المجتمع المغربي منذ القرن الرابع الميلادي إلى حدود القرن السابع الميلادي غيرت هذه الوضعية، وسادت الظاهرة الرعوية بطغيانها على الحياة الزراعية. فتدهورت الفلاحة ولكنها لم تنقرض بل استمرت في مناطق الاستقرار. فقد تحولت في هذه الفترة أراضي زراعية من أراضي منظمة ومستغلة جيدا إلى أراضي بور. وفي القرن الأول للهجرة /7م وما بعد إلى حدود القرن الخامس الهجري /11م نجد المصادر العربية تتحدث عن رخاء المغرب وغناء زراعيا(12م)، وبفحص هذه المصادر فحصا مقارنا بنتائج البحث الأثري الذي مازال متواضعا بخصوص المرحلة البيزنطية في بلاد المغرب كلها، يتأكد أن الأهالي استمروا في حياتهم الزراعية التي تعمل على التخلص من أثار النظام الروماني، كما يتأكد أيضا أن البديل الإسلامي لم يبدأ في الثبات والرسوخ إلا في القرن الثاني للهجرة /8م.

وبالإعتماد على استقراء مصادر الجغرافية العربية القديمة يمكن أن نميز في المجال الجغرافي المغربي في القرون الخمسة الأولى للفتح الإسلامي، وجود مناطق فلاحية مستقرة ومحدودة، وإلى جانبها تمتد أراضي مغربية رعوية. فانحصرت المجالات الزراعية في أحواض الأنهار أو بضواحي المدن أو المراكز التحصينية القريبة من المدن الرئيسية، أو نقط المرور من جهة إلى أخرى حسب خريطة طرق المواصلات القوافلية، (أنظر خريطة الطرق وقارنها بخريطة النشاط الزراعي قبل القرن السادس الهجري).

نحن إذن أمام مسألة جديدة وهي «إعادة تنظيم المجال» في البوادي الفلاحية المغربية، مما يفرض طرح سؤال أساسي وهو : هل تحقق هذا التنظيم

(12م) م. الطالبي : الأغالبة ص.ص 7-30-40.

الجديد نتيجة لاحتلال أراضي جديدة، أم نتيجة التطبيق المحلي للنظام الإسلامي في استغلال الأرض زراعيا؟ وبصيغة أخرى هل أنتج النظام الإسلامي الجديد في المغرب كله جغرافية زراعية جديدة تنمو في داخلها مجتمعات قروية تتوسع في المجالات الفلاحية المغربية؟.

أول من تعرض لهذه الإشكالات على مستوى الجرد الاستعراضي هو الباحث البلجيكي «هـ بيجن : Hubert Beguin» في بحثه «تنظيم المجال المغربي : L'organisation de l'Espace au Maroc»[13]. وخصص لتاريخ تنظيم المجال المغربي أهمية تعتبر رائدة في بابها[14]. ولكن الملاحظة المركزية في دراسته هي اعتبار المؤثرات التي تعرض لها المغرب في موضوع تنظيم مجاله الفلاحي هي التي وصلته من شمال البحر الأبيض المتوسط، أوجاءته من الجنوب الصحراوي، وبذلك أهمل أو تجاهل المؤثرات المشرقية[15].

لقد وصف الجغرافي «سترابون : Strabon» المنطقة الغربية الواقعة على المحيط الأطلسي، بأنها أراضي فلاحية غنية بالحبوب وأشجار العنب. فكانت هذه المنطقة الغربية من المغرب الأقصى أهم مناطقه الفلاحية. وهذا مايفسر تشكيلها لأول إطار «حضري» بالمغرب حيث ظهرت المدن بقسمها الشمالي على شكل هندسي مستطيل يتراوح ما بين 100كلم × 250كلم[16]. وتمتد على الساحل الأطلسي من طنجة إلى مصب نهر أبي رقراق. وهذا التركيز

---

(13) نشرت هذه الدراسة الجغرافية في بروكسيل سنة 1974 نشرتها Académie Royale des Sciences d'Outre Mer, Classe des Sciences morales et politiques, NS,XLIII,I, Bruxelles, 1974.

(14) أنظر نفس الدراسة ص ص 87-128.

(15) نفسه ص 88.

(16) نفسه ص 89.

التمديني والنشاط الفلاحي لايفسر إلا بما تتوفر عليه هذه المنطقة من إمكانيات طبيعية وشروط مناخية ملائمة، بالإضافة إلى الموقع الجغرافي الرابط مع حوض البحر المتوسط. وعلى امتداد العصر الروماني في المغرب لم يحدث تغيير كبير في التنظيم الترابي المغربي رغم مالاحظناه سابقا في دور الجنود الفلاحين الرومان، فدورهم لم يتجاوز بصورة ملموسة منطقة الليمس. أما التغيير الذي نعنيه هنا فخاص بالمناطق الجهوية الكبرى الواسعة النطاق. وهذا يعني أن المنطقة المغربية الواقعة جنوب «الليمس الروماني» استمرت أراضي فلاحية رعوية تحت سيطرة الأهالي وتنظيماتهم الخاصة. أما الجهات الشرقية فقد تجسدت أهم جهاتها في حوض نهر ملوية، الذي استمر مجالا حيويا للرعاة من البدو، كما سادت فيه زراعة غير منظمة، لأنه منطقة غير أمنة. وشبكة الطرق المغربية في العصر الروماني تفسر هذا الواقع الترابي الفلاحي في المغرب[17]. وتعبر عملية إقامة المراكز التمدينية عن حيوية الجهات التي أقيمت فيها. وكثافة سكان تلك الحواضر تبرهن عن القوة الاقتصادية لجهاتها. وقد قررت الدراسات[18] التاريخية التي عالجت مدينة طنجة وليكسوس وسلا ووليلي، أن عدد سكان هذه الحواضر يتراوح بين 15 و20 ألف نسمة، إلى جانب بعض المراكز الحضرية التي كانت قائمة في العصر الروماني مثل سبتة، والقصر الكبير. وكان الصيد البحري والأسماك أساس النشاط الإقتصادي في مدن شواطئ هذه المنطقة[19]. في حين كانت صناعة زيت الزيتون أساس النشاط الفلاحي بوليلي الرومانية. كما لعبت المرافئ

---

(17) أنظر الفصل الخامس من الباب الأول من هذه الدراسة، ثم خريطة تطور شبكة الطرق.

(18) أنظر H. Béguin: L'organisation de l'Espace au Maroc, p.29.

(19) أنظر قوائم العملة المغربية القديمة، حيث تظهر الأسماك رمزا للنشاط الاقتصادي بعملة مدينة لكسوس. ونحيل خاصة على : Jean Mazard, corpus

الشمالية للمغرب الأقصى أهم وسيط تجاري بين شمال البحر المتوسط وجنوبه. وقد أثرت تصاميم البناء بهذه المدن المغربية القديمة في البناء والتشييد المعماري بعد العصر الروماني في المغرب.

ومن كل ماسبق نستنتج أن التنظيم المجالي على مستوى الحياة الفلاحية ونشاطها الزراعي في المغرب، كان ظاهرة أساسية لا يمكن إغفال دور القوة البشرية المكونة لها في الفعل السياسي المغربي. وهنا نسجل أن القسم الجنوبي المغربي لم يدخل فعليا إلى التاريخ الإجتماعي والإقتصادي ويخرج من عزلته التاريخية إلا مع الفتح الإسلامي، حيث بدأت تبرز أمامنا مناطق سجلماسة ووادي درعة وسوس ومدن نفيس وأغمات، وهذه أسماء محلية بربرية تثبت الوجود الأهلي بحمولته الإجتماعية الرعوية والزراعية والتجارية. والملاحظة الأساسية هنا هي ظهور هذا القسم الجنوبي المغربي بروحه المحلية وتأطير المعنى التاريخي الإسلامي، مما يؤكد ضعف التأثير التعريبي على المستوى المكاني «الطوبونيمي». وهذا شيء طبيعي ومنطقي، فإن عدد الأطر العربية الدينية كان قليلا، فمسألة نشر الدين الإسلامي وتوطيد روحه شيء، ومسألة «التعريب» شيء آخر خلال مرحلة القرون الخمسة الأولى من التاريخ الإسلامي بالمغرب.

وإذا لاحظنا بداية الوجود الفعلي للعناصر العربية في العهد الإدريسي، فإن ذلك كان محدودا جدا. حيث تذكر المصادر أن إدريس الثاني أحاط نفسه بعائلات عربية[20]، وربما كان ذلك من الدوافع الديموغرافية والاستراتيجية

---

mimmorum Numidiae Maurétaniaque, Paris, Arts et Métiers Graphiques, 1955, .../...
PP.189-194 et les pièces numéros 635-636-638.

(20) فقد وفدت على فاس عائلات من القيروان والأندلس، أنظر لوطورنو، فاس، ج1 ص.ص 68-73 (ترجمة م حجي ، م الأخضر كص. دار الغرب الإسلامي بيروت 1986.

التي جعلته ينتقل إلى مدينة جديدة، من وليلي إلى فاس. فقد وفدت عليه بعد مقتل أحد زعماء أوربة، قبيلة التأييد الإدريسي، الذي قتل بنواحي وليلي، وبعد هذا الاغتيال، انتقل مولاي إدريس المثنى إلى عاصمة جديدة هي مدينة فاس.

ونظرا لأهمية الدور الإدريسي على مستوى «التنظيم المجالي الزراعي» نلاحظ أن هذه المرحلة (172هـ-305هـ/790م-918م)، تمت فيها المحاولة الأولى لإنشاء «مغرب موحد»، وكانت فاس ونواحيها هي مركزه السياسي والتنظيمي[21]. ولكن لايعني هذا أننا أهملنا الظاهرة القبلية الرعوية في هذه المنطقة، وإنما نود أن نسجل بداية الدور التمديني الإسلامي في إعادة التنظيم المجالي المغربي. فهي بداية تكاد لاتتجاوز الارهاص الأول، مالبثت أن أجهضت في مرحلة القرن الرابع الهجري/10م.

والمعطى التاريخي هنا على مستوى تنظيم المجال هو تحويل التنظيم المجالي من الشمال إلى الجنوب، ومن الساحل البحري إلى الداخل المغربي. والجانب السلبي في هذه العملية هو أن المغرب الأقصى ضعف فيه دور تأثير البحر كما كان في عصر لكسوس وعصر وليلي الرومانية، واتجهت الأدوار التاريخية نحو الخضوع للمؤثرات القوافلية التجارية، ونمو ظاهرة البداوة الرعوية التي رسخت ظاهرة «الإستقلال القبلي الجهوي». لقد تقوى داخل المغرب على حساب سواحله، وبدأت ظاهرة إنشاء المدن والمراكز بالداخل، ففي القرن الرابع الهجري/10م الذي نعتبره عهد تشكيل «التاريخ الداخلي المجالي» للمغرب الأقصى، عرف ظهور أسماء جديدة حول محورية المدن الكبرى التي صارت فيه محور الحياة الحضرية في المغرب، فنجد محورية مدينة فاس

---

(21) أنظر H. Beguin : L'Organisation de l'Espace au Maroc pp.94-95.

محاطة بمدينة مكناسة الزيتون وتازة وصفرو، والبصرة وحجر النسر ووليلي. وسجلماسة محاطة بدرعة ونول لمطة، وأغمات وتمدلت وتارودانت.

وهذا الإنتظام مرتبط بالطرق التجارية الرئيسية التي كانت تسلكها القوافل التجارية مع إفريقيا جنوب الصحراء. ثم إن تأكيدنا على الداخل في تنظيم المجال، لاينفي الاتصال والتبادل مع الخارج عن طريق «أقوز» وسلا، وتشيمس (ليكسوس)، وأصيلة، وطنجة وسبتة ونكور ومليلية وبادس ووهران[22].

هكذا يتبين أن تعمير المغرب بالسكان من رعاة وفلاحين كان مضطردا ومتزايدا ارتبط بظاهرة التمدين الذي اعتبر مبنيا على الحياة الفلاحية. مما تؤكد أيضا وجود تزايد ديموغرافي في مجتمع المزارعين والفلاحين الذين كانوا مدنيين غير محاربين. فهل يعني هذا أن الطبيعة الحربية التي طبعت القبائل الرحل أدمجت الفلاحين المدنيين في حمايتها؟ وهل كان الفعل السياسي للمجموعات القبلية الرعوية هو نفس الفعل السياسي للفلاحين المستقرين بحكم الغلبة الحلف الحمائي؟

ومهما كان الجواب على السؤالين فإن ظاهرة العصبية بمعناها الخلدوني في مجتمع الفلاحين تظل غائبة، وتبقى قوته السياسية منصهرة في تبعيته طوعا أو كرها للقبائل المحاربة وهم البدو الرحل، أو على الأقل ولدت عصبيتهم في المجتمع الرعوي، وعلى هذا ننتهي إلى أن «العصبية» بمعناها السياسي هي مسألة اجتماعية تجانسية توافقية، منطلقة من أصول قرابية ولكن هذه الأصول القرابية ليست هي كل شيء.

---

(22) الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق . ج I ص ص221-222.

ثانيا: تطور الخريطة الزراعية للمغرب الأقصى إلى القرن الخامس الهجري/11م.

لقد أمدتنا كتب الفلاحة [23]، ومصادر الجغرافية العربية[24]، وكذلك مصادر التاريخ الحدثي[25]، والمؤلفات الفقهية[26]، والنصوص الأدبية عموما[27] بمادة معرفية من شأنها أن تعطينا صورة تكاملية عن تطور النشاط الزراعي ومجتمعه الفلاحي بالمغرب الأقصى والعالم الإسلامي. وأهم نتيجة يمكن الوصول ليها هي «أن وجه الريف (البوادي) المغربية قد تغير كثيرا عما كان عليه في الأزمنة القديمة قبل الفتح الإسلامي. فدخلت إلى المغرب الأقصى بعد الفتح الإسلامي محاصيل جديدة، من أشجار الفاكهة مثل «الرمان

---

(23) نقصد هنا كتاب الفلاحة لابن العوام.

- وكتاب الفلاحة لابن بصال، طبعة معهد مولاي الحسن تطوان 1955 نشر خوسي مارية مياس بييكروسا. ومحمد عزيمان.
- وكتاب الفلاحة لأبي الخير الأندلسي، الطبعة الأولى بالمطبعة الجديدة بفاس 1357هـ/1939م.

(24) نحيل هنا على جميع المصادر القديمة في الأدب الجغرافي العربي التي استخدمناها في هذه الدراسة.

(25) نقصد المؤلفات القديمة التي رجعنا إليها في موضوع بحثنا.

(26) نقصد مدونة الإمام مالك برواية سحنون والنوادر والزيادات ابن أبي زيد القيرواني، ومؤلفات وفتاوي فقهاء الأندلس إلى حدود عصر الونشريسي صاحب المعيار المعرب.

(27) نحيل على نصوص شعر الطبيعة التي أنتجها شعراء المغرب والأندلس الذين رحلوا إلى المغرب.

السفري»[28]. والحبوب والخضروات، ونباتات جديدة. ومن شأن إدخال هذه الأنواع النباتية أن يؤدي إلى تغيير أنماط الاستهلاك، وأشكال استغلال الأراضي. فانتشار قصب السكر وأشجار الحمضيات تذكرها مصادر الفلاحة والجغرافية العربية باستمرار. وقد ساهم هذا التلاقح الإسلامي على المستوى الزراعي في صنع وسط إجتماعي فلاحي متميز بعقليته وذهنيته التي يمكن أن نميز فيها بين نوعين: مجتمع الفلاحين البستانيين بضواحي المدن مثل فاس ومراكز الإستقرار بغمارة والواحات الجنوبية، ومجتمع الفلاحين في مناطق الترحال والرعي. وهؤلاء أقل تطورا بالمقارنة إلى أولائك، وكانت النتيجة هي ظهور حضارة فلاحية- زراعية تحمل طابع الجدة بالنسبة إلى ماكان سائدا في المغرب قبل الفتح الإسلامي.

قد ينتقدنا قراء هذا البحث بأننا نقدم صورة تاريخية متناقضة عما قرأوه سابقا. والجواب على هذا الاعتراض بأن ماقدمناه إنما كان مرتبطا بالعمل السياسي-الإجتماعي. أي بالحدث المؤدي إلى كرسي الحكم والسلطة، أما هذه الصورة فتندرج في ماينفع الناس وهو الذي يمكث في الأرض مع الشريعة الإسلامية بأصولها وتنظيماتها وعقلانيتها. وهنا نقول صراحة أن الآثار الباقية في المغرب الأقصى من إنشاءات الري والقلاع والقرى لاتعود كلها إلى الأسلوب الروماني، وإنما هناك انصهار حضاري تكاملي.

صحيح أن القبائل البدوية التي كانت تعيش على أطراف المناطق المعمورة فترة طويلة كانت تهدد الزراعة في الأقاليم التي تحولت إلى مناطق إنتاج زراعي.

---

(28) الخشني : أخبار الفقهاء والمحدثين بالأندلس (رسالة مرقونة، كلية الآداب / فاس 1992) ترجمة معاوية بن صالح الحمصي، ص 285.

كما أن الحروب ارتبطت وقائعها في العصر الإسلامي بظاهرة إفساد الزرع وحرق وتدمير الإنتاج. فالبداوة والحرب كانتا مؤثرتين على الزراعة المغربية، وهكذا يظهر أن هجوم ابن خلدون على بني هلال لايفسر إلا بانفعاله العاطفي الذي جعله يصب جام غضبه على هؤلاء.

عاشت ظاهرة البداوة شعوب كثيرة «بربر» و«أعراب» و«زنوج» و«أتراك» و«جرمان» و«قوط». عاشت هذه الظاهرة شعوب أسيوية وأوربية وإفريقية، ومارست الزراعة بمستويات متفاوتة حضاريا. وفي مرحلة دراستنا وفي القرن الرابع الهجري/10م، كان المجتمع الإسلامي وبمختلف شرائحه وفئاته وطوائفه يعيش في مرحلة اجتماعية تفرض علينا أن نعترف مبدئيا بأنه كان يملك «تقاليد زراعية» وبمستوى راق من النضج والتنظيم. وفقه المعاملات ونظام المزارعة والمساقاة، والأعراف الفلاحية في المناطق المفتوحة التي انصهرت في التشريع الإسلامي، كلها تثبت أن بدو المغرب بما فيهم القبائل العربية الهلالية والمعقلية كانوا زراعا إلى جانب كونهم رعاة. وعليه إن نفي وجود التقاليد الزراعية عن الذين لايجيدون إلا تربية الماشية ، مسألة غير مقبولة بتاتا، نعم المعضلة قائمة في ظاهرة الانتقال والترحال.

لقد كان الإنجاز الزراعي في القرون الأولى للإسلام في حقيقة الأمر عملا مشتركا قام به عدد كبير من الشعوب، وتضافرت إسهاماتهم بأشكال مختلفة»[29] فتلاحمت جهود العرب الفاتحين مع جهود المفتوحين في المغرب

(29) أندريو واطسون: الإبداع الزراعي في بداية العالم الإسلامي، انتشار المحاصيل والتقنيات الزراعية، مابين عامي 700و1100 للميلاد. ترجمة الدكتور أحمد الاشقر، طبعة حلب- دمشق 1985 ص 10 وهامش 16، حيث لاحظ تأثير الزراعة اليمنية الشامية في المناطق المفتوحة بالغرب الإسلامي.

الأقصى وفي غيره من جهات العالم الإسلامي في مرحلة هذه الدراسة[30]. ويتأكد هذا الإتجاه بوصايا مفكري هذه العهود، التي كانوا يوجهونها إلى المسؤولين الكبار في السلطة العليا، والتي جاءت مؤلفات هؤلاء خاصة بنظم الدولة الإسلامية . ومثلنا المباشر ما قاله «ابن عبدون»[31]. «إن الأمير يجب أن يصير على إعطاء تشجيع كبير لزراعة الأرض، فالتربة يجب أن تصان، والفلاحون يجب أن يعاملوا معاملة حسنة ... وعلى الأمير أن يأمر وزراءه والأشخاص المتنفدين في العاصمة باقتناء مزارع خاصة بهم... لأن الزراعة أساس الحضارة، وكل وشائج الحياة تتدفق منها».

فالحياة في المجتمع المغربي القديم مبنية على الحياة الفلاحية بجميع صورها وأشكالها. وكل منتوج من منتوجاتها له دور اقتصادي وإجتماعي، فالخشب عصب الحياة في البوادي والمدن المغربية، وكانت الغابات المغربية هي

---

(30) أنظر تفصيل هذه الجهود في مقدمة نشر كتاب «الفلاحة الأندلسية» لأبي زكرياء يحي بن العوام الأشبيلي، وهو من علماء القرن السادس الهجري /12م. وهذه الدراسة كتبها: «كليمان موليه:Clement Mullet» ونشرت في طبعتها الثانية التي صدرت عن دار بوسلامة للنشر بتونس في أواخر سنة 1977م. وقد خصص الفصول 30 الأولى للزراعة وخصص 4 فصول الأخيرة لتربية الماشية والدواجن والنحل، ومقالات «الفلاحة» بالموسوعة الإسلامية.

(31) ابن عبدون (من كتاب القرن الخامس الهجري/11م)وبداية القرن السادس هـ/12م عن دراسة ليڤي بروڤانسال للحياة الفلاحية بإشبيلية وباديتها. ونشره لنص ابن عبدون: L.Lévi-Provençal Documents Arabes Inédits sur la vie Sociale et économique en occident musulman au Moyen-Age, Caire 1955, pp.3-65.

وعن ابن عبدون أنظر الموسوعة الإسلامية الطبعة الجديدة النص الفرنسي، مقال:

F. Gabrielli: Ibn Abdun, E.L.N.E.T.III,pp.702-703.

مركز الثقل في انتاجه وخاصة في الأطلس المغربي بأقسامه المعروفة (الريف، أطلس التل، والمتوسط والكبير)[32].

ولاتتبلور أمامنا الخريطة الزراعية للمغرب الأقصى في مرحلة بحثنا هذا، إلا بضبط المحددات التنظيمية التي طبقت عليها منذ الفتح الإسلامي. لهذا نجد أنفسنا ملزمين بالوقوف عند مسألة هامة أثارتها المصادر التشريعية الإسلامية، وهي قضية «الوضع القانوني للأرض المغربية» من وجهة نظر الفقه الإسلامي. وهنا ننبه إلى أن هذه المسألة نتناولها من زاوية خاصة وهي زاوية تدخل التنظيم الإسلامي للمجال الزراعي والفلاحي عامة، لأن القضية، قضية أرض واستغلال زراعي بوجه خاص. فاختلاف الفقهاء اختلاف نظري ومجال بحثنا هو الجانب التطبيقي على مستوى «إقطاع الأرض» والمناطق التي تخضع لهذه العملية.

وقد بدأت عملية توزيع الأراضي الزراعية المغربية على العناصر الموالية لرجال السلطة الحاكمة فيه منذ ما قبل التاريخ الإسلامي. وقد ضربنا أمثلة بالجنود الفلاحين في العصر الروماني وخاصة في القرن الرابع الميلادي. أما في العصر الإسلامي فقد وجدنا في المصادر[33] أن الخليفة الأموي الوليد بن عبد

---

(32) Lombard (M): Espace et Reseaux du Haut Moyen-Age. Paris 1972; pp.153-160 et les cartes n° 2,3 et4.

وقد عالج الصناعة الخشبية والإنتاج الغابوي لها بحوض الأبيض المتوسط وخاصة بلاد المغرب الكبير. وبين الأهمية الإقتصادية لهذا النوع الإنتاجي في العصور الوسطى الموافقة لمرحلة دراستنا. ثم قارن بما جاء في البحث الجيد الذي خصصته الموسوعة الإسلامية في طبعتها الجديدة (النص الفرنسي) لموضوع «الفلاحة» Filâha,E.I N.Edit. T.II,pp.920-932 وخاصة مقال :ج. س . كولان: G.S.Colin الذي عالج موضوع الفلاحة بالمغرب الإسلامي ص ص 922-923.

(33) اليعقوبي: البلدان ص 356. البكري ص 91 (فقرة 1283 ابن خلدون: العبر 283-212/6. ابن عذاري: البيان ج1 ص 176. الماوردي: الأحكام السلطانية ص 190.

الملك، أقطع لصالح بن منصور الحميري (أو النفزي) نكور وما والاها غربا سنة 91هـ/710م.

ولكن في آخر القرن الثاني للهجرة/8م، وبداية الثالث الهجري/9م أخذ علماء المغرب يجيبون على أسئلة دقيقة متعلقة بالحياة اليومية التي عاشها الفلاحون المغاربة في المناطق الزراعية على امتداد المغرب الكبير. وهذا ما تعكسه «المدونة الكبرى» للإمام مالك بن أنس برواية الفقيه المغربي سحنون[34] ورواية أسد بن الفرات المعروفة ب «الأسدية». ويهمنا في هذا السياق أن المغاربة أخذوا يسألون عن مشاكل كراء الأرض غير المسقية. وهذا يعني أن المغرب أخذ فلاحوه يستصلحون أراضيهم «البور» بالتنظيم التشريعي الإسلامي في القرن الثاني الهجري/8م على أقل تقدير. والملاحظ في حلول الفقهاء لمثل هذه المشاكل المطروحة على أنظار «مالك بن أنس» أن تلاميذه اختلفوا في الحلول المقترحة بين اتباع مالك من الفقهاء المصريين، واتباعه المغاربة، وهذا الإختلاف معقول، الفقهاء المصريون ينطلقون من نظام الري المعتمد على وادي النيل، أما المغاربة فلهم بيئة جغرافية أخرى حيث تسود الظروف المناخية الممطرة التي تنتج زراعة مسقية وأخرى بعلية.

ومع تطور وتوسع الإستغلال الزراعي في المغرب الأقصى طرحت بحدة على أنظار الفقهاء المغاربة، في القيروان وسبتة وقرطبة وسجلماسة وفاس بعد القرن الثالث الهجري/9م، أسئلة أخرى من نوع آخر يمكن أن نسميها السياسة الزراعية للدولة المغربية». وهذه المسألة هي قضية «الوضع القانوني الإسلامي للأرض»[35]. فقد طرحت هذه المسألة على مستوى الدولة وليس على

---

(34) مالك بن أنس: المدونة الكبرى، ج4 ص ص 528-530.

(35) أحمد بن نصر الداوودي(ت402هـ/1012م): كتاب الأموال (قطعة نشرها حسن حسني عبد الوهاب وفرحات دشراوي. ضمن الأبحاث المهداة لروح ليفي .../...

مستوى الأفراد، ولكن بماذا نفسر هذه المسألة؟ بناء على المتابعة النصية المبنية على القراءة التاريخية يظهر لنا أن المسألة طرحت لأول مرة في القرن الرابع الهجري/10م، لأن معالجتها تشريعيا بدأت مع أبي زيد القيرواني، ولانعلم من سبقه إلى طرحها بالشكل الذي أجاب به. وفي مرحلة أبي زيد القيرواني (ت 386هـ/996م) كان الصراع العبيدي الأندلسي على المنطقة التي واكبتها ظاهرة مصادرة الأملاك بما فيها الأراضي الزراعية سواء على مستوى الأفراد أو القبائل. كما رافق ذلك إقطاع المناطق الكبرى للقبائل الموالية، كما حدث في المسيلة التي أقطعت لبني الأندلسي، وكتامة ودنهاجة في شمال المغرب الأقصى. هذا الواقع يتضح أكثر إذا وضعنا أمامه الصراع المذهبي بين الشيعة وأهل السنة من الفقهاء المالكين[36]، ومن بين كبرائهم ابن أبي زيد القيرواني لهذا يمكن أن نقول: إن طرح مسألة الأرض ووضعها القانوني الشرعي الذي انتهى جواب الفقهاء في هذه المرحلة على أنها «لمن وجدت بيده وأن كان لايدرى بأي وجه صارت إليه»[37]. إن طرح موضوع الأرض يمثل في سياق بحثنا

.../... بروڤانسال سنة 1962).

Etudes d'orientalisme , dédiées à mémoire de levi-provençal.G.p. Maisonneuve et larose, Paris 1962,T.II,pp.408-427.

ثم قارن بما جاء في المعيار للونشريسي ، ج6 ص 96 (طبعة حجرية)، وبما جاء عند ابن زيد القيرواني في كتابه «النوادر والزيادات» مخطوطة بخزانة القرويين.

(36) محمد المجدوب: الصراع المذهبي في إفريقية ، ط. تونس 1980، ص 190.

(37) ابن أبي زيد القيرواني: النوادر والزيادات (مخطوطة خزانة القرويين). ثم الونشريسي: المعيار المعرب، ج 6 ص133. وكذلك قارن بما جاء عند: عبد الرحمان بن عبد القادر الراشدي: التعريج والتبريج في أحكام المغارسة والتصيير والتلويح، ط . حجرية بفاس، ص 33 وما بعدها، حيث ورد في هذا المؤلف مايلي: .../...

ظهور تدخل السلطة العليا في موضوع توزيع الأرض باعتبارها سلطة تتصرف في تنظيم المجال الزراعي، سواء كان الموقف غصبا أم ظلما أو له مبرر مقبول. المهم هو ظهور الشخصية الفعلية للدولة التي تمارس حق الإشراف على مجال نفوذها، إنها إذن ظاهرة الدولة التي أخذت تحل محل القبلية. وبهذه العملية ظهرت محددات ملكية الدولة في الأراضي، وملكية القبائل الجماعية ثم ملكية الأشخاص.

إن طرح المسألة مبني على واقع تاريخي أنتجه القرن الرابع الهجري / 10م. واستمر الموقف التشريعي فيه يتقلب مع تطور الوقائع التاريخية اللاحقة. ففي العصر المرابطي كان له مضمون تدخل السلطة العليا الموحدة في البلاد. وأخذوا يوطنون قبائلهم في الأراضي المفتوحة بالمغرب، ويقطعون الأراضي لأنصارهم وأتباعهم على نظام «إقطاع الجند». وكانوا يعتبرونه «إقطاع تمليك». وهذا ماشجع الناس على إحياء أرض الموات. وكانت هذه الوضعية مطبقة في الأندلس والمغرب الأقصى على حد سواء[38]. فكان الجند المرابطي والفقهاء هم المنتفعون أساسا من هذه السياسة. وهنا نؤكد على حقيقة كبرى وهي ميلاد سلطة موحدة تباشر بطرقها الخاصة سياسة تنظيم المجال الزراعي والفلاحي المغربي. ومهما كانت الأخطاء وأساليب التصرف، فإن العملية تمثل سياسة موحدة وشاملة. وفي العصر الموحدي نجد أيضا نفس

.../... «وقال صاحب المقتبس، حد المغرب من بحر القلزوم، ثم قال: وحكم أرض المغرب التي يدخل فيها القيروان، وإفريقية والمغرب الأوسط والسوس الأدنى والأقصى وبلاد الحبشة. هو ما قال به في النوادر». ورأيه في كتاب «النوادر والزيادات». هو «وبلاد البربر والسواحل وإفريقية، قد جهل الناس أمرها فتوقفوا حينئذ في حكمها، فالإمام هو المتولي لأمرها». ورأي الإمام مالك «أن المغرب فتح عنوة».

(38) ابن بصال: كتاب الفلاحة: مقدمة الكتاب ص 31. عبد الله بن مالك الطغنري: زهر البستان ونزهة الأذهان، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ورقة 15.

الوضع الشامل المبني على تطبيق سياسة إقطاع الأراضي لأنصارهم ومؤيديهم، وكان في هذا العهد أوسع شمولية على مستوى التراب الذي خضع لسلطتهم في الغرب الإسلامي ببنياته الإجتماعية المتعددة وعناصره البشرية المتنوعة. وحاولوا ربط تدخلاتهم بنظرية المهدوية التومرتية. وأدخلوا الأرض وتوزيعها في «نظام الجوائز»[39] لكل قبيلة جائزة. أما العصر المريني فقد حاول القيام بمراجعة عملية توزيع الأرض وإعادة استصلاحها على أساس الإتجاه السني المعتدل مع تطبيق نظام الامتياز للفئات الروحية والعلمية. واستمر هذا الموقف مهيمنا مع نظام الزوايا الصوفية. ولكن في العهد السعدي والعلوي ظهرت قبائل الدولة أو«قبائل الجيش»، وطرحت على أوسع نطاق مسألة أراضي الدولة وأراضي الجماعات. وبامتداد العهد العلوي نلاحظ أن مرحلة «الحماية الفرنسية بالمغرب» (1912–1956م) قد حدث فيها واقع آخر له علاقة أساسية بنظام «المعمرين الأجانب في المغرب» الذين يباشرون استغلال الأراضي الفلاحية المغربية بأساليبهم الأوربية. وهكذا ارتبطت مسألة «الأرض الزراعية المغربية» في عهد الحماية بمسألة «الوضع القانوني للأرض المغربية»، فأخذ جهاز الحماية يدرس هذه القضية الكبرى، من أجل تبرير تصرفات سلطات الحماية الفرنسية في نزع الأراضي من أصحابها سواء كانوا قبائل أو ملاكين خاصين. وأخذوا يقسمون «الأرض المغربية» إلى أقسام متعددة، فأنشأوا لهذه الغاية «مصلحة الأملاك المخزنية» أو إدارة DOMAINE التي تشرف على تحديد الوضع القانوني للتراب المغربي . وفي هذا المستوى التنظيمي ظهرت أبحاث مغربية قام بها فقهاء مغاربة، حيث عالجوا في أعمالهم مسألة الأرض المغربية ووضعها القانوني بمعناه «الشرعي الإسلامي». وهنا يندرج مؤلف

---

(39) ابن القطان: نظم الجمان، ص 94. ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 215 وما بعدها، ط دار الأندلس بيروت 1964.

القاضي العباس بن إبراهيم التعارجي السملالي، الذي سماه «الإمتاع في أحكام الإقطاع»[40].

نعم هذا التطور الذي حدث في مسألة الأراضي الفلاحية والرعوية» بالمغرب في عصوره التاريخية. نجده باستمرار متأثرا بثلاث مؤثرات متلازمة ومترابطة ومتداخلة، وهي :1) مسألة الأمن، فهو مشكلة الزراعة المغربية الأساسية، وفي كل مناطقه على حد سواء. 2) مسألة الضرائب وثقل الجباية وفرض الوظائف والمكوس والمغارم على الفلاحين. وهكذا نرى أن مناطق الجباية الفلاحية تعني مبدئيا أنها أقاليم إنتاج واستغلال زراعي مركز. والمناطق المهملة في نظام الجباية تعتبر في غالب الحالات إما مناطق غير مستغلة زراعيا أو مناطق توقف فيها الإستغلال والإنتاج الزراعيين. وفرضت زناتة في المغرب الأقصى قبل قيام المرابطين ما شاءت من ضرائب، وتميزت جبايتها بالعنف والقسوة[41] فلم تعد الجباية سنوية وإنما تحولت في غالب الحالات من القرن الرابع الهجري/10م إلى شهرية وفي كل مناسبة إنتاجية: مغارسة أو مزارعة أو على رؤوس وأنواع الماشية. مما أنتج ظاهرة «ضعف الإعتمار، وخلو الديار» في كثير من الجهات المستهدفة عسكريا في شمال المغرب الأقصى. 3) نظام الري الذي انبنت عليه الزراعة المغربية التي

---

(40) مازال الكتاب مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط. ويرجع أصل تأليفه إلى الظروف التي كان نظام الحماية الفرنسية بالمغرب، يعمل فيها على توزيع الأراضي الفلاحية على المعمرين الفرنسيين. فأخذ نظام الحماية يبحث عن المبررات التي تسوغ نزع الأراضي من أصحابها سواء كانوا جماعات أو أفرادا، وتفويتها للمعمرين الذين يعتبرون سياسيا خداما لنظام الحماية الفرنسية بالمغرب الأقصى.

(41) أنظر ملاحظات ابن القطان: نظم الجمان ص 33. وابن أبي زرع: القرطاس ص 100. وابن خلدون: المقدمة ص ص 279–280.

نستطيع أن نقسمها حسب نظام تساقط الأمطار، وشبكة الأنهار المغربية، وتطور حركة التمدين التي سبق أن عالجناها سابقا.

والآن نحاول معالجة الخريطة الجغرافية للمجتمع الزراعي المغربي في مرحلة بحثنا. فكيف تظهر الصورة؟ وماذا أنتجته من معنى تاريخي ؟ وبالتالي ماهو أساس التلاحم والتضامن الإجتماعي فهل هو الأرض الزراعية أم هناك شيء أخر؟ وهل هناك عصبية يمكن أن نسميها عصبية الفلاحين أو عصبية الظل؟.

نعتمد أساسا على مؤلفات الجغرافية الغربية القديمة في معالجة هذه الأسئلة، وهذا يفرض علينا أن تكون البداية من القرن الثالث الهجري/9م. وسيكون اعتمادنا على اليعقوبي وابن حوقل والبكري والإدريسي بوجه خاص. وهؤلاء ومن نهج ركابهم يحدثوننا عن نظام الري أو الزراعة المسقية في منطقة المغرب الكبير كلما مروا في المناطق التي تعبرها طرق التجارة المسلوكة لديهم. ولكن في نفس الوقت يطرحون معضلة «الماء» التي مازالت قائمة في نفس الجهات التي أثاروا فيها هذه المشكلة وخاصة الجهات الجنوبية. كما تكلموا عن الجهات التي لم تشتك من قلة المياه. وهذا يؤكد أنهم قدموا لنا صورة تكاد تكون كلية عن التراب المغربي وخريطته المائية والزراعية، فجاءت صورة منطقة جبال الريف غنية بمياهها وغزارة أمطارها، وغاباتها ثم منتوجاتها الشجرية بوجه خاص، ووصفوا لنا حوض نهر سبو، وحوض نهر أم الربيع، ونهر تانسفت، ومسالك الأطلس المتوسط والكبير، وتحدث الإدريسي عن قنوات الري بنواحي مراكش وسجلماسة. وأقاليم الواحات المغربية في سوس تامدولت، وحوض نهر درعة، ووركلة وضواحي تلمسان وتاهرت، وجنوب الأطلس التلي. وشط الجريد التونسي. وهذه الجهات الجنوبية وصفوها وصفا يجعلها مناطق استبسية رعوية، تسقط فيها الأمطار بغير انتظام ، مما جعل

الإستغلال الزراعي فيها خاضعا لنظام الري الذي أبدعه هؤلاء مع اقتباسهم للمؤثرات الحضارية السابقة على العصر الإسلامي، مما ميزها وجعل هذه الجهات الجنوبية كلها مجتمعا زراعيا هو «المجتمع الزراعي الواحي» وهكذا يتبين أن الجهات الرعوية تسود فيها أيضا حياة زراعية ذات تقاليد عريقة وأصيلة. (أنظر الخريطة الزراعية رقم 8و9).

في مغربنا الأقصى نجد منطقة «أغمات» و«مراكش» بعد بنائها هي الجهة التي تطور فيها نظام الري بالقنوات الذي يسقي البساتين الواسعة. وقد تحدث الشريف الإدريسي في القرن السادس الهجري /12م على دور الخبراء المغاربة في تنظيم هذا النظام المائي[42]. «وماؤها (مراكش) الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة، استخرج ذلك عبيد الله بن يونس المهندس». إن بداية هذا التنظيم كانت «في صدر بنائها»[43] ثم تطور فاستحدثت أساليب جديدة، وتوسع مجال الأراضي المسقية.

إذا كان هذا هو نهاية التطور في العصر المرابطي والموحدي، فإن الإرهاص الأول، بدأت مؤشراته في القرن الثالث الهجري /9م. سادت في كل من قابس وأغمات وسجلماسة، ظاهرة سقي الأراضي الزراعية بنظام السواقي، وانتشر هذا الأسلوب في منطقة الحضنة وشط الجريد، وبدون شك امتد نفس الأسلوب في واحات فزان، والواحات التي تعبرها طرق القوافل من المسيلة إلى تاهرت وسجلماسة. وانبنى نظام السقي على حملات الأنهار «المارة بمزارع هذه الجهات، فقد نشأت فيها «سواقي» تقليديةلا توزع الماء على المزارع

---

(42) الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق ، ج 1 ص 233، (78 من الترجمة الفرنسية).

(43) نفسه والصفحة. ابن سعيد: كتاب الجغرافية ص 125. عز الدين أحمد موسى: النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي، ص 180 وما بعدها. Vanacker (ch): Géographie économique de l'Afrique du Nord, p.672.

والحقول بشكل «تناوبي» وبالمحاصصة وفقا لتقليد جهوي محلي. كما ينظم سقيها بأسلوب آخر هو طريقة «الخطارات»[44]. كما هو الحال في سجلماسة ووركلة ودرعة، ونواحي أغمات. ويتحدث البكري على نظام السقي في حقول مدينة «نفطة» قائلا :«... ثم ينقسم كل نهر من هذه الأنهار الثلاثة على ستة جداول وتتشعب من تلك الجداول سواق لا تحصى كثرة تجري في قنوات مبنية بالحجر، على قسمة عدل لايزيد بعضها على بعض شيئا»[45]. وقد سبق لابن حوقل[46] أن تحدث في القرن الرابع الهجري /10م على ما يشبه هذا النظام المائي في سجلماسة. ويصادفنا في كلام ابن حوقل[47] نص هام جدا على مستوى انتشار الزراعة بالسقي والري التقليدي في المجال الجغرافي المغربي «ومن بأداني سجلماسة والمغرب من البربر يأكلون البر ويعرفونه، والشعير ويزرعونه والتمور والطيبات، وفي أعراضهم أصحاب البرانس المقيمون بين السوس وأغمات وفاس». إن النص يؤكد لنا حقيقة العمل الفلاحي في الجهات التي حددها ابن حوقل، ومن الطبيعي أن يرتبط سكان هاته المناطق بالأرض، وينشأ فيها مجتمع زراعي مستقر إلى جانب شرائح

---

(44) الإدريسي: النزهة، ص 112. وقد اعتبرت الموسوعة الإسلامية (ج4 ص 555 من الطبعة الجديدة بالفرنسية) أن تقنية السقي بالخطارات عرفت منذ العهد الروماني. وفي الجنوب المغربي تحمل اسم «الفجارة» واسم «الخطارة» من واحات فزان شرقا إلى جنوب نهر درعة غربا. أنظر:

Réd:Encyclopédie de l'Islam(N.E.)T.IV; Kanaât)

(45) البكري: المسالك والممالك : فقرة 1190، (ط تونس 1992).

(46) ابن حوقل: صورة الأرض ص99.

(47) ابن حوقل : نفسه والصفحة. لاحظ أن مصطلح «البرانس» قد ورد عند ابن حوقل في اقتباسنا، بمعنى المستقر والمزارع. ثم قارن بما جاء في تحليلنا السابق في الباب الأول لمضمون البتر والبرانس.

من الرعاة. فهل كان هؤلاء المزارعون في الظل واستمروا غائين عن الفعل السياسي المغربي؟ لقد اهتمت نظرية «العصبية» بمجتمع البدو الرعاة وهمشت هؤلاء المستقرين أو اعتبرتهم من الأوزاع الذائبين في مجموعة القبائل المحاربة. مع أنهم قوة بشرية ذات حضور في الحياة التاريخية المغربية. فقد تكلم فقهاء القرن الرابع الهجري، وخاصة ابن أبي زيد القيرواني، بالاعتماد على آراء فقهاء القرن الثالث قبله المنطلقة من أحكام مدونة الإمام مالك، تكلموا على تنظيم كراء الأرض المسقية وغير المسقية، وانتشر تطبيقها في العصر المرابطي ومابعده[48]، حيث توسع نطاق استصلاح الأراضي المغربية. وكانت معالجتهم للمشاكل المطروحة في سياق استغلال الأرض منطلقة من «البيئة المحلية» التي يرون فيها أساسا ضروريا لفتاويهم، الشيء الذي أكده القضاة بتنفيد الأحكام الفقهية في البوادي المغربية. وكانوا يراعون تنوع الجهات واختلاف الأقاليم. فقد انفصلوا على ذلك في فتاويهم وأحكامهم. وهذا مانجده

---

(48) ابن أبي زيد القيرواني : الرسالة وشرحها الثمر الداني في تقريب المعاني، (طبع دار الكتاب - الدار البيضاء) بدون تاريخ ص ص 529-534. ثم أنظر طبعتها الأخيرة بإسم : الرسالة الفقهية، بتعاليق المغراوي ، وتحقيق الدكتور الهادي حمو، والدكتور محمد أبو الاجفان، طبعة دار الغرب الإسلامي، ط 1 بيروت 1986 ص ص220-222. وقد صار الأمر نافذا وجاريا بالحكم القضائي في المغرب، وهذا ما يقرره الشيخ:

محمد بن فرحون : تبصرة الحكام ، ط. 1 دار الكتب العلمية بيروت، مصورة عن الطبعة الأولى الأميرية المصرية 1301هـ ج2 ص ص 265-267. ثم قارن بما جاء عند الشيخ عبد الله بن سلمون الكناني في «العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام». مطبوع بنفس الطبعة التي طبع بها كتاب «تبصرة الحكام» السابقة. ونحيل على ماذكره ابن سلمون في ج 1 ص ص 277-280.

مقررا في المصادر الفقهية، حيث يقول الإمام «القرافي» في وصاياه لفقهاء الافتاء[49]: « وجب اعتبار الحكم في العرف والفتيا، في كل حكم مدركه العادة، فإنه يتغير بتغيرها ... وعلى هذا القانون تراعى الفتاوي على طول عمل ، بل إذا جاءك مستفت من غير إقليمك ، فلا تفتيه على عرف بلدك، وافتيه بعرف بلده، وهذا هو الحق الواضح».

إذن فبالاعتماد على فتاوي الفقهاء الجهوية المعالجة لقضايا السكان اليومية[50]، وبناء على أوصاف الجغرافيين القدماء للطرق التجارية[51]، ووصفهم لاسواق البوادي المغربية، والأنهار والجهات، يمكن لنا أن نرسم خريطة للإنتاج الزراعي المغربي في القرون الخمسة الأولى من التاريخ المغربي الإسلامي. ويضاف إلى ذلك عامل التقسيم الإداري والسياسي الذي عرفه المغرب في مرحلة دراستنا.

تظهر لنا الخريطة الزراعية في المغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري /10م متأثرة إلى حد كبير بالتقسيم القبلي السياسي الذي عرفه المغرب، فالتجزئة إلى إمارات قبلية من أقصى الشمال على البحر المتوسط، إلى تخوم

---

(49) محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الجليل السجلماسي العشاوي: «فتح الجليل الصمد في شرح التكميل المعتمد» (مخطوط خاص) ورقة 117.

(50) نحيل هنا بوجه خاص على فتاوي البوادي المغربية التي جمعت في القرون المتأخرة عن مرحلة دراستنا. وبقراءتها قراءة «تراجعية» يظهر فيها تشابه الوقائع والأحكام، وعليه نعتبر نوازل ابن سهل المعروفة بـ«الأحكام الكبرى» للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل (ت 486هـ/1093م). وقد نشرها مؤخرا الدكتور محمد عبد الوهاب خلاف بالقاهرة 1980 في فصلات متتابعة.

(51) ابن حوقل: صورة الأرض ، ص ص 102-103. ومازالت هذه القائمة القبلية لم تفرد بالدراسة التفصيلية اجتماعيا. وهي في حاجة إلى بحث خاص.

الصحراء الكبرى، ومن المحيط الأطلسي غربا إلى إقليم الزاب شرقا. حيث سيطرت ظاهرة القبائل المستقلة، أو الإمارات القبلية المكونة من «الأحلاف القبلية»، وقد أمدنا ابن حوقل بصورة الجهات التي زارها أو تمر بها طرق القوافل، وجاءت لائحة القبائل التي ذكرها خاصة بالمجموعات المسيطرة والمتحكمة في طرق القوافل التجارية. وهذه القبائل تمارس النشاط الرعوي وأما العمل الزراعي فيأتي في الدرجة الثانية. على عكس المجموعات التي توجد في أحواض الأنهار الواسعة حيث يكون العكس، الزراعة أولا ثم الرعي ثانيا، وفي الغالب لم يكونوا قوة محاربة إلا في حالة الدفاع عن أنفسهم(52).

إن الصورة التي تعطيها المصادر والأبحاث المعتمد عليها في هذه الدراسة عن مناطق الزراعية في المغرب الأقصى، وكذلك عن السكان الفلاحين توضح أن البلاد غلبت عليها «مناطق الرعي» أكثر من «المناطق الزراعية» ولايفسر هذا إلا بغلبة التحرك القبلي وخلخلة الخريطة البشرية على امتداد الفترة الطويلة التي سادت فيها «البداوة القبلية» من العهد الروماني إلى مرحلة دراستنا هاته (القرن الثالث الميلادي إلى القرن الخامس الهجري/11م). فالمسألة إذن لاتعبر عن انعدام «تقاليد زراعية» بقدر ماتعبر عن «تراجع زراعي» وتطور رعوي أو طغيان ظاهرة الحياة الرعوية، أما المدن والمراكز الحضرية في هذه المرحلة فقد اتجهت نحو «البستنة» لانعدام الأمن في البوادي البعيدة عن المدن حيث تحولت أوصارت مجالا رعويا للقبائل الرحل وخاصة في الأقاليم الموالية لجنوب حوض نهر سبو شمالا إلى تخوم الصحراء جنوبا. وهذا كله جعل الاقتصاد الفلاحي المغربي اقتصادا معاشيا.

---

(52) عز الدين أحمد موسى: النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي ص 192، مابعدها.

فالخريطة الزراعية التي ضعتها الباحثة Vanacker [53] واعتمدناها في هذه الدراسة. توضح أن المناطق الزراعية المغربية قبل العهد المرابطي، كانت قليلة جدا مثل بعض المناطق حول مدينة «تلمسان» و«تاهرت» و«وهران» و«إفكان»و«أرشكول» و«وجدة» و«حنين» و«مصب نهر ملوية» قرب جراوة ومركز «عجرد» (السعيدية الحالية) ونعني بالخصوص سهل طريفة. ثم مدينة فاس وحوزها وسبتة والبصرة وأصيلة وطنجة ودرعة وسجلماسة وتارودانت على نهر سوس، وأغمات والمناطق الداخلية العليا لحوض نهري تانسفت وأم الربيع، وكذلك الجهات الوسطى من حوض نهر ملوية مثل منطقة «جرسيف». وتبقى منطقة غمارة والريف في القسم الجبلي الشمالي من المغرب فإنها منطقة زراعية تعتمد أساسا على النظام الزراعي البعلي أي البور وأهلها مستقرون، وتعتبر منطقة مدينة «نكور» أهم إقليم زراعي على مستوي المغارسة والبستنة بوجه خاص، وقد وصفتها الجغرافية العربية بهذه الصفة منذ القرن الثالث الهجري /9م[54]. أما السواحل الغربية للمغرب الأقصى على المحيط الأطلسي، وهي منطقة «تامسنا» حيث «إمارة برغواطة» فقد وصفها البكري[55] بالنظام الرعوي بالإضافة إلى حياة زراعية متواضعة. ونفس الصورة هي التي نجدها عند الإدريسي في القرن السادس الهجري /12م[56].

---

(53) أنظر: Vanacker(CL):Géographie économique de l'Afrique du Nord-p.673.

(54) ابن خرذادبة: المسالك والممالك ، ص 231. ابن حوقل: صورة الأرض ص 79. البكري: فقرة 1279 إلى 1300 وما بعدها. الإدريسي: ص 527، 533.

(55) البكري: المسالك والممالك: فقرة 1377«ويأخذون العشر من الزكاة من جميع الحبوب». G.Marçais:Les Arabes en Berbérie du XI au XIVè siècle, Paris 1913, p.200.

(56) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 236 (طبعة إيطاليا 1978).

والمهم في هذه الخريطة أن المغرب الأقصى شهد تحولا في تاريخه الإجتماعي من القرن الرابع الهجري إلى السادس الهجري، ورافق هذا التحول تطور ملموس في توسيع المجال الجغرافي الزراعي، حيث كانت بداية القرن الخامس الهجري/11م بداية في نفس الوقت في توسيع الزراعة في جميع المناطق سهولا وجبالا.«وكان إنتاج المناطق المغربية قبل الفتح المرابطي ضئيلا، فلا يذكر إلا قمح سجلماسة وقطن مستغانم و«ماسيتة»؟ على مرحلة من فاس، وبعض الإستفادة من الخشب في فاس ، وسجلماسة ، وتين القاط الذي يحمل من جبل الزبيب إلى فاس، ثم تمر وزبيب سجلماسة وجوزها الذي يحمل إلى الصحراء وجنوبها»(57). وبعد هذه المرحلة تغيرت الخريطة الزراعية، وصار المغرب الأقصى في العهد الموحدي يكون المصدر الأساسي لتغذية الأندلس، وبدأت الزراعة الصناعية مثل القطن والكتان وقصب السكر(58) تتحول إلى قوة تجارية رئيسية.

نخلص إلى أن المغرب الأقصى عندما انتقل من المرحلة القبلية التي سادت فيه قبل القرن الخامس الهجري/11م، إلى مرحلة الدولة الواحدة أو السلطة الموحدة المستقرة، أصبح قوة اقتصادية تنمو وتتطور بالإستقرار السياسي وتضعف وتتراجع بتراجعها ، وتراجع وسائل الضبط الإجتماعي فيها في نظمها وانساقها الإجتماعية. لكن يجب أن نسجل حقيقة ثابتة فيه، وهي استمرار «ظاهرة الرعي» التي تطغى فيه على جميع الظواهر مع تفسخ نظام الاستقرار الإجتماعي والسياسي.

---

(57) عز الدين أحمد موسى : النشاط الإقتصادي ، ص 195.

(58) أنظر : نفسه والصفحة. وأنظر كذلك: Paul Berthier: Les Ancieennes sucreries du Maroc et leurs Réseaux Hydrauliques (Etude Archéologique et d'histoire économique). Rabat 1966. pp.43-/2 et 76-85 et 247-265.

وباستفادتنا من الجدول والدراسة الجادة التي وضعها الباحث السوداني الدكتور عز الدين موسى[59]، نلخص الخريطة الزراعية للمغرب الأقصى في نهاية القرن الرابع الهجري /10م على الصورة التقريبية الآتية، التي اعتبرنا فيها أيضا دراسات أخرى غربية[60]، وما أضفناه من المصادر التاريخية والفقهية التي لم يتم استغلالها عند الباحثين السابقين (أنظر الجدول اللاحق المخصص لهذا الهدف، الجدول رقم2).

نهدف بهذا الجدول إلى إثبات أن أرض المغرب الأقصى رغم طغيان الحياة الرعوية، فإن النشاط الزراعي بها كان أيضا متكاملا مع تربية الماشية على اختلاف أنواعها، سواء كانت حيوانات للنقل وخدمة الزراعة على مستوى الحياة اليومية، أو كانت من نوع ماشية اللحوم والألبان والنسيج. ولاحاجة بنا إلى معالجة هذه الجوانب التي كونت تقاليد معروفة في حياة مجتمعنا المغربي القديم (جدول الخريطة الزراعية للمغرب الأقصى).

---

(59) عز الدين أحمد موسى: النشاط الإقتصادي، ص ص 376-383.

(60) نخص بالذكر «بلانهول: Xavier de planhol» في دراسته للأسس الجغرافية للتاريخ الإسلامي، والأستاذ «موريس لومبار: M. Lombard» في أبحاثه المتخصصة عن التاريخ الإقتصادي لحوض البحر الأبيض المتوسط وكذلك «ماس لاتري: M. Latraix» في دراسته الإقتصادية الرائعة حول العلاقات الإقتصادية بين البلاد المسيحية وبلاد المغرب. ثم المقالات الجادة في التاريخ الإقتصادي في العصور الوسطى، التي أمكننا الإطلاع عليها.

الخريطة الزراعية للمغرب الأقصى قبل القرن 5 هـ/11م
مناطق الإنتاج - نوع الإنتاج

نوع المحصول / المنطقة	الرعي		الحبوب		البستنة أو الفواكة		التمور		الزيتون		غابات وأخشاب	قصب السكر		القطن		أعشاب عقاقيرية			أرز	زعفران حناء وكمون	ملاحظات مكملة
القرن الهجري 11.10.9م	ق3	ق4	ق3	ق4	ق3	5.4	ق3	ق 4	ق 3	ق 4	ق4	ق3	ق4	ق 3	4	ق 3	4	5	ق4	ق4	
حوض شلف	+	+	+	+	+	+	−	−	+	+	−	−	−	−	+	+	+	+	−	+	
تلمسان	+	+	+	+	+	+	−	−	+	+	−	−	−	−	−	+	+	+	−	+	
تاهرت	+	+	+	+	+	+	+	+	−	−	−	−	−	−	−	+	+	+	−	+	
فاس	+	+	+	+	+	+	−	−	+	+	−	−	−	−	−	+	+	+	−	−	
حوض سبو	+	+	+	+	+	+	−	−	+	+	−	−	−	−	+	+	+	+	−	−	

(تابع)

شمال المغرب	−	−	+	+	+	+	−	−	+	+	+	−	−	−	−	+	+	+	−	−	
غمارة	−	−	+	+	+	+	−	−	+	+	+	−	−	−	−	+	+	+	−	−	
الريف	−	؟	؟	+	+	+	−	−	+	+	+	−	؟	−	؟	+	+	+	−	−	
أزغار	+	+	+	+	−	+	−	−	+	+	+	−	+	−	+	+	+	+	−	−	
حوض أم الربيع	+	+	−	+	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	+	−	−	+	−	−	
تادلا-داي	+	+	−	+	−	−	−	−	−	−	−	+	+	−	+	؟	−	+	−	+	
السهول الغربية الوسطى	+	+	+	+	−	+	−	−	−	−	؟	−	−	−	−	+	−	+	−	+	
سلا-أنفا	+	+	+	+	+	+	−	−	−	−	+	−	+	+	−	+	+	+	−	+	
تامسنا	+	+	+	+	−	+	−	−	؟	؟	+	−	−	−	−	+	+	+	−	+	

تابع :

حوض تانسفت	+	+	+	+	؟	+	−	؟	−	+	−	−	−	−	؟	· −	+	+	−	+	
أغمات	+	+	+	+	؟	+	؟	+	−	+	−	−	+	−	−	−	+	+	−	+	
حوض نهر درعة	+	+	+	+	؟	+	+	+	؟	+	−	−	−	−	−	+	+	+	−	+	
حوض وادي زيز سجلماسة	+	+	+	+	؟	+	+	+	؟	+	+	−	−	−	−	+	+	+	−	+	
حوض نهر ملوية- جراوة	+	+	؟	+	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	+	−	+	−	−	
أزغار-الهبط	+	+	؟	+	−	+	−	−	؟	+	+	؟	+	؟	+	+	+	+	−	−	
(الغرب)	+	+	؟	+	−	؟	−	−	؟	−	+	−	−	−	−	+	+	+	−	−	

(تابع)

جبال فزاز (الأطلس م)	+	+	-	+	-	-	-	-	-	-	+	-	-	-	-	؟	؟	+	-	-	
جبال درن (الأطلس ك)	+	+	؟	+	-	؟	-	-	-	-	+	-	-	-	-	؟	؟	+	-	-	
حوض نهر سوس	+	+	+	+	+	+	؟	+	-	-	+	؟	+	؟	+	+	+	+	+	+	
تمدلت	+	+	+	+	-	+	؟	+	-	-	-	-	-	-	-	-	؟	+	-	+	
نول المطة	+	+	-	؟	-	-	-	؟	-	-	-	-	-	-	-	+	+	+	-	+	
جهات أخرى ثانوية	+	+	؟	+	؟	؟	-	-	؟	؟	-	-	-	-	-	+	+	+	-	-	المقصود بها الجهات التي لاتمر عليها القوافل التجارية لم نجد عليها دليلا مصدريا

بقي علينا أن نعيد طرح السؤال السابق، بعد إعطاء صورة تقريبية للمناطق الزراعية المغربية، والسؤال ماهو أساس التلاحم والتضامن الإجتماعي هل الأرض الزراعية ثم هل أثمرت عصبية الظل؟

بناء على خريطة مناطق الزراعة المغربية في القرن الرابع الهجري/10 يمكن أن نسجل انتشار «نمط العيش الفلاحي» بمواكبة نمط الرعي والترحال. وارتبطت حياة الزراع المغاربة بالأرض في كل أو معظم جهاته. فتمحور مجال حياتهم في الحقل والبيت والأسرة. وبيوت العبادة (المسجد بوجه خاص). واستبطنت حياتهم قيم الخصب والصبر والأخوة والانكفاء على الجذور والتقاليد المحلية. وتكون للمغاربة مبدأ الارتباط بالأرض يمكن تلخيصه في أن الفلاح المغربي يؤمن بأن «الكرامة في الأرض» فهي مورد رزقه، ومصدر طموحاته وآماله ومكانته الإجتماعية، ومحور علاقاته، ومقر جذوره في الحياة والممات.

فنشأت نتيجة لهذه العلاقات موضوعات محورية بين الإنسان المغربي وأرضه يمكن إجمالها في الأمور الآتية:

1: نوعية الملكية. والتراتب الإجتماعي.

2: نوعية الزراعة وتكوين البنية الإجتماعية فيها.

3: طبيعة العلاقات التضامنية في المجتمع الفلاحي.

4: المجتمع الفلاحي وعلاقته بأنظمة الحكم.

ونود أن نسجل أهمية النقطة الثانية والثالثة بوجه خاص لبنائهما أساسا على عنصر التكوين الأول للنظام الإجتماعي الفلاحي وهو «الأسرة» أو «العائلة» حتى أنه يمكن أن يقال أن أي تجمع بشري زراعي متميز هو عبارة عن «العائلة» المتطورة من «الأسرة نواة التكوين الجماعي في هذا النظام، وكل خارج من العائلة يعتبر غريبا عن المجموعة. فهل تعتبر هذه الظاهرة، ظاهرة

عصبية؟ فعلى المستوى الإجتماعي المحدود، غير السياسي يمكن أن نقول نعم، وأما على المستوى السياسي فلا. وعندما نعالج مسألة ملكية الأرض الجماعية القبلية تتحول العصبية العائلية إلى عصبية جماعية ولكنها لاتتجاوز أبدا حدود مجال الإطار القبلي . فهل يعني هذا أن العصبية الزراعية لايمكن أن تنتج عصبية الدولة؟ الجواب شائك ومعقد. ولعل أوضح فرق بين الرعاة والزراع هنا كامن في مسألة «المجال الحيوي» لكل منهما. فعند «الرعاة الرحل» المجال مفتوح وغير محدود. على العكس عند الزراع المرتبطين بمكان معين فالمجال الحيوي الزراعي مضبوط. فالإطار المكاني للفلاحين حصرهم في مسألة الدفاع بدلا من الهجوم كما نلاحظ عند الرعاة. ولهذا كان من أولويات نظام المجتمع الزراعي هو «الأمن» ولو أدوا في سبيله ثمنا كبيرا، ومن هنا يصبح «الدين » و«التمسك به» أبرز الظواهر الروحية في حياة هؤلاء، وتلعب الظواهر الطبيعية دورا فعالا في توجيه سلوك المزارعين المغاربة، وتؤدي إلى خلق سلوك متأثر بتقلبات الأحوال المناخية السنوية، وقيم روحية متميزة.

فالوقائع التاريخية التي عرفها المغرب في القرن4 الهجري/ العاشر الميلادي، دارت بين القبائل الرعوية من جهة وبين الفلاحين من جهة أخرى، ودارت أيضا بين الأنظمة السياسية الكبرى في هذا العصر، وبين الفئتين الإجتماعيتين السابقتين. فكيف تطورت هذه الوقائع ؟ هذا ما نعالجه في الفصل الثاني من هذا الباب الثاني، الذي خصصناه للقبائل المتحالفة في القرن الرابع الهجري/10م.

لقد كان ابن عبدون[61] على حق عندما قال: «الفلاحة هي العمران، وببطالتها تفسد الأحوال وينحل كل نظام». وقد تعرض المغرب الأقصى لصراع

---

(61) ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، نشره ليڤي بروڤانسال، المعهد الفرنسي، دمشق 1955 ص 5.

مرير في الداخل، ومن الخارج، قلب معادلة الإستقرار الإجتماعي. وأهم مظاهر ذلك تحصين المدن المعروفة آنذاك مثل «فاس» و«سبتة» و«شالة» و«أغمات» و«سجلماسة»و«وجدة» و«جراوة» بالأسوار لتعرضها لهجمات القبائل البدوية. وحملات الجيوش العبيدية والأموية الأندلسية. مما أدى أحيانا إلى تدمير بعضها مثل ماحدث لمدينة «تاهرت» و«إفكان» و«البصرة» بالمغرب الأقصى. فالبصرة المغربية حاول الناصر احتلالها(62)، ولكن زيري بن مناد الصنهاجي خربها(63).

ويظهر من خلال المتابعة المصدرية أن الفلاحين المغاربة في القرن الرابع الهجري/10م لم يكونوا يعرفون ملكية الأراضي الواسعة، واقتصر أغلبهم على الأراضي الصغيرة. ويمكن أن نمضي بعيدا إلى حد أن كثيرا منهم اكترى أرضه، أو اتخدوا وكلاء على أراضيهم، والذي حملنا على هذا الاستنتاج هو إنتشار نظام «المغارسة» و«المساقاة» مما كون جماعة الفلاحين المكترين، وإنتشار نظام «الخماسة». أي استغلال الأرض الفلاحية بتعاون بين طرفين: أحد الطرفي يملك الأرض ويقدم أدوات العمل من «زريعة» وآلة الحفر والقطع، والطرف الثاني هو الخماس يقوم بعملية السقي والحفر والمتابعة من بداية الحرث إلى يوم الحصاد، والدرس والتصفية والتنقية، حيث يقسم المحصول على أن يأخذ المالك للأرض والمقدم لأدوات العمل والزريعة أربعة أقسام متساوية والقسم الخامس يأخذه «الخماس». ونلاحظ أن الخماسة يبنى نظامها هذا على فلاحة الحبوب. أما العمل الفلاحي في المغارسة أو ما يمكن أن نطلق عليه «البستنة» فيتبع في المغرب

---

(62) ابن أبي زرع: القرطاس، ص ص 53-62.

(63) ابن عذاري: البيان 230/1-237، 316/2، ابن خلدون: العبر 156/6. مجهول: مفاخر البربر ص ص 16-18. هـ. ر. إدريس: الدولة الصنهاجية، ج1 ص ص 91-92. •
Lévi-Provençal: Histoire de l'Espagne musulmane, T.II,p.261-262.

الأقصى وخاصة في شماله، نظام التقسيم على أربعة. فالخماسة في زراعة الحبوب، والرباعة في المغارسة، ومن هنا انتشر مصطلح الخماس ومصطلح الرباع[64].

نصل إذن إلى استنتاج - رغم ماقد يتعرض له من ملاحظات- وهو أن المغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري/10م كان أغلب الفلاحين فيه: إما من الملاكين الصغار، أو المكترين أو الذين يقومون بالمغارسة، بمعنى الذين يستثمرون الأرض في مقابل نصيب معين من محصولها ومنتوجها. وننطلق أساسا في هذا الاستنتاج من ظروف العصر الحربية، ومن الأساس المادي الإقتصادي للعامل في الأرض مباشرة، وهو الرباع في نظام المغارسة والخماس في نظام المزارعة، والراعي في نظام «الرعي» حيث نجد الأحكام القضائية في البوادي تحكم له بعدم ضمان ما يضيع له من منتوج مالم يقصر في جهده. كما ننطلق من أن هؤلاء العمال كانوا لايقدمون إلا جهدهم العضلي فقط وخبرتهم الزراعية، ومن خلال متابعة النصوص الفقهية، سواء كانت في كتب الأحكام، أو في مؤلفات النوازل نجد أن معضلة الفلاح المغربي في هذا العصر الذي ندرسه وحتى قبل ذلك هي مسألة «الزريعة» بالإضافة إلى عوامل أخرى، فالزريعة وتوفيرها، كانت تشكل قضية جوهرية في العمل الفلاحي المغربي، ومن دراسة «ملف الخلافات القضائية» بين صاحب الأرض والعامل فيها (الخماس) يمكن أن نصل إلى حقيقة راسخة وهي أن «الإنتاج الزراعي» كان ضعيفا. فالمحصول إذن كان محدودا، ومن هنا لاننتظر أن نحكم بأن المستوى المعيشي كان مرتفعا فالعكس هو الذي كان. ويتأكد هذا بكون الفلاح المغربي كان مهددا بمؤثرات الجفاف والجوائح والكوارث الطبيعية الأخرى. لعل هذه الوضعية هي التي

---

(64) أنظر أبو علي برحال: شركة الخماس، ط . حجرية بدون تاريخ.

تفسر استمرار ضغط صاحب الأرض على العامل فيها، ويظهر واقع هؤلاء الفلاحين المزارعين في القضايا التي يطرحونها على أنظار الفقهاء، مثل السلف قبل الحصاد، وبناء سلفاتهم على المراحل الزمنية الواقعة بين الحرث وإنتاج المحصول. وقد اعتادوا تغطية حاجاتهم الضرورية باعتمادهم على السلف، والمهم أن هذا الوضع العام لايسمح بتكوين «شركة زراعية فلاحية» ذات إنتاج تتجاوز «الإقتصاد المعاشي».

وقد طرحت «شركة الخماس» منذ عهد الإمام «سحنون» في النظام الزراعي المغربي(65). على مستوى الحكم الشرعي، فاعتبرت شركة صحيحة رغم النقاش الذي دار حولها، وجرى بها العمل في كل المجتمع المغربي وكان تبريرها مبنيا على أن : مالك الأرض يقدم أربعة عناصر مكونة للشركة وهي: 1) الأرض ، 2)الحيوان للعمل في الأرض، 3) آلة الحرث من محراث وغيره، 4) الزريعة، أما العامل أو الخماس فيقدم جهده العضلي وخبرته العملية، وهذا هو المكون للخمس في هذه الشركة. فشركة الخماس تمثل المرحلة الأولى في النظام التعاوني الفلاحي في المجتمع المغربي المستقر، وقد انتشر نظامها، وساد تطبيقه في التراب المغربي في مرحلة دراستنا هاته. وهنا نلاحظ أن فقهاء القرن الثالث الهجري/9م كانوا يعتبرون «الخماس» أجيرا. أما مابعده فقد اعتبروه «شريكا» وهذا ما يفسر تضارب الأراء وتطبيقها في القرن الرابع الهجري/10م والخامس كذلك أي 11م. حيث لم يستقر الموقف نهائيا على اعتبار الخماس أجيرا أو شريكا. مما جعل الفلاحين المغاربة يطرحون أسئلة دقيقة وعديدة في هذا الجانب على فقهاء عصرهم في مجموع مراكز الفكر بالغرب

---

(65) مالك بن أنس : المدونة الكبرى، برواية سحنون ج 4 ص ص 2-113.

الإسلامي كله. نجد الكثير منها عند ابن رشد الجد في فتاويه[66] و في بيانه[67]، وقد أجملها هي وغيرها الإمام الونشريسي في معياره[68].

وبدراسة هذه النصوص كلها على أساس تاريخي، يتبين لأول وهلة أن الفلاحين المزارعين، يأتون في منطقة الضغط الإجتماعي، تعتصرهم جميع القوى من قبائل الرعاة الرحل، والسلطة السياسية القائمة في العصر. وكذلك ملاكوا الأراضي. فهل يحق لنا أن نستنتج أن هؤلاء لايمكنهم أن يكونوا «عصبية» كما فعل البدو الرعاة؟ أم أن هذه «العصبية» يمكنها أن تتكون، ولكنها ظلت في الظل؟ وهل عدم ظهورها هو الذي أبقى الخط البياني للفلاحة المغربية والإنتاج الزراعي في تراجع كلما طغت الظاهرة الرعوية؟

نترك هذة الأسئلة مفتوحة لنعالجها في ثنايا الفصل اللاحق (الفصل الثاني من الباب الثاني). وننتقل مباشرة إلى أهم القضايا الجوهرية المؤثرة على الوضع الداخلي الإجتماعي للمغرب منذ أواخر القرن الثالث الهجري /9م. فنسجل مايلي:

أولا: إن الخلاف بين قبائل «زناتة» والعبيديين الفاطميين ابتدأ منذ بداية الإنتصار الشيعي العبيدي، واستمر بعد ذلك. فبعد وصول «عبيد الله

---

(66) ابن رشد : فتاوي ابن رشد، تحقيق د المختار بن الطاهر التليلي، ط دار الغرب الإسلامي في 3مجلدات بيروت 1987 .

(67) ابن رشد: البيان والتحصيل، تحقيق مجموعة من العلماء الأعلام في المغرب العربي، ط 2. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988. وقد استفدنا من جميع أجزائه 18.

(68) أحمد الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب.(خرجه جماعة من الفقها ء بإشراف الدكتور محمد حجي). نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية . الرباط 1981 في 12 المجلد.

المهدي» إلى رقادة سنة 297هـ/910م. رجعت «زناتة» إلى «تاهرت» وحاصروا حاكمها العبيدي «دواس بن صولات اللهيصي»[69] فيها، فكلف الخليفة العبيدي عبيد الله المهدي، شيخ المشايخ «هارون بن يونس» بفك الحصار على مدينة «تاهرت» وتمكن القائد العبيدي من إلحاق الهزيمة بـ«زناتة» المحاصرين لدواس بن صولات في تاهرت، وقتل كثيرا منهم[70]. وتمكن القائد العبيدي من فك الحصار على «تاهرت» بعد حملة قوية كان لها وقعها في قبائل زناتة بعد 25 قعدة 297هـ/ 910م[71].

ثانيا: انتشار قطع الطرق، وإفساد السابلة في المناطق الغربيةو بمواطن زناتة من الزاب شرقا إلى حوض نهر ملوية غربا، ولم تتمكن الدولة العبيدية في آخر القرن الثالث الهجري/9م من السيطرة الحقيقية على هذه الجهات، بحيث استمرت تكون عقدة أمنية للدولة العبيدية منذ البداية إلى النهاية. وهذا ما جعل الوضعية في هذه الجهة الغربية غير مفهومة في واقعها التاريخي لهذه المرحلة، ولذلك قال المؤرخ التونسي محمد الطالبي في دراسته عن

---

(69) ابن خلدون: العبر 179/6، وتعتبر قبيلة ولهاصة ضمن مجموعة قبائل «نفزاوة» البترية.

(70) ابن عذاري: البيان 160/1، فرحات دشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب (بالفرنسة) ط / تونس..S.T.D سنة 1981 ص 134 هامش 111. ابن خلدون : العبر 69/4. وهارون بن يونس من كتامة تكلم عليه ابن خلدون فجعله من كبار القواد العسكريين في بداية الدولة العبيدية «شيخ المشايخ» في حين القاضي النعمان في افتتاح الدعوة لمح إليه فقط. وكيفما كانت وضعية الرجل فإنه من كبار القادة العسكريين للدولة الجديدة القائمة (العبيدية). أنظر ماجاء عند الباحث الجزائري موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية. ص ص 264،245 وخاصة ص 351.

(71) الداعي إدريس : عيون الأخبار (تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب)، ط. دار الغرب الإسلامي ص ص 178-214،179.

الأغالبة: «فكان جانب كبير من هذا المغرب الإسلامي يشكل في القرن الثالث هـ/9م، فسيفساء شاسعة محيرة، يكاد تشعبه وعدم استقراره وتشابكه يتحدى الإدراك[72]». وهذه الشبكة المعقدة سياسيا وعسكريا لايتأتى ضبطها وتفسير أوضاعها وتقلبات مواقفها، بنظرية العصبية بقدر ما يمكن الإعتماد على المحددات الإجتماعية والإقتصادية. فالمنطقة تمثل نقطة وصل لحركة القوافل التجارية، ونستدل على ذلك بالدور الذي كان الأمراء الرستميون يقومون به في هذا الصدد، ويقول ابن الصغير أثناء حديثه عن بيعه الإمام أبي حاتم «يوسف بن محمد» (أبو اليقظان) (281هـ/894م-294هـ/907م) فقد توفي الامام الرستمي أبو اليقظان، وابنه المبايع بعد والده كان غائبا عن العاصمة تاهرت، حيث كلفه والده المحتضر بمهمة «خفارة القوافل» المارة بمجال النفود القبلي للدولة الرستمية في آخر القرن الثالث الهجري/9م. فخرج «في جيش مع وجوه زناتة ليجيروا قوافل، قد أقبلت من المشرق، وفيها أموال لاتحصى، قد خافوا من قبائل زناتة. فبينا أبو حاتم في القوافل قد خرج إليها، إذ وافته خاتم رسل بموت أبيه وعقد الإمارة له»[73].

ورافق هذا الوضع المضطرب استفحال وانتشار الثورات المحلية في الجهات الغربية كلها[74]. وكلف الخليفة العبيدي أوثق رجاله عنده وهو «أبو

---

(72) محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 384 ثم قارن بما جاء في هذه الدراسة (ص 386) عندما قال: «لم يكن للإمامة الإباضية الرستمية والإمامة السنية الأغلبية حدود مائعة فقط، ومائعة جدا- وهذه ظاهرة اشتركت فيها جميع مملكات العهد الإسلامي الوسيط- بل إنها حدود تشابكت إلى حد لايمكن ضبطه. (ص 387 وهامش 100).

(73) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين، ط. دار الغرب الإسلامي. بيروت 1986 ص 104، ويتأكد هذا بما جاء عند المالكي: الرياض ج 2 ص 341 وظاهرة قطع الطرق تظهر في فترات السلطة المحلية والمركزية في التاريخ المغربي عموما.

(74) ابن عذاري : البيان 160/1.

عبد الله الداعي» بالخروج إلى القضاء على الفتن وإخضاع زناتة التي تزعمتها، ويصف ابن عذاري[75] مهمة الداعي في منطقة بلاد زناتة المغرب الذي خرج لتمهيده بهذه الحملة سنة 298هـ/911م» تجول في بلاد البربر وحارب صدينة»[76]. فكانت منطقة «وطن زناتة» في القرن الثالث الهجري /9م عبارة عن فسيفساء شاسعة من الإمارات القبلية، متشعبة في آرائها ومواقفها وزعامتها. وكان هؤلاء بسطاء أميين، ولاشك أنهم لم يكونوا يفهمون شيئا عن معنى «الصراع المذهبي» الذي روجه رجال الفكر في هذا العصر وهما القرنين الثالث والرابع الهجري /9-10م. وكل ما يمكن أن نسجله عليهم في هذا الصدد هو «تفهمهم لمعنى الحرية» التي لاتحكمها القيود وكأنهم بهذا يؤمنون «بالمعنى الكوني للحرية»، ولعل أقرب شعار ديني إسلامي يعبر على هذا الاتجاه هو «الإتجاه الخارجي» ومن هنا نطرح السؤال الآتي: هل ثورات قبائل الجهات الغربية ضد العبيديين الشيعة، وحتى ضد التدخل الأندلسي الأموي تمثل وتكون ثورات خارجية؟.

---

(75) ابن عذاري: البيان 162/1. الداعي إدريس: عيون الأخبار (تاريخ الخلفاء الفاطميين)، تحقيق محمد اليعلاوي، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985 ص ص178-179.

(76) الإشارة إلى «صدينة» تعني تجمعا صغيرا مكونا من بعض قبائل زناتة بإقليم تاهرت. فابن عذاري يجمل ما فصله الداعي إدريس في عيون الأخبار (ص 179) عندما أشار إلى قبائل زناتية ثائرة ورافضة لطاعة أوامر العبيديين وعاملهم بتاهرت «دواس بن صولات» رغم أن المصدر الفاطمي لم يذكر إسم «صدينة». قارن بما جاء عند فرحات دشراوي: في دراسته «الخلافة الفاطمية» : ص 134 وخاصة هامش 111 (ص 45)، وبما جاء عند الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي 83/3 وهامش 58، وقارن بما جاء عند الدكتور موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، طبعة الجزائر 1979 ص ص 349-351. الدكتور محمود إسماعيل : الخوارج ص 229-235.

إن الجواب يجب أن يبنى على قاعدتين الأولى قاعدة داخلية تعتمد الإطار الإجتماعي وتنظيماته، والثانية كلية تكاد تكون فوقية يوجهها المفهوم العام للدين المؤطر للجماعة الكبرى في هذه الجهات الغربية. فبالنسبة للقاعدة الداخلية لانجد إلا مفهوم «التجمع القبلي» بروحه الاستقلالية. وعلى هذا الأساس يكون مفهوم «الثورة معياريا» بحيث يختلف أساس الثورة، وسبب «الالتياث والخروج» من تجمع قبلي إلى آخر. هو المفهوم المحلي للظلم والحكم. وهذا ما يفسر تعدد المواقف في ثورات القبائل جزئيا. ومن هنا يكون «الظلم» الذي ثارت هذه القبائل ضده هو ظلم مباشر، حيث اعتبروا الهجوم على نسائهم وأموالهم يستحق الإنتقام والثأر له. والأساس أو القاعدة الثانية هي التي تنظر إلى الأمور نظرة كونية وعامة، بحيث تفسر المسألة بـ«صراع المذاهب» أوصراع الأفكار من نظرية خارجية وشيعية وسنية، فتلك رؤية مثالية تجريدية، تطمس الواقع المحسوس في المثالي التجريدي، بل وتحول صراع الجدل النظري إلى حركة فعلية. وهذا من زاوية بحثنا يحول مجرى التحليل التاريخي من مسار تطوره المباشر إلى سياق تطور النظريات، وصراع الأفكار الذي لايجسد في الواقع إلا بعد مروره في مراحل تاريخية طويلة أحيانا.

نعم الإطار أو المظهر الخارجي لحركة مجتمع هذه الجهات الجنوبية والغربية لمجال نفوذ العبيديين الشيعة، هو «اللون الخارجي» أي «كان حزب الخوارج هو الممتد في نواحي واسعة متقطعة من مشارف تلمسان إلى مشارف برقة»[77]، ومناطق سجلماسة، حيث «بنو مدرار» وبلاد تامسنا

---

(77) محمد الطالبي: الدولة الأغلبية ص 384.

حيث برغواطة[78]. ولكن على المستوى الداخلي البنيوي كان الوضع القبلي والإقتصادي والتركيب الإجتماعي للسكان هو المتحكم في مواقف هؤلاء، مما يحملنا على القول بأن الكلام على حدود «إمارة رستمية» أو«إمارة نفوسية» أو «إمارة مدرارية» أو «إمارة برغواطية» من العمليات التي لامعنى لها في التاريخ السياسي لهذه الكيانات. وإنما يمكن أن نتحدث عن علاقات روحية وتجارية ونفعية في مجال واسع منفتح قابل لوجود نماذج متعددة متقلبة في مواقفها ومتضادة في مصالحها. وبدراسة المصادر الخارجية في المغرب، وقراءة الأبحاث الحديثة في نفس الموضوع، من شأنها أن تعطي هذا التصور. والمهم أننا نخلص إلى وجود خريطة نموذجية للتبعثر والشتات، تتلون بتنوع المصالح وإلى تفوق الأنظمة الكبرى الناشئة في المنطقة.

وهكذا أهمل الباحثون المضمون الإجتماعي، في قراءة التاريخ. الأنظمة المستقلة ببلاد المغرب، وأدى ذلك إلى إدماج الحدود الإيمانية في الحدود الجغرافية. ولم يعطوا للخصوصية القبلية المغربية حقها في نظام التجمع وتفسيره على أساس جغرافي اقتصادي نمطي، فالحدود الإيمانية في القلوب[79]، والحدود السياسية على الأرض والتراب. ونملك نصا تاريخيا رستميا هاما جدا يويد المضمون «الإقتصادي - السياسي» لهذا الوضع، فقد قال الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمان (171هـ/789م-208هـ/824م): «لولا أنا ومحمد بن جرني ويبيب بن زلغين، لخرب بيت مال المسلمين: أنا بالذهب، ومحمد بن جرني بالحرث،

---

(78) د. محمود إسماعيل: الخوارج بالمغرب ص 221. مغربيات (بحث) الحقيقة البرغواطية، ص 63. محمد الطالبي: دراسات في تاريخ إفريقية، تونس 1982 ص ص 13-80 (النص في القسم الفرنسي من هذه الدراسات).

(79) م. طالبي : الأغالبة، ص 389.

وابن زلغين بالانعام»[80]. وقد ذكر الشماخي ملكية الشيخ الإباضي «يبيب» من الماشية، فقال : أنه كان له «ثلاثون ألف ناقة، وثلاثمائة ألف شاة، وإثنا عشر ألف حمار»[81]. وبمتابعة المصادر الإباضية تبرز أمامنا أسماء كثيرة من ملاكي الأغنام في التاريخ الرستمي، ومنها «أبو منصور إلياس» الذي كانت غنمه كثيرة التناسل لم ينقصه شيء منها بل تزايد عددها منذ أن انتقل من الديانة النصرانية إلى الإسلام[82].

ومن الواضح أن الروابط الإجتماعية في هذا النظام لايمكن أن تتجاوز المضمون الروحي إلى المضمون الترابي، ولعل هذا مايفسر اعتراف خوارج جبل نفوسة بإمامة بني رستم بتاهرت، وأدائهم الضرائب الخراجية الشرعية لإمام تاهرت، وهذا ما أكده الجغرافي اليعقوبي[83]، «ولايؤدون خراجا إلى سلطان، ولايعطون طاعة إلا إلى رئيس لهم بتاهرت، وهو رئيس الإباضية يقال له عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم» وقد أكد هذا المؤرخ المصري في العهد الطولوني وهو «البلوي» الذي ألف كتاب «سيرة أحمد بن طولون في حوالي 330هـ/941م فقال إن بلاد إلياس النفوسي[84] «بمعزل عن الناس، ممتنع لنجدته وكثرة أهله وقوتهم...ولم يؤد النفوسي إلى ابن الأغلب طاعة قط»

---

(80) الشماخي أبو العباس أحمد بن سعيد (ت. 928هـ): كتاب السير، طبعة حجرية بقسنطينة الجزائر 1301هـ ص 205.

(81) الشماخي: السير ص 204.

(82) الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد (ت 670هـ): كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة 1394هـ/1974، ج2 ص 297 وص 330.

(83) اليعقوبي : البلدان ص 346 (207).

(84) البلوي أبو محمد عبد الله بن محمد المديني: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، ط . دمشق 1358هـ ص 254.

وهذه المسألة «الضريبية» أو «الخراجية» أثارت نقاشا كبيرا بين فقهاء العهد الأغلبي بالقيروان، وكان رأي الإمام مالك [85] الذي يصدر أحكامه في القرن الثاني الهجري /8م. والذي يعتبر في المغرب أساسيا للنظام الفقهي المطبق على أوسع نطاق ، كان يرى وجوب فرض الضرائب من القيروان، باعتبار هذه المدينة هي مركز «الشرعية»، وبنى الإمام مالك رأيه على «أن الخوارج خرجوا على التأويل» [86]. ولذلك كان الإمام الشرعي هو الأمير الأغلبي في القرن الثالث الهجري /9م. ولهذا تعرض جباة الدولة الأغلبية لمقاومة صارمة في المناطق التي خضعت لهم وكان سكانها من المؤمنين بالمذهب الخارجي وخاصة في الجنوب من بلاد إفريقية [87].

لكن، ورغم كل شيء نطرح السؤال الضروري وهو كيف كان التعايش بين الخوارج وغيرهم؟ الجواب يأتي من المصادر المعاصرة [88]، التي تحدثنا عن وجوده وإن كان متفاوتا من حيث المرونة أو الشدة، كلما اتجهنا جغرافيا من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، وهذا بطبيعة الحال يتبع خط نمط العيش من مناطق الزراعة والإستقرار إلى مناطق الرعي والترحال. كما تأثر تعايش الخوارج مع غيرهم من المجموعات الأخرى بتطور الإتصال

---

(85) مالك بن أنس: المدونة الكبرى برواية سحنون، ج 2 ص ص 46-47.

(86) نفسه ص 47.

(87) محمد الطالبي: الأغالبة ص ص 391-395.

(88) مالك بن أنس: المدونة الكبرى، ج 2 ص 48. ابن ابي زيد القيرواني: الرسالة ص .النوادر والزيادات ورقة 37. ثم قارن ما رآه الدكتور محمد الطالبي في دراسته: الدولة الأغلبية، ص 393 هامش 120 ويعتبر هذا الهامش أساس فكرتنا في الموضوع.

والتعارف وتشابك المصالح الدنيوية، ويمكن أن نستدل على هذا بتغير موقف فقهاء القيروان منذ عهد الإمام سحنون (ت 240هـ/885م) الذي حكم في ولايته للقضاء بطرد الخوارج من جامع القيروان، ومنعهم من الإجتماع فيه[89]. وفي المرحلة العبيدية عندما قامت ثورة «أبي يزيد الخارجي» المشهور بصاحب الحمار، فقد تغيرت نظرة فقهاء القيروان إلى الخوارج. وصاروا يرون: «الخروج مع أبي يزيد الخارجي، وقطع دولة بني عبيد فرض لازم، لأن الخوارج من أهل القبلة، لايزول عنهم إسم الإسلام، ويورثون ويرثون، وبنو عبيد ليسوا كذلك، لأنهم مجوس زال عنهم إسم الإسلام»[90].

وعلى المستوى التجاري نسجل أن القوافل التجارية الرستمية كانت تعبر طريق «تاهرت — القيروان» في ظروف أمنية تدل على وجود علاقات تجارية سلمية لاتخضع للخلاف المذهبي بين الأغالبة السنيين، والرستميين الخوارج الإباضية. بل وأكثر من هذا، أن الأغالبة ارتبطوا بمملكة «غانا» عن طريق «سجلماسة» المدرارية الصفرية. فكان طريق القيروان-سجلماسة، هو الطريق الرئيسي لتجارة القوافل بين المشرق الإسلامي وبلاد الذهب في إفريقيا جنوب الصحراء[91]. في القرن الثالث الهجري/9م. وقد برز هذا النشاط التجاري في أراء الفقهاء القيروانيين لهذا العهد، فالإمام سحنون كان يرى أن أجرة القاضي لايأخذها من الأمير الأغلبي تورعا «لأن كسبه كان من

---

(89) القاضي عياض: ترتيب المدارك (ترجمة الإمام سحنون بن سعيد) ج 4 ص 60. المالكي: رياض النفوس ج 345/1 ومابعدها (الترجمة 126) من طبعة دار الغرب الإسلامي.

(90) المالكي: رياض النفوس، ج 2 ص ص 297-298 (ط. دار الغرب الإسلامي) .

(91) الإصطخري: المسالك والممالك ص 37 وص 46.

بلاد السودان»[92]. ونرى أن هذه العلاقات السلمية التي بين الإمارة الرستمية وجيرانها من الإمارات المستقلة في بلاد المغرب، لايمكن تفسيرها إلا بالطرق التجارية، فهي المؤسس الحقيقي للروابط السلمية رغم الإختلاف المذهبي بين تلك الإمارات. «وكان هذا شأنهم مع الأدارسة وصفرية سجلماسة وأمويي الأندلس ... وتمكنوا من إقامة علاقات طيبة مع أهالي السودان الوثنيين»[93].

فالجهات الغربية بالنسبة لمجال نفوذ «الخلافة العبيدية» لاتخضع لسلطة سياسية واحدة، كما أنها لم تكن متمذهبة كلها بالمذهب الخارجي، بالإضافة إلى أن «الجسم الإجتماعي» لم يكن واحدا، على مستوى القبائل واتحاداتها وأحلافها، رغم أن الظاهرة الزناتية هي الواضحة في المنطقة. ونجد هذه الصورة عند اليعقوبي[94] الذي زار المنطقة في آخر القرن الثالث الهجري /9م (حوالي 263 هـ وسنة 276هـ/876م.889م). وجاءت الصورة عنده: أن الجهات الغربية عبارة عن فسيفساء سياسي، وبشري متنوع، فهناك إمارة «بني مسرة» بمدينة «أوزكي» في نواحي سعيدة. وإمارة بني «مسالة» من هوارة بواد يعرف بإسمها. وهؤلاء ضد أمير تاهرت الإباضي. وهناك إمارات علوية شيعية زيدية، مثل إمارة بني محمد بن سليمان. وهناك إمارة إبراهيم البربري المعتزلي في مدينة «ايزرج» وهو من هوارة المستقلة عن تاهرت رغم قربها من العاصمة الرستمية، وهناك إمارة «مغيلة» بجبل «الونشريس» وهي ليست إباضية، وغير خاضعة للنفوذ الرستمي، وفي الشرق وإلى الجنوب من مدينة متيجة توجد «إمارة هاز» وأهلها ليسوا إباضيين، بجوارها «إمارة بني برزال» وهؤلاء

---

(92) القاضي عياض: ترتيب المدارك ج 4 ص 79 (ترجمة الإمام سحنون).

(93) جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 57.

(94) اليعقوبي: البلدان ص ص 350–353 ثم ص ص 355–360.

خوارج إباضية. وفي الجنوب شرقا بوركلة تنتشر القبائل الزناتية الإباضية، إلى جانب هوارة وصنهاجة، وعناصر أخرى من الأعاجم الروم والأفارق.

وحسب اليعقوبي فإن إقليم «الزاب» كان يمثل بذاته قسما إداريا قاعدته «طبنة» وأنه كان مقسما إلى أقسام إدارية أصغر. أنفرد بكل قسم منها في نهاية القرن الثالث الهجري/9م بيت أوجماعة من العرب أو البربر، وهم في الغالب خاضعون لعامل إقليم الزاب بطبنة. وفي أخر كلام اليعقوبي عن «الزاب» يقول(95)«ومدينة «أربة»، وهي أخر مدن الزاب مما يلي المغرب في أخر عمل بني الأغلب،ولم يتجاوزها المسودة». وإلى شمال هذه المدينة تقع مدينة «سطيف» وإلى غربها مدينة «المسيلة». وكانت المسيلة من مدن «الزاب» ومن مدن الأغالبة، ومن هنا انتهى الدكتور حسين مؤنس(96) إلى أن «حد إقليم الزاب غربا هو نهر «شلف» ... وأن هذا المجرى يبين لنا حد ولاية إفريقية من ناحية الغرب بأقسامها الثلاثة طرابلس وإفريقية والزاب» فكانت منطقة الزاب تمثل أهمية قصوى في تاريخ أي سلطة حاكمة في القيروان وفي أمنها خلال العصور الإسلامية الأولى في المغرب(97).

---

(95) اليعقوبي: البلدان ص ص351-252. م. الطالبي : الأغالبة ص 287 هامش 165. وزالت هذه المدينة سنة 324هـ/936م.

(96) حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته ج1 ص 209. ويعرف المؤرخ «البلاذري» في الفتوح ص 327 بلاد الزاب في القرن الثالث الهجري/ 9م أي حوالي 279هـ/ 889م. فيقول: «الزاب وهو من القيروان على مسيرة أكثر من عشرة أيام».

(97) نسجل هنا مبدئيا أن المؤامرة الأغلبية، لاغتيال إدريس الأول انطلقت من منطقة الزاب. «فحاول إبراهيم بن الأغلب أول الأمر إخضاع مملكة الأدارسة بالسلاح انطلاق من الزاب». محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 407 وهامش 167.

وعلى المستوى البشري السكاني، فالجغرافي اليعقوبي[98] يذكر أن قبائل «هوارة» هي أهم سكان جبال إقليم الزاب، ونفس القبائل التي نجد البكري[99] في القرن الخامس الهجري /11م يذكرها نقلا عن الوراق الذي يصدق وصفه للمنطقة على آخر القرن الرابع الهجري/10م. ويحتل جبل الأوراش وكذلك جبل نمنشة، وقد مهد للمقاومة والثورة دائما، في كامل التاريخ القديم والوسيط»[100] وكانت «هوارة» تحتل كذلك سلاسل الجبال التي يمتد معها الأوراس إلى الشمال الغربي، أي جبل هدنة. ويلاحظ الأستاذ محمد الطالبي[101]«أن هياكلهم (سكان جبال الأوراس) الإجتماعية لم تتغير كثيرا منذ العصور القديمة، وقد بقي تنظيمهم خالصا بصورة خاصة، في ناحية لايستقر بها إلا قليلا جدا ... فورثت القيروان بيزنطة، وحملت على مواجهة وضع مماثل في ناحية خلفت فيها الإباضية مذهب دونات، بصفته مذهبا للمطالبة والمعارضة».

ابتداءا من الجهات الغربية لولاية إقليم الزاب ظهرت في آخر القرن الثالث الهجري /9م، اضطرابابت وتحركات القبائل البربرية، لعدة أسباب يأتي في مقدمتها:

1) الكوارث الطبيعية. فمنذ زلزال سنة 267هـ/880م. ففي هذه السنة- «كانت زلزلة عظيمة بالشام ومصر وبلاد الجزيرة، وإفريقية والأندلس، وكانت

---

(98) اليعقوبي: البلدان ، ص 351 حيث سمى أهم البطون الهوارية مثل بني سمعان، وبني ورجيل.

(99) البكري: المسالك والممالك: ص 144، والفقرات 1213، 1215، 1217 من ط تونس 1992. وقد أشار البكري إلى بعض بطون قبائل مكناسة فقرة 1229.

(100) محمد الطالبي: الأغالبة ، ص 284.

(101) محمد الطالبي: الأغالبة، ص 284.

قبلها هذه عظيمة»[102]. والجفاف الذي أصاب المنطقة قبل ذلك بثماني، سنوات، وأدى إلى مجاعة كبرى جعلت المؤرخين[103] يصفون الوضعية بأن «الناس أكل بعضهم بعضا».

2) والسبب المباشر الثاني هو الضغط العسكري المباشر الذي كان الجباة يمارسونه على سكان هذه الجهات. حيث ظهر في آخر القرن الثالث هـ/9م أن الجباية كانت دائما تتم بتغطية عسكرية.

3) تمردات القبائل في ولاية الزاب مثل «لواتة» و«وزداجة» و«هوارة» وقد درس هذه المسألة بتحليل رائع الأستاذ محمد الطالبي في دراسته عن الإمارة الأغلبية[104].

يتضح من خلال هذه الوضعية القلقة سياسيا وإقتصاديا وإجتماعيا بضرب «الإمارة الأغلبية» في آخر القرن الثالث الهجري /9م، أن منتوجها التاريخي لايكون إلا «وضعية متفجرة» على كل المستويات ممتدة في المنطقة المغربية كلها، ونترك الإمارة الأغلبية مع صراع الوجود والعدم. وننتقل إلى المناطق الواقعة غرب إقليم الزاب، حيث المنطقتان التي يطلق عليهما كتاب عصر دراستنا «المغربين الأوسط والأقصى». فكيف كانت الوضعية؟ وعلى ماذا عبرت تاريخيا؟ هذا ما خصصنا له الفصل الثاني من الباب الثاني من هذه الدراسة .

(102) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ط. صادر بيروت 1979. ج7 ص 361.

(103) ابن عذاري: البيان، ج 1 ص 116 و ص 117، حيث قال: «وفي سنة 260هـ كانت المجاعة العامة بالمشرق والمغرب، والوباء والطاعون». النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، طبعة المجلس الأعلى للثقافة (الهيئة المصرية العامة للكتاب). مركز تحقيق التراث. القاهرة 1983. ج 24 ص 130.

(104) محمد الطالبي: الأغالبة ص ص 314-323، و هامش 59.

الفصل الثاني من الباب الثاني

القبائل المتحالفة والتشكل الجديد للمغربين الأوسط والأقصى في بداية القرن الرابع الهجري /10م

(رصد مرجعي) و (متابعة وقائعية)

الفصل الثاني من الباب الثاني
القبائل المتحالفة والتشكل الجديد للمغربين الأوسط والأقصى في بداية القرن الرابع الهجري/ 10م.

« لا تصبح المؤثرات الجغرافية لها معنى، وذات أهمية قصوى في التاريخ، إلا إذاروعيت فيها معطيات اقتصادية واجتماعية وثقافية فالموقع الجغرافي للجهات الغربية لإفريقية العبيدية منذ آخر القرن الثالث الهجري 9/ م، إلى أواخر القرن الرابع الهجري 10/ م. اختلف تاريخيا بمعناه الاجتماعي، عما كان عليه أيام الإصلاح «الديقليدياني» في آخر القرن الثالث الميلادي وبداية الرابع (284 م- 305 م). والاختلاف في كون روما لم تعد تجد نفسها سياديا في المنطقة، أما في عصر دراستنا فالحضور التاريخي للسكان المحليين هو الذي يصنع التاريخ من أجل الوجود بتنظيم إسلامي. فهل هي «الحرب الأهلية» من أجل إبراز الذات والبرهنة على التشكل الجديد؟ أن نحن أمام مجتمع يتساوى أفراده بالنظر إلى الحكم الإسلامي مبدئيا، ولكن في الواقع وحقيقة الأمر يتميز أفراده بوجود فروق اجتماعية واقتصادية؟

أهم ما نسجله مبدئيا هو وجود «تجانس ثقافي» بين عناصر السكان في منطقتي المغرب الأوسط من الشمال على البحر المتوسط والجنوب في تخوم الصحراء. هنا على مسرح هذا الإطار الجغرافي نلمس تنازع الموروث القديم الذي ترسخ عبر قرون طويلة من التاريخ، مع البديل الإسلامي الشرقي بخارجيته وسنيته وشيعته، فكان ولابد أن تثمر «انبثاق تاريخي جديد» للإنسان والمكان. ومن خصوصية هذا الإنتاج التاريخي أن يكون موسوما بطابع فضاء المنطقة جغرافيا.

لقد اخترق الإسلام مروحة المغرب الأوسط بعد أن تركزت عليها البداوة العابرة من الصحراء الشرقية الى الشمال. فاتسعت رقعة النزاع واستفحلت خطورة الصدام التي عبرت (من زاوية الرؤية الاقتصادية الدولية لحوض البحر الأبيض المتوسط) عن الوجود الفعلي المتحرك للعامل الإسلامي المتحكم بقوة في تاريخ غرب بحر الروم في القرنين الثالث والرابع الهجريين /9-10م.

تحكم التوجيه الإسلامي في تاريخ المغرب منذ انتصار حركة الفتح في القرن الأول للهجرة، كما سبق أن حللناه في الباب الأول من هذه الدراسة. ورغم كل شيء فقد استمر الإرث التاريخي قائما في البلاد والعباد. فالبلاد بجغرافيتها الطبيعية من تضاريس ومناخ ونبات ونظام مائي، ما زالت وستبقى توجه حياة العباد الذين ارتبط تاريخهم بها. ولا يتأتى ضبط هذا التاريخ الا بتحديد هذا الإطار الجغرافي لهذه الجهات الغربية في مرحلة بحثنا على أساس ما تأثرت به في المرحلة السابقة:

أ-المجال الجغرافي للقبائل الحلفية في المغرب الأوسط:

في العصر الروماني كانت المنطقة الجغرافية الممتدة غرب الإقليم الجبلي لنوميديا، تعرف باسم «موريطانيا القيصرية»، وفي القرن الرابع الميلادي (305 م) قسمت هذه المنطقة إداريا الى قسمين إداريين: ولاية سطيفية في الجهات الشرقية من موريطانيا القيصرية، وولاية قيصرية من شرشال إلى نهر ملوية. وفي العصر البيزنطي «تلاشى تقريبا من خريطتهم السياسية هذا الجزء الغربي من موريطانية القيصرية أي المغرب

الأوسط» [1]. وهذا لا يفسر إلا بخضوع هذه الجهات لحركة حرة خاضعة لتحركات القبائل المغربية، منذ أن دخلتها قبائل الجمالة، بقيادة «الحلف اللواتي - الهواري» قبل الفتح الإسلامي، الذي سيتحول بعد الفتح الإسلامي إلى "حلف لزناتة»، فهذه الجهات مفتوحة جغرافيا على شكل مروحة، تخترقها المسالك من الشمال إلى الجنوب، وكأنها مهيأة لتكون مناطق للعبور نحو الصحراء الإفريقية، كما أنها تكون كتلا جبلية معزولة متمايزة على شكل شواهد لتأثير التعرية الطويلة زمنيا. تخترقها المسالك التي تعبرها القوافل التجارية، مما جولها إلى مسالك طرقية، وجعلها أماكن للاعتصام بها، ومراكز لتجمعات قبلية بدوية، ربطت نشاط حياتها وتجمعاتها البشرية بهذه الجهات الجبلية، لما تحصل عليه فيها من فوائد مادية ومصلحية وتضامن اجتماعي. وتبقى مسألة التحديد الجغرافي لمنطقة المغرب الأوسط. وهذه المسألة اختلفت في المصادر، وهذا الاختلاف راجع إلى اختلاف الأزمنة التاريخية، ولعل التقسيم الروماني لولايات نفوذهم في البلاد المغربية كلها هو الذي أثر في التحديدات اللاحقة عليه.

ففي الشمال من منطقة موريطانيا القيصرية، كان الحد الشرقي هو وادي شلف، والحد الغربي هو نهر ملوية. وهذا التحديد هو الذي استمر في العصر الإسلامي الأول، وقد نجد حده الشرقي يبدأ من مدينة بجاية،

---

(1) د.حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته.ج1 ص210

Diehl (Charles): L'Afrique Byzantine, PP.467-469.

ففي لائحة الأقسام الإدارية البزنطية لبلاد المغرب البيزنطي لا نجد منطقة المغرب الأوسط مذكورة بالشكل الذي حدده لنا اليعقوبي في القرن الثالث الهجري /9 م:أنظر: دييل، ص469 ، وكل ما ذكره هو الولاية الرابعة التي سماها «موريطانيا الأولى» بالإسم الآتي:

- La Maurétanie première (sitifienne et débris de la césarienne).

ويمتد غربا إلى ملوية وجبال تازة. وهذه الواجهة الشمالية الغربية لإفريقية، تشرف كلها على البحر المتوسط، وتمتاز بساحلها الصخري، ذي الخلجان التي سهلت إقامة محطات بحرية، ربطت المنطقة بالأندلس، وأدت إلى تطوير الساحل بنشأة المدن البحرية، في الخلجان، مثل خليج وهران ومستغانم وتنس وشرشال[2]. (أنظر الخريطتين 2 و 19 . ولاحظ نشاط الدور البحري في إبراز هذه المنطقة وعلاقته بطرق القوافل التجارية، خريطة 4 التي تلخص تطور طرق القوافل).

وعلى الساحل الشمالي للمغرب الأوسط، تمتد سهول ضيقة غنية، استوطنتها مجموعات بشرية، متنوعة القبائل تمزج في نظام حياتها بين «نظام الرعي» و «الاستقرار الفلاحي» و «الحياة التجارية». وفي جنوب هذه المنطقة الساحلية السهلية، منطقة التل والنجود الهضبية. وهذه تكون الوجه الجبلي «للمغرب الأوسط الذي يحاذي البحر الأبيض المتوسط. وتعتبر الواجهة الشمالية لهذه الجبال. هي أخصب جهات المغرب الأوسط واغناها من حيث نوع التربة، ووجود المراعي، وزراعة الحبوب، والمغارسة. وعليها أنشئت أشهر مدن المغرب الأوسط مثل تاهرت، وتلمسان. ثم تأتي في الجنوب مناطق مفتوحة على التأثير الصحراوي، وهي منطقة النجود والهضاب، وتقع بين سلسلتي جبال الأطلس التلي والصحراوي، وهي منطقة لا تسمح للإنسان بالاستقرار. تشكو من مشكلة الماء. ومن عدم توفر التربة الخصبة الصالحة للزراعة. ما عدا بعض الواحات، والمراعي الموسمية. وتمثل منطقة

---

(2) اليعقوبي: البلدان ص 352-353 ، 355-357 ، ابن حوقل: صورة الأرض ص 93.88 ، البكري ص76 ، الإدريسي: نزهة المشتاق ج1 ، ص222 ، الاستبصار: ص176 ، الزهري: الجغرافية ص113

«وركلة» أهم الواحات الجنوبية للمغرب الأوسط وبلاد سوف وأريغ. وأهم أنهار هذا القسم الأوسط من المغرب، ثلاثة:

1- نهر شلف[3]، الذي ينبع من جبال «الونشريس» ويصب شرق مدينة «مستغانم» الساحلية.

2- نهر سيرات، وهو من الأنهار القصيرة في المغرب الأوسط.

3- نهر مينة وهو نهر مدينة تاهرت. بالإضافة إلى وادي «تاتش».

هذا التنوع الجغرافي للمغرب الأوسط، جعل معظم جهاته مجالا رعويا، وجعل السكان مرتبطين بالإرتحال والتنقل، إلى جانب نوع الزراعة غير القارة. وهيأهم لرصد حركة القوافل التجارية، والتنافس من أجل السيطرة على المراكز الحيوية، ونقط عبور القوافل، المتجهة إلى المغرب الأقصى وإلى إفريقيا جنوب الصحراء.

فالجغرافيون العرب تأثروا بالتقسيم الإداري الذي قسم إليه المغرب الكبير 1- إفريقية، 2- المغرب الأوسط. 3- المغرب الأقصى. 4- السوس أو سجلماسة، واستمرت إطلاقاتهم غير مضبوطة طبوغرافيا. وفي القرن الرابع الهجري /10 م أصبح تحديد المغرب الأوسط في الشمال من نهر شلف شرقا إلى نهر ملوية غربا[4]. وينفتح هذا المجال على شكل مروحة في

---

(3) عبد الله الباروني النفوسي: الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الأباضية، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس 1986 ص56-57 . وذكر أن نهر شلف يسمى في أحد أجزائه باسم «شلب»، ويصب في البحر المتوسط بين «تنس» و «أرسوف» على 13 كلم من مستغانم إلى الشمال الشرقي. اليعقوبي: البلدان ص358 .

(4) ابن عبد الحكم: الفتوح ص192 ، 203-204 . البلاذري:فتوح البلدان ص231 . ابن الفقيه: البلدان ص89 . ابن خرذ دابة: المسالك، ص89 . اليعقوبي: .../...

الجنوب إلى تخوم الصحراء بدون تحديد مضبوط(5). وهذا الوضع جعل مفهوم «المغرب الأوسط» يأخذ بعدا مطاطيا أو هلاميا من الشمال إلى الجنوب، أكثر من ميوعة تحديده من شرق نهر ملوية إلى شرق نهر شلف. لكن يمكن أن نسجل تحديده في غالبية المصادر من الساحل على البحر المتوسط بين مصب نهر شلف شرقا ومجرى نهر ملوية غربا، ومن هذا النطاق الساحلي الشمالي إلى جبال القصور وجبال عمور، والرق الغربي جنوبا.

ولا حاجة إلى التأكيد على تنوع الأحوال الطبيعية التي تتسم بها هذه الجهات الغربية من أفريقية العبيدية، حيث تتشعب رقعتها الجغرافية، فتتعاقب فيها مناطق التل والسباسب والصحراء، وتتجاور وتتشابك أحيانا السهول شبه الساحلية، والجبال، والأحواض الداخلية المرتفعة التي يطلق عليها إسم الهضاب العليا، والمنخفضات العميقة ذات الشواطئ. فهذا المجال الطبيعي ساد فيه التناقض الطبيعي، الذي انعكس على المجتمع، حيث ظهر واضحا في الصراع الإجتماعي خلال مرحلة دراستنا (القرن الرابع الهجري 10/ م) . فقد برز ذلك التناقض بين أهالي التل والسباسب. وبين المزارعين المستقرين، ومربي المواشي الرحل. مما نجم عن كل ذلك ضعف التماسك الإجتماعي بين سكان المغرب الأوسط، و بالتالي نتج عدم وجود علاقات ثابتة

.../... البلدان، ص358 . ابن حوقل: صورة الأرض. ص79-83 . البكري:المسالك والممالك: فقرة:1250 . وقد سجل البكري أن تلمسان هي قاعدة المغرب الأوسط Encyclopédie de l'Islam,T.I. P.I. p.377.

(5) نقصد بالضبط ما جاء عند الجغرافي محمد بن أبي بكر الزهري في كتابه الجغرافية الذي قسم فيه المغرب إلى ثلاثة أصقاع. ص194 فقرة 294 تحقيق محمد الحاج صادق، طه دمشق 1968 ، وقد أدمج المغرب الأوسط في صقع المغرب الأقصى.

بين السلطة المركزية، ومجموعات السكان سواء كانوا قبائل رحلا أو مستقرين في السهول أو الجبال. ومثالنا على ذلك ما حدث من انقسام داخلي في الدولة الرستمية في الأوائل.

هذا التركيب الجغرافي الطبيعي للبنية التضاريسية، تعرضت الأسماء التي أطلقت على أجزائه، للتغيير بتعرض سكانه للإنتقال والتغيير، مما نتج عنه اختلاف كبير في أسماء الأماكن، باختلاف المؤثرات الحضارية تاريخيا. فطوبونيميا المغرب الأوسط في العصر الروماني هي غيرها في القرون الخمسة الأولى من الفتح الإسلامي، وهي غيرها بعد ذلك.

وإذا انتقلنا إلى العامل الطبيعي الثاني المتحكم في حياة هذه المنطقة على مستوى الجغرافية الحيوية، وهو العامل المناخي. فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى المقارنة بين خريطتنا التي استقيناها من مصادر الجغرافية العربية القديمة (خريطة رقم 10). وبين الخرائط المناخية الحديثة التي رسمتها الدراسات الجغرافية المعاصرة(6). و في إطار هذه المقارنة نصل إلى أن «خط التماطر» لم يتغير منذ عصور الجغرافية العربية القديمة عما هو عليه في عصر الدراسات الجغرافية المعاصرة، وهذا يؤكد حقيقة ثابتة وهي أن الإمكانيات الطبيعية لم تتغير. و بالتالي لم تظهر مؤثرات جديدة لإعادة تنظيم المجال الجغرافي، من خيث علاقة الإنسان بالأرض في هذه الجهات الغربية لمجال نفوذ «الخلافة العبيدية» في المنطقة المغاربية كلها. وقد أثبت

---

(6) نحيل هنا على الدراسة الأخيرة في الموضوع، التي تعالج السكان والمجال في بلاد المغرب الكبير. أنظر خاصة البحث الذي كتبه الجغرافي المختص Gérard Maurer، في الدراسة التي أشرف عليها:

Jean-François Troin: Le Maghreb, Hommes et espaces, édit. Armand Colin, Paris 1985, PP 15-81, et La carte N°2.

الباحث F.Braudel في دراسته الكبرى على «البحر الأبيض المتوسط»(7) هذه العلاقة على مستوى التطور التاريخي إلى حدود القرن 10 هـ/16م. وعلى أساس البعد الجغرافي للمغرب الأوسط في مرحلة دراستنا، يمكن أن نقسمه إلى قسمين: القسم الشمالي، والقسم الجنوبي، فالأول يمتد بين حوظ نهر شلف شرقا، وحوض نهر ملوية غربا ومن البحر المتوسط شمالا إلى السفوح الشمالية لجبال القصور وجبال عمور جنوبا. ويضم هذا القسم الأراضي المتأثرة بالمناخ المتوسطي. وفعلا تعتبر هذه أهم الجهات الشمالية في المنطقة اقتصاديا وتجاريا و بالتالي أكثرها حيوية من حيث نشأة المدن وطرق التجارة القوافلية (أنظر الخرائط 1، 3،2). أما القسم الثاني فهو الذي يمتد جنوب جبال القصور وجبال عمور إلى تخوم الصحراء. ويمتاز بانفتاحه شرقا في هضاب مزاب، ابتداء من «لغواط» إلى بسكرة، ثم جنوبا نحو «غرداية» و «وركلة». ويشكل هذا القسم الجنوبي الجزء الأكبر من المغرب الأوسط. وتتخلله واحات استقرت فيها قبائل البربر التي تحكمت في تجارة الفواقل الواصلة بين بلاد المغرب وافريقيا جنوب الصحراء. وقد استمر هذا التقسيم إلى عصر ابن خلدون(8).

وهكذا نخلص على المستوى الجغرافي التاريخي إلى أن المنطقة المغربية تميزت في نهاية القرن الثالث الهجري /9 م بوجود جهتين هما:

أولا : مركزية الجهة الإفريقية وقاعدتها القيروان.

ثانيا : الجهات الغربية، من حوض نهر شلف إلى المحيط (وهذا في الشمال). ومن غرب الأوراس وجنوب إقليم الزاب إلى تخوم الصحراء (وهذا في القسم الجنوبي).

---

(7) Fernand Braudel: La méditérranee, T.1, PP.156-170

(8) ابن خلدون: العبر، ج 96/4 ، 306 .

و في هذا النطاق الجغرافي الثاني دارت أحداث الصراع بين جميع القوى المتنافسة. حسب أهمية المراكز اقتصاديا واستراتيجيا. فالتسمية العامة التي أطلقت على هذه الأقاليم وهي «الجهات الغربية» أو «البلاد الغربية». تسمية اعتبارية وعامة بالنسبة إلى الإسمين الشائعين وهما «المغرب الأوسط»، «المغرب الأقصى» ، وهما تقسيمان فرضهما نظام الطرق التجارية في المنطقة، والصراع المرير حولها، فالتفسير التقليدي اعتمد على أن أصل الصراع مذهبي، في حين تؤكد الدوافع الإقتصادية، أن أصل التقسيم إلى مغربين أوسط وأقصى، كان هو السيطرة على مسالك التجارة المارة عبر سبله. يفيد هذا المعنى ما كتبه الجغرافيون العرب مثل اليعقوبي (278 هـ 891 م). وابن حوقل (367 هـ/977 م). والبكري (487 هـ 1094). والإدريسي (561 هـ/1166 م).

وهذا يعني أن التسمية جهوية وليست سياسية في مضمونها التاريخي، كما يعني أن اصطلاح «المغرب الأوسط» إنما هو نسبة إلى المغرب الأقصى[9]، ومن المسلمات المعروفة في التاريخ الإقتصادي العام، أن الحركة التجارية في العالم القديم -ونعني هنا مرحلة ما بعد القرن الثالث الهجري أي العاشر الميلادي- قامت على العملة الذهبية والفضية، وهي مادة أساسية في هذا النظام الإقتصادي، وكان المغرب بجميع جهاته هو الوسيط بين مناطق انتاجها والعالم القديم ومنذ القرن الثالث إلى التاسع /9-15 م. كان المغرب الأقصى والأوسط (الجهات الغربية)، هو القوة الفاعلة على الساحة الأوسطية[10].

---

(9) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب، ج1 ص69-70 .

(10) -Henri pirenne:Mohammed et Charlmagne, Alcan, 1937

-Lombard (M), l'Islam dans sa première grandeur, Flammarion, 1971.

.../...

ينتج على هذا أن مصطلح المغرب الأقصى أي البعيد بالنسبة للقيروان أو إفريقية أو البلاد الشرقية من المنطقة المغربية الكبرى، هو الإسم التاريخي لهذه الجهات، فهو ليس مشرقا لأي إقليم، كما ينتج عنه منطقيا أن يكون إطلاق المغرب الأقصى على هذه الجهات أقدم من المغرب الأوسط وهنا يحق أن نتساءل عن تصور المغاربة القديم لبلادهم؟ وفي أي مستوى يمكن أن نحدده؟

في الواقع لا يمكن أن نفهم تصور مغاربة القرن الرابع الهجري/10م لموقع بلادهم على وجه الأرض. إلا على أساس اتجاه الطرق التجارية العابرة لبلدهم. تلك الطرق التي رسموها رسما حوافريا، أو اهتدوا فيها بالنجوم والأنواء. وعلى أساس المضمون الجهوي. نجد في كتب التراجم برمتها نسبة الرجال المترجم لهم إلى مدينة مشهورة مثل فاس أو سجلماسة أو سبتة، أو طنجة، أو تاهرت أو تلمسان. كما نجد نسبة الرجال إلى تجمعاتهم القلبية المشهورة، مثل هوارة أو زناتة، أو مصمودة أو صنهاجة أو كتامة. ونجد أيضا نسبتهم إلى الجهات الإقليمية المحلية مثل غمارة أو سوس. كل هذا نجده في المصادر المكتوبة. وما سجلته على لسانهم في نسبتهم المكانية التي ينسبون أنفسهم إليها، ولا نجد نسبة مكانية تعني البلاد كلها بالمعنى «القطري حاليا». كل ذلك يوحي بوجود «ذهنية جهوية» عند السكان تحكمت في صناعة تاريخ

.../... وما كتبه بالنسبة للمغرب القديم الباحث «جيروم كاركوبينو Carcopino" حيث خصص في مؤلفه الشهير « المغرب القديم =Le Maroc Antique" فصلا مطولا وبحثا مطولا بعنوان «المغرب سوق الذهب البونيقية». وحاول أن يبرهن فيه أن الصراع المرير بين روما وقرطاجة، والتدخل الروماني في بلاد المغرب كان هو السيطرة على تجارة الذهب المجلوب من إفريقيا جنوب الصحراء عبر طرق برية وبحرية. تمر كلها على التراب المغربي. وكذلك أيضا في القرن الرابع الهجري /10م كان الصراع الطويل والمرير بين أمويي الأندلس، والعبيديين الفاطميين الحاكمين في إفريقية أو البلاد الشرقية في المغرب الكبير.

المنطقة. وكانت أكبر نتائجها هي الاستقلال في التنظيم الإجتماعي، والخصوصية المحلية، التي لونتها الإقليمية الجغرافية، فالإقليم الصحراوي الجنوبي، من فزان ورجلة والأغواط وسجلماسة إلى جنوب حوض وادي درعة، كلها تكون نموذجا للمجال المفتوح، المترابط بنظام المجتمع الواحي، الذي نشأ عادة في النقط المائية المنتشرة فيه، والتي حولتها حركة القوافل التجارية إلى مراكز ذات حضور تاريخي في المنطقة المغربية كلها.

بدراسة خرائط طرق الفواقل في المنطقة المغربية (خرائط 1، 2، 3)، ومقارنتها مع خرائط (7، 8، 9) يتضح أن حياة التعمير البشري ونشأة المراكز والمدن، ترتبط بنظام الطرق ومسالكها الرسمية الضاربة في العمق التاريخي المغربي. كما يتضح أيضا، أن القسم الشمالي هو الجهة الرئيسية التي تحددت فيها طبيعة التنظيم المجالي أكثر من غيرها في الجنوب، وهذا لا يفسره إلا واقع النظام المائي في هذا القسم الشمالي من الجهات الغربية ابتداءا من جبال ونشريس وحوض نهر شلف (أنظر خريطة رقم 10) إلى حوض نهر ملوية، ولعل مصطلح المغرب الأوسط كان يعني هذا القسم الشمالي، ويكاد يكون إقليم موريطانيا القيصرية في العصر الروماني. وهذا القسم الشمالي سادت فيه ظروف مناخية ملائمة لنشأة نشاط زراعي يمكن من وجود حياة الإستقرار وقيام تقاليد زراعية قديمة ترجع في أصولها إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وخاصة منذ عهد مملكة «سيفاكس =Sufax» ومملكة «ماسينيسا=Massinsa"، الذي كان يلقب نفسه ملك القبائل الموريطانية والرومان، ونفس الوضع المناخي تتحدث عنه المصادر الإباظية والجغرافية العربية القديمة[11].

---

(11) أنظر وصف مناخ تاهرت في مجموع النصوص الجغرافية التي قام بها إسماعيل العربي: المدن المغربية، ص133 وما بعدها.

لقد أعطى التكوين الطبيعي المتنوع للمناطق الغربية (مغرب أوسط ومغرب أقصى، وأقاليم صحراوية) تنوعا جهويا على المستوى العام، وكانت ظاهرة المواصلات والطرق التجارية أهم وسائل الربط بين جهات المنطقة كلها، وخاصة بين المراكز الصحراوية والمرافئ على الساحل المتوسطي لهذه الجهات الغربية، وبذلك أعطت للبلاد عرضا عميقا يتناسب مع طولها الكبير، وجعلت الصحراء جزءا لا يتجزأ من المغرب »[11م]، فكانت المنطقة الوسطى (بين شلف ونهر ملوية) مجالا للعبور والإنتقال للمجموعات البشرية من الشرق إلى أقصى الغرب، ومن الجنوب الصحراوي إلى الشمال الساحلي المتوسطي[12]. وكان مجال المغرب الأقصى هو مركز الإستقطاب والإستيعاب والإحتضان النهائي للقوات البشرية المتحركة كلها.

ب-البنية البشرية وظاهرة التحالف في المناطق الغربية:

إن مسألة ضبط البنية البشرية في المناطق الجغرافية التي تعتبر جهة من جهات الإنتقال والإتصال، تعتبر من أعقد المشاكل المطروحة في الدراسات التاريخية بوجه خاص. وهذا ما يفسر الإضطراب والقلق الملاحظ في مصادر دراسة تاريخ مرحلة بحثنا التي تعالج المنظومات البشرية في الجهات الغربية من المغرب الكبير.

إذن، نترك جانبا الإفتراضات والآراء المتمحلة المتعلقة بالموضوع، وننطلق مباشرة من الجغرافي اليعقوبي، وخاصة كتابه «البلدان» باعتباره

(11م) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب، ج1 ، ص78 .

(12) Braudel (F): La Méditerranée, T.I, p.87

Xavier de Planhol: Les fondements Géographiques de l'Histoire de l'Islam, pp.131-134.

وثيقة وصفية معاصرة لبداية عصر دراستنا[13]. فقد وصل اليعقوبي إلى تاهرت وتلمسان ودون ما سمع وما شاهد فزودنا بمعلومات دقيقة نقطع بصحة أغلبها عندما نقارنها بما نجده في مصادر أخرى، ومع هذا نسجل عليها أنها لا تتقيد بالزمن، مما يطرح علينا افتراضا جوهريا وهو أن بعض تلك المعلومات المدونة قد دخلت التاريخ ولم تعد قائمة في عصره، وكان تسجيلها نتيجة لما سمعه من الرواة المحليين. فمعلوماته إذن صحيحة ولكنها ليست قائمة أو معاصرة في جميع الحالات.

وأهم صورة يمكن استخلاصها من طوف اليعقوبي للبلاد الغربية (المغرب الأوسط والأقصى). هي أن المغرب، مغرب القبائل البربرية التي لا حصر لها[14]، ولكل قبيل منهم منازلهم ومواطنهم ولكن أيضا ليس في جميع الحالات، إذ هناك مجموعات قبلية لا ترتبط بالمكان نتيجة لنمط عيشها الرعوي الترحالي[15]. ثم يأتي الرحالة الجغرافي «ابن حوقل» الذي كان في بلاد المغرب سنة 340 هـ/ 951 م ليكمل الصورة، ببيان لهذه القبائل المغربية، ثم يأتي أبوعبيد البكري (487 هـ/1094 م) ليعطي صورة مسالكية تعاصر مراحل التحول الجديد في التاريخ المغربي، وهي مرحلة القيام المرابطي، في الجهات الغربية، والإنتشار العربي في المجتمع البدوي المغربي. فالقائمة التي يمكن إستخلاصها من اليعقوبي في كتابه البلدان، لا تتجاوز أسماء بعض القبائل التي اهتم بها في الطريق الذي عبره في المغرب الأوسط من الزاب إلى تاهرت ثم إلى تلمسان. و لا تتجاوز خمسة قبائل كبرى هي:

---

(13) اليعقوبي: البلدان، ص358 . ابن حوقل : صورة الأرض، ص82 .

(14) اليعقوبي، البلدان ص356 ، ابن حوقل: صورة الأرض ص88 . البكري المسالك فقرة 1258 .

(15) اليعقوبي، ص357 ، ابن حوقل، ص81 .

1- **بنو برزال**، ويعتبرون من زناتة، خوارج المغرب الأوسط.

ووطنهم في الشمال الغربي من إقليم «الزاب». كما أدرجهم اليعقوبي ضمن مجموعة «بني دمر»[16]. واعتبرهم ابن حوقل[17] من البربر الفلاحين الذين يمارسون حياة الإستقرار والرعي المحدود إلى جانب قبائل أخرى وهم بنو زنداج وهوارة ومزاتة. أما البكري[18] فيوطنهم بأرض مدينة «المسيلة». إلا أن قبائل أو مجموعة بني برزال الزناتية لم يكن لها شأن حقيقي في توجيه الأحداث في بلاد المغرب الأوسط، ولعل الحلف الصنهاجي هو الذي منعها من ذلك في القرن الرابع الهجري /10 م، فقد دخل بنو برزال في طاعة بني الأندلسي، فاعتبرهم الصنهاجيون الزيريون من كبار خصومهم. وطاردوهم واضطهدوهم، فنتج عن ذلك أن التحقت جموعهم القوية بالأندلس للخدمة العسكرية في الدولة الأموية[19]. وكانوا منذ البداية ضد الدولة العبيدية الفاطمية[20]. وبذلك كانوا رواد الثورة الأوائل ضد الشيعة،

---

(16) اليعقوبي: البلدان، ص352 (102-103).

(17) ابن حوقل صورة الأرض ، ص85-102 (حيث وردت باسم برال وهوتحريف) ونلاحظ أن ابن حوقل وصفهم بأنهم من عصبة زناتة.

(18) البكري : المسالك والممالك، فقرة 1213 (ط تونس 1992).

(19) ابن عذاري: البيان المغرب، ج3 ص267-268 . مذكرات عبد الله بن بلكين، نشر ليفي بروفنسال، طبعة دار المعارف، القاهرة/ مصر، ص105 والترجمة الفرنسية لها ص309 هامش 26 . الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية، 92/2-93 . سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج3 ص106 وهامش رقم 106 ثم ص187 حيث وصفهم برواد الثورة الأوائل.

(20) أنظر: R. Le Tourneau: Encyclopédie de l'Islam. (N.E), T.I: pp.1275-6, Art, Birzal et ses références.

وتلك بداية المعارضة الزناتية للفاطميين العبيديين. والسؤال هو لماذا لم يتزعم بنو برزال الحلف الزناتي المعارض؟

يظهر من خلال كلام اليعقوبي عليهم في آخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، أن «بني برزال» لم يكونوا قوة بشرية كافية لقيام تكتل قبلي، تكفي لتكوين زعامة قبلية، إذ لم يتجاوز كيانهم مستوى «الفخذ القبلي». فهم فخذ من بني دمر من زناتة[21]. ورغم أنهم كانوا محاربين من الطراز الأول، فقد تحولوا بعد الإنقلاب العبيدي الشيعي إلى الجبهة الأندلسية المعادية للفاطميين. ودخلوا في خدمة الخلافة الأندلسية بالمغرب الأوسط والأندلس[22]. بحيث كانوا في القرن الرابع الهجري /10 م عبارة عن مجموعة متطوعة للعمل الحربي في الجيش الأندلسي أو مرتزقة بالأندلس، وبعد سقوط الخلافة الأندلسية (422 هـ/ 1031م). تحولوا الى خطورة لها قوتها العسكرية في الأندلس . وبنو برزال الزناتيون لم يكونوا من زناتة الرعاة الرحل، وإنما كانوا من المستقرين المزارعين. وفي نفس الوقت كانوا من المحاربين الأشداء وأن عددهم البشري لم يكن كافيا لتكوين زعامة زناتية، ولهذا ظلوا في التبعية لتجمعات زناتة المعارضة لبني رستم في آخر عهدهم، ولبني عبيد وخلفائهم الصنهاجيين.

---

(21) اليعقوبي : البلدان و ص352 ، ابن حوقل، ص86 .

(22) نلاحظ أن بني برزال المقيمين في مناطق المسيلة، كانوا متحالفين مع حاكم مدينة المسيلة «على بن حمدون الأندلسي». ابن عذاري: البيان 267/3 . مذكرات عبد الله بن بلكين : نشر ليفي بروفنسال ص309 . هنري روجي إدريس: الدولة الصنهاجية 2/92-93 . ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا المسلمة ج2 ص ص206-207 ، هامش 2 .

2- هوارة [23] هم مجموعة واسعة الإنتشار من غرب وادي النيل إلى المحيط الأطلسي، ومن البحر المتوسط إلى تخوم الصحراء الإفريقية. وبحكم هذا التنوع المجالي الجغرافي الذي وجدوا فيه. تنوعت أنماط عيشهم ومواقفهم السياسية، واتجاهاتهم المذهبية. وحتى مواقفهم الولائية، فهم رحل ومستقرون، وخوارج وشيعة وسنة. تجار رواد في حركة القوافل العابرة لطرقة التجارة الصحراوية.

أما الجغرافي اليعقوبي فقد تكلم على إحدى مجموعاتهم المستقرة التي وطنها في شرق مدينة «تاهرت» [24]. باعتبارهم قوة لها دورها في توجيه أحداث المنطقة التاهرتية. بزعامة ابن مسالة الهواري [25] . إن جميع الناس من هوارة وغيرهم من القبائل كانوا بإزاء مدينة تاهرت، وكان لهوارة رؤساء مقدمون يقال لهم «الأوس» ويعرفون ببني مسالة». وفي تقديرنا أن هوارة التي استوطنت شرق العاصمة الإباضية تاهرت، حاولت تكوين حلف مع بعض قبائل لواته، ضد بني رستم، عن طريق المصاهرة، ولكنها لم تنجح نتيجة لهزيمتها في معركة نهر «إسلان» [26].في آخر القرن الثاني للهجرة

(23) نحيل هنا على البحث الجيد والجامع المانع الذي خصصته الموسوعة الإسلامية في طبعتها الجديدة لمجموعة «هوارة» بقلم الباحث المتخصص «لويكي»: "T.Lewicki"

Lewicki: L'encyclopédie de l'islam, (N.E), T.III, pp.305-308.

(24) اليعقوبي: البلدان ص356 .

(25) ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص52 . يحي معمر: الأباضية، القسم الرابع ص45 . محمود إسماعيل: الخوارج ص 130 .

(26) ابن الصغير: أخبار الأئمة، ص53 . ويغلب على الظن أن نهر إسلان هو النهر الذي ذكره «البكري» قرب مدينة إسلان بشرق تاهرت. أنظر: البكري: المسالك والممالك فقرة 1254. ونسجل هنا، أن هذه المعركة الحاسمة .../...

/8م. واستمرت في معارضتها لتاهرت، إلى أن بدأ التدخل العبيدي الشيعي في آخر القرن الثالث وبداية الرابع الهجري /9-10 م. ثم ناصروا أبا يزيد مخلد بن كيداد (صاحب الحمار) النكاري. والمهم أن هوارة شرق مدينة تاهرت حاولت تكوين إمارة هوارة بقيادة «بني مسالة» ولكن إمارة بني رستم تمكنت من القضاء على هذه المحاولة، إلا أن المجموعة الهوارية استمرت في معارضتها لبني رستم فاعتبروا من «النكار».

والمصادر الإباضية وحتى الدراسات التي جاءت بعد ذلك اعتبرت حركة بني مسالة الهوارية. حركة مذهبية، داخلة ضمن الانشقاقات الدينية الخارجية في المجتمع الرستمي، مع أنها في حقيقة أمرها ثورة قبلية عملت على تكوين حلف قبلي هواري أباضي سياسي لا يعترف بالنظام الرستمي(27). خصوصا وأن هذا التحالف الهواري اللواتي انضمت إليه

../... وقعت في أحد مراكز طرق التجارة القوافلية الواصلة بين إفريقية (المغرب الأدنى) والمغرب الأقصى، مما يؤكد دور الطرق التجارية في نظام التحالف القبلي المغربي في القرن الثالث الهجري /9 م. أنظر الخريطة رقم2 ، ورقم 3 . ويظهر أن هذه الإمارة الهوارية، اتخذت من مركز حصين وهو «تمطلاس» شمال مدينة تاهرت، عاصمة لها، وانضمت إليها قبيلة « مطماطة» (اليعقوبي 352). وتسمى هذه العاصمة في المصادر مدينة «الجبل» أو «هليل» أو «يلل» قريبة من البحر الأبيض المتوسط. وهذا يعني أن هذه المجموعة البشرية من البربر المستقرين المزارعين، ورغم ذلك نجدهم في المصادر مندرجين أحيانا في البتر وأحيانا أخرى في البرانس؟ ابن خلدون: العبر ج 282/6 وما بعدها.

(27) محمود إسماعيل: الخوارج ص117-118 . سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج2 ص.ص 324-330 ، 331 . محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي. ط الجزائر 1984 ص.ص126-127 . محمد الميلي: تاريخ الجزائر ج2 ص.ص62-63.

.../...

مجموعة قبلية كبرى وهي «وزداجة أو أزداجة» التي كانت مواطنها أنئذ بناحية وهران. وبمتابعة الخريطة البشرية لقبائل هوارة فإننا نجدها متلازمة مع الطرق التجارية التي رسمتها لنا المصادر الجغرافية العربية القديمة، وكذلك الأمر بالنسبة لقبائل «لواتة»(28). فالإنقسام المذهبي الاباضي، هو في الواقع خلاف سياسي مصلحي على الطرق والسلطة المتبطة ب «نظام الإمامة الاباضية» في المغرب الأوسط وهكذا ظهرت هوارة ببوادي العاصمة تاهرت، ناكرة ومعارضة لبني رستم في رئاستهم، لأن قبولها لسلطتهم يحرمها من هيمنتها على المسالك وطرق التجارة. وهذا يجعل مفهوم «الدولة الرستمية» مفهوما « إيمانيا» وليس «ترابيا» . فالخاصية القبلية التقليدية، هي الموجه الحقيقي لنظام التعايش في هذه الجهات المغربية. وهذا ما يفسر أيضا مناصرتهم لأية ثورة تضمن لهم استقلالهم القبلي، كما حصل مع أبي يزيد (صاحب الحمار) في الثلث الأول من القرن الرابع الهجري /10 م.

.../... T.Lewicki:Art, Huwwara (Encyclopédie de l'Islam, T.III, P.307.

وقد اعتبر «لويكي» حركة وموقف بني مسالة، موقفا سياسيا استمرت إمارتهم قائمة إلى نهاية القرن الثالث الهجري /9 م. وهو ما يتفق مع وصف الجغرافي اليعقوبي في كتابه البلدان.

(28) اليعقوبي: البلدان ص207 قال بالنص: «ومنازل هوارة في آخر عمل سرت إلى طرابلس» كما تكلم على فروع هوارة بجهه «لبدة» وبجهة بغاي بالأوراس و بالزاب وبناحية باجة وبضواحي تاهرت. وتلازم ذكر اليعقوبي لهوارة مع ذكره لبعض فروع «لواتة، أما إبن خلدون فيكاد يكون حديثه عن هوارة، لا يخرج عن حديثه على لواتة: أنظر: العبر 286/6 وفي مواطن أخرى من العبر بأجزائه، ثم دراسة موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص ص 75-79 .

3- مطماطة[29]: في الأصل إسم لمجموعة قبلية بربرية مغربية، وقد برزت في القرن الثالث الهجري /9 م في المصادر الجغرافية العربية[30]، من بين المجموعات القبلية الكبرى في المغرب الكبير، والتي لها انتشار جغرافي واسع مثل مجموعة «هوارة». والملاحظ أن وجودها يرتبط بمسالك الطرق المغربية الكبرى. وصار إسم مطماطة في كثير من الجهات المغربية إسما مكانيا. وأول ما يصادفنا على المستوى الطوبونيمي نجده إسما لجبل بالجنوب التونسي[31] وهذه المصادر تتحدث عن مجموعة مطماطة في هذه المنطقة في القرن الثالث الهجري /10 م باعتبارها متحالفة مع: لواتة، ودمر ونفوسة. وأما ابن خلدون فيدرجهم ضمن مجموعة «ضريسة» البترية التي تولدت منها كبريات قبائل التجمع الزناتي في القرن الرابع الهجري /10م.

ولا يخلو مكان مساليكي في المغرب الكبير إلا ونجده يحمل إسم مطماطة أو إسم أحد بطونها، فمن الجنوب التونسي (المغرب الأدنى) إلى منطقة شمال تاهرت، إلى مطماطة المغرب الأقصى[32]. وأما مطماطة المغرب الأوسط، فقد وطنهم اليعقوبي في الشمال الشرقي من تاهرت، أثناء حديثه

(29) ابن خلدون: العبر 250/6 وما بعدها.

T.Lewicki: art,Matmata: Encyclopédie de l'Islam (N.E), pp.831-33.

(30) ابن خرزدابة: المسالك والممالك ص90 . اليعقوبي: البلدان ص346 . ابن حوقل ص86 . البكري: فقرة 1229 . الإدريسي : النزهة، 236 ، 253 الاستبصار ص92 .

(31) هـ.ر. إدريس: الدولة الصنهاجية، ج2 ص71 .

(32) مطماطة المغرب الأقصى المشهورة تقع بين فاس وتازة، قرب سوق سيدي عبد الجليل شرق فاس بحوالي 60 كلم على الطريق الرابطة بين فاس وتازة. وهذا ما يؤكد حقيقة الوجود القبلي على امتداد طرق التجارة في العصور الوسطى.

على الإمارة الهوارية «وأهل هذه المملكة (بني مسالة) قوم من بطون البربر من سائر قبائلهم، وأكثرهم قوم يقال لهم مطماطة، وهم بطون كثيرة...»(33).

ويغلب على الظن أن المجموعة المطماطية عرفت تحركا من الجنوب التونسي إلى شمال المغرب الأوسط. واستقرت بعض بطونها في غرب حوض نهر شلف. لأسباب اقتصادية اجتماعية مرتبطة بعملية تكوين «الحلف الزناتي» الذي عرف في أخر القرنين الثاني والثالث الهجريين/ 8-9م أهم مراحل تكوينه. وهذا يحملنا على الاعتقاد مرة أخرى، بأن هذه التجمعات القبلية المغربية لا توحدها الأنساب الدموية، فالقرابة نمطية معيشية مصلحية»(34).

4-مكناسة (35): ننطلق مبدئيا من المقاربات الحديثة، بين إسم «مكناسة» الذي يدل على مجموعة قبلية بربرية زناتية وبين إسم

---

(33) اليعقوبي: البلدان ص356 .

(34) إن جهود ابن خلدون (العبر 286/6) التي بذلها من أجل إثبات القرابة السلالية، قلقة جدا، ويظهر أن رأيه بناه على الرواية الشفوية التي اعتمدت على أراء نسابة البربر ومن ضمنهم «سابق المطماطي»، وهي آراء ترتبط بظروف المجتمع القبلي المغربي في القرن الرابع الهجري /10 م. والتي تأثرت بظروف الصراع بين الشيعة الإسماعيلية، والسنة الأموية. وفي القرن الرابع الهجري استمرت بطون مطماطة في معارضة الشيعة، ومؤيدة لأموي الأندلس، مندمجة في المجتمع الزناتي. وقد أدت الحملة العبيدية على الجهات الغربية في بداية سنة 316 هـ/ 928 م إلى نقل بعض بطون مطماطة إلى الغرب، من نواحي تاهرت وتلمسان إلى حوض نهر سبو بين ممر تازة وفاس. أنظر: سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب ج2ص.ص107-108 .

(35) أنظر: حول مكناسة البحث المطول بالموسوعة الإسلامية في طبعتها الجديدة، والذي حرره «لويكي T.Lewicki

.../...

«الماكينيتس=Macenites»[36]، فإننا ندرك أن إسم مكناسة يكون مجموعة قبائل إنتشر وجودها منذ ما قبل العصر الإسلامي في جبال وسهول الموريطانيتين القيصرية والطنجية (المغربين الأوسط والأقصى في العصور الإسلامية). وتفاوتت القبائل التي أطلقت عليها المصادر الكلاسيكية إسم الماكينتس أو مكناسة، في نمط عيشها بين نظام الرعي والترحال، أو الزراعة والاستقرار، فهناك أيضا مجموعة السهول ومجموعة الجبال. مما يفسر التباين فيها، و بالتالي اختلاف الآراء في اعتبارها من زناتة أو عدم صحة زناتيتها[37].

إن جغرافية وجود «مكناسة=Macenitis» متقاربة في توطينها بين ما قبل الإسلام في المغرب والعصور الإسلامية. وقد أعطت اسمها لعدة أماكن، حيث تحولت الى مضمون «طوبونيمي» في الجهات المغربية، وما زالت مدينة مكناس تحتفظ باسمها، كما أن إسم القبيلة ما زال قائما في نواحي مدينة «تازة». كما وجدت مجموعة مكناسية في سجلماسة. وتختلف هذه المجموعات المكناسية في طبيعة حياتها أو نمط عيشها. الشئ الذي يحملنا على القول بأن هناك تنوعا مكناسيا قبليا لا يكاد يدرك بدقة علميه، الأمر

.../... Encyclopédie de l'Islam, art., Miknasa , T.VII.

ثم المقالات المتعلقة بالمغرب والبربر في نفس الموسوعة، وخاصة مقال «مدرار =Midrar» ج 1031/6 الذي حرره شارل بلا. ابن خلدون: العبر 265/6 وما بعدها.

(36) -Desanges (J): Catalogue des Tribus, p.33

-Bénabou (M):La Résistance Africaine, p.145-148.

(37) هذه المسألة تعتبر مقبولة إذا قبلنا القرابة الدموية في مفهوم « زناتة» وهو ما يقول به المؤرخون القدماء الذين يعتمدون نظرية الأنساب ومنهم ابن حزم (الجمهرة)، وابن خلدون (العبر). وهذا ما لا نقبل به لأن مفهوم زناتة في سياق دراستنا هو مفهوم حلف قبلي تضامني مصلحي.

الذي يطرح على مجال التحليل مسألة انعدام الصلة بين هذه المجموعات، و بالتالي انعدام التجانس الكلي على مستوى العلاقات الإجتماعية. فمكناسة الصحراء غير مكناسة الجهات الشمالية قرب تلمسان أو قرب تازة أو بحوض سبو. وهذا التباين النمطي ظهر واضحا في مواقف هذه المجموعات طيلة القرن الرابع الهجري /10 م (37م).

وعليه نسجل ملاحظة على مجموعة مكناسة كلها. ذلك أن واقعها يشبه واقع المجموعة الصنهاجية، التي قسمت إلى صنهاجة الشمال و صنهاجة الجنوب. وكذلك نجد بالنسبة لمكناسة. لكن الفرق هو أن مكناسة إندمجت في زناتة، ولكن صنهاجة استمرت تكون وحدتها الكبرى رغم التباين النمطي. ونسجل أيضا أن القبيلة البدوية، أو نصف البدوية، لا تبقى دائما على حال واحدة، حيث تتطور أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية، ومنطقة الهضاب الشمالية. سواء بشرق نهر ملوية أو بغربه إلى نهر شلف، تعتبر منطقة مرور وعبور للقوافل التجارية، وجهات جذب وطرد للسكان. ولهذا كانت أيضا إقليما لتكوين التجمعات البشرية. فكلما استولت مجموعة على هذه الجهات ، إلا وتطرد الذين كانوا قبلها. كانت تقع مثل هذه الظواهر، كلما حدث ضعف في السلطة المركزية وانعدم الأمن في هذه الجهات الغربية من الدولة الأغلبية أو الإدريسية أو العبيدية.

وهذا ما يذكرنا مرة أخرى بنزوح القبائل الجمالة، عند ميلاد «الحلف الزناتي» في عهد حكم «تراجان =Trajan»(98-117 م) (38). وأدت التدخلات

(37م) وهذا التباين في الحياة والطبيعة الإجتماعية، قد لاحظها ابن حوقل في أواسط القرن الرابع الهجري /10 م. حيث قال:« وأهلها قوم سراة مياسير، يباينون أهل المغرب في المنظر والمخبر». صورة الأرض ص 90 فقرة 43 .

(38) أنظر: الفصلين الأول والثاني من الباب الأول من هذه الدراسة.

العسكرية العنيفة ضد هؤلاء وضد خلفائهم من بعد إلى تكوين (الاتحادات الكبيرة) لقبائلهم البربرية. مثل حلف لواتة، وحلف كتامة، وحلف صنهاجة، وحلف زناتة ، وقد تتجزأ هذه الأحلاف إلى أحلاف صغرى، من داخل الأحلاف الكبرى. ونشير هنا إلى الحلف الخماسي المشهور =Quinquegentiani(39) الذي يرجع عهد تكوينه إلى القرن الرابع الميلادي في حوالي 328 م الذي قد يكون بداية للتحالف القبلي البربري المغربي. الذي اشتهر بموقف المقاومة الشديدة للرومان خلال القرن الثالث والرابع الميلاديين(40). ويظهر أن مجموعة هذا الحلف القبلي كانت مكونة من قبائل الجبال الذين يمارسون الرعي والزراعة على حد سواء، ولعل التطورات التاريخية أعطت لنظام الأحلاف البربرية المغربية طبيعة « التنظيم الخماسي»، بمعنى أن الحلف يولد ثلاثيا، ولكنه لا يؤدي إلى تكوين الدولة القبلية، إلا في مستوى انضمام مجموعتين أخريين، وبذلك يكتمل خماسيا مما يجعله قوة قبلية يبلغ بها مستوى « دولة القبيلة» و يتحقق في هذا النظام مستوى «اللف»(41).

ونترك التاريخ العام لمكناسة إلى حينه من هذا البحث، لنقتصر على ما جاء عند اليعقوبي باعتباره مقدمة لهذا الجانب، وباعتباره يتكلم على مكناسة المغرب الأوسط، وفي هذا المستوى نراه يقدمها لنا باعتبارها إحدى القبائل التي كانت منتشرة في النجود العليا، بين ملوية وشلف. ولكنها لم تكون إمارة مستقلة بها وإنما كانت تابعة لهوارة ومطماطة الذين كانوا منتشرين شمال تاهرت وتلمسان. وهي منطقة طرق القوافل بشكل مكثف.

---

(39) -Desange (J): Catalogue des Tribbus, p.67

(40) -Benabou.(M): La Résistance, p.235 et Notes 7.

(41) -Gellner (E). Leff, Art dans l'Encyclopédie de l'Islam, 2ème Edit. T.V . pp.720-721

وعندما تتحدث المصادر عن مكناسة هذه الجهات تتحدث عنها ضمن المجموعة الزناتية، فهل مكناسة لم تتمكن بعد من تحقيق وحدتها الإثنية وتحالفها الشامل من تكوين إمارة مكناسية في هذه الجهات؟ أم أن مكناسة سجلماسة، ومكناسة حوض نهر سبو، لم يتمكنا من ربط الصلات مع مكناسة المغرب الأوسط؟ هذان السؤالان يبقيان مطروحان، رغم أن منطقة سجلماسة في القرن الرابع الهجري/10م استمرت مستهدفة بجيوش العبيديين والأندلسيين مما يعزل الشعور المكناسي في الشمال عن الجنوب. و بالتالي تظل مكناسة مجزأة جهويا وإثنيا لا تربطها رابطة توحدها. وأيضا تسقط أطروحة القرابة الدموية في المجموعة المكناسية. وتبقى المكونات الإجتماعية المصلحية ضمن الجهوية الإقليمية. وهذا ما يفسر استمرار مكناسة المغرب الأوسط في تبعيتها لهوارة في القرن الثالث الهجري /10 م. ولمغراوة في القرن الرابع الهجري /10 م.

5- باقي التجمعات البشرية في الجهات الغربية، بالاعتماد على الجغرافي اليعقوبي.

يعتبر وصف اليعقوبي ، للبلاد الغربية، وخاصة المغرب الأوسط. أهم النصوص الجغرافية التي تقدم لنا صورة بشرية لشمال المنطقة التي تعبرها طرق القوافل التجارية في القرن الثالث الهجري.

وتظهر تلك الصورة متنوعة من المراكز إلى المدن، وما يعمرها من الفئات الأثنية المتعددة. بالإضافة إلى الإمارات القبلية التي تتحكم في جهات المنطقة من حوض نهر شلف إلى حوض نهر ملوية. ومن البحر المتوسط إلى تخوم النجود العليا جنوبا. كما يذكر ما وصله عن المغرب الأقصى من غمارة إلى تمدلت بجنوب نهر درعة، ويمكن أن نجمل ذلك في الجدولين الآتيين، الأول خاص بالقبائل والمراكز، والثاني بالإمارات:

أولا: جدول الاثنيات القبلية في الجهات الغربية حسب اليعقوبي

القبيلة	الموطن	الحلف	المذهب	ملاحظات	الجهة
هوارة	يلل - الجبل - تلمسان	زناتة	إباضية	بربر	
مكناسة	تاهرت - تلمسان	زناتة	إباضية	·	المغرب الأوسط
أوربة	حول نقاوس				
بنو ضبة	حول نقاوس			عرب	
بنو زنداج				بربر	
سارسة				〃	
كريرة					
بنو تميم				عرب	
بنو برزال		زناتة	إباضية	بربر	
بنو يرنيان		زناتة	إباضية		
صنهاجة				بربر برانس	المغرب الأوسط
زواوة				بربر برانس	
بنو دمر		زناتة	إباضية	بربر:رعاة وزراع	
مطماطة	أيزرج	زناتة	إباضية	بربر	المغرب الأوسط
ترجة	بشمال المغرب وبجنوبه	؟	؟	بربر	
جزولة					
نفزاوة	جبل جزول - تاهرت				

(تابع)

أنجرة					المغرب الأقصى الشمالي
عمارة / ملحاص					
صدينة					
برقسانة	قرب فاس				
أوزكا	بين تاهرت وسجلماسة	زناتة	خوارج؟	مركز وقبيلة	المغرب الأقصى الجنوبي
بنو مسرة	شمال تلمسان	زناتة	إباضية		
صنهاجة درعة وأغمات	سجلماسة-درعة وأغمات	زناتة	خوارج		
بنو تاركا	جنوب نهر درعة			محطة قوافلية	
مداسة	تمدلت				
صنهاجة أنبية	التخوم الصحراوية الجنوبية	صنهاجة الجنوب		هؤلاء هم أصل حلف صنهاجة الجنوب	

ثانيا: جدول الإمارات المستقلة في الجهات الغربية حسب اليعقوبي

إسم	المركز	القبائل التابعة	المذهب ونمط العيش	الجهة	ملاحظات
بني مسالة	الجبل - يلل	هوارة	خوارج إباضية	المغرب الأوسط	
مملكة العلويين (بني سليمان)	مدينة هاز	بنو يرنيان الزناتيون زناتة، زواوة	شيعة معتدلة (نتماً متنوع)		
إمارة بني مصادف (حصن مصادف)	بلد واسع (رعاة)	بنو دمر من زناتة	خوارج إباضية		
مملكة بني محمد ابن جعفر	مدينة متيجة (البليدة حاليا) (حصن بن كرام)	لم يحددها اليعقوبي	لم يذكرهم ولعلهم متنوعي الانتماءً سنة وخوارج		بلد زرع وعمارة
مملكة بني محمد ابن سليمان	مدينة مذكرة (مليانة حاليا) ومدينة الخضراء (عين الدفلة)	لم يذكرها كاملة	لعل مذهبهم يغلب عليه التشييع المعتدل والسنة		شمال المغرب الأوسط
إمارة عيسى بن إبراهيم	سوق إبراهيم (قرب الأصنام) على مصب نهر يسلي	لم يحددها اليعقوبي	مستقرون وتجار متنوعو المذهب		
إمارة تاهرت	تاهرت وضواحيها	بنو رستم والتابعون لهم من الإباضية	خوارج إباضية		
إمارة تلمسان	تلمسان وضواحيها	مكناسة- مطماطة	خوارج وهؤلاء أنصاف رحل فمنهم المزارعون و التجار		لم يذكر اليعقوبي بني مغراوة وبني راشد

(تابع)

محمد بن القاسم من بني سليمان العلويين الحسنيين	- تمطلاس - ايزرج -صبرة مدينة العلويين				
إمارة على بن حامد الزناتي	مدينة العلويين صبرة على نهر تافنة	بعض قبائل زناتة (مغراوة)	خوارج		
إمارة نمالة	مدينة نماسلة	مغراوة؟			
إمارة فلوسن	مدينة فلوسن	مطماطة، ترجة، جزولة، صنهاجة وآنجفة وأنجرة			
إمارة صالح بن سعيد الحميري	نكور - مرحانة؟ على البحر غرب نهر ملوية	نفزة وغيرها من برير شمال المغرب الأقصى	سنة (جماعية) زراع مستقرون	المغرب الأقصى	واسعة جدا مسيرة 10 أياك
إمارات الأدارسة	المغرب الأقصى				
1 - إمارة عبيد الله بن عمر بن ادريس	غميرة	لم يذكرها	لم يشر إليها		
2 - علي بن عمر بن ادريس	ملحاص؟ (محطة ركب الحجيج)	لم يذكرها	لم يشر إليها		يجتمع فيها حجاج طنجة والسوس الأقصى
3 - إمارة محمد بن عمر بن ادريس	قلعة صدينة	لم يذكرها	لم يشر إليها		
4 - إمارة بني داود بن ادريس	على نهر لمهاربة؟ (ورغة؟)	لم يذكرها	لم يشر إليها		بلد واسع
5 - إمارة حمزة بن داود بن ادريس	نهر سبو	لم يذكرها	لم يشر إليها		

(تابع)

6 - إمارة يحيى بن يحيى بن إدريس	فاس (عدوة القروين)				
7 - إمارة داود بن ادريس	فاس(عدوة الأندلس) (عدوة الأندلس)			المغرب الأقصى	
8 - تجمع برقسانة؟ -تجمع زناتي برناسة عبد الرحمن ابن أودمون + زيد بن عبد الرحمن	صفروى؟ أوزكا بين تاهرت وسجلماسة ثارينة	قبائل من زناتة بنو مسرة		(حوض نهر سبو)	بربر
-إمارة سجلماسة	سجلماسة	أهلها أخلاط: والغالبون صنهاجة			البربر
9 - إمارة درعة تحت رئاسة يحيى بن إدريس العلوي؟ (عبد الله بن ادريس)؟	باللبيرة؟ تامدلت	بنو ترجا			(إمارة تامدلت)
9م-إمارة بني عبد الله بن إدريس	السوس الأقصى	أخلاط من البربر وغالبيتهم مداسة			
-إمارة أغمات (صنهاجة)؟	أغمات	صنهاجة؟			
-ماسة	قرية ماسة		تصنع بها المراكب الخيطية	على المحيط بحر الظلمات	مسجد بهلول
-إمارة أنبية		أنبية- صنهاجة (الملثمون)			

القراءة الأولى لوثيقة الجغرافي اليعقوبي، تعطي تصورا بشريا وسياسيا غير كامل للجهات الغربية. فالخريطة التي يمكن رسمها بالإعتماد على الجدولين السابقين المستخلصين من كتاب «البلدان» لا تغطي جميع الجهات الغربية، وإنما تغطي المناطق التي تعبرها طرق المسالك التجارية القوافلية. فهي صورة شمال الجهات الغربية. ونضيف أيضا أن اليعقوبي أمدنا بمعلومات مركزة عن المنطقة الشمالية الواقعة بين نهر شلف ونهر ملوية. أما الجهات الواقعة غرب نهر ملوية، فكان حديثه عنها لا يعتمد على المعاينة والمشاهدة. وإنما بناه على ما سمعه من الرواة والتجار الذين إلتقى بهم في تاهرت وتلمسان، مما جعل كلامه على المغرب الأقصى تكميليا فقط. لاحدى الطرق الرابطة بين المغرب وبلاد السودان التي تعتبر الهدف الحقيقي من كلام اليعقوبي.

والقراءة الثانية تفرض الملاحظة الهامة في رأينا، بالنسبة لوثيقة اليعقوبي ويمكن إبرازها في أنه لم يتكلم على الإمارات الإدريسية بالمغربين الأوسط والأقصى، باعتباره متشيعا إلى مناصرتهم. صحيح أنه اهتم باخبارهم، ولكنه تحدث عنهم مثل حديثه على الإمارات القبلية الأخرى، فهل أدرك أنها إمارات قبلية محلية أكثر مما هي حركة مذهبية؟ ثم لماذا أهمل إمارات إدريسية أخرى مثل إمارة حمزة مؤسس «سوق حمزة»[42] وإمارة

---

(42) عرف سوق حمزة فيما بعد باسم « البويرة »، يقع في سهل وادي ساحل، بأحواز بجاية. وحمزة هذا هو حمزة بن الحسن بن سليمان العلوي، وتغلب العبيديون على هذه الإمارة عندما تحركوا غربا للسيطرة على الجهات الغربية من إفريقية. البكري: المسالك، فقرة 1225 . م الطالبي:الأغالبة ص625 .

أبي العيش عيسى بن إدريس [43] ، كما أنه لم يذكر الإمارات الإدريسية الأخرى بالمغرب الأقصى؟ لعل الجواب يأتي واضحا عندما نضع كلام اليعقوبي في مستوى اهتمامه بالخريطة الطرقية القوافلية، أكثر من اهتمامه بالموقف المذهبي الشيعي. كما أن هناك فرق كبير بين تغطيته للمغربين الأوسط والأقصى. ذلك أنه اهتم بقبائل المغرب الأوسط أما الأقصى فقد تجاوز كثيرا عن هذه المنطقة لهذا كله نرى أن البنية البشرية للجهات الغربية على أساس اليعقوبي لا تكتمل إلا بالصورة التي أمدنا بها ابن حوقل[43م]، حيث قدم لنا قائمة تكاد تكون تفصيلية لقبائل هذه الجهات وخاصة «مجموعة زناتة» [44]، «مجموعة صنهاجة» [45] ويعني هذا أن بن

---

(43) هذه الإمارة كان لها حظور في أخر القرن الثالث الهجري /9 م كانت عاصمتها مدينة « أرشكول » .والغالب على الظن أنها كانت مسيطرة على الساحل الشمالي من وهران إلى مصب ملوية. نسجل هذا بناء على ما جاء في كلام المؤرخ «التنسي» الذي أمدنا بمعلومات أو في من غيره على الإمارات الإدريسية في المغرب الأوسط. أنظر: التنسي، الأدارسة.

(43م) ضبط ابن حوقل المجال الجغرافي المغربي الذي ينتشر فيه البربر في عصره بقوله: « وأكثر بربر المغرب الذين من سجلماسة الى السوس وأغمات وفاس إلى نواحي تاهرت وإلى تنس والمسيلة وبسكرة وطبنة وبغاي إلى أكربال وأزفون ونواحي بونة، الى مدينة قسطينة الهواء، وكتامة ونيلة، و سطيف ». صورة الأرض، ص91 فقرة 46 .

(44) ابن حقول: صورة الأرض ص.ص 102-103 (فقرة 63)، وترجمته الفرنسية ج1 ص106-107 ، وقد أحصى المجموعة الزناتية إحصاء يكاد يكود شاملا. وكذلك المجموعة الصنهاجية، مع ملاحظة أنه لم يقسم صنهاجة إلى صنهاجة الشمال وصنهاجة الجنوب.

(45) نفسه ص 101-102 (فقرة 62). وفي ترجمته الفرنسية ج1 ص104-107

حوقل لم يقسم البربر إلى ثلاث مجموعات حيث لم تكن مصمودة قوة مثل المجموعتين السابقتين في عصره وهو القرن الرابع الهجري /10 م[46].

أ- صنهاجة:

فالمجموعة البربرية الصنهاجية عند ابن حوقل تتألف من ثلاث فئات كبرى[47].

1- الصنهاجيون الخلص وهم .... 19 قبيلة.

2- الصنهاجيون الأخلاط وهم .... 28 قبيلة.

3- الصنهاجيون المتحالفون وهم .... 11 قبيلة.

مجموع قبائل التجمع الصنهاجي العام = 58 قبيلة.

وقراءة خريطة التجمع الصنهاجي عند ابن حوقل، لا تعطي التصور الدقيق على مستوى التوطين المكاني إلا بالإعتماد على حديثه عن المدن

---

(46) و بالنسبة لابن حوقل الجغرافي الأثنوغرافي أنظر عنه:

-Miquel (A): Ibn Hawkal, L'Encyclopédie de l'Islam T.III, p.810-811, et ses références cités.

- Garcin (J.-cl): Ibn Hawkal, L'Orient et le Maghreb, (R.O.M.M) n°35, 1983, pp.77-91.

أندري ميكيل: جغرافية الإسلام البشرية (ترجمة إبراهيم خوري) طبعة دمشق 1983 ، القسم الثاني / الجزء الأول ص.ص 110-120 ، 150-155 وفي أماكن أخرى من هذه الدراسة، راجع فهرس الاعلام.

(47) لقد التزمنا بالتقسيم الذي ذكره ابن حوقل في لائحة أسماء القبائل الصنهاجية، باعتباره يقدم صورة لهذه المجموعة في منتصف القرن الرابع الهجري /10 م. أنظر: صورة الأرض. ص.ص 101-102 فقرة 62 .

والمراكز والمسافات الطرقية التي خصص أهم قسم في وصفه لبلاد المغرب (الفقرات من 10 إلى 60). وعلى هذا الأساس يتبين أن المجموعة الصنهاجية تنتشر في جهتين جغرافيتين: الأولى تنتشر في الشمال بمنطقة الجبال والأطلس التلي وخاصة جبال الأوراس وفي سفوحه الجنوبية المواجهة للصحراء الإفريقية . أما المجموعة الثانية، فتنتشر في الصحراء الإفريقية. من بداية الرمال إلى التخوم الداخلية للصحراء الإفريقية على امتدادها الجغرافي من وادي النيل شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، وهو ما عبر عليه

بصنهاجة ما بين الحبشة والزنج. وهؤلاء عندهم الذين يكونون مجموعة قبائل صنهاجة الخلص، الذين بدأ بهم اللائحة القبلية الصنهاجية. وقد اعتبر قبيلة «مسوفة» من أعظم تلك القبائل الجنوبية[48]، ولكنه ميز بعض القبائل الأخرى بالنفوذ مثل «بني تانماك» ملوك تادمكة[49]، و«بني تماكيزت» وقبيلة «مساطة» ولعلها تحريف لاسم قبيلة «مزاتة التي اعتبرها قبيلة «بني زيري»[50] مع أن المعروف في هذا الجانب أن قبيلة بني زيري هي قبيلة «تلكاتة» التي وضعها ابن حوقل في آخر قائمته الصنهاجية، وأضافها إلى المجموعة الثالثة الخارجة من صنهاجة. ونتفق مع «هنري روجي إدريس»[51] من أن تلكاتة كانوا في المنطقة الغربية من المغرب الأوسط، نظرا لعلاقتهم التنافسية وصراعهم على المنطقة مع «مغراوة» الزناتية في آخر القرن الثالث الهجري/9 م الذي يوافق نهاية العهد الأغلبي[52]. ويعني ذلك كله

(48) صورة الأرض، ص98 ، فقرة 57

(49) نفسه، ص104 فقرة 62 .

(50) نفسه والصفحة.

(51) صورة الأرض، ص102 ، هـ ر . إدريس الدولة الصنهاجية ج1 ص36 .

(52) ابن خلدون: العبر 312/6 .

أن هذه المجموعة القبلية لا تمثل حلفا قبليا واحدا، ولا عرقا نسبيا مميزا على غيره من المجموعات الأثنية في بلاد المغرب. وبحكم العلاقات التي كانت تربط القيروان وإفريقية بإفريقيا جنوب الصحراء عن طريق القوافل التجارية وأهمية الدور الذي كانت تباشره « مجموعة أنبية »[53] التي تمكنت في القرنين الثاني والثالث الهجريين /8-9م من تكوين حلف قبلي صنهاجي جنوبي في الامتداد الصحراوي بين سجلماسة وغانا وفي مساحة واسعة جدا، وقد حددت بعض الدراسات تاريخ تكوين هذا الحلف بالعقد السادس من القرن الثاني الهجري/ الموافق للعقد السابع من القرن الثامن الميلادي[54]. وكانت الزعامة التي تولت هذا الحلف هي قبيلة «لمتونة» التي وضعها ابن حوقل ضمن قبائل صنهاجة الخلص[55]، وهي التي تزعمت

---

(53) إن أول المصادر التي ذكرت قبيلة أو مجموعة «أنبية» هو الجغرافي العربي الفزاري، الذي نقل كلامه المؤرخ المسعودي أن «أنبية» كونت حلفا قبليا بين سجلماسة وغانا، وقدر مساحة نفوذ هذا الحلف الذي وصفه اليعقوبي بمملكة أنبية (2500 x 600 فرسخ). و مما يؤكد أن أنبية مقصود بها الحلف الصنهاجي الأول . ما ذكره اليعقوبي من أنه في المنطقة الواقعة بين سجلماسة وغانة قوله «... ثم يلقاه (المسافر). قوم يقال لهم أنبية من صنهاجة».. (البلدان ص360). أما ابن عبد الحكم فقد وصفهم بأنهم «بطن من البربر» (فتوح إفريقية ص267). ورغم محاولة المقاربة في المصادر الممكنة، فإننا لم نهتد إلى ضبط أصول هذه القبيلة وتشخصيها علميا.

أنظر في الموضوع: المسعودي: مروج الذهب، 2 ص377 فقرة 1367 ثم الفهرست التي وضعها لمروج الذهب مادة «أنبية» ج6 من تحقيق شارل بلا، ابن الفقيه: البلدان ص64 ، 81 ، 84 ، 87 ،. البكري: المسالك 495/1 فقرة 832 .

(54) أحمد الياس حسين: العلاقات بين مملكة غانا والمغرب العربي أطروحة دكتوراه، مرقونة قدمت لجامعة القاهرة معهد البحوث والدراسات الإفريقية، سنة 1986 ص.ص56-58 .

(55) صورة الأرض، ص101 .

صنهاجة في القرن الخامس الهجري /11 م وأسست الدولة المرابطية[56]. ويصف ابن الخطيب وابن خلدون زعيم حلف أنبية الصنهاجي و«تلاكاكين» بأنه كان «يركب في مائة ألف نجيب»[57] وأنه «دان له السودان واتقوه بأداء الجزية أزيد من عشرين ملكا»[58]. ولكن الملاحظة التي نسجلها على اللائحة القبلية التي دونها ابن حوقل، وذكره لقبيلة لمتونة، هي أن لمتونة وردت عنده قبيلة عادية، وليست زعيمة لتجمع قبلي، في حين أشار إلى قوة قبلية مسوفة، وزعامة قبيلة «تانماك» ملوك تادمكة، والتي اعتبرها من القبائل المنسوبة لصنهاجة. والمهم أن ابن حوقل أشار إلى ثلاثة قبائل كبرى لم تكن لمتونة من بينها فقال[59]: «فمن ذلك شرطة، وسمسطة، وبنو مسوفة. قبيل عظيم من المقيمين بقلب البر» وبعد أن يصف نمط حياتهم يتكلم على نفوذهم ومكانتهم في مجالهم الصحراوي قائلا[60]: «لهم ملك يملكهم ويدبرهم تكبره صنهاجة، وسائر أهل تلك الديار، لأنهم يملكون تلك الطرق». والأبحاث الحديثةالمتخصصة في الدراسات الصحراوية الإفريقية[61]، تعتبر «أنبية»

---

(56) ذ.حسن أحمد محمود: المرحلة الإفريقية من تاريخ المرابطين، المجلة التاريخية المصرية، المجلد 1965/12 ص113 . قيام دولة المرابطين، ص26-36 حيث يرى أن انقسام صنهاجة كان نتيجة لعامل خارجي.

(57) ابن خلدون: العبر 372/6 .

(58) ابن الخطيب: القسم الثالث من «أعمال الاعلام» ص225 .

(59) ابن حوقل: صورة الأرض، ص98 فقرة 56 .

(60) صورة الأرض ص98 .

(61) Lewicki: Lamtuna, Art. dans l'Encyclopédie de L'Islam, (2ème édit) Cuoq (Jo.M): Recueil des sources arabes concernant l'Afrique Occidentale du VIIIè au XVIè siècle, (Bilad Al-Sudan). Edition (C.N.R.S), Paris 1975, p.42. Note 4.

.../...

ماهي إلا اتحادية قبلية تزعمتها قبيلة لمتونة. وهذا ما يحملنا على تفسير نص كلام ابن حوقل بأنه خاص بوجود نوع من التناقس بين مسوفة ولمتونة في مرحلة عبوره للصحراء. وكانت الغلبة فيه لمسوفة مؤقتا. وأدى التنافس إلى انقسام الحلف الصنهاجي الجنوبي الأنبيي إلى جناح لمتوني قديم وآخر مسوفي جديد، في أواسط القرن الرابع الهجري /10 م. بالإضافة إلى تدخل زناتة في المنطقة الجنوبية الرابطة بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي.

وهكذا يظهر التعمير القبلي الصنهاجي بالمغرب الكبير في واجهتين متباينتين طبيعيا من الناحية التضاريسية والمناخية والإيكولوجية. ولكن التوزيع الجغرافي للوجود الصنهاجي العام نسجل عليه ارتباطه وتلازمه مع نظام الطرق التجارية القوافلية سواء في الشمال أو الجنوب (أنظر خرائط الطرق 1، 2، 3،) فالقرن الرابع الهجري /10 م هو قرن هيمنة التجارة

.../... ويمكن أن نعتبر ما ذكره المؤرخ ابن الخطيب مدعما لرأينا في الموضوع رغم تأخر المؤرخ الأندلسي عن عصر دراستنا. فقد أشار إلى أن مجموعة « أنبية الصنهاجية » أصابها الضعف، وتعرض حلفها القبلي إلى الإنقسام والافتراق عام 306 هـ / 918 م. ودام هذا الضعف لمدة مائة سنة (100 عام)، أي إلى بداية التحرك المرابطي. ونقل هذا الرأي أيضا المؤرخ ابن أبي دينار، رغم أن البكري وابن خلدون يذهبان إلى استمرار قوة تجمع أنبية قويا كما بدأ أول مرة في القرن الثاني الهجري، ويؤيد رأينا أيضا ما أثبتته الدراسات الأثرية التي أجراها الباحث الفرنسي المتخصص « جان دوفيس » والباحث « روبير سييرج » في جنوب موريطانيا الحالية، بأودغشت، أنظر: ابن الخطب، القسم الثالث من أعمال الأعلام، ص225 . ابن أبي دينار: المؤنس ص104 . البكري المسالك والممالك، 860-857/2 ، الفقرات (1430 ، 1431 ، 1432 ، 1433 ، 1434) مع ملاحظة أن البكري نقل كلام الفزاري وابن حوقل، ثم انظر ابن خلدون العبر 372/6 . ثم قارن بما جاء عند الباحثة الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش: دولة المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا. ط دار الغرب الإسلامي. بيروت 1988 ص32 وما بعدها.

Deviee (J):La question d'audagust dans Tegdoust, tome I, 1970, pp.109-156.

القوافلية الإسلامية، على الإقتصاد التجاري العالمي آنذاك، فكان من الطبيعي أن تحدث تحولات وتغيرات إثنية واجتماعية في مناطق العبور، و بالتالي تبني نظامها الإجتماعي أو تعد له وفقا للغالبين.

وأيضا إذا عدنا إلى موضوعنا الأساسي في هذا المبحث، وهو معالجة البنية البشرية وظاهرة التحالف في المناطق الغربية للدولة العبيدية. نلاحظ أن اليعقوبي وابن حوقل يتكاملان من أجل إعطائنا صورة شبه متكاملة لهذا الجانب من جوانب بحثنا، ونقول شبه متكاملة، لأن كلا منهما لا يتعرض الى المجموعات المصمودية إطلاقا. كما لا يذكران إثنيات الأطلس المغربي بالصورة التي تقنع بقبولها، فاليعقوبي وصف أهل أغمات بالصنهاجيين(62)، وهذا الوصف يحتمل الوصف الشمولي العام، ولا تقبله الدراسات الأثنية، كما يصدق على معنى وصف القلة، فيكون اليعقوبي قد اهتم بالأثنية الصنهاجية التي وجدت في غالبية المحطات الطرقية القوافلية مثل هوارة. أما ابن حوقل فقد اهتم بالإحصاء الأثني المصنف إلى حلفين قبليين رئيسيين في عصره، وهما المجموعتان القبليتان اللتان كانتا محور الأحداث والوقائع التاريخية في عصره، وهما صنهاجة وزناتة. وخريطته البشرية على هذا الأساس تضع «المجموعة الزناتية» بين المجالين الجغرافيين اللذين انتشر فيهما التجمع الصنهاجي بقسميه، أو متداخلا في المناطق الصنهاجية. فكيف إذن تظهر المجموعة الزناتية عند اليعقوبي وابن حوقل معا؟

(62) البلدان ص360 « أغمات وهو بلد خصب فيه مرعى ومزارع في سهل وجبل، وأهله قوم من البربر من صنهاجة ».

ب-زناتة عند اليعقوبي وابن حوقل.

إن الصورة المستخلصة عن «زناتة» في كلام اليعقوبي لا تخرج عن كونها قبائل الشتات في مناطق الصراع والتنافس من الجهات الغربية، كما أنه تكلم عليها بحكم المصادفة عبر طرق القوافل أو في أماكن تسيطر عليها بعض القبائل المتحالفة مع زناتة الكبرى. بحيث أعطانا جغرافية بشرية لزناتة في شمال الجهات الغربية، لا تنفصل عن جغرافية توزيع قبائل هوارة ولواتة، وكأن المصادفة هي صاحبة الدور الفعال في الوجود الزناتي بهذه الجهات. والجدول السابق الذي خصصناه للقبائل بالاعتماد على اليعقوبي لا تظهر فيه إلا تسع قبائل (9 قبائل) زناتية وهي التي صرح اليعقوبي بانتمائها إلى زناتة. مع أن منها ما اعتبر عند الجغرافيين ومنهم ابن حوقل، من حلف آخر، مثل هوارة وصنهاجة درعة. والمهم أن المسألة تضبط بتحكم تموضع القبيلة في النظام المساليكي بالبلاد الغربية، كما يتحكم فيها جانب سلطة العامل الإقتصادي والسياسي، فهما العاملان الرئيسيان في تحديد الإنتماء ولعل هذا هو الذي جعل وصف اليعقوبي وذكره لهوية القبائل موافقا لما كان سائدا في أواسط القرن الثالث الهجري /9 م.

أما ابن حوقل فيقدم لنا احصاءا قبليا زناتيا يكاد يكون شاملا، وهنا نشر إلى أن هذه القائمة القبلية الزناتية تزامن مرحلة الصراع الزناتي العبيدي الذي أعقب ثورة «أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي النكاري وعاصرت أيضا ابنه «أيوب»(63) الذي اهتم بمسألة ضبط أنساب البربر في المغرب، وعلاقتهم السلالية أو الإنتسابية مع العرب وخاصة ما كان منها ذا

(63) يعتبر أيوب هذا مرجعية أنساب البربر عند ابن حزم، الذي نقل رأيه بالإعتماد على يوسف الوراق الذي نقل عن أيوب نسب زناتة، ابن حزم الجمهرة ص495 .

حضور تاريخي روحيا وسياسيا، ولا يهمنا هنا أن نخوض في موضوع «النسب السلالي» للبربر، بقدر ما يهمنا أن ندرس البنية البشرية للبلاد الغربية على ضوء لائحةابن حوقل.

فاللائحة القبلية بوجه عام(64) تذكرنا طريقة وضعها وتصنيفها لقبائل بربر المغرب برمته، بالتصنيف الثنائي لهم: البتر، والبرانس، فالأول تحالفي نمطي،والثاني مظهري سلوكي. فابن حوقل لا يرى في المجتمع المغربي البربري خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري /10 م، إلا صنفين من السكان البربر هما :1) صنهاجة (رغم تقسيمه لهم نمطيا، صنهاجة الخلص، وصنهاجة الخلطاء)، 2) وزناتة (رغم تقسيمه لهم إلى زناتة لواتة وزناتة مزاتة).

لكن عندما أضع أمامي الخريطة البشرية لهذه الجهات الغربية التي يمكن استخلاصها من مصادر هذا العصر، ألاحظ مباشرة أن ابن حوقل أهمل - قصدا أو بدون قصد - عناصر عديدة أدرجها الجغرافيون قبله مثل ابن خرذابة، والاصطخري وكذلك مؤرخوا الأحداث، فقد أدرجوها ضمن صنف آخر هو مجموعة مصمودة، فلم يذكر قبائل شمال المغرب الأقصى، ولا قبائل الأطلس المتوسط، ولا قبائل الأطلس الكبير وما كان في هوامش هذه المناطق التي لا تمر بها طرق القوافل التجارية. ويتضح هذا أكثر عندما نقرأ خرائط تطور الطرق في المغرب الأقصى من القرن الثالث الهجري /9 م إلى القرن السادس الهجري/12 م. (قارن الخرائط1 ، 2، 4،3) ثم لاحظ تطور واستحداث الطرق الجديدة في المغرب الأقصى لتصل إلى ما نلاحظه على ابن حوقل.

فلم يقدم لنا إبن حوقل مسحا كاملا لهذه الجهات المغربية، بل نسجل حقيقة أخرى، وهي أننا كلما تابعنا قراءة نص كلام ابن حوقل الذي صور به

---

(64) ابن حوقل صورة الأرض، ص101-103 (الفقرتان 62 ، 63).

المغرب كله (حسب اصطلاحه طبعا)، إلا وتضعف معرفتنا بالمنطقة من الشرق إلى الغرب، من النيل أو من برقة إلى طنجة أو المحيط الأطلسي، فالمغرب من حوض نهر ملوية خاصة إلى المحيط، ما زال لم يكتشف بشريا الاكتشاف المطلوب لدى جغرافيي المشرق العربي. فماذا كانت تخبئه هذه الجهات في أحضانها الغامضة من أسرار على المستوى البشري والإجتماعي والإقتصادي؟ وهل يجب أن ننتظر القرون اللاحقة لنعرف بعض تلك الحقائق؟

لنعد إلى زناتة ابن حوقل: ونعني زناتة كما قدمها لنا في كتابة «صورة الأرض»، وهي الصورة التي تصور زناتة في القرن الرابع الهجري 10/ م [65] . فهذه القائمة تتضمن (144 إسما قبليا)، وذكرها كالتالي:

1) القبائل الزناتية الخلص، أو التي اعتبرها من «صلب زناتة».

2) القبائل التي اعتبرها من عصبة زناتة وهي من لواتة ومزاتة.

3) القبائل الملحقة بزناتة أو المتحالفة معها.

هذه المجموعة القبلية لم يوطنها ابن حوقل، ولكن الذي يظهر من قراءة النص المتعلق بالمغرب كاملا، يتبين أنها تنتشر في مناطق السهوب والمراعي، كما ينتشر قسم منها في مناطق الاستقرار وأقاليم الزراعة في الجهات الشمالية من البلاد الغربية على البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى وجود كثير من قبائلها في الجهات الجنوبية الصحراوية المتاخمة لمجال الإنتشار الصنهاجي الجنوبي. ويلاحظ أن القائمة غير كاملة كما وضعها ابن حوقل بحيث لم تصلنا كما وضعها. فالنص المنشور فيه بياضات الحدف، وخاصة في بداية ذكره للقبائل المضافة المتحالفة مع زناتة الخلص وزناتة

---

(65) صورة الأرض، ص.ص 102-103 (فقرة 63).

عصبة لواتة ، وزناتة عصبة مزاتة. وهكذا يظهر تصنيف ابن حوقل لزناتة كالتالي:

1) زناتة الخلص (من صميم زناتة) .... 74 إسما قبليا.

2) عصبة زناتة من لواتة ومزاتة .... 48 إسما قبليا.

3) القبائل المتحالفة أو الملحقة بزناتة .... 22 إسما قبليا.

مجموعة القبائل الزناتية =144 ....إسما قبليا.

فهذا الجرد القبلي الزناتي، يظهر منه أنه يمثل انتشارا قبليا ريفيا وبدويا في معظمه. يمتد من برقة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا. ويظهر أيضا أنه مجموعة بشرية متشابهة في نمط عيشها الرعوي (وهو النمط الغالب عليها)، فكان من الطبيعي أن تتحرك في هذا المجال الواسع بحرية مطلقة، مما يؤدي إلى الصراع على المجال الحيوي صراعا مريرا ودائما مع المجموعات القبلية الأخرى. وينتج عن كل ذلك « نظام التحالفات القبلية» وهوما عرف بنظام «اللف»[66] وهذا النظام نوعان من التحالف: التحالف

---

(66) مئات وأقلها 12 خيمة. ومن أسباب تكوين الدوار أو انقسامه إلى دواوير، وفرت المراعي أو قلتها، بالإضافة إلى اختلاف حالة الأمن. ويرأس كل دوار شيخ ينظم العلاقات والتسيير والتوجيه العام . أنظر: دائرة المعارف الإسلامية E.I. 2ème في طبعتها الجديدة الجزء 2 ص 180 مقال Dawar بقلم وليم مارسي وكولان W.Marçais et S.Colin وحول مسألة « الحلف » القبلي دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية ج9 ص308 مادة «دوار » وقد عرفت دائرة المعارف الإسلامية الدوار بأنه مضرب الخيام وتجمعها، توجد عند الرحل عموما في بلاد المغرب، وهو الصورة الأولى للتجمع البشري التي لها حضور كبير في تاريخ مجتمع هذه المنطقة المغاربية. ويتفاوت عدد الخيام التي يتكون منها «الدوار » تفاوتا كبيرا. فقد بلغ عددها بضع .../...

المؤسس. والتحالف التابع، وبهما يكتمل اللف أو ما عرف عند ابن خلدون ب «عصبية الدولة القبلية» وعندئذ يظهر الحلف المضاد أو اللف المضاد. وهكذا يمكن أن نقرأ التصنيف القبلي الذي قدمه لنا ابن حوقل. في القرن الرابع الهجري /10 م الذي هو مرحلة صراع حلفين ولفين قبليين مغربين كبيرين هما الحلف واللف الصنهاجي والحلف واللف الزناتي.

وأول ملاحظة عامة يمكن تسجيلها على لائحة القبائل الزناتية عند ابن حوقل، تتعلق بالوصف العام لهم وهي أن زناتة كلها تنتشر في منطقة المراعي بين صنهاجة الصحراء وصنهاجة الجبال. فهم بذلك قبائل الترحال والرعي في سهوب بلاد المغرب الكبير. بالإضافة إلى وجود قبائل منهم المستقرة على الساحل الشمالي للمنطقة المغربية كلها من برقة إلى طنجة. والملاحظة الثانية هي أن ابن حوقل اهتم بفرع من المجموعة الزناتية، وهم الذين وصفهم ب «ملوك زناتة»(67). وهم «بنو ورززمار(68)؟» ولعله «وزمار»

.../... المكون لدولة القبيلة، أنظر: دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) ج 9 ص308 . ونتفق مع ما جاء فيه من آراء وأهمها: أنه كان ينظم على هيئة حرس أهلي، وعلى أساس قطائعي.
ويتطور هذا الإطار الإجتماعي من الدوار إلى الحلف ثم إلى اللف وهو أعلى مراتب التنظيم الإجتماعي القبلي المغربي في العصور الإسلامية الأولى فهو تنظيم حربي وسياسي. ثم بعد ذلك تأتي مرتبة «دولة العصبية». ولتفصيل موضوع اللف أنظر أيضا: دائرة المعارف الإسلامية، في طبعتها الجديدة بالفرنسية E.I. 2ème Edit مادة «اللف=Leff» بحث للباحث الأمريكي «جيلينير=E.Gellner"ج5 ص ص 720-721

(67) ابن حوقل: صورة الأرض، ص103 فقرة 63 .

(68) رسمها النص العربي المنشور « لصورة الأرض» (ابن حوقل) كما رسمناها. «بنو ورززمار» وكذا جاء عند الداعي إدريس ص221 . ويظهر أنه تحريف من النساخ لاسم «وزمار» الذي نسب ابن خلدون «بني خزر» الزناتيين المغراويين. أنظر: العبر 215/6 ، والترجمة الفرنسية كذلك، ج1 ، ص195 .

الذي اعتبر عند قبيلة «مغراوة» وفروعها مثل «بني خزر» أساسا لولائهم للأمويين الأندلسيين. وعلى هذا يكون إسم «بني وزمار» ما هو الا أسرة النفوذ والرئاسة المغراوية، واعتبرهم ابن حوقل قبيلة مستقلة، قياسا على ما فعله مع مجموعة صنهاجة، حيث اعتبر « بني تانماك» المسوفية، فمنهم زعماء الحلف الصنهاجي الجنوبي في جناحه المسوفي، وتماركيزت ملوك تادمكة فهم من لمتونة، واعتبر مساطة أو مزاتة قبيلة لبني زيري بن مناد التلكاني في فرع صنهاجة الشمال.

ثم إن ابن حوقل اعطانا تصورا آخر للمجموعة الزناتية، يمكن أن نرى فيه صورة حقيقية لطبيعة التحالفات البربرية في عصره. ذلك أنه قسمها إلى « عصب قبلية»، ويهمنا منها عصبتين: أ- عصبة لواتة. ب- عصبة مزاتة.

ثم ذكر قائمة بما سماه قبائل «صلب زناتة» وبها بدأ لائحة القبائل الزناتية، وفيها وضع أشهر القبائل الكبرى المكونة للمجموعة الزناتية. ونخص بالذكر منها حسب لائحته طبعا: مغراوة، بنو ورتجين، بنو يلومي، زواوة، مكلاتة، منجصة، بطوية، بنو ومانو، بنو وفا (بنو العافية)، صدينة، بنو برزال، بنو زوراغ (لعلها زواغة).

ونلاحظ أن هذه الأسماء تنتشر في الجهات الغربية. كما توجد بطون لها في كل الجهات من برقة إلى المحيط الأطلسي غربا. بل وكان لها حضور في أحداث القرن الرابع الهجري /10 م. وما بعده. لكن السؤال الهام في سياق بحثنا، هو ماذا يعني عند ابن حوقل «صلب زناتة» في تصنيفه؟ هل يعني القبائل الكبرى التي تزعمت تكوين وحدة التجمع الزناتي؟ أم يعني القبائل البدوية التي كانت تعتبر من الرحالة الكبار، وتمكنت من السيطرة على مجالات واسعة من منطقة السهوب الرعوية في بلاد المغرب، وكانت فعلا

تتحرك فيها منتجعة، و بالتالي رافضة لنفوذ التجمع الصنهاجي بقسميه الجنوبي والشمالي؟

المهم أن مفهوم «صلب زناتة» يعني عند ابن حوقل القبائل البربرية التي ركزت وجودها في منطقة ما بين نهر شلف ومضيق تازا غرب مجرى نهر ملوية. وقد وضع ابن حوقل الصورة الزناتية لهذا المجال الجغرافي بطريقة غير صريحة، ولكنها تستنتج من خلال قراءة كلامه على الطرق والمسافات، والمراكز والمدن الواقعة في هذا المجال الحيوي لزناتة.

لقد بدأ قائمة قبائل زناتة بأهم وأبرز قبيلة في هذا التجمع وهي قبيلة «مغراوة» وختم قائمة قبائل «صلب زناتة» باسم قبلي هو «يغمرة»؟، ولعلها هي التي عرفت ب «غمرة». وإذا قارنا بين لائحة قبائل زناتة عند ابن خلدون، وقائمة ابن حوقل، ندرك أن كثيرا من أسماء قبائل ابن حوقل قد اختفى، وبعضها تطور وتوسع، لهذا نرى من الضروري الوقوف قليلا عند أهم الأسماء التي لعبت دورا في «الفعل السياسي» والقيادة في هذا التجمع الزناتي خلال القرن الرابع الهجري /10 م. ونرى أن أهم هذه القبائل الداخلة في صلب زناتة، أو المؤسسة للحلف الزناتي هي:

مغراوة، صدينة، بنو وطوف، بطوية. وهذا الاختيار لهذه الأسماء هو اختيار نوعي تمثيلي فقط، لأنه يمثل انتشار هذا التجمع الزناتي المؤسس في الجهات الغربية كلها وخاصة في مناطق أحواض الأنهار الكبرى، ومجالات الرعي، بالإضافة إلى أنه يمثل الجهات التي تعبرها طرق القوافل، ونقف قليلا عند هذه الأسماء القبلية كما وردت عند ابن حوقل.

- مغراوة [69]

تعتبر مغراوة في القرن الرابع الهجري، من أوسع وأهم قبائل التجمع البربري الزناتي، انظوت تحت إسمها بطون، وأسماء قبلية كثيرة[70] وتوسع انتشار مغراوة في هذا القرن وما بعده بين افرقية والمغرب الأقصى (بلاد السوس). ومن حوضي نهري شلف وملوية شمالا إلى التخوم الصحراوية، أي في المنطقة المغربية كلها. إلا أن أهم مراكز التجمع المغراوي تتركز في حوض نهر شلف والهضاب العليا من المغرب الأوسط وبجبال الونشريس وانتشرت بطون مغراوية في سجلماسة جنوبا، وحوض نهر سبو شمالا، وقد انتشر في المغرب الأقصى إسم «مغراوة» باعتباره إسما مكانيا وخاصة على السفوح الشمالية للأطلس المتوسط (أي جنوب فاس). مما يثبت التأثير المغراوي في مجالات انتشارهم التي تبتدئ

---

(69) قام ابن خلدون بجرد عام لتاريخ مغراوة، وحاول إعطاء جردا نسبيا على أساس نظرية النسب السلالي المعروفة، منذ تأسيسها في القرنين الثالث والرابع الهجريين، ورغم أننا لا نتفق معه في هذا الإتجاه النسبي (الجنيالوجيا البربرية المبنية على القرابة الدموية) فإن الذي يهمنا في هذه الإحالة هو تأريخه للفعل السياسي لمغراوة خلال القرون الخمسة من الفتح الإسلامي إلى قيام المرابطين، إذ يعطينا صورة للصراع القبلي البربري المغربي ودور مغراوة فيه. أنظر ابن خلدون: العبر 179/6 وما بعدها، 50/7 وما بعدها و بالنسبة للتطور التاريخي العام لمغراوة نحيل بوجه خاص على البحث الهام الذي حرره الباحث المتخصص «لويكي "T.Lewicki" بالموسوعة الإسلامية في طبعتها الجديدة 1986 ج5 ص.ص -1173 1163 وقائمة مصادر هذا البحث.

(70) ابن خلدون: 10/7 وما بعدها و ص50 وما بعدها. لويكي: مقال مغرّاوة Maghrawaص1164 .

طوبونيميا من جنوب طرابلس الغرب(71) إلى المحيط الأطلسي. ويحتمل -وهو الغالب في رأينا- أن يكون إسم «مغراوة» قد تسمى به هذا التجمع القبلي، الذي يغلب على الظن أنه منطلق هجرتهم من جنوب طرابلس إلى هذه الجهات الغربية في القرن الخامس الميلادي أثناء انتقال قبائل الجمالة بزعامة «لواتة».

وحاولت الأبحاث المتخصصة الحديثة، مقاربة إسم مغراوة بالقبائل التي تعرضت لها المصادر الكلاسيكية (قبل الإسلام). وهي قبائل «الماكوريبي =Macurebi" بناء على مقاربة الباحثين الغربيين (72). وكانت تنتشر في ليبيا. ولكن يمكن أن نطرح افتراضا آخر يتعلق بهذه المقاربة إلى «الماكوريبي»، وذلك أن ابن حوقل قد أعطانا إسما قبليا زناتيا في آخر لائحته وهو «كوراية» ولعله أقرب إلى «الماكوريبي» من مغراوة إذا احتملنا تعرضه للنحت اللغوي البربري المعتمد على الاختصار بحذف حروف الكلمات صوتيا ودخول المؤثرات اللغوية العربية في المنطقة.

والمهم هو أن « مغراوة » لم تتحول إلى قوة قبلية لها دورها في تاريخ المغرب وخاصة في جهاته الغربية إلا ابتداء من آخر القرن الثالث الهجري 9/ م، و في الرابع 10/ م صارت محورا فعالا في توجيه المنطقة الغربية كلها

(71) ابن خلدون : العبر (الترجمة الفرنسية لقسمه المغربي) Histoire des Berbères, vol IV, p.513 (Table géographique), voir:Maghrao.
فمازال إسم جبل بجنوب طرابلس يحمل إسم « مغراو »

(72) ونقصد بهم «كوتيي» و «دي زنج» و «لويكي»:
Gautier, le Passé de l'Afrique du Nord, pp.222-3.
Desanges, catalogue des tribus, p.58.
T.Lewicki: op.cit
ورسم هذا الأخير إسم الماكوريبي هكذا Makkourébi

إلى القيام المرابطي في أواسط القرن الخامس الهجري /11 م. إلى جانب مكناسة وبني يفرن.

وأول تطور سياسي مغراوي ظهر مع أحد فروع القبيلة الكبرى وهم «بنو خزر» ولم يشر إليهم ابن حوقل في قائمة قبائل زناتة باعتبارهم قبيلةمستقلة. وبدأت إمارة بني خزر المغراويين في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة /8 م. و في 172 هـ/ 789 م. سيطرت مغراوة مع بني يفرن على تلمسان، ومن هذا التاريخ تداخل النفوذ المغراوي مع نفوذ أدارسة المغرب الأقصى في المغرب الأوسط، مع نفوذ بني رستم التاهرتيين. مما جعل جهات ما بين شلف وملوية مجالا لنوع من التنافس بين السيطرة القبلية الزناتية، وبين التبعية الروحية والولائية للزعامات السياسية القائمة في كل من فاس وتاهرت أو الأدارسة وبني رستم. وهذا التنافس القبلي خاصة هو الذي خلق صراعا داخليا بين القبائل الكبرى الزناتية وخاصة قبائل جراوة وبني يفرن، ومغراوة ومكناسة. ونتج عن هذا التنافس القبلي تقسيم مجالي للنفوذ بين هذه القبائل الكبرى الزناتية من شلف إلى حوض ملوية. مما أعطى نوعا من الهدوء فيما بينها طيلة القرن الثالث الهجري /9 م. ونشأت في هذا القرن مراكز (مدن) محورية تعبرها القوافل، و بالنسبة لقبيلة مغراوة أو إمارة «بني خزر المغراوية» الذين أنشأوا مدينة «بني خزر» في المنطقة السهلية حول مدينة تلمسان. ولا نعلم بالضبط موقعها حاليا، وتعتبر من المدن أو المراكز المندرسة التي تعرضت للهدم والتخريب أثناء الحملة العبيدية الأولى التي اكتسحت المنطقة سنة 298 هـ/910 م.

ورغم الضغط العبيدي المتوالي على مغراوة فقد تطور التجمع المغراوي في الجهات الغربية بزعامة بني الخير، واستمرت معارضتهم للعبيدين وحلفائهم الصنهاجيين طيلة القرن الرابع الهجري /10 م. حيث

استمرت المنطقة بين تلمسان وسجلماسة هي الميدان الساخن في هذا الصراع العام بين أمراء مغراوة والقوى السياسية العبيدية والأموية. وهكذا يظهر هذا المجال الساخن، مجالا للسيطرة على الطرق التجارية، فهي محرك الأحداث الكبرى. سواء في إطار الصراع القبلي داخل زناتة أو بين القوات السياسية العبيدية والأموية الأندلسية، أو على مستوى الإمارات المحلية التابعة لكل جهة قوية: عبيدية أو أندلسية.

واستمرت مغراوة في الجهات الغربية تتأرجح بين الولاء والطاعة للخلافتين الفاطمية والأموية، إلى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري /10 م حيث تمكنت من تكوين إمارات قبلية مغراوية في هذه الجهات، وهي باختصار:

أولا : إمارة تلمسان المغراوية برئاسة يعلى بن محمد بن الخير المغراوي، سنة 376 هـ/ 986 م. وقد مهد لذلك الحضور المغراوي الكبير، حيث كانت قبائل مغراوة تتنقل تحت قيادة محمد بن خزر في جميع أنحاء المغرب الأوسط من منطقة الشلف إلى ما وراء تلمسان. ونلاحظ أن التدخل الزيري الصنهاجي في منطقة مغراوة في سنة 360 هـ/ 970 م نتج عنه انتقال قبائل وبطون مغراوية إلى ما وراء نهر ملوية غربا، ومع ذلك بقيت في حوض نهر شلف قبائل مغراوية أخرى كونت إمارة شلف المغراوية برئاسة قبيلة «بني وارسفين» وهم الذين ذكرهم ابن حوقل باسم «بنو وارونيفين» وباسم «بنوا واريفن»، وتذكر المصادر(73) أن بلكين الصنهاجي

(73) ابن خلدون: العبر 51/7 وما بعدها. هنري روجي إدريس: الدولة الصنهاجة ج1 ص92-93 (الترجمة العربية) و ص322-323 حيث أشار إلى أن الناصر الحمادي قام «بعدة حملات عسكرية في المغرب الأوسط وأصبح صديق بني ومانو (العبر 55/7)، وأبعد بلكين بن زيري مغراوة وبني يفرن إلى المغرب الأقصى. ويعني هذا أن التدخل الصنهاجي الرسمي أدى إلى انقسام .../...

بعدما أجلى مغراوة وبني يفرن إلى المغرب الأقصى، سمح لبني ومانو وبني يلومي بالبقاء في جهاتهم الأصلية على نهر شلف. وبعد ذلك في القرن الخامس الهجري /11 م حوالي 457 هـ/ 1065 م أشرف الحماديون الصنهاجيون أمراء أشير وبجاية على تكوين حلف كبير مكون من البربر (صنهاجة)، وبعض عرب بني هلال وهم «الأثبج وعدي » ليكون ضد حلف آخر مقابل لهذا الحلف والحلف المضاد هو الذي كونته مغراوة وقبائل عربية هلالية أخرى وهم بنو رياح وزغبة وبنو سليم. وتعرضت المنطقة لتحالفات قبلية مضادة، أبرز مميزاتها هو التقلب والانشطار، وبذلك عادت المنطقة المغربية إلى الصراع القبلي الذي دخله هذه المرة عنصر جديد وهو قبائل العرب من بني هلال.

ثانيا: الإمارات المغراوية بالمغرب الأقصى: فقد استطاع المغراويون تكوين إمارات مستقلة في المناطق الحيوية تجاريا ،ورعويا، مما يزكي الاتجاه المتمثل في تحكم زناتة في الطرق التجارية الغربية من بلاد المغرب.

أ- إمارة بني الخير المغراويين بسجلماسة. أو إمارة بني خزر السجلماسية في سنة 366 هـ/ 977 م. واستمرت إلى قيام المرابطين في القرن الخامس الهجري /11 م. واستهدفت هذه الإمارة بالتدخلات العسكرية الصنهاجية الموالية للفاطميين. وبالتدخل الأندلسي، من أجل السيطرة على تجارة الصحراء.

ب- إمارة بني زيري ابن عطية المغراوي بفاس التي يمكن أن نسمي إمارتهم «مغراوة شمال المغرب الأقصى». وهم الذين قاموا بدور كبير في

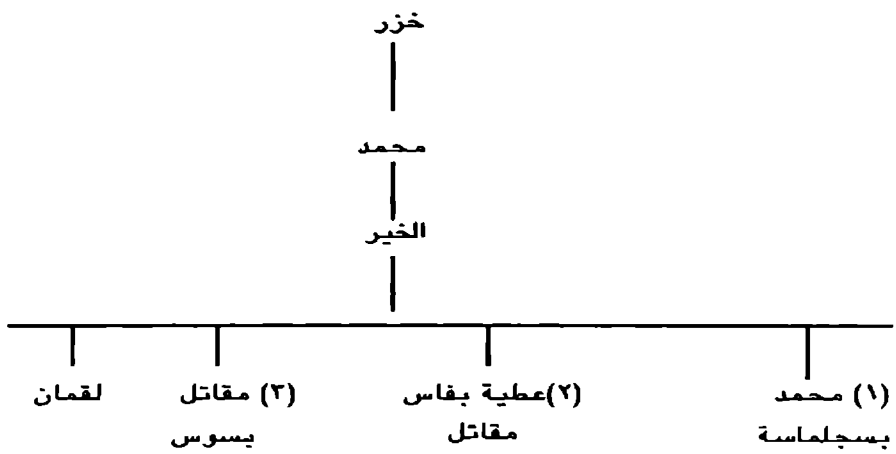
.../... التجمع الزناتي في المغرب الأوسط، كما أدى إلى انتقال قبلي أو هجرة قبيلة من شمال المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى، في النصف الثاني من القرن الرابع هـ/10 م. فهل يعتبر هذا الوضع ما هو الا تنفيذا للسياسة الفاطمية التي رسمها خلفاؤهما أثناء انتقالهم من افريقية إلى القاهرة؟

الصراع الأموي الأندلسي، والفاطمي الصنهاجي حول المغرب الأقصى.

ج- إمارة أغمات المغراوية. وتكونت هذه الإمارة بعد الدخول المغراوي إلى المغرب الأقصى سنة 360 هـ/ 971 م. فهي إمارة صغيرة من بني خزر، أنشئت على أحد الممرات الكبرى التي تعبرها القوافل. على الأطلس الكبير (درن). ويعتبر زعماؤها من فروع أسرة بني الخير التي تولت رئاسة الإمارات المغراوية في الجهات الغربية. وأشهر رؤسائها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي الذي قتله المرابطون أثناء سيطرتهم على أغمات سنة 451 هـ /1059 م.

د- إمارة سوس المغراوية: ترتبط أيضا ببني خزر المغراويين ترأسها الأمير المغراوي «مقاتل» الذي أفادنا ابن حوقل بأنه أخ للأمير أبي عبد الله محمد بن الخير بن خزر» وهكذا ترسم أسرة بني خزر المكونة للإمارات المغراوية بالمغرب الأقصى حسب ابن حوقل(74).

(74) ابن حوقل : صورة الأرض، ص103 آخر فقرة 63 . وبناء على كلام ابن حوقل نستخلص شجرة الأمراء المغراويين بالمغرب الأقصى:



ونشأت هذه الإمارة المغراوية السوسية حوالي 366 هـ/977 م. ولم تسعفنا المصادر بتحديد مجالها الجغرافي، ولكن يغلب على الإحتمال أن تكون على طريق سجلماسة نول لمطة.

وسنعود إلى دراسة هذه الإمارات المغراوية ضمن الفصل الخاص بالمتابعة الوقائعية لتاريخ المغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري /10 م. والذي يهمنا هنا هو رسم صورة للإنتشار المغراوي في الجهات الغربية على مستويين القبلي والفعل السياسي، المسالكي الطرقي.

2- صدينة:

لانملك معلومات دقيقة على قبيلة صدينة قبل القرن الثالث الهجري /9 م. ويرجع أول ذكر لها على حد ما نعلم إلى اليعقوبي وابن حوقل والمصادر الفاطمية[75] التي ذكرتها ضمن القبائل الزناتية الرافضة للطاعة العبيدية، ووطنتها في منطقة شرق تاهرت وصنفها ابن خلدون ضمن بني فاتن[76]. وإلى هذه القبيلة ينتسب في الغالب القاضي الصديني المشهور في آخر عهد الأغالبة، الذي كان يقول بخلق القرءان[77] ، ونسجل أن البكري عند ذكره

---

(75) ابن حوقل: صورة الأرض ص102 . الداعي إدريس: عيون الأخبار، تحقيق اليعلاوي، طبعة دار الغرب الإسلامي 1985 ص216 .

(76) ابن خلدون: العبر 239/6 .

(77) القاضي عياض : ترتيب المدارك، ترجمة 125 ، ج4 النويري: نهاية الأرب ج 92/2، الخشني، 194 ، المالكي: رياض النفوس، 36/2 . وقد اتجه الأستاذ محمد الطالبي اتجاها آخر حيث نسب القاضي المذكور إلى أن نسبته إلى صفة وليس إلى قبيلة، حيث اعتمد على قوة جدله في المناظرة مما جعله يغلب صفة المراوغة، ولعل هذا من نوادر النسب في هذا العصر. أنظر: م الطالبي : الأغالبة، ص595 هامش7.

لأكبر قبائل البربر ذكر صدينة منها(77م).

وصدينة في مصادر التاريخ المغربي التي ألفت في العصر المريني(78)، تعتبرها ضمن القبائل التي ناصرت إدريس الأول، وتوجد قرية قرب تطوان تحمل إسم «صدينة» وقد ألحقت في المغرب بمجموعة «ضريسة». ورغم كل الشيء فإن الذي يظهر من تاريخ «صدينة» أنها قبيلة من صميم زناتة، ولكنها لم تكن زعيمة لأي تجمع، وإنما كانت ضمن التجمع المغراوي المضاد للصنهاجين حلفاء بني عبيد الفاطميين، كما يظهر أنها كانت ضمن القبائل التي انتقلت إلى المغرب الأقصى في أوائل القرن الرابع الهجري 10/ م. وظلت تابعة لأية قوة متغلبة في المنطقة، لضعف عددها. والمهم في ذكرنا لها هو وجودها في شمال المغرب الأقصى، مما يؤكد التأثير الزناتي في هذه المنطقة.

3- بنو وطوف:

ورد هذا الإسم عند ابن حوقل باعتباره من قبائل بربر زناتة الخلص أو حسب تسميته «قبائل صلب زناتة»، وأدرجهة ابن خلدون في مجموعة «نفزاوة»، والحقهم في موطن آخر ببني برزال(79). وهؤلاء انتقل قسم منهم إلى الأندلس مع بني برزال. وأوردناها رغم ذكر ابن حوقل لها للتدليل على

(77م) البكري: المسالك، فقره 539 و ذكرها بنفس الصورة ضمن زناتة (فقرة 1335).

(78) ابن أبي زرع: القرطاس ص39 . عبد الوهاب بن منصور: قبائل المغرب، ص
Eustache (D):Corpus Idrissides,341,310 p.22, Note 134 et p.37 Not
Farhat Dachraoui: Califat Fatimide au Maghreb, p.453. Note 111.

(79) العبر، 179/6 ، 11/7 .

وجود قبائل لم يكن لها دور مذكور في المصادر المهتمة بتاريخ الأحداث المشهورة.

4- بطوية:

اعتبرها ابن حوقل من صلب زناتة، في حين ادرجها ابن خلدون مع صنهاجة[80]. ثم جعل من بطونها «بقوية على تازى»، وبني ورياغل على واد المزمة وقد اعتبر ابن خلدون بطوية أقوى قبائل غمارة أيام إمارة بني صالح بنكور[81].

وإذا حاولنا أن نربط الصلة بين مقاربات وافتراضات الدراسات الحديثة المتخصصة في التاريخ القديم المغربي عموما[82]. فإننا نجدها تحتمل أن تكون قبيلة بطوية أو بطوية أو بقيوة هي في التاريخ المغربي قبل الإسلام التي سمتها المصادر الكلاسيكية من اغريقية ولاتينية باسم الباكوات =Baccuat=Baquat" وأضافت هذه المقاربات إسما أخر وهو الذي رجحته في النهاية وهو برغواطة. ويرجع هذا الاختلاف في المقاربات إلى اختلاف التوطين في المصادر الكلاسيكية للباكوات فتارة -وهو الغالب- تضعها ضمن القبائل القديمة البربرية التي ساهمت مساهمة فعالة في مقاومة النفوذ الروماني بحوض سبو وحول مدينة وليلي، وكذلك في موريطانيا الطنجية.

---

(80) العبر: 312/6 وقال بصريح العبارة في موطن آخر (العبر: 426/6) «ومن قبائل صنهاجة بطون أخرى بجبال تازى وما والاها مثل بطوية».

(81) ابن خلدون: العبر 441/6 ثم قارن بما جاء عند البكري: المسالك، ص769 فقرة 1289 ، ط، تونس 1992 .

(82) Desanges J: Catalogue des Tribus, p.28-31.

Benabou M: La résistance Africaine , p.148, et p.280

والذي يظهر أن «الباكوات» انقسموا إلى قسمين شمالي، وهو الذي جاء منه إسم قبيلة بطوية في العصور الإسلامية. وقسم جنوبي غربي (جنوب حوض سبو) على امتداد السهول الغربية بين سبو وتانسيفت. وهو الذي أعطى إسم «بورغواطة». ونضيف أن تقسيم التجمعات القبلية المغربية إلى مجموعات ثنائية وثلاثية موضوع معروف ومطروح في التاريخ الإثني المغربي عموما. وعليه نساءل في هذا الصدد هل تأثر ابن حوقل في تقسيمه للبربر إلى مجموعتين صنهاجة وزناتة بهذه الظاهرة التقسمية؟

،والمهم أن «بطوية» قبيلة بربرية من المغرب الأقصى في تاريخها القديم والوسيط، ولكن تنوع تصنيفها، إما من زناتة عند ابن حوقل أو من صنهاجة عند ابن خلدون يؤكد أن الإنتساب القبلي على أساس النظرية السلالية الدموية غير سليم وغير دقيق(83).

ونعود إلى قائمة القبائل الزناتية التي دونها ابن حوقل، بعد أن وقفنا قليلا عند قسمها الأول وهو القبائل التي من صلب زناتة التي أوصلها إلى 74 قبيلة. نجده يعطينا أسماء قبيلة أخرى، ولكنه يضعها تحت إسم «عصبة زناتة» من «لواتة ومزاتة».

وقد سبق أن تعرضنا في الباب الأول من هذه الدراسة إلى لواتة وحلفها. والذي يهمنا هنا هو التحول الذي حدث بانضمام لواتة ومزاتة إلى المجموعة الزناتية، وفي هذا السياق نعالج هذا الوضع القبلي الجديد خلال القرن الرابع الهجري /10 م.

---

(83) ويمكن تفسير تصنيف ابن حوقل بمسألة الموقف الذي وقفته قبيلة «بطوية» باتفاقها مع مجموعة زناتة ضد صنهاجة المؤيدة للعبيديين الفاطميين، أما تصنيف ابن خلدون فيمكن فهمه على أساس أن بطوية قبيلة جبلية مستقرة، ولذلك ألحقها بمجموعة «البربر البرانس» والحقها بصنهاجة الشمال.

أ-مزاتة ولواتة في القرن الرابع الهجري[84]

حسب قائمة ابن حوقل، فإن مجموعة قبائل «مزاتة» و «لواتة» المكونة لعصبة زناتة في أواسط القرن الرابع الهجري /10 م. نجدها تتألف من 48 إسما قبليا، ويظهر أن إحصاءه كان كاملا، بدليل أنه أحصى القبائل التي كان لها نفوذ في التجمع الزناتي مثل «بني الخطاب» الذين وصفهم ب ملوك مزاتة كما أدرج في قائمته إسم قبيلة أخرى وصفهم «بالأشرار الأنكاد الأقذار»[85]، وهذا يعني بصورة عامة أن إبن حوقل أثار انتباهه التجمع الزناتي الذي انتشر في مجال جغرافي واسع، وقد فرض نفوذه في مناطق السهوب المغربية الرعوية، وتعبرها طرق القوافل التجارية. وإمتد هذا المجال من برقة وجبال نفوسة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، فكان من الطبيعي نمطيا ونفعيا وحتى مذهبيا أن تتحقق في هذه المجموعات الأحلاف القبلية، التي هي أساس التضامن الجماعي القبلي الريفي أو البدوي[86].

وفي القرنين الثالث والرابع الهجريين /9-10م تداخلت القبائل «المزاتية واللواتية» وتضامنت مع القبائل الريفية البدوية الأخرى، المتشابهة معها في النمط الريفي، وكون الجميع حلفا قبليا واحدا هو الذي أصبح يحمل إسم «زناتة». وهكذا يظهر أن تكوين هذا التجمع بدأ تكوينه منذ بداية الفتح

---

(84) Lewicki T.: Lawata, Art. dans E.I dans E.I. 2ème, T.V, pp.699-702, et Art:"Mazata", aussi dans E.1.2ème, T.VI, P.935-940

(85) ابن حوقل: صورة الأرض ص 103 .

(86) أنظر مقال «البدو Badw» في الموسوعة الإسلامية، الطبعة الجديدة، ج1 ص.ص 896-919 ، وخاصة الصفحات المتعلقة ببلاد المغرب (ص،ص 913-916 بتحرير الباحث «فون وسمان» الذي يقارن فيه ظاهرة البدو في بلاد العرب، والمناطق الصحراوية من بلاد المغرب.

الإسلامي انطلاقا من التجمع اللواتي والمزاتي ثم استوى على سوقه في المغرب الأوسط مع مغراوة ومكناسة وبني يفرن وجراوة وضريسة وصدينة. وهذا يعني أن المرحلة الطويلة الممتدة من القرن الثاني الميلادي (عهد حكم طراجان Trajan 98-117 م). إلى القرن الثامن الميلادي/ الثاني الهجري (مرحلة ثورة الخوارج البربر). تعتبر مرحلة لتكوين «التجمع الزناتي» الذي ينتظم فيه البدو الرحل وأنصاف الرحل، وكان عامل الربط بين القبائل فيه هو الطرق المسالكية التجارية. وكان القرنان الثالث والرابع الهجريين /9-10م مرحلة حقيقية لتضامن هذا التجمع. وفي نفس الوقت مرحلة تشخص فيها صراع قوي داخل هذا التجمع من أجل الزعامة والرئاسات الجهوية التي أفرزتها الحركة التجارية القوافلية، بالإضافة إلى عامل المؤثرات الطبيعية من مناخ وتضاريس وحياة نباتية رعوية وغيرها التي يتحكم فيها نظام الأمطار وتصريف المياه النهرية والعيون المائية.

ويبقى دائما السؤال الذي طرحناه في الباب الأول وهو من اين جاء إسم «زناتة» وما هو أصلها وتطورها الإتيمولوجي؟ وفي جميع الحالات لا نملك جوابا قاطعا يقنع علميا رغم محاولة ابن خلدون التي اعتمدت التفسير الجنيالوجي، والذي قبل في فترة هيمنة علم الأنساب على المؤرخين التقليديين. ودرجت على ذلك الدراسات المتأخرة في الموضوع.

أما إبن حوقل فنراه ينحو نحو تمييز نوعية البدو الرحل وأشباه المستقرين الموجودين على طرق المساليك الطرقية باسم «زناتة» في بلاد البربر. ونظرا لتعدد جماعاتهم في المنطقة يصنفهم إلى أقسام ثلاثة: الخلص أو صلب زناتة، والمتحالفين أو عصبة زناتة، ثم المضافين أو الأتباع. وهذا التقسيم يبتدئ من المغرب الأوسط، ثم ينتقل إقليم طرابلس وبرقة وإقليم الجريد، وجنوب الزاب كما يلتفت إلى غرب ملوية وجنوب بلاد السوس في

المغرب الأقصى، وهذه المجالات الجغرافية هي التي شهدت أحداث الفتوحات الإسلامية وتعرف باستمرار حركة القوافل التجارية الكبرى.

وكانت مجموعة مزاتة ولواتة تمسك بمخانق الجهات الشرقية من بلاد البربر. فكان من المعقول أن تدخل في هذا التجمع القبلي البربري إن لم تكن هي المنظمة والمؤسسة له. وتاريخ كل من مزاتة ولواتة يكشف جانبا كبيرا من جوانب تطور هذا التجمع الزناتي الكبير في القرنين الثالث والرابع الهجريين /9-10 م.

1- مزاتة: اعتبرهم إبن حوقل من القبائل البربرية المكونة للتجمع اللواتي. أما إبن حزم فقد اعتبرهم مع لواتة من الأقباط المصريين[87] إلى جانب كل من «سدراتة ولواتة». فهل هؤلاء هم الذين يسميهم المصريون القدماء ب «المشاواشا»؟ باعتبار النقائش الفرعونية التي تدرجهم في قبائل «الليبو»، وتسموا بعد ذلك بالبربر. فيكون «المشاواشة» هم أصل «مزاتة»[88] ثم نضيف سؤالا. هل يمكن اعتبار هؤلاء هم قدماء البربر في الجهات الشرقية من بلادهم الممتدة إلى المحيط الأطلسي؟

وإذا انتقلنا إلى العصر الإسلامي، فإن أقدم المعلومات التي وصلتنا عن «مزاتة» نجدها عند ابن عبد الحكم المتوفى في القرن الثالث الهجري (تـ 257 هـ/ 871 م)[89]. عندما كان يتكلم على أخبار يزيد بن حبيب وتدخله في

---

(87) ابن حزم الجمهرة / ص498 .

(88) أنظر: مقاربة المشاوشة بمزاته التي حاولها الباحث «لويكي» في مقاله عن «مزاته» في الموسوعة الإسلامية، الطبعة الجديدة بالفرنسية ج6 ص936 .

(89) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وافريقية والمغرب ص196 حيث أشار إلى موطنه في الجنوب الشرقي من برقة « أرض مزاتة».

إقليم برقة سنة 128 هـ/746 م. وكانت مجموعة مزاتة في هذا القرن منتشرة فيما بين الاسكندرية إلى إقليم الزاب ويغلب على الظن أنهم كانو من مؤسسي مدينة تاهرت. وبناء على ابن حوقل فإن «مزاتة» كانت تتكون من عدة قبائل أو أفخاذ، وكذلك عند ابن خلدون، لكن لائحة ابن حوفل المزاتية تأتي مختلطة، لا تميز بين ما كان له أصل عربي مثل بني الخطاب الذين وصفهم ب «ملوك مزاتة»(90) نسبة الى أبي الخطاب عبد الله بن السمح المعافري (144 هـ/760 م). الذي تزعم إمارة طرابلس النفوسية، التي تزعمت حركة الخوارج الاباضية في هذا الاقليم(91).

وتتألف مجموعة قبائل مزاتة(91م) من خمسة عشر قبيلة. ذكر ابن حوقل منها ثلاثة وهي «زمراتة» و «بنو إليان» أو «بنو ليان». و «بنو حمزة»، كما أن ابن حوقل بدأ ب «بني الخطاب» ولعله كان يعني أقرب المؤيدين للإمام العربي الأصل. والمهم أن إمارة «أبي الخطاب الاباضية» تكونت نتيجة تحالف بربري في منطقة العبور القوافلي، وكان هذا الحلف مؤلفا من «مزاتة، ولواتة، ولماية، وهوارة(92)». لكن في نهاية القرن الثالث

---

(90) محمود اسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب.ص 85-89 .

(91) يعني اعتبار أبي الخطاب المعافري أميرا على خوارج نفوسة وطرابلس أن الإمام أبي الخطاب وهو العربي للقح قد أخذ يكون جناحا معارضا لولاة الخلافة الإسلامية ببغداد في منطقة بلاد البربر، وانضمت إليه مجموعة البربر الرافضين لحكم بغداد. وكانت قبيلة مزاتة ولواتة من أكبر مناصريه، وأدت حركة أبي الخطاب الى تكوين حلف قوي مكون من هؤلاء المعارضين واستمر قويا الى قيام الخلافة العبيدية في آخر القرن 3 هـ/ 9م.

(91م) أنظر: في هذا الصدد بحث «لويكي» في الموسوعة الإسلامية الطبعة الجديدة ج6 ص937 .

(92) ابن عذاري: البيان 1/163-165 . هـ إدريس، الدولة ال الصنهاجية، 2/70، 78، 2/92 .

الهجري /9 م وجدنا مزاتة قد انتشرت في منطقة الجريد وإقليم الزاب. ومنذ هذا التاريخ أصبح الاقليم الممتد من قابس إلى الحضنة بالزاب مقترنا بمجموعة قبائل مزاتة. إلى أن سيطرت عليه قبائل بنو هلال في النصف الأول من القرن الخامس الهجري / 11م(93).

والمصادر الاباضية تشير إلى أن بلكين بن زيري في سنة 360 هـ/ 971م، طارد بعض بطون «مزاتة» إلى الجهات الغربية ، إلا أن تلك المصادر لم تسجل وصولهم الى المغرب الأقصى. ومع ذلك نتسائل عن علاقة نسبة «المزياتي» التي تنتشر في الشمال الشرقي من المغرب الأقصى، بقبيلة مزاتة؟ وكذلك نسبة «الزمراني» التي ينتسب إليها عدد كبير من الأسر في المغرب بالإضافة إلى تسمية الموقع «زمران».

2- لواتة: في القرنين الثالث والرابع الهجريين /9-10 م كانت لواتة مضافة الى مزاتة في إطار التجمع الزناتي. وبناء على اليعقوبي وابن حوقل، بالإضافة الى ابن خلدون يمكن أن نحدد البطون القبلية الصريحة في لواتة، ولا تتعدى 14 إسما قبليا(94). ذكر اليعقوبي منها إسم قبيلة مفرطة أي ماكارطة. وذكر ابن حوقل أربعة أسماء وهي مصغونة، وأكودة، ودادنة، وهم فرع من قاطوفة. ثم قبيلة فطيطة التي ذكرها بإسم فرطيطة.

---

(93) يظهر من خلال المصادر الاباضية أن البطون المزاتية التي تمركزت في المغرب الأوسط، كانت قوة حربية هامة جدا، فقد ذكر أبو زكريا أن عدد الذين يركبون منهم للحرب يقدر ب 12.000 فارس، ويزيد هذا العدد عند الحاجة. وشاركوا في ثورة صاحب الحمار أبو زكرياء: السير، ص199 (فقرة 29-11) من تحقيق عبد الرحمان أيوب. ط، تونس 1985 . وقد اهتم أبو زكرياء بدور مزاتة في الصفحات 150 ، 171 ، 176 ، 184 .

(94) لويكي: مبحث «لواتة» في الطبعة الجديدة للموسوعة الإسلامية (باللغة الفرنسية)، ج5 ص700 .

وتعتبر الجهات الواقعة شرق *طرابلس* هي *المنطقة الرئيسية* التي ينتشر فيها التجمع اللواتي قبل القرن الثالث الهجري /9 م. كما أن إقليم برقة وبنغازي هو الجهات الرئيسية للتمركز اللواتي في القرن الثاني الهجري، وقبائل لواتة هاته هي التي أنشأت مركز «أجدابية» الذي يعتبر من أهم محطات طرق القوافل طيلة القرن الثالث الهجري /9 م، وأشار اليعقوبي إلى رئاسة الإمام الإباضي العربي القح، أبي الخطاب المعافري (تـ 144 هـ/ 760 م) للبربر في هذه الجهات ومن بينهم قبائل لواتة.

وهذه الجهات شهدت تدخلات أجنبية: رومانية وبيزنطية، وكان أشدها عنفا هو التدخل البيزنطي في سنة 543 م الذي أدى إلى انتقال جماعي بربري الى الجنوب من مدينة قابس، واستقر عدد كبير من هؤلاء في الجبال الجنوبية وكانت لواتة أكثرها عددا مما أعطى لتلك المرتفعات إسم «جبال لواتة». وأشار اليعقوبي الى السيطرة اللواتية على قابس في منتصف القرن الثالث الهجري/9 م(95).

وفي القرن الرابع الهجري /10 م شاركت «لواتة» في ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجي، وقد انتشرت قبائل لواتية في جبال الأوراس إلى جانب قبائل مزاتة، وهوارة، وأشار المؤرخ الإباضي الشماخي إلى الوجود اللواتي في منطقة جنوب الزاب بريغ، وفي عهد بني زيري ثارت بعض بطون لواتة ضد المنصور الخليفة الثالث العبيدي، وأدى ذلك الى طردهم نحو الصحراء الافريقية. وهكذا يظهر أن الانتشار اللواتي في البلاد المغربية تأثر بثلاث عوامل: الموقف السياسي من السلطة المركزية بالقيروان، وعامل نظام

---

(95) اليعقوبي: البلدان، ص347 ، وأشار في مكان أخر إلى يوسف اللواتي الذي كان حاكما لقابس، أي إبان ثورة لواتة على بني الأغلب، وتمكن الأغالبة من اخضاع لواتة بعد ذلك أنظر: محمد الطالبي: الأغالبة ص385 .

الطرق التجارية، ثم عامل الاتجاه المذهبي الديني. ورغم كل شيء فإن اتجاه حركة الانتشار اللواتي استمرت في اتجاه من الشرق إلى الغرب على محورين من الشرق الى الجنوب الغربي نحو مراكز ومحطات طرق قوافل تجارة الصحراء، والاتجاه الآخر من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي من بلاد المغرب، وهذا المحور الأخير هو الذي وصلت عن طريقه الى المغرب الأقصى.

إذن وصول «لواتة» إلى المغرب الأقصى خضع لعامل الدفع من الشرق الى الغرب، و بالاعتماد على المصادر العربية الإسلامية القديمة يظهر أن وجود لواتة في الجهات الغربية عموما يرجع ألى القرنين السادس والسابع الميلاديين. كما يظهر أن القرن الثاني الهجري /8 م هو المرحلة التي دخلت فيه لواتة الى المغرب الأقصى بكثافة، قدموا اليه مع ثورة الخوارج الصفرية في هذه الجهات أي بين (122 هـ/740 م-141 هـ/758 م). ونلاحظ أن المصادر المغربية تشير الى مبايعة بعض بطون لواتة بالمغرب الأقصى لادريس الأول، وأشارت الى وجودهم في حوض نهر سبو شرق مدينة فاس الحالية. و بالتحديد قريبا من «صفرو» الحالية، حيث يوجد مركز يحمل اسم «لواتة مديان» على الطريق الرابطة بين فاس وسجلماسة. وتشير المصادر أيضا الى وجود لواتة في أقصى الشمال أي جنوب مدينة «أصيلا». وفي الوسط المغربي بتادلا جنوب نهر أم الربيع تشير المصادر الى وجود لواتة. كما نلاحظ أن الدراسات تذكر بطونا لواتية في الجنوب الصحراوي المغربي وفي موريطانيا وحول أدغشت.

ثالثا : زناتة التابعة أو الملحقة. ونعود مرة أخرى الى اللائحة القبلية التي قدمها لنا ابن الحوقل عن قبائل زناتة. ونتابع تقسيمه الثلاثي لمجموعة زناتة، ونقف الآن عند القسم الثالث الذي سميناه بالقبائل الزناتية المضافة.

وحسب القائمة التي وصلتنا في النص المنشور من كتابه «صورة الأرض» نجدها لا تتجاوز 20 إسما قبليا. وبدأ هذا القسم الثالث من لائحته بـ«بني يفرن» وأنهاها ببني سنجاسن.

ونلاحظ أن ابن حوقل في هذا القسم ذكر بني الخير المغراويين الذين سماهم بـ «بني ورزيزمار» ووصفهم بملوك زناتة. فهل كان ابن حوقل يميز أو يفصل بين بني الخير المغراويين وبين مغراوة الكبرى ونعتقد أن رأيه اعتمد فيه التمييز بين الزعامة والاتباع. ولم يعتبر الأصل الاثنى أو السلالي القرابي الدموي. فكانت النتيجة الكبرى هي أن مضمون «زناتة» هو مضمون تحالفي قبلي كبير تنضوي تحته اثنيات متعددة المواطن والأصول، ولكنها متماثلة نمطيا واجتماعيا، ومتفقه نفعيا وسياسيا وأحيانا مذهبيا.

وأهم قبائل هذا القسم التي ذكرها ابن حوقل، وكان لها دور كبير وبارز في سياق أحداث تاريخ الجهات الغربية طيلة القرن الرابع الهجري /10 م هي:

بنو يفرن - مطغرة- بنو واصل (بنو واسل).

مكناسة - بنو ستاتة (أو سماته؟) - سدراتة (سدراتة) بنو سنجاسن (ولعلهم بنو يزناسن) ذكرهم مع مجموعة عصبة مزاتة ولواتة باسم «بنو يرتاسن».

لعل هذه الأسماء القبلية المختارة تمثل أهم القبائل التي ذكرتها المصادر التاريخية، أثناء رصدها للوقائع التي عرفتها الجهات الغربية وخاصة المغرب الأقصى في مرحلة دراستنا، وهي القرن الرابع الهجري/10 م. ونحاول متابعة هذه الأسماء القبلية لنعطي صورة تقريبية للبنية البشرية في المغرب الأقصى في هذه المرحلة مع ملاحظة أننا احتفظنا بالترتيب الذي جاء في لائحة ابن حوقل:

1- بنو يفرن[96]: لم تشر المصادر الكلاسيكية القديمة قبل الفتح الإسلامي للمغرب الى وجود إسم قبلي يحمل إسم «بني يفرن». إلا أن كلمة «إيفرن أو يفرن» يحتمل أن تكون مشتقة من الكلمة البربرية: أفر جمع ئفريون» بمعنى جناح الطائر جمع أجنحة. كما يحتمل أن تكون التسمية مستمدة من الكلمة «إفرو» البربرية التي تحمل من بين معانيها الكهف أو المغارة. وهذا المعنى يجعل هؤلاء أبناء سكان الكهوف أو المغارات القدماء ببلاد البربر. وهكذا لا تسعفنا المصادر القديمة والأبحاث الحديثة بمعلومات دقيقة لضبط قبائل «بني يفرن» وكل ما نجده حول التعريف بها، ما أمدتنا به المصادر العربية الإسلامية فهي التي جعلتها ضمن «التجمع القبلي الزناتي» والجغرافي اليعقوبي، وكذلك ابن حوقل يعتبران أن «بني يفرن» من القبائل الرئيسية التي انتشرت في منطقة ما بين نهر شلف بالمغرب الأوسط ونهر ملوية.

وأقدم وصف إثني[97] يرد فيه وصف وذكر بني يفرن نجده مرتبطا بحركة «أبي قرة» المغيلي أو اليفرني، الذي كان على رأس خوارج منطقة (حوض نهر شلف) سنة 150 هـ/ 767 م. ويظهر أن أحداث النصف الأول من

---

(96) Lewicki(T):Banu Ifran, Art. dans l'Encyclopédie de l'Islam (N.E). T.III,pp.1065-1070.

(97) ترجع المصادر الإباضية بداية حركة أبي قرة إلى حوالي سنة 114 هـ/ 732 م، عندما كان على رأس جيش عبد الواحد الصفري، وذكر ابن خلدون، أن أبا قرة خلف «خالد بن أحمد الزناتي» و ترأس زناتة بعد ذلك (العبر 24/7 وطبعة دي سلان 15/2) . وذكر صاحب مفاخر البربر أن أبا قرة أصبح زعيما لبني يفرن وبربر حوض شلف إبتداءا من سنة 129 هـ/ 747 م. (المفاخر ص 48). وأقدم ذكر لأبي قرة - حسب ما وصلنا من مصادر - نجده عند ابن عبد الحكم في فتوحه (ص222 حيث نسبه إلى عقيل والأصوب المغيلي كما وردت نسبته صحيحة عند ابن غداري ج1 ص15).

القرن الثاني للهجرة أي القرن الثامن الميلادي، أدت إلى تحركات البربر في هذه الجهات الغربية إلى التكتل والتحالف وتعدد الزعامات القبلية.

ويتأرجح التعريف ببني يفرن، بين نظرية الانساب التي اعتمدها المؤرخون العرب القدماء من ابن حزم إلى ابن خلدون(98)، وبين نظرية «الأنماط الاجتماعية(99)»، وقد حاول بعض الباحثين أن يقارب تسمية بني يفرن بالمعنى الطوبونيمي الذي ينتشر في بلاد المغرب كله، وهو «أفري» بمعنى «المغارة أو الكهف». وفي تقديري أن إسم «بني يفرن» لا يعني إسما نسبيا سلاليا بقدر ما يعني إسما تجمعيا أو حلفيا داخل الحلف الزناتي الكبير. وهذا يتمشى مع النظرة العامة لتصنيف زناتة عند ابن حوقل، فبنو يفرن أذن عبارة عن مجموعة من البطون القبلية، المتحدة في الأهداف، المتوافقة في المواقف الإجتماعية، والمبدئية والسياسية. تطورت ضمن هذا الاتجاه منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأوسط والأقصى، إلى أن اختفت قوتها العصبوية في منتصف القرن الخامس الهجري /11 م. مع نشأة دولة المرابطين في المنطقة المغربية.

---

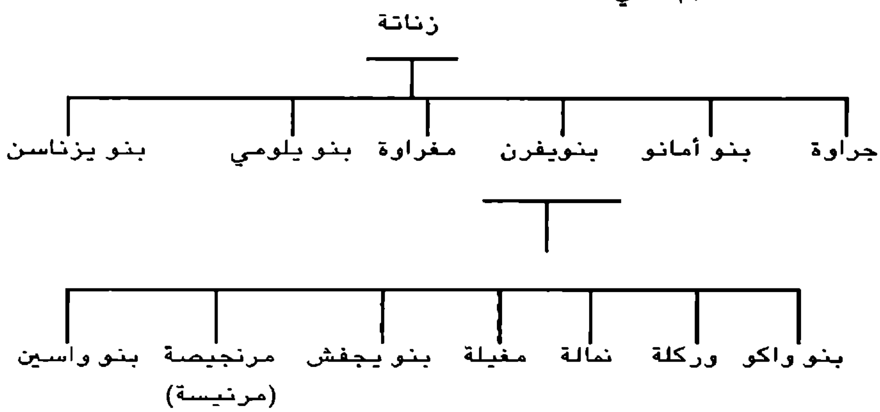
(98) ابن حزم: الجمهرة ص 496 ، ابن خلدون: العبر 2/7 ، 611/7 وفي ترجمة دي سلان 306/4 .

(99) Desanges (J): Catalogue des Tribus, p.23 et p.238.
Liwicki:E.I.T.III, p.1065. Benabou (M):La Résistance Africaine , p.296.
ونلاحظ أن الموسوعة الإسلامية في طبعتها الأولى اعتبرت «بني يفرن» يمكن أن تكون تسميتهم جاءتهم من قصر يفرن، وجبل يفرن الموجودين بجبل نفوسة جنوب طرابلس (الموسوعة الإسلامية مقال Cauvet ج2 ص481 الطبعة الفرنسية). وكأن بني يفرن كانوا هم الموجة البشرية الأولى مع مغراوة التي هاجرت وانتقلت من اقليم طرابلس قبل هوارة ولواتة. حسب رأي كوتيي Gautier في دراسته:
Le passé de l'Afrique du Nord, p.371.

وإذا نظرنا إلى بني يفرن في تاريخهم الاجتماعي والسياسي معا، فإننا نجدهم ضمن المجموعة الزناتية الذين اعتبروا محاربين وأنصاف رحل، وفي حركة مستمرة منذ القرن الأول للهجرة /7 م إلى القرن الخامس الهجري /11 م. وهذه المرحلة هي فترة «الفعل السياسي» لبني يفرن(100)، الذي يمكن تقسيمه إلى الفترات الآتية:

---

(100) أهم قبائل زناتة المغرب الأوسط الذين تذكر في المصادر أسمائهم إلى جانب بني يفرن في القرنين الثالث والرابع الهجريين /9-10 م هي كالآتي في الترسيم الآتي:



ويظهر أن المجموعة اليفرنية هاته ماهي إلا حلفا داخليا في المجموعة الكبرى لزناتة. فهي بناءا على ذلك عبارة عن اتحادية قبلية اتخذت إسما جديدا لا ينفصل عن الإتحاد القبلي الأكبر، ولعل النطاق الجغرافي الذي انتشر فيه بنو يفرن هو الذي أثمر استقلالية بني يفرن من شلف شرقا الى حوض نهر سبو. وهذا المجال أيضا كان مشتركا مع قبائل بربرية زناتية أخرى مثل مكناسة ومغراوة. ولعل هذا التنوع هو الذي طبع حركة بني يفرن بروح المنافسة مع أقاربهم وجيرانهم. أنظر ابن خلدون: العبر 22/7 حيث اعتبرهم أكبر قبائل زناتة وأشدهم شوكة في مرحلة القرن 2 هـ/8م.

أ-فترة التكوين وبداية الزعامة اليفرنية(147 هـ/765 م- 347 هـ/959 م).

ب- فترة البروز والاستقلال بالفعل السياسي في المغرب الأقصى (347 هـ/959 م- 382 هـ/ 992 م).

جـ - فترة الانقسام اليفرني إلى إمارات مستقلة مجزأة والذوبان السياسي (382 هـ/ 992 م- 462 هـ/1070 م).

ونترك متابعة هذا التطور التاريخي إلى مكانه في الفصل اللاحق من هذا الباب الثاني، لأننا في هذا الفصل نحاول متابعة أهم المكونات القبلية للبنية البشرية في الجهات الغربية، ولهذا ننتقل مباشرة إلي قبيلة مطغرة التي وردت في قائمة ابن حوقل محرفة قليلا.

2- مطغرة(101) : قبيلة بربرية تنتمي الى المجموعة الزناتية، ويغلب على الضن أن إسمها مشتق من الكلمة البربرية «امطغر أو إمدغر» بمعنى الساكن أو المستقر. وتعتبر مطغرة من الأسماء القبلية القديمة، ويحتمل أن تكون من خلفاء الإسم القبلي القديم «الماكوراي =Makkourae» الذي ذكرته

---

(101) حول مصغرة بصورة عامة أنظر الموسوعة الإسلامية، مقال كولان، وقد أعادت الموسوعة طبع كلامه في طبعتها الجديدة وهذا يعني أن المعلومات لم تتطور عن مدغرة منذ طبعة الموسوعة الإسلامية في صورتها القديمة. ومعلومات «كولان» لا تتجاوز ما قدمه ابن خلدون ومحمد بن الحسن الوزان عن مطغرة. لكن إذا وافقنا Desanges في معجمه القبلي القديم فإننا نعتبر قبيلة مطغرة من القبائل التي كانت مستقرة شرق نهر شلف إلى جبال الأوراس والمعروفة ب "Makkourae" الذين حملوا أحيانا راية المقاومة لروما وبيزنطة، وفي العصر الإسلامي الأول تزعم المعارضة الخارجية أحد زعمائهم وهو «مسيرة المطغري» ثم بعده بهلول المطغري. أنظر:

J.Desange, Catalogues, p.60

المصادر الكلاسيكية القديمة[102]. والغالب أن ضواحي مدينة مليانة بالمغرب الأوسط كانت تمثل موطن «مطغرة» قديما.

وتذكر قبيلة مطغرة بأشكال متعددة، فابن حوقل ذكرها محرفة باسم «مطارة» وذكرت برسم «مدغرة» بالدل وهو الغالب عليها وبرسم «مضغرة» بالضاد وهو النادر في ذكرها. ولعل هذا الإختلاف راجع إلى اختلاف النطق الصوتي لحروف الدال والصاد. والطاء بين جهات المغرب. فهو رسم مختلف لإسم قبلي واحد[103].

ورغم زعامة ميسرة المطغري للثورة الخارجية الأولى في بداية القرن الثاني الهجري سنة 122 هـ/740 م، فإن مطغرة لم تكون قوة من شأنها أن تستمر زعامتها في المنطقة المغربية، ولعل ذلك راجع إلى أن مدغرة أو مطغرة لم تكن أعدادها كافية لهذا الاستمرار، أو كان ضعفها نتيجة لتحويل الزعامة إلى التجمع المغراوي و المكناسي والهواري، فاستمرت تتأرجح في ولاءاتها بين الزعامات القبلية المحلية، حيث استمرت تابعة وخاصة لمكناسة ومغراوة. ومطماطة ولماية، وصدينة ومديونة. وهذه التبعية هي التي جعلت المؤرخين يرجعون مواطنها الأولى إلى اقليم طرابلس.

---

(102) نقصد بها الأصول المرجعية التي اعتمدها «دوازنج» في تكوين معجمه القبلي، بالإضافة إلى أبحاث ستيفان كزيل، في تاريخ شمال إفريقيا القديم، ثم قارن بما جاء في بحث التقي العلوي: أصول المغاربة. القسم البربري: مجلة البحث العلمي عدد 33 صص 83 .

(103) البكري: المسالك، الفقرات 1262 ، 1331 ، 1361 ، 1383 ، 1384 ، 1403 . ابن عبد الحكم: فتوح افريقية ص135 . ابن خلدون: العبر في مواطن متعددة. أنظر فهرست الشعوب والقبائل. ابن الأثير: الكامل 222/3 . محمود اسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب ص 62-81 . عبد الوهاب بنمنصور : قبائل المغرب. أنظر فهرس القبائل مادة« مدغرة »).

وهكذا نجد أهم بطونها في المغرب الأوسط في المناطق الجبلية المحادية للبحر الأبيض المتوسط، ابتداء من مليانة وتنس، إلى شمال وجدة عند تابحريت (السعيدية حاليا) ، وتميز هذه الفروع المطغرية بكتابتها بالطاء «مطغرة» وفي القرن الثاني الهجري /8 م كونت «مطغرة» في باقي جهات المغرب الأقصى أكبر تجمعاتها القبلية:

أ- مدغرة وادي زيز بإقليم سجلماسة، وتربط مدغرة الواحات الشرقية بفكيك وتوات وتمنطيط.

ب- مضغرة نواحي فاس (أشار البكري إلى مضغرة سوق الخميس قرب فاس). مضغرة تازة وجبال الأطلس المتوسط.

د- مضغرة نواحي طنجة.

3- بنو واسول(104): رسمها ابن حوقل بالصاد « بنو واصل» و في حديثه عن سجلماسة كذلك أثناء مروره بها سنة 340 هـ/ 951 م. أي في عهد الاضطراب الأميري بسجلماسة. والظاهر من كلام ابن حوقل أنه زارها في فترة تولية الأمير «ابن واسول» وهو محمد بن الفتح واسول بن ميمون الأمير الذي تولى إمارة سجلماسة من 331 هـ/ 942 م إلى 347 هـ/ 958 م وهو الرئيس العاشر من أمراء بني مدرار. ويعني هذا أن ابن حوقل اعتبر الأسرة « الواصولية أو الواسولية» إسما قبليا فأدرجها باعتبارها إحدى قبائل زناتة.

وبنو واسول لا يمثلون قبيلة وكذلك بنو خزر المغراويون، وإنما تعتبران أسرتان زناتيتان. وجميع المصادر تعتبر بني واسول رؤساء

---

(104) أنظر بحث «شارل بلا» الخاص ببني «مدرار =Midrar» في الطبعة الجديدة للموسوعة الإسلامية (باللغة الفرنسية)، ح 6 ص1035-1031Ch.Pellat: Midrar,
Art. dans E.I2ème, T.VI, pp.1031-35

للإمارة المدرارية الزناتية المكناسية فهم قادة الفرع الجنوبي لقبيلة مكناسة الكبرى. وقد تعرضت هذه الأسرة لتدخلات كبيرة وعنيفة ومريرة[105] قام بها كل من الجيش العبيدي بقيادة جوهر الصقلي سنة 347 هـ/959 م. والجيش الأموي الأندلسي سنة 327 هـ/939 م. وفي 352 هـ/963م. وعاصر ابن حوقل هذه الفترة، بل وحضر الظروف الأولى المؤدية إليها التي يمكن إجمالها في الصراع الفاطمي الأموي على المغرب وطرقه التجارية وكانت سجلماسة أكبر محور في التجارة القوافلية. فمن الطبيعي أن يؤدي تنافس القوى الكبرى عليها، إلى سلسلة من الانقلابات الداخلية، ووجود الرؤساء في سجلماسة بعدد غير مضبوط من القيادات في مدينة سجلماسة، المعبر الرئيسي لتجارة الصحراء في الجهات الغربية، يعبر عن هذا الوضع التنافسي التجاري الاقتصادي في هذه المرحلة وهي القرن الرابع الهجري 10/ م.

وقد كرّر ابن حوقل اسم مكناسة في قائمة القبائل الزناتية فتارة ذكرهم باسم « بني وفا ». ومرة أخرى سماهم بمكناسة. وهذا ليس سهوا، وإنما للتفصيل، بنو وفا (أي بنو العافية) فرع من مكناسة الكبرى.

4- سماتة؟ أو «بنو ستاتة» حسب ابن حوقل الذي رسمها في معرض كلامه على المراكز باسم « سماطة». و بالاعتماد على القاضي النعمان في كتابه «افتتاح الدعوة» فقبيلة سماتة من القبائل الصغرى التي كانت تستقر في

---

(105) القاضي النعمان: المجالس والمسايرات (تحقيق الحبيب الفقي وابراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي). طبعة الجامعة التونسية. تونس 1978 الصفحات 214 ، 217 ، 224 ، 388 . و بالنسبة لتفاصيل التدخل الأندلسي أنظر: ابن عذاري:البيان 206/1 . ابن خلدون: العبر: ج6، ص267 وما بعدها.
Lévi.Provençal : Hist. Esp. Mus., II, p.261.

ضواحي مدينة «قالمة»[106]، أو گلمة الحالية بتونس، وقد انتقل بعضها إلى شمال المغرب الأقصى بين مدينة وزان الحالية والقصر الكبير، وببلاد سماتة أقام الأدارسة «حصن حجر النسر»[107]. والغالب على الضن أنها نقلت إلى هذه المنطقة أثناء الحملات العبيدية على المغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري /10 م. وبهذا تعتبر ضمن القبائل الصغرى التي كلفت بمراقبة مراكز العبور. وعليه يحق لنا أن نتساءل عن تحول «سماتة» من الطاعة العبيدية إلى زناتة التي جعلها ابن حوقل منها؟

5- سدراتة[108]: من القبائل الكبرى الرحل المختصة في الإنتجاع الطويل في مناطق السهوب المغربية. يرتبط ذكرها في المصادر العربية القديمة مع «هوارة ومزاتة ولواتة». فقد ذكر ابن الصغير[109] في القرن الثالث الهجري /9 م. «أن قبائل مزاتة وسدراتة وغيرهم» كانوا ينتجعون من أوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها في أشهر الربيع إلى مدينة تاهرت وأحوازها لما حولها من الشلا (الكلأ)، وغيره» ، فسدراتة قبيلة زناتية رعاة متحكمون في طريق الوسط القوافلية.

---

(106) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ص 47 ، كما ذكرها ابن حزم ضمن القبائل التي انتقل بعضها إلى الأندلس. أنظر: الجمهرة ص496 .

(107) أنظر: حاشية الرهوني على خليل ج2 ص146 . التقي العلوي: أصول المغاربة: القسم البربري، بحث نشر بالبحث العلمي، دورية المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط عدد 33 ص76 .

(108) ابن خلدون العبر 22/6 ، 68 . البكري: المسالك، ص713 (فقرة 1196). عبد الوهاب بنمنصور: قبائل المغرب ص 305 . والأصول المصدرية تجعل قبيلة سدراتة بجبل نفوسة الذي يمتد في تحديدات العصور الإسلامية الأولى من «لالوت أو نالوت الى تغرمين».

(109) ابن الصغير: السير ص17-18 .

وتعتبر قبيلة «سدراتة» المؤسسة لمدينة «ورجلة» أو «وركلة» حيث كانت تعرف ا باسم مدينة «سدراتة»[110] في جنوب المغرب الأوسط. وتعتبر سدراتة من المجموعة المغراوية كبراء زناتة في القرن الرابع الهجري وقبله كانت تحسب ضمن الحلف اللواتي. وهكذا سيطرت زناتة بمجموعة سدراتة على الطريق التجاري الرئيسي الأوسط، والرابط بين القيروان وإفريقيا جنوب الصحراء، وبين تاهرت ووركلة عن طريق «لغواط». وطريق وركلة سجلماسة مرورا بمنطقة غرداية الحالية. ثم الطريق الجنوبي الغربي الذي ينطلق من وركلة الى «تمنطيت» في اتجاه تغازة.

وسدراتة تطورت منذ القرن الثالث الهجري /9 م إلى فروع كثيرة منتشرة عبر طرق القوافل التجارية في الشمال الصحراوي للمغرب كله، وكذلك في تخوم الصحراء الإفريقية، ومنشئة المحطات والمراكز على طول طريق القوافل. ومنها فرع «سدراتة» قرب مدينة « بو عريرج» بالمغرب الأوسط، و «أيت سدرات » على وادي دادس، قريبا من مركز «بومالن دادس، وكذلك على نهر درعة بين «مزكيطة وتازولين». وتعتبر هذه المنطقة إحدى ممرات طريق السلطان الرابطة بين سجلماسة ومراكش بالمغرب الأقصى.

6- بنو سنجاسن[111]: تشير المصادر إلى أسماء قبلية قديمة متقاربة

---

(110) أنظر بهذا الصدد الدراسة التي قام بها الباحث «ليثلوكس"J.Lethielleux على «وركلة Ouargla» وطبعت بمطابع، Librairie Orientale Paul Geuthner, S.A وصدرت بباريس Paris 1983 ونحيل على الفصول 1-5 وعلى وجه الخصوص الفصل الرابع (ص53-71) . ثم أنظر أيضا: التقي العلوي: البحث السابق ص 80 .

(111) يضعها ابن خلدون (العبر 96/7) ضمن مجموعة مغراوة، وقال عنهم: «فأما بنو سنجاس فلهم مواطن في كل عمل من إفريقية والمغربين».

في رسمها نذكر منها: يانجاسن[112] ، ويزناتن[113]، ويزناسن[114]. فهل بنو سنجاسن هم الذين سموا ببني يزناسن؟ السؤال قائم، ولكن التحريات تحملنا على قبول هذه المقاربة، خصوصا أن المسألة مرتبطة بزناتة وبفرعها المغراوي واليفرني الذي انتقلت جموعهما إلى الجهات الغربية في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. فقد أبعد الصنهاجيون جموع زناتة التابعين لمغراوة من المغرب الأوسط إلى الغرب صحبة بني يفرن[115]. وقد وصف اليعقوبي [116] بني يزناسن وسماها في القرن الثالث ببلاد نفرة، أما ابن

---

(112) رسمها المؤرخ الإباضي أبو زكرياء يحيى ابن أبي بكر في مؤلفه :« كتاب السير و أخبار الأئمة » تحقيق عبد الرحمان أيوب. طبعة الدار التونسية للنشر 1985.، ص330 فقرة ج 23/7 . رسمها « بنو يتجاسن ».

(113) ظهر هذا الرسم في المصادر والأبحاث المتأخرة، وهناك إشارة عند البكري تقارب هذا الرسم « يزناسن » حيث أشار إلى وجود «بني يزناتن » على نهر بورة أو قورة وهو «نهر جاريسكن حوله بنو يزناتن، وهم كانوا أصحاب هاز » أنظر: البكري: المسالك ص830 فقرة 1385 طبعة تونس 1992 .

(114) أما رسم يزناسن فقد اعتبره الباحث الفرنسي "L.Voinot"في دراسته على « وجدة والعمالات » اسما قديما، ولعل أقدم ذكر لهذه التسمية لا يتجاوز القرن 4هـ/ 10 م. فكلام ابن خلدون عند استعماله للاسم كان يقصد به اسم الجبل « جبل يزناسن » أنظر العبر 307/7 . ثم قارن بما جاء عند:
L.Voinot:Oujda et Amalat, publication de la S.G.A.P.O, Edit, Oran-Paris 1912.
وأنظر ابن حيان المقتبس ج5 ص370 ورقة 251 وهامش 5).
ورغم قدم هذه الدراسة، فإن قيمتها ما زالت قائمة حول هذه الجهات. ونحيل على الفصلين الأول والثاني منها خاصة ص.ص 165-206 .

(115) هـ . إدريس: الدولة الصنهاجية ج2 ص93 .

(116) اليعقوبي: البلدان ص356-357 .

حوقل فقد حددها بدقة أكثر عند حديثه على مدينة جراوة[117]، ولكنه لم يعط تفاصيل حوال القبائل التي تعمرها، وإن قال أن جراوة وما حولها: «كانت عامرة آهلة»، مما حملنا على أن ننتظر الجغرافي الأندلسي البكري الذي يمدنا في منتصف القرن الخامس الهجري /11 م بالبنية البشرية في المنطقة قائلا[118]: «وحول جراوة عدة قرى لقبائل من البربر، مطغرة، وبني يفرن، ووداتة، ويغمر الجبل، وبني راسن، وبني بادسن، وبني وريمش وغيرهم».

ورغم كل شيء نشير إلى أن ابن حوقل أعطانا إسما قبليا في لائحته القبلية وهو «بنويرتاسن» مع ذكره لمجموعة عصبة زناتة من مزاتة ولواتة. ولعله أقرب الأسماء القبلية من حيث الحروف الى إسم «بني يزناسن» المتداولة والمعروفة حاليا منذ العهد الموحدي[118م].

وهكذا يتبين أن إسم بني يزناسن سواء كان تسمية للسكان، أو إسما مكانيا خاصا بالجبال لم يظهر إلا في القرن الخامس الهجري /11 م، أما قبله فالمنطقة كانت تعرف- بناء على اليعقوبي - بـ «بلاد نفزاوة» أو «بلاد نفزة». مما يؤكد أن هذه الجهات المغربية، كانت ميدانا لتكوين «تجمع زناتي نفزاوي غربي». تارة يخضع لإمارة نكور في أقوى الاحتمالات، وأحيانا أخرى يخضع لأدارسة فاس أو لإمارة بني العافية المكناسيين، على امتداد القرن الرابع الهجري /10 م.لكن ماذا عن المغرب الأقصى بالخصوص على المستوى الاثني في هذه المرحلة مرحلة الدراسة؟

---

(117) ابن حوقل صورة الأرض ص88 .

(118) البكري: المسالك والممالك ص829 فقرة 1384 (تونس 1992 وفي طبعة دو سلان: ع، ص142 ، ف، ص273

(118م) حسب علمنا فإن أقدم ذكر لمصطلح « بني يزناسن » نجده عند البيدق في كتاب أخبار المهدي، ص.ص 15-35-90 من الترجمة الفرنسية.

الجغرافية القبلية للمغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري /10 م. والتجزئة السياسية.

بعد الصورة العامة التي وقفنا عندها، الخاصة بالبنية البشرية التي قدمها لنا الجغرافيان العربيان، اليعقوبي وابن حوقل، نحاول الآن أن نقدم الصورة الاثنية الخاصة بالمغرب الأقصى، اعتمادا على المصادر القريبة من مرحلة دراستنا، قبلها قليلا أو بعدها إلى حدود القرن السادس الهجري /12 م.

فالمغرب الأقصى لم تظهر صورته القبلية كاملة سواء عند اليعقوبي أو عند ابن حوقل، فمن المؤكد أنهما لم يقدما القبائل المغربية كلها وخاصة ما كان منها بعيدا عن طرق القوافل التجارية، مثل جبال الأطلس الكبير (درن)، وهوامشه، ومعظم جبال الأطلس المتوسط (فزاز)، كما أنهما لم يتمكنا من تغطية جبال غمارة في الشمال. لهذا فإن البنية البشرية التي كانت محورا لصراع العبيديين والأندلسين، لا يمكن تحديد ملامحها إلا بالوقوف على المصادر الجغرافية والتاريخية وغيرها، والتي حصرنا مرحلة انتاجها بالقرن السادس الهجري /12 م، وأحيانا نستنجد بالعلامة ابن خلدون باعتباره شيخ الجماعة في الدراسات والأبحاث القبلية في المغرب الاسلامي.

نعترف مبدئيا أننا نقوم بمحاولة تشبه «الحفريات الأثرية» في ميدان التاريخ القبلي القديم بالمغرب الأقصى. وفي اعتقادي أن أول محاولة في هذا الاتجاه هي محاولة الباحث «لوي ماسنيون» في دراسته عن المغرب بالاعتماد على «كتاب وصف إفريقيا للوزان» [119]. حيث حاول أن يدرس التطور القبلي المغربي من القرن الرابع الهجري /10 م إلى العاشر الهجري /16 م. و بالنسبة لعصر دراستنا يمكن أن ننطلق من اللوائح القبلية التي

(119) Louis Massignon: Le Maroc, Alger 1906, pp.148-157.

قدمها الجغرافيون العرب، والمؤرخون الذين اهتموا بحركة الفتوحات الإسلامية بالمغرب وما جاء بعدها من تطورات تاريخية.

لعل أهم اللوائح القبلية القديمة التي نملكها هي بالترتيب:

أ- لوائح الجغرافيين العرب.

ب- لوائح مؤرخي الأنساب والأحداث.

فبالنسبة للجغرافيين نجد عندهم قائمة قبلية مغربية متفاوتة العدد، عند:

1- اليعقوبي تـ . حوالي 292 هـ/ 905 م.

2- ابن خرذادبة تـ 300 هـ/ 913 م.

3- ابن حوقل تـ 367 هـ/ 977 م.

4-أبو عبيد البكري تـ 487 هـ/ 1094 م.

5- الشريف الإدريسي.

وأما بالنسبة لما أمدنا به مؤرخو الأنساب والأحداث يمكن أن نضبطها عند:

1- ابن حزم الأندلسي تـ 456 هـ.

2- البيدق .

3- ابت عذاري المراكشي.

4- ابن خلدون.

بالاعتماد على هذه الأصول المصدرية يمكن أن نخلص إلى قائمة قبيلية موزعة على التراب المغربي توزيعا تحكمت فيه عوامل اقتصادية وحربية وسياسية واجتماعية.

فالأساس المصدري يبدأ من القرن الثالث الهجري /9 م مع الجغرافي اليعقوبي الذي يقدم لنا المغرب الأقصى جغرافيا من الشمال الى الجنوب أي

شمال حوض نهر أم الربيع وجنوبه. ففي الشمال اهتم اليعقوبي بالمجموعات القبلية الكبرى الآتية:

أولا: زناتة المغرب الأقصى في الجهات الشمالية من المغرب الأقصى، وتتألف من بطون قبلية «زواغة» حول مدينة فاس. وقبيلة «مكناسة» حول مدينة تازة وما حولها من مرتفعات جبلية، ثم قبيلة «مغراوة» و «بني يفرن» الذين سيطروا على حوض نهر ملوية من منبعه إلى مصبه، وتحدث بالخصوص على وجود قبائل عبر طرق القوافل في شمال المغرب، نذكرها كما جاءت عنده:

- مطماطة - ترجة - أنجفة - أنجرة وتحدث عنها أثناء وصفه لطرق القوافل بحوض سبو، ومنطقة جبال بني يزناسن الحالية، ثم الساحل الشمالي الخاضع لإمارة «نكور». ثم تعرض لمنطقة غمارة التي صفرتسميتها «غميرة؟» ولم يشر إلا الى قبيلة «صدينة» التي وضعها قرب مدينة تطوان الحالية، وما زالت تحمل هذا الإسم حاليا. ثم تحدث على إسم قبلي وهو «برقسانة» ووضعهم جنوب فاس حول منطقة صفرو «الحالية على طريق القوافل من فاس الى سجلماسة، وذكر أيضا قبائل « نفزاوة» حول منطقة مدينة «جراوة»[120]. ثم ذكر زناتة الجنوب المغربي مثل بنو مسرة بين سجلماسة وتلمسان ثم تاهرت.

ثانيا: صنهاجة المغرب الأقصى: يضعهم اليعقوبي بأغمات ولكن بحذر شديد، كما اعتبر معظم سكان سجلماسة من صنهاجة؟ ووصف أهل درعة

---

(120) أسسها أبو العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان سنة 259 هـ/ 873 م. وتحمل هذه المدينة إسم قبيلة جراوة التي ناصرت الكاهنة في مقاومتها لحركة الفتح الإسلامي في القرن الأول للهجرة /7 م. وتعتبر حاليا من المدن المندرسة، وموقعها بشرق مدينة « بركان » الحالية تبعدها عنها بحوالي 8 كلم من بركان الى الركادة ثم جراوة المندرسة.

وصفا عاما لا يميز قبائل المنطقة. ولكنه أعطى اسمين قبليين جنوب هذه الجهات، هما « مداسة » بتمدولت وأنبية.

لكن إذا انطلقنا من هذه القاعدة البشرية القبلية التي قدمها لنا اليعقوبي ، فإننا نجدها ناقصة جدا، ولا تفسر الزخم الحركي للمجتمع المغربي القبلي الذي عرفه منذ القرن الثالث الهجري. مما يفرض عملية الجمع بين المصادر التي اهتمت بالموضوع(121).

دراسة البنية البشرية للمغرب الأقصى على أساس البكري:

فالجغرافي ابن خرذادبة (تـ 300هـ/911م) اشتملت اللائحة القبلية عنده(122) على ما بين 28-31 إسما قبيليا بالمغرب الكبير (بلاد البربر كلها). أما لائحة ابن حوقل(123) فقد أعطانا 144 إسما قبليا. وكل منهما قدم قبائل المغرب الكبير بدون توطين، ما عدا ذكرهما لبعض تلك القبائل أثناء حديثهما عن الطرق والمسالك والمراكز والمدن ببلاد المغرب.

وهكذا لا نجد تفصيلا للبنية البشرية الخاصة بالمغرب الأقصى إلا عند أبي عبيد البكري(124). فهو المصدر الجغرافي العربي الذي يمكن أن نعتمده في توضيح هذا الجانب من «الجسم الاجتماعي» الخاص بالمغرب الأقصى في العصور الوسطى. وبحكم الظروف التاريخية للمغرب كله في هذه المرحلة،

---

(121) Massignon (L): Le Maroc pp.153-157.

(122) ابن خرذادبة: المسالك والممالك ص84-92 .
Massigon (L): Le Maroc, p.153.

(123) ابن حوقل صورة الأرض، ص 101-103 .
Massignon: ibid p. 152.

(124) البكري: المسالك والممالك، ص744-871 من الطبعة التونسية.1992

فإننا ملزومون بتطبيق نظرية « الخريطة الهلامية» في التحديد القبلي الخاص بالمغرب الأقصى وخاصة في الجهات الشرقية منه على الأقل. فالمهم عندنا هو القبض على صورة الزخم البشري فيه خلال القرن الرابع الهجري /10 م.

وبمتابعة نصوص البكري أمكننا أن نحصي القبائل المغربية التي كانت تنتشر في أهم جهاته والتي كانت أيضا مسرحا للوقائع والأحداث التاريخية. وقد تابعناه في مسالكه وطرقه، وفي مدنه ومنازل الطرق، وفي حديثه عن أنهار المغرب الأقصى وجباله وصحاريه، والتزمنا أيضا تكرار بعض أسماء القبائل باعتبارها متنوعة بتنوع الجهات التي وجدت فيها، وإن اتحدت في التسمية مثل «مطغرة» أو « مدغرة»، ومثل مكناسة ومغرارة، ومطماطة. كما اعتبرنا بعض البطون إسما قبليا وإن كان في الأصل ضمن القبيلة الكبرى التي ينتمي اليها مثل «بني البوري» أبناء موسى بن أبي العافية المكناسي. ومثل «بنو صالح بن طريف» الذين يعتبرون من برغواطة، واعتبرنا أسماء الأقليات أسماء مستقلة مثل اليهود والسود، وأسماء بعض الأسر المهاجرة من الأندلس إلى المغرب مثل بني موسى.

ومن خلال هذا الرصد امكننا أن نحصل على 134 إسما قبليا. يعني أن الجغرافيين السابقين عن البكري لم يمكنونا من الصورة البشرية التقريبية الخاصة بالمغرب الأقصى قبل أبي عبيد البكري.

ورغم كل شيء فإن البنية البشرية للمغرب الأقصى لم تظهر كاملة رغم المعلومات المستخلصة من أبي عبيد البكري، ولم تظهر متوازنة. وبالاعتماد عليه يمكن أن نسجل الملاحظات الآتية على هذه التركيبة العامة:

أولا : اهتمام البكري بالجهات الشمالية من المغرب الأقصى ابتداء من حوض نهر سبو إلى البحر الأبيض المتوسط. فقد أمدنا البكري بحوالي 123

إسما قبليا أو أسريا. تنتشر في الشمال بما في ذلك مصب نهر ملوية وسلسلة جبال الريف وغمارة، والجهات السهلية الغربية إلى حوض نهر أم الربيع بما في ذلك منطقة بورغواطة بتامسنا.

ثانيا إجمال البكري للقبائل المنتشرة في المناطق الوسطى من المغرب الأقصى. فلم يذكر في الجهات التي يغطيها الأطلس المتوسط وجزء من السفوح الشرقية من الأطلس الكبير إلا أربع قبائل، وهذه الجهات هي طريق فاس-سجلماسة. والقبائل المذكورة عنده هي: مكلاتة، ومطماطة، ومغيلة ثم لواتة، وهذه كلها وضعها في جنوب فاس وصفرو.

ثالثا: كذلك أجمل القبائل التي انتشرت في الجنوب إجمالا يكاد لا يفي بالصورة البشرية لمنطقة سجلماسة وحوض نهر درعة. ولم يذكر من قبائل هذه المنطقة سوى شرطة أو سرطة، وأمر غاد ولمطة وجزولة وبني وارث وهسكورة.

رابعا: أهمل نسبيا جبل الأطلس الكبير (درن). ولم يذكر من قبائله التي وصفها بالمصمودية على خلاف الجغرافي اليعقوبي الذي وصفها بالصنهاجية. فذكر البكري من مصمودة درن القبائل الآتية: هزرجة، ومصمودة نفيس ثم أضاف وصفا عاما لسكان هذه المنطقة وهو «صنهاجة» وكأني به يقتبس من اليعقوبي. والمهم أن الأطلس الكبير (درن) ما زال مجهولا بشريا الى حدود عصر أبي عبيد البكري. رغم أنه وقف عند إسمين قبليين هما: ماغوس، وبنو لماس اللذين وصفهما بأنهما من الروافض البجلية. مع ملاحظة أن هذه الجهات ستنفجر في العصر الموحدي بشريا.

خامسا : كذلك لم يعط الاهتمام المطلوب لمنطقة السواحل الجنوبية الغربية التي تمتد في حوض نهر «سوس» إلى ما وراء مصب نهر «درعة» وكأنها امتداد لسجلماسة التي كانت تجتمع فيها قوافل درعة ونول لمطة

وأدغشت. وقد ذكر أهم قبائل هذه الجهات، وأجملها في جزولة، ولمطة، ومسوفة، ولمتونة، وبنو ينتسر (بنو ينتصر)، ومداسة.

فالجغرافية البشرية التي أمدنا بها البكري غير متوازنة إذا قارنا ما قدمه لنا عن شمال المغرب الأقصى بما أمدنا به من معلومات عن الجهات الأخرى منه. فهو قبل كل شيء جغرافي مسالكي، ولكنه أكثر اهتماما بالمنطقة أكثر من غيره. وطابعه الأندلسي واضح في مادته الجغرافية.

ولكي تكون الصورة البشرية للمغرب الأقصى واضحة نرى من الأنسب أن نجسدها في الجدول الآتي الذي وسمناه بالتركيب البشري للمغرب الأقصى حسب أبي عبيد البكري (تـ 487 هـ/ 1094 م).

خريطة المغرب الأقصى البشرية حسب أبي عبيد البكري

التصنيف / الرقم	القبائل الرئيسية	عدد الفروع التابعة	الأقليات المذكورة	إسم مكاني قبلي	الموطن والموقع	عدد الفرسان المحاربون	الملاحظات المكملة
1	مدغرة [125] ...	3			ببني يزناسن واد وانسفين	-	
2	جراوة [126] ...	2			ببني يزناسن	-	
3	بنو يرنيان [127]			بلاد زناتة	حول تابريدا بنو (يزناسن)	-	بين سجلماسة وكرسيف

(125) ذكرها البكري ثلاث مرات مرسومة بالدال، تكلم عليها باعتبارها من القبائل المحيطة بمدينة الخضراء على مقربة من تنس بالمغرب الأوسط، ثم في منطقة تابحريت (السعيدية الحالية). ثم ذكرها على وادي وانسفين بتادلا قرب أم الربيع حول مركز «داي» ثم رسمها بالطاء «مطغرة» مرة واحدة عند ذكره لمركز نسبه لبني جلداسن وسماه باسمهم وقال عنه أنه «مدينة لطيفة لمطغرة». أنظر البكري: المسالك: الفقرات بالترتيب:
1247 ، 1258 ، 1412 ، 1235 . ولم يرسمها بالضاد ولا بالكاف نهائيا، ثم أنظر ابن خلدون: العبر 201/6 .
أما المصادر الأخرى فقد ذكرت مدغرة في مواطن أخرى من المغرب الأقصى، فقد تحدث عنها ابن عذاري: البيان 222/1 بحوض زيز بالمنطقة التي ما زالت تحمل اسمها الى الآن مع تعديل بسيط في النسبة، حيث تسمى« جماعة شرفاء مدغرة». أنظر مولاي أحمد العلوي العبدلاوي: مدغرة إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث رسالة مرقونة مقدمة لكلية الآداب ظهر المهراز – فاس (1993). الفصل الأول من الباب الثاني ص 142-155 .2 D.Eutache: Corpus, p.153 Note

(126) ذكرت جراوة في المغرب الأقصى عند البكري باعتبارها اسما لمدينة قرب مصب نهر ملوية وفي السفح الشمالي لجبال بني يزناسن، وهي في الأصل إسم لقبيلة الكاهنة بجبال الأوراس، ويظهر أن حملة حسان بن النعمان، وموسى بن نصير على البربر لاكمال الفتح الإسلامي أدى الى نقل بطون قبيلة «جراوة» الى الجهات الغربية، وانضمت اليها بعض بطون قبيلة بني يفرن، ثم تمركزت في هذه الجهات مع حلفائها بعد إسلامهم في جبال بني يزناسن منذ ثورة ميسرة المدغري ابتداء من سنة 122 هـ / 740 م.

(127) وطنهم ابن خلدون بمصب نهر ملوية وهو التوطين الذي نجده عند البكري: المسالك فقرة 1279 . ابن خلدون 6 / 439. 11/7 15-22 وخاصة 101

4	مكناسة [128] ...				حول تازة وبنني يزناسن	-	بملوية وسبو
5		بنى البوري					
6	بنو ورتدي[129]				سكان مليلة		هى قبيلة 13
7	السود[130]...				على نهر لكوس		
8	زواغة [131]...				فاس ، جراوة		
9	مطماطة [132]...				شرق فاس		
10	كبدان [133] ...			كبدان			

---

(128) المقصود هنا مكناسة الشمال الذين سيطروا على مضيق تازة، وكونوا إمارة مكناسة برئاسة موسى بن أبي العافية في أوائل القرن الرابع الهجري / 10 م.

(129) نسبها ابن خلدون إلى قبيلة ولهاصة، ورسمها « ورتدين» مع إشارة إلى أن ولهاصة من نفرة، فتكون قبيلة بني ورتدين عبارة عن بطن صغير. أنظر العبر 6/ 231 .

(130) إشارة البكري إلى وجود الإنسان الزنجي الأصل على نهر لكوس، وهو مركز الربط القوافلي بين طنجة وسبتة وبين الجنوب، يثبت حقيقة العلاقات البعيدة المدى بين شمال المغرب وافريقيا جنوب الصحراء. وهذا الوضع يوحي بثورة ميسرة المدغري في هذه الجهات، فهل ساهم هؤلاء فيها؟

(131) زواغة" تعتبر من الأسماء القبلية القديمة، التي كانت ضمن قبائل البربر الرحل الذين سكنوا الاخصاص والخيم ويغلب أن يكونوا هم "Les Ziegrens" وانتقلوا من منطقة طرابلس على دفعات الى حوض سبو بالمغرب الأقصى، وانتشروا فيه. أنظر دائرة المعارف الإسلامية، مقال « زواغة» وكذلك في طبعتها الجديدة بالفرنسية بحث « الأدارسة»: Desanges: Catalogue, p.40.

(132) سبق التعريف بها، أنظر قبله من هذه الدراسة.

(133) من القبائل الصغرى في القرن الرابع الهجري / 10 م التي اتخذت اسمها من إسم المكان، وتعتبر من بطون بطيوة، فهي من قبائل الريف المغربي المشهورة باسم كبدانة.

11	مرنيسة [134]..						
12	غساسة ...				بجبل هرك		
13	بنو ورتدي ...				بجبل قلوع		هي قبيلة رقم 6
14		بنو مروان			غمارة		
15	بنو حميد						
16	مسطاسة						
17	صنهاجة						
18	أوربة				حول فاس		
19	بنو وليد						
20	بنو مراسن				على نهر صاع وحول تاوريرت		
21	بقوية				مرسى البحر		من بني يطوفت
22	بنو ورياغل....				على نهر غيس		
23	كزناية...						هم يضا بنو كوين
24	بنو سعيد				على نهر غيس وواد لو		

---

(134) عرفنا بنا سابقا أنظر قبله من هذا الفصل.

25	تمسمان....			تمسمان	أوكن		
26	نفزة			نفزة	غمارة صنهاجة		
27			الصقالبة		نكور		
28	بنو يصليتن....				على نهر تمسمان		
29	بنو بطوية				بالنكور		
30	بنو يطوفت....						من نفزاوة
31		بنو جرثم			نكور-المزمة		
32	أزدجة				نكور-وهران		نفزة أصلا
33	مجكسة ...						قبيلة حميم
34	مصمودة الساحل						
35		بنو وجفوال			نهر رأس بغمارة		قرب تطوان قبيلة حميم
36		بنو سداد					
37		الرقادة			بواد لو		
38	بنو قطيطن....				بواد لو		
39	بنو يرتن				بواد لو		

40	صنهاجة				طنجة وناحيتها		
41	صنهاجة	بنو قار			ناحية طنجة		
42	صنهاجة	بنو حزمار			ناحية طنجة		
43		بنو طريف			ناحية طنجة		
44	بنو سمغرة						
45	قبائل مصمودة ...						
46		دغاغ			سبتة-طنجة		
47		أصادة			سبتة-طنجة		
48		بنو سمغرة			سبتة-طنجة		كررها مع رقم 44
49		كتامة			سبتة-طنجة		
50	هوارة....				قرب سبتة		غرب سبتة
51		بنو عفان			بين سبتة-تطوان		
52	بنو كترات ...				بين سبتة-تطوان		من مصمودة
53	بنو سكين				بين سبتة-تطوان	100 فارس	من مصمودة

54	بنو مرزوق			صدينة	أهل صدينة تطوان		
55	بنو حسين				بمنطقة حميم		
56	بنو مغراوت....				بلد مجكاسة		
57	مصمودة فج الفرس					200 فارس	
58	بنو متنة			تافرغالت	بجبل تمورات (تافرغالت)	80 فارس	من صنهاجة ش
59	بنو حميد .... بنو حميد	بنو جفو بنو نفقاوة					على نهر واد لو على نهر واد لو
60	بنو مسارة				حول تغساس		من بني حميد (مصمودة)
61	بنو راسين				بين طنجة-تطوان وبني يزناسن		من زناتة
62	ملواثة ...				قرت طنجة	500 فارس	
63	كتامة....				على جبل صرصر وأصيلا		من مصمودة

64			عرب خولان		على نهر زلول ونهر لكوس		
65	صنهاجة	دمنة					دمنة عشيرة
66 67	دنهاجة .... أصادة				قصر دنهاجة؟		على نهر لكوس من كتامة و من مؤيدي برغواطة
68	جنيارة				بكرت علي سبو		
69	مغيلة	وشتاتة		وشتاتة	بشمال فاس		بجبل زلاغ
70	لواتة				أصيلا وما حولها		
71		بنو زياد					من هوارة زلول والساحل
72	بنو سطة						من صنهاجة
73	رهونة				بلد رهونة		يؤيدون الأدارسة
74		بنو محمد					هم الأدارسة
75	بنو فتركان....				شرق رهونة		من غمارة
76	زرهونة				ب «زهجوكة»		
77	قرزاوة						لعلها غزاوة

78	قرزاوة	بنى حصين					
79	ورطيطة						
80			اليهود		مدينة فاس		هي أكثر بلاد المغرب يهودا
81	ترهنة....				حول فاس		لكن هل هي من زرهورنة؟
82	مديونة				بجنوب فاس/ صفرو		
83	منجصة						تحسب من مؤيدي برغواطة
84	قبائل بورغواطة	بنو صالح			تامنسا 3200فارس	يركب لهم: 3200	ملوك برغواطة
	قبائل بورغواطة	بنو أبي ناصر			تامنسا	يركب لهذه	ذكر البكري
85	البرانس	زواعة			؟	القبائل مع	هذه القبائل
86	بنو أبي نوح	بنو واغمر			؟	برغواطة	باعتبارها
87	بنو بورغ....	جراوة			؟	أكثر من	مناصرة
88	بنو دمر	مطماطة				10000	لبرغواطة

89	بنو زكسنت				تامسنا		وليس باعتبارها مستوطنة لتامسنا ما عدا بعضها
90	بنو يليت				تامسنا		من قبائل برغواطة
91	بنو نمالة						
92 93	بنو واوسينت بنو يفرن				شالة		هل هم بنو واسين؟ وببني يزناسنس
94	بنو تاغيت						
95		بنو النعمان					
96	بنو أفلوسة						
97	بنو كونة						
98	بنو يسكر						
99	ركانة....						
100	ايزمين						

101	منادة						
102	ماسينة						
103	رصانة						بشرق المغرب الأقصى
104	ترارتة....						
105	بنو يادسن				ببني يزناسن		تنتشر بين تلمسان ومصب ملوية
106	بنو وريمش				جبال بني يزناسن		تنتشر بين تلمسان ومصب ملوية
107	بنويفمر				بين ملوية ووهران		〃
108	ودانة						〃
109	ازداجة....				بين وهران وملوية		أنظر رقم 42
110	ترنانة				بين شلف وملوية		هوارة-نفزة مكناسة
111	بنو يزناتن....				بمدينة هاز		

112	مكلاتة	مطماطة - مغليلة			على نهر كيكو		منطقة تمحضيت المزي
113	لواتة مدين	لواتة			الجنوب الشرقي من صفرو		
114	قبائل سجلماسة....	بنو مدرار بنو وسول			سجلماسة		زناتة/ مكناسة الجنوب
115	مسوفة				درعة- زيز		صنهاجة الجنوب
116	هسكورة						
117	هزرجة						
118	مصمودة درن				نفيس		
119	بنو وارث				حصن داي		وكذلك في الجنوب الغربي موطن صنهاجة
120		بنو موسى			أغمات		
121		بربر سود			غرب بهت		
122	ولهاصة				شرق بهت		

قبائل الصحراء الكبرى

123	سرطة....	شرطة			نهر درعة وترغة		من صنهاجة الجنوب
124	أمرغاد				شمال سجلماسة		//
125	لمطة				على وادي نول		
126	مزولة						
127	بنو ماغوس	مصمودة			بأورير (ط.5)		روافض شيعة بجليون
128	بنو لماس				على السفوح الشمالية للأطلس الكبير		
129	بنو ينتسر				جنوب لمطة		من صنهاجه الجنوب على البحر المحيط
130	لمتونة				جنوب مسوفة		
131	جدالة				غرب لمتونة		
132	مداسة ...				جنوب لمتونة		صنهاجة الصحراء
133	سمغارة				تدمكة		صنهاجة
134	بنو وارسفان						الصحراء

هذه الخريطة البشرية التي يمكن رسمها بالاعتماد على الجغرافي الأندلسي «أبي عبيد البكري تـ 487 هـ/ 1094 م، من شأنها أن تعطي إطارا لمناقشة مسألة مناطق الاستقرار بالمغرب الأقصى والحرب أو ما يمكن تسميته بـ «عصبية الظل»، وسبق أن طرحناها في الفصل الأول من هذا الباب الثاني.

- سكان شمال المغرب الأقصى:

إن سكان شمال المغرب الأقصى، غمارة والريف وأزغار ثم بني يزناسن وما إليها شمالا، يظهرون عند البكري قوة بشرية مستقرة أو عبارة عن فلاحين، يربون الماشية إلى جانب ارتباطهم بالأرض. كما يظهرون في نفس الوقت « قوة متحركة» تعمل باستمرار من أجل تنظيم نفسها بتكوين قوتها الدفاعية الحربية، ولكنها استمرت دفاعية لا تعمل على الخروج من جهاتها ومجال وجودها جغرافيا إلى الجهات الجهوية الأخرى بالمغرب الأقصى، على عكس ما قامت به القبائل الرعوية الأخرى مثل مكناسة ومغراوة وبني يفرن وصنهاجة الجنوب، وهو ما يمكن تسميته بحركية زناتة وصنهاجة الجنوب.

فالمعطيات المستخلصة من مسالك البكري، تثبت أن قبائل وتجمعات بلاد غمارة والريف لم تكن قوة اجتماعية منكمشة ومنعزلة، ولكنها كانت ظاهرة الارتباط بالأرض الجبلية الشمالية، تفرض عليها تكوين «تحالفات دفاعية» بدلا من تكوين تحالفات هجومية. فالمسألة إذن كامنة في الإنسان المرتبط بالمجال المضبوط المحدد بكل جماعة من سكانه، وبين الإنسان الذي يعتبر المجال المفتوح هو ميدان وجوده. وهذا ينطبق تماما على حركية الرعاة واستقرار الفلاحين في المغرب الأقصى خلال مرحلة هذا البحث.

وتكفينا إشارات أبي عبيد البكري إلى بعض القبائل التي نظمت نفسها دفاعيا على منطقة وجودها. فقد تكلم على القدرة الحربية الدفاعية بهذه الجهات، كما تحدث على القدرة الحربية لمجموعة برغواطة التي نعتبرها من مجتمع الرعاة أو أنصاف المستقرين، والمقارنة بينهما تكفي لاستخلاص نتائج عديدة على المستوى الاجتماعي:

نجمل أهمها في القضايا الآتية:

أولا : كل منهما في منطقة ساحلية الأولى على البحر الأبيض المتوسط والثانية على المحيط الأطلسي (بحر الظلمات).

ثانيا: غمارة منطقة جبلية وبرغواطة منطقة سهلية مفتوحة.

ثالثا: غمارة متأثرة بحضارة حوض البحر الأبيض المتوسط أكثر من تأثر منطقة برغواطة.

رابعا: غمارة إقليم التحصينات الجبلية أما برغواطة فتعتبر جهة الانفتاح القبلي.

ومناقشة هذا الإطار المحدد للقوة الحربية تثبت الاتجاه الذي ذكرناه، ولمزيد التوضيح نلقي الضوء على قبائل المجموعتين «غمارة» و «بورغواطة» في اتجاه سياق بحثنا:

جدول مقارن بين القوى الحربية لمصادمة الشمال وبرغواطة في القرن الرابع الهجري /10 م

أ- القوى الدفاعية لغمارة	ب- القوى الحربية لبرغواطة
1- ملواثة يركب لهم= 500 فارس	1-برغواطة يركب لهم= 3.200 فارس
2- مصمودة فج الفرس يركب لهم200 3- بنو سكين يركب لهم= 100 فارس	2- القبائل التابعة لبرغواطة يركب لهم= 10.000 فارس
4- بنو متنة يركب لهم = 080 فارس	3- القبائل المؤيدة يركب لهم= 12.000 فارس
مجموعة قوة هؤلاء=880 فارس	مجموع قوة هؤلاء= 25.200 فارس

أولا: قبائل الدفاع الغمارية:

إن مصطلح غمارة، في الأصل يعتبر إسما بربريا لمنطقة أقصى شمال المغرب الأقصى، فهو تسمية جغرافية بربرية لجهة من جهات المغرب تعني «الركن» أي ركن الزاوية هندسيا، من الكلمة البربرية «تيغمرت» جمع « تيغمرين»[135] وليس إسما لقبيلة في إطلاقه الأصلي، وجرى حديثا إطلاقها على قبيلة صغيرة في أقصى شمال المغرب على الساحل البحري للأبيض المتوسط شرق نهر وادي لو. وفي منطقة غمارة بمعنى الركن الشمالي الغربي من المغرب الأقصى توجد مجموعة كثيرة من القبائل، نقف قليلا عند :ملواثة، وبني يسكن ومتنة، ومصمودة فج الفرس.

1- ملوانة: رسم إسمها في النسخ المطبوعة لمسالك أبي عبيد البكري بـ «ملواثة» بالثاء، و بـ «ملوتة» بالتاء، و بالنون «ملوانة» أما ابن خلدون[136] فرسمها بالنون، واعتبرها من صنهاجة. على خلاف البكري[137] الذي أدرجها

---

(135) محمد شفيق: المعجم العربي الأمازيغي. مادة «ركن» والبكري تكلم على غمارة باعتبارها جهة وليس قبيلة ص776 فقرة 1301 .

(136) ابن خلدون: العبر 311/6 ووطنها في غمارة (نفسه ص427). ثم عرف بها ومن انضاف إليها من القبائل الصنهاجية، كما قال :« يحترفون بالحياكة والحراثة» وجعلهم في عصره ضمن القبائل الغارمة بعد تعريبهم.

(137) البكري :المسالك ، ص787 فقرة 1317 ط، تونس 1992 . وفي طبعة دي سلان ص213 اعتمد الرسم بـ« ملواثة » بالثاء، لكن الذي بقي فيما بعد هو الرسم الخلدوني بالنون. ما عدا إذا اعتبرنا هذه القبيلة من القبائل اللواتية، التي وصلت مع الفتح الإسلامي ثم اندمجت في غمارة ضمن مصمودة وأصبحت في عصر ابن خلدون ضمن صنهاجة؟ وقد أضاف الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور معلومات متأخرة وجديدة على «ملوانة» باعتبارهم موزعون بين المغربين الأوسط والأقصى. أنظر: عبد الوهاب بن بنمنصور: قبائل المغرب ص333 .

ضمن مصمودة الشمال ووطنها بين تطوان وطنجة. ومهما كانت الاحتمالات فإن «ملوانة»، كانت تمثل في عصر البكري (القرن الخامس الهجري /11 م) قوة حربية ذات أهمية كبرى بين مجموعة مصمودة في منطقة تطوان وطنجة.

2- مصمودة فج الفرس: يقصد البكري بهؤلاء ما ذكره بالتحديد في قوله[138]: «والمسلك من سبتة الى طنجة على طرق، وهي مساكن قبائل مصمودة كلها» ثم ذكر قبائل مصمودة التي حدد منطقتها : وهم سمغرة، ودغاغ، وأصادة، وكتامة، وأضاف لهم قبائل صنهاجية وجمعهم في بني «قار» و «بني حزمار». وهؤلاء على الطريق الساحلي من سبتة إلى طنجة كما جاء عند البكري، واعتبر مدينة «أليم» أو القصر الصغير حاليا هي مجمع هؤلاء المصامدة الذين يكونون قوة حربية دفاعية تصل إلى 200 فارس.

فهذه المجموعة المصمودية تعتبر حزاما أمنيا يحمي المنطقة من أي تدخل هجومي من البحر على «بلاد غمارة». فهي تنظيم حربي متاخم للشواطئ الشمالية المغربية. و بالتأكيد فإن هذا التنظيم لم يكن ناشئا من مؤثرات داخلية، أو نتيجة لصراع قبلي، وإنما نتج من الظروف الهجومية التي كان الشاطئ الشمالي المغربي يتعرض لها من البحر على الداخل. ويعني هذا أن الروح الدفاعية على سواحل المغرب الأقصى أخذت في تبلورها من هذه المرحلة التاريخية.

3- بنو سكين: أوردها ابن خلدون[139] باعتبارها بطنا من بطون كتامة بالمغرب الأوسط. ولعل ما ذكره ابن خلدون يرجع إلى مرحلة متأخرة عن عصر دراستنا. لكن يحتمل أن تكون من البطون الكتامية المنتقلة إلى

---

(138) البكري: المسالك ص 781 فقرة 1309 و ص782 فقرة 1310 .

(139) العبر 306/6 ، 561/7 .

المغرب في العصر العبيدي والذي يظهر أنه تحريف لـ «بني حسين» قبيلة حاميم، كما رسم ذلك البكري.

4- بنو متنة: لعلها هي التي عرفت بمتنان[140]. وكل من الاسمين يعتبر من صنهاجة، وقد اختفى هذا الإسم القبلي الذي ورد عند البكري.

يتضح من طبيعة ما سميناه بقبائل الدفاع بغمارة، أنه مكون من مجموعتين مصمودة وصنهاجة أو بطون ذات أصل زناتي لواتي. مما يثبت أن المكان والمصالح والتشكيل الإجتماعي النمطي هو الذي ينبني عليه نظام «التجمع القبلي». وأيضا كيف تعايشت قبائل غمارة، ثم ما هو موقفها من التدخلات الخارجة على وحدتها القبلية، ثم ما هي طبيعة استقلالها القبلي؟ هل كان يحمل مظمونا سياسيا أم لم يجاوز محتواه الاجتماعي الذي يقف عند طاعة كبير القبيلة « الشيخ» الذي لا يطمح إلى توسع قبلي وتكوين إمارة سياسية؟

من المؤكد أن هموم الحياة عند المستقرين المرتبطين بالأرض، ليست هي هموم الرحل الرعاة. فالأولون محتاجون إلى الأمن والدفاع وأولائك قوتهم في حركتهم وانتقالهم. فكانوا بطبعهم مهاجمون. فالمستقرون يعتمدون على التحصين وبناء مراكزهم على هذا الأساس. أما الرحل فكلما توغلوا في جهة يستهدفون تلك الحصون. وعلى هذا نلاحظ استمرار الصراع طيلة القرن الرابع الهجري /10 م على الحصون وتدميرها. كما نلاحظ أن هذا القرن لم ينتج مدينة عمرانية بمعنى الكلمة، بل أنتج تدميرا وتخريبا لها كما حصل في البصرة وتطاوين، وأحرق البرغواطيون 387 حصنا معاديا لهم. وسنعود بعد حين إلى موضوع عصبية الظل لمناقشتها.

---

(140) العبر 561/7 – 306/6 .

ثانيا: القوى الحربية البرغواطية

كثرت الكتابات على برغواطة ومسألتها الدينية[141]. واتجهت تلك الأبحاث نحو الاتجاه الذي يعتبرها «إمارة من إمارات الخوارج الصفرية»[142] لكن الجانب الغائب في تلك الأبحاث كلها هو معالجة الجانب القبلي والإجتماعي. فبعد استقلال المغرب عن المشرق سياسيا في القرن الثاني الهجري /8 م، تخلخلت الخريطة القبلية المغربية، وكان لذلك أثره الأكبر على تغييرالبنيات الإجتماعية التي أعطت ظاهرة تكوين الإمارات

---

(141) نحيل هنا على أهم الأبحاث التي عالجت هذا الجانب من تاريخ برغواطة:

- د. محمود اسماعيل: حقيقة المسألة البرغواطية. مغربيات ط. فاس 1977 ص15-56 .
- د. رجب محمد عبد الحليم: دولة بني صالح في تامسنا بالمغرب الأقصى. ط . القاهرة ، دار التوفيق النموذجية 1991 م

-Talbi (M): Hérésie, Acculturation et Nationalisme des Berbères Barghwta (Etudes d'Histoire Afriqiyene. Tunis 1982 pp.81-104.

-Adam (A): Histoire de Casablanca , Paris 1968.

- Carcopino (J): Le Maroc Antique, Paris 1943.

-Deanges, Catalogue des Tribus, Dakar 1962.

-Galand (L):Baquates et Barghawate, Hespéris n°35, 1948.

-Terrasse (H):Histoire du Maroc, Casa 1949.

-Encyclopédie de l'Islam, (Art.Barghawata), Nouvelle Edition,T.I. p.p.1075-76

-Marcy (G): Dieu des Abadites des Burgwata, Hespéris , n°22-1, p.3-65. (1965).

(142) نلاحظ أن الباحثين المغاربة والعرب عموما يدافعون على أطروحة «خارجية برغواطة» وهذا نراه على المستوى المذهبي ولكن نرى رأيا آخر على المستوى الاجتماعي. أما الباحثون الغربيون فيدافعون على آراء أخرى مخالفة للموقف الإسلامي والمحلي. ولكل وجهة هو موليها، أنظر: بحث «ناحوم سلوش» وإن اكتسى طابعا دينيا، فإنه يفيد من الجانب الاجتماعي.

Nahoume slouch: L'empire du Bargwata et les origines des Balades - Siba.

القبلية على شكل « أحلاف قبلية » تختلف في طبيعتها بين أحلاف الدفاع، وأحلاف الهجوم. عبرت عليها المصادر بمصطلح « ألدول القبلية ». لعبت في بلورتها: طرق التجارة، ووجود المراعي، وأماكن الزراعة والاستقرار وديناميكية المذهب الديني، ثم طموحات الزعماء جهويا وعصبويا.

وأمام هذا الزخم المتداخل المتلاحق نتجت حركات اجتماعية تتسم بالانحسار والانكماش على «الذات الداخلية المحلية». تعتصر فيها نظريات التكوين الإسلامي المغربي البديلة للذهنية القديمة الموروثة عن المجتمع المغربي قبل الفتح الإسلامي. ولعل « برغواطة » أهم وأفضل ممثل لهذا الوضع الانتقالي في ذهنية وعقلية الجسم الإجتماعي المغربي، أي الانتقال من الموروث القديم إلى البديل الإسلامي الجديد(143). وأهمية هذه الظاهرة البرغواطية جاءت من تركيبتها القبلية، وقوتها الحربية، التي اتخذت مظهرا هجوميا في غالب مواقفها، وموقفا دفاعيا أحيانا أخرى.

و بالمقارنة بين قوى الدفاع الغمارية (أنظر الجدول قبله)، وبين القوى الحربية البرغواطية يتبين مباشرة أن هؤلاء يكونون قوة حربية مؤلفة من 880 فارس، وأولائك يؤلفون 25.200 فارس. أي أن قوة برغواطة أكثر ب 28

---

(143) وبقايا الموروث القديم من عادات واعتقادات وتقاليد تظهر في ظاهرة تعدد الزوجات، حيث لا حد عند البرغواطيين لعدد الزوجات عند الرجل الواحد. ويظهر أن هذه المسألة عادة قديمة عند المغاربة كلهم قبل الإسلام. وقد أشار المؤرخ الروماني سالوست :« فإن يوغرطة قد تزوج بنت بكوس، والحق أن هذا الرباط لا يعتد به عند النوميديين والموريين، إذ أن لكل واحد – حسب موارده – عدة نساء، فلبعضهم عشرة منهن، وللآخرين أكثر، وللملوك أكثر فأكثر، ولذلك يفقد التعاطف من هذه الكثرة ». أنظر: الدكتور محمد التازي سعود: حرب يوغرطة ص163 . ثم قارن بما جاء عند الباحث الفرنسي «الفرد بل «في بحثه » الفرق الإسلامية » ترجمة «بدوى» ص196 ، ثم قارن تعليق الدكتور محمود اسماعيل على كل ذلك: مغربيات ص117 .

مرة من القوة الحربية الشمالية. وعلى المستوى العام تظهر برغواطة أقدر حفاظا على استقلالها القبلي والجهوي.

تعتبر الظاهرة البرغواطية في منطقة تامسنا أطول تجربة قبلية مستقلة في المغرب الأقصى. فقد بدأت منذ 127 هـ/ 745 م مع بداية ثورة الخوارج الصفرية بالمغرب الأقصى، واستمرت بين التفوق والظهور والاضطراب والخفوت الى العصر المرابطي حيث بدأت نهايتهم بالهجوم المرابطي وسيطرت صنهاجة على تامسنا سنة 451 هـ/ 1060 م ولكن الاختفاء النهائي كان على يد الموحدين في أواسط القرن السادس الهجري /12 م بعد سيطرتهم على مدينة مراكش سنة 541 هـ/ 1147 م في عهد عبد المومن بن علي الكومي.

وكانت «الإمارة القبلية البرغواطية» منذ نشأتها تتحرك على مستوى قبلي، فلم تحارب من أجل نشر مذهب، وإنما تحركت من أجل السيطرة على مفاتيح الطرق التجارية «ببهت»(144) سنة (259 هـ/ 873 م) وبتادلا على وادي أم الربيع سنة 260 هـ/ 874 م وكذلك على مناطق الرعي والزراعة عامة، فقد اعتبرت أراضي الشاوية ودكالة وعبدة، وحوز مراكش الحالية أراضي النفوذ البرغواطي. لكن رغم هذا التوسع فإن « برغواطة » لم تؤسس قاعدة للنفوذ السياسي الحقيقي، فلم تنشئ مدينة للحكم، ولم تكون هياكل قارة للحكم. فسلطتها شفوية وليست تنظيمية. ولعل هذه الخاصية هي خاصية النظام القبلي في المغرب طيلة العصور الوسطى. وهذا يعني أنها «إمارة ريفية بدوية» انطلقت من الأرياف والبوادي المغربية، واستمرت

---

(144) ذكرتها المصادر في عهد يونس البرغواطي (224 هـ/ 840 م- 268 هـ/ 882 م). ولم تحدد تاريخ هذه المعركة، ويغلب على الظن أنها وقعت في سنة 259 هـ/ 873 م. أنظر ابن عذاري: البيان ج1 ص225-226 .

كذلك روحا ونظاما، مما تركا طموحها السياسي معزولا ومنغلقا وضيقا. ورغم أن قوتها الحربية التي ظهرت في الجدول السابق قوية بالمقارنة مع غمارة، فإن نشاطها لا يتجاوز امتداد مجالها الرعوي المفتوح المثمثل في السهول الجنوبية الغربية (بلاد تامسنا). وكأن هذه القوة القبلية لم تكن الا قوة للإغارة وجمع الغنائم عند الحاجة.

والمصادر والدراسات التي اهتمت ببرغواطة تعطينا فكرة عن قوة «التجيش القبلي» لهذا التجمع البرغواطي، ويعتبر البكري أهم تلك المصادر التي تصف «الجيش البرغواطي» فقال[145] :«قال زمور : ليس في عسكرهم طبول ولا بنود». فكانت هذه القوة كاملة ومصنفة كالآتي:

1- الاتباع المقربون أو الحرص البرغواطي = 3.200 فارس
2- قبائل التحالف : عدد قوتها = 10.000 فارس
3- قوة القبائل التابعة لبرغواطة = 12.000 فارس
مجموع القوة البرغواطية = 25.200 فارس

وهكذا تظهر «برغواطة» في القرن الرابع الهجري /10 م، عبارة عن «تحالف قبلي برغواطي»، وحسب التقاليد المغربية البربرية القديمة، فإن رئيس أو زعيم التحالف، كان يلقب بـ «أكليد » أو «الملك» أو «أمغار». وهذا اللقب الأخير هو الذي عرفت به أسرة «أيت أمغار» بتيط قرب مدينة الجديدة الحالية. ويصفهم ابن حوقل في القرن الرابع الهجري /10 م بقوله[146]: بلدهم مستقل بنفسه عن الحاجة إلى ما في غيره، لأنهم أهل شدة وبأس وصبر على القلاء والمراس».

---

(145) البكري: المسالك ص 141 ـ (ط. تونس فقرة 1381 ص827).

(146) ابن حوقل: صورة الأرض ص: 83 .

كان إذن النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / آخر القرن التاسع الميلادي هو فترة القوة البرغواطية، والإنتقال القبلي المغربي عموما، وهذا يصادف في نفس الوقت «عصر تكوين الأحلاف القبلية الكبرى » في المغرب الأقصى. وحاولت برغواطة جمع قبائل من داخل حوضي نهر أم الربيع (وانسفين)، ونهر تانسيفت، ومن المعلوم أن هذه الجهات مناطق رعوية جيدة وفلاحية غنية، بالإضافة إلى أنها معبر للطرق التجارية القوافلية ذات الامتداد البعيد نحو الصحراء الإفريقية والبحرية كذلك. والسيطرة على هذه الجهات لا تتم إلا بتضامن قبلي كبير في هذه المرحلة. وفي سبيل ذلك تكون «الحلف البرغواطي» ، وكان العمود الفقري لزعامته ممركزا في أسرة « بني صالح بن طريف»[147] فتركب هذا التجمع القبلي في هذه المرحلة من العناصر البشرية الآتية:

أولا : أسرة الزعامة في هذا التجمع وحاشيتها المقربة المؤلفة من بني صالح بن طريف، ومن خدامها المقربين. وهذه هي قيادة الحلف، وهي التي حملت إسم «جماعة بورغواطة»، وكانت مؤلفة من «إثنيات وقبائل متعددة» جاءت في معظمها من بلاد غمارة. وقد أشارت المصادر إلى هجرة بطون من رهونة إلى بلاد تامسنا، في بداية الحركة البرغواطية [148] وهؤلاء هم الذين كونوا الجيش الحرسي لزعامة برغواطة[149].

---

(147) لا نريد أن نناقش الأصل السلالي النسبي لزعماء الحلف البرغواطي بقدر ما يهمنا أن نعالج التجمعات القبلية لهذا الحلف، وهذا الحلف انضمت إليه القبائل الطريدة من المغرب الأوسط أو حوض ملوية وحوض نهر سبو. وظهر ذلك في الأسماء القبلية التي تكون منها في مرحلة تفوقه (224 هـ/ 840 م- 369 هـ/ 981 م).

(148) الشريف الإدريسي : نزهة المشتاق ط إيطاليا 1978، ص 236.

(149) أنظر الجدول قبله.

ثانيا : القبائل التابعة المتحالفة، وهي المكونة للأساس اللفي القبلي البرغواطي، وهي التي تعتبر قبائل هذه الجهات الغربية، ولا نملك تحديدا دقيقا لها، ما عدا التسمية العامة وهي مصامدة السهول. ونشك أصلا في هذه التسمية. بناء على أن إسم «مصمودة» أول ما أطلق في المصادر الإسلامية القديمة، كان يعني قبائل بلاد غمارة. وبناء على أن أول ما ظهرت فيه البرغواطية، كان في الجهات الشمالية المغربية (منطقة غمارة وبلاد أزغار أي بلاد الهبط)[150] منذ ثورة الخوارج الأولى في المغرب بزعامة ميسرة المدغري (سنة 122هـ) ، وكان زعيم برغواطة الأول من قادة هذه الحركة وهو «طريف بن مالك» (125 هـ/ 743 م - 131هـ/ 748 م). فهل التسمية المصمودية للجماعة المؤيدة جاءت من هذه المعطيات؟

ثالثا : القبائل المسالمة المناصرة للحلف البرغواطي التي انضمت إليه في القرن الثالث الهجري /9 م. وكانت تنتمي في تحالفاتها القديمة إلى «زناتة» و «صنهاجة»، وأهم هذه القبائل التي ذكرتها المصادر (150 م) صنفين: قبائل داخلة في الحلف، وقبائل منضمة مناصرة. وكأن هؤلاء يكونون القاعدة الحربية لحلف برغواطة وهؤلاء هم:

---

(150) حول ضبط مصطلح أزغار والهبط نحيل على دراسة «لوي ماسينيون» لكتاب الوزان أنظر: Massignon: Le Maroc :p.237-238

القاعدة القبلية لحلف برغواطة في القرن الرابع الهجري /10 م (33 قبيلة)

جراوة	زواغة	البرانص	منجصة
مطغرة	بنو وزكيت	مطماطة	بنو أبي ناصر
بنو أبي نوح	بنو بورغ	بنو دمر	واغمر
بنو سلت	بنو أويغرمان	وزقارة	زناتة الجبل
بنو يفرن	بنو يجفش	بنو يليت	نمالة
بنو وارسين	بنو ناغيت	بنو النعمان	بنو أفلوسة
بنو كونة	بنو يسكر	أصادة	وركانة
وايزمين	منادة	ماسينة	رصانة
وترارتة			.

ونعود إلى البنية البشرية للمغرب الأقصى التي حاولنا رسم معالمها الكبرى على أساس البكري في مسالكه. لمناقشة القضايا التي يمكن أن تطرحها على موضوع بحثنا الذي يهتم بالجانب الإجتماعي من تاريخ المغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري /10م. ونسجل أن هذه الخريطة البشرية القديمة غير كاملة، وأبرز منطقة غائبة بشريا في هذه البنية هي الجهات الجبلية الوسطى من المغرب الأقصى والمعروفة بجبال «فزاز» أي الأطلس المتوسط، وجبال «درن» أي جبال الأطلس الكبير وما في حكمه مما يعرف بالأطلس الصغير، صحيح أن مصادرنا التي ترجع إلى ما قبل القرن الخامس الهجري /11م، لا تفي بإعطائنا رصدا بشريا بهذه الجهات، مما يفرض علينا الرجوع إلى مصادر العصر الموحدي، وخاصة كتاب «أخبار المهدي ابن تومرت» لأبى بكر الصنهاجي المكنى بالبيدق[151]. وكذلك المصادر

(151) نعتمد بالأساس على الطبعة التي أشرف عليها المستشرق المعروف ليفي بروفنسال سنة 1928 م طـ باريس.

الجغرافية المعاصرة أيضا وخاصة الشريف الإدريسي مؤلف «نزعة المشتاق» [152]، ونعتمد أيضا كتاب «الاستبصار» لمؤلف مجهول [153]. و«الروض المعطار» للحميري [154]. ثم ابن خلدون في عبره [155].

الجغرافية البشرية للجبال الوسطى المغربية في القرن 4 هـ/ 10 م

المصادر التي ألفت قبل القرن السادس الهجري /12 م لا تتجاوز الصورة الإجمالية، ولا تقدم إلا أسماء قبلية لا تتجاوز عدد الأصابع. ونرسم هذه الصورة كما جاءت في المصادر الموحدية مصنفة إلى قسمين:

أولا : قبائل جبال فزاز (الأطلس المتوسط).

ثانيا قبائل جبال درن (الأطلس الكبير).

أولا : الجغرافية البشرية لجبال فزاز:

تحدد المصادر الجغرافية العربية جبال فزاز [156] تحديدا يكاد يكون منطبقا مع المصطلح المعاصر «الأطلس المتوسط»، ولا ندري ما إذا كانت

---

(152) نعتمد على الطبعة الإيطالية الأخيرة التي صدرت 1978 .

(153) نعتمد تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد.

(154) نعتمد تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت 1975 .

(155) لانملك طبعة محققة تحقيقا علميا حقيقيا مما يحتم علينا العودة إلى الطبعة البيروتية التي فهرسها أسعد داعر على علاتها.

(156) -Colin (G.S):Fazaz, Art, dans l'Encyclopédie de l'Islam, (N.E 2ème), T.II, pp.855-894.
Eustache (D) : Corpus , p 91.

.../...

التسمية فزاز مستعملة قبل العصر المرابطي، فلا نملك نصا يرجع تاريخه إلى ما قبل ذلك، فهو استعمال متأخر على القرن الرابع الهجري /10 م.

فما هي إذن، العناصر البشرية التي عمرت جبال فزاز؟ إن الأبحاث والدراسات تعالج موضوع سكان هذه الجهات الجبلية (جبال فزاز) بنوع كبير من التعميم الذي لا يبين مرحلة تاريخيه عن غيرها. فالمرحلة الزناتية التي انتهت بالعصر المرابطي هي غير المرحلة الموحدية ثم المرينية كذلك. ولضبط المجموعات البشرية في مرحلة تاريخية عن غيرها يتطلب جهدا كبيرا وتحريا دقيقا. وتأسيسا على كل ذلك. فإن البحث انتهى بنا إلى أن سكان فزاز في القرن الرابع الهجري /10 م ، أو على الأكثر إلى بداية العصر المرابطي في منتصف القرن الخامس الهجري /11 م، كانوا قوة بشرية غير مضبوطة بدقة، وكل ما نعلمه عنهم هو وصفهم بـ «زناتة فزاز» وهو بدوره وصف متأخر يرجع إلى لسان الدين بن الخطيب[157]، ولكنه يصدق على

.../... وقد حدد مدلول جبل فزاز بأنه كان يعني القسم الشمالي الغربي من مجموع الجبال الوسطى (الأطلس المتوسط) ويمتد من شرق مكناس إلى وادي سبو الأعلى عند إلتقاء وادي كيكو بسبو ، ثم يمتد جبل فزاز في الجنوب الغربي إلى أم الربيع في قسمه الأعلى (حيث يعرف أم الربيع بوادي واسفين) . عند مضيق تغانمين .

ولعل أول ذكر للمصطلح الطبونيمي «فزاز» في المصادر المغربية هو ما ذكره البيدق في أخبار المهدي (القرن 6هـ/ 12م) . أنظر البيدق : أخبار المهدي ص 90 من النص العربي (ص 145 وهامش 2 من الترجمة الفرنسية ثم ص 183 وص 209) . ثم أنظر تحديد فزاز في الإستبصار ص 185، وذكره ابن خلدون باعتباره وطنا لقبيلة «يجفش» ، العبر 11/7 مع تحريف مطبعي لاينتبه إلى ذلك إلا أهل البلد ! . ولعل إسم «فزاز» مشتق من الكلمة البربرية : «أفزا» بمعنى الصخر الحشي .

(157) ابن الخطيب: القسم الثالث من كتاب «أعمال الأعلام» ط الدار البيضاء، تحقيق العبادي والكتاني ص168 . أما الهامش رقم 2 ففيه اضطراب تاريخي لا يجري على منهج بحثنا، ومن هنا لا نتفق مع ما جاء فيه من معلومات حول التعريف بفزاز وخلطه الكبير المتضارب.

ظروف مرحلة دراستنا.

فالبنية البشرية التي كونت هذه الجهات تتألف من الأسماء القبلية الآتية:

1-مكناسة ببطونها التي انتشرت حول تازة إلى الغرب.

2- مغيلة والتي توطنها المصادر قرب صفرو.

3- مديونة وتمتد مواطنها بين صفرو وفاس.

4- بهلولة التي تنتشر في غرب صفرو وسهل سايس.

5- فندلاوة تنتشر في الجهات الجبلية شرق صفرو،

6- مجاصة في منطقة الجبال التي ينبع فيها نهر سبو.

7- مكلاتة بمنطقة كيكو الحالية وما والها شمالا.

8- نمالة وبنو سمجون وبنو عجلان في منطقة بولمان الحالية.

9- بنو يخفش أو يحفش (وهو الأصوب في نظرنا) أو يجبش(158)

وكانوا في عصر دراستنا وهو القرن الرابع الهجري /10م بمنطقة قلعة مهدي (تمحضيت). وكانت أسرة « بني تاولا» هي رئيسة هذه الإمارة الرعوية بجبل فزاز. وقد بقي من بني توالي اسمهم محرفا قليلا في بطن صغير منهم قرب عين اللوح الحالي يعرفون ب «أيت مولي» يستقرون قرب الزاوية المرانية. على الطريق الرابط بين أزرو، وخنيفرة.

10- بنو تسكدلت، بنو موسى، بنو ماروي، بنو تكلمان.

11- أيت أمالو، وهم من صنهاجة، ويغلب على الظن أنهم وصلوا إلى فزاز في العصر المرابطي.

---

(158) أنظر البيدق (ط ل. بروفنسال النص المترجم) ص145 . ابن الخطيب: أعمال الأعلام ق3 ص168 . محمد المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الثاني (تحقيق الدكتور محمد بن شريفة). طبعة أكاديمية المملكة المغربية/الرباط 1984 ص378 هامش 735 .

12- بنو أريلوشن.

13- إنتقفاكن.

هذه هي أهم الأسماء القبلية التي أمكننا إرجاعها إلى عصر دراستنا من قبائل جبل «فزاز» (الأطلس المتوسط). ولكن الذي استوقفنا منها هو قبيلة « بني يحفش» الذين منهم أمراء المنطقة وهم «بنو توالا»(159). مؤسسي قلعة مهدي. وقد أشارت إليهم المصادر التاريخية والجغرافية القديمة(160). ويساعدنا الجغرافي الشريف الإدريسي برسم منظومتها

---

(159) وقرأها «جورج كولان» برسمين «بنو توالا =Tawala" وتويلة "Tawila وبهذه القراءة الأخيرة وردت عند الجغرافي الزهري، أنظر: الزهري كتاب الجغرافية، (طـ دمشق 1968 تحقيق محمد حاج صدوق) ص 192 فقرة 304 . ونص كلامه « وهي قلعة ابن تاولة » . أنظر:

- Kal 'At Ibn Tawila: C.F.E 12. II.894

ثم أنظر أيضا : - Eustache, Corpus, p.92.

(160) لعل أقدم المصادر التي أشارت إلى بني توالا هي على الترتيب:

- البيدق: أخبار المهدي ص145 وهامش 2.
- الزهري: الجغرافية ص192 فقرة 304 .
- الإدريسي: النزهة ص 221 وخاصة ص243 .
- مجهول : الاستبصار ص185 ، 187 .
- ابن عذاري: البيان 255/1 .
- ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ق3 ص168 .
- ابن خلدون: العبر 11/7 ، 15 ، 280 وخاصة ص378 .
- مجهول : مفاخر البربر، نشر ليفي بروفانسال قسما منه.
- ابن فضل الله العمري: مسلك الابصار .
- الحسن بن محمد الوزان: وصف افريقيا
- الناصري: الاستقصا ج 26/2-27 نقلا عن ابن خلدون وتوجيه آخر.

القبلية بقوله[161]: « ويسكن في قبلة قلعة مهدى قبائل زناتة من :

1- بني سمجون	2- وبني عجلان
3-وبني تسكدلت	4- وبني عبد الله
5-وبني موسى	6- وبني ماورى
7- وتكلمان	8- وأريلوشن
9- وانتقفاكن	10- وبني سامري»

ولم يشر إلى بني يحفش ضمن هذه اللائحة، ولكن عندما تكلم على القلعة نسبها إلى «بني توالا» الذين يعتبرون من هذه القبيلة، ويؤكد هذا الانتساب كلام ابن الخطيب[162] بقوله :« وأما بنو توالي وهم بنو يحفش الزناتيون». وهذا أيضا أكده ابن خلدون نقلا عن مصدر مغربي لم يصل إلينا[163] والمهم هو أن قبيلة بني يحفش الزناتية والتي تعتبر أيضا من بطون تجمع قبائل « بني يفرن» هي زعيمة زناتة فزاز (الأطلس المتوسط) في القرن الرابع الهجري /10 م. ويغلب على الظن أن هؤلاء وصلوا إلى هذه الجهات نتيجة للضغط العبيدي والصنهاجي الذي قاموا به ضد تجمعات قبائل الحلف الزناتي الرافض للطاعة الشيعة العبيدية. فقد تحولت هذه القبائل الزناتية التي استقرت في جبال فزاز من «رعاة السهوب» إلى «رعاة الجبال». ومن الطبيعي أن يكونوا تجمعا زناتيا رعويا، اتخذ من «قلعة

---

(161) الإدريسي النزهة ص243 .

(162) ابن الخطيب: أعمال الاعلام ق 168/3 .

(163) ابن خلدون: العبر 378/7 . والمصدر الذي اعتمده ابن خلدون هو كتاب «نظم الجواهر»؟ ويغلب على الظن أنه كتاب «نظم الجمان» لابن القطان. نشر قسم منه وما زال القسم الأكبر منه مفقودا ولعل ابن خلدون اعتمد على هذا القسم الضائع. أنظر محمد المنوني: مصادر تاريخ المغرب 57/1 .

مهدي» أو «تمحظيت» قاعدة لجماعته، تولت رئاسته أسرة «بني توالا» التي أنشأت هذا المركز الحصين في قلب الأطلس المتوسط، الذي يربط «الطرق التجارية القوافلية» الواصلة بين فاس وسجلماسة، ثم فاس بـ «داي» و«أغمات» فهو أذن مركز استراتيجي اقتصاديا وعسكريا. تزداد أهميته مكانة وقوة كلما تطورت العلاقات الإقتصادية والسياسية بين جنوب المغرب وشماله. وهكذا يتضح أن «جبل فزاز» لم يدخل زخم الحدث التاريخي السياسي بالمغرب الأقصى إلا كنتيجة لبناء مدينة مراكش والربط الطرقي بين (فاس- مراكش ثم فاس- سجلماسة). وهذا ما يفسر عدم اهتمام أبي عبيد البكري بالمنطقة، وفي المقابل ظهور أهميتها عند الشريف الإدريسي ومن بعده.

ونترك التاريخ السياسي لإمارة بني توالا إلى مكانة من هذه الدراسة. ونقف عند القبائل التي أعطت هذه الإمارة الجبلية الرعوية الزناتية في القرن الرابع الهجري /10 م والتي انتهت بالتدخل المرابطي في أواسط القرن الخامس الهجري /11 م. ونعتمد المصادر التي تعرضت منذ العصر المرابطي والموحدي، فكيف أذن تطورت الوضعية القبلية بجبال فزاز؟

1- بنو سمجون: من البطون القبلية الزناتية القديمة، وقد ذكرتها المصادر. وإن اختلفت في رسمها حيث رسمت « بني سمكان» ورسمت أيضا بـ «سمخان». والحقتها المصادر بمجموعة «زواغة»(164).ويظهر أنهم قبيلة زناتية تردد ارتباطها حسب قوة المجموعات التي تحالفت معها ففي المغرب الأوسط التحقت بكتامة، و في المغرب الأقصى انضمت إلى زواغة. ثم أصبحوا أوزاعا بعد القرن السادس الهجري /12 م.

---

(164) ابن خلدون: العبر 308/6 . عبد الوهاب بنمنصور: قبائل المغرب ص311 هامش 106 .

2- بنو عجلان: لا نملك معلومات عنهم ما عدا ذكرهم عند الإدريسي بهذه التسمية وإلحاقهم بزناتة فزاز. وقد ذكر ابن خلدون إسما قبليا عربيا باسم « بني عجل»[165] وأشار إلى أن هؤلاء من المولدين العرب الذين فتحوا المغرب. وألحقهم بقبيلة «ربيعة». فهل التحق هؤلاء بالحلف الزناتي؟ قد يكون. ورغم كل شيء فإن إسما مكانيا ما زال يحمل إسما يقرب من إسم بني عجلان، وهو « بو العجول» الذي يوجد في الطريق الرابطة بين إتزر وميدلت على طريق سجلماسة وفاس. فهل هناك علاقة بين الإسمين وهذا ما نحتمله.

3- بني تسكدلت: ورد هذا الإسم القبلي باعتباره إسما مكانيا في المصادر الجغرافية العربية، وفي أماكن متعددة من جهات المغرب وخاصة عبر طرق القوافل المغربية سواء في المغرب الأوسط أو المغرب الأقصى. ولعل الإسم مشتق من الكلمة البربرية «إسكدال» أدوات نصب «الخيمة». وسميت بهذا الإسم مراكز للطرق. ومنها تسكدلت مدغرة بحوض نهر زيز، وكذلك بدرعة. فهل جاءت التسمية القبلية من احتراف الرعي وارتحال أهل الخيم ولعل هذا هو أقوى الاحتمالات، خصوصا أن سكان «فزاز» أهل رعي وترحال في منطقتهم الجبلية. وما زالت الظاهرة قائمة.

5-4 بنو عبد الله وبنو موسى: لعل هؤلاء من البطون الصغرى الملحقة فقط. واسمهما أقرب إلى العرب منهم إلى البربر.

6- بنو ماورى: من الأسماء القبلية المغربية الغربية والتي لم نعثر لها على أي أثر معلمي مكاني ما عدا ذكرها في سياق قبائل زناتة فزاز. ولكن فهل هؤلاء هم الذين احتفظوا بالإسم الروماني للبربر؟

---

(165) العبر 5/6 .

7- تلكمان: لا نعلم عنها شيئا؟ ولعلها أصل تسمية الضاية المائية بالأطلس المتوسط المعروفة بـ «أكلمام سيدي علي».

8- أريلوشن: يغلب على الظن أنها الإسم الأصلي لقبيلة «أيت سغروشن» بمنطقة سكورة على ضفتي نهر كيكو.

9- انتقفاكن: لا نعلم عنها شيئا؟

هذه هي الصورة القبلية التي سادت في بلاد فزاز قبل القرن الخامس الهجري /11 م، وهي البنية البشرية التي نرجح وجودها في المنطقة في القرن الرابع الهجري /10 م. ونلاحظ أنها تأثرت إلى حد كبير بالصراع العبيدي والأموي الأندلسي على المغرب الأقصى. وكانت منطقة فزاز خزانا بشريا للمغرب في هذه المرحلة. وكان موقف هذه الجماعة الزناتية أشد قربا وانتماء إلى القوة الزناتية الكبرى في المغرب الأقصى من مغراوة ومكناسة وبني يفرن. لكن أهم فزاز كانوا أميل وأقرب إلى «بني يفرن» مؤسسي «شالة». وسنعود إلى مناقشة هذا الجانب في الفصل اللاحق الخاص بالتجزئة السياسية للمغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري /10 م. وما دمنا في إطار معالجة البنية البشرية للجهات الغربية ومن ضمنها المغرب الأقصى ننتقل إلى الجهة الجبلية المجهولة في بنيتها البشرية، وهي جبال الأطلس الكبير (درن).

ثانيا : الجغرافية البشرية لجبال درن وما والاها(166):

تعتبر جبال الأطلس الكبرى، أوسع وأكبر بنية جبلية في المغرب الكبير. حيث يصل أعلى ارتفاع له بقمة تبقال (4.165 م). ويمتد طوله من

(166) لعل أهم بحث يعالج جغرافيا جبال الأطلس الكبير هو دراسة الباحث الفرنسي «إميل لاوست =Emile Laoust"بعنوان «مساهمة في دراسة طوبونيمية الأطلس الكبير Contribution à une Etude de la Toponymie du

الغرب على المحيط الأطلسي في جنوب مدينة أكادير، إلى الشمال الشرقي من المغرب الأقصى حوالي 750 كلم. وعرضه من الحوز المراكشي شمالا إلى الحوض الجنوبي لوادي درعة وزيز حوالي 250 كلم. وهكذا يكون الأطلس الكبير تكوينا جبليا ضخما في المغرب، تخترقه شبكة نهرية كبيرة تتجه شمالا وجنوبا. فضلا عن وجود ممرات «تيزي» جبلية على امتداده العرضي تعتبر الروابط الطبيعية بين الشمال والجنوب. وأشهرها: «تيزين تاست» تربط بين مراكش سهل نهر سوس، ثم «تيزين تشكا» تربط بين أواسط نهر درعة ومراكش ثم ممري تدغة والعياشي اللذين يربطان الشمال الشرقي لجبال الأطلس الكبرى(درن) بالواجهة الجنوبية الشرقية الصحراوية (سجلماسة).

ومن خصوصيات هذا التكوين الجبلي الكبير في المغرب الأقصى، تأثره بمناخين مختلفين، فالسفوح الشمالية الغربية وأعاليه المواجهة للغرب، متأثرة بمناخ البحر الأبيض المتوسط وفي مواجهة الرياح الشمالية الغربية المطرة، مما جعله واجهة جبلية غنية بمواردها المائية (ثلوج، عيون، ومنابع أنهار كبرى دائمة الجريان) و بالتالي إقليما غابويا رئيسيا كما هو الحال في جبال فزاز (الأطلس المتوسط). أما السفوح الجنوبية الشرقية والغربية، فقد تعرضت للمؤثرات المناخية الصحراوية القارية الجافة. فكانت النتيجة على مستوى الجغرافية الحيوية، أن انعدم أو كاد ينعدم الإطار الغابوي، ولم ينتج

.../... Haut Atlas", Adrar N Deren, d'après les cartes de Jean DRESCH. Edition (L.O.P.G), Paris 1942

وقد اعتمدنا هذه الدراسة في المتابعة التفسيرية لمعالجة الجوانب المتعلقة بلأماكينية الخاصة بالأطلس الكبير . واسترشدنا بالأبحاث الواردة في الموسوعة الإسلامية في طبعتها الجديدة المتعلقة بهذا الجانب وخاصة بحث «المغرب» وبحث «الأطلس».

إلا الأعشاب الرعوية، فظهرت هذه الواجهة الشرقية امتدادا للسهوب الرعوية، تقصدها قبائل الرعاة الرحل.

فجبال درن ببنية صخرية متماسكة وتكوين جبلي واحد ولكن النظام المناخي نوع جغرافيته الحيوية الإيكولوجية، و بالتالي تركيب بنيته البشرية، وهذه الوضعية جعلته خزانا مائيا ونباتيا و بالتالي بشريا على امتداد التاريخ المغربي. لكن مصطلح «درن» ظهر في إطلاقته عند الجغرافيين مختلف التحديد جغرافيا. وهذه التسمية جبل درن « تنطق عند المحليين «درن» بسكون حروفه الثالثة. وهؤلاء يحددونه بين تيزي -ن- أوماشو (وأحيانا تنطق أمعاشو)، وتيزي -ن- تلوات. وقد درس الباحث الفرنسي «إميل لاوست =E.Laoust"أصل هذه التسمية وذكر جميع التأويلات الممكنة(167). ونشير إلى أن التسمية «درن» قديمة تكلم عليها الجغرافي سطرابون وبلين، كما ذكره الجغرافيون العرب(168).

---

(167) المرجع المذكور في الهامش قبله (166). أنظر ص20 فقرة 1 . ثم قارن بكلام الأستاذ أحمد التوفيق في تحقيقه للتشوف للتادلي منشورات كلية الآداب /الرباط 1984 ، ص101 هامش 59 .

(168) فقد تكلموا على جبل درن منذ اليعقوبي والاصطخري، ولكن أبا عبيد البكري (القرن الخامس الهجري /11 م) أضبطهم وأكثرهم دقة، وأهم ما نلاحظه أنه ذكر له تسميات جزئية محلية مثل أن جبل « درن » كان يسمى جزؤه الشمالي الذي يسمى حاليا بالعياشي سمي بـ «سنجفو » (فقرة 1392 ص835 طـ تونس).

Desanges (J): Catalogue, P.159.

Massignon: Le Maroc, P.50, Carte I.

فاليعقوبي يقول بالنص «ومن السوس إلى بلد يقال له أغمات، وهو بلد خصب فيه مرعى ومزارع في سهل وجبل، وأهله قوم من البربر من صنهاجة » (ص360). أما ابن حوقل فلم يذكر القبائل التي تنشر في هذه الجهات رغم وقفته المذهبية التي انتبه إليها ببلاد السوس (ص90). وعند كلامه على برغواطة لم يحدد الانتماء القبلي مصامدة أو غير ذلك (ص 82). ولم يظهر مصطلح « المصامدة » باعتباره وصفا عاما لسكان الجبال «درن » إلا في العصر المرابطي.

أما سكان «جبل درن» الذي حددناه قبل عصر دراستنا وهي القرن الرابع الهجري /10 م فإننا لا نبالغ إذا قلنا إن معلوماتنا عنهم ضعيفة جدا، فالمصادر التي ألفت قبل القرن الخامس الهجري /11 م لا تقدم إلا صورة غامضة، حيث تعطي معلومات متضاربة. وهذا لا يعني أن البلاد لم يعمرها أهلها، ولكن أتكلم عن تهميشهم وعدم معرفتهم والتعريف بهم. فهل فعلا مصامدة؟ وهل هم خليط من صنهاجة وغيرهم كما أشار إلى ذلك اليعقوبي؟

ونسجل أن مصطلح مصمودة لا يوجد في الأطلس الكبير إسما مكانيا[169]، ولكن نجده في شمال المغرب الأقصى. وعلى قدر ما نعلم لم نعثر في المصادر القديمة على إشارة إلى ذلك، فكيف أطلقت التسمية المصمودية على قبائل جبل درن؟ الواقع أن هذه المسألة من معضلات التاريخ القبلي المغربي. وتصادفنا في الأبحاث الحديثة المهتمة بتاريخ الأطلس الكبير توجهات لحل هذه المشكلة، نشير بالخصوص إلى دراسات الأستاذ أحمد التوفيق الخبير باللهجة المحلية والتاريخ المغربي. حيث حاول إعطاء النطق الصوتي المحلي لمصطلح « المصامدة» فقال بالحرف [170]:«وهم إيمصمودن» مفرده أمصمود، ولعل الصاد في الأصل زاي مفخمة كالتي في

(169) من الأسماء القبلية بالأطلس الكبير بعض الأسماء التي تنطق على قياس قراءة مصمودة عند الأستاذ أحمد التوفيق لمصمودة (التادلي: التشوف ص 89 هامش 26) ونذكر منها إسم قبيلة « مزوضة » فهل كان إسمها في الأصل « مصمودة »؟

أنظر: Berque (J): Les Mezuda, p.229-7 (R.H):1955 .

ولكن نسجل أن البكري في القرن الخامس أشار إلى وجود قبائل مصمودة بالتعميم وليس بالتحديد حول «أغمات» فهو بلد واسع يسكنه قبائل مصمودة في قصور وديار. المسالك ص843 فقرة 1408).

(170) التادلي: التشوف بتحقيق أحمد التوفيق، ص89 هامش 26 .

صودة». ولكن لا نجد المعنى الدلالي لذلك. مما يجعلنا نفترض أن تكون التسمية حلفية قبليا. والأساس الافتراضي مبني على التدخل الصنهاجي الجنوبي في جبال درن، الذي عارض نظام الاستقلال القبلي في منطقة «جبل درن». فعندما عين يوسف بن تاشفين عماله على المغرب سنة 465 هـ/ 1074 م أسند إلى إبنه تميم، السوس والمصامدة وتامسنا [171].فسلطة صنهاجة على **هذه الجهات أصبحت مباشرة، رغم أننا نتسائل على المستوى الذي حققته الدولة المرابطية في فرض هيمنتها وسلطتها على قبائل جبل درن ؟ وهل أدى ذلك إلى إحداث تغيير في الأنظمة الإجتماعية القبلية طيلة عهدي يوسف بن تاشفين وابنه علي (450هـ/1059م - 536هـ1142م في مدة تتجاوز ثلاثة أرباع قرن من الحكم المرابطي [172] ؟**

من الممكن أن يحدث ذلك، ويؤدي إلى إعادة التشكيل القبلي. وهو قياس وواقع اجتماعي لمسناه في النظام القبلي المغربي قبل القرن الخامس الهجري /11 م. منذ تكوين الحلف اللواتي في القرن السادس الميلادي(533م)، وتكوين التجمع والحلف الزناتي في أواسط القرن الثاني الهجري /8 م. وتكوين تجمع أنبية حلف صنهاجة الجنوب في نفس المرحلة، وحلف كتامة وصنهاجة في أخر القرن الثالث الهجري /9 م. ثم أخيرا إعادة بناء الحلف الصنهاجي الجنوبي اللمتوني المسوفي في بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. وما رافق هذه التشكيلات من صراعات داخلية وانقسامات اجتماعية جزئية على امتداد المغرب الكبير. و لا نجد الظاهرة

(171) الناصري: الإستقصا ج 2 ص 30.

(172) وقد طرح الأستاذ أحمد التوفيق هذا السؤال ولكن على مستوى قبيلة هسكورة. وله الفضل في تطوير الفكرة. أنظر: أحمد التوفيق: المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر ص61 .

التشكيلية الإجتماعية في جبال درن، خصوصا وأن مرحلة المرابطين هي مرحلة الإكتشاف الداخلي والخارجي لبلاد جبل درن، ومرحلة تنظيم طرق القوافل المخترقة لمراته ومخانقه التي تربط بين شمال المغرب وجنوبه الصحراوي. بالتالي تربط بين حوض البحر الأبيض المتوسط وافريقيا جنوب الصحراء.

إذن، مرحلة بحثنا قبل تكوين التجمع القبلي المصمودي بجبل درن، فليس من حقنا أن نستعمل إسم « المصامدة » للدلالة على قبائل جبل درن بالتحديد الذي حددناه سابقا [172م] فما هي البنية البشرية القبلية التي كونت « جبل درن » في مرحلة ما قبل القرن الخامس الهجري /11 م؟

فمن الصعب الاعتماد على الروايات المتأخرة وخاصة منها روايات العصر المريني وما بعده، بشأن أنساب البربر وانتماءات قبائلهم، لأن ذلك لا يعبر في الواقع والحقيقة إلا على تحالفاتهم القبلية. فالموحدون يعتبرون صنهاجة الجبل أي صنهاجة جبل درن من قبائلهم (دخلوا التوحيد والتزموا بتطبيق المبادئ التومرتية). ويعني ذلك أنهم تحالفوا جميعا ضد المرابطين، وبذلك انتقل الحلف التومرتي التنملي، من التجمع القبلي الجبلي الدرني إلى مستوى «دولة الحلف الكبرى».

يصفهم البكري[173] بأنهم زراع ملتصقون بالأرض مستقرون فيها، فهم : «أكثر الناس تكسبا وطلبا لرزق، يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف

(172م) نعم ورد ذكر إسم المصامدة عند البكري عند كلامه على مدينة أغمات ولكنه لم يذكر قبيلة باسمها . فهل كان يعني العناصر التي يحتمل أن تكون قد انتقلت من شمال المغرب (غمارة) إلى جبل درن . بدافع الهجرة التي لعبت فيها عوامل كثيرة وخاصة عامل الطرق القوافلية . البكري : المسالك ص 843 فقرة 1408 طبعة تونس 1992.

(173) البكري: المسالك ص163 (طـ دو سلان) ص855 فقرة 1429 طـ تونس.

والتكسب»، ويصف قبائل جبل درن بقوله[174] :«ترقى في جبل درن، وهو جبل معترض في الصحراء معمود بقبائل صنهاجة وغيرها».

ونلاحظ أن المصادر قبل أبي عبيد البكري لم تتكلم على «مصمودة» في الأطلس الكبير، وإنما تكلمت عليها في شمال المغرب. والتعميم الذي ذكر به البكري مصمودة، وطنها حول أغمات يجعلنا نتساءل عن دور أحداث ما قبل القرن الخامس الهجري /11 م في الهجرة القبلية وعلاقة ذلك بطرق القوافل التجارية؟

فما هي البنية البشرية لجبل درن قبل القرن الخامس هـ/ 11 م؟ يمكن أن نرصد تلك القبائل التي ورد ذكرها في المصادر، وننطلق من كتاب «أخبار المهدي» للبيدق وما قبل عصره.

نعتقد جازمين أن الأسماء القبلية التي ترد في المصادر، هي من أصل المجموعات التي امتد انتشارها في المغرب من الجنوب إلى الشمال منذ قرون بعيدة، وقد نبه إلى هذا الأستاذ أحمد التوفيق بقوله [175] « ولا نستطيع كذلك أن نربط أسماء المجموعات في نفس المجال بأي أصل لغوي في اللغة المحلية» وقد أكد ذلك البحث الحديث، فالمسألة مبنية على نظام التحالف القبلي، وعصر دراستنا يعتبر من أبرز تلك الفترات التاريخية المغربية التي شهدت تكتلات قبلية جهوية تحكمت في تحديدها وتنظيمها البنية التضاريسية للمغرب الأقصى، بالاضافة إلى العوامل الإقتصادية المؤثرة وخاصة طرق التجارة، وطبيعة أنماط العيش المختلفة. ونلاحظ أن فقهاء المغرب الأقصى، أدركوا هذا الواقع الذي ساد في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، ومعهم زعماء ورجالات التسيير في المدن الكبرى به. فأخذوا

---

(174) نفسه، ص 852 فقرة 1423 (طـ تونس 1992)

(175) أحمد التوفيق: المجتمع المغربي ص55 ، ص65 .

يستفتون كبار فقهاء المالكية في عصرهم لحل هذه المسألة التي يتنافى وضعها مع مفهوم النظام الموحد الذي تهدف إلى تحقيقه المدن الكبرى. ويندرج في هذا السياق ما قام به «قوم من المغرب الأقصى» الذين كتبوا إلى أبى زيد القيرواني، في موضوع «تعصب القبائل المغربية بعضهم على بعض» «وسفك الدماء» . فكان جوابه بوجوب القضاء على الظاهرة باعتبار القائمين بسفك الدماء من المحاربين. ويسعون في الأرض فسادا[176]، ولذلك اعتبرهم من البغاة يجب جهادهم.

فهناك إذن مفهومان لمصمودة في التاريخ المغربي بجبال درن، مفهوم لا يعني الحلف، وهذا المفهوم صحيح قبل القرن السادس الهجري /12 م. ولا يعني في هذه المرحلة إلا تسمية لبعض القبائل التي تكون قد هاجرت من الشمال إلى منطقة أغمات. وبهذا يكون أصل التسمية من القبائل الشمالية. أو تعديل في النطق الصوتي لبعض القبائل المحلية، والمفهوم الثاني هو مصمودة الحلف الذي تكون مع الحركة التومرتية الموحدية. والذي أصبح يشمل المنطقة الجبلية الأطلسية الكبرى كلها، وهذا ما عبر عليه ابن عبد

---

(176) مجهول: كتاب الأنساب، مخطوط الخزانة العاملة بالرباط رقم ك 1275، ضمن مجموع ورقة 140 وما بعدها وقد استفاد منه الأستاذ أحمد التوفيق في معالجة البنية القبلية لهسكورة(أحمد التوفيق: المجتمع ص 56). كما ننبه إلى أن أبا محمد بن أبي زيد القيرواني عاصر مرحلة دراستنا، وعاش مرحلة التدخل العبيدي الفاطمي واليزيري في المغرب الأقصى، حيث ولد سنة 310 هـ/ 923 م وتوفي سنة 386 هـ/ 996 م. فهو الفقيه المالكي المغربي النمودجي لعصر دراستنا. كما نسجل أن فتوى ابن أبي زيد هذا وردت مختصرة في مصادر الافتاء المغربي وخاصة معيار الونشريسي. ج 8ص147 وجواب الشيخ بن أبي زيد ورد موجه بالأفراد إلى مستفتيه، وهي فتوى وعظية وحكمية في نفس الوقت.

الحليم[177] «إن المصامدة أهل جبل درن متبعون للإمام المهدي وخليفته، وأهل وطا متذبذبون». وفي تقديرنا أن مفهوم «مصمودة» سواء في اقتباسنا أو في نص كتاب الأنساب المنسوب لابن القطان لا يعني مصمودة القبيلة، بقدر ما يحمل مضمونا حلفيا ومذهبيا خصوصا وأنه يعالج مرحلة الصراع المرابطي الموحدي.

فالبنية البشرية إذن لجبل درن لا يمكن أن نربطها بعرق سلالي قبلي، فهي خليط من قبائل الرعاة والزراع والتجار، وهذه هي اللائحة التي أمكننا استخلاصها من أسماء تجمعاتهم قبل القرن الخامس الهجري /11 م:

---

(177) نحيل هنا على نص من نسخة خطية لكتاب «القرطاس» الذي طبع بنسبته لابن أبي زرع الفاسي. والنسخة التي نحيل عليها في مكتبتنا الخاصة وهي نسخة نسبت كتاب القرطاس لابن عبد الحليم. والاقتباس وضعته نسختنا ضمن عنوان الخبر عن الدولة الموحدية المامونية وقيامها على يد محمد بن تومرت المسمى بالمهدي» ورقة 60 حسب ترقيمنا للمخطوطة. وهي نسخة كاملة تعتبر شبيهة بقرطاس بن ابن زرع مع زيادات، والنص المقتبس المحال عليه قريب في مضمونه ونص كلامه مع النص الذي يوجد في كتاب «الأنساب» مجهول المؤلف. مخطوط خ.ع المحال عليه أعلاه، والذي اقتبسه الأستاذ أحمد التوفيق في دراسته (المجتمع المغربي ص 63).

جدول الجغرافية البشرية لجبل درن قبل القرن السادس الهجري / الحادي عشر الميلاد

المصادر المعتمدة	اليعقوبي ق3 هـ		ابن حوقل ق4 هـ		البكري ق 5هـ		ش الإدريسي ق6 هـ		البيدق ق7 هـ		ابن خلدون ق8هـ		الملاحظات
القبائل المذكورة	الذكر	التوطين	الذكر	التوطين	الذكر	التوطين	الذكر	التوطين	الذكر	التوطين	الذكر	التوطين	المكملة
هسكورة[178]	-		-		+		+		+	واد نفيس	+		
هزرجة[179]	-		-		+		+		+	غرب أغمات	+		مستقرون جبليون
مصمودة	-		-		+	بنو نفيس و أغمات	+	وريكة			+	هم مجموعة قبائل درن	وهم عنده حلف قبلي
صنهاجة (بنواوزغت)	+	أغمات	-		+		+		+	بواوزغت			
بنو ماغوس[180]	-		-		+		+		+		+		
بنو لماس	-		-		+		+		+		+		
بنو درعة	+	حوض درعة	-		+	سمى قبائلها							
أيمسفيوا	-		-		-				+	جنوب غرب	+		مستقرون

(178) هسكورة تجمع قبلي كبير بجبل درن نشأ في الجنوب بجبال الأطلس الصغير وفي ظروف غامضة، وتفضل الأبحاث الحديثة نطقه «ايسكورن» بدون هاء ولعل التسمية «إيسكورن» بمعنى الحجل. أنظر عنه: أحمد التوفيق: المجتمع المغربي ص 51 وما بعدها. البيدق: أخبار المهدي نشر ليڤي بروفانسال ص67هامش أن بالترجمة الفرنسية. والخريطة القبلية الملحقة بالترجمة المذكورة. ثم أنظر عبد الوهاب بن منصور: قبائل المغرب ص 335. التشوف ص113هامش 96.

(179) هزرجة: يرسمون أحيانا في المصادر «إيليزركن» ويغلب على الاحتمال أن يكونوا من الجنوب الصحراوي المغربي. واعتبروا هم الذين ذكرتهم المصادر باسم «زركط» والرسمان متقاربان في المعنى بمعنى النمش. أنظر عبد الوهاب بن منصور: قبائل المغرب ص 326 . أحمد التوفيق المجتمع المغربي ص69. التشوف ص225 هامش 523 ولكن البيدق رسمهم في النسخ التي وصلتنا بالهاء «هزرجة» وكذلك عند ابن خلدون 470/6 .

(180) لعله «ماغوس» وصف ديني لهذه المجموعة، يحتمل أن يكون من مجوس ؟ وقد اعتبرهم ابن خلدون من بطون «أصادة» وهو ما يحتمله نص كلام «البيدق»، فهم جوار صودة (البيدق: ص69).

										أغمات			
وريكة	-		-		-				+	ج أوريكا	+		//
هنتاتة[181]	-		-		-				+		+		
بنو واوزكيت أو وزكيتة	-		-		-		+		+		+ +		
أيت أمزال(مزالة)	-		-		-				+		+		مستقرون
جد ميوة[182]	-		-		-				+		+		مستقرون
بنو صودة	-		-		+؟	أصادة؟			+		+		
بنو ينسران	-		-		-				+		+		
جمفيسة[183]	-		-		-		+		+		+		
بنو واجاس	-		-		-				+		+		
بنو أميضغال	-		-		-						+		
ايركيتن	-		-		-						+		
بنو هرغة	-		-		-				+		+		قبيلة المهدي
بنو يماديدن	-		-		-				+		+		

(181) هنتاتة: كانت في الأصل قبيلة على جبل «كيك» بنهر نفيس، ثم أصبحت تجمعا قبليا من جبل سروا الى مراكش. فهم من قبائل جبل درن المستقرين، وظهروا سياسيا في حركة المهدي بن تومرت والموحدين والحفصيين. أنظر عنهم: البيدق: أخبار المهدي ص 62 هامش 1وقد أغنانا بحث «دي فردان» عن التعريف بهم موسعا. Deverdun (G): Hintata, Art. Encyclopédie de l'Islam 2ème Edit. T.III. p.478.

(182) جد ميوة : اتحادية قبلية بدرن، لم تغير مواطنها، فهي من تحالفات قبائل الاستقرار بجبل درن، بين نهري نفيس وتانسيفت، أنظر كتاب الأنساب، ابن منصور: قبائل المغرب 324 . البيدق ص62 (هامش 6) ومن مراكزها «أمزميز».

(183) جنفيسة: اتحادية قبلية بجبل درن. أنظر البيدق ص65 وهامش I كانت مواطنها بأعالي نهر نفيس.

طوبية	-		-		-				+		+		
فروغة	-		-		-				+		+		
سكتانة[184]	-		-		-				+		+		
هشكوتة[185]	-		-		-				+		+		
سكساوة[186]	-		-		-		+		+				
إيلان[187]	-		-				+		+				
نفيس[188]	-		-				+		+				

(184) سكتانة: وترسم أحيانا إسكتان. استقر القسم الجبلي منها بشرق واد نفيس. وكونت اتحادية قبلية تمتد الى **تالوين جنوبا**.

(185) هشتوكة: تجمع قبلي بسوس، لا نعلم عنه تفاصيل دقيقة في عصر دراستنا. تحول إسمه من «اشتوكن» إلى إبدال الألف هاء. وهي التي أعطت اسمها لمنطقة تزنيت الحالية، حيث يعرف سهلها بهشتوكة. أنظر: عمر أفا: مسألة النقود في تاريخ المغرب، ص78 و ص ص 372-373 .

(186) سكساوة: أنظر عنها أهم دراسة اجتماعية، وهي دراسة «جاك برك» J.Berque بعنوان: Structures Sociales du Haut Atlas, p.U.F., Paris 1978, P.18.

(187) أيلان: ترسم في الأصل كما وردت عند الشريف الادريسي بفتح الهمزة كما ترسم بكسرها وتحول رسمها الى الهاء «هيلانة» وهو رسم متأخر جدا، وقد وردت عند التادلي في التشوف بالهاء. وعرفها الأستاذ أحمد التوفيق بأنها «قبيلة كانت تستوطن ما يجاور أسوار مراكش في الجنوب والجنوب الشرقي بين وادي غدات ووادي نفيس» التشوف ث 252 هامش 621 .

(188) نفيس: ليس إسما لقبيلة معينة ويمكن أن نقارب بين نفوسة الصنهاجية ونفيس، والذي يظهر أن التجمعات القبلية على وادي نفيس هي التي استمدت اسمها من نفيس. وهكذا نسبها البيدق اليه، حيث عبر بـ« أهل نفيس» (البيدق ص 66 أيت نفيس). وقد تحدث البكري والجغرافيون العرب القدماء على «مدينة نفيس»، ورغم أنهم لم يدققوا تحديد مكانها بجنوب مراكش الحالية بجبل درن على نهر نفيس قبل التقائه بنهر تانسيفت، فإنها كانت تمثل مركزا حضاريا قديما. ويظهر من النصوص القديمة أنها تقع «بين تايزلت ودركالة وهو موضع اينميغرن» ويزكي هذا أيضا إشارة ابن خلدون الى دور «دركالة» في زعامة قبائل المنطقة. فهم الذين قدموا هديتهم لجوهر الصقلي أثناء حملته الجارفة على المغرب الأقصى في أواسط القرن الرابع الهجري (347 هـ959م) ونص كلام ابن خلدون «وجاءته هدايا الأمراء الادكرنية من السوس» (العبر 97/4). ولعل عبارة [illegible] محرفة في الطبع أو النسخ عن الإسم الأصلي الذي هو «الأدركنية» نسبة الى دركالة نفيس علي الطريق الوسطى القوافلية. ولمزيد من التوضيح أنظر. التادلي: التشوف: تحقيق أحمد التوفيق، ص90 هامش 28 . ثم أنظر الدراسة الأماكينية "E.Laoust" فقد بين الاحتمالات الممكنة لتفسير الإسم الطبونيمي لنفيس ص50فقرة 119 .

بنو يدفور	-		-			+		+			
رجراجة[189]	-		-			+		+			
زودة	-		-			+		+			
دكالة[190]	-		-			+		+			
مسكالة	-		-			-		+			
متوكة	-		-			-		+			
حاحة[191]	-		-			-		+			
مسجانة	-		-			-		+			
أفروجن	-		-			-		+			
أيت سمع	-		-			-		+			
امغران[192]	-		-			+		+			
هوارة											

(189) رجراجة: ترسم في المصادر أحيانا بنطقها المحلي « ركراكة » والنسبة اليها رجراجي أو ركراكي. وجمعها رجراجة أو « إيركراكن. » ولعل إسمها اشتق من الفعل البربري « أرك » بمعني بارك أو تبرك. وأكراك هو المتبرك به حسب رأي الأستاذ أحمد التوفيق في تحقيقه للتشوف (ص 86 هامش 13). ويضيف أن موطن رجاجة كان ممتدا في مناطق واسعة ثم تقلص الى جبل الحديد حول أقرمود جنوب تامسنا (ص113 هامش 93). ولرجراجة سابقة في الاسلام ضمن قبائل برير المغرب الأقصى (السوس الأقصى) . و بالتحديد يمكن اعتبار الشياظمة حاليا هي موطنهم في صدر الإسلام بالمغرب، وقد ورد كلام البيدق عنهم في مواطن عديدة من كتابه. ثم قارن بابن خلدون، وابن منصور قبائل المغرب ص324 .

(190) دكالة: ومعنى دكالة في البربرية المغربية أهل الأرض. ويحتمل أن يكون معناها أسفل الأرض. وذلك على أساس « أدو » بمعن« تحت، أو « إد » بمعنى أهل. أما مقطع « أكالن » فيعني « الأراضي » ومفرده « أكال » أو « أشال » (قارن معجم شفيق مادة أرض بما جاء عند أحمد التوفيق، التشوف ص 114 هامش 98). ويقصد بهم سكان المنطقة الممتدة غربا بين نهر أم الربيع ووادي تانسيفت، ويظهر من معنى تسميتهم أنه لا يمكن الحاقهم بأية مجموعة قبلية إلا على أساس التحالف القبلي. وفسر ماسنيون معنى دكالة بمعني « المجتمعين » (Le Maroc , p.201) ابن منصور: القبائل ص324

(191) حاحة: هم مجموعة قبلية بربرية، مواطنها في العصر الموحدي، ويغلب على الظن قبله، جنوب موطن ركراكة (رجراجة)، أي بين الصويرة وأكادير حاليا. ولا ندري المعنى البربري لتسميتهم وقد قيل فيه الكثير ؟

(192) إمغارن: تجمع قبلي ينتسب الى بلد إمغران المطل على واد دادس ووارز زات ودرعة. وينتمون إلى تجمع هسكورة قديما.

خلاصات من الجغرافية البشرية لجبل درن:

أولا : أن منطقة جبل درن (الأطلس الكبير) بالمغرب الأقصى خزان بشري قديم، كما أنه خزان مائي كبير، لم تستطع مصادر التاريخ المكتوبة اكتشافه وتغطيته قبل القرن السادس الهجري /12 م على الأكثر.

ثانيا : البنية البشرية في جبل درن بنية قبلية تتزاوج فيها ظاهرة الاستقرار والترحال. يسود نمط الاستقرار، وأسلوب الزراعة الجبلية في واجهته الشمالية، كما يغلب نمط الترحال والرعي المحدود على الاستقرار في واجهته الجنوبية. ويكاد يتحكم في مضايقه وممراته بين الشمال والجنوب زراع الواجهة الشمالية. مما جعل منهم أمناء مضايقه. فكانوا بذلك زعماء أحلاف قبائله وتجمعاتهم الكبرى.

ثالثا : نتفق مع الأستاذ أحمد التوفيق في خلاصته التي استوحاها من الرصد التاريخي للأطلس الكبير، ومؤداها أن الجغرافية الإجتماعية للأطلس الكبير امتازت بالثبات، ولدقة كلامه نأتي به كاملا(193):« يبدو أن الأطلس الكبير عرف أكثر من بقية المناطق المجاورة استقرارا في خريطته الإجتماعية الجغرافية. ودراسة الإطار الجغرافي لتركزات السكان يفيد في فهم أحداث تاريخ المنطقة المذكورة، وفي فهم الروابط بين المجموعات باعتبار أن الإطار الجغرافي هو الذي يحدد القاعدة المادية لحياة السكان في مجتمع زراعي ضعيف التقنيات، مع العلم بأن تصرفات المجموعات هنا ظلت - رغم قدم الاستقرار - ذات طبيعة قبلية تتجلى خاصة في الأحلاف والأوفاق والإصطدامات».

---

(193) أنظر: أحمد التوفيق: المجمع المغربي في القرن التاسع عشر (اينولتان) (1850-1912). منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط - الطبعة الثانية 1983 ص96 .

رابعا : ظهر واضحا أن مجتمع جبل درن (الأطلس الكبير) كان يتحرك قبليا في مراحل التحولات التاريخية للمغرب في العصور الوسطى من الجنوب إلى الشمال عبر ممراته الكبرى، وهي التي كانت تكون نقط الحسم في نسف حلف قبلي أو قيامه. وهذا يعني أن مشكلة السيطرة على طرق القوافل والعبور هي أهم محرك وصانع للتاريخ القبلي والإجتماعي في جبل درن والمغرب الأقصى عموما.

خامسا : لم يتعرض جبل درن لتعمير زناتي، أو صراع قبلي بين حلف زناتة والأحلاف القبلية المستقرة في جبل درن قبل القرن السادس الهجري /12 م. على عكس جبل فزاز (الأطلس المتوسط)، أو الجهات الشمالية من بلاد غمارة. وكانت السفوح الشمالية لجبل درن هي نهاية النفوذ والوجود الزناتي في المنطقة الشمالية من المغرب. وإمارة مغراوة بزعامة ابن وانودين بأغمات لم تتجاوز مجالها الرعوي في الحوز المراكشي حاليا. وإن تحالفت مع هوارة نفيس، نعتقد أن تحالفها لم يتجاوز تأمين طرق قوافل العبور بين الشمال والجنوب الصحراوي، وفي الواجهة الجنوبية الموالية لنهري زيز وغريس، ثم حوض نهر دادس فقد تأثرت بالوجود الزناتي ولعل أيت سدرات الزناتيين رمز هذا التأثير الزناتي.

الجغرافية البشرية للجهات الصحراوية
في القرن 4 هـ/ 10 م.

يتردد كثيرا في مصادر التاريخ الحدثي المغربي مصطلح «الصحراء» ويرتبط بذلك فرار زعماء الثورات وزعماء القبائل إلى الجهات التي نعتت بدون تحديد ولا دقة بالصحراء، قصد الاستنجاد بقبائلها أو إعادة تنظيم جموعهم من جديد للعودة الى الثورة من جديد أو الاختفاء في مجالها إلى حين عن مراقبة المطاردين والخصوم الكبار من القوات المنظمة. فجاء مصطلح « الصحراء» ضمن هذا السياق فضفاضا يكاد يشكل الجهات الجنوبية الغربية لما وراء جبال التل والهضاب الوسطى والأطلس الكبير. نجد ذلك في أحداث حركة موسى بن أبي العافية المكناسي بالمغرب الأقصى، وفي ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي النكاري، وفي غيرهما من حركات «الالتياث». التي قام بها زعماء القبائل على مستوى صراعاتهم الداخلية أو على مستوى تدخلات الجيوش الكبرى من أموي الأندلس أو عبيديي القيروان وصنهاجة بني زيري، في حملات هؤلاء جميعا على الجهات الغربية من الأوراس إلى المحيط الأطلسي، أو مراكز الساحل على البحر الأبيض المتوسط إلى الداخل.

لذلك يمكن أن نفترض وجود قوة قبلية لها امكانيات بشرية ديموغرافية، من شأنها أن تضمن لأولائك الزعماء المستنجدين بها لتزويدها بقوة حربية كافية، يزحفون بها على خصومهم. و بالنسبة للمغرب الأقصى، نلاحظ أن مصطلح «الصحراء» في أحداث القرن الرابع الهجري /10م يبدأ من حوض نهر ملوية الأوسط أي شرق مضيق «تازة» ثم يشمل هذا الإطلاق الجهات الرعوية جنوب الأطلس الكبير بما في ذلك مرتفعات الأطلس

الصغير. وأحواض الأنهار العابرة لتلك المرتفعات المتجهة نحو الجنوب. مثل نهر زيز وغريس وگير ودادس ودرعة ثم الساورة. ثم بعد ذلك تأتي مناطق الرمال « المجابات الكبرى» هكذا كان تعميم مفهوم الصحراء يشمل واحات السفوح الجنوبية لجبال الأطلس، وواحات الرمال من وركلة والأغواط وتمدلت وتدمكة.

تعتبر هذه الجهات في عصر دراستنا مناطق للترحال والرعي والإنتجاع البعيد المدى، بالإضافة إلى ظاهرة الاستقرار المحدود في الواحات، مثل درعة وسجلماسة ووركلة. وكانت حدود القبائل في مجالاتها بهذه الجهات لا تعرف ضابطا طوبوغرافيا ومكانيا، وإنما كانت مرتبطة بالماء والمرعى. فاتساع حياة الرعي في كل هذه الجهات هي المكونة لنمط العيش، بالإضافة إلى جانبية طرق القوافل عبر أهم جهاتها التي يوجد فيها الماء على شكل عيون أو أنهار أو أبار. ومن شأن هذا الوضع أن يخلف ظاهرة «التشتت القبلي» و بالتالي ضعف السلطة المركزية في ضبط نفوذها على هؤلاء، وأحيانا تصل إلى مستوى القطيعة. وكان التحكم في الممرات الرابطة بين الصحراء والشمال يكون أهم مشكلة للجميع من قبائل التحالف الى السلطة المركزية.

إن الفوارق العرقية بين قبائل هذه الجهات، والتي ركز عليها ابن خلدون تحليله للمسألة الإجتماعية القبلية، لا تمثل إلا جانبا تكميليا فقط، في موضوع أسباب الاختلافات الموجودة في عملية الصراع القائم بين المجموعات البشرية، فمنذ عصور ترجع إلى ما قبل الفتح الإسلامي للمغرب، كانت قبائل هذه الجهات وتجمعاتها البشرية، يرحلون في مسافات واسعة لا تعرف الحدود الطبيعية. فظهرت هذه الجهات بمظهر الأرض المخصصة لظعن وترحال البدو الرحل، أو الخاضعة لسيطرتهم. وصار هذا المجال الجغرافي

عموما مجالا لا يتحمل سوى وجود سكان مشتتين. ومن هنا كان اقتصاد هذه الجهات اقتصاد قلة أو اقتصاد المجتمع المبعثر. ورافق تحركات تجمعاتهم ظاهرة التخريب التي لم تتوقف أبدا(194) . ولعل هذا الوضع هو الذي جعل الظاهرة الاقتصادية والإجتماعية في هذه الجهات، لا تتغير كما حددته الطبيعة في هذه المناطق الشبه الصحراوية والصحراء. ورغم الطرق التجارية التي كانت تخترقها، فإن الوضع ظل كذلك. وإن أحدث تغييرا في المراكز الكبرى ولكن الجهات البعيدة عن المراكز استمرت على طابعها القريب من الثبات.

فطيلة القرن الرابع الهجري 10/ م تحولت هذه الجهات إلى ملجإ للزعماء المطاردين وحمى للزعماء المهزومين في الشمال، ومنها تنطلق من جديد انتفاضاتهم الجديدة. وهذا الدور الذي قامت به الصحراء يؤكد حقيقتين: الأولى أن هذه الجهات الصحراوية كانت خارجة عن نفوذ السلط المركزية القائمة في الجهات الشمالية. والحقيقة الثانية هي أن هذه الجهات

---

(194) أنظر: برانشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2 ص62 وما بعدها. وحول مفهوم «الصحراء تارخيا» يرجع إلى بحث الأستاد «بيير سلامة P.Salama=" في كتاب «تاريخ إفريقيا العام» بإشراف هيئة «اليونسكو Unesco" الترجمة العربية 1985 ج2 ص.ص 527-547 . ولكن نبقى في سياق تحليلنا مع التحديد الذي أعطاه الجغرافي أبو عبيد البكري (المسالك ص72 طبعة دي سلان / ص 740 فقرة 1241 ط تونس) للصحراء في الجهات الغربية حيث حددها بامتداد يتراوح طوله من الزاب إلى الغرب بين ثلاث وأربع مراحل يتردد عليها المغراويون. وهذه هي المنطقة الشبه الصحراوية بالمغرب بين حوض ملوية الأوسط غربا وبين منطقة «إزمرين» شرقا أي ما عرف بصحراء بنطيوس (أنظر: هـر إدريس: الدولة الصنهاجية 89/2). ثم تمتد هذه الجهات إلى بلاد لمطة وجزولة ونفوسة، ويذكر في هذا الصدد موقع له أهمية كبرى على مستوى أحداث التاريخ الصحراوي البشري وهو موقع « وانزمين » والذي يقع عند ملتقى طرق بلاد السودان، وهو موضع مخوف تغير فيه لمطة وجزولة على القوافل (البكري ص156 ط. دي سلان).

المنعوتة بالصحراء كانت تحتضن قوة بشرية ذات شدة وبأس وعدد يكفي للتجييش ودعم نفوذ قبلي سياسي جديد.

لذلك كله نجد أنفسنا ملزمين برصد هذه الصورة القبلية لاعطاء تصور تقريبي عن سكان الجهات الجنوبية الغربية في مرحلة دراستنا (ق 4هـ/10 م).

فعلى مستوى التصنيف الحلفي يرد عند الجغرافيين العرب القدماء ذكر صنهاجة وزناتة، وعلى مستوى الموقف المذهبي يتردد مصطلحا: الخوارج والسنة، وعلى مستوى التقسيم الجهوي تتردد مسميات محلية مثل قبائل صحراء بلاد الزاب، قبائل صحراء تلمسان، وقبائل سجلماسة والسوس الأقصى. وقبائل بني درعة. وتظل هذه التسميات والنسب في تعميماتها إلى أواسط القرن الرابع الهجري/10م مع ابن حوقل الذي بدأ اكتشافنا لمجتمع هذه الجهات وعناصره البشرية من رحل ومستقرين.

إن مصادرنا العربية في العصر الإسلامي تتحدث بالخصوص عن أحداث تاريخ الصحراء بتوجيه الإنسان الأبيض، ويرجع الأمر إلى العصر الروماني الأول الذي أدى إلى طرد الرومان لبربر السهوب من أراضي المغرب[195]. وبذلك تكون للظروف المناخية وضغط الاستعمار الروماني في الشمال هما عاملا دفع سكان بربر الصحراء في جهاتها الشمالية إلى أسلوب الحياة الرعوية وتكوين بعض مراكز الاستقرار، وكان التنظيم القبلي هو قاعدة الحكم السياسي[196] والإجتماعي، واستمرت السلطة السياسية العليا بلا نزاع في أيدي بربر الصحراء. ونقل هؤلاء إلى هذه الجهات الصحراوية المعتقدات الدينية التي كانت سائدة في حوض البحر الأبيض المتوسط.

---

(195) بيير سلامة: الصحراء ، (تاريخ إفريقيا العام) ج2 ص533-534 .

(196) نفسه 535 .

ونجد في شكل الكتابة القديمة عند هؤلاء أقوى دليل على المؤثرات الحضارية الشمالية في شعوب بربر الصحراء الافريقية. وهو ما يعرف بكتابة خط «التيفناغ =Tifinagh» الذي ظل مستعملا في الصحراء إلى العصر الإسلامي. وكان الفتح الإسلامي لهذه الجهات في القرنين الأول والثاني للهجرة /7-8 م أهم عملية التقاء جديدة، أعطت في أهم نتائجها اكتشاف الجنوب المغربي المشرف على الصحراء الإفريقية. هذا الإكتشاف الجديد أعاد نظام الطرق القوافلية إلى حياتها النشيطة التي تحولت الى عامل حقيقي من عوامل الاستقطاب البشري، وبناء التجمعات القبلية. وسرعان ما أسس المجتمع الإسلامي عموما علاقات وثيقة مع هذه الجهات مبكرا أي ابتداء من سنة (116هـ/734 م)[197]. وأدت هذه العلاقات إلى بناء شبكة من طرق المواصلات

---

(197) وحاول الباحث الفرنسي «جون دوفيس =J.Devisse" أن ينفي وجود هذه العلاقات المبكرة بحجة أنه لا توجد آثار لتلك الآبار المنسوبة لعبد الرحمان بن حبيب التي ذكر أنها تربط بين المغرب وأودغشت، واعتمد أيضا على حجة أخرى وهي أن المسلمين لم تكن لهم سياسة توسعية في القرن الثامن الميلادي / الثاني الهجري باتجاه السودان الغربي. و في الحقيقة ما زالت المسألة مثار نقاش وبحث بين المتخصصين:

أنظر: -Devisse (J):Tegaoust,I, Recherches sur Aoudaghost, Paris 1970, p.134.

- Posnanski, Ghana, 1971.

-Lewicki: Traits d'histoire du commerce transsaharien, marchands et missionnaires Ibadites au Soudan occidental et central au cours des VIIè-XIIè Siècle,dans Ethnographie, Polska Vol.VIII, 1964.

ورغم كل شيء فإن بربر المغرب كانت لهم صلات وطيدة مع إفريقيا جنوب الصحراء، والبربر في الشمال لم يعودوا يجادلون ولا يحاربون في آخر القرن الثاني للهجرة /7 م ضد الإسلام، وإنما من أجل مصالحهم الإجتماعية وتأمينها كما كانت أعرافهم وتقاليدهم تضمنها. وعن وجود قبور وآثار تأكد هذه الروابط بين المغرب وأودغشت أنظر بحث الأستاذ ابراهيم فخار عن الجماعات الاباضية. (مجلة الثقافة، التي تصدرها وزارة الاعلام بالجزائر عدد 3 ص116).

تربط بين شمال الصحراء وجنوبها[197م] (قارن بين خرائط الطرق).

وهكذا يظهر أن مسألة «تعمير الصحراء بالسكان» لم تمت بمجرد تغير المناخ. فإذا حولتها قساوة الطبيعة الى رمال فإن «طرق المواصلات» حولتها إلى ميدان للحياة، وكانت التجارة الصحراوية في العصور الإسلامية أهم محرك اجتماعي في هذه الجهات. وهذا ما يفسر سكوت الجغرافيين العرب القدماء عن مسألة الثغور في الصحراء الإفريقية باعتبارها حدودا إيمانية، والتمييز الأساسي في الشرع الإسلامي بين «دار الإسلام» وبين سائر العالم الصحراوي الإفريقي، بمعنى لم تعلن في الصحراء حرب إيمانية، ولذلك لم يهتم المؤلفون الجغرافيون إلا قليلا[198]، بمسألة الثغور في الصحراء.

والمهم أن مسألة « الجغرافية البشرية للصحراء في عصر دراستنا نعالجها على مستوى المكاني وليس على المستوى الإيماني الديني. وعلى

(197م) أنظر الفصل الخامس من الباب الأول من هذه الدراسة ثم قارن بين خريطة رقم 4 وخريطة 7 و 8 .

(198) فاليعقوبي يشير إشارة خفيفة إلى ما سماه ب « غسط = ادغشت » وأن أهله لا دين لهم (البلدان ص360). وأشار ابن حوقل مبينا حد وصول الدين الإسلامي في الصحراء الإفريقية «ومن أوليل آلى سجلماسة راجع إلى الإسلام شهر وكسر » (صورة الأرض ص91). أما المقدسي الذي اهتم بدار الإسلام ودار الحرب ومناطق الفصل بينهما، لم يشر إلى ثغور دار الإسلام في الصحراء. (أحسن التقاسيم ص109. وفي ترجمة الكتاب إلى الفرنسية ص152هامش 41). وإشارة البكري الصريحة بأن مدينة نول « أخر مدن الإسلام » وتعريفه لها بقوله «وهي في أول الصحراء » (البكري :المسالك ص 853 فقرة 1425 طـ تونس 1992) كل ذلك يؤكد أن «الرباط » الذي انطلقت منه الحركة المرابطية في القرن الخامس الهجري /11 م لم يكن ثغرا من أجل حرب دينية كانت معلنة في الصحراء.

أساس العوامل الإجتماعية المتحكمة في بنيتها، فالجغرافي العربي الذي قدم معلومات من شأنها أن تكون قاعدة للصورة البشرية للصحراء المغربية في العصور الإسلامية الأولى هو أبو عبيد البكري [199].(أنظر جدول قبائل الجهات الغربية حسب البكري). ويعتقد الباحث «لويكي=T.Lewicki" أن تجار سجلماسة سبقوا تجار تاهرت إلى أسواق غانا[200]. ولكن كلام ابن حوقل[201] في وصفه لظاهرة التعمير بالصحراء، تجعلنا ننظر إلى مصطلح الصحراء بتصور يكون أقرب إلى الواقع منه إلى الوصف العام، ذلك أن التعبير العام بالصحراء يتضمن منطقتين هما: منطقة الجهات الشمالية وهي التي نعبر عليها « بالشبه صحراوية » وهذه هي بلاد مراعي الأغنام وما شابهها. وهذه كانت فعلا أكثر تعميرا وحركة قبلية، وتمتد هذه من نهاية الرمال شمالا إلى أحضان الجبال الأطلسية والهضاب والنجود الشمالية. والمنطقة الثانية هي الجهات التي تغطيها الرمال وعرفت أيضا بالمجابات الكبرى، وهذه هي التي قصدها ابن حوقل بقوله: لقد كان سكان الصحراء «من قبائل البربر متعزبون لم يروا قط حاضرة ولا عرفوا غير البادية العازبة».

هناك على المستوى البشري في مدلول الصحراء بنيتان بشريتان أو قبليتان وأيضا مجتمعان. يجمعهما نمط الرعي والترحال، ويفصل بينهما

---

(199) البكري: المسالك ص156 (846 فقرة 1414 ط تونس). ابن حوقل: صورة الأرض ص92 .، وما بعدها.

(200) -Lewicki (T): Trait d'histoire du commerce transsaharien marchands et missionnaires ibadites au Soudan occidental et central au cours des VIIIè-XIIè siècle, Ethnographia polska, Vol. VIII 1964, p.20.

(201) ابن حوقل: صورة الأرض ص98 .

شكل الواقع المعاشي ونظام التواصل الجهوي. والشكل النوعي لنظام التضامن الإجتماعي، بالإضافة إلى التمييز الذي ابتكر في الشمال من بتر وبرانس أو التصنيف التقليدي «زناتة وصنهاجة». وهذا يؤدي بنا إلى أن نجعل زناتة القرن الرابع الهجري /10 م روادا للمناطق الشبه الصحراوية. ونجعل صنهاجة الجنوب روادا للمناطق الصحراوية. ونقف عند هذين الصنفين:

أولا : قبائل الجهات الشبه الصحراوية المغربية.

ثانيا: قبائل الصحراء أو سكان الرمال.

أولا: قبائل الجهات الشبه الصحراوية.

من أهم خصائص هذه الجهات طبيعيا، أنها مفتوحة مجاليا، ومتأثرة إلى حد كبير بالمناخ القاري الصحراوي الجاف، تتعرض من حين إلى أخر لامطار الرخات المفاجئة تخترقها أنهار غير دائمة التصريف المائي في غالبيتها. وقد انعكس هذا الوضع غير المستقر على حياة السكان الذين يعيشون، فكانوا كذلك في معظمهم غير مستقرين. فصارت هذه الجهات ميدانا للعبور، ونادرا ما نجد استقرارا بشريا حقيقيا فيها، وإن وجد فمن طبيعة المنطقة أن يكون متباعدا. ولم يتغير هذا الوضع الطبيعي والبشري طيلة قرون من الزمن التاريخي.

إن الظروف التاريخية التي عرفها المغرب الكبير في القرن الرابع الهجري /10 م فرضت وضعية ديموغرافية جديدة في هذه الجهات، يمكن ضبطها في مرحلتين: الأولى قبل الزحف الصنهاجي الزيري في سنة 360 هـ

970/ م على زناتة، ومطاردتها غربا وجنوبا(202). والثانية بعد الضغط الصنهاجي الشمالي على زناتة أي بعد 360 هـ/ 970 م. ففي المرحلة الأولى كانت طبيعة حركة قبائل بدو هذه الجهات هي التنقل ببطئ بحثا عن المرعى وتركيز الوجود القبلي في مناطق عبور القوافل وإنشاء تحصيناتهم الجماعية المعروفة بإغرم. أما المرحلة الثانية فكانت ظاهرة الإنتشار القبلي سريعة نتيجة لعامل المطاردة والغزو، ومن شأن هذه المرحلة أن تعطي إعادة بناء النظام القبلي سياسيا في هذه الجهات، ومعنى ذلك أن التحرك القبلي في المغرب طيلة هذا القرن، بدأ على شكل هجرات من الشرق الى الغرب ثم تحول إلى غزوات أو اكتساحات قبلية لداخل المغرب الأقصى.

ونسجل أن ضواحي مليانة بالمغرب الأوسط كانت تمثل على سبيل التقريب حدود بلاد الحلف الصنهاجي الشمالي. ومن مليانة إلى الغرب تبدأ بلاد حلف زناتة. وكان جبل « الونشريس» الواقع جنوب مليانة هو أهم مواطن قبائل الحلف الزناتي في القرن الرابع الهجري 10/ م. بالاضافة إلى الضواحي الواقعة بين تاهرت وتلمسان.

---

(202) مفاخر البربر: ورقة 2 حيث يسجل هذا التفوق الصنهاجي الشمالي على زناتة بقوله « فخرج بلقين بن زيري المكنى بأبي الفتوح خليفة زيري أبيه وأكبر ولده في جميع صنهاجة وخاصته قبل أن يلتم نظامه وتتسنى تعبئته (محمد بن الخير المغراوي). والتقيا في النصف من ربيع الأخير سنة ستين وثلاثمائة (15 ربيع الثاني 360 هـ/ 15 فبراير 971 م). فدارت بينهم الحرب بعد العهد بمثلها ظهرت فيها صنهاجة بقوة الناموس، وهبوب ريح الدولة» ثم أضاف و «قتل في هذه الوقيعة بضعة عشر أميرا من زناتة ونصرت صنهاجة نصرا ثبت له السلطان بأرض المغرب » ثم قارن ما جاء عند هنري روجي إدريس: الدولة الصنهاجية، ج1 ص63 ومصادره.

وقد ضبط أبو عبيد البكري(203) قبائل زناتة في هذه الجبهات.وازداد الضغط الصنهاجي الشمالي على قبائل الحلف الزناتي المكون من زناتة ومزاتة، وهوارة ونفزة ومغراوة ومكناسة وغيرهم. وأدى الصراع الى مطاردة زناتة الحلف إلى ما وراء نهر ملوية غربا(204).وكانت الزعامة الزناتية أنئذ (360 هـ/ 971 م) في مغراوة برئاسة خير بن محمد بن الخير. وظهر هذا النزاع القبلي السياسي الساخن بصورة الصراع بين المستقرين (صنهاجة) والرحل (زناتة)(204م).

وعندما ننظر إلى إلى الظاهرة القبلية في هذه الجهات الغربية طيلة القرن الرابع الهجري /10 م نجد صورة حركة الانتقال القبلي نحو الغرب تأخذ طابع النسيان أو التغاضي عنها عندما تكون سلمية رعوية انتجاعية. أما عندما تكون مبنية على الحرب والصراع العسكري فإن صداها في المصادر يجد مكانه، بل تكاد أصوات المعارك وقعقعة السلاح تنبعث من بين المصادر المتحدثة عنها، وكلتا الحالتين لا تعنينا إلا باعتبارهما انتقال وتعمير قبلي في الجهات المغربية . فما هي أهم الأسماء القبلية التي احتفظت المصادر

---

(203) البكري:المسالك ص61 طبعة دي سلان / ص736-737 فقرة 1235 من طـ تونس 1992 . وكذلك الإدريسي ص 85 طـ ذوزي / ص235 ط إيطاليا. ووصف الإدريسي زناتة هؤلاء بقوله :« وهم قوم رحالة ظواعن ينتجون من مكان إلى غيره، لكنهم متحضرون، وأكثر زناتة فرسان يركبون الخيل ولهم عادية لا تؤمن» (ـ النزعة ص85 و في طبعة ايطاليا ص257).

(204) ابن خلدون: العبر 7/56-57 ، وأرخ هذه الحملة الصنهاجية على زناتة بتاريخ 361 هـ / 971 م، وكلام ابن خلدون أكثر تفصيلا بالنسبة لسياق بحثنا حيث يقول :« ... ومر بالمغرب الأوسط فاستلحم بوادي زناتة ومن إليهم من الخصاصين، ورفع الأمان عن كل من ركب فرسا أو أنتج خيلا من سائر البربر. ونذر دماءهم فأقفر المغرب الأوسط من زناتة، وساروا إلى ما وراء ملوية من بلاد المغرب الأقصى».

(204م) هـ.ر. إدريس: الدولة الصنهاجية ج1 ص73-75 (الترجمة العربية).

بأسمائها والراجعة الى مرحلة بحثنا؟

من أشهر الأسماء التي انتشرت في هذه الجهات الغربية:

1- بنو يفرن وفروعهم
2- مغراوة وفروعهم
3- مطغرة وفروعهم
4- بنو راشد
5- بنو مرين
6- مكناسة وفروعهم
7- مطماطة
8- مديونة
9- كومية
10- سدراتة

وانتشرت هذه القبائل مع قبائل أخرى شمال الصحراء، ساهموا في مناصرة زناتة ضد صنهاجة الشمال وتعرضوا للمطاردة، وقد أشار ابن الأثير(205) إلى قبيلة «مزاتة» وقبيلة «هوارة» و «لواتة»، وجاءت جموع من قبائل أخرى من بلاد الزاب ووركلة وأوريغ إلى الشمال. وشاركوا في أحداث 360 هـ/970 م ضد صنهاجة، و بالإنتصار الصنهاجي تحولت وجهة هذه القبائل نحو الغرب. ولم تنته المطاردة، ولم يقف الصراع القبلي عند هذا المستوى، بل تحول في عهد المعز لدين الله الفاطمي الى موضوع الأرض والسيطرة عليها وهذا ما تفيده عبارة المؤرخ الإباضي الدرجيني في طبقاته(206) : عندما حاول المعز الفاطمي مفاوضتهم « ارجعوا إلى بلادكم التي

(205) ابن الأثير: ج7 ص35 .

(206) الدرجيني: أبو العباس أحمد بن سعيد: طبقات المشايخ، مخطوطة المكتبة الوطنية التونسية في جزئين، رقم 2524 ، ورقة 148 من السفر الأول وحسب رواية ابن خلدون فإن بلكين بن زيري الصنهاجي بعدما أجلى مغراوة وبني يفرن الى المغرب الأقصى، سمح لبعض القبائل الزناتية بالبقاء في الأراضي التي كانوا بها في سهوب المغرب الأوسط مثل بني ومانو، وبنو يلومي، وهما قبيلتان مكناسيتان. (ابن خلدون العبر114/7) وقارن بما جاء عند هنري روجي إدريس: الدولة الصنهاجية ج1 ص92-93 ، ج2 ص93 .

كانت لأوائلكم، ونكون قبل هذا من تاهرت وغيرها، فتكونوا على ما كانت عليه أوائلكم، ونكون على ما كانت عليه أوائلنا».

والمهم بالنسبة لسياق بحثنا فإن هذه المطاردة أدت إلى تغيير الخريطة القبلية في منطقة هضاب وسهوب المغرب الأقصى، فدخلت جموع زناتة، فاتجه الكثير منهم إلى «الصحراء» حتى منابع نهر ملوية (السفوح الشرقية لجبل درن أو الأطلس الكبير وهو ما يعرف حاليا بجبل العياشي). ثم واصلت جموعهم الكبرى المسير إلى أقصى الغرب المغربي عبر مضيق تازة وحوض نهر سبو إلى السواحل الغربية على المحيط الأطلسي. لكن الذي يهمنا هو القبائل وتجمعاتهم في المنطقة الشبه الصحراوية.

1- قبائل مكناسة الجنوب السجلماسي: لم تفصل المصادر القديمة بطون هذا التجمع القبلي المكناسي الذي كون في مدينة سجلماسة إمارة «بني مدرار». وأضافت اليها مجموعة قبيلة أخرى بنفس التعميم وهي «صنهاجة». ووصفتهم بامتهان الرعي والتجارة. وهذه إشارة إلى سيطرة هؤلاء على السهوب الرعوية في هذه الجهات . ولكن في القرن الثالث الهجري 9/ م أشار اليعقوبي إلى إمارة قبلية رعوية وتجارية تنتشر بطونها بين تلمسان وسجلماسة، وهي «بنو مسرة» وعرفهم بأنهم فخد من زناتة[207]،

(207) اليعقوبي : البدان ص 359

Mellouki (M): Contribution à l'Etude de l'histoire des villes Mediévales du Maroc, Sigilmassa des origines à 668h/1269 (J.C), These Indénite, Université Aix en Provence, 1985, PP.222-227.

حسن حافظي علوي: سجلماسة إقليمها في القرن 8هـ/ 14 م. مساهمة في دراسة مجتمع الواحات في العصر الوسيط. رسالة مرقونة مقدمة لكلية الآداب/ظهر المهراز فاس 1988 ، ص115-135 . ولا نود أن ندخل في تفاصيل سكان إقليم سجلماسة، لأن البحثين السابقين المحال عليها أغنانا عن ذلك، رغم أنهما لم يكتشفا أسماء قبيلة أخرى عما ذكرناه في مرحلة القرنين الثالث والرابع الهجريين /9-10 م.

ومركزهم مدينة يقال لها «أوزكا»[207م]. وقد استعمل ابن الصغير[208] عبارة « قبائل الصحراء» فجاءت عنده شاملة لمناطق السهوب الممتدة في المغربين الأوسط والأقصى. ويعني هذا أن الأعلام القبلية قبل القرن الرابع الهجري /10 م في هذه الجهات لا يمكن ضبطها بدقة. ولكن بعذ ذلك نجد زناتة سجلماسة يكونون قوة بشرية حقيقية. فقد انضافت إلى مكناسة سجلماسة مدغرة وهوارة ومغيلة ومغراوة. وحققت هذه القبائل انتشارا بشريا في الجهات الجنوبية الصحراوية والشبه الصحراوية الموالية لسجلماسة باعتبارها مدينة الاستقطاب البشري في هذه المرحلة التي ندرسها، ويأتي ابن حوقل[209] في منتصف القرن الرابع الهجري /10 م ليقدم لنا معلومات أكثر تفصيلا عن هذه الجهات السجلماسية وأهلها: فيقول «وأهلها قوم سراة مياسر يباينون أهل المغرب في المنظر والمخبر» ثم يقول في مكان آخر[210]: «ومن بأداني سجلماسة والمغرب من البربر، يأكلون البر ويعرفونه والشعير ويزرعونه والتمور والطيبات، وفي أعراضهم أصحاب البرانس المقيمون بين السوس وأغمات وفاس، ولهم لوازم على المجتازين من فاس إلى سجلماسة يلزمونهم على ما معهم من التجارة ويخفرونهم» وأشار في وصف

(207م) وتذكر المصادر مواقع كثيرة بهذا الإسم «أوزكا - أو - أزكا» وتضعها في أماكن متباعدة منها المركز اللمتوني في صحراء الرمال. أنظر ابن فاطمة نقلا عن ابن سعيد: الجغرافية ص112 .

(208) ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص108 . طبعة دار الغرب الإسلامي 1986. تحقيق محمد ناصر - و - ابراهيم بحار.

(209) ابن حوقل: صورة الأرض ص90 .

(210) نفسه ص99 .

عام لبربر المغرب قائلا(211): « وجميعهم يبيحون البلاد للمراعي والزرع والمياه لورود الابل والماشية.

2- مغراوة(212): تعتبر أكبر التجمعات البربرية في مناطق السهوب وحوافي الرمال الصحراوية من إفريقية شرقا إلى بلاد السوس. ومن خلال متابعة أحداث وتحركات القبائل في القرن الرابع الهجري /10 م. وبعد فحص المصادر المتعلقة بذلك ظهر لنا أن الفروع المغراوية، لم تتمكن من الإنتشار في سهوب المغرب الأقصى، ومدنه أومراكزه الرئيسية التي تعبرها طرق القوافل إلا ابتداء من أوائل هذا القرن. ففي سنة 312هـ/ 924م كانوا يسيطرون على ما بين نهر شلف شرقا وما وراء تلمسان غربا. وفي سنة التحالف المكناسي المغراوي حوالي 327 هـ/ 938م تحقق التوغل المغراوي في اتجاه سجلماسة. وفي سنة 367 هـ/ 978 م تمكنت مغراوة من تأسيس إمارة بني خزر المغراوية في سجلماسة. وطيلة هذه الأحداث ظهرت في هذه الجهات أسماء قبلية مغراوية بالتحالف أساسا، ومن أشهرها: بطن واغمرت في ملوية الوسطى، بنو ورى، بنو يالدس بجنوب سجلماسة، وإلى جانب هؤلاء كانت هوارة بضواحي سجلماسة، ومدغرة المتأرجحة بين الارتباط المكناسي والمغراوي، ولعل الخلاف الداخلي الذي كان قائما بين مغراوة وبني يفرن في سنة 336 هـ/ 947 م هو الذي أدى إلى توجه القبائل اليفرنية إلى الشمال المغربي وتوجههم إلى شالة بعد ذلك. إذ لم نعثر على وجود يفرني في سهوب سجلماسة خلال القرن الرابع الهجري /10 م.

---

(211) نفسه ص100 .

(212) Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, p.370.

3- قبائل أخرى: أمدتنا مصاردنا بأسماء قبلية مازال بعضها موجودا وخاصة «أمرغاد»(212م) وهي التي تعرف حاليا بـ «أيت مرغاد» و«شرطة»(213).

ثانيا : قبائل الصحراء أو سكان الرمال:

ويمكن أن نسمي هذا المجال الجغرافي البشري بالشمال الغربي للصحراء الكبرى. وقد أجملت المصادر أسماء التجمعات القبلية في هذه الجهات بذكر أسماء معدودة وهي من الغرب الى الشرق.

1- لمطة(213م): التي كانت تسيطر على جميع نواحي الهكار، في تعايش مع جزولة والمجموعات المجاورة لها، وكانت تمتد فروعها المتحالفة معها شمالا إلى واد ماسة. وقد أسس اللمطيون بسهل وادي «نون» مدينة «نول» لمطة على حوض «وارك النون» بأعالي وادي بوكيلة، الذي يشكل أحد الروافد العليا لوادي نون.

(212م) أمرغاد أو أيت مرغاد قبيلة صغيرة رحل رعاة يعتبرون ضمن تجمع ملوانة أصلهم من صنهاجة الجنوب ذكرهم اليعقوبي ووطنهم على نهر غريس على تدغست الحالية. أنظر عنهم عبد الوهاب بنمنصور : قبائل المغرب ص333 . أحمد التوفيق: المجتمع المغربي ص155 . الوزان: وصف افريقيا 120/2 وما بعدها ط /1. ، Massignon : Le Maroc , p.259.

(213) سرطة أو شرطة: ذكرهم اليعقوبي وابن حوقل.

(213م) تكلم على لمطة جميع الجغرافيين العرب ابتداءا من ابن حوقل. وقد استخدمنا مادتهم مضمنة في كلامنا . ولذلك نحيل عليهم وخاصة البكري والإدريسي والمراكشي (مؤرخ) وابن خلدون وابن أبي زرع وابن سعيد . ونلاحظ أن الباحثين المعاصرين يعتبرون الطوارق Les touaregs من أصل لمطي . أنظر مصطفى ناعيمي : الصحراء من خلال بلاد تكنة ، منشورات عكاظ الرباط. 1988 ص 30. ويربط الباحث «جورج كولان» بين لمطة وهسكورة وجزولة باعتبارها من صنهاجة . أنظر :
G.S colin : Lamta. E.I 2ème T.V. p 656.

2- جزولة[214]: من ضمن التجمعات الكبرى لصنهاجة الجنوب، مارست الظعن والترحل في الصحراء بين إفريقية وصحراء أدغشت ومجال انتشارها في عصر دراستنا شرق مواطن لمطة، يمتد انتشارهم شمالا إلى الأطلس الصغير وحوض نهر درعة ثم مالا إلى سهل سوس حيث منطقة تزنيت الحالية.

3- مسوفة[215]: تنتشر بين سجلماسة وأدغشت شرق الإنتشار اللمطي والجزولي. ومركزها الرئيسي هو تدمكة، وتعد من التجمعات الصنهاجية الكبرى. وأحد مؤسسي تجمع «أنبية»[216] الصنهاجي.

4- لمتونة[217] وكدالة: تجمعان قويان يسيطران على الجهات الصحراوية جنوب مجال نفوذ لمطة وجزولة. وبدأ الدور اللمتوني منذ القرن الثاني الهجري /8 م في الجنوب الصحراوي، وكانت قوته السياسية الفعلية في القرن الخامس الهجري /11 م. أما «كدالة» أو «جدالة» فتنتشر شمال نفوذ لمتونة. وكل منهما يكون تجمعا صنهاجيا تحالفيا واحدا.

وأضافت المصادر أسماء قبلية في الجهات الصحراوية الرملية وهي: بنو ينتسر أو ينتصر، ومداسة، وسمغارة، وبنو وارسفين.

---

(214) أنظر عن جزولة بحث جورج كولان =G.S Colin"في الموسوعة الإسلامية الطبعة الجديدة ج2 ص539 (الطبعة الفرنسية).

(215) ابن حوقل 78 .

(216) اليعقوبي : البلدان 356 .

(217) -Lewicki (T): Lamtuna, dans E.I. 2ème , T.V, pp.656-658.
- Bjorkman (W): Litham, E.I, p.775-776.
ونحيل أيضا عل دراسة الدكتور حسن أحمد محمود: قيام المرابطين طبعة القاهرة: دار الفكر العربي، ص39 وما بعدها.
-Colin (G): Gudàla, E.I, 2ème, T.II, p.1148.

استخلاص عام:

I- نستخلص أول حقيقة متعلقة بالواقع البشري للمغرب الكبير في بداية القرن الرابع الهجري /10 م. وهي أن تقسيمه الى منطقتين: منطقة الجهات الشرقية (شرق نهر شلف)، ومنطقة الجهات الغربية (غرب حوض نهر شلف)، كان نتيجة لطبيعة البنية الجغرافية الطبيعية، والبنية البشرية المتحكمة وتنوعها إلى بدو وحضر أو مستقرين ورحل، وكان نتيجة لطبيعة المسالك ونظام طرق القوافل التجارية.

2- ظهر واضحا التواصل المستمر بين الصحراء والشمال في بلاد المغرب الكبير، وكان عامل الربط التجاري عن طريق القوافل بين جنوب الصحراء وحوض البحر الأبيض المتوسط أهم عنصر قوي في حركات سكان المغرب كله. وهذا العامل هو الذي أعطى اكتشاف خبايا الجنوب كله.

3- ظهرت خريطة بشرية جديدة للمغرب كله صنعتها ظاهرة التدخلات الكبرى من قوات مركزية كبرى: عبيدية وأموية أندلسية، ثم تطلعات محلية جهوية مطبوعة بطابع ظاهرة الاستقلال القبلي ونمط الرعي وشبه الاستقرار.

4- أثبت هذا الفصل وجود قوة بشرية هائلة مهمشة ومنسية كانت فاعلة في التاريخ المغربي، لم تظهر على مستوى الفعل التاريخي السياسي، في شمولية جغرافية كبرى للمغرب الأوسط والأقصى، إلا ابتداء من بداية القرن الرابع الهجري /10 م. وتكونت هذه الفعالية على أساس المصالح الإجتماعية التي بلورها زعماء القبائل في تكوينات تحالفية قبلية كبرى.

5- ثبت أيضا أن المغرب الأقصى في هذه المرحلة كان هدفا لصراع الأحلاف داخليا ، وميدانا لتنافس القوى المتحكمة في الإقتصاد التجاري بهذا

العصر. وهو ما أعطى في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي محدودية الدولة أو المجتمع السياسي الداخلي المحلي فيه . وهذه النقطة هو ما سنعالجه في الفصل اللاحق .

الفصل الثالث من الباب الثاني

الاستقلال القبلي وميلاد أنظمة الأحلاف
بالمغرب الأقصى خلال
القرن الرابع الهجري /10 م

الفصل الثالث من الباب الثاني
الإستقلال القبلي وميلاد أنظمة الأحلاف بالمغرب الأقصى خلال القرن الرابع الهجري /10 م

تقديم:

لا نبالغ إذا قلنا إن اكتشاف التاريخ المغربي في العصور التاريخية الإسلامية، يجب أن يمر عن طريق نظامه القبلي وتحليله تحليلا مبنيا على المعطيات المكانية البيئية المحلية، وما يحيط بذلك من ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية، ودينية. ومن هنا طرح النظام القبلي المغربي معضلته على المحللين لقراءة هذا التاريخ الإجتماعي وأنساقه في تطوراتها الداخلية، وما أفرزته من تحولات سياسية.

إننا هنا لا نكرر أطروحة «كوتيي E.F Gautier» [1] المبنية على نظرية «الحتمية الجغرافية» وحدها في تفسير صراع البدو الرحل والحضر المستقرين. وحاول تلميذه «بلانهول»[2] تعميقها والبرهنة عليها. هذه

---

(1) نحيل على أبحاثه المشهورة بوجه عام:

Gautier (E.F):

1)Le passé de l'Afrique du Nord, (les siècles obscurs) payot Paris 1952.

2)Le Sahara , 3 édit, Payot-Paris, 1923.

3) Moeurs et Coutumes des Musulmans,Payot-Paris, 1949.

4)"Hespéris ثم الأبحاث التي نشرها بدورية
وخاصة بحثه المنشور سنة 1924 وبحثه المنشور بها سنة 1925 وأطروحته تحاول أن تفسر التحول الذي جعل من بربر زناتة عربا من بني هلال؟

(2) كـبلانهول: Planhol (Xavier): Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam, Paris 1968.

البرهنة التي تنتهي إلى نتيجة وهي التعارض الدائم والتناقض المطلق بين الرحل والمستقرين. وهذه النتيجة انتقدت بإهمالها للمؤثرات الأخرى وخاصة نظام التضامن الإجتماعي المشترك بينهما(3). وهو مايمكن أن نجمله في بحوث «الأنتروبو-جغرافيا» التي أكدت إمكانية تحالف الحضر مع البدو. وهذا النظام التضامني يتحقق فعلا كلما دخل النظام القبلي البدوي في أزمة اجتماعية واقتصادية. وهذا ما نلمسه في المجتمع المغربي طيلة تاريخه في القرن الرابع الهجري /10 م. ولكنه يمتاز بصفة التموج المائي. فكلما ابتعد عن مركز النفوذ المكون له، إلا ويضعف تأثيره، وتضامنه. فمن المركز أو العاصمة وما حولهما يبدأ مجال السلطان في التوسع بشكل دائري ومستمر، وكلما ابتعدنا عن المركز إلا ويتحول إلى صورة شكلية يجعل وضعية المناطق البعيدة غير خاضعة فعلا للسلطان، خصوصا إذا ما توفرت الحواجز الجغرافية طبيعيا. وهذه بدورها لعبت أم دور في التقسيم الجهوي لهذا النظام القبلي الإجتماعي التضامني، من التوافق والتماثل إلى نقيضه من التعارض والتقاطع. وهكذا يظهر المركز المؤسس للتضامن والتحالف متماسكا، ويظهر الجهات البعيدة عنه منقسمة ومجزأة في غالب الحالات، وخاصة في ظروف الأزمات الداخلية للمركز، أو نتيجة تهديدات خارجية عنه. وهذا الانقسام يفضي غالبا إلى ظهور تكتلات قبلية جديدة، وهذا ما أعطى للظاهرة القبلية الخاضعة لهذا الوضع أن تدرك نفسها ووجود ذاتها في «استقلالها» إما نسبيا أو كليا، واستمر هذا النظام الإجتماعي يهتم بعلاقته مع السلطان أكثر من اهتمامه بالأرض (خاصة عند القبائل الرحل الرعويين). أما الارتباط بالأرض في القرن الرابع الهجري /10 م فكان موجودا، ولكن

(3) Jacques Meunié: Le Maroc Saharien des Origines à 1670, édit, Libr-Klincksieck, 1982, en 2 Vol.

بصورة نسبية إذا قورن بما كان موجودا بين الرحل الرعاة. فهذا القرن هو مرحلة بداية التعمير البشري الكثيف، وفترة البحث عن القوة الجامعة بينهم . الشيء الذي أدى إلى قيام عدة أحلاف قبلية بدوية (أو دول بدوية). في جهات متمايزة بالمغرب الأقصى على امتداد القرن الرابع الهجري /10 م وكانت كما يقول «بلانهول»[4]. «في كل هذه الحركات كانت الدعوة الدينية أو التأييد المذهبي، ضرورية لصهر وتلاحم الصفوف وتماسك المنظومة الجماعية، باعتبار الموقف المذهبي إطارا روحيا يضبط معنويا وعمليا قواعد الضبط الإجتماعي الإسلامي الذي اندمج فيه طواعية النظام القبلي البدوي والحضري المغربي». صحيح أن الجغرافية البشرية- كما لاحظناها في الفصل الثاني من هذا الباب - أظهرت لنا جهات غير متوازنة، وحركة الإنتقال القبيلة (أو المطاردة القبلية من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى). استمرت طيلة القرن الرابع الهجري /10 م، وأدت هذه الوضعية إلى ظهور تناقضات داخلية في الجغرافية الجهوية المغربية. وكانت السمة الأساسية التي خضع لها تحديد طبيعة المجتمع القبلي في البوادي المغربية، والمجتمع الحضري في المدن أو مراكز سلطة الزعامة الجهوية، كانت هي نوع الرئاسة في كل من البوادي والمراكز الحضرية أو القروية، والتي كانت إما إنتخابية على مستوى «الشيوخ» وإما وراثية استمرارية عندما تؤسس الزعامة الحضرية أسرة قيادية اجتماعيا ودينيا وسياسيا، وكثيرا ما يرتبط بذلك المكانة الإقتصادية لزعامة الحكم. ويظهر أن هذه الجوانب التي بنيت عليها الزعامة، كانت في نفس الوقت أساسا مستمرا ودائما للتراتب الإجتماعي في المنظومة القبلية المغربية. وكان العامل الحربي في النظام القبلي المغربي أهم عوامل التفوق والبروز القبلي، فكان الدفاع وصد العدوان، أو تكوين

(4) كـ بلانهول: الأسس الجغرافية للتاريخ الإسلامي ص.ص 133-139 .

القوات المحاربة للمناداة عليها عند الضرورية ، هي الظاهرة المميزة للقبائل الكبرى دون غيرها من القبائل الأوزاع. أو الغارمة. ومن هنا جاءت مكانة الفرسان أو المحارين واعتبارهم في أعلى درجات الرتب الإجتماعية. وفيهم تكون «الرئاسة» وهم المتحملون للمسؤولية العليا في النظام القبلي المغربي. بالإضافة إلى عامل السن والتقدم في العمر مع الخبرة العليا بالتنظيم القبلي. وأظهرت هجرة القبائل إلى المغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري 10/ م. وجود بؤر بربرية هامة في مناطق إما رعوية أو زراعية جبلية أو حيوية استراتيجيا وخاصة على مستوى طرق القوافل البعيدة المدى أي في اتجاه الأراضي المقدسة بالمشرق، أو في اتجاه الصحراء الإفريقية. وهذه الهجرة كافية وحدها لتحقيق التشتت القبلي الذي لمسناه في جداول الجغرافية البشرية والتي ضبطناها قدر المستطاع في الفصل الثاني من هذا الباب، وكافية أيضا لتفسخ الأصل السلالي النسبي، و بالتالي كما يقول الباحث «جاك برك "J.Berque" [5]:«إننا أمام قاعدة حقيقية وهي ذلك التناقض الذي يوجد بين الشخصية الجماعية وأصل الخلايا الّتي تكونها». وهذا فعلا كما يقول نفس الباحث: أن أسماء المجموعات القبلية تتكرر هنا وهناك في المجال الجغرافي المغربي كله، وهذا التكرار يجعل عملية تشخيصها على الخريطة من العمليات الصعبة أو المستحيلة». وقد نتج كل ذلك بفعل الأحداث التاريخية التي عرفتها المنطقة من العصر الروماني وخاصة منذ

---

(5) جاك بيرك: Berque (J): Maghreb, Histoire et Société, (S.N.E.D) Alger: 1974, P.26.

ونحيل على ترجمة هذا المقال بعنوان « في مدلول القبيلة بشمال إفريقيا». منشورات توبقال 1988 ص 117 (ضمن كتيب يجمع ترجمة مقالات في موضوع « الأنتروبولوجيا والتاريخ» ترجمها عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق.

284 م إلى القرن الخامس الهجري /1 1م. ونتج ذلك أيضا بفعل التكاثر المطرد، والتشتت المستمر. وبفعل المؤثرات الإقتصادية الجديدة وخاصة عامل الطرق القوافلية مع الصحراء، بالإضافة إلى ظروف التقلبات المناخية التي عرفها المغرب من دورات الجفاف والبحث عن المراعي والماء. ومع ذلك نتساءل هل هذا الوضع من شأنه أن يكون أو ينتج معادلة تشمل عدة عناصر مجهولة؟ ولعل اكتشافها علميا وتوطينها خرائطيا، هو الأداة الأساسية لفهم بنيات المغرب الكبير(6) . إن التقسيم الخلدوني للمجموعات القبلية الكبرى: زناتة، صنهاجة، مصمودة. هو تصنيف معياري لا يتحمل عند تحليله داخليا يقين التحليل الواضح(7) «وكأننا بصدد سباق المشعل تقدمه مجموعة إلى أخرى».

ونقتبس فكرة «جاك برك J.Berque»(8) مع تصحيح إحصائي، متعلق بالرد على نظرية العصبية السلالية الدموية عند ابن خلدون ومن حلل التاريخ المغربي على أساسها. ذلك أن الجغرافي البكري (ت 1094/487 م) أعطانا تكوينا وتركيبا معقدا. لا تظهر فيه تلك التكتلات القبلية الكبرى، باعتبارها ممثلة لأنساق اجتماعية متمايزة سلاليا. وهكذا وردت عنده مصمودة وصنهاجة وزناتة، الترتيب الآتي: صنهاجة 27 مرة، زناتة 19 مرة،

---

(6) بيرك: نفس المرجع ص27 (الأصل الفرنسي) و ص 118 (الترجمة العربية). وهذا الإتجاه هو الذي اتبعته الأبحاث « المنوغرافية المغربية » الجادة والحديثةو ومن أحسن الأمثلة على ذلك في هذا الصدد دراسةالأستاذ أحمد التوفيق على قبيلة «أينولتان». منشورات كلية الآداب - الرباط 1983 ونشرت بعنوان «المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر » 669 صفحة. فقد أثبت بالنسبة للوحدة الإجتماعية « تاقبيلت» أنها تحمل إسم جد مشترك، ولكنها في الواقع تركيب متنوع العناصر ص109 .

(7) بيرك: نفس المرجع ص29 والترجمة ص119 .

(8) بيرك: نفسه ص30 الأصل الفرنسي / ص120 من الترجمة.

مصمودة 19 مرة ، هوارة 19 مرة. نلتقي بهذه الأسماء في عدة مواطن ومواقع، مما يؤكد عدم تراكم الأسماء في أماكن محدودة، وهذا ما يطرح مسألة التعايش بين هذه المجموعات ، بدلا من طرح مسألة العداء. لكن المسألة الهامة هي التوازن بين المجموعات وقدرة الجهات التي تنتشر فيها على احتضانها، فالمسألة على المستوى العلمي ليست سلالية، وإنما في أساسها مصلحة العيش وإمكانية توفير المؤهلات الاقتصادية للتعايش. وهنا يحدث التقاطع والفرز النوعي للقوات الإجتماعية القبلية، وفي رأينا هذا ما تحققه التحالفات الكبرى قبليا. وهذا ما جعل مرحلة بحثنا هي مرحلة الصراع الحلفي. و بالتالي فترة البحث عن الهوية الشمولية للمغرب الأقصى. فمن سيحققها هل الحلف الأكبر أو العصبيات الكبرى؟ أم ستبقى بلاد المغرب في مستوى الانقسام والانشطار المستمر؟ وبمعنى آخر هل لا يمكن أن يتطور مجتمع الحلف القبلي الأكبر إلى مجتمع الدولة؟

نترك الجواب المباشر على هذه الأسئلة، فهي أسئلة مفتوحة وفرضية. وكل ما يمكن القيام به هو متابعة فحص الوثائق والمصادر وملاحقة الوقائع الإجتماعية التاريخية في إطار ما أسميناه في الفصول السابقة ب «بعصبية الظل» التي مثلها المستقرون المزارعون في جهات متباينة من المغرب كله.

ظاهرة التشتت القبلي في المغرب الأقصى
خلال القرن الرابع الهجري /10 م

أظهرت الخريطة القبلية التي أمكننا استخلاصها للمغرب الأقصى في هذا القرن[9] ، بروز الجهات الرئيسية للجغرافية البشرية المغربية في العصور الإسلامية الأولى، وذلك بناء على ما مكنته لنا المصادر المستخدمة في هذه الدراسة. هذه الجهات في نفس الوقت تمثل مناطق جغرافية لكل منها شخصيتها الجهوية المستقلة، حسب نمط العيش الذي يمكن أن يسود فيها في نظام المجتمعات الوسطوية المغربية. وحسب علاقتهم بالبيئة الطبيعية. ونحدد هذه الجهات التي لا تتجاوز أربعة مناطق ونصنفها على طبيعة علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية وهي كالآتي:

أولا : الجهات الجبلية، وهذه تتألف من ثلاث مناطق، وهي منطقة الجبال المغربية الشمالية من جبال بني يزناسن، وجبال الريف، ثم جبال غمارة بما فيها جبال « جبالة الحالية». ومنطقة جبال «فزاز» (الأطلس المتوسط) ثم منطقة جبال درن أو الأطلس الكبير، وسكان أو قبائل هذه الجهات هم الذين نصفهم ب «سكان الجبال أو « أهل الجبال».

ثانيا : الجهات السهلية الغربية بما في ذلك الأحواض الوسطى للأنهار العابرة لها مثل سبو وأم الربيع وتانسيفت، ونهر سوس، وسكان أو قبائل هذه الجهات ننعتهم بأهل «لوطا» أو أهل السهول.

ثالثا الجهات السهوبية جنوب جبال درن، من سفوح هذا الجبل الممتد من أقصى غربه إلى الهضاب الشرقية، وتمتد هذه الجهات إلى بداية الرمال الصحراوية جنوبا. ونطلق على رواد هذه الجهات سكان السهوب

---

(9) أنظر الفصل الثاني من الباب الثاني.

والواحات . أو هل الصحراء تجاوزا.

رابعا : الجهات الصحراوية، وهي مناطق الرمال أو المجابات الكبرى، وهؤلاء هم سكان الصحراء حقيقة.

وظهر المجتمع القبلي في هذه الجهات غير منتظم وغير متوازن فأهل الجبال بدورهم يتمايزون من الشمال إلى الجنوب، كما يتمايز سكان السهوب الجنوبية الشرقية عن أهل السهول الغربية. ورغم أن نظام القبيلة هو الوحدة المشتركة بين الجميع، فإن التنوع قائم بين هؤلاء. فهل يرجع هذا الاختلاف إلى أقدمية الإنتشار في هذه الجهات بناء على أن القرن الرابع الهجري /10 م هو مرحلة الخلخلة القبلية المغربية وتغيير الخريطة البشرية للمغرب الأقصى؟ أم إلى الفرق بين المستقرين القدماء والرحل المحاربين الجدد؟

فمنذ قيام الخلافة العبيدية الفاطمية في بلاد إفريقية، في نهاية القرن الثالث الهجري /9 م (296 هـ/ 909 م). وإعلان الخلافة الأموية الأندلسية في قرطبة رسميا سنة (316 هـ/ 929 م) في عهد عبد الرحمان الناصر (300 هـ / 913 م – 350 هـ/ 961 م). بدأ توجه هذه القوات النظامية الإسلامية نحو السيطرة على المغرب الأقصى. وكان من الطبيعي أن تصبح القوات البشرية القبلية في أقاليمه مناطا وهدفا لصراع الخلافتين، والهدف الأكبر في هذا التنافس هو التحكم والسيطرة على طرق التجارة الصحراوية وإفريقيا جنوب الصحراء. ومن هنا تحولت الجهات الغربية كلها من إقليم الزاب شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ميدانا للصراع الذي استمر على وجه الخصوص طيلة ثلاثة أرباع القرن الرابع الهجري /10 م[9م].

(9م) يمكن اعتبار سيطرة البحرية الأموية الأندلسية على الساحل الشمالي للمغربين الأقصى والأوسط هو الذي وحد منطقة الجهات الغربية من بلاد

وطرح هذا الوضع العام قضايا اجتماعية كبيرة على مستوى التركيب «البشري للمغرب الأقصى» بوجه خاص، وأهمها انتقال أعداد كبيرة من قبائل المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى، وخاصة في حملة جوهر الصقلي على المنطقة الغربية كلها في سنة 347 هـ/ 958 م. وحملة بلكين بن زيري الصنهاجي سنة 360 هـ/ 971 م. وتخلل ذلك الحملات الأموية الأندلسية في شمال المغرب الأقصى، تلك التدخلات اتخذت شكلا سريعا وعاصفيا أحيانا، ولعل الهدف الرئيسي لتلك الحملات هو تأمين نشاط الأندلسيين التجاري الذي كان لهم على طول الساحل المغربي (أنظر خريطة رقم 19) وبدأ التدخل الأندلسي سليما ثم تحول إلى عسكري[10]، بدأ سنة 316 هـ /927 م عندما أرسل عبد الرحمان الناصر القاضي «محمد بن عبد الله بن أبي عيسى[11] محملا بالهدايا والألطاف والأموال، إلى رؤساء القبائل البربرية،

.../... المغرب الكبير، وقد برز هذا التحديد عند الجغرافي الإدريسي في ذكره للمدن التابعة للساحل الغربي وهي: طنجة، وسبتة، ونكور، وبادس، والمزمة، ومليلية، وهنين، وبنو وزار، ووهران، ومستغانم (النزهة ص 527 ط إيطاليا).

(10) Lévi-Provençal (L): Histoire de l'Espagne Musulmane, T.II, pp.86-110.
وهو ما سماه «ليفي بروفنسال» - بسياسة عبد الرحمان الثالث الافريقية (افريقيا الشمالية).

(11) وابن أبي عيسى هذا من أصل بربري مصمودي (شمال المغرب). وهو من أبناء وسلاس المصمودي كما ذكر الخشني في ترجمته. وقد أثنى عليه ابن حيان من حيث الموقف السياسي الذي كان يقوم به في عهد خلافة عبد الرحمان الناصر، حيث كان يعمل على توطيد الدولة بأرض المغرب، فقد «كان يحسن السفارة ويحكم التدبير، إذ كان ابن أبي عيسى في ذاته رجل الزمان جزالة ورجلة ودهاء معرفة» (ـ المقتبس ج5 ص258 بتحقيق شالميتا، ط المعهد الاسباني العربي للثقافة/ كلية الآداب بالرباط - مدريد1979). وترجم له القاضي عياض في «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» ج6 ص 96-107 (تحقيق سعيد أحمد أعراب) ط الرباط، وزارة الأوقاف 1981 . ولم يشر ولو تلميحا إلى هذه السفارة التي قام بها في المغرب الأقصى.

ويشير المؤرخ ابن حيان إلى هذه السفارة الأندلسية بقوله(12) «... فلم يلبث أن هويت إليه أفئدة كثير من زعماءهم، بين مصحح في ولايته، مستجيب لدعوته مغتنم لعطيته، مستعين بقوته على مدافعة من قد هد ركنه من بني عبيد الله إمام الشيعة، المقتحم أرضه عليه ودونه». وفي سنة 319 هـ/ 931 م بدأ فصل جديد وهو مرحلة التدخل العسكري الأموي الأندلسي، بتمركز القوة الأندلسية بسبتة، لتكون منطلقا في المواجهة بين أنصار العبيديين وأنصار الأمويين في المغرب كله.

المغرب الأقصى والحماية الأندلسية:

بتمركز البحرية الأندلسية في سنة 319 هـ/ 931 م بسبتة، اعتبرت الخلافة الأموية بقرطبة المغرب الأقصى داخلا تحت حمايتها، واعتبرت قبائله الرافضين للعبيديين الفاطميين رعايا لها. واتخذت هذه الهيمنة والصراع على المغرب الأقصى بين القوتين الكبيرتين طابع الصراع المذهبي (الشيعة الاسماعلية، والسنة المؤطرة عقائديا بالأشعرية ومذهبيا بالمالكية). وهذا التأطير هو الذي كان قائما في العالم الإسلامي في القرون الخمسة الأولى من التاريخ الإسلامي العام. ولكن لا نحاول الانزلاق مع تفسير تاريخ المرحلة في هذا الاتجاه رغم اعتماده في كل الأبحاث المنجزة، ولذلك اتجهنا وجهة أخرى عسى أن نصل إلى حقائق أخرى أشد ارتباطا بالإنسان والأرض.

---

(12) ابن حيان: المقتبس، ج5 ص256 (أو ورقة 169). وأشار ابن خلدون الى هذه السفارة (العبر 53/7) محددا تاريخها فقال :« وبعث اليهم خالصته محمد بن عبيد الله (كذا؟) بن أبي عيسى سنة ست عشرة ».

Lévi-Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T.II, p.96 .

فالتدخل الأندلسي في 319 هـ/ 931 م أنهى سياسيا إمارة «بني عصام» حلفاء الأدارسة بشمال المغرب(13) «وقامت فيها الخطبة باسم أمير المؤمنين الناصر» وعين على حكمها كبار قواد البحرية الأندلسية ويسجل المؤرخ الأندلسي هذا الحدث بقوله : «... وأخرج القوة الى بلدهم، وقد ملكوه له مديدة قبل ذلك، حتى وصل اليهم عامله الذي ارتضاه لهم أمية بن إسحاق القرشي، القائد صاحب الجزيرة تجاههم، جمع له العملين تقوية ليده على القيام بأمر العدوة المطرفة الملك. فكان دخول أمية بن اسحاق الى مدينة سبتة وتسلمه لها يوم الجمعة صدر ربيع الأول سنة تسع عشرة وثلاث مائة (25 مارس 931م). فاستقرت فيها قدمه وتم ملكها للناصر لدين الله من يومئذ. فاشتد بها سلطانه، وتعاظم شأنه لما ملك البحر بعدوتيه».

وهذا التمركز الأموي الأندلسي في سبتة جعل السياسة الأندلسية تتوجه نحو السيطرة والتوطيد على المرافئ البحرية في العدوة أي الواجهة البحرية للمغرب من طنجة غربا الى مصب نهر شلف شرقا، ومن طنجة

---

(13) ابن عذاري: البيان 204/2 . الوثائق العدد 1 ص73-79 . ابن خلدون: 306/4 . المقري : أزهار الرياض 257/1 . وقد وهم كثير من الباحثين، حيث اعتبروا أمراء سبتة من بني عصام حلفاء للعبيديين الشيعة الإسماعيلية، وذلك راجع الى تفسير نعت الأدارسة بالفواطم، بأن ذلك يعني الخلافة العبيدية، وهو خطأ تاريخي واضح.
أنظر ابن حيان: المقتبس، ج5 ص289 (ورقة 192) ثم قارن بما جاء عند البكري ص 104ط دي سلان / ص781 فقرة 1309 ط تونس 1992 . ثم قارن ترجمة «شالمتا» للقسم المذكور من المقتبس وتعليقه على هذا الحدث. أنظر: السيد عبد العزيز سالم وأحمد العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ط دار النهضة العربية، بيروت 1969 ص175 وما بعدها.

شمالا الى أزقور جنوبا[14] على السواحل الغربية للمغرب الأقصى (بحر الظلمات أو الأطلنتيكي). ثم اتجهت هذه السياسة البحرية الأندلسية شرق سبتة، حيث حاول الجيش البحري الأندلسي الإستيلاء على جزيرة «أرشقول»[15] سنة 320 هـ/932 م ولم يفتحها ويسيطر عليها إلا في سنة 325هـ/937 م. وقد نقلت إلينا المصادر التاريخية الأندلسية والمغربية أخبار المجهود الحربي البحري الذي بذلته البحرية الأندلسية من أجل السيطرة على الجهات الغربية من المغرب الكبير. وما رافق ذلك من مواقف المعارضة الداخلية، وخاصة موقف الأدارسة الأمراء المحليين الذين كانوا منتشرين في الجهات الشمالية من المغرب الأقصى من المغرب الأوسط[16]. كما أمدتنا تلك المصادر بصور من حركية المجتمع القبلي المغربي في وسط زخم الصراع بين الكبار.

---

(14) القاضي عياض: مذاهب الحكام في نوازل الأحكام (تحقيق الدكتور محمد بن شريفة) ط دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990 ص128 حيث أكدت نوازله وجود علاقة تجارية بحرية بين سبتة ومرسى «مازيغن» التي فسرها المحقق ب «موسى الجديدة» اعتمادا على الجغرافي ابن سعيد المغربي: كتاب بسط الأرض في الطول والعرض (تحقيق خوان قرنيط خينيس) طبعة تطوان معهد مولاي الحسن 1958 ص71 . وعلق الأستاذ ابن شريفة في مقدمة تحقيقه على هذه العلاقة الداخلية بين الساحلين المغربيين بقوله « وأغلب الظن أن هذا القمح كان يعاد تصديره من سبتة إلى بعض الموانئ المتوسطية المسيحية»؟ (ص16).

(15) حدد البكري موقعها « وأرشقول ساحل تلمسان بين مدينة أرشقول على نهر تافنا» المسالك، ص747 فقرة 1251 .ثم ضبط موقع « جزيرة أرشقول» التي صارت موقعا بحريا أندلسيا بقوله: « وتقابلها جزيرة في البحر تسمى جزيرة أرشقول بينها وبين البر قدر صوت رجل جهير الصوت في سكون البحر، وهي مستطيلة من القبلة إلى الجوف عالية منيفة» ص78 ط- دي سلان / ص748 فقرة 1253 . ابن حيان: المقتبس ص 312-314 .

(16) ابن حيان: المقتبس، ج5 ص290-298 (ورقات 194-200). ابن عذاري: البيان ج1 ص200-206 . ابن خلدون: العبر ج 4/27-28 . الناصري: الاستقصا: ج1 ص 81-82 . ابن أبي زرع: القرطاس ص55 .

واستمرت السيطرة الأموية الأندلسية على المراكز البحرية المغربية، واتجهت البحرية الأندلسية نحو الساحل المغربي الغربي، ففي سنة 322 هـ/ 934 م دخلت مدينة «أصيلا» تحت سيطرة بحرية عبد الرحمن الناصر[17]. وفي سنة 323هـ/935 م تمركز الجيش البحري الأندلسي بمدينة طنجة[18].

وهكذا انتقل الثقل البحري الأندلسي إلى السواحل المغربية فأصبحت المرافئ المغربية الشمالية: سبتة ومليلية وجزيرة أرشقول ثم طنجة وأصيلا، تحت القبضة الأندلسية. وهذا يعني أن الخلافة الأموية في عهد عبد الرحمان الناصر، سيطرت على المجاز (مضيف جبل طارق). ويعني أن الخلافة الأموية صارت صاحبة السلطة المباشرة والعليا في تصريف شؤون المغرب الأقصى. ومن سنة 319هـ/ 931 م بدأ الخليفة الناصر يتدخل في المغرب تدخلا مباشرا على المستويات الآتية:

أولا على مستوى عرقلة بل منع التدخل العبيدي في المغرب الأقصى والأوسط خصوصا وأن المنطقة ذات أهمية اقتصادية وبشرية كبرى.

ثانيا : على مستوى الهيمنة على الطرق البحرية العابرة نحو غرب إفريقيا والسيطرة على طرق القوافل التجارية البرية المتجهة من تلمسان. وسجلماسة إلى غرب افريقيا، عبر الصحراء ومجاباتها الكبرى.

---

(17) لا ندخل في تفاصيل الأحداث ولكن نشير إلى مصادرها التي روت أخبارها، ابن عذاري: البيان 235/1 . ابن حيان: المقتبس ج5 ص 324 (ورقة 219) وما بعدها.

(18) ابن حيان: المقتبس ج5 ص.ص368-369 (ورقة 249-250). وأسس فيها عبد الرحمن الناصر دارا للصناعة البحرية. الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق ص168 طبعة دوزي / ص529 طبعة إيطاليا حيث أشار إلى أن « بها انشاء المراكب».

ثالثا : على مستوى القوى البشرية المغربية التي أخذت تدخل بإعداد كبيرة في الجيش الأندلسي البري والبحري على حد سواء. بل أحيانا اتخذت شكل انتقال جماعي الى الأندلس. وظهرت فعالية الإنسان المغربي القتالية في هذا العهد، فمن الطبيعي أن يحكم الخليفة عبد الرحمن الناصر قبضته على المغرب. ،وبالتالي أن يحوله إلى منطقة نفوذ الخلافة السنية. ويحافظ على تبعية زعماء قبائله مهما كانت التضحيات المبدولة من أجل ذلك.

وأمام هذه المستويات الثلاثة نطرح سؤالين تارخيين هما: سؤال يتعلق بالسياسة القبلية الأندلسية في المغرب، وسؤال ثاني هو الأفق السياسي الأكبر للخلافة الأندلسية الأموية في حوض البحر الأبيض المتوسط. فكيف عالجت قرطبة هذه المسألة؟ السؤالان يبعداننا إلى حد كبير عن بحثنا ولكنهما من صميمه في نفس الوقت، ومع ذلك نحاول أن ننظر الى الموضوع في واقع العلاقات القبلية المحلية بحكم أننا نعالج مسألة التشتت القبلي المغربي والاستقلالات الحلفية المحلية للبنية البشرية في المغرب.

السياسة القبلية الأندلسية في المغرب الأقصى في ق 4 هـ/ 10 م

لعل النظرة الأندلسية إلى المجتمع القبلي المغربي تحكمها النظرة الاستعلائية التفوقية لأهل الأندلس على البربر عموما، وقد ظهرت واضحة في الإنتاج الفكري عموما، ورسائل الكتاب في هذا الصدد أكبردليل على ذلك(19) . كما عبرت عليها المواقف الرسمية التي كان يعبر عليها زعماء الأندلس عندما يحدث خلاف بين الجهتين، وخاصة في مراسلاتهم الرسمية إلى أهل المغرب، وحتى إلى البرابرة المقيمين في الأندلس(20). كما أن الصراع القبلي الداخلي في الأندلس. بين القيسية واليمنية، والمولدين، أدى إلى أضعاف اعتماد الخلافة الأموية بالأندلس على القاعدة القبلية في قرطبة.

---

(19) ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي (تحقيق د. احسان عباس)، طـ الأولى بيروت 1981 ، ج2 ص171-188 .ج3 ص136 . وقد ألف ابن بسام «دخيرته» في هذا السياق. المقري: نفح الطيب، ج1 ص233 . (فصل الكراهية والبغضاء بين المغربين والأندلس). وقد ذكر: «أنك لا تجد أندلسيا إلا مبغظا بربريا» وخصص أحمد المقري، في نفح الطيب الباب السابع لهذه المسألة وعنونها بـ«نبذ مما من الله تعالى به على أهل الأندلس من توقد الأذهان»، أنظر النفح ج4 ص149 إلى نهاية هذا الباب طبعه دار الارشاد الحديثة/ دار الفكر العربي، بيروت 1986 . واستمرت هذه المفاضلة إلى ما بعد القرن الرابع الهجري /10 م. حتى قال الشقندي «لولا الأندلس لم يذكر بر العدوة، ولا سارت عنه فضيلة» (النفح 180/4) . ثم أنظر الدراسة الهامة للأستاذ الدكتور محمد بن شريفة « من منافرات العدوتين » مجلة كلية الآداب/ الرباط، عدد 1 ص7-49 .

(20) في المصادر الرسمية الأندلسية وصفت البربر بـ« أحمر الوحش». كما ذكرتهم بأوصاف تحقيرية. وخاصة في عهد ثورة البربر في أوائل القرن الخامس الهجري /11 م بالأندلس.

وجعلها تتجه نحو البربر وتجنيدهم في جيشها الى جانب العبيد الصقالبة، للحد من نفوذ الأرستقراطية العربية في الحكم[21]. فقد استقدم الخليفة عبد الرحمان الناصر «بربر العدوة» ليستبدل بهم «المتطوعة» من أهل الأندلس، الذين كانت مشاركتهم في جيش الخلافة أحد أول هزائمها العسكرية في معركة «الخندق»[22] سنة 327 هـ/939 م. وكانت تجربتهم في جيش الخلافة فاشلة استلزمت استبدالهم بقوة بشرية أكثر تحملا وصلابة في العمل الحربي لدولة الخلافة. وعندما بدأ نزول وتمركز الجيش البحري الأندلسي في المرافئ المغربية، وأخذت قبائله الشمالية تقدم طاعتها للخليفة الناصر اتخذت الخلافة بقرطبة سياسة جديدة تهدف الى إستمالة هؤلاء، لإدخالهم في جند الدولة التي تخوض حروبا في الشمال ضد النصارى الاسبان بشمال الأندلس، وفي الواجهة الداخلية ضد العبيديين، وضد المنشقين من زعماء «الكور».

وهكذا كونت الخلافة الأندلسية فرقة أطلقت عليها إسم (البربر الطنجيين)[23] وقد ساعدنا المؤرخ الأندلسي ابن حيان، بإعطاء صورة عن

---

(21) بدأ استخدام عبيد الصقالبة في نظام الدولة الأموية بالأندلس منذ أيام الحكم الربظي، وتزايد عددهم في عهد الخليفة عبد الرحمان الناصر حوالي 13.750 من الرجال والنساء. أنظر عن هؤلاء ابن عذاري: البيان 232/2. المقري: نفح الطيب 567/1. أحمد مختار العبادي: الصقالبة في اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية. مدريد 1953 ص 11-20.

Lévi-Provençal: Histoire Espagne Musul, T.2, pp.301-305.

(22) ابن حيان: المقتبس ج5 ص449 وتفاصيل أحداث معركة الخندق أنظر ص 432-436.

(23) ابن حيان: نفسه ص88، 341، الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد: القبائل العربية في الأندلس، الدار البيضاء 1983 ص357-358، ابن عذاري: البيان ج2 ص222.

وضعية هؤلاء ومكانتهم الاجتماعية و بالتالي أمدنا بالتصور الذي كان يراهم به رجال الدولة في قرطبة، فأشار الى أن الخليفة عبد الرحمان الناصر كان حذرا جدا في علاقته مع «بربر المغرب» بحيث كان[24] .«منطويا على الحذر من بوادرهم، معتقدا قلاهم والإزورار عنهم، مقتصرا على من أظهر مكاتبته منه وموالاته على بعد واحترس. من كيادهم، مطيبا لهم بالاهداء والرفد، غير مستدع لهم إلى العبور عليه ولا مستكثر منهم بالامداد لهم». فهذا الحذر الشديد والاحتياط الكبير يظهر أنه ناتج عن اختلاف وتفاوت حضاري بين المجتمعين المغربي والأندلسي. وهذا ما يبرر سلوك الخليفة الناصر في اختيار من يستخدم منهم ونوع الخدمات التي تسند لهم. وهذا ما أفصح عنه ابن حيان بقوله«:. لا يستخدم من البرابرة إلا أراذلهم وعبدانهم

---

(24) ابن حيان: المقتبس (القسم الذي حققه على حجي) طبعة دار الثقافة- بيروت 1965 ص190 .

فالصورة التي كونها لنا نص كلام المؤرخ ابن حيان عن رؤية دولة الخلافة الأموية بالأندلس للجند البربري وخاصة الفرقة الطنجية، تعتبر مخالفة للصورة التي نجدها في نص كتاب «مفاخر البربر» (ص62 طبعة ليفي بروفانسال/ورقة 80-81 مخطوط الخزانة العامة بالرباط). ولكن الذي يظهر من فحص نص مفاخر البربر أن الإشادة الأندلسية بالبربر لا تتعلق بالرؤية الحضارية والإجتماعية للبربر بقدر ما تتعلق، باستمالة الزعماء والكبراء منهم ومن كان في مرتبتهم. فالثناء على البربر في نصوص «مفاخر البربر» ثناء سياسي، أما نص ابن حيان فكلامه يعتبر أساسا ذا بعد حضاري اجتماعي. ولعل أوضح نص أندلسي في رؤيته لبربر المغرب هو كتاب « طبقات الأمم» لصاعد الأندلسي المتوفى سنة 462 هـ/ 1070 م. وألف كتابه هذا في سنة 460 هـ/ 1068 م. وقال بصريح العبارة: «وأما الجلالقة والبرابرة وسائر سكان أكناف المغرب من هذه الطبقة، فأمم خصها الله عز وجل بالطغيان والجهل، وعمها بالعدوان والظلم» (ص42) من طبعة دار الطليعة بيروت 1985 بتحقيق حياة بوعلوان.

من أشابتهم وأساودهم موقعا عليهم إسم «الطنجيين» مقتصرا بهم على أدنى الملاحق، قاصرا لهم على أقل الروابت، مصرفا لهم في أشق الخدمة». يتضح أن فرقة «الطنجيين» لا نفوذ لها في جيش الخلافة، ومهمشة على المستوى الاجتماعي، ومعزولة عن المجتمع الأندلسي، ومراقبة مراقبة شديدة، لا تستدعى لأداء مهمتها الا في الحالات القصوى والصعبة. فقد أنشأت للقيام بما يشبه في عصرنا حالات التدخل السريع، ولذلك منع عليها الاختلاط بغيرها من فرق جيش الخلافة، كما منع على الفرق الأخرى «التشبه بالبرابرة والتشكل بشكلهم، والاستعمال لشيء من زيهم في ملابسهم ومراكبهم»[25].

وكثيرا ما حدثت اصطدامات بين سكان قرطبة وهؤلاء البربر. واتخذت الدولة إجراءات صارمة في حق البربر. «فقبضوا على كثير من الطنجيين وأوقعوا بهم وسجنوا كثيرا منهم»[26]. واستمر هذا الموقف الرسمي في معاملة فرقة «البربر» في الجيش الأندلسي في عهد الحكم المستنصر (350 هـ/ 961 م- 366 هـ/ 976 م). وفي مرحلة الاستبداد العامري (366 هـ/ 976 م-399 هـ/ 1008 م). وكان لذلك انعكاس على التدخلات الأندلسية الكبرى في المغربين الأقصى والأوسط. مما أعطى للعلاقات بين دولة الخلافة في قرطبة، وسكان المغربين طابعا خاصا أهم مميزاته بناء تلك العلاقة بين التابع والمتبوع، بين المتحضر والأقل تحضرا بين الحامي والمحم. ولعل هذا الموقف الإستعلائي الأندلسي هو الذي أنتج ثورة البربر في آخر الخلافة الأموية بالأندلس، وأدى إلى استمرار المعارضة المحلية في المغرب، وخاصة معارضة الزعماء الأدارسة في شمال المغرب. ومنظومة احداث التوافق والتصادم بين قرطبة وبلاد العدوة، هو ما سماه المؤرخ الفرنسي المختص

---

(25) ابن حيان: المقتبس (على حجي) ص190 . ابن عذاري: البيان ج2 ص222

(26) ابن حيان: المقتبس (على حجي) ص78 .

ليفي بروفنسال «بالسياسة الأندلسية في إفريقيا الشمالية» على حد تعبيره[27].

لقد كانت الخلافة الأندلسية تدرك تمام الادراك تركيب النظام القبلي المغربي المبني على نظام «القبيلة البربرية» وتراتبها الاجتماعي ومراتبه من «أخماس، ولف، وأحلاف»، كما كانت على بينة من نظام الرعاة والمستقرين منهم. وكانت على علم من صراعاتهم المحلية من أجل السيطرة على الممرات والطرق، والمجالات الحيوية. والمدن الرئيسية في المنطقة كلها.

كل هذه المعطيات كانت قرطبة على اطلاع بها، ولذلك عملت على اتباع سياسة مع القبائل المغربية تساير طبيعة كبرياء الزعماء المحليين ولكنها لا ترقى إلى مستوى الاعتراف بالسيادة المحلية، بحيث ظلت تعتبرهم رعايا تعترف لهم بكبريائهم الخصوصي فقط، ولكن نلاحظ أن المجال التطبيقي لهذه السياسة استمر قاصرا على الجهات الشمالية من المغربين الأقصى والأوسط، وكأنها شبيهة بالتطبيق الذي كانت تطبقه فيهما الأمبراطورية الرومانية في الموريطانيتين القيصرية والطنجية. وظهر واضحا أن الخلافة الأموية بالأندلس لا تريد السيطرة على الأرض أو بسط السلطان السياسي المباشر، بقدر ما تهدف الى الاحتفاظ على الاعتراف الروحي والولائي لها. وهذا يفرض الاعتراف بسلطان القبيلة المغربية. وهذا السلطان القبلي من الطبيعي أن يتولد عنه صراع داخلي مستمر. يغدوا فيه شيوخ القبائل هم القوة المحركة لحياة المجتمع برمته.

وهذه القوة المحركة أو «شيوخ القبائل» هي الجماعة التي تعاملت معها الخلافة الأموية بقرطبة، وهي نفس القوة التي كانت مستهدفة من الخلافة العبيدية الفاطمية. فكانت المجموعات البشرية المغربية أمام ضغوط خارجية

(27) Lévi-Provençal (E.L): Histoire Esp. Musul. T.II, pp78-110.

تختلف على المستوى المذهبي، وتتحد في هدف السيطرة على منافذ القوى الاقتصادية والعسكرية. وهكذا ظهر الوضع الداخلي المغربي كيانا اجتماعيا تعتصره ضغوط زعامة شيوخ قبائله المحليين وتوجهه حسب قوة الضغط الخارجية عليهم، وحسب قربها أو بعدها منهم. أو حسب تأثيرها المباشر أو غير المباشر، ومن هنا كان العامل الحربي في حسم المواقف ظرفيا ومؤقتا، فصارت الظاهرة الاجتماعية القبلية هي قاعدة الربط والتضامن الداخلي، ولذلك تطورت الى تكتلات وأحلاف من أجل الحفاظ على طبيعة المنظومة الداخلية التي لم تتحول الى هيئة الدولة إلا في مستوى آخر من التنظيم الإجتماعي الذي يتجاوز النسق القبلي إلى مستوى المؤسسات الشمولية الكلية.

فالمجتمع القبلي المغربي في القرن الرابع الهجري 10/ م تعرض لضغوط قوتين كبيرتين: العبيدية - الزيرية من الشرق و بالتالي من «الواجهة البرية» والأموية الأندلسية من الواجهة الشمالية و بالتالي من «الواجهة البحرية». وكل منهما يعمل على الاحتفاظ بولاء المغرب تأمينا لقوته التجارية بوجه خاص، تحت غطاء التوجه المذهبي. فالمعركة على المغرب معركة اقتصادية في بعدها الداخلي. لا تتضح الا بربطها مع وقائع الصراعالبحري في حوض البحر الأبيض المتوسط مع بزنطة[28].

---

(28) أرشيبالد.ر.لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط. الصفحات 230-237 . وقارن بما جاء في دراسة: أ. أشتور: التاريخ الاقتصادي والإجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى . (ترجمة عبد الهادي عبله). طبعة دار قتيبة. دمشق 1985 ، ص.ص123-126 . ويسجل بحق هذا الباحث ملاحظته الهامة بقوله: «إن تاريخ الشرق الأدنى في نهاية القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر هو عصر القـــــواد .../...

وهذه الوضعية أعطت في المغرب الأقصى توسعا بدويا خلال القرن الرابع الهجري /10 م. وتعرض الفلاحون لعمليات السلب والنهب وازدادت جرأت البدو عندما تضعف التدخلات الكبرى التي كان يقوم بها العبيديون والزيريون والأندلسيون في هذا القرن. وبذلك بدأ هؤلاء الفلاحون المستقرون يكونون قوتهم الدفاعية. وظهرت ظاهرة إبعاد أصحاب الأرض القدماء لتحل محلهم عناصر أخرى جاءت بفعل مطاردة الجيوش الكبرى(29) أو بفعل الانتقال الإرادي بحثا عن المراعي أوالجهات الخصبة، فحدثت الاصطدامات المكتررة بين الفلاحين والبدو الرحل. ويذكر البكري، وابن عذاري وابن خلدون حروب برغواطة في بهت وتادلا(30). كما تشير كتب النوازل الفقهية التي ترجع وقائعها الى القرن الخامس الهجري الى مسائل الترامي على أراضي الغير وأملاك الناس. ورغم كل شيء فقد حافظ هؤلاء الجدد على نظامهم العشائري، وكل ما حدث لهم هو أنهم تميزوا عن البدو الحقيقيين الذين ما زالوا يرحلون الى أماكن أخرى. وبتزايد عددهم يدخلون في صراع مع إخوانهم الذين حافظوا على نمط الترحال، فأسفرت الخصومات عن أعمال العنف بين الاخوة السابقين أي الرحل القدماء.

.../... العظام. ولكن انجازاتهم لم تكن أكثر من فترة انتقال، فالتطور الاجتماعي والاقتصادي للمقاطعات المركزية من الخلافة أوجدت ظروفا جلبت معها بالضرورة تغيرا كاملا في بنية الدول الاسلامية » ص.ص 164 و194 وما بعدها.

(29) نقصد بالخصوص حملة جوهر الصقلي في سنة 347 هـ/ 958 م ثم حملة بلكين بن زيري الصنهاجي سنة 360 هـ/ 971 م. فقد تنتج عن هاتين الحملتين تغيير في الخريطة الأثنية للمغرب الأقصى، و بالتالي تطور جديد في نظام الأحلاف القبلية المغربية. وهو ما نسميه بظهور دول الأحلاف مثل حلف مغراوة، وحلف بني يفرن، وحلف مكناسة الجبل.

(30) البكري: المسالك ص 821 فقرة 1372 . ابن عذاري: البيان 165/1 .

إننا لا ننكر أهمية الدعاية الفاطمية في بنائها لدولة خلافتها التي استولت على منطقة واسعة من القارة الافريقية، ولكن لا يمكن أن تفسر الدعوة الفاطمية نجاح الخلافة الفاطمية وبناء دولتها الكبرى. صحيح كان للدعوة الإسماعلية دور كبير في المحيط الديني، ولكن لم يكن كل شيء. ولعل البنيات الاجتماعية الغنية والثرية هي التي كانت وراء هذا النجاح سواء في افريقية والمغرب أو في وادي النيل. مع العلم أن الشرائح الغنية في هذا العصر لم يكونوا من الرعاة أو من الفلاحين وإنما من التجار الذين تحكموا في تجارة إفريقيا جنوب الصحراء، أو تجارة الشرق كله، أو تجارة حوض البحر الأحمر والمتوسط.

فالصراع المرير الذي قام به العبيديون في المغرب الأقصى هو صراع المصالح التجارية الكبرى. وكانت طبيعة النظام القبلي في المغرب لا تدرك هذه الأبعاد البعيدة. حيث ظل تصور المجتمع المغربي محدودا ومحصورا في محليته تتجاذبه القوى الكبرى في المنطقة. وأهم أدلتنا على ذلك ضعف وتراجع المناطق المزروعة في المغرب الأقصى والأوسط (قارن بين خريطتي المناطق الزراعية رقم 8 و9) فقد تناقصت الحاصلات الزراعية من القمح في شمال المغرب الأقصى الى حد أن اعتمدت هذه الجهة على منطقة تامنسا ونقلت الحبوب عن طريق البحر من «مازيغن الى سبتة» بدلا من الواسطة البرية غير المامونة، لأن البدو يهددونها(31). فعامل الأمن الذي يعتبر ضروريا لقيام حياة زراعية لم يكن متوفرا باضطراد وترتب على ذلك ارتفاع الأسعار. وما نسب عند الباحثين من ثناء على «ثراء المغرب» فإنه لا يعني المغرب الأقصى بقدر ما يهم المراكز الكبرى التي كانت محدودة العدد جدا في القرن الربع الهجري بحيث لا نجد منها سوى سجلماسة وفاس وسبتة

(31) القاضي عياض: مذاهب الحكام، ص128 .

وتلمسان وما عدا ذلك لا شيء يثبت ما يذكره الكتاب والمحللون. ومن هنا يكون معنى المغرب وثراؤه خاصا بمركز الخلافة العبيدية بافريقية(32).

وكذلك الأندلس التي وصفت في هذا القرن بازدهارها الزراعي والتجاري والصناعي(33).

وهكذا ، ظهر أن الجهات الغربية (المغرب الأوسط والأقصى) لم يكونا إلا منطقة لتأمين النفوذ الاقتصادي التجاري في نظر الخلافتين: العبيدية الفاطمية بإفريقية، والأموية الأندلسية على حد سواء. ولذلك جاءت تدخلاتهما عاصفية وسريعة وكأنها تقول لأهله « حذاري إننا هنا!» وما عليكم إلا الولاء والطاعة، في مقابل نصيب بسيط جدا يتمثل في ضرائب العبور، وصلات لزعماء القبائل. ونبسط هذا الوضع بالوقوف قليلا عند التدخلات الأولى للخلافتين في المغربين وهي كالآتي دون التعرض للتفصيلات:

---

(32) ارشيبالد لويس: القوى البحرية ص255 على ما فيه من خطأ واضح حيث نسب سجلماسة الى الرستميين. وقد درس بتعمق مسألة التجارة الصحراوية ودورها الاقتصادي والإجتماعي في حوض البحر الأبيض المتوسط الباحث: س.د جواتياين، في أطروحته الكبرى: Goitein (S.D) A Méditerranean Society, Berkeley and los Angeles, University Of California, Press 1967.

ثم في بعض مقالاته التي ترجمها الدكتور عطية القوصي بعنوان «دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية» طبعة الكويت 1980 . وبحث «بوفيل =Bovill"المترجم أخيرا الى العربية بعنوان «تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير » طبعة بنغازي 1988 .

(33) أرشيبالد لويس: القوى البحرية. ص261 .

أولا : التدخل العبيدي الفاطمي في الجهات الغربية من (298هـ/ 910 م إلى 313هـ/ 925 م).

ففي بداية القرن الرابع الهجري /10 م كان الجيش يكمل عمليته التمشيطية التي بدأها بحملة عام 298 هـ/ 910 م، في الجهات الغربية من بلاد البربر(34). و في سنة 305 هـ/ 917 م كثف العبيديون هجماتهم على المغرب، وتكلف بهذه المهمة أحد القواد الذي ينتمي إلى قبيلة «مكناسة» وهو « مصالة بن حبوس» وتمكن من السيطرة على «تاهرت، والمدينة الساحلية المرفئية نكور» عاصمة إمارة «بني صالح» في شمال المغرب الأقصى ثم تقدم إلى مدينة «فاس» المركز الرئيسي للأدارسة(35). وفي هذه الحملة كان إلى جانبه ومناصرته زعيم مكناسة شمال المغرب الأقصى وهو «موسى بن أبي العافية»(35م). ثم توجه القائد الشيعي مصالة بن حبوس الى سجلماسة. وتمكن مصالة من إنهاء مهمته العسكرية بنجاح وعاد إلى مقر قيادته وعمالته

---

(34) ابن عذاري: ج1 ص152 ، 160-165 .

(35) يقتضي منهج هذا البحث تأجيل موضوع الأدارسة إلى حينه، ولكن نشير إلى أن دخول مصالة بن حبوس الى مدينة فاس وقبضه على الأمير الادريسي « يحي بن إدريس» سنة 305 هـ/ 918 م لا يعتبر نهاية للدولة الادريسية، وإنما يعتبر بداية النهاية. ابن أبي زرع: القرطاس ص.ص 117-116 ابن خلدون: العبر 134/6 ، 25/7 . الناصري: الاستقصا 166/1 .

(35م) وقد كفانا الأستاذ فرحات دشراوي متابعة هذه الوقائع في دراسته: Farhat Dachraoui:Le Califat Fatimide au Maghreb (S.T.D), p.134 et 150-151.
هنا نسجل أن موسى بن أبي العافية ظهر على مسرح الأحداث متشيعا للعبيديين، ثم بعد ذلك سيغير موقفه ليتحول إلى أمويي الأندلس. أنظر ابن عذاري: البيان 179/1 . البكري: المسالك ص95 ط. دي سلان/ فقرة 1353 ط تونس 1992 .

«تاهرت» في شعبان سنة 310 هـ/ دجنبر 922م. ونسجل أن ابن أبي العافية ظهر في منطقة «تازة» باعتباره قائدا للشيعة وهذا ما يجعلنا نطرح السؤال الآتي: ما هي الوعود التي قدمها له «مصالة بن حبوس» على مستوى الزعامة القبلية؟ لا نجد جوابا وثائقيا. ولكن أحداث التدخل الأندلسي في المغرب تعطينا جوابا غير مباشر. وهو الاعتراف بزعامته على قبائل حوض نهر سبو، وهو ما جعله يحقق طموحه القبلي وهو تكوين «حلف قبلي مكناسي» جعله زعامة لها حضورها في تاريخ المنطقة الشمالية من المغرب الأقصى. وبعد أربع سنوات عاد مصالة الى المغرب الأقصى(36). وفي هذه المرة ظهر أن موقفه من موسى بن أبي العافية فاترا جدا بحيث لم يوله على مدينة فاس، وعين حاكما آخر من كتامة المغرب الأوسط وهو «ريحان الكتامي»(36م). ثم اتجه «مصالة» إلى الجنوب المغربي وكان هدفه هو سجلماسة(37) ليصفي

(36) وفي هذه الحملة الثانية التي قام بها مصالة بن حبوس على المغرب الأقصى، قبض على الأمير الإدريسي يحيى بن إدريس وسجنه وصادر أمواله. وكانت هذه الحملة في سنة 309 هـ / 921 م.

(36م) ابن الخطيب: القسم الثالث من أعمال الاعلام، ص211 .

(37) «مصالة بن حبوس» القائد العسكري للجيش العبيدي الشيعي في الجهات الغربية، وهو بربري ينتمي إلى «بربر مكناسة» تولى ولاية «تاهرت» سنة 299 هـ/ 912 م. بعد فشل القائد الكتامي «دواس بن صولات» في تهدئة المنطقة لصالح العبيديين. وحاول مصالة تحويل «تاهرت» من قاعدة للخوارج الى مدينة «شيعية» طيلة حكمه لها (299-312 هـ/ 912-925 م) مثل ما حاول تأمين خضوع القبائل البربرية الغربية للطاعة الفاطمية، و بالتالي تأمين الطرق الغربية وإحكام القبضة الشيعية عليها، واعتمد في كل ذلك على الحملات العسكرية التي ركز فيها على ثلاث نقط هامة جدا، هي الساحل الشمالي وخاصة مدينة «نكور» (سعد زغلول عبد الحميد:
.../...

البقية الباقية من الإمارة المدرارية. ولكن التجمع القبلي المغراوي ظهر بقوته متحديا للجيوش العبيدية الفاطمية، وقد زاد من خطورتها أهمية المناطق الاستراتيجية التي كانت تسيطر عليها من وادي شلف الى الجهات الجنوبية الغربية نحو سجلماسة. وتحرك هذا التجمع ضد جيش «مصالة بن حبوس». فدارت حرب طاحنة بين مغراوة بقيادة «محمد بن خزر المغراوي» ومصالة قائد الجيش العبيدي في 20 شعبان 312 هـ/ 9 نوفمبر 924 م. انتهتبقتل مصالة بن حبوس وهزيمة جيشه (37م) . وهكذا ظهر الخطر العبيدي كبير على النفوذ الأموي في المغرب الأقصى مما جعلهم يهتمون بجدية بمسألة المعبر المغربي نحو افريقيا جنوب الصحراء. فأخذوا يخططون بالاعتماد على قوتهم البحرية لايقاف الزحف الفاطمي باحتضان

.../... تاريخ المغرب العربي، ج3 ص84-87) وخاصة في سنة 304 هـ/ 916 م. ثم مدينة فاس قاعدة الأدارسة في سنة 305 هـ/ 917 م. ومركز مكناسة الزيتون في نفس السنة (البكري يؤرخ دخول مكناسة بسنة 307 هـ/ 919م وهذا غير صحيح). وفي هذه الحملة (حملة مصالة سنة 305 هـ/ 917 م) تحول موسى بن أبي العافية الى حليف للشيعة العبيديين، وفيها بدأ طموحه الأكبر وهو توليته على المغرب الأقصى. في فاس بدلا من الأدارسة، رغم اعترافهم بالعبيديين. وتتضارب الأخبار في ترتيب وقائع حملات مصالة بن حبوس، على الأدارسة الى مكانها من هذه الدراسة. والنقطة الثالثة هي سجلماسة الذي خصص لها حملة ساحقة في محرم 309 هـ/ ماي 921 م.

(37م) تضاربت المصادر في التأريخ للحملة الثانية التي قام بها مصالة بن حبوس في المغرب الأقصى. وناقشت الدراسات الحديثة هذه المسألة وأهمها ترجيح الدكتور سعد زغلول عبد الحميد (تاريخ المغرب العربي 3/88-89) والدكتور فرحات دشراوي (Le Califat Fatimide du Maghreb) الأصل الفرنسي ص151 وهوامش الدراسة. ورجحت أن يكون تاريخها هو سنة 308 هـ/ 920 م وهي السنة التي حددها (ابن عذاري 1/183)، وكانت حملة .../...

سواحله وتقريب زعمائه وخاصة خصوم العبيديين، وليس في الساحة إلا مكناسة موسى بن أبي العافية ومغراوة بزعامة «بني خزر». وهنا نعالج هذا الوضع القبلي ضمن التدخل الأندلسي في المغرب.

ثانيا : التدخل الأندلسي وقبائل المغرب الأقصى في بداية القرن الرابع الهجري/10 م.

في الفقرة السابقة التي عنوناها بـ «السياسة القبلية الأندلسية في المغرب الأقصى» من هذا الفصل، هدفنا بها إعطاء التصور الداخلي الحضاري والإجتماعي لأهل الأندلس عندما يتعاملون مع «أهل المغرب الأقصى» ولو كانوا في خدمتهم، والآن نولي وجهتنا نحو الداخل المغربي وتأثره بتلك العلاقات.

على المستوى العام الذي كانت عليه الوضعية الدولية في حوض البحر الأبيض المتوسط في الربع الأول من القرن الرابع الهجري /10 م. فقد بدأت الخلافة العبيدية تخطط بل وتنفذ مشروع السيطرة على شرق

.../... شاملة تبدأ من الشمال بنكور ثم فاس حيث تحقق فيها الاجهاز على «أدارستها» بالقبض على أميرها يحيى الرابع، وصادر أمواله. ولعب موسى بن أبي العافية دورا كبيرا في هذه النهاية الأليمة. وأسند مصالة مهمة حكم المدينة إلى أحد رجاله وهو ريحان الكتامي بدلا من موسى ابن أبي العافية. وقد أثر اختلاف المصادر في بداية حملة مصالة الثانية على ضبط تاريخ وفاته في حربه مع محمد بن خزر رئيس مغراوة. وبعد فحص المصادر ومقارنتها مع سياق الأحداث خلصنا إلى ترجيح التاريخ الذي ذكره ابن عذاري. أنظر: ابن عذاري: البيان 189/1 وقارن مع ابن خلدون العبر 44/4 ، 46 ، 25/7 ، فرحات دشراوي: نفسه ص151. وهامش 194. الداعي إدريس: عيون الأخبار (تحقيق محمد اليعلاوي) ص214 وهامش المحقق 117 .

المتوسط، وأخذت توجه الحملات تلو الحملات نحو «فتح مصر» عبر طرابلس، وتنظم بحريتها في مقابل البحرية البيزنطية والبحرية الأندلسية. ففتحوا بذلك جبهة جديدة أشد وأعتى، مما فتحوه في الواجهة البرية مع قبائل البربر لتأمين طرق التجارة الصحراوية. أما الخلافة الأموية فقد واجهت ظروفا لا تقل أهمية وخطورة عن المشروع العبيدي الفاطمي، ففي الشمال الأندلسي كانت الجبهة النصرانية تهدد الخلافة وتنظم نفسها لحرب الاسترداد الاسباني، وفي البحر كانت هجومات «النورماديين القراصنة» تصل إلى عمق الخلافة، كما كانت البحرية المسيحية تارة تعقد هدنة مؤقتة، وتارة تهاجم الأسطول البحري الأندلسي.

كل ذلك كان يشكل قضايا كبرى دولية بالنسبة للنظامين الاسلاميين في غرب البحر الأبيض المتوسط، فتحول الى معالجته « بؤر الفكر السياسي». وأصبحت بذلك القضايا الداخلية في المرتبة الثانية، ومن هنا تركت معالجتها للقادة العسكريين في أماكن نفوذهم، وهذا في رأينا هو الذي أظهر العلاقات بين القبائل في المغرب ودولتي الخلافتين. أشبه ما تكون بحركات التمرد أو « الانفعال الإجتماعي» لا يتطلب إلا التأديب أو «حملة تهدئة». وفي هذا المستوى طرحت مسألة الروابط بين المغرب والأندلس، وهي في بعدها التاريخي لا تلغي ولا تتجاوز البنية القبلية المحلية، بل تحافظ عليها، وتعمل وتشجع خلق الانقسام الداخلي إذا كان مؤديا الى تحقيق مصالح المتدخل من الخلافتين.

وكان رجال البحرية الأندلسية من المطوعة والمرابطة، وكان عددهم في الغالب كبيرا. وكانت سواحل المغرب (العدوة) مثل سبتة ونكور ومليلية وأرشقول ومرسى فروج، وطنجة وأصيلا، عامرة برجال البحرية الأندلسية. وهذا يعني من وجهة استنتاج آخر، أن العلاقات بين الأندلس والمغرب

الأقصى خاصة في بداية القرن الرابع الهجري/ 10 م كانت لها وجهة «سلمية» هدفها النقل والتجارة، وكان هذا النشاط البحري الأندلسي في كلتا الحالتين عظيما، كما كان معظم الملاحين من المولدين والمتعربين والبربر. وكان «عرفاء البحرية الأندلسية» يتصلون بقبائل البربر ينظمون معهم « أمور التجارة» وفي نفس الوقت قد يحدث سطو القبائل على الموانئ التي تمركزت فيها البحرية الأندلسية، ويحدثنا البكري[38] عن هجوم القبائل على وهران سنة 297 هـ/ 910 م.

(38) البكري: المسالك ص738 فقرة 1238 ، ص755 فقرة 1266 . وهذا الهجوم يزامن ميلاد الخلافة العبيدية وهجومها الأول والأكبر على تاهرت مركز الإمارة الرستمية. وكانت مغراوة هي سيدة الجهات الوهرانية. وجميع المصادر تذكر أن الوضعية القبلية في المنطقة كانت غير مستقرة. ومن هنا يظهر أن مسألة وهران في آخر القرن الثالث الهجري /9 م لا يمكن تفسيرها إلا ببداية الصراع على منافذ الطرق البحرية والبرية بين القوات المعاصرة، فالاحتكاك الذي وقع بين « زناتة » و « العبيديين الفاطميين » الذي بدأ في الجهات الغربية، وأدى إلى خروج «شيخ المشايخ» لضبط هذه الجهات للعبيديين، أدى كل ذلك إلى خلافات داخلية بين القبائل الرافضة لطاعة العبيديين، والقبائل التي قبلتها طوعا أو كرها (القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ص259). ومن الطبيعي أن يحتدم الصراع على وهران المرفأ المغربي الأندلسي في المنطقة الغربية. وكانت القبائل الداخلة في هذا الصراع هي: «أزداجة»، و «عجيسة» الذين دخلوا في التجمع المغراوي، ثم بنو يفرن. وهذا ما يجمله المؤرخ الجزائري «أغا بن عودة المزاري» بقوله:« وولى عليها من قبله محمدا بن أبي عون الشيعي، فهو أول عامل للشيعة بوهران، وأول من ملكها من الشيعة «دواس» عامل عبيد الله الشيعي. فعمت الرافضة المغرب الأوسط، وانقطع حكم المروانيين منه بالكلية. وخرج حكم وهران من يد الدولة الأموية، ودخل في يد الدولة الشيعية». أنظر: أغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا الى أواخر القرن التاسع عشر (تحقيق ودراسة الدكتور يحي بوعزيز) طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990 ج1 ص119-120 .

كان الزحف العبيدي الفاطمي قويا في بداية القرن الرابع الهجري /10 م على الجهات الشمالية والجنوبية من المغربين الأوسط والأقصى، بحيث انحصرت منطقة الأحداث بين مدينة تاهرت ونكور وفاس وسجلماسة. وهذا في الواقع يعبر على أن الفاطميين العبيديين كانوا يهدفون الى عزل الأندلس عن الواجهة الافريقية كلية، ولكن الموقف الأندلسي في هذه الفترة (300 هـ/913 م - 320 هـ/932 م) فضل الابتعاد عن المواجهة مع العبيديين، وترك الساحة فارغة عسكريا، واستمرت الجيوش الفاطمية تواصل حملاتها في المنطقة، وأدى ذلك الى دخول تاريخ هذه الجهات المغربية في حقبة مضطربة، تطغى عليها الصراعات القبلية المحلية. وصار الولاء للنفوذ العبيدي الفاطمي، ونقض هذا الولاء، أحد العوامل المباشرة لتكوين «الأحلاف القبلية» أو نقضها. فطاعة النفوذ الشيعي صارت تعني عند القبائل تكوين حلف قبلي، وهذا ما كانت عليه القبائل التابعة لموسى بن أبي العافية في (298 هـ/911 م إلى 318 هـ/930 م)، ولكن هذه الطاعة لا تعني بقاء أسرة حاكمة سياسيا، وهذا ما حدث للأدارسة في فاس خلال أحداث هذه الفترة الزمنية. وهنا يكمن الفرق بين المعركة ضد سلطة حاكمة معترف بها مثل الأدارسة في فاس، وبين طموح قبلي بدوي تتزعمه مشيخة قبلية كما هو الحال في مكناسة تازة ومن انضم اليها من القبائل.

فالضربة التي وجهها الجيش العبيدي الفطمي، بقيادة «مصالة بن حبوس» «لأدارسة فاس، أعطت تشتت الأمراء ورجال دولة قائمة ولو في فترة ضعفها وملاحقتهم في كل مكان. أما تهميش الزعامة القبلية المحلية وعدم الثقة فيها. فقد أدى الى تشتيت مؤقت للتجمع القبلي. الذي ما لبث أن أعاد تنظيمه مرة أخرى، بتوفير مؤهلات التضامن القبلي له. وهذا ما حدث

لمجموعة القبائل التي اعترفت بزعامة موسى بن أبي العافية، عندما دخل في طاعة الخلافة الأموية الأندلسية سنة 319 هـ/ 932 م.

فالموقف السلبي الأندلسي مع قبائل المغرب في العقدين الأولين من القرن الرابع الهجري /10 م. والاجتياح الساحق للعبيديين آنئذ على المغرب، أنتج كل ذلك وضعية انشطارية في الداخل، وأظهره وكأنه أرض بدون أهل أو على الأصح بدون سلطة. وما أن تمكن عبد الرحمان الناصر من توطيد سلطانه في الأندلس وقضى على الثورات الدخيلة عليه في الأندلس مثل ثورة ابن حفصون التي هددت خلافة قرطبة من الجنوب، حتى بدأ الموقف الأندلسي يتغير، وبدأ بالعطف على زعماء القبائل الذين أبعدهم الفاطميون من النفوذ ورئاسة قبائلهم، ثم انتقل الثقل الى التدخل المباشر. وفي كلا الموقفين اتبعت قرطبة سياسة عدم المواجهة العسكرية مع الفاطميين، وتركت المسألة لرؤساء القبائل المعارضةللتدخل العبيدي الفاطمي في المغربين الأوسط والأقصى. ولعل الصياغة المصدرية أعطت تصورات للروابط القديمة بين الأمويين وقبائل المغرب التابعة للحلف الزناتي، أشبه ما يكون بالأسطورة منها إلى الحقيقة.

وهنا تطرح أمامنا مسألة «النظرية السياسية» وتكوينها الديني، تلك النظرية التي اعتمدت في الحكم سواء عند الفاطميين الشيعة الاسماعيلية، أو عند الأمويين الأندلسيين السنة. وكان العبيديون السباقون الى العمل من أجل فرض نظريتهم بكل ما لديهم من الوسائل. ثم في المقابل سعت الخلافة الأندلسية الى تطوير نظرية الخلافة السنية لمعارضة الاتجاه الشيعي. فهل فعلا كان الصراع العبيدي الشيعي الاسماعيلي مع الأمويين الأندلسيين صراعا مذهبيا في المغرب الأوسط والأقصى؟

مجتمع المغرب الأقصى والصراع المذهبي
في القرن 4هـ/ 10 م

لا تفسر العملية التاريخية التي أدت الى هيمنة وانتشار القيم الدينية الاسلامية في المجتمع القبلي المغربي المتنوع التركيب في القرن الرابع الهجري 10م. إلا بربطها بأنماط تنظيماته الإجتماعية الداخلية التي أصبحت إسلامية بخضوعها لعملية تحويلية حقيقية أنتجتها فيه ما يمكن أن نسميه « الكمياء الإجتماعية»[39] وتاريخ الروابط بين كل فئة على حدة مع الدولة الإسلامية المركزية يبرهن عن قوة أو ضعف تلك البنيات الداخلية في مختبر التحويل الإجتماعي. وفي هذا المستوى تتحدد طبيعة « الهوية المحلية في المغرب»[40].

إن البحث في مسألة المجتمع المغربي، وتأثره بالصراع المذهبي الذي دار في القرن الرابع الهجري 10/ م. هو في نفس الوقت بحث في مفهوم «السيادة والسلطة» التي عملت على تقبله لها. فالمجتمع القبلي والحضري بالمغرب مجتمع إسلامي منذ إكمال الفتح الإسلامي في القرن الأول

---

(39) نقصد باستعمال مصطلح « الكيمياء الإجتماعية » التصورات في صراعها بين الثبات والانقراض في الحياة اليومية والسلوكية وما ينتج عن ذلك من قيم ويستعمل من أساليب الادراك الاجتماعي. و بالتالي ما ينتج من الخطاب الديني لتعديل الموروث الإجتماعي القديم قبل عصر الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الكبير.

(40) وقد دقق الأستاذ محمد أركون بقوله «أقصد بالهوية هنا العقائد والعادات والفنون وطراز الاندماج البيئوي مع الطبيعة والذاكرة الجماعية ونظام القرابة وتقسيم العمل وكل المعطيات التي تشكل أرضية الوجود اليومي». م،اركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي (ترجمة هاشم صالح) منشورات مركز الانماء القومي/ بيروت 1986 ص104.

الهجري /7 م. ويكفي للدخول في منظومة «الأمة الإسلامية» بمجرد هذا. لكن من المؤكد أن مبدأ الخضوع لأولائك الذين يمسكون بالسلطة هو شيء يعبر عن غريزة البقاء لمجتمعات مهددة في وجودها[41]. فالوضع إذن يحمل مضمونا اجتماعيا للربط بين « القوى المركزية» والجهات التابعة لها والتي تعتبر في نفس الوقت مجالا للتنافس والصراع، فأدى هذا الوضع الى أن يمتزج الخطاب السياسي للسلطة المركزية، بالمؤطرات المعنوية الروحية السائدة أو الغالبة في عصرها «فالخطاب السياسي للقادة يدين تمرد المجموعات القوية التي تحاول الحفاظ على استقلاليتها الذاتية»[42].

وهكذا انحصرت الظاهرة السيادية في عصر دراستنا بين ثلاثة مراكز قيادية: سلطة الدولة وتتشخص في «دولة الخلافة» و «سلطة الإمارة» وتنتشر في الأطراف أو الجهات التابعة. وسلطة القبيلة وتضبط في البناء الاجتماعي ولكن هذه الأخيرة منتشرة في كل مكان ومن طبيعتها النمو والتطور والانشطار، فهي أساس للتماسك كما أنها «بارود ناسف» فتكونت السيادة في مغرب القرن الرابع الهجري /10 م في بناء دائري النظام: الدائرة الكلية وهي الخلافة العليا. وهذه بدورها أنشطرت الى ثلاث خلافات اسلامية: عباسية، وفاطمية، وأموية. نحن إذن في عصر الانشطار الإسلامي. والدائرة الوسطى وهي الإمارات المحلية تمتاز باستقلالها الجهوي وهذه هي مناط وهدف الصراع المذهبي. وهذه من طبيعتها الدفاع على محدوديتها المكانية، ومثالنا على ذلك الإمارة الادريسية، ثم الدائرة الصغرى وهي دائرة القبيلة. من جزئية الزعامة الى كلية الحلف وهذه تظل محصورة في الدفاع على خصوصيتها المصلحية.

---

(41) م.أركون نفسه ص179 .

(42) نفسه ص184 .

فالنظرية السياسية بنيت على هذه « الأقاليم الثلاثة». فالنظرية «الشيعية» ركزت بشدة على أن السيادة سيادة إلهية. ولا يمكن أن تكون من غيره. ولا يمكن أن تصل الى بني البشر إلا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، فهو واسطتها الشرعية ومن النبي تنتقل الى «أوليائه» وأولياؤه هم الأئمة الذين استودعوا الأمانة التي يتوارثونها، وأول الأئمة « علي بن بي طالب». وهذا في مجمله أن المجتمع لا يحسم بنفسه أي شيء من الأشياء المتعلقة به، وبذلك يكون تاريخه الحاصل هو تاريخ خارج عن إرادته ووعيه الإجتماعي. ونعتقد إن المعنى الإجتماعي لخطاب العقيدة الإسماعيلية، والمحدود في قولهم: أن الخلافة توقيفية وليست مصلحية. هو الذي حملهم على الدفاع العقائدي المرير في التراث الشيعي الفاطمي(43).

1- النظرية الشيعية للخلافة في المغرب

فنظرية «الخلافة الشيعية الفاطمية» تمحورت حول شخصية «علي بن أبي طالب» زوج بنت النبي فاطمة الزهراء في مستواها التطبيقي، وفي معناها الإجتماعي حاول نظامها انتاج «هرمية اجتماعية دينية» تقديسية للأئمة. و بالنسبة لتاريخ الميلاد التاريخي لهذه النظرية، يصعب علينا في هذه الدراسة تحديد تاريخ اللحظة الزمنية التي انبثقت فيها هذه

---

(43) نحيل بوجه خاص على القاضي النعمان في كتبه:
- دعائم الإيمان، نشر دار المعارف بالقاهرة. وشرحه.
- تأويل الدعائم في 3 أجزاء تحقيق محمد حسن الأعظمي طبعة دار المعارف بمصر.
- كتاب الهمة وأداب الأئمة طبعة مصر د.ت .
- أصول المذاهب ط بيروت . (د.ت)،

النظرية، كما يعسر علينا بيان كيف تطورت وركزت على فكرة « الخلافة الشرعية» ذات الأصل الديني الشيعي، ولعل جهود اخوان الصفا، هي أهم الجهود التي أثمرتها معرفيا ونظريا[44]. وحاولت إثبات بناء نظرية الخلافة الشرعية، على أن «الامام» في النظام الشيعي هو الوارث الروحي للنبي عليه الصلاة والسلام. وبذلك هو المرجعية الحقيقية والكاملة للسيادة العليا في نظام الخلافة الفاطمية، ومن هنا تقررت فكرة « عصمة الأئمة» بمعنى تنزيههم عن الخطأ. والعصمة هنا مبدأ روحي وسياسي خاصة ومحصورة في الأئمة لا تتعدد ولا تتجزأ. ويترتب عليها بناء سلطة عليا هي سلطة الخلافة الشيعية الفاطمية، تفرض وجودها ولا تقتنع بالأمر الواقع[45]. فالشيعة الاسماعيلية يعتقدون أن الإمام معصوم لأنه يرث عن النبي ذاته. ولذلك كان قادرا على كشف أسرار كلام الله للمؤمنين. كما تمكنه هذه القدرة على تسيير أمور هذه الدنيا وقيادة البشر. ويعني هذا منطقيا ومن وجهة بحثنا، تجسيد الوحي في التاريخ البشري الأرضي. ويتولى فقهاء الشيعة (القاضي النعمان مثلا) نقل العلم الى المؤمنين نيابة عن الأئمة حتى في حالة غياب الأئمة. ومن هنا كان الإتجاه الشيعي يعتبر فقهاءه أعلى درجة من فقهاء أهل السنة. ولعل هذا هو ما يفسر مكانة «الفقيه» في النظام الشيعي

---

(44) نحيل بالخصوص على دراسة الدكتور محمد فريد حجاب: الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة/ 1982 ص 375-462 . وأبحاث المستشرق هنري لاووست حول التشيع.

(45) لا نحاول الخوض في تحليل المضمون « الكلامي » للعصمة فقد انجزت أبحاث كثيرة في الموضوع، ويكفي أن نحيل على دراسة الدكتور أحمد محمود صبحي تحت عنوان « نظرية الامامة لدى الشيعة الأثنى عشرية »، طبعة دار المعارف بمصر، 1969 ص125-129 ، 398 وما بعدها.

الاسماعيلي، في المجتمع والدولة الشيعية على حد سواء[46].

وهنا نسجل أن النصف الثاني للقرن الثالث الهجري /9 م، هو المرحلة التي تحققت فيها عملية الانجاز المذهبي الشيعي وخاصة على المستوى المفهومي المصطلحي بخصوص «نظرية الخلافة الشرعية» حيث تحددث فيها ضوابط التقاطع بين الاتجاهات المذهبية الأخرى، من سنة وخوارج. فصارت «سلالة النبي» أساسا تنفيذيا للخلافة. والعصمة[47] مبدءا تنزيهيا للعمل التطبيقي ووسيلة للاقناع الروحي.

و بالنسبة لأثر هذا الاتجاه الشيعي الاسماعيلي في مغرب القرن الرابع الهجري /10 م نرى أن مسألة العمل الفاطمي في المغرب الأقصى لم

---

(46) نحيل على أهم المصادر والدراسات التي ساعدتنا في استخلاص التصور العقائدي والسياسي للشيعة الاسماعيلية في أصولها الأولى ودورها الافريقي:
- القاضي النعمان: رسالة افتتاح الدعوة (تحقيق ودار القاضي)، طبعة دار الثقافة بيروت 1970 .
- الشهرستاني وابن حزم: الملل والنحل، وبهامشه الفصل في الملل والأهواء والنحل المطبعة الأدبية بمصر 1317 هـ
- أبو العرب محمد بن تميم القيرواني: طبقات علماء افريقية، طبعة تونس 1968 .
- الخشني محمد بن أسد: طبقات علماء افريقية، نشر ابن أبي شنب، طبعة باريز 1914 .
- المالكي: رياض النفوس، طبعة تونس في جزئين.
- الموسوعة الاسلامية في طبعتها الجديدة. جميع المقالات المتعلقة بالاسماعيلية والتشيع.
- Habib Feki:Les Idées Religieuses et Philosophiques de l'Ismailisme Fatimide, Tunis 1978 (P.U.T)

(47) كتب الكثير حول هذا الموضوع على المستوى العقدي النظري، لكن معالجة مضمونها السياسي التطبيقي لم يحظ بعد بما يكفي من البحث ومن هنا نحيل على عملين حديثين في الموضوع: محمد أركون: الاسلام الأخلاق والسياسة(ترجمة هاشم صالح) ط مركز الإنماء - بيروت 1990 ص149 .
- W.Madelung et E.Tyan: Isma: Encyclopédie de L'Islam (N.E), T.IV, pp.190-192. CF.

تطرح بجدية مذهبيا كما طرحت في القيروان وافريقية كلها (المغرب الأدنى). وبفحص مصادر المرحلة ظهر أن الصراع في هذه الجهات الغربية كان على المصالح الاقتصادية والاستراتيجية أكثر مما كان عقديا ومذهبيا. إذا قارناه بما كان يجري في الجهات الشرقية ومراكزها الفكرية مثل القيروان وغيرها. فهل يرجع الأمر الى الاختلاف بين الجهتين على المستوى الحضاري؟ أم الى أن مركز التنظير المذهبي والإنتاج العقلي والفكري كان ثقله في القيروان حيث كان علماء وفقهاء المغرب وصناع تراثه العقلي منذ الفتح الإسلامي للبلاد المغربية كلها؟

الواقع أن عصر دراستنا عرف نفوذ «الأدارسة»[48] منذ نهاية القرن الثاني للهجر /8 م، وخاصة مع بناء مدينة فاس في آخر هذا القرن، الى

(48) ما زالت الدراسات المتخصصة عن الأدارسة محدودة، ومحدودة جدا، مما يترك اكتشاف تاريخ المغرب الأقصى في عصرهم غير مفهوم في كثير من جوانبه. ورغم الجهود الفردية التي يبذلها الباحثون فإن الدراسات حول الموضوع لا تخرج عن سياق معالجة التاريخ الإدريسي ضمن التاريخ العام على مستوى العلاقات الخارجية مع الأغالبة أو الخوارج، في بلاد المغرب أو الأندلس، أو على مستوى التاريخ الإسلامي العام. أما الرؤية المجهرية فما زالت محدودة جدا. ولكن بدأت تظهر «قراءات» فقط للأدارسة من زاوية المصادر الدينية والمذهبية. وهذا ما حاول الدكتور محمود اسماعيل في بحثه الأخير « الأدارسة في المغرب الأقصى، حقائق جديدة » طبعة مكتبة الفلاح، الكويت، ط1 سنة 1989 في 200 صفحة. وإما قراءة لصورة إدريس الثاني وسلالته بفاس وتأثر تلك الصورة بالسياسة الشريفية المرينية. وهذا ما حاوله الباحث الهولندي « هرمان.ل.بيك L.Beck في بحثه بعنوان :
L'image d'Idriss II, ses descendants de Fas et la politique Sharifienne des Sultans Marinides , (656-869/1258-1465), Edition E.J.Brill, Leiden, 1989.
كما كتبت دراسات لها أهميتها ولكن ضمن تاريخ المغرب العربي الكبير كما فعل الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في دراسته: «تاريخ المغرب العربي » في 3 أجزاء، والدكتور سيد عبد العزيز سالم « المغرب الكبير » ج 2 والدكتور حسين مؤنس « تاريخ المغرب وحضارته » في جزئين ودراسات الباحثين الأروبيين مثل ما كتبه ش.أ.،جليان. و هـ.طيراس وأبحاث المغاربة المعاصرين وخاصة كتاب الأستاذ عبد الله العروي.

أواسط القرن الرابع الهجري /10 م أي الى حوالي 375 هـ/ 986 م. ولكن هذا النفوذ لم يكن ضمن نظام سيادي دقيق بل يكاد لا يخرج في أساسه على طبيعة النظام القبلي الطاغي في المغرب عموما، وظهرت «الامارة الادريسية» محصورة في مدينة فاس، ولا يمثل الأدارسة في خارجها الا صورة روحية فقط[49].

فالأساس السلالي النسبي لإدريس الأول كان من أبناء على ابن أبي طالب فهو «إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وفاطمة الزهراء بنت النبي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم». أما الأساس المذهبي للأدارسة، فإن المصادر المتخصصة في هذا الإتجاه تجعلهم من «العلويين الزيدية»[50] وأهم من رتب الأدارسة ضمن الشيعة الزيدية هو أبو الحسن الاشعري[51]. ويمكن أن نقرر ما انتهى إليه علال الفاسي في دراسته للوثيقة التي نسبها للمولى إدريس الأول :« فكل ما يمكن أن يقال عن المولى إدريس كان سنيا زيدي الاعتقاد السياسي»[52].

---

(49) نتفق مع ملاحظة الدكتور محمد الطالبي « لم يحرر بعد تاريخ قيام الأدارسة المتشبع بالغموض، ولا يجب فصله عن الغليان – الذي لا يقل غموضا – السياسي والديني المسيطر على المغرب آنذاك». الدولة الأغلبية ص395 .

(50) الشهرستاني، وابن حزم: الملل النحل وبهامشه الفصل في الملل والنحل، ج1 ص315 . عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق. المهدي لدين الله أحمد بن يحيى بن المرتضى اليمني (تـ 840 هـ/ 1437 م)، المنية والأمل في شرح الملل والنحل ص20-21 . علال الفاسي: المولى إدريس الأكبر . دراسة نشرها بمجلة الوثائق العدد الأول ص37-46 . هاشم معروف الحسيني: الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة.

(51) الأشعري:مقالات الاسلاميين، ص65-85 الاصفهاني: مقاتل الطالبيين ص468 .

(52) علال الفاسي: المولى إدريس، مجلة الوثائق العدد الأول الرباط ص46 وما بعدها. عبد اللطيف السعداني: إدريس الإمام منشئ دولة وباعث دولة،) مجلة كلية الآداب/ فاس، عدد 4-80/5-1981 ص7-32 .

ورغم هذه الجهود من الباحثين لاثبات الاتجاه الشيعي الزيدي لإدريس الأول وخلفه في الامارة، فإن المنتوج الفعلي على مسرح التاريخ المغربي لم تظهر نتائجه وآثاره، مما يحملنا على عدم القطع بكل ما جاء في تلك الآراء. « فلم تنبت البذرة الزيدية في تربة الخوارج » كما علق على ذلك الدكتور محمد الطالبي(53). فالمغرب الأقصى في نظر «المشارقة» طيلة القرون الثالثة الأولى من التاريخ الإسلامي، ما زال غامضا، كما سبق أن بينا ذلك في الفصول السابقة. ومن هنا جاءت الأخبار التي قدمتها عليه المصادر الشرقية أخبار تعميمية وغير واضحة وتكاد تكون إسقاطية.

إذن كيف نواجه هذه المسألة؟ وكيف ننظر الى مشكلة الاستجابة المغربية القبلية في البوادي والحواضر للتأطير المذهبي، سواء كان هذا التأطير الديني على مذهب الخوارج أو الشيعة أو السنة؟

نعتقد أن المستوى الاستيعابي للنظام القبلي المغربي في القرنين الثالث والرابع الهجريين /9-10 م ما زال بعيدا عن « التجييش المذهبي » فالمسألة ملتصقة بمصالحهم المادية اليومية يتحركون في سبيلها حسب ظروفهم الإجتماعية المحلية(54). وعليه كيف نفسر ما ذكرته مصادر الفرق

---

(53) محمد الطالبي: الأغالبة، ص396 .

(54) اعتبر أستاذنا الدكتور محمود اسماعيل ظهور بعض النصوص الزيدية في المشرق الاسلامي، ذات أهمية مصدرية كبرى بالنسبة لتاريخ الأدارسة في المغرب الأقصى، وهذا الرأي في نظرنا لا يقبل إلا إذا كان ينص صراحة على الممارسة المذهبية الزيدية في المغرب. ولم نجد ذلك، رغم أن الدكتور محمود اسماعيل اعتبر كتاب « نصرة مذاهب الزيدية » للصاحب اسماعيل بن عباد (تحقيق الدكتور ناجي حسن) طبعة بغداد 1977 . فتحا يساعد على «التاريخ بثقة لقيام دولة الأدارسة». أنظر: الدكتور محمود اسماعيل: الأدارسة في المغرب الأقصى، ص12 .

والمذهب من وجود إمارات معتزلية مثل إمارة البربري إبراهيم بن محمد المعتزلي وعاصمتها أيزرج؟ وكيف يتأتى لنا أن نقتنع علميا بأن الإطار النظري المذهبي للأدارسة كونه الاعتزال بناء على أن زعيم أوربة بوليلي «أباليلى اسحاق بن محمد أو (عبد الحميد)» كان معتزليا؟ و بالتالي نطرح السؤال الأخير وهو ألا يكون ذلك نتيجة لما كان يجري في المشرق الإسلامي مركز الخلافة العباسية، وعممت كتب الفرق ذلك على أطراف الخلافة؟

فالنظرية الزيدية في الامامة، نظرية معتدلة جدا إذا قارناها بالنظرية الإسماعيلية، وقد تعرضت لذلك جميع كتب الفرق بالإضافة الى ما جاء عند «الصاحب اسماعيل بن عباد» صاحب كتاب «نصرة المذاهب الزيدية»[55]، فالعمل الزيدي الإدريسي في المغرب الأقصى لم يقم على «دعوة إمامية منظمة» مذهبيا مثل ما حدث في الحركات الأخرى. وإنما كان قائما على ظاهرة «الأمر الواقع» في المغرب الأقصى، وهذا الأمر الواقع هو متابعة ومظاهرة « البناء القبلي»، فاختيار «إدريس الأول» أميرا يغلب على الظن

---

(55) نعتمد هنا على نقول الدكتور محمود إسماعيل في دراسته الجديدة عن الأدارسة، (أنظر ص23 ، 24 ، 25) ومجموع تلك الآراء لخصها قبله الصاحب إسماعيل أحد علماء الشيعة وهو أبو حاتم أحمد ابن حمدان الرازي (توفي أوائل القرن الرابع الهجري) في كتابه المشهور بكتاب «الزينة» بقوله : «قالت الزيدية من دعا الى طاعة الله من آل محمد فهو إمام مفترض الطاعة». أنظر: الدكتور عبد الله سلوم السمرائي: الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية (ونشر معه كتاب اليزنة)، طبعة دار الحرية للطباعة- بغداد 1972 ، ص300-301 وناقش الدكتور محمد الطالبي مسألة آراء كتب الفرق في مستواها التطبيقي وعلى ضوء الأحداث التاريخية الناتجة منها، وقد أغنانا عن التوثيق في هذا الصدد.(أنظر محمد الطالبي، الأغالبة ص.ص 396-398 وهوامش 129-144) ثم قارن بما جاء عند الدكتور محمود إسماعيل: الأدارسة ص49-69 وكذلك ما جاء في دراسته: الخوارج في بلاد المغرب ص136-137 .

أنه كان مبنيا على «الفراغ السياسي» الذي ساد البلاد في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة /8 م.

وتطورت الإمارة الإدريسية تطورا قبليا ولم تتطور تطورا مذهبيا. وكلما تعرض النظام القبلي لهزة اجتماعية، إلا وتعرضت الإمارة الإدريسية لنفس النتائج. وإذا لم تعالج الظواهر في هذا المستوى لا يتأتى فهم مجريات الأحداث والمسار التاريخي في أنساقه الإجتماعية العامة.

صحيح أن قيام الإمارة الإدريسية في المغرب الأقصى «لم يكن نتيجة صدفة عفوية، أو مجرد هروب من خطر العباسيين»(56) ولكن لا نستطيع القطع أو الجزم بأن الأمر راجع الى «تنظيم دقيق لتأسيس دولة علوية بالمغرب الأقصى». ومن هنا علينا بدراسة النظام الإجتماعي للمغاربة، وخاصة في منطقة الشمال وحوض سبو. فالتحليل الداخلي لتلك البنيات يعطي، أن السكان كانوا يعانون من الانقسام والانشطار القبلي، وانعدام «الأمن الاجتماعي». فالمسألة ليست مسألة نظرية مذهبية، بقدر ما هي تضامن اجتماعي محلي تتزعمه «أوربة» قبليا وتؤطره الفكرة الدينية الإسلامية عموما، وجدت في شخص «إدريس الأول» مثالها النموذجي. أعني هنا وبوجه خاص، أن «الإمارة الإدريسية» خضعت من الزاوية الإجتماعية لسلطة التنظيم القبلي المبني على الأحلاف. ولهذا لم ترق الى مستوى تنظيم الدولة أو «دولة الخلافة» ومن هنا جائت هشاشتها السياسية في نظرنا(57).

(56) محمود إسماعيل: الأدارسة ص51 .

(57) لسنا بصدد تحليل ودراسة لقيام الدولة الإدريسية، ولكن أوضاع هذه الإمارة في القرن الرابع الهجري /10 م حملنا على الرجوع الى البدايات. ورغم كل شيء فإننا نسجل تأثر تاريخ الأدارسة بآراء المؤرخين الذين كتبوا عنهم في العصر المريني: وكأن تاريخ الأدارسة ما هو في الحقيقة إلا .../...

فالنسيج التاريخي الأرضي لا نجده في الغالب معبرا عليه في التراث العام المكتوب خصوصا إذا لم يلتصق بتربة الحدث التاريخي. لأننا مطلوبون منذ الآن بالتمييز بين الوقائع المحسوسة، وبين التصور الذهني الخاص بالوقائع

إن مفهوم «التاريخية» يجبرنا على أن نعيد النظر في التاريخ المغربي المكتوب، فالمصادر عموما، وحتى الأبحاث الحديثة «ضخمت» المضامين المعنوية للوقائع والرجال والزعماء أكثر مما يلزم، فجاءت الحقيقة تائهة بين الواقع والخيال، بين الإشادة والتمجيد والواقع الممكن، ومن هنا ظهرت « الانجازات التاريخية» غير متوازنة مع الأخبار بها، أو الدعاية لها. وظاهرة التضخيم ملموسة في التراث الشيعي، والسني، والخارجي. فالمغرب الأقصى قبل القرن الرابع الهجري 10/ م يظهر- في نظري- أنه لم يكن تربة لميلاد مذهب نظري سياسي، وإنما كان حقلا ومجالا لحياة عملية تتزاحم في كل ذلك «أنظمة اجتماعية قبلية بدوية» قابلة لتقبل مؤثرات واقعية ما دامت لا تغير المعطى القبلي.

وبحكم طابع الصراع المذهبي، الذي كان « صورة خارجة» عن واقعه المحلي، وبحكم أنه كان يمثل جدلا نظريا على مستوى الفكر السياسي المتطور، فإن مستوى التقبل والاستيعاب والانتصار والتجييش الشعبي القبلي يكون من باب الافتراض فقط. وهذا ما جعل المفهوم الديني الإسلامي لا يتجاوز الاعتراف الروحي والممارسة الشعائرية بصورتها المبسطة المقبولة شرعا. ولعل أكثر المذاهب توافقا مع هذا المستوى هو الاتجاه السني، فالنظرية السنية المرنة سياسيا وروحيا هي أوفق وأنسب وأكثر توافقا

.../... تاريخ « للتصورات المغربية عنهم» في القرن الثامن الهجري 14/ م. ومن هنا كتبت دراسات حديثة على هذا المبنى التصوري وليس على الأساس التاريخي الوثائقي.

للمجتمع المغربي في القرن الرابع الهجري /10م.

لكن قبل أن نعالج النظرية السنية في الخلافة الأموية الأندلسية وتأثيرها في مغرب القرن الرابع الهجري /10 م. يهمنا أن نعالج الظاهرة «البجلية»[58] التي دخلت المغرب الأقصى، للتدليل على عدم التجييش لها شيعيا على المستوى الشامل، بل انكمشت في المناطق المنسية تاريخيا في مرحلة دراستنا، وهي منطقة جبل « درن » أو الأطلس الكبير.

البجلية في المغرب:

تعتبر «البجلية» ظاهرة دينية شيعية منتشرة في منطقة سوس المغربية[59]. وأول مؤرخ من مؤرخي « الفرق الإسلامية» الذي اهتم بهذه الجماعة هو «ابن حزم الأندلسي»(تـ 456 هـ/ 1064 م). فهو أول مصدر ذكر «البجلية» باسمها وحدد ملامحها نشأة وعقيدة[60] ومكانا. واسم البجلية مأخوذ من إسم الرجل المؤسس لها، فابن حزم يسميها «النحلية»[61] وقال:

---

(58) نحيل بالخصوص على بحث جيد للباحثة العربية الدكتورة وداد القاضي، بعنوان: « الشيعة البجلية في المغرب الأقصى» الذي قدمته للمؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، المنعقد بالجامعة التونسية/ مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والإجتماعية، والصادر ضمن مطبوع أشغال المؤتمر سنة 1979 من ص165-194 .

(59) نستعمل مصطلح سوس هنا بمعناه الجغرافي الحديث أي الجهات الغربية السهلية للأطلس الكبير، بناء على ما يمكن استخلاصه من كلام الجغرافي العربي ابن حوقل (صورة الأرض ص 90 فقرة 44). الذي يعتبر أول من أخبرنا بوجود البجلية الشيعة في سوس ولو لم يصرح بذلك. أنظر وداد القاضي: الشيعة البجلية ص168 .

(60) وداد القاضي: نفس المرجع ص168 وهامش 5 وهامش 6.

(61) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل طبعة التمدن المصرية 1321 هـ ج4 ص182-183 .

«ومنهم طائفة تسمى النحلية نسبوا الى الحسن بن علي بن ورصند النحلي» وقد صوبت الأستاذة وداد القاضي هذه التسمية بناء على النسخ الخطية الأصيلة(62). فانتهت إلى أن الإسم الحقيقي هو «البجلية» بالباء والجيم، كما قطعت بأن مؤسس هذه الفرقة بترجيح قريب من اليقين.، أن مؤسس البجلية كان يدعى«ابن ورصند البجلي» من أهل نفطة ببلاد الجريد من افريقية. والسؤال الأساسي هنا هو هل كانت نفطة مركزا للدعوة الشيعية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري /9 م؟ وحسب كلام القاضي النعمان(63)، فإن تشيع أهل نفطة كان أمرا مشهورا. كما كانت ولاية قسطيلية التي تعتبر مدينة نفطة منها، من أكثر الجهات الافريقية انتصارا للشيعة، وأشار محمد الطالبي(64) إلى أن: «قسطيلية كانت محلة هامة على طريق نشر المذاهب الشيعية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري الموافق للقرن التاسع الميلادي». ويبقى أيضا موضوع الشخص مؤسس البجلية في المغرب الأقصى، وهو « محمد بن ورسند (أو ورصند) بناء على ما جاء عند البكري(65) فقد حاول الدكتور الطالبي مقاربة هذا الإسم الى شخص توفي بقسطيلة يسمى بـ «محمد بن الحسن» المعروف بابن

---

(62) وداد القاضي: نفس المرجع ص170 وتابع المقارنات الدقيقة للباحثة في ص 171 .

(63) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة (تحقيق وداد القاضي) ص55 . وداد القاضي: الشيعة البجلية، ص173 . محمد الطالبي: الدولة الأغلبية ص-628 627 وهامش 74 وهامش 75 .

(64) محمد الطالبي: الدولة الأغلبية ص627 .

(65) البكري: المسالك ص161 طبعة دي سلان/ و ص852 فقرة 1424 طبعة تونس 1992 .

«ورصيد» قاضي قسيطيلية وذلك سنة 296 هـ/909 م بناء على رواية ابن عذاري في بيانه[66].

فابن ورصند انتقل الى بلاد سوس من المغرب الأقصى في القرن الثالث الهجري /9 م. ولكن دعوته (بناء على مصادرنا المستخدمة في هذه الدراسة) كانت عقيدة شيعية تحصر «الإمامة» في ولد « الحسن بن علي» من دون سائر أهل البيت. فهل لذلك علاقة بالأدارسة في المغرب؟ وتفترض الباحثة وداد القاضي أن يكون انتقال ابن ورصند قد حدث مع تعمير مدينة فاس[67] في عهد « إدريس الثاني 188 هـ/804 م-213 هـ/830 م». ورغم الجهد الذي بذلته الباحثة للتدليل على أن انتقال «ابن ورصند» الى المغرب كان في أوائل القرن الثالث الهجري /9 م. فإن أدلتها ترجع الى مصادر متأخرة وترجع الى العصر المريني وما بعده. وكلها تعطي « صورة متأخرة» عن العصر الإدريسي.

وفي جميع الحالات يبقى كلام أبي عبيد البكري[68] هو أهم محدد تاريخي حيث جاء فيه: «وعن يمين بني ماغوس قبيل يقال لهم بنو لماس،

---

(66) ابن عذاري: البيان، ج1 ص154 . محمد الطالبي: الدولة الأغلبية ص 627-628 وهامش 75 . ولم تتعرض الدكتورة وداد القاضي في دراستها عن البجلية إلى ما جاء عند الدكتور محمد الطالبي ومقاربته مع أنها ذات أهمية قصوى في توضيح أصول البجلية ص171 وما بعدها. ثم ص88 حيث انتقدت ما جاء عند البكري من أن مؤسس البجلية هو محمد بدلا من علي ورجحت إسم علي بن ورصند

L'Encyclopédie de l'Islam, T.I.P.888, 2ème Edit. Art. "Badjali".

(67) ابن أبي زرع: القرطاس ص14 ، 29-30 : ابن خلدون: العبر 13/4 . النويري: نهاية الأرب 65/22 . الناصري: الاستقصا 163/1 . وداد القاضي: الشيعة البجلية ص175-176 . حيث رأت الباحثة أن الأدارسة كانوا سنة (ص178).

(68) البكري: المسالك ص161 (ص852 فقرة 1424) طبعة تونس.

وهم كلهم روافض ويعرفون بالبجليين، نزل بين ظهرانهم رجل بجلي من أهل نفطة قسطيلية . قبل دخول أبى عبد الله الشيعي أفريقية يقال له محمد بن ورسند» لكن كيف نوفق بين اتجاه شيعي من افريقية (قسطيلية نفطة) ينتقل الى المغرب الأقصى ويتبنى إمامة الأدارسة في القرن الثالث الهجري 9/ م؟ فهل هناك علاقة بين فواطم إفريقية الاسماعيلية وفواطم المغرب الأقصى من الأدارسة؟ فأولائك فواطم مذهبيا وسياسة وهؤلاء فواطم نسبا فقط؟

المهم أن هذه الأسئلة تعتبر نتيجة للثغرة الموجودة في المصادر التي لا تغطي وثائقيا التاريخ الإدريسي في عصره الأول. ولذلك نقف عند هذا المستوى، لننتقل الى «العقيدة البجلية» كما قدمتها لنا المصادر الأصلية(69).

---

(69) نقصد هنا المظان الآتية:

1- بن حزم: الفصل ج4 ص182-183 ط القاهرة 1321 هـ

2- البكري: المسالك ص161 (852 فقرة 1424)

3- ابن رسته: الأعلاق النفيسة (طبعة دي غويه، ليدن 1891) ص118

4-الطبري: الرسل والملوك، ج7 ص127-128 ، ط دار المعارف مصر.

5- القاضي النعمان: دعائم الإسلام (تحقيق أصف بن علي أصغر) ط دار المعارف مصر 1951 ص62 .

6- البغدادي: الفرق بين الفرق، في صفحات كثيرة وخاصة ص.ص 53-59 ، 238-242 .

7- أبو الحسن الأشعري: مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين/ط المانيا 1980.

8-الاسفرايني: التبصير في الدين، طبعة مكتبة الخانجي بمصر 1955 ص43 وفي مواطن أخرى من الكتاب.

9- الشهرستاني: الملل والنحل (بهامش الفصل لابن حزم) ج2 ص13 .

10- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5 ص207-208 .

11- ابن حوقل: صورة الأرض ص 90 فقرة 44 .

ويهمنا من هذه العقيدة جانبها السياسي وليس الموقف العقدي. ولهذا نجد المصادر تتفق في نصوصها على أن البجلية:

1- يحصرون الإمامة في ابناء الحسن بن علي دون أبناء الحسين بن علي(70).

2- جعل البجلية في سوس الإمامة في أبناء إدريس بن إدريس الأول. الذين كانوا في اقليم درعة الذي كانت قاعدته مدينة «تيومتين»(71). في عصر ابن حزم (القرن الخامس هـ) . كان أحمد بن إدريس حفيد يحي بن إدريس الثاني إماما للبجلية في سوس درعة.

3- كانت البجلية قوة بشرية متمركزة في نواحي تارودانت في عصر ابن حزم(72).

4- ذكرت مصادرنا المؤرخة للبجلية أن الشعائر الدينية عند اتباعها مخالفة لأهل السنة.

5- كان اتباع فرقة «البجلية» بسوس يمتنعون عن أكل أشياء نباتية حددها لهم رئيسهم المذهبي وهو ابن ورصند، فقد كانوا لا يجوزون أكل شيء من الثمار زبل أصله(73).

---

(70) نلاحظ أن ابن حوقل سمى هذه الجماعة الشيعية بسوس باسم «الموسوية» وهذا ما يجعلها تقول بإمامة «الحسين بن علي» واعتبر رئيس هذه الجماعة هو «علي بن ورصند» ولم يذكر محمد بن ورصند كما ذكر البكري (ص 852/161) أنظر مناقشة المسألة عند الباحثة: وداد القاضي: الشيعة البجلية ص180-181 حيث قالت بالنص :« وقول ابن حوقل في غاية الغرابة ولا يثبت أمام التمحيص» ص181

(71) البكري: المسالك، ص161 (845 فقرة 1413).

(72) ابن حزم: الفصل ج4 ص183 . وداد القاضي: البجلية ص183 .

(73) وداد القاضي: الشيعة البجلية ص183-184 هامش 1 ، 2 .

6- وجوب الالتزام القبلي باتباع الاتجاه البجلي، فقد ذكر البكري وجود قبيلة بني لماس وبني ماغوس، باعتبارهم أنصار هذا الإتجاه حتى أنهم كانوا يعرفون « بالبجليين»[74]. وهؤلاء كانوا على خلاف في الرأي المذهبي مع «برغواطة». وأشار ابن حوقل الى هذا الخلاف «كان بينهما القتال والفتنة وسفك الدماء وطلب الثأر»[75]. ولا يعني هذا الصراع بين برغواطة وبني لماس وبني ماغوس وجود حرب مذهبية دينية قبلية، بقدر ما يعني وجود حرب على المجال الرعوي القبلي تلتحم فيه كل مقومات التنافس القبلي البدوي.

7- اباح الامام المذهبي « ابن ورصند » لاتباعه البجليين البيع بالربا، على أساس أنها بيع من البيوع، ولذلك جوز الربا لهم، وتعلق مصادر الفرق التي أرخت لهم بقولها أن ابن ورصند أحل لاتباعه « كل المحرمات»[76] وحاولت الباحثة وداد القاضي التخفيف من حدة هذا التعليق بقولها[77] «ولا شك أن ابن ورصند أراد أن يخفف من الأعباء الشرعية التكليف على من يدعوهم الى مذهبه».

هذه الظاهرة البجلية يتبين من مبادئها وجوانبها الاجتماعية أنها تمثل اتجاها تنظيميا توافقيا مع المجتمع المغربي القبلي في مرحلة دراستنا وهي القرن الرابع الهجري /10 م . خصوصا وأنها التجأت الى الجهات المنسية

---

(74) البكري: المسالك 161 (845 فقرة 1413).

(75) ابن حوقل: صورة الأرض ص 82 ، 91-92 . إن كلام ان حوقل في سياقه يقبل الاحتمالات كلها، ولكن فحصه داخليا يجعله وصفا أثنيا أكثر من جعله صراعا دينيا.

(76) ابن حزم: الفصل 183/4 . البكري: المسالك 161 (845 فقرة 1413).

(77) وداد القاضي: الشيعة البجلية ص187 وهامش 3 .

البعيدة عن المناطق الساخنة في المغرب الأقصى(77م) بل كانت الجهات التي تمركزت فيها بعيدة عن الصراع العبيدي الأموي وأن كانت في مناطق الطريق الغربية والوسطى لحركة تجارة القوافل، بين أغمات ودرعة، بين درعة وتامدلت ومن هنا نتساءل هل كان لهذه الحركة دور في نشاط الإمارة الادريسية التي أسست مدينة «تامدلت»، ثم ما هو مدى تأثيرها في الإمارة المغراوية التي سيطرت على المنطقة السوسية في فترة الصراع الأندلسي الفاطمي على تجارة القوافل؟

لقد تمكن الأمير الإدريسي عبد الله بن ادريس الرابع، من تأسيس مدينة «تامدلت»(78) وتشير المصادر الى أن قبره كان بها أو بـ «ايجلي» على

(77م) لعل الحركة القوافلية. وتنوع وتأثير التجار من الأندلس والمشرق والمغرب العبيدي عموما الذين كانوا يرتادون مجال التأثير البجلي، أثر على «البجلية» وجعلها تعدل أو تغير عقيدتها الأساسية في الإمامة تغييرا جدريا، من اختصاصها في ولد الحسن إلى ولد الحسين. وهذا ما يفسر تردد المصادر في كونها تجعل البجلية نحله « موسوية » (ابن حوقل مثلا). وتارة تجعلها أقرب الى الزيدية تقول بإمامة « بني الحسن» (البكري). وداد القاضي: الشيعة البجلية، ص188-190 . ولا نبالغ في التأثير العبيدي في هذه الجهات ولو كانت حملاته قد بلغت الى المحيط الأطلسي سنة 347 هـ/ 958 م بقيادة «جوهر الصقلي». إذ لو كانت هذه الجماعة متمذهبة بالتشيع الاسماعيلي الفاطمي، لكان لها أثر كبير في أحداث هذه الحملة لصالح العبيديين. وهذا ما لا نجد له أثرا في مصادرنا.

(78) تتحدث الدراسات الحديثة التي تجرى في عصرنا على وجود تاريخ قديم «لليهود» في منطقة تمدولت (أنظر بالخصوص Jacques-Meunié: Le Maroc Saharien des Origines à 1670, Klincksieck, 1982, p.60 et 176.

ونسبت هذه الدراسة تأسيس مدينة «تمدلت» إلى أحد الأدارسة وهو عبد الله بن إدريس» في النصف الأول من القرن الثالث الهجري /9 م. وأنشأت .../...

اختلاف في الروايات (79) ، وتشير مصادرنا أيضا إلى أن أحد أحفاد هذه الإمارة الادريسية كان «بجليا»(80) . يعني هذا أن هذه الظاهرة تأقلمت مع المعتقدات القديمة في الجنوب المغربي القديم أثرت فيه وتأثرت به. خصوصا وأنها حاولت أن تجعل من العمل التجاري أحد أسسها التنظيمية(81).

ورغم كل شيء فإن الزيدية الادريسية، والبجلية الحسنية لم تتمكن في مغرب القبائل أن تكون نظاما مذهبيا تقوم على أساسه دولة، كما فعل الفاطميون أو كما حققه الأمويون، فإلى أي شيء يرجع ذلك؟ لعل تحليل نظام التجزئة الإجتماعية والقبلية، وظاهرة الانقسام السياسي الذي عرفه المغرب الأقصى منذ القرن الثاني للهجرة /8 م وما بعده، كفيل بأن يعطي الجواب الأقرب الى الواقع، بناء على المعطيات البيئية المحلية. وهذا الموضوع ما زال في بدايته مما جعل الجواب على كثير من الأسئلة الدقيقة غير متيسر. خصوصا وأن آليات البحث غير متوفرة مثل الدراسات الطوبونيمية، والاركيولوجية الاسلامية. فالعمل الفردي لا يكفي ومن هنا تعين إنشاء

.../... هذه المدينة قرب معدن الفضة المشهور بحوض وادي درعة الأوسط. غير بعيد عن مركز «أقا» بسفح جبل «باني» (ص204 من نفس الدراسة، و ص 209 كذلك) وهذا تبعا لما جاء عند البكري (المسالك ص855 فقرة 1428 ط تونس). وحاولت هذه الدراسة وضع تاريخ تأسيس «تامدلت» في الربع الثاني من القرن التاسع الميلادي/ الموافق للربع الثاني من القرن الثالث الهجري، (ص211).

(79) ابن حوقل: صورة الأرض 100.90 . البكري: ص156 (855.853) الاستبصار ص213 اليعقوبي: البلدان 356 . القرطاس ص65 . ابن خلدون: العبر 224/6 وما بعدها.

(80) الإسفرايني: التبصير في الدين ص43 ولمح الى ذلك ابن حزم الفصل 183/4 وقد أشارت الى ذلك وداد القاضي ص182 .

(81) Beck (H.L): L'image d'Idris II p.48.

مجموعات البحث العلمي التاريخي، لإعادة صياغة التاريخ المغربي من جديد.

2- النظرية السنية للخلافة في المغرب قبل الخامس الهجري/11 م

كتب الكثير حول نظرية «الحكم» في تاريخ الإسلام خلال قرونه الخمسة الأولى، ومن زوايا متعددة، ولخصت ذلك، دائرة المعارف الاسلامية في طبعتها الأولى والجديدة[82]. وظهرت دراسة للفقه السياسي من شأنها أن تعطي الإطار التحليلي لنظام الحكم والسلطة في مرحلة دراستنا، تلك هي دراسة عالم مختص في الموضوع وهو الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهوري[83]، ومن الوجهة التاريخية، فقد أنجزت أبحاث كثيرة، ولكنها لا تعالج موضوع « الخلافة» في عصر دراستنا وهو القرن الرابع الهجري /10م معالجة مقارنة - على حد ما نعلم - متخصصة. ولا نحاول معالجة هذا الجانب بقدر ما نحاول التنبيه اليه.

فالخلافة الإسلامية على مستوى رئاسة «الدولة»، فإن جميع المسلمين متفقون على ضرورتها ووجوبها شرعا وطبعا وعقلا. ولكن إذا تركنا الوجوب

---

(82) نحيل على جميع المباحث التي كتبها المختصون في مواطن متعددة من أجزاء هذه الموسوعة الهامة جدا وخاصة في طبعتها الأخيرة. وأهم بحث في سياقنا هو الذي حررته مجموعة من المختصين :«سورديل» و «لامبتون» و «دي يونج» و «هولت» وذيل هؤلاء الباحثون مقالاتهم بـ «ببليوغرافية جيدة وأصيلة» ولا ننكر ما في هذه الأبحاث من تصور نختلف معه في بعض جوانبه، ولكن المنطق والمنهج التحليلي للموضوع هو الذي يهم، أنظر: L'Encyclopédie de l'Islam, (Nouvelle Edition) T.IV 1978 , PP.971-985, (Art: Khalifa).

(83) عبد الرزاق أحمد السنهوري: فقه الخلافة وتطورها. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب 1989 .

الشرعي لرئاسة الدولة في المجتمع المغربي وحاولنا ربط واقع المجتمع القبلي المغربي، فإننا نجد أنفسنا أمام «استثناء مغربي» في القرن الرابع الهجري 10/م. فالمغرب الأقصى تسوده القبيلة بتنظيماتها السياسية والجماعية التحالفية. وهذا النوع من التنظيم يختلف عن الحكم الذي تحدده نظم الخلافة الإسلامية. فالأول يعتمد على «الاستقلال القبلي» والثاني تنظيمي شمولي وحدوي. فهل نحن هنا -على مستوى الصراع المذهبي- أمام معركة بين النظام السياسي الشمولي الذي تمثله دولة الخلافة (من شيعة وسنة). والنظام القبلي المجزأ غير الوحدوي والذي يدافع على استقلاليته؟و بالتالي بين الدولة واللا دولة. فالصراع السياسي بين الخلافتين العبيدية والأموية على المغرب الأقصى، كان في جميع الحالات صراعا مع القبائل المغربية، فهو في بعده الداخلي تدخل سياسي اجتماعي يسعى الى السيطرة على القرارات الإجتماعية المحلية من أجل تغييرها هذه القرارات التي يختلف مضمونها باختلاف الوحدات الإجتماعية التي تتخذها. فقد ساد بين قبائل هذا العصر نظام سلطة شيخ القبيلة أو سلطة الحلف، وهذا النوع من السلطة لا يخرج عن حكم الأقلية ذات الأفق السياسي الضيق. وهذا هو المعنى الإجتماعي السياسي لسلطة القبيلة، وهو مخالف لسلطة الخلافة الإسلامية.

فالمغرب الأقصى في بداية القرن الرابع الهجري 10/ م كان مجتمعا بلا دولة. وسيطرت فيه العلاقات الشخصية التي كان يتوفر عليها زعماء القبائل، على التنظيم الهيكلي للدولة الإسلامية المعروف في نظام «دولة الخلافة». وكان الشكل السياسي المسير هو ما نسميه بـ «النظام العرفي» للسلطة. وتمتاز طريقة حكمه ببنائها على تنظيم شفوي يجهل الإدارة ونظمها، فكانت الزعامة القبلية أو القيادة السياسية تلجأ الى الاعيان والوجهاء أكثر من اعتمادها على الإدارة المنظمة. ولهذا كانت تنكشف الحياة

السياسية في مجتمعنا القبلي المغربي في مواقف زعماء القبائل أكثر مما تنكشف من خلال التنظيم السياسي المبني على المؤسسات الذي تمتاز به دولة الخلافة. وهذا ما يفسر دور النزاعات الفردية بين الزعماء القبليين، في نشوب الحرب الداخلية أو الخاصة بين القبائل. فإهانة الكبرياء الخصوصي أو الاعتداء على «الحمى القبلي» أو مس المصالح الجوهرية التي تقوم عليها زعامة القبيلة أو الحلف الجماعي، يؤدي كل ذلك الى صراع دموي و بالتالي الى انقسام وانشطار التجمع القبلي أو «دولة القبيلة». ومن هنا كان ميزان القوة والاستمرار معتمدا على التفوق العددي. والقدرة الحربية لكل جماعة في المنطقة. أما الدين، فيعتبر أيضا أحد أبعاد الحقل السياسي في الحفاظ على التماسك الإجتماعي. ومن هنا كان نظام الخلافة الإسلامية (الشيعي أو السني) مركزا على جعله في المقام الأعلى للسلطة الشرعية ، حيث صارت مفاهيمه (حسب تفسير كل اتجاه خليفي له) هي إحدى الوسائل المستخدمة في المنافسات السياسية والاقتصادية والحربية. ولذلك ارتبطت الممارسات الشعائرية للدين على اختلاف صورها بين الشيعة والسنة والخوارج بجعله إطار للتنافس وتحديد مجاله الإجتماعي والسياسي والجغرافي كذلك.

فالسياق التاريخي المعترف به لوجود الدولة بشكلها في عصر دراستنا، هو التنظيم السياسي «المتمركز» في العاصمة. فالمدينة هي روح الدولة السياسية ونظامها الاجتماعي والسياسي هو المتفوق على السلطات الخاصة أو المحلية خارج العاصمة. وعملية فرض سلطتها في خارجها، تؤدي الى التقاطع مع المقومات الإجتماعية للتجمعات السياسية القبلية. ومن هنا تصبح الأدوات التي تتصرف بها «السلطة المركزة في المدينة» هي الوسائل التي تحافظ بها على نفسها سواء كانت تلك الوسائل «مادية» أو «فكرية» و بالطبع كانت منبثقة من عصرها وهو القرن الرابع الهجري 10/ م.

وقد طرح علينا في هذه الدراسة مشكل « سيطرة المركز» على أقاليم أخرى مغربية، والمركز هنا في عصر بحثنا هو مدينة «فاس» فقد ظهرت هذه المدينة المركز، غير قادرة على المحافظة على المجال الجغرافي السياسي المغربي في القرن الرابع الهجري 10/ م . حيث تعرضت لهجومات كبرى من القبائل، ومن الجيوش النظامية الشيعية والأندلسية، فتقلص نفوذها الجغرافي وإن ظلت طبيعة تنظيمها لم تتبدل جذريا. وحاولت فقط خلق نوع من «التعايش» بين رموز الدولة التقليدية فيها، والبنيات العشائرية الأسرية أو القبيلة.

من المؤكد والمعروف علميا أن «الخلافة الإسلامية» يندرج تنظيمها التشريعي ضمن ما يعرف في عصرنا «القانون العام» وإن كان فقهاؤنا لم يستعملوا هذا المصطلح، ولم يفرقوا بوضوح بين القانون العام والقانون الخاص[84]. وعولجت مسألة الخلافة في القرون الخمسة الأولى في مباحث علم «الكلام» للرد على أصحاب المذاهب الفاسدة[85]. ولعل هروب الفقهاء من معالجة أحكام الخلافة، راجع إلى خشيتهم من سلطان الحكم، وراجع إلى حرمان الدولة وحكامها من سلطة التشريع[86]. والحديث الشريف الذي عبر صراحة عن مصدر السلطة في الإسلام وهو «إجماع الأمة» حيث قال عليه الصلاة والسلام: «لاتجتمع أمتي على ظلال» يؤكد أن الأمة هي التي تعبر عن الإرادة الإلهية بأجمعها بعد القرآن والسنة[87]. وهذا يثبت أن السيادة مرتبطة بالنظريات السياسية والمذاهب المتنافسة على الحكم بالمغرب الأقصى طيلة القرن الرابع

---

(84) السنهوري: فقه الخلافة، ص 58-59 وهامش 2.

(85) نفسه ص 62 وهامش 10.

(86) نفسه ص 63-64 وهامش 13.

(87) نفسه ص 68-70.

الهجري 10/م. والخليفة في النظام السني الإسلامي، ليس ممثلا للسلطة الإلهية، وإنما هو ممثل للأمة التي اختارته وبايعته، يستمد منها سلطته في المسائل التنفيذية والقضائية دون الناحية التشريعية[88]. ومن هنا كان تعريف الفقهاء والباحثين المختصين للخلافة كالآتي:

أولا: تعريفات الفقهاء ، فقد أجمعوا على أن الخلافة: «رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا، خلافة عن النبي صلى الله عليه وسلم»[89].

ثانيا : تعريفات المحللين المسلمين، وأحسن من يمثل هذا الإتجاه هو «ابن خلدون» لأنه يجمع بين البعد التاريخي والبعد الفقهي التشريعي، وعرفها بقوله[90].

«والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ... فهي في الحقيقة نيابة عن صاحب الشرع في حراسة الدين، وسياسة الدنيا به».

وهكذا تكون النظرية السياسية للخلافة الإسلامية قد وجدت نتيجة لضرورة ضبط المصلحة العامة قوامها تطبيق الشريعة، والدفاع عن مذهب السنة والجماعة. ومن هنا كانت القاعدة التي يقوم عليها البناء السياسي هي الأمة أو الجماعة. وهي جماعة الأفراد الذين يرتبط بعضهم ببعض بروابط الدين الإسلامي. وبحكم هذا الإطار النظري فإن الملكات الروحية المميزة التي اتصف بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لم تورث (في رؤية ونظر أهل السنة)

---

(88) نفسه ص 72.

(89) نقلا واعتمادا على الدكتور عبد الرزاق السنهوري: فقه الخلافة ص 83 وهامش 50 ثم أنظر الدراسة الهامة الأخرى للدكتور صلاح الدين دبوس: الخليفة توليته وغزله، ط مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية.

(90) ابن خلدون : المقدمة ص 244 (طبعة تونس 1984).

إلى من جاء بعده من الخلفاء الذين تولوا رئاسة الدولة الإسلامية، وإنما ورثتها الأمة الإسلامية ككل(91).

فنظرية «الخلافة» عند أهل السنة، بنيت على أساس التطورات السياسية، اعتمادا على قدسية إجماع الأمة باعتبار هذا الإجماع معصوما من الخطأ. وهنا وقع التقاطع بين الإسماعيلية الشيعة بإفريقية وبين بني أمية بالأندلس.

(91) أنظر مفهوم الإجماع عند الإمام الشافعي في كتابيه «الأم» و«الرسالة». ثم أنظر كلام ابن أبي زيد القيرواني في كتابه «الرسالة» ج 1 ص 148 (طبعة الحلبي مصر). ثم الكلام التبريري لعبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص 350 وما بعدها. فقد أبعد ابن أبي زيد القيرواني الإمامة الكبرى، وتكلم فقط عن إمامة الصلاة. إما عبد القاهر البغدادي فقد اهتم بالمسوغات التي تجوز تعدد قيام الخلافة في العالم الإسلامي. حيث ذكر شرطين من شأنهما أن يجعلا الاعتراف بخلافة أمويي الأندلس (ولذلك ذكر شرط وجود البحر المانع)، والاعتراف بالخلافة الفاطمية (ولهذا ذكر شرط الأمن وقطع الطرق). وهذان الشرطان مبرران لانقسام وتعدد الخلافة الإسلامية في أوائل القرن الرابع الهجري /10م. ويمكن إدراك البعد التاريخي هذا الواقع إذا التفتنا إلى التاريخ العام للخلافة العباسية وواقع العالم الإسلامي في هذا العصر. أما الفقيه المشهور «محمد بن سحنون» وكذلك الفقيه الزيدي إبراهيم بن عبد الله المعروف بالقلانسي (ت 359هـ/969م) فقد ألف كل منهما كتابا في الرد على الشيعة الإسماعيلية بإفريقية، وكا أشهر الأعمال هو كتاب الشيخ ابن سحنون (أنظر القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ترجمة سحنون). ج 4 ص 218.

الأبعاد الاجتماعية السياسية للمغرب الأقصى
خلال القرن 4 هـ / 10م

إذا قمنا برسم خريطة سياسية للمغرب الأقصى في أوائل القرن 4 هـ على الأساس المذهبي، فإننا نجد المغرب الأقصى ممزقا غير واضح المعالم، وأبرز معالم تلك الخريطة تبرز كما يلي[92]:

(الوضعية بين 296هـ-316هـ/909م-930م).

أ- الإمارات الادريسية، وأهم مراكزها مدينة فاس.

ب- إمارة بني مدرار بسجلماسة.

ج- الإمارات المغراوية القبلية بالسهوب الشرقية.

د- الإمارات المكناسية القبلية بالأطلس المتوسط (فزاز).

هـ- الإمارة البرغواطية بالسهول الغربية (تامسنا).

و- إمارة نكور (بنو صالح).

ز- إمارة بنو عصام بسبتة.

ح- إمارة مغراوة بأغمات ونفيس.

ط- إمارات درعة بتمدلت ونول لمطة.

ي- إمارات القبائل اليفرنية والمكناسية أو رؤساء المراكز والمدن بشرق نهر ملوية إلى حوض نهر شلف.

---

(92) أنظر في هذا الصدد المحاولة التي حاولها مؤرخ الحماية الفرنسية بالمغرب «هنري طيراس : Henri Terrasse» في كتابة «تاريخ المغرب :Histoire du Maroc» ولايهمنا تصوره ونقده لتاريخ المغرب الأقصى، بقدر ما يهمنا «رصده» للإمارات المحلية والإستقلالات السياسية. أنظر الصفحات (بالفرنسية) Henri Terrasse: Histoire du Maroc, Casablanca, 1949,135-122T.I, pp. 122-135 et 143.

هذه الخريطة التي لاتعبر إلا على عدم الوحدة السياسية والإجتماعية، إنه مجتمع الإنقسام والتجزئة. وفي نفس الوقت مجال العبور تتوفر فيه إمكانيات الربط مع العالم الإفريقي جنوبا، ومع الأندلس شمالا. وجميع هذه التجمعات البشرية الجهوية المغربية واعية بإسلامها، ولكن لانستطيع أن نؤطر تنافسها بالموقف المذهبي، لانعدام الوثائق المؤيدة لأي اتجاه، ولم يظهر في المنتوج التاريخي المغربي لهذه المرحلة إلا تاريخ «تنافس القبائل» تحركه المعطيات المصلحية أولا والبيئية ثانيا، وثالثا الانتصار السياسي والمذهبي للقوى الكبرى المتدخلة في المغرب، إما شيعية عبيدية، أو سنية أموية أندلسية(92م).

لقد ولدت «الخلافة الأموية بالأندلس» في أوائل القرن الرابع الهجري/10م، وكان إعلانها رسميا سنة 316هـ/917م. ونفذ ذلك بأمر أصدره عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله في يوم الجمعة مستهل ذي الحجة سنة 316هـ/موافق 15

(92م) فقد أصبح المغرب الأقصى في مرحلة الصراع العبيدي الفاطمي والأموي الأندلسي، وكأنه «أرض فاصلة» بين الطرفين أو جبهة قتالية بين جيشين متواجهين من وراء حجاب والحجاب بينهما هنا هو «المغرب الأقصى». فكان الوضع يحتم على القوتين، العمل بكل الوسائل على «اكتساب الطرف الثالث المتمثل في قبائل المغاربة من البربر»، (أنظر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج3 ص 34-35). والمسلم به تاريخيا أن التقارب بين المغرب الأقصى والأندلس كان أوثق وأشد ارتباطا بينهما من المؤثرات الإفريقية الشيعية (أنظر ملاحظة الباحث سعد زغلول في دراسته السابقة ص 38). ويؤيد هذا ماجاء في «مفاخر البربر» ص 4 طبعة بروفنسال:«... وتخطاهم عبد الرحمان الناصر إلى من سكن خلفهم من زعماء قبائل البربر، يستألفهم ويحمل على الطاعة على أهل المعصية منهم، ممدا لمن عجز برجاله، مقويا لمن ضعف بماله، متفقدا بهم في سائر، الحالات بألطافه، متعهدا بوجود رسله وخواصه، إلى أن تميز أكثر بوادي زناتة في حزبه وارتسموا في طاعته». (ورقة 60-61 من المخطوط).

يناير سنة 929م. وتلقب بلقب الخلافة «أمير المؤمنين» وتسمى بـ«الناصر لدين الله»[93].

وقد درس الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي مسألة قيام الخلافة الأموية وأثرها السياسي على المغرب الأقصى[94]. ولهذا لاننكر ما جاء عنده، ولكن نحاول قراءة الأحداث من وجهة البعد الإجتماعي المغربي المحلي.

---

(93) وقد احتفظت لنا المصادر بوثيقة إعلان قيام الخلافة الأموية بالأندلس، وتعيين «عبد الرحمان» أول خليفة بها. وساهمت المصادر المغربية بحظ كبير في هذا الاحتفاظ، ويهمنا هنا أن نشير إلى أن مقتبس ابن حيان، لايتوفر على هذه الوثيقة، ولعل ذلك يرجع إلى ضياع القسم الذي يوجد فيه نص تنصيب «عبد الرحمان» خليفة للمؤمنين وتلقيبه بالخليفة. والمصادر التي ذكرت الوثيقة هي:

1) ابن حيان: المقتبس ، ج 5 ص 241 (ورقة 159)، وقد لمح إلى أنه قد ضمنه في المقتبس، ولكن النص المنشور حديثا (ط الرباط - مدريد 1979) لم يرد نص وثيقة التنصيب بالخلافة، وإن لمح إلى ذلك بقوله «وقد تقدم ذكره لذلك ونظمه في ما مضى من هذا الكتاب» (المقتبس ص 241).

2) مجهول المؤلف: الحلل الموشية ص 19 من طبعة علوش.

3) ابن عذاري: البيان المغرب ج2 ص 198.

4) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ج 2، ص 30.

5) ونقلت الدراسات الحديثة نص الوثيقة من الأصول الأجنبية، ونعتمد على ماجاء عند الدكتور السيد عبد العزيز سالم، في دراسته «تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس» طبعة دار المعارف - لبنان- بيروت 1963 ص 319. وقد نقل الوثيقة من كتاب:Una Cronica, Anonima , de Abd Al-Rahma III. Al-Nasir,:
Ed, Lévi-Provençal et Garcia-Gomez-Madrid,1950,p.59 au 79.

- Dozy : Histoire des Musulmans , p.146.

(94) أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، طبعة الإسكندرية 1968 ص 55-77، فلاسفة الإسلام في المغرب العربي ص 152 ومابعده. لصاحبه فهمي هويدي .

إن إعلان الخلافة في الأندلس أعطى متنفسا دينيا وإجتماعيا للزعامات القبلية المغربية، رغم النظرة الإستعلائية التي كان أهل الأندلس يمارسونها على «بربر المغرب». وفي نظرنا يرجع الأمر في ميل أهل المغرب إلى الأندلسيين، إلى الحرية التي أعطاها الخليفة الأندلسي لرؤساء القبائل وتعامل معهم معاملة تقديرية، تشعرهم بأنهم رؤساء في قومهم وفي بلدهم، بشرعية سلطته الروحية العليا، على عكس الموقف أو على الأصح المطلب العبيدي الفاطمي، الذي انبنى على العصمة في تطبيقاته السياسية والدينية. أما الموقف العملي الأندلسي فكان واقعيا ومصلحيا يوفق بين الدنيا والدين. فالخليفة الأندلسي إنسان عادي يخطئ ويصيب، والناس أحرار في انتقاده.

كان المغرب الأقصى والأوسط بالنسبة للخلافة الأموية الأندلسية «قضية استراتيجية»، ولذلك توجهت مؤسساتها السياسية والعسكرية والاقتصادية إلى هذه المنطقة. واتبعت خطة «إصطناع سكانه» واستمالة رؤساء قبائل وأمراء أدارسة وغيرهم. ووجد الخليفة الأندلسي ضالته المنشودة في التجمعات القبلية الآتية ابتداء من سنة 317هـ/929م :

أولا: مغراوة المغرب الأوسط والأقصى. والقبائل التابعة لها في تجمعها الزناتي. فقد أقبلت على تأييد «الدعوة السنية» التي اتخذت في المغرب مظهرا «مروانيا». ورأى زعيم مغراوة «محمد بن خزر» في هذا التأييد مظهرا مؤديا لتوليه زعامة قبائل المغرب. وهذا ما يؤكده الخلاف الداخلي بين مغراوة بزعامة محمد بن الخير ومكناسة بزعامة موسى ابن أبي العافية ابتداء من سنة 319هـ/931م[95].

(95) ومن الملفت للنظر أن الخليفة عبد الرحمان الناصر، أيد الزعيم القبلي موسى بن أبي العافية في هذا الصراع الداخلي بين مغراوة ومكناسة، كما أيده أيضا .../...

ثانيا: مكناسة شمال المغرب الأقصى بزعامة موسى بن أبي العافية، الذي لم يجد في السياسة الشيعية العبيدية تحقيق طموحه بالإعتراف به زعيما رئيسيا في شمال المغرب أو على الأقل في غرب نهر ملوية . فمال إلى الخلافة الأندلسية السنية الواقعية وراسل قرطبة بولائه لها وطاعته لعبد الرحمان الناصر(96).

ثالثا: الأمراء الأدارسة بالمغرب الأقصى. «فقد تأخروا في تقديم طاعتهم للخلافة الأموية بالأندلس، وربما يرجع ذلك إلى أسبقية العبيديين في أخذ الإلتزام منهم بطاعة الخلافة الفاطمية بإفريقية، ويذكر المؤرخ الأندلسي سبب هذا التأخير الذي أرجعه إلى الاحقاد القديمة بين البيت الهاشمي والبيت الأموي(97). ولكن الفحص الداخلي للأوضاع المغربية يظهر أن الانقسام القبلي وعدم سيطرة الأمراء الأدارسة على مناطق نفوذهم القديمة، وهو المبرر المعقول

.../... دون ابن عذاري (البيان 199/1 وما بعدها) ملحمة هذا الصراع القبلي. وهذا ما يفسر اتباع سياسة «الاصطناع الأندلسية» مع قبائل بربر المغرب. ويؤدي في نفس الوقت إلى تقلب المواقف الولائية للزعماء القبليين، من المروانية تارة والفاطمية تارة أخرى. أنظر : البيان المغرب 205/1. القرطاس ص 50. العبر: 4/ 32-33. ومفاخر البربر، ص 4.

(96) في موقفه من الأمير الإدريسي «أبى العيش» صاحب جراوة وميناثها. وقد احتفظ لنا المؤرخ الأندلسي ابن حيان في مقتبسه بنصوص المراسلات التي تبادلها ابن أبي العافية وعبد الرحمان الناصر والتي بلغ عددها ثمانية رسائل تتضمن كلها الموقف القبلي المغربي المؤيد لبني أمية بالأندلس على أساس تأييد الزعامة المحلية. (أنظر المقتبس من ص 261-374). وقد جمعها الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في الدورية الوثائقية التي تطبع بالمطبعة الملكية بالرباط. (الوثائق: المجموعة الأولى 1976 ص 89-118).

(97) ابن حيان: المقتبس ص 261 (ورقة 173). ولقد تردد هذا الإتجاه التبريري في المراسلات ، وخاصة في الرسالة التي وجهها «إدريس بن إبراهيم» صاحب .../...

لهذا التأخير. فالأدارسة بعد المطاردة الشيعية العبيدية أثناء حملة مصالة بن حبوس، صاروا جماعة طريدة لاتبحث عن الزعامة بقدر ما تبحث عن النجاة بنفسها. ولم يغب وضعهم هذا على قرطبة، إلا أن نفودهم الروحي دفع الخلافة الأندلسية إلى طلب تأييدهم. فهو تزكية دينية رمزية للخلافة الأندلسية. ولهذه التزكية قيمتها الكبرى في شرعية الخلافة الأموية الجديدة.

رابعا: إمارة بني صالح بنكور: تعرضت إمارت نكور لأقصى الضرابات الشيعية على يد القائد «مصالة بن حبوس» سنة 305هـ/917م حيث قتل أميرها «سعيد بن صالح». وفر أبناؤه إلى «مالقة» بالأندلس، لأن هذه الإمارة كانت تابعة تقليديا للأندلس[98] ، هذا ما سجله لنا ابن الآبار

.../... أرشقول إلى الحاجب موسى بن محمد بقرطبة سنة 317هـ/929م يشتكي فيها مما أصابه من أقاربه الأدارسة، ومما جاء فيها «وتمالاوا علي، ورموني عن قوس واحد، وقالوا ليس هذا الرجل منا، إذ فارق دعوته إلى ضدها، وخرج من عترة علي بن أبي طالب إلى عداتها وعادى أهل بيته واستحاش عليها بصاحب جزيرة الأندلس شانئنا». المقتبس ص 264 (ورقة 175). ابن خلدون : العبر 4/ 7،306 /53.

(98) بناء على استقراء تاريخ ارتباط إمارة بني صالح بنكور، نجد أن المصادر تؤكد الروابط الوثيقة والطيبة جدا منذ الفتح الإسلامي للأندلس إلى أيام الحكم بن هشام في أواخر القرن الثاني للهجرة /8م، وطيلة القرن الثالث الهجري /9م أصبحت العلاقات مبنية على اعتبار نكور منطقة تابعة للأندلس ولم يؤيدوا «عمر بن حفصون» في ثورته الكبرى ضد الإمارة الأندلسية ابتداء من سنة 267هـ/881م وساهموا في القضاء عليها.
والجغرافي الأندلسي البكري يمدنا بأهم صورة للدور الذي قامت به هذه الإمارة لصالح الإمارة الأموية، فقد عبر عبد الرحمان بن سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الحميري «إلى الأندلس للجهاد فقطع عليه إبن حفصون الطريق فقتل من كان معه، وتخلص عبد الرحمان على فرسه» المسالك ص 92، (ص 766 فقرة 1285) وعالج هذا الموقف ابن خلدون : العبر 284/6. كما أرخ ذلك المؤرخ الأندلسي ابن حيان: المقتبس (القسم الثالث الذي نشره ملشور ص 24). أنظر أبو ضيف: القبائل العربية في الأندلس ص 286.

بقوله[99]: «وكتب (عبد الرحمان الناصر) إلى أهل المغرب يدعوهم إلى الدخول في طاعته والتدبر بإمامته ، وكتب بمثل ذلك إلى سعيد بن صالح، وكان واليا على نكور وما إليها من أعمال المغرب لبني مروان»، وأدى الانتصار الفاطمي المؤقت على نكور سنة 305هـ/917م إلى انتقال أمراء الأحياء من بني صالح الحميريين (أو النفزيين؟) إلى الأندلس، كما أدى إلى إقامة الجيش العبيدي بقيادة مصالة في منطقة «جبال الريف المغربية» لمدة ستة أشهر قصد إخضاع قبائل شمال المغرب التي كانت تابعة لإمارة نكور وسواها من الإمارات المحلية[100]، وهنا نلاحظ أن مصالة بن حبوس قد اعتمد على السياسة القبلية الفاطمية العبيدية. حيث «ركز» حول نكور حامية قبلية من كتامة ومن مكناسة الموالية للعبيديين في هذه الفترة (أوائل القرن الرابع الهجري /10م)، وعمل على التوجه من نكور إلى مقر عمالته بتاهرت عبر مدينة فاس.

يعني هذا أنه انتقل عابرا لجبال الريف وجبالة الحالية، ومحاولا السيطرة على «بلاد غمارة كلها»، وكلها قبائل جبلية مستقرة، تدين بالاحترام للأمراء الأدارسة، كما تدافع على استقلالها القبلي. فهل وافقت على مطلب الجيش العبيدي بقيادة مصالة؟ لعل موقف قبيلة مكناسة شمال المغرب التي يتزعمها موسى بن أبي العافية يوضح كثير من جوانب الغموض في هذه الفترة. ذلك أن مصالة اعترف بزعامة موسى بن أبي العافية، وعينه سنة 305هـ/917م مسؤولا على المغرب الشمالي وحمله مسؤولية استمرار المنطقة تابعة للطاعة العبيدية الفاطمية. وهذا يعني أن أي عصيان أو تغيير في الموقف

---

(99) ابن الآبار: الحلة السيراء، ج1 ص 193 وهامش 2. ابن عذاري : البيان ج 1 ص 179-180، ابن خلدون: العبر 285/6.

(100) ابن عذاري 180/1، ص 251. البكري ص 96. ابن خلدون: العبر 134/6، 285/6. الناصري: الإستقصا 166/1. ابن أبي زرع: القرطاس ص 116.

يتحمل موسى بن العافية مسؤوليته. فالمسألة هنا ، ضرب القبائل المغربية بالقبائل المغربية. ونظرا لما كانت تجري عليه الأمور في النظام القبلي المغربي، فإن أهل الريف وغمارة لايقبلون هذا الوضع وبالتالي لايوافقون على رئاسة موسى وسيادة مكناسة عليهم. وهنا يتجلى الصراع القبلي بالإضافة إلى تجييشه بالصراع المذهبي، أو ضرب المستقرين بالرحل.

فمن المؤكد والثابث أن مكناسة الشمال التابعة لموسى بن أبي العافية، وصفت في المصادر بالبداوة والترحال المحدود، ولم تكن مجموعتها القبلية من فصيلة قرابية واحدة، وإنما كانت عبارة عن حلف قبلي يضم سكان منطقة منابع نهو سبو وروافده المنحدرة من الأطلس المتوسط (فزاز)، وكانت التركيبة القبلية معتمدة على منطلق تجمعها في نواحي أو جبال «تازة»[101]. فمن الطبيعي أن يتسمى هذا التجمع بإسم قبيلة الزعامة ويأخذ إسم «مكناسة موسى بن أبي العافية».

ويحدد ابن خلدون[102] «ديار مكناسة» شمال المغرب الأقصى، بحوض نهو ملوية حيث يقول: «وأما نهر ملوية آخر المغرب الأقصى، فهو نهر عظيم منبعه من فوهة في جبال قبلة تازى، ويصب في البحر الرومي عند غساسة. وعليه كانت ديار مكناسة المعروفة بهم في القديم» ثم وصف نمط حياة هؤلاء البدو الرحل بقوله[103]: «كان مكناسة الظواعن من أهل مواطن ملوية وكرسيف ومليلة وما إليها من التلول بنواحي تازا وتسول». ويؤرخ لرئاسة هذا الحلف بقوله: «وكانت رئاستهم في المائة الثالثة لمصالة بن حبوس وموسى

(101) ابن خلدون: العبر 32/4 حيث وصفه بـ «أمير مكناسة يومئذ (سنة 305هـ) وصاحب تسول وتازة».

(102) العبر 202/6.

(103) العبر 273/6.

بن أبي العافية بن أبي باسل واستفحل أمرهم في أيامه، وعظم سلطانهم، وتغلبوا على قبائل البربر بأنحاء تازا إلى الكائي». ووصفهم في كثير من مواطن كتابه العبر بـ «الخصاصين» بمعنى الرحل أصحاب الخيم أو القياطين. وأشار في مواطن عديدة إلى مظاهر لباسهم البدوي، ونظامهم الحربي وأسلوب القتال لديهم(104). وابن خلدون يعتبر التخلي عن سكنى الخيم أو القيطون، إلى سكنى المدن، مرحلة انتقالية جديدة في التطور الحضاري(105).

كل هذه الشواهد التي استخلصناها من كتاب العبر لابن خلدون، تثبت أن المجتمع المغربي القبلي في «أزمة صراع حضاري بين بربر الشمال المستقرين في الريف وغمارة، وزعامتهم في الأمراء الأدارسة وإمارات مدن الساحل المغربي على البحر الأبيض المتوسط. وبين «بربر» المنطقة الوسطى من المغرب الأقصى، ببربر جبال فزاز (الأطلس المتوسط) وحوض نهر ملوية، وهؤلاء رعاة رحل ظواعن، وزعامتهم في «مكناسة» موسى بن أبي العافية.

والسؤال الآن الذي يطرح نفسه في سياق تحليلنا هو: ماذا يمكن أن ينتج تاريخيا عن هذا الصراع الذي يعتبر في عمقه على حد ما نرى أنه صراع بين ظاهرتين اجتماعيتين، أو بين نمطين متمايزين على مستوى التطور الإجتماعي وانساقه؟ ثم هل نحن، فعلا أمام صراع العصبيات كما ضبطها العلامة ابن خلدون ونظر لها في مقدمته؟ أم نحن أمام انقسام في الجسم الإجتماعي المغربي؟ استثمر هذا الإنقسام كل من التدخل الشيعي العبيدي أولا، ثم التدخل الأندلسي الأموي ثانيا. وبنى كل منهما سياسته القبلية في المغرب على هذه الظاهرة الانشطارية.

---

(104) العبر 66/7.

(105) العبر 105/7 حيث ذكر «وتركوا القيطون إلى سكنى المدن».

لاتتضح الصورة إلا بدراسة الظاهرتين في ما سميناه بنظام الأحلاف في هذا العصر. ولهذا نترك المستويات السياسية كما اعتادت الأبحاث معالجتها (دولة الأدارسة أو دولة بني صالح، أو دولة بني العافية...)، لندرس الوضعية في نظام الحلف المكناسي، الذي نعتبر ولادته مع بداية القرن الرابع الهجري /10م.

الأحلاف القبلية في المغرب الأقصى خلال القرن الرابع الهجري /10م.

لانبالغ إذا قلنا إننا نقوم بحفريات في عالم مجهول، عملت عوامل متعددة في طمس حقائقه. ولاندعي أننا قد اكتشفناه، بل إذا ساهمنا في البحث في هذا الاتجاه، الذي يوجه البحث التاريخي وجهة واقعية ومعقولة، من أجل إعطاء الصورة القريبة من الحقيقة، فإننا نكون قد أرضينا بعض طموحنا في البحث التاريخي المغربي(106).

---

(106) بدأت تظهر أبحاث جامعية مغربية لها أهميتها الكبرى، ورغم أنها تهتم بالعصور الحديثة والمعاصرة، فإنها تمثل علامة من علامات التطور في البحث التاريخي الحديث، ونحيل هنا على أهم النماذج في هذا الإتجاه، لا للحصر والتحديد:

1- محمد القبلي: المجتمع والسلطة والدين بالمغرب، إلى نهاية العصور الوسطى.(بالفرنسية) طبعة ميزون نوف، باريس 1986.

2- عبد الله العروي: الأصول الإجتماعية والثقافية للوطنية المغربية (1830-1912) بالفرنسية، طبعة ماسپرو، باريس 1977.

3- محمد الأمين البزاز: تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18/19- منشورات كلية الآداب- الرباط 1992.

4- أحمد توفيق: المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (أينولتان 1850-1912) منشورات كلية الآداب / الرباط 1983.

هل احتفظ الأحياء في المغرب بذاكرة الأموات، أو بالأحرى هل استمرت المكونات الإجتماعية القديمة، في المجتمع المغربي إلى حدود نهاية القرن الثالث عشر الهجري/19م؟ هذا ماعبرت عليه رسالة رسمية من السلطان مولاي الحسن الأول، التي وجهها إلى القائد مبارك الشياظمي بقوله(107): «... إن أمور أهلها (البلاد) وحصول معاشهم، ودوام نفعهم وعمارتهم، إنما هو بالحرث واكتساب الماشية، ولاحرفة مضاهية لهما وتوازيهما».

إن هذا الوضع الإقتصادي المعاشي عرفه المغرب الأقصى منذ قرون وقرون، واستمر قائما في إطار النظام القبلي المغربي القائم على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج(108). ويعلق الباحث محمد البزاز على الفراغ العمراني في المغرب- وهو على حق بقوله «على غرار العهود السابقة، كان العمل في الحقل ما يزال قائما على قاعدة مادية ضعيفة، فهو يعتمد أساسا على تقنيات بسيطة، يشكل عنصرها الأساسي المحرات الذي لم يطرأ عليه تغيير منذ عهد نوح»(109). لقد عاش المغاربة في العصور الوسطى تحت رحمة الضغوط الطبيعية والسياسية التي مارستها الخلافتان المتنافستان عليه، وكان أهم مظهر لحياة المغاربة في عصر دراستنا هو «الجمع بين الزراعة والماشية». وكذلك مظهر الزراعة المتنقلة المعتمدة على تغيير الأرض. وقد قدم لنا الجغرافيون العرب أوصافا مغرية لحياة الإنتاج الزراعي في شمال المغرب الأقصى، كما وصفوا المراعي في السهول والسهوب المغربية. وتكاد تتشابه

---

(107) بالإعتماد على دراسة: محمد الأمين البزاز: تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب، ط 1992 ص 29. وأشار في هامش 38 إلى أن هذه الرسالة مؤرخة بـ 6-5-1300هـ/15-3-1883م. وأصل هذه الوثيقة بالخزانة الحسنية بالقصر الملكي/ الرباط.

(108) نفس الدراسة والصفحة.

(109) نفسه ص 30.

أوصاف ابن حوقل مع أوصاف الرحالة الذين ترددوا على المغرب الأقصى منذ القرن العاشر الهجري/16م[110]. فقد أعطتنا المصادر العربية صورة عن الحدائق الكثيرة التي تحيط بالمدن والمراكز السكنية بالمغرب الأقصى، والتي كانت بداخل تلك المدن[111]. ولقد كانت الممارسة الزراعية الشائعة قد أدت إلى تكوين تقاليد زراعية، مزجت بين المؤثرات الرومانية والبزنطية والإسلامية، والأعراف المحلية. بحيث ظهرت «الدورة الزراعية» المعتمدة على ترك الأرض سنة أو سنتين. وقد تردد ذلك في فتاوي الفقهاء[112]. فالحياة الزراعية ببنياتها المركبة «كانت حقيقة واقعة مست معظم أجزاء العالم الإسلامي من بداية القرن

---

(110) هنا نقارن بين أوصاف الجغرافيين العرب للمغرب وحياته الزراعية (ابن خرذادبة، اليعقوبي، ابن حوقل، البكري، الشريف الإدريسي)، وبين الرحالة الغربيين ابتداء من الوزان Léon L'Africain وما رمول، ومويت وغيرهم). وقد حلل الباحث الأمريكي واطسون مسألة التاريخ الزراعي للعالم الإسلامي بطريقة مقارنة. وما نتج عن تلك الوضعية إلى حدود بداية القرن الخامس الهجري/11م (أنظر: اندريو واسطون: الإبداع الزراعي في بدايات العالم الإسلامي. ترجمة الدكتور أحمد الأشقر. منشورات جامعة حلب/سوريا1985) ونحيل في هذه الدراسة على الصفحات التي تعالج الموضوع في المغرب الأقصى وهي ص 56، ص 63، زراعة السكر المغربي ص 83 زراعة القطن المغربي وص 176 الزراعة المغربية وتاثير المناخ فيها. وص 177 تبادل الخبرات الزراعية بين المغرب والعالم الإسلامي، وص 178، 180، 191، 192، 200، 207–208 هامشي 45، 49، وص 221 تغير الأذواق والتطور الحضاري في سلا المغربية. ص 224 وص 230–232 الزراعة بالحوز المراكشي، وهامش 34 يناقش التاريخ الزراعي بأغمات وحوزها. ص 264 الزراعة والمغارسة في الغرب الإسلامي.

(111) واطسون : الإبداع الزراعي ص 264 هامش 7، وص 273 وهامش 3.

(112) ابن رشد: الفتاوي ج3 ص 1310 القاضي عياض: النوازل. ابن سهل: نوازل الأحكام ، مخطوط خاص. الونشريسي: المعيار ج8 ص 240.

الثامن (الميلادي) تقريبا حتى نهاية القرن العاشر (الميلادي)[113]. وهذا أيضا ناتج عن الزيادة في حجم السكان، ولعل إحدى علامات هذه الزيادة السكانية، مانلاحظه من حركة الانتقال القبلي وتزايد أرقام القوات العسكرية في جيوش العبيديين والأمويين، وعدد القبائل المنتشرة في الجهات المغربية في مرحلة دراستنا[114].

ورغم كل شيء فإن بلاد المغرب كانت تعيش دائما في رهان مع الطبيعة، بين الغنى والفقر. بين الجفاف والمطر، وتلازمت حياة الرخاء والغلاء بالمعادلة المائية في المغرب طوال التاريخ المغربي. وقد اهتمت مصادرنا الحدثية بهذه الظاهرة. لما لها من أهمية في مجرى التاريخ ومساره الحدثي على المستوى الإجتماعي والإقتصادي[115]. ومن نتائج التنظيم الجماعي القبلي المغربي، وضغط الجفاف والسنوات العجاف، وتعاقب دورات الجفاف والمطر، أن ابتكر الإنسان المغربي «نظام الخزن والإدخار» في المخزن الجماعي المعروف في جميع جهات المغرب بـ«أكادير»[116]. كما ابتكر المغاربة أشكالا أخرى مثل «إغرم»

(113) واطسون: الإبداع الزراعي، ص 290.

(114) واطسون: نفسه، ونحيل على الفصل الرائع في هذا الاتجاه من ص 290–311 والذي عنوانه «سباق الزراعة».

(115) يمكن متابعة تسلسل تاريخ المجاعة والقحط، ومواسم الأمطار في بيان ابن عذاري، وقرطاس ابن أبي زرع، واستقصا الناصري وغير ذلك من المصادر.

(116) محمد شفيق: المعجم العربي الأمازيغي: مادة «خزن» ص 320 ونستعمل مصطلح «أكادير» بالمعنى الحضاري المغربي الذي يعني «الحصن» بمعناه الدفاعي والخزن الجماعي للسلاح والمواد الغذائية. أنظر في هذا الصدد: Emile Laoust

1) Contribution à une étude de la Toponymie du Haut Atlas, p.70(192).

2) Mots et Choses Berbères, chapitre I,pp.1-20.

.../...

و«المطمورة تسرفت» وهي مخزن محفور ومبني في الأرض قصد الاحتفاظ بالحبوب لمدة طويلة قد تصل إلى عشرين سنة. وكانت المطمورة إلى جانب الحقل عنصرين أساسيين في الريف المغربي، وقد تكون جماعية عندما تتعدد إلى مطمورات كثيرة وفي هذه الحالة تسمى «المطاميرالجماعية» بأمراس(117) والهجوم أو الإعتداء عليها يؤدي إلى صراع دموي بين القبائل المغربية. وإلى جانب المطمورة والأمراس، وإغرم كانت هناك وسائل أخرى، مثل «الأهراء» وهذه يكاد يقتصر وجودها على المدن، والعاصمة أو المراكز الكبرى التي تتمركز فيها الهيئة المسؤولة في القيادة الإجتماعية والسياسية للقبيلة. وهي التي تسهر على حراستها وتوزيع مخزونها عند الحاجة، وخاصة في عام المسغبة. واستمرت هذه الظاهرة في تاريخ المغرب المخزني بعد عصر دراستنا(118).

أما «إغرم» فهو أساسا مسكن الأسرة «تغرمت»، أما عندما يوسع

.../... محمد الأمين البزاز: تاريخ الأوبئة والمجاعات ص 352-353، ثم أنظر الدراسة الهامة التي أنجزت حول تقنيات الخزن وحفظ الحبوب في الأرض . ونشرها للمركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي سنة 1985. Réserves :(C) Lefébure- céréalières et Société,:pp.171-236 (C.E.N.R.S).

-Resenberger (B): Réserves de Grains et pouvoir dans le Maroc précolonial, pp.237-268. (CENRS).

وهذان البحثان من الأهمية بمكان، لمعالجتهم الظاهرة في مستويات تاريخية حضارية.

(117) - Rosenberger (B): Ibid, p.239.

ابن العوام: كتاب الفلاحة (الطبعة الفرنسية).

(118) محمد الأمين البزاز: تاريخ الأوبئة والمجاعات، ص 363. مولاي عبد الرحمان بن زيدان: العز والصولة في معالم نظم الدولة (المطبعة الملكية- الرباط 1961) ج1 ص 132.

ليصير مركزا جماعيا يسمى «إغرم»[119]. فهو عبارة عن حصن مثل «أكادير مكون من طابقين أو ثلاثة، وبزواياه إبراج الحراسة والدفاع. ويطبق في تعميره واستغلاله وظبطه للعرف القبلي، ومن أهمها، أن أي اعتداء على «إغرم» أو «أكادير» يعتبر اعتداء على القبيلة أو الحلف القبلي الذي تتزعمه، وهذا الاعتداء من أية جهة كان يلزم الجميع الدفاع عليه بكل الوسائل الممكنة. ويتحدد وجود «إغرم» الجماعة القبلية المتحالفة بموطن القبيلة المتزعمة «للحلف القبلي». ومنه تنطلق المجموعة القبلية المهاجمة على الجهات الأخرى وخاصة في حالة أخذ الثأر والانتقام القبلي، فهو إذن ظاهرة معمارية، وعمرانية ريفية بدوية مغربية تعوض العاصمة أو المدينة مركز سلطة الدولة في مجتمع عصر دراستنا.

يعني هذا أن تنظيم إغرم وأكادير ينتج «دولة القبيلة الحلف» وهذا هو ما أسميناه في الباب الأول من هذه الدراسة بـ«الدولة الجنينية»[120]. وهذا بطبيعة الحال يتلازم وجوده مع القبائل التي تحترف الرعي المحدود، وهذا النمط ينتشر وجوده في الجهات الجبلية، وينتشر في مناطق السهوب. فقبائل هذه المناطق تجمع بين الرعي والزراعة. وهذه هي التي نسميها أنصاف الرحل. والقبائل التي تزعمها موسى بن أبي العافية. كانت من هذا النوع. ولكي يتأتى لنا دراسة الحلف القبلي الذي تزعمه ابن أبي العافية، نرى من

---

(119) مصطلح «إغرام» بالراء ورد في معجم «مجمد شفيق» بالزاي المعجمة، فقال: تاغزامت، جمع تغزمين: دار الجماعة. وهذه لهجة بني سادن في نطق «أغرمت» (المعجم العربي - الأمازيغي ص 380 مادة «دور»). وقد اهتم الباحث أميل لاوست بالمصطلح بهذا المعنى (أنظر المرجع السابق)

Laoust : Contribution, p.70.

(120) أنظر الفصل الثالث من الباب الأول.

الواجب أن نتعرض لظاهرة القحط وسقوط الأمطار والمجاعة في بداية القرن الرابع الهجري/10م.

الظاهرة المناخية للمغرب في القرن 4هـ/10م والنظام القبلي

تعتبر المؤثرات الطبيعية في المسار التاريخي المغربي، من أهم الوقائع البارزة، وقد اهتم بتسجيلها أو على الأقل تدوين أهمها وتسجيل نتائجها، فجاءت وقائعها متلازمة في تدوينها مواكبة لاهم الأحداث الحربية التي عرفها تاريخ المغرب[121].

وفي القرن الرابع الهجري/10م عرف الغرب الإسلامي تعاقب سنوات من الجفاف والقحط والمجاعة والأوبئة والطاعون، ولكن أقساها وأشدها خطرا في المغرب الأقصى، المجاعة العظمى سنة 303هـ/916م. ووصفتها مصادرنا «بالمجاعة العظمى»[122]. وقحط أعوام 342هـ/954م-344هـ/956م. وقحط 379هـ/990م، وعام المجاعة الكبرى التي دامت ثلاثة سنوات(381-384هـ/991-994م) فقلت الأغذية وهلك الناس. وكانت موارد الإنسان المغربي مرتبطة ارتباطا وثيقا

---

(121) نحيل هنا على أبرز المصادر الممثلة للإهتمام بالمظاهر الطبيعية:
1) ابن عذاري : البيان المغرب، ج1 ص 181-194-195-256.
2) ابن أبي زرع: القرطاس ص 96-102، ص 114-119.
3) الناصري: الإستقصا.
وأخذت تظهر أبحاث تحليلية تعالج تاريخ المغرب على ضوء هذه الظاهرة الطبيعية، وأهم هذه الأبحاث التي اهتمت بالموضوع في تاريخ المغرب الحديث.
Rosenberger (B) et Triki (H): Famines et épidémies au Maroc aux XVI et XVII siècles, in Hespéris-Tamuda, Vol.V, 1974 et Vol.VI 1975.

(122) القرطاس ص 98، الإستقصا ج 1 ص 164.

بالأرض. من زرع وماشية. وفي ظروف سنوات القحط يبرز، دور «المطامير» و«لأمراس» والهجوم عليها، حيث تتحرك قبائل الجهات المتضررة بالزحف على مخازن الحبوب، مما يخلق أشكالا أخرى من أشكال الصراع القبلي. وفي الغالب تقام هذه المخازن الجماعية في المناطق المرتفعة المنيعة، وفي فترات القحط يتبلور الهجوم عليها، ويظهر وكأنه صراع بين المنخفضات والمرتفعات وهو نزاع تقليدي بين الجبل والسهل. ويستفحل أمره عندما يشتد ضغط المجاعة والقحط ومطالب بيت مال الدولة. ويعني هذا أن التنافس القبلي يكتسي في غالب صوره طابعا إقتصاديا بوجه خاص.

إن ظاهرة الهجوم على المخازن الغذائية وحتى على حقول الزراعة قرب حصاد زرعها في بلاد المغرب، وتردد صداها في فتاوي فقهاء عصر دراستنا، وخاصة فتاوي ابن أبي زيد القيرواني(123). وقد اهتمت نوازل فقهية أخرى بحياة الريف والبوادي المغربية وأعطتنا صورة تنظيمية لمجتمع الريف المغربي، ورغم أن مؤلفي هذه الفتاوي جاءوا في عصور متأخرة، فإنها تعكس

(123) لم تصلنا فتاويه بنصوصها الأصلية، ولكن الفقيه الونشريسي لخصها في «المعيار» ج8 ص 143-153 (طبعة حجرية بفاس). ونجد صورة مماثلة في فتاوي ابن رشد ص 996-1021 (طبعة دار الغرب الإسلامي)، وفي نوازل ابن سهل (تحقيق خلاف). وكذلك في نوازل القاضي عياض (تحقيق محمد بن شريفة). وبمتابعة نصوص الفتاوي التي وصلتنا من ابن سهل وابن رشد إلى الونشريسي (ق5هـ- ق10هـ)، نسجل أن الفقهاء عملوا على التوفيق بين الأعراف المحلية والأصول الفقهية، كما أن فتاويهم عكست الواقع الإجتماعي للعمل الزراعي في المنطقة المغربية، ولكن مرحلة ما بعد القرن الخامس الهجري هي مرحلة الوحدة المغربية التي طبقت في الغالب أراء فقهاء البلاد المغربية والأندلسية. (أنظر برنشفيك): تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (الترجمة العربية) ج2 ص 204-223.

الصورة الإجتماعية القديمة التي ترجع صورها إلى ماقبل الفتح الإسلامي[124] . وظاهرة الهجوم على الممتلكات الخاصة والعامة استمرت قائمة[125]، مما أدى إلى ظهور نظام «الزطاطة»[126]. وهي ما يعطيه المارة لحاميهم في الطريق المخوفة، وتؤكد المصادر الفقهية بالمغرب «أنه جرى العمل بالحكم بالزطاطة، لمن يحمي المسافرين بالسلاح والشجاعة»[127]، وكان أداؤها على عدد أحمال القافلة، وليس على قيمة ما يوجد بالقافلة من سلع وأموال. وبهذا أفتى فقهاء المغرب العربي والأندلس وبه جرى العمل في خفارة تجارة القوافل، وكان نقض هذا العرف والحكم الفقهي، يؤدي إلى تأديب القبائل المخالفة[128]. وهذا ما أفتى به وسجله الفقيه أحمد بن نصر الداودي (تـ 402هـ/1012م) بتلمسان[129]. واعتبر ما يعطى لخفارة القوافل في الطريق، عبارة عن هدية في مقابل حراسة الأنفس والأموال. مثلها مثل أجرة «الدليل على الطريق». وحدثت خلافات بين رجال

(124) نحيل هنا بالخصوص على كتاب الشيخ أبى القاسم العشاوي السجلماسي الذي سماه «فتح الجليل الصمد في شرح تكميل المعتمد». وقد اعتمدنا على نسخة خطية في مكتبتنا ولهذا نحيل عليها برسم «مخطوط خاص».

(125) ابن رشد الفتاوي. (تحقيق المختار بن الطاهر التليلي)، طبعة دار الغرب الإسلامي 1987 ج2 ص 1017 نازلة 196. حيث طرحت النازلة «قوم من قبائل شتى في الصحراء يتغاصبون فيما بينهم، وليس لهم مال غير الماشية، وهذا الغصب المذكور فيما بينهم من قديم بين آبائهم وأجدادهم، وأنهم يتوارثون ذلك الملك المغصوب فيما بينهم، وليس لهم».

(126) أبو القاسم العشواي: فتح الجليل الصمد (مخطوط خاص) ورقة 77 وأط.

(127) نفسه والروقة.

(128) الونشريسي : المعيار ج 9 ص 546 نوازل البيوع.

(129) أبو القاسم العشاوي: فتح الجليل الصمد، ورقة 177 ظ. ولخصها. الونشريسي: المعيار : نوازل الجهاد، ونوازل البيوع.

التجارة وقوافلهم مع القبائل التي يمرون بأراضيهم، حول مسألة الزطاطة (ضريبة المرور والحراسة)، مما جعل التجار يطرحون أسئلة كثيرة على الفقهاء وتمحورت الأسئلة، هل تكون الأجرة على الرؤوس وعدد المسافرين أم على الأموال؟ وانتهى تحليل الفقهاء إلى ماجرى به العرف وهو عدد الاحمال الموجودة في القافلة. وهذا تابع لما افتى به الشيخ سحنون[130].

هذه الوضعية أثارت مشكلة «القبائل التي لايصلها حكم السلطان» وعالجوها من زاوية الحكم الشرعي، ويقومون بقطع الطرق وإفساد السابلة ونهب الأموال، فكان رأي الفقهاء هو «فرض عقوبة مالية» على هذه القبائل، لأن القبائل التي لاتنالها الأحكام السلطانية، لايمكن تنفيذ العقوبة البدنية فيها. ومحاولة تنفيد العقوبة البدنية مدعاة للفتنة والفساد، ويؤدي إلى منكر أعظم. ولذلك يتعين على الخليفة والسلطان أن يقوم بفرض سلطانه . لتنقطع إذايتهم[131]. وقد تسلطت القبائل على بعضها في ظروف الفتن والاضطرابات طيلة القرن الرابع هـ/10م وحتى في كل الفترات التي تضعف فيها السلطة المركزية، ومن هذه الفتاوي ماجاءعند فقيه مغربي من قبيلة«بني زروال»[132]

---

(130) مدونة الإمام مالك برواية سحنون، ج 5 ص 143.

(131) أبو القاسم العشاوي: فتح الجليل الصمد، ورقة 256. وقد نقل فتوى أحمد بن نصر الداودي المتوفى 402هـ/1012م. حيث وصف عصر الدواودي بأنه كان عصر «محن وفتن وهرج» وأضاف إلى أنه يتعذر الحكم بغير العقوبة المالية.

(132) أبو الحسن الصغير الزرويلي: الدر النثير، (مخطوط خاص) نحيل على نازلة من نوازله بباب «البيوع والإجازات». ومن خلال نوازل فقهاء المغرب خلال العصور الإسلامية الأولى يتردد موضوع الترامي على أملاك الغير، وغصب الأراضي، مما يثبت حقيقة انعدام السلطان في المجال الجغرافي المغربي. وقد اعتمدنا على نوازل أبى الحسن الصغير الزرويلي لخصوصيتها المغربية وإعتمادها على موافقة العرف المحلي لتطبيق الشريعة الإسلامية بناء على مذهب الإمام مالك.

ولايهمنا الحكم الفقهي فيها بقدر ماتهمنا النازلة، ونص سؤالها «وسئل رحمه الله، عن قوم قتلهم أعداء لهم، فانجلوا عن بلادهم، وفيهم كبار وصغار، وقد أيسوا من الرجوع لتلك الأرض لما يخافون من قتل أعدائهم إياهم، فهل يجوز لهم بيع أرضهم هناك، إذ لايقدرون على الوصول إليها، ولا على استغلالها؟».

المهم أننا أمام حقائق كبرى في تاريخ المجتمع المغربي الوسيط، وأهمها واقع البوادي والأرياف حيث ساد فيها «سلطان القبيلة». وقد اعتبر فقهاء المغرب ظاهرة السطو القبلي من قبيل الغصب والترامي وهذه لايمكن ردعها إلا بسلطان الدولة المركزية وهي مسألة غير متوفرة وغير قائمة بصورة شمولية في مغرب القرن الرابع الهجري/10م. ومن هنا جاء سؤال أهل المغرب للفقيه القيرواني ابن أبي زيد[133]. وهذا يعني بوجه عام، أن عقلاء المغرب يبحثون عن مخلص من سلطان الظلم الإجتماعي القبلي. ولايتحقق ذلك إلا بالدولة التي يعم سلطانها مجموع البلاد كلها.

وهذا الوضع الإجتماعي تأثر في عملية تكوينه بالظروف المناخية إلى حد كبير، وقد اهتمت كتب الوقائع الحدثية برواية أخبارها، ويكفي أن نقف عند نماذج منها حسب أهميتها في تاريخ المغرب الأقصى الحدثي:

1- قحط ومجاعة سنتي 303هـ- 305هـ/916م-918م.

لاحظ الجغرافيون العرب ظاهرة التقلب المناخي في بلاد المغرب واختلاف جهاته في هذا التنوع المناخي، ولهذا تتفاوت الجهات المغربية في تأثرها بظاهرة «القحط» و«المجاعة». مما يؤدي إلى تحرك القبائل من الجهات المتضررة إلى الجهات الأقل تضررا أو الجهات التي لم تتعرض لمشكلة

---

(133) مجهول المؤلف: مفاخر البربر، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط) ورقة 140.

الجفاف[134]. فالجهات الشرقية من المغرب الأقصى، تلك التي تقع شرق حوض نهر ملوية أقل أمطار وحياة مائية من الجهات الغربية إبتداء من ممر تازة. وكذلك من الشمال إلى الجنوب، فأمطار المغرب الأقصى في شماله أكثر مقدارا منها نحو الجهات الجنوبية فيه. ولكن الصفة العامة التي أمكننا استخلاصها من مصادر الجغرافية العربية القديمة (أنظر خريطة رقم 10)، هي أنها غير منتظمة طوال السنين، فقد تسقط بانتظام في سنة أو سنوات وتنحبس سنة أو سنتين أو أزيد وهذه هي فترة «الجفاف» ولكن الأنهار تظل دائمة الجريان ماعدا القليل منها[135]. كما يرتبط بأحواض الأنهار مجال التنافس القبلي. مما يعني أن أساس المشاكل التاريخية بالمغرب الأقصى، هو مشكل «الماء». فهو القضية الإجتماعية والإقتصادية والسياسية«إن جغرافية المغرب الأقصى المائية، تظهر أمامنا متعددة المصادر، ولكن الأزمة قائمة كلما نقص سقوط الأمطار. وهذا لايفسرإلابعدم سيطرة المغاربة على مواردهم المائية،وهذا يعني أيضا تمركزالحياة في الجهات التي يسهل استغلالها. وقد تأسف صاحب كتاب الاستبصار[136]، على عدم الإستفادة من مياه نهر سبو الذي لايخرج إلى البطائح ليسقي مساحات واسعة. وينتج عن ذلك أيضا وجود شكلين من أشكال الزراعة: الزراعة المسقية والزراعة البورية البعلية المعتمدة على الأمطار. وهذه هي الأغلب.

---

(134) البكري ص 142. الإدريسي 221. الروض المعطار ص 3.

(135) نحيل هنا بالخصوص على تقويم قرطبة الذي يصدق إلى حد كبير على المغرب. ص 142-143. الإدريسي: نزهة المشتاق في مواطن كثيرة ابتداء من ص 220 طبعة إيطاليا. الزهري: الجغرافيا. الاستصار ص 184.

(136) الاستبصار ص 185.

وحول مشكلة المياة في الزراعة المسقية، تركزت فتاوي فقهاء المغرب الأقصى[137]. فالطبيعة الجغرافية للمغرب الأقصى، حددت، مجالات التنافس البشري، كما وجهت العلاقات بين السكان. فكانت الظاهرة القبلية، على مستوى الوحدة القبلية، أو على مستوى التجمع الحلفي، إنعكاسا للمؤثرات الطبيعية الكونية في المغرب الأقصى.

وفي سنة 303هـ/916م أشارت المصادر[138]، إلى القحط في المغرب الأقصى، وانتشرت مجاعته إلى الأندلس، ووصفت بالمجاعة العظيمة حتى أنها شبهت بمجاعة سنة 260هـ/874م التي ظهرفيها القحط العظيم والغلاء الفاحش، وأكل الناس بعضهم بعضا. ووقع الموت في الناس حتى عجزوا عن دفن موتاهم. واستمرت هذه الظاهرة إلى سنة 305هـ/918م. حيث خفت حدتها. وفي هذه الفترة ظهرت شخصية «موسى بن أبي العافية» زعيم قبائل البدو من تجمع مكناسة. فهل لهذه الظاهرة أثر في زحف مكناسة على مدينة فاس وتنظيم حلفها بزعامة موسى؟.

لاتسعفنا المصادر في الجواب، ولكن الامتياز الذي أعطى لهذه الزعامة في الحملة العبيدية الأولى سنة 305هـ/918م على فاس، وعلى نكور، وعلى بلاد غمارة يحملنا على أن نفترض وجود اتفاق أو وعد شفوي بتوطين مكناسة جبال تازة وما حولها في الجهات السهلية بحوض سبو.

وعندما نتابع حركة موسى بن أبي العافية في مرحلة تبعيته للشيعة العبيدين الفاطمين (305هـ/916م - 317هـ/929م)، فإننا نجد موسى بن أبي العافية في جموع قبائل «التجمع المكناسي» الخاص بحوض ملوية وجبال

---

(137) يكفي أن نحيل على الونشريسي : المعيار ج 8.

(138) ابن أبي زرع: القرطاس 98. الناصري: الإستقصار ج 1 ص 174. ابن حيان: المقتبس ص 109 (ورقة 71).

منطقة تازة. هذا التجمع الذي امتاز بنموه السريع في بداية القرن الرابع الهجري/10م. وذلك بتوسع قاعدته القبلية، هذه القاعدة التي ستصبح في أوسع مداها عندما يتحول ولاء موسى ابن أبي العافية إلى الخلافة الأموية الأندلسية ابتداء من سنة 317هـ/929م[139].

إن مراسلات ابن أبي العافية إلى الخليفة عبد الرحمان الناصر ، تتبث أن الرجل بذل جهدا كبيرا في سبيل توحيد بربر الجبال الواقعة جنوب وشرق مدينة فاس، ونجح في سبيل ذلك باعتباره زعامة محلية في مرتفعات أحواز تازة، وفزاز، وحوض نهر ملوية، ولكي يمكن أن نصدر حكما نزيها على موسى بن أبي العافية[140]، يجب أن نفحص المرحلة التي كان فيها تابعا للعبيديين. ومع الأسف لم تحتفظ المصادر الفاطمية بأية وثيقة من مراسلاته إلى الخليفة العبيدي، وإن أشارت المصادر إلى مكاتبته لهم[141]. ويظهر من خلال سياق الأحداث أن موسى بن أبي العافية كان يبحث عن اعتراف أعلى بزعامته الجهوية القبلية، فهل هذه خطوة ذكية منه لتأسيس «إمارة قبلية بدوية»؟ لتعوض إمارة قبيلة أوربة التي احتضنت الأدارسة في آخر القرن

---

(139) أنظر رسالة موسى بن أبي العافية إلى الخليفة عبد الرحمان الناصر سنة 323 هـ/935م. وقد عدد فيها القبائل التابعة له. ليقنع الخليفة بقوته ومكانته في شمال المغرب الأقصى. أنظر : ابن حيان : المقتبس، ص 369-371 (ورقة 250). مجلة الوثائق: عدد 1 ص 106-107.

(140) أحمد بن القاضي: جذوة الاقتباس - القسم الأول. طبعة دار المنصور- الرباط 1973 ص 343 ترجمة رقم 361. ونلاحظ أن ابن القاضي ترجم لموسى بن أبي العافية بعقلية كتاب القرن الحادي عشر للهجرة /17م. ولهذا تبرأ من انتسابه إلى قبيلة مكناسة لموقفه مع الأدارسة.

(141) أشار ابن عذاري: البيان 183/1 إلى مراسلات موسى بن أبي العافية إلى الخليفة العبيدي، وكذلك من نقل عنه.

الثاني للهجرة/8م. هذا احتمال عبرت على مصداقيته مجريات الأحداث في القرن الرابع الهجري/10م. وأشار إلى هذه النتيجة العلامة ابن خلدون بقوله:«وعليه كان انقراض أمرهم (الأدارسة) وانقراض سلطان أوربة من المغرب»[142]. وهكذا تلازم إقرار الدولة في العاصمة المغربية فاس بما يجري في البوادي من صراع قبلي، فنهاية «التجمع الأوربي» تفرض ولادة حلف جديد، وهو في بداية القرن الرابع الهجري/10م «حلف مكناسة الجبل».

فالمتابعة الوقائعية من شأنها أن تمكننا من ترجيح وعود فاطمية عبيدية ولو على الأقل شفوية، بتولية موسى بن أبي العافية على المغرب الأقصى، واعتراف بسلطة حلفه المكناسي. وقد نفذ ذلك فعلا القائد الشيعي «مصالة بن حبوس المكناسي»[143]. ولكن موسى بن أبي العافية لم يكن على بينة وعلم بالقواعد الإدارية التي كانت الخلافة الفاطمية تطبقها في مناطق نفوذها، ومن أهمها في هذا السياق، أن الفاطميين كانوا لا يتركون واليا من ولاتهم أو حليفا

---

(142) ابن خلدون : العبر ج 4 ص 34 طبعة بيروت 1958.

(143) تعتبر حملة مصالة ابن حبوس على المغرب الأقصى باسم الخليفة العبيدي سنة 305هـ/917م، حملة فرض الوجود لتأمين المصالح التجارية، ولهذا لم توجه ضربتها الصارمة والنهائية للدولة الإدريسية. كما أنها لم تحل مشكلة الانقسام القبلي الداخلي، بين مكناسة وأوربة وعندما عين مصالة بن حبوس، موسى بن أبي العافية على فاس، أدى هذا التقريب المكناسي إلى جعل النفوذ والسلطة في يد بدو بربر الجبال، وفتح هذا مجال الانتقال المكناسي إلى سهول فاس. وهذا يعني أن الباب فتح من جديد للتنافس القبلي، والغلبة فيه بطبيعة الحال للقوى القبلية المكناسية. أنظر تطور الأحداث في دراسة: الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج3 ص 87-90. الدكتور حسين مؤنس تاريخ المغرب وحضارته ج1 ص 391-394. الدكتور محمود اسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 219. الأدارسة ص 93. Eustache: Dirham , p.21 Note 89.

من حلفائهم، يطمئن في مكان لأمد طويل. وهذا ما أدركه عمليا عندما عوض بريحان الكتامي، في الحملة الثانية التي قام بها مصالة بن حبوس على المغرب الأقصى بين سنتي 308هـ/920م - 309هـ/921م[144].

وهذه الظروف السياسية والحربية، والطبيعية من مجاعة وقحط في العقد الأول من القرن الرابع الهجري /10م (سنوات 303هـ: 305هـ307هـ)، خلقت في شمال المغرب الأقصى، أزمة اجتماعية، وقد ظهرت واضحة في زحف قبائل مكناسة على مدينة فاس، ونكور، ومطاردة أمراء الأدارسة. كما تزايد في هذا العقد عدد القبائل التابعة «لحف مكناسة الجبل» وقد تكلم موسى بن أبي العافية على قاعدته القبلية في رسالته إلى الخليفة الأموي عبد الرحمان الناصر سنة 323هـ/935م[145]،«وصارت إلينا قبائل أهل المغرب بأجمعهم من كل مكان». يعني هذا أن الحلف الأوربي فقد قوته، وتحولت قبائله إلى الحلف المكناسي. وحيث أن الأدارسة لم تكن لهم سلطة «الخلافة الإسلامية»وإنما كانت وضعيتهم على مستوى «الإمارة» فإنهم يعتبرون تابعين للخلافة الإسلامية الكبرى، لذلك لايمكنهم إضفاء الشرعية على موسى بن أبي العافية. ومن هنا اعتبروا أمراء مستقلين جهويا، مثل موسى بن أبي العافية، رغم الفرق

---

(144) مسألة التدخل العبيدي في المغرب الأقصى بين 305هـ/916م -309هـ/920م تضاربت فيها الروايات والتواريخ زمنيا مما جعلها عند الباحثين « مشكلة تتطلب الحل» ولقد ضبطها الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج 3 ص 87-90. وانتهى الباحث إلى ترجيح رواية ابن عذاري بالنسبة إلى الحملة الثانية لصالة على مدينة فاس التي رجح وقوعها في سنة 308هـ/ 921م. ابن عذاري : البيان ج1 ص 183. وهذا أيضا ما ذهب إليه كل الباحث فرحات دشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب (بالفرنسية ص 151 هامش 193).

(145) ابن حيان: المقتبس ص 370 (ورقة 251).

النسبي بين الطرفين، وأي منهما أيد الطرف الخلافي فإنه يكتسب الشرعية التي تضفيه عليه الخلافة القائمة.

2- مجاعة وقحط سنوات 339هـ-950/344م-955م

على المستوى المناخي كانت هذه السنوات، بناء على ما أخبرتنا به المصادر ، سنوات صعبة، صعبة جدا، تعاقبت فيها الكوارث الطبيعية، من أمطار عاصفية مهلكة غير منتظمة فلاحيا، نتجت عنها سيول جارفة، وقحط في الظروف التي لايتطلب الزرع فيها ماء لانباته ونموه، مما أدى إلى طلب الغيث في وقت انباته فصلى الناس «صلاة الاستسقاء»، وبلغت المأساة أوجها في سنة 344هـ/955م، وكانت هذه السنة سنة الطاعون، فضرب وباؤه بلاد المغرب: «فعم المغرب والأندلس، هلك أكثر الخلق»[146].

وصاحب هذه السنوات «العجاف» تحرك قبائل الجهات الشرقية من المغرب الأقصى، وكذلك تحركت قبائل المغرب الأوسط، نتيجة لعوامل متعددة: أهمها على المستوى السياسي والحربي: عامل الصراع بين الخلافتين الفاطمية بإفريقية، والخلافة الأموية بالأندلس، على المغربين الأوسط والأقصى. ثم عامل قساوة الطبيعة من قحط وجفاف، وظهور المجاعة. ثم عامل الخلافات الداخلية بين المجموعات القبلية الكبرى التي تباينت مواقف زعمائها من الخلافتين ابتداء من سنة 333هـ/944م. مغراوة بزعامة محمد بن خزر، وابنه الخير، وعبد الله بن خزر، وكلهم تابعون للخلافة الأندلسية، وبنو يفرن بزعامة بني يعلى بن محمد بن خزر اليفرني. الموالي للأندلس أيضا. ثم مكناسة الجبل بزعامة «البوري» بن موسى بن أبي العافية. وقبائل التجمع البرغواطي، وقبائل

---

(146) القرطاس ص 100. الاستقصا 176/1.

التجمع المدراري (بنوواسول)، وقبائل التجمع الهسكوري بدرن، وتجمعات أخرى وخاصة في جبال غمارة بشمال المغرب الأقصى.

ظهرت هذه التجمعات القبلية البدوية تتحرك من أجل تكوين «اتحاديات مستقلة» على إمارات جهوية. وهذا في نظرنا يعتبر «تطورا جديدا» في النظام القبلي المغربي. الذي أخذ ينتقل من الانقسام القبلي الاثني الجزئي، إلى الإنقسام المكاني الجهوي. وصار تحديد وضبط ظواهره الإجتماعية، مرتبط بالمؤثرات الجغرافية التي تتحكم في طبيعة الإنتاج الإقتصادي، من حياة النظام الرعوي، والنمط الزراعي. وبالمؤثرات السياسية والحربية التي خلقتها جيوش الخلافتين القويتين من عبيدية وأموية أندلسية. ولهذا تبلورت وضعية هذه التجمعات القبلية البدوية الجديدة على شكل «إمارات مستقلة»، بعد حملة الخلافة الفاطمية الكبرى بقيادة «جوهر الصقلي» سنة 347هـ/958م.

3- قحط ومجاعة السنوات الثلاث 379هـ-381هـ/989م-991م.

اعتاد المغاربة طيلة تاريخيهم على نظام الدورات المناخية وما يحدث فيها من تقلب مناخي، الذي ينعكس على حياتهم العامة كما انعكس أيضا على «نظام غذائهم» وطبيعة علاقتهم الجماعية. ويظهر مخزون الذاكرة التاريخية المغربية، في فترات المجاعة والقحط، على أشكال متنوعة. في صناعة «الخبز» في تعاملهم مع النباتات واستغلالهم لها. وفي صراعهم على مناطق وجودهم. وفي تقديسهم للظواهر الطبيعية. ففي سنوات المسغبة لم تكن «الحبوب» وحدها هي مادة الخبز والغذاء المغربي. وقد أمدنا «ابن البيطار» في رسالة العقاقير، وفي كتابه «الصنائع» بصور من أشكال التغذية المغربية في العصور الوسطى، وخاصة في ظروف المجاعة. كما ساعدتنا كتب الحسبة في المغرب الإسلامي بصورة مماثلة. حيث تكلموا على أشكال الخبز ومادة صناعته، ووصف مشاكل

الخبازين. وفي الظروف الصعبة يصبح معنى «الخبز» يحمل معنى عاما، ويصير معناه «أسباب العيش والرزق» وكل ما يساعد على مقاومة الجوع من نباتات طبيعية وبرية وثمار الغابات وحشائشها. وقد اهتمت مصادر عصر دراستنا بظروف الجدب والقحط، مما أعطانا صورة تقريبية عن أعظم وأكبر مشكلة في اقتصاد العصور الوسطى في المغرب الأقصى خصوصا والعالم الإسلامي عموما.

ولعل المفارقة الأساسية بين الخلافتين العبيدية والأموية، تكمن في سلوك كل منهما مع أهل المغرب الأوسط والأقصى في ظروف القحط والمجاعة. فالسياسة الفاطمية كانت مبنية على إرهاق السكان بالمطالب الضريبية، وعدم رفع السوط عليهم، وهذه سياسة تجويعية. أما الخلافة الأندلسية فكانت على العكس، ففي نفس الظروف الصعبة كان الخليفة عبد الرحمان الناصر، يقدم الحبوب للمتضررين بالجفاف(147). وساعدنا ابن العوام في استخلاص صور الادخار وأشكال الخزن، ومعرفة خبز فترات القحط والمجاعة عند أهل المغرب في القرن الرابع الهجري/10م. ومعلوماته متشابهة مع معلومات ابن البيطار الذي أتى بعده(148). وفي ظروف المجاعة والقحط، تقل الزروع الرئيسية من قمح وشعير ويصبح الاعتماد على الزروع الثانوية، وتصبح الأهمية للحبوب التي كانت تعطى للماشية والطيور مثل الذرة البيضاء وتجدر الإشارة الى اختلاف

---

(147) ابن حيان : المقتبس. ص109 (ورقة 71).
وقد تحدث ابن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية عن أشكال الاسعاف من كارثة القحط والمجاعة في العصور الإسلامية الأولى.

(148) ابن العوام : الفلاحة. أنظر الترجمة الفرنسية/ فهرست (مجاعة)
ابن البطار (عبد الله بن أحمد): الجامع لمفردات الأدوية والأغذية. نشر مكتبة المثنى بغداد.

العادات الغذائية في الجهات المتنوعة من المغرب الأقصى، وهنا تظهر أمامنا آثار «الوسط الطبيعي» في النظام الغذائي المغربي في العصور الوسطى. فابن حوقل يصف أهل الصحراء أي سكان الرمال كانوا يجهلون التغذية بالبر والدقيق ويقتصرون على اللبن واللحم[149].

إن المصادر التي أرخت للمغرب في عصر دراستنا، قدمت لنا معلومات عن المجاعات، وفترات القحط والجفاف وما نتج عنها من أمراض وأوبئة وطاعون، وما ترتب من اضطرابات ومن أصعب وأقصى تلك الظواهر، ما حدث في السنوات الثلاث 379هـ/989م-381هـ/991م، إلا أن سنة 381هـ/991م كانت هي السنة الصعبة ووصفت بعام المسغبة. وانتشر فيها الوباء العظيم والأمراض الكثيرة. ببلاد المغرب والأندلس وإفريقية. ويظهر أن الجفاف لم يكن عاما حيث كانت مناطق الواحات الجنوبية من المغرب الأقصى على خلاف وضعية الجهات الغربية الشمالية، فأمطرت سجلماسة وجاء واديها (زيز وغريس) بسيل عظيم لم يعهد مثله، ولم يرى بتلك الأرض كلها في تلك السنة مطر»[150].

والملاحظ هو تعاقب السنين في هذه المدة (379هـ-382هـ) سنة جفاف ومجاعة ثم سنة رخاء وخصب ثم مباشرة سنة مجاعة. هذا الوضع الغريب، لايرجع إلى الظروف الطبيعية بقدر ما يرجع إلى ظاهرة السلب والنهب والتخريب، التي تحدثها القبائل البدوية المهاجمة، وهذا ما كانت تحدثه قبائل مغراوة في مدينة فاس فقد «كان سفهاؤهم وعبيدهم يصعدون على قنة جبل

---

(149) القرطاس ص 102. الاستقصا ج 1 ص 207.
وأشار صاحب القرطاس إلى أن سبب جفاف سنة 379هـ هو رياح الشرقي التي دامت ستة أشهر، وأعقبها الوباء العظيم.

(150) القرطاس ص 114-115. الإستقصا ج 1 ص 164.

العرض، فينظرون إلى الدور التي بالمدينة، فإذا رأوا دارا بها دخان قصدوها وأخذوا ما وجدوا بها من طعام أو غيره»[151]. ولكي يتمكن أهل فاس من حماية أرزاقهم وأمتعتهم، ابتدعوا أساليب الإخفاء المتعددة، وأشار الناصري[152] إلى ظاهرة المطامير بداخل مدينة فاس: «وفي أيامهم (مغراوة) اتخذ أهل فاس المطامير في بيوتهم للطحن والطبخ لئلا يسمع دوي الرحى، فتقصدهم سفهاء مغراوة» ولم ينته الأمر عند مسألة المأكولات. بل لجأ سكان المدينة إلى إخفاء أنفسهم ونسائهم وأبنائهم ، فأشارت المصادر إلى ذلك بقولها «وفيها أيضا (أيام مغراوة)اتخذوا غرفا لا مراقي لها حتى إذا كان عشى النهار صعد الرجل بأهله وعياله إليها بسلم، ثم يرفع السلم معه لئلا يدخل عليه فجأة. وكان من هذا شيء كثير[153]. هذا يعني أن الأزمة عميقة جدا، قساوة الطبيعة من جهة، وظلم البدو واعتداؤهم من جهة أخرى.

إن هذه الظروف الإقتصادية الصعبة خلقت علاقات متوترة بين الجهات المغربية، وانتقلت التنافسات القبلية إلى مستوى جهوي. صنهاجة إفريقية الزيرية ضد تجمعات زناتة الجهات الغربية المنقسمين إلى إمارات مستقلة جهويا. وهذه الإمارات البربرية، تتصارع على مناطق النفوذ الحيوية فيما بينها. ذلك أن بني يفرن ضد مغراوة، وضد برغواطة، ثم مغراوة سجلماسة ضد التجمعات الصغرى المجاورة لهم بدرعة. ثم ظهور مصمودة غمارة وتقلباتهم بين بقايا الأدارسة والنفوذ الأموي الأندلسي.

إن هذا الوضع الممزق الإنقسامي على جميع المستويات هو الذي طبع تاريخ المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/10م. والذي

---

(151) الاستقصاء، ج 1 ص 206.

(152) نفسه ص 207.

(153) نفسه ص 208.

انتهى باقتصار كل إمارة قبيلة على الاحتفاظ بما كان في حوزتها من المجال الحيوي. فبقيت فاس والمناطق التابعة لها من نصيب أسرة «زيزي بن عطية المغراوي»، وسلا أو على الأصح «شالة» و«تادلا» في أسرة «يعلى» بن محمد بن صالح اليفرني». وسجلماسة والمناطق التابعة لها من نصيب «بني خزرون بن فلفل المغراويين». وأغمات في يد المغراويين الذين أسسوا أسرة«بني وانودين».

هذه الخريطة الجديدة التي ولدت في حمأة الصراع القبلي، وثقل الجيوش الخلافية الكبرى، وحتمية الأزمات الإقتصادية التي أنتجتها المجاعة والقحط والأوبئة والأمراض القاتلة. هذه الوضعية الانشطارية، ليست طبيعية في «الجسم الإجتماعي» المغربي، ولذلك كان نزاعا إلى الحل والبحث عن الخلاص والوحدة الشمولية سياسيا وإجتماعيا وإقتصاديا وروحيا. فهذه الخريطة هي نتيجة لتطور الأوضاع القبلية التي تطورت إلى أحلاف قبلية، وانتهت في نهاية القرن الرابع الهجري/10م إلى أحلاف جهوية أو إمارات الأحلاف الجهوية.

إن التفاعلات المؤثرة في التاريخ المغربي في القرن الرابع الهجري /10م كان صداها واضحا في حركة القبائل الرحل من أهل المغربين الأوسط والأقصى. حتى برزت في المصادر التاريخية، وكأنها هي كل شيء في تاريخ «المجتمع المغربي» خلال عصر دراستنا. مع أن الواقع التاريخي للمغرب الأقصى، كان يتوفر على عناصر أخرى، كان لها حضور فعلي وحقيقي في مساره العام، ونعني بها الفلاحين المستقرين، العاملين في حقولهم، وأهل المدن على قلتها في هذا العصر. كانت هذه العناصر قوة بشرية كبيرة، ومنتشرة في كل جهاته من مناطقه الزراعية. (أنظر خريطتي 8و9، وقارن ما جاء في جدول المناطق الزراعية بالمغرب الأقصى بالفصل 1 من الباب 2). وكانت حياتها الفعلية في

الأرض المغربية، التي ساد فيها الخوف، والفتن، وعدم الأمن على مصالحها الإجتماعية والفلاحية طيلة هذا القرن الذي نحن بصدد دراسة تاريخ المغرب الأقصى فيه.

هذه الشريحة من المغاربة، كانت في ظل الأحداث، ولكنها لم تكن خارجة عنها، بل مستها في العمق، وكانت لها ردود فعل تختلف إلى حد كبير عن نوعية الأحداث التي طبعت حياة مجتمع الرحل، فطبيعة نظام علاقاتهم وارتباطاتهم وتنظيماتهم الإجتماعية، تعتبر من حيث الأنساق الإجتماعية متميزة عن غيرها فالإلتحام الإجتماعي عندهم ينطلق من الأرض والزراعة فيها، أما البدو الرحل فينطلق الإلتحام والتضامن من القاعدة الإقتصادية المتحركة وهي الماشية. لهذا التمايز أطلقنا على نظام التضامن عند الفلاحين المغاربة في عصر دراستنا، مصطلح «عصبية الظل» فماهي طبيعة هذه الظاهرة، كما أمكننا تصورها؟

هذا السؤال هو محور الفصل الرابع من الباب الثاني في هذه الدراسة.

الفصل الرابع من الباب الثاني

عصبية الظل وتطور الأحداث في مجتمع المغرب الأقصى خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري /10 م

الفصل الرابع من الباب الثاني
عصبية الظل وتطور الأحداث في مجتمع المغرب الأقصى خلال النصف الأول من القرن 4هـ / 10م

كانت وجهتنا في الفصل الثالث من الباب الثاني نحو البحث عن الأسس والعوامل المحركة التي كانت تعتصر المجتمع المغربي في الداخل، وبرزت أمامنا عوامل التنظيم القبلي، ومحركاته في تفاعلاتها مع المكان وضمن زمن الإنقسام في المغرب الأقصى، هذا المكان الذي امتاز بالتنوع الطبيعي الذي أثر في نظام حياة سكانه من رعاة ومستقرين. فأرغمهم على الخضوع لتنوعه، وجذبهم إليه بصرامة وقوة، فخلق منهم قوة إجتماعية متنوعة جهويا ضمن منظومة موحدة شموليا.

وتعرض هذا الوضع لتداخلات عسكرية وسياسية وتوجهات دينية، فكان ذلك «فعلا سياسيا» أنتج إعادة تشكيل جديد، يمكن أن نسميه «مجتمع الإستقلال الجهوي» وإعادة التنظيم الحلفي الذي سيصبح حقيقة واقعية في النصف الثاني من القرن 4 الهجري / 10م. ولذلك نعالج هذه الجوانب في مسألة عصبية الظل والتدخلات الكبرى.

لم تهتم مصادر التاريخ الحولية، بتاريخ المجتمع الزراعي. وأخباره جاءت عرضا بحكم تبعيته للتاريخ السياسي والعسكري. ولكن المصادر الفقهية (كتب الأحكام والنوازل) تعتبر أهم مورد معرفي في هذا الجانب، بالإضافة إلى كتب الفلاحة والمصادر الجغرافية العربية القديمة، وكتب النبات والعقاقير الطبية.

تناول الفقهاء المغاربة أنظمة استغلال الأرض الزراعية ومعاملاتها الشرعية، في أبواب المغارسة والمزارعة، والمساقاة. وترجع نظرياتهم الفقهية إلى

القرنين الثاني والثالث للهجرة - الثامن والتاسع للميلاد. وأدى ذلك إلى تعديل طرق التصرف والاستغلال، وإعادة تنظيم العلاقات الاجتماعية، وتبديل المنتفعين والعاملين في الأرض بما يتوافق مع الشريعة الإسلامية، وتنظيم الدولة، واحتياجاتها المالية، تبعا للمتغيرات التي طرأت على المجتمع بعد الفتح الإسلامي له فتحاإجتماعيا. ولايعنينا أن نعالج وضعية الأرض وحكمها القانوني[1] . وإنما يهمنا أن نعالج وضعية النظام الإجتماعي للفلاحين على الأرض.

ففي سنة 122 هـ/740م أعلنت ثورة الخوارج في شمال المغرب الأقصى، في منطقة غمارة الجبلية، وكان شعارها هو المطالبة بالعدل وتطبيق حكم الله، فهل تعتبر من الوجهة الإقتصادية والإجتماعية ثورة البدو الفلاحين؟ فهي قطعا ثورة ريفية مغربية بدون منازع. ولكن رجالها من الرعاة انتقلوا بعد قهر الجيوش الكبرى، إلى جهات أخرى، تعتبر من الوجهة الفلاحية أقاليم زراعية ، وهي سجلماسة التي تعتبر من أقاليم الواحات الجنوبية، ثم إقليم تامسنا، التي تعتبر منطقة الزراعة البعلية البورية في المغرب فأنشأوا إمارة برغواطة. وجاءت تحركات قبلية وثورات سياسية ولكن الفلاحين ظلوا في جهاتهم يباشرون حياتهم الزراعية رغم ما كانوا يتعرضون له من مطالب مالية، وتعاقب دورات الجفاف.

وقد ساعدتنا مصادر الجغرافية العربية القديمة، على معرفة أهم القبائل المستقرة في مشال المغرب الأقصى بوجه خاص، ويكفي أن نرسم جدول أهم هذه القبائل التي كانت مستقرة بالمنطقة في حدود القرن الخامس الهجري/

---

(1) عبد الرحمان بن عبد القادر الراشدي: التعريج والتبريج في أحكام المغارسة والتصيير والتوليج (طبعة حجرية)،ص 33-40. الونشريسي: المعيار ج 8-9 .

ام [2]. وهؤلاء هم الذين وصفتهم المصادر بـ«البربر المصامدة» [3]. ووصفتهم هذه المصادر بأنهم «برابر يلبسون الأكسية ويربطون العمائم» [4]. ويحدد البكري [5] قبائل المصامدة بقوله «بطون مصمودة تتشعب من أربع قبائل: دغاغ، وأصادة، وبني سمغرة. وكتامة». كما يحدد أيضا صنهاجة في شمال المغرب الأقصى، ويجعلهم من قبيلتين هما بنو«قار» وبنو«حزمار». وقد أمدنا البكري بقبائل هذا القسم الشمالي من المغرب الأقصى [6]. ويمكن أن نتبع التقسيم الذي اعتمده الجغرافيون العرب من البكري إلى الشريف الإدريسي لهذه المجموعات ، فنراها على الشكل الآتي:

أولا- قبائل فاس وما إليها شمالا إلى البحر الأبيض المتوسط: وسكان هذه الجهات الجبلية، قبائل مستقرة، وتركز مصادرنا على ذكر القبائل الآتية:

1) في الجنوب الشرقي من فاس: بهلولة، وفندلاوة، ومكلاتة، ومجاصة، وغياثة، ومطماطة، وتسول، ومكناسة ومغيلة.

---

(2) يهمنا هنا أن نرصد أسماء القبائل التي كانت لها إستمرارية الوجود منذ الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري. وبقيت ملتصقة بأماكنها إلى بعد القرن الخامس. ونقصد بشمال المغرب الأقصى هنا الجهات الواقعة في شمال حوض نهر سبو، إبتداء من مضيق تازة شرقا إلى مصب سبو في المحيط الأطلسي غربا.

(3) الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 222 (ط.إيطاليا 1978).
البكري: المسالك ص 784 فقرة 1313 ط. تونس . إبن حوقل: صورة الأرض ص 80 -81. اليعقوبي: البلدان ص 356-357. ابن خرنذابه: المسالك ص 90-91.

(4) الإدريسي: النزهة ص 246.

(5) البكري: المسالك ص 782 فقرة 1310.

(6) أنظر جداول الخريطة البشرية للمغرب الأقصى في الفصل الثاني من الباب الثاني من هذه الدراسة.

2) في الجنوب الغربي من فاس ومكناسة الزيتون: بنو تاورة، وبنو عطوش، وبنو بسيل، وهفيلة، وبنو مصمودة، وبنو ورياغل، وأوربة، وصبغاوة.

ووصف الشريف الإدريسي هذه القبائل ومواطنها [7]: «وهي من أخصب البقاع أرضا وأنماها زرعا، وأكثرها خيرا، وأنجبها نتاجا».

3) الشمال الشرقي من فاس إلى ذلك من بلاد الريف: لمطة، ومرنيسة، وبنو وليد، وبنو يرنيان، وبنومراسن، وبنو تاودة، وجنيارة، وكزناية، وبنو يصليتن، وبطوية، وبنو يطوفت، وفشتالة، وسلاس. وبنو ورتدي، ومسطاسة. وكبدانة. والقلوع، وتمسمان، وغساسة، وبنو حميد ، وبنو زروال.

4) الشمال الغربي لفاس ومكناسة: بنو مزكلدة، وبنومسارة، ورهونة، وسطة، وبنو ورياغل، وبنو حميد، ومجكاسة، ومصمودة، وهوارة، وزهجوكة، وكتامة، ومطغرة، ومتنة، وأصادة. وهذه القبائل تعرف أيضا بقبائل غمارة.

وقد أعطانا الإدريسي صورة مركزة عن هذه المجموعة الغمارية [8]: «وجبال غمارة بلاد متصلة بعضها ببعض كثيرة الشجر والغياض وطولا نحو من ثلاثة أيام، ويتصل بها من ناحية الجنوب جبال الكواكب، وهي أيضا جبال عمارة، كثيرة الخصب، وتمتد في البرية مسيرة أربعة أيام حتى تنتهي قرب مدينة فاس، وكان يسكنها غمارة».

ثانيا- قبائل السهول الغربية: سبق لنا في الفصل الثاني من هذا الباب الثاني أن تابعنا «القاعدة القبلية» لبرغواطة، ولا داعي لتكرارها [9]. ولكن نسجل هنا أن القبائل في هذه الجهات الغربية، لم تكن تمتهن الرعي وحده، وإنما

---

(7) الإدريسي: النزهة ص 246.

(8) الإدريسي: النزهة ص 532.

(9) أنظر الفقرة الخاصة ببورغواطة من الفصل الثاني بالباب الثاني من هذه الدراسة.

كانت تمزج بين الزراعة البورية ، والرعي معا. وفي نفس الوقت كانت قاعدتها الاقتصادية تتعرض للمؤثرات المناخية، ثم إن هذا الوضع جعل من السكان اصنافا في داخل القبائل، فهناك المنقطعون للفلاحة، وهناك المنقطعون أو المتخصصون في العمل الحربي سواء في الهجوم أو الدفاع، ومن هؤلاء كانت «القيادة البورغواطية». يعني هذا أن المجتمع تلقائيا خلق تراتبه الإجتماعي التقليدي. فالعاملون مباشرة يأتون في «ظل الحياة الحربية» وما عليهم إلا التبعية للمحاربين.

واهتمت المصادرالجغرافية العربية القديمة[10]، وكتب المناقب[11] رغم أنها ألفت متأخرة عن عصر دراستنا بوصف الحياة العامة لسكان هذه الجهات الغربية. وفي الكرامات التي ذكرها ابن عبد العظيم الأزموري أن أهل هذه الجهات كانوا يلجأون إلى شيخ ورئيس أيت أمغار، وهو الذي يتحمل حل هذه المشاكل الإقتصادية والإجتماعية والدينية» وكانوا إذا قحطوا أو حبس عنهم المطر، أو نزلت بهم نازلة يتوسلون به إلى الله عز وجل فيغيثهم». ثم يصف ابن عبد العظيم الأوضاع الإقتصادية والسياسية وصفا رائعا في بداية القرن الخامس الهجري/11م، وهو وضع يصح اعتباره في القرن الرابع الهجري/10م، لتشابه الظواهر، فقال[12]: «ووقع حرب بين برغواطة وبين ثلاثة زناقات (كذا؟) فخرج بأمه (شيخ أيت أمغار) إلى بلاد دكالة، فسكن بموضع «أيير».

---

(10) فقد أشار البكري إلى عادات وأعراف برغواطية التي لاتخرج عن مظاهر الحياة في المجتمع الرعوي والزراعي الطبيعي البدوي، ص 824، فقرات 1376، 1377، 1378 إلى 1382.

(11) ابن عبد العظيم الازموري : بهجة الناظرين (مخطوطة خزانة القرويين)، بالإضافة إلى نسخة خاصة، في مكتبتنا. ورقة 123.

(12) الأزموري: بهجة الناظرين، ورقة 129-130.

فهنالك ظهرت كراماته... وأنه كان لم يزل ساكنا بوضع عين الفطر حيث قبض أبوه، إلى عام تسعة عشر وأربعمائة (419هـ/ 1020م)، وكان ذلك العام عام فتنة وجوع لم يتحدث بمثله، ضاق المغرب بأهله من الفتن ، وشدة غلاء الأسعار. ولم تكن في هذه البلاد الحصون». ثم علق على ذلك «الانتقال من موضع الشدة إلى موضع الأمن، والهرب من الخوف، جائز».

وقد تحدثت كتب المناقب(13) عن كرامات متعلقة بالحياة الزراعية، وإنتاج العنب، والمهم في ذلك هو وجود عناصر بشرية عاملة في حقول منطقة دكالة، تنتج الحبوب والغلاة الشجرية مثل إنتاج العنب. «ولقد حبس في سبيل الله عز وجل قرب ثلاثين موضعا، بين أرض الحرث، وجنات من أعناب ومحارث زرع وولجات على ضفة البحر» (14). وقدتحدثت كتب المناقب عن علاقة «أيت أمغار» بالسكان ودورهم الخاص في إعادة تنظيم المجتمع على أساس التصور الصوفي الروحي. هذا الدور الجديد تضمن رواسب الموروث القديم الذي كان سائدا في المرحلة البورغواطية وأهم ما ظهر فيه هو صور الروابط الإجتماعية بين الجماعات القيادية، والعناصر التابعة التي تعيش في ظلها بالتبعية. وهذه تحركها الحياة اليومية، ولكنها لا تملك سلطة القرار ، وكل ما تملكه هو الالتزام بالطاعة.

يعني هذا أن المجتمع كان مبنيا على قوتين: قوة القيادة وهي التي تقرر في كل شيء، وقوة إجتماعية تابعة تحرث الأرض وتقوم بالخدمات الإجتماعية،

---

(13) الأزموري: نفسه، ورقة 261. وقد وقع الإختيار على كرامة متعلقة بإنتاج العنب وتحويله إلى «زبيب»، وقد كان هذا الإنتاج يلعب دورا رئيسيا في غذاء رجال التصوف لأنه يمدهم بقدرة على مقاومة تعب قيام الليل ، ويمكنهم من تغذية مناسبة لزهدهم وتقشفهم في حياتهم الخاصة.

(14) الأزموري: نفسه ، ورقة 361.

ولا تجرأ هذه على القيام بأي موقف حربي. وهذه هي التي سميناها بمجتمع عصبية الظل. فهم المزارعون والخدم أو الفتيان.

ثالثا- في جبال درن (الأطلس الكبير): لانملك معلومات وثائقية متعلقة بأنظمة الحياة الزراعية، تتحدث بدقة عن مرحلة دراستنا. وكل ما بأيدينا هو ما ذكرته المصادر المتأخرة على عصر دراستنا. ومن هنا لا نستطيع تقديم دراسة وثائقية، ولكن العصر المرابطي والموحدي ساعدنا على استخلاص صورة ما كان قائما بالإضافة إلى ما ذكرته مصادر الجغرافية العربية القديمة. التي وصفت مظاهر الإنتاج الزراعي وأنواعه وخاصة في الجهات التي تعبرها طرق القوافل التجارية. فقد تحدثت عن زراعة الحبوب ومغارسة شجرية نشيطة ومتنوعة بالإضافة إلى زراعة الحبوب التي كانت كافية للإستهلاك اليومي، ويظهر أن نظام الإستغلال خلق في هذه الجهات تراتبا مماثلا لما كان موجودا في الجهات الأخرى من المغرب الأقصى، بمعنى أن الجماعة التي تحرث الأرض لا تباشر العمل الحربي. مما يعني أن الفلاح المباشر للعمل الزراعي ليس هو الرجل المحارب. ويمكن أن نعتمد على المصطلحات اللغوية البربرية الخاصة بالأرض الزراعية. فالمعجم البربري ضمن هذا السياق غني جدا مما يبرهن على عمل زراعي واسع الانتشار، وكذلك يثبت طبيعة العلاقات الاجتماعيةالتي كانت قائمة [15].

---

(15) على مستوى النظام اللغوي البربري في جبال درن نلاحظ معجما فلاحيا متميزا، ودراسته دراسة لسانية تؤكد ما ذهبنا إليه، ومن خلاله يمكن أن نقول بوجود نظام اجتماعي مرتبط بحياة الإستقرار، وبتراتب مقنن. وهذا أيضا يكاد يكون متلازما مع وجود القرى والحوزات المجاورة لها عبر جبال درن، سواء في الجهات المسقية بمياه العيون أو الأنهار، أو على شكل مدرجات تعتمد .../...

كانت الأسر الكبيرة تستغل أراضيها بسواعد أبنائها، وبسواعد الخماسين تابعين ومندمجين في تلك الأسر، كما كانوا أحيانا عبيدا لها. وظهر نظام «الخماسة» وكأنه شكل من أشكال التراتب الإجتماعي بالإضافة إلى شركته الزراعية باعتبارها نظاما خاصا في الإستغلال الفلاحي في بلاد المغرب الكبير عموما. فالخماس هنا لايقرر في حياة النظام الإجتماعي وإنما يعتبر عاملا في الأرض فقط. وبذلك يكون «الخماسون» شريحة إجتماعية تابعة للملاكين أصحاب الأرض (16). ورغم كل شيء فقد ظهر أن مرحلة دراستنا، هي الفترة التي بدأ فيها إدماج المجتمع الجبلي المغربي في التنظيمات الخاضعة

.../... على الزراعة البورية أو البعلية، أوفي الفابابت، ومن أمثلتنا على المعجم الزراعي:

- أيفرض وهي البقعة الزراعية الكبيرة.
- أغان : الحقل المتوسط.
- تاغولت : الفدان الصغير.
- إيكران: الحقول المسقية.
- إورتان: البساتين الخاصة بالبحائر لإنتاج الخضر.

ونحيل في هذا الصدد على بحثين هامين هما :

Laoust:1) Mots et choses, chapitre VII , p. 291.

2) Contribution a une étude de la toponymie du Haut Atlas

-تايوكا: زوج الحرث، ويسمى أيضا « أزيك »و« أفلو ».

(16) هذا الوضع يعتبر وضعا قديما في المجتمع الفلاحي المغربي ، ونظرا لانعدام الوثائق المتعلقة بعصر دراستنا، حاولنا الإعتماد على ما قدمه الأستاذ أحمد التوفيق، بشروط الإحتياط والحذر حتى لا نسقط في إسقاط الظواهر المتأخرة على المجتمع القديم في المجتمع القبلي لجبال درن.

أنظر: أحمد التوفيق المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، ص 214-219.

للقواعد والنظم الشرعية الإسلامية، بناء على فتاوي الفقهاء وأحكام القضاة[17]. «وهكذا كان عدد من غير المالكين يدخلون بصفات مختلفة في استثمار الأرض الزراعية المتوفرة» [18]. وهذه العناصر هي التي نعنيها بشريحة الظل في المجتمع المغربي.

إن هذا الإطارالعملي للحياة في جبل درن أعطى تراتبا إجتماعيا مبنيا على جماعتين لكل منهما اختصاصها: الأولى هي جماعة«الأعيان» أو«إيخاتارن» وهؤلاء في مجتمعنا القبلي القديم هم أصحاب القرار في النظام القبلي المغربي، كما أنهم هم المنظمون للعمل الحربي في حالة الدفاع أو الهجوم. وفي داخل هؤلاء الأعيان أو«إخاتارن» يوجد تراتب مبني على قوة قبائلهم ومكانتها في التجمع القبلي الحلفي. وهذا ما أعطى كبار الأعيان وغيرهم. أما الجماعة الثانية وهي مجموعة العامة. وهم الفئات الأخرى التي كانت على عاتقهم خدمات إجتماعية لا تتعلق بالقرارات المصيرية للقبيلة. وهذا ما يتمشى مع رأي ابن خلدون الذي بنى التراتب الإجتماعي على مسألة «الجاه» الذي شرحه بقوله [19]: هو «القدرة الحاملة للبشر على التصرف في من تحت أيديهم من الناس». كما يوضح الوضع الإجتماعي للعاملين في الفلاحة[20]«الفلاحة من

---

(17) نحيل هنا على فتاوي الفقيه الهشتوكي، (عبد السميح الأوزالي توفي في ق 11 هـ)، والعمل السوسي بالإضافة إلى نصوص الفقه الإسلامي المترجمة إلى البربرية (ونملك بعضا من هذه المؤلفات الفقهية المكتوبة بالخط العربي ومدونة باللهجة البربرية السوسية). ونحيل بوجه خاص على ما ذكره الفقيه المختار السوسي في كتابه الموسوعي المعسول، وكتابه «سوس العالمة».

(18) أحمد التوفيق : المجتمع المغربي ، ص 215.

(19) ابن خلدون: المقدمة: فصل في أن الجاه مفيد للمال، ج 2 ص 469 طبعة تونس 1984.

(20) ابن خلدون: المقدمة ص 202/475.

معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو» ويرى أن منتحل الفلاحة «مختص بالمذلة» ويرجع سبب ذلك في رأي ابن خلدون إلى ما يتبعها من المغرم المفضي إلى التحكم، واليد العالية ، فيكون الغارم ذليلا بائسا.

رابعا- مجتمع الفلاحين في الواحات: إن الأبحاث الأثرية L'Archéologie في الجهات الجنوبية المغربية (جنوب الأطلس الكبير)، تثبت وجود حياة زراعية قديمة، مما يؤكد قيام حضارة زراعية منظمة منذ عصور التاريخ القديم، ونظرا للتحولات المناخية التي عرفتها هذه الجهات، فقد تمت هجرات سكانية من جهة متضررة بالجفاف إلى الجهات الأقل تضررا. وهكذا أدى عامل التصحر إلى وجود مناطق صغيرة معزولة تركز فيها نشاط الحياة الزراعية. وتكونت فيها الواحات الجنوبية، إمافي أحواض الأنهار الجنوبية، أو في مناطق عبور طرق القوافل. وأدى ذلك إلى إنقطاع السكان في الواحات الجنوبية، ونشأت فيها حياة زراعية مسقية بأساليب إبتكرها هؤلاء لتناسب ظروف حياتهم الإجتماعية. ولعبت طرق التجارة مع إفريقيا جنوب الصحراء دورا فعالا في جلب أنواع مختلفة من السكان إلى تعمير هذه الجهات الواحية. باعتبارهم زراعا مستقرين أو رعاة متنقلين أو تجارا محترفين.

وفي الجانب الفلاحي ظهرت شريحة إجتماعية تمتهن العمل الزراعي منذ العصر القديم، وكون هذه الشريحة، ما عرف بالسكان السود الذين ارتبطوا بخدمة الأمازيغيين، وهؤلاء هم الذين سماهم مؤرخوا العصور القديمة بالأثيوبيين Les Négroïdes Néolithiques. وقد أشارت الدراسات الحديثة المتخصصة في الصحراء الإفريقية [21]، إلى سيطرة الأمازيغيين على الجنوب

---

(21) - Mauny (R): Les siècles obscures de l'Afrique Noire, Paris 1970, p.200-2. Tableau Geographique , p. 216 et 340.

.../...

بصفة مطلقة منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وحولوا العناصر السوداء إلى قوة عاملة في الحياة الزراعية الواحية. وأنتجت هذه التحولات تكوين تراتب إجتماعي استمر في تاريخ مجتمع هذه الواحات، وكان هذا التراتب مستمدا من عوامل التفوق والقوة، وعوامل التكافل الإجتماعي. حيث تخصصت مجموعة من السكان في العمل الحربي وهي التي تقرر في تحديد موقف الجماعة كلها سياسيا وحربيا، وعلى عاتقها يلقى المصير النهائي للجماعة كلها في أي منطقة من مناطق الواحات، وتخصصت المجموعة الباقية بالأعمال الإقتصادية الأخرى، من إنتاج فلاحي وحياة تجارية وغيرها، وهذه المجموعة هي التي كونت أيضا عصبية الظل، فهي بهذا الوضع تابعة للمجموعة الأولى وتحت توجيهها وحمايتها. ونقرر مع الأستاذ مصطفى ناعيمي[22]، تبعا لرأي «هنري دونيس»، أن الفعالية البشرية كانت «خاضعة لظروف التبادل والإتجار، وقد كان الإنتاج الفلاحي ضعيفا وخفيفا، شأنه شأن تربية الماشية». ويقدم لنا ابن حوقل[23] وصفا لمنطقة الواحات وسكانها وأخلاقهم ، ورغم ما يتضمنه من توجه شيعي، فإننا يمكن أن نستنتج منه صورا أخرى لحياة السكان على مستوى العلاقات الإجتماعية والإنتاجية. ويعبر على ذلك بقوله[24]: «وفيهم ملوك ورؤساء ومقدمون في القبائل يطيعونهم فلا يعصونهم، ويأمورونهم فلا

Camps (G) : Haratin - Ethiopiens, (Article: Haratin- Roum, T. 3, 1970 pp. 35-45 .../...

- مصطفى ناعيمي: الصحراء من خلال بلاد تكنة ص ص 26-27.
- الخليل النحوي: بلاد شنقيط، ط تونس 1987 ص ص22-26-30 . ص ص: 96-101-109.

(22) مصطفى ناعيمي : الصحراء ص 45.

(23) ابن حوقل: صورة الأرض ص 91 فقرة 46. وقارن ما جاء عنده في ص 95 فقرة 52 وفقرة 53.

(24) ابن حوقل: نفسه ص 97 فقرة 55 .

يخالفونهم، والمال فيهم من الماشية كثير غزير، ومن المتعزبين الموغليين في البراري صنهاجة وأودغشت».

وقد يحدث أن يتحول أحد أفراد المجموعة الثانية إلى مرتبة الزعامة والقيادة. ولكن يظل مناط قدح وهجاء وشتيمة، ولعل هذا هو السبب الذي أدى إلى هجاء أسرة بني مدرار الحاكمة لسجلماسة وهذا ما يفيده كلام أبي عبيد البكري [25]. «وأما مدرار فلاشك فيه أنه كان حدادا، لأن ولده القائمين بأمر سجلماسة قد هجوا بذلك «وكذلك قوله» السودان كلهم سراق حتى هذا». وقد إنتهى التراتب الإجتماعي إلى نفس التقسيم الذي إنتهى إليه في الجهات الأخرى من المغرب وهو التصنيف الثنائي: الأعيان، والعامة أو إيخاترن وغيرهم. أو أصحاب القرار والقيادة ثم التابعون الذين ينفذون قرارات الأعيان، القائمون بأنواع الخدمات اليومية.

النسق الإجتماعي لعصبية الظل

إن الجسم الإجتماعي للمغرب الأقصى في عصر دراستنا، لم يكن مكونا من شريحة الرعاة، أو القبائل المحاربة، وإنما كان بنية مركبة من قوات إجتماعية متعددة، تتنوع فيها أشكال التضامن تبعا لتنوع نمط الحياة وأسباب العيش. ومن هنا يختلف التنظيم ويتفاوت الموقف الولائي من جماعة إلى أخرى، وإن كان المضمون القبلي هو الشكل الموحد في الهيكل العام للمجتمع المغربي عموما. فالقبيلة على هذا الأساس يختلف مفهومها من حالة إلى أخرى، ولم تكن إطلاقا جماعة معزولة، فهي تركيب بشري حي ينمو ويتطور، وقد يحدث له العكس، كما أنه في حاجة إلى التبادل والتكافل، وتنخرط في علاقات إجتماعية بسيطة أو معقدة مع مثيلاتها في نطاق المصلحة، كما أنها تخلق فيها

(25) البكري: المسالك ص 837 فقرة 1398، ص 838 فقرة 1399.

ظاهرة التضاد أو التوافق. فالقبيلة هنا هي الوحدة الإجتماعية التي تربط فيما بينها مجموع العلاقات التضامنية إجتماعيا داخل حيز جغرافي معين، أو ضمن واقع تراتبي محدد (26). وينتج عن هذه الوضعية وجود جزء من القبيلة، يكون تشكيلة إجتماعية لها واقعها ونظامها بحكم موقعها في التراتب الإجتماعي، الذي نشأ تبعا لمتطلبات الحياة في أرض القبيلة. وهذا ما يطرحه الفلاحون في المجتمع القبلي المغربي عموما. فالقبيلة في مفهومنا هنا ليست مجتمعا بدائيا، وإنما هي وحدة نسقية معيارية محلية.

ومن هنا يكون الفهم الحقيقي لطبيعة ظاهرة عصبية الظل مبنيا على إجراء معاينة تاريخية للبنية الداخلية لكل قبيلة بطريقة مجهرية خاصة لكل مجموعة على حدة، وفي إطارها المكاني الجغرافي التي تمركزت فيه. وبذلك ينتقل البحث إلى المستويات الآتية: مستوى التحديد المكاني، ومستوى ضبط المجموعة البشرية على نطاق انتشارها وامتدادها. ثم مستوى خلفياتها الإقتصادية، وتراتبهاالإجتماعي. وهذا يعني أن عصبية الظل لاتدرس إلا في مستوى تجمعات القبائل المستقرة. مما يجعل مبحثها موجها بالخصوص نحو دراسة «المزارعين» أو«الفلاحين». وما ينتجونه من أنساق إجتماعية. والتاريخ الإسلامي للمغرب الأقصى وثيق الصلة بالمجتمعات القبلية المستقرة، كما أنه كذلك مع المنظومات القبلية الرعوية المتنقلة. بدليل أن نظام الخراج بمعناه الجبائي يستهدف بالخصوص المجتمعات القبلية الفلاحية الزراعية. وحيث أن

---

(26) المعطى التراتبي أساسي في إضافته إلى ضبط القبيلة داخل المجتمع الزراعي القبلي المغربي. فالإستقرار يحدد المجال الجغرافي للكتلة الإجتماعية رمزيا ولكنه لايضبط النظام الداخلي المتمايز، على مستوى التراتب الإجتماعي داخل كل قبيلة. وهذا يعني ضرورة التمييز الداخلي في النظام القبلي المغربي. لكي يمكن تفسير التقاطع والتعارض العشائري الداخلي بين أفراد القبيلة الواحدة.

معظم الأراضي المغربية أراض مهيأة لوجود حياة فلاحية مسقية وبعلية، فهي كذلك أنتجت بنيات مجتمع زراعي فلاحي، ألزمته وضعية الإرتباط بالأرض والإلتصاق بها، بالدفاع عنها عن طريق التبعية للقوة والسلطة العليا المتحكمة في النظام العام. فكانت التدخلات الجبائية ذات أثر في النظام الثقافي والإجتماعي لهذه التشكيلات البشرية، حيث أعطى ذلك تمايزا في أشكال الحياة الثلاث: الرعي، والفلاحة، والمدينة.

لقد أثبتت لنا المصادر الفقهية [27]، من مدونة الإمام مالك برواية سحنون، وشروحاتها الأندلسية والمغربية، وكذلك كتب الفتاوي الفقهية، في أبوابها المتعلقة بالمزارعة والمغارسة، والمساقاة، أثبتت مسيرة التنظيم التاريخي الإسلامي في مستوى حياة زراعية حرة، تحدد معه نظام الملكية الخاص بالأراضي الزراعية، مادام الإستغلال موجودا وقائما في جهات الإنتاج، ولكن رغم هذا العنصر الإيجابي، فإنه كان يعرقله عنصر آخر سلبي، وهو قهر السلطة الجبائية للفلاحين بالمطالب والمغارم أكثر من اللازم والمعقول، بالإضافة إلى أن الملاكين للأرض كانوا يطالبون الفلاحين العاملين بشروط ثقيلة ، تؤدي في الغالب إلى تضخم ديونهم على هؤلاء العاملين في الأرض (شركة الخماس)، مما يزيد في تبعية الصغار للكبار، فكان الوضع الإقتصادي يدفع بالفلاح إلى حياة لاتخرج عن نطاق العيش في حدود سفلى، فشكل هؤلاء شريحة إجتماعية لاتطمئن إلا بالتبعية القهرية. وبالنظر إلى الإعتبارات المناخية، فإن فلاحي المرتفعات الجبلية بشمال المغرب، والأطلس المتوسط(فزاز)، والأطلس الكبير(درن)، تستند حياتهم على الزراعة المطرية خاصة، وتربية الماشية

---

(27) الإمام مالك: المدونة (برواية سحنون). ج 6 ص 164. ثم أنظر فتاوي المغارسة والمزارعة والمساقاة في المعيار للونشريسي.

المحدودة العدد ، فكان من الضروري أن يتولد عن ذلك نظام الحصون الذي تقيمه المجموعات بهدف حمايتها. وهكذا لم تعرف الحركة الفلاحية في المغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري/10م تطورا ملحوظا، وإنما بالعكس شهدت تراجعا واضحا، فقد كان هذا القرن مرحلة إنحسار الزراعة المغربية، إذا ما قارناها بالحياة الرعوية. ويلزم على ذلك انحسار الكثافة السكانية الفلاحية على الأراضي المسقية. فهل كان المطلب الخراجي هو الذي أدى إلى تأزيم الوضع الزراعي والفلاحي بالمغرب الأقصى طيلة القرن الرابع الهجري / 10م؟ ثم هل كان العامل الحربي مؤثرا على عدم وتطور الحياة الزراعية؟ ثم هل هناك علاقة بين عدم تخلي البدو والرحل عن مهارتهم الحربية بمجرد تحولهم إلى زراع مستقرين؟.

إننا لا نتصور النسق القبلي إلا في سياق التضامن أو التعارض مع قوى خارجة عن ذاته، سواء كانت قوة الدولة المركزية أو قوة أجنبية مهاجمة. مما يجعل القبيلة الوحيدة أو الحلف القبلي مؤسسة مستقلة بذاتها. وهذا التصور لا يتنافى أصلا مع ما دعوناه بالإستقلال القبلي ، فما عالجناه برسم الإستقلال القبلي يتوجه إلى رؤية القبيلة من واقع علاقتها المجالية، وتصورنا هنا من زاوية النظر البنيوي.

فالفلاحون المغاربة ، لم يكونوا مؤسسة قائمة بذاتها من شأنها أن تحقق أهدافا سياسية. وكل ما نعثر عليه في تنظيماتهم القديمة هو مؤسسات إقتصادية وإجتماعية مستقلة ذات هدف تعاوني إجتماعي- إقتصادي (28).

---

(28) مثل نظام «التويزا»، ونظام «النوبة» في توزيع العمل والحقوق والواجبات، و«الدولة» في الرعي و«الأمراس» في نظام الخزن. و«العزابة» بمعناه الفلاحي التضامني في شمال المغرب الأقصى، وليس بمعناه المذهبي كما عند الخوارج الإباضية .

ومن هنا نرى أن المزارعين والفلاحين المغاربة، إرتبطوا منذ الفتح الإجتماعي الإسلامي بسلطة التنظيم الشرعي في علاقتهم بالأرض، وهذا راجع أول الأمر إلى نظام القضاء الإسلامي الذي يتلازم وجوده بوجود الدين الإسلامي في أية جهة من جهات العالم الإسلامي. ورغم وجود التفاوت في درجة التطبيق، فإن الإطار العام كان قائما. ولهذا العامل المباشر خضعت الأراضي المغربية الفلاحية -التي تنالها أحكام السلطان- إلى تنظيم القضاء الشرعي المغربي، وخضع أهلها إلى سلطان الدولة. وبذلك كانت هي الحامية لهم. وهكذا كانت جماعة الفلاحين خاضعة لنظر الفقهاء، حيث كانت فتاويهم سلطة منظمة لهذه القوى الإجتماعية التي يمكن أن نسميها«مجتمع عصبية الظل».

أما مسألة حضور المجتمع الفلاحي في عصر دراستنا، وهو القرن الرابع الهجري. فهي مسألة تمحورت عليها طبيعة الصراع بين دولتي الخلافة الشيعية والسنية على المغرب الأقصى، في بعض جوانب هذا الصراع.

لم تحدثنا المصادر التاريخية عن ثورة قام بها الفلاحون المغاربة ضدأية سلطة قائمة فيه، ولكنها تحدثت عن تحركات البربر وتمرداتهم ضد تلك السلطات. فمن وجهة الخريطة الفلاحية للمغرب[29](أنظر الفصل الأول من الباب الثاني من هذه الدراسة). فهل يمكن أن نعتبر تلك التحركات ماهي إلا ثورات فلاحية؟.

ننطلق مبدئيا من أوصاف الجغرافيين العرب للمغرب الأقصى وبطريقة تراجعية زمنيا، من القرن السادس الهجري إلى القرن الرابع الهجري / 10م-11 م. فيقول الشريف الإدريسي[30]:

---

(29) قارن بين الخريطتين رقم 8 ورقم 9.

(30) الإدريسي: النزهة ص 236-237.

«وقبائل تامسنا شتى مفترقة، فمنهم برغواطة ومطماطة، وبنوتسلت، وبنو أويقمران، وزقارة وبعض من زناتة وبنو يجفش من زناتة، وكل هذه القبائل أصحاب حرث ومواش وجمال، والغالب عليهم الفروسية، وآخر سكناهم مرسى فضالة على البحر المحيط الغربي، وبينه وبين وادي أم الربيع ثلاث مراحل» ويصف المنطقة الوسطى من المغرب الأقصى ويخص نواحي مدينة صفرو بقوله [31]«وصفرو مدينة صغيرة متحضرة بها أسواق قليلة، وأكثر أهلها فلاحون وزروعهم كثيرة. ولهم جمل مواش وأنعام ومياههم عذبة غدقة»، ثم يصف الأطلس المتوسط(جبل فزاز) «وأما قلعة مهدى (تمحضيت -گيگو) فهي حصن حصين فوق جبل شامخ ولها أسواق وعمارات ومزارع وغلات وبقر وغنم وأحوال واسعة» ويؤكد هذه الحقائق الخاصة بالحياة الزراعية في المغرب الأقصى، كلام الجغرافي ابن سعيد، والمهم في كلامه هو إشارته إلى عراقة التقاليدالزراعية في المغرب، فيقول بالنسبةلشمال المغرب الأقصى[32]: «وقبائل المصامدة وهي تشكل مجموعة كبيرة من سكان المنطقة، اهتموا منذ القديم بالزراعة وغرس الأشجار».

وقد انعكست هذه الصورة في وصف أبي عبيد البكري[33] للمغرب الأقصى، الذي تصدق أوصافه للحياة الفلاحية والزراعية على المراحل السابقة على القرن الخامس الهجري / 11م الذي عاصره البكري . الذي قدم تفصيلات

---

(31) نفسه ص 243.

(32) ابن سعيد: نزهة الأنظار، (مقتبس من كتاب : المغرب في حلى المغرب) طبعة دار المعارف مصر، ج 1 ص 14.

(33) البكري: المسالك: نحيل على الصفحات والفقرات الآتية من الطبعة التونسية 1992: أنظر: ص 745 فقرة 1250 ص 747 فقرة. 1252، ص 751 فقرة 1259، ص 776 فقرة 1301، ص 782 فقرة 1311، ص 788 فقرة 1320، ص 793 فقرة 1328، ص 808 فقرة1353، ص 827 فقرة 1382، ص 829 فقرة 1384، ص 1394 فقرة 1394.

هامة جدا نقله عنه من جاء بعده من الجغرافيين [34]. ولكن ما جاء عند ابن حوقل[35]، الذي زار المغرب وخبر الجهات التي تمر بها طرق القوافل التجارية. وأهم نصوصه التي تجمل كلامه قوله: «ومن بأداني سجلماسة والمغرب من البربر يأكلون البر ويعرفونه، والشعير ويزرعونه والتمور والطيبات، وفي أعراضهم أصحاب البرانس المقيمون بين السوس وأغمات وفاس».

وتكلمت المصادر[36] على انتشار ظاهرة أحياء الموات وغرس البساتين، وإتخاذ الأرجاء في خارج المدن. ويحدثنا ابن الصغير عن عادات فلاحية مازالت قائمة في المغرب إلى الآن [37]. «إذا حصدالناس زروعهم، ولقط اللقاطون السنابلْ ورعوا مواشيهم، عقبهم أخرون فيلقطون نفقة سنة لأن ذلك متروك.» وفي الجملة يتفق الجغرافيون على أن المغرب الأقصى كان بلدا زراعيا ومجالا رعويا هاما.

وبناء على هذا الوضع السائد المكون من الرعاة والفلاحين والتجار المرتبطين بحركة القوافل التجارية البعيدة المدى ، نرى أن تدخل الجيوش الكبرى من عبيدية وأندلسية، اتجهت نحو هذه الجهات المغربية، وأثرت تأثيرا مباشرا على الخريطة القبلية بالمغرب الأقصى.

---

(34) نقل عنه معظم الجغرافيين الذين جاءوا بعده مثل الشريف الإدريسي (القرن 6 هـ/ 12م)، وصاحب كتاب «الإستبصار» (القرن 7 هـ/13م). والحميري في الروض المعطار، الحموي في معجم البلدان. وسواهم.

(35) ابن حوقل : صورة الأرض: ص 99 فقرة 58.

(36) ابن الصغير: سير الأئمة ص 212. الرنشريسي: المعيار ج 9.

(37) ابن الصغير: السير، ص 40 / 204.

الفصل الخامس من الباب الثاني
التدخلات الفاطمية في المغرب الأقصى
في النصف الأول من القرن الرابع الهجري /10م

أولا : الزحف الفاطمي الأول

ثانيا : حملة جوهر الصقلي

الفصل الخامس من الباب الثاني
التدخلات الفاطمية في المغرب الأقصى
في النصف الأول من القرن الرابع
الهجري /10م

انتهى الفصل السابق الذي خصصناه لعصبية الظل، إلى أن المجتمع القبلي المغربي في القرون الأولى تأثرت بنياته كلها بحركة تجارة القوافل. وكانت هذه الحركة ذات توجيه قوي وكبير لمواقف الفاطميين والأندلسيين من بلاد المغرب الأقصى وقبائله. وعمل كل منهما على السيطرة على طرقه ومدنه ومراكزه، ومن هنا كانت العلاقة وثيقة بين القبيلة والبداوة من جهة ، والإجتماع السياسي من جهة أخرى، إن اشتغال القبائل المغربية بالتجارة البعيدة المدى، أدى بها إلى انخراط فعلي في علاقات إنتاجية تتجاوز مستوى الكفاف، وبدأت تعمل على إعادة تنظيم نفسها وتحاول بدورها تحقيق هذه السيطرة، بالدفاع عن سيطرتها على طرق التجارة بوسائلها الخاصة وهذا بالطبع يؤدي بالأحلاف القبلية وتجمعاتها عبر طرق القوافل إلى إعادة بناء العلاقات القبلية المغربية.

وفي هذا المستوى نطرح مسألة التدخلات العسكرية الفاطمية في الجهات الغربية من منطقة النفوذ الفاطمي. وأعطت نظاما جديدا في السلم والحرب. ولهذا كيف كانت طبيعة التدخلات الفاطمية في هذه الجهات؟

زعيم مغراوة، بعد استلاء الجيش العبيدي على تاهرت[3]، وشرقي المغرب الأوسط[4]. ففرت في بداية الحملة قبائل الحلف الزناتي من طريق أبي عبد الله الشيعي وهو متوجه إلى سجلماسة لمبايعة الإمام عبيد الله وتخليصه من المدراريين. والمهم أن هذا الموقف يمثل أول احتكاك بين «زناتة» و«الفاطميين»، بدأ مع قيام الخلافة واستمر بعد ذلك. ولما وصل المهدي إلى «رقادة» سنة 297هـ/909م، رجعت مجموعة قبائل الحلف الزناتي إلى «تاهرت» وبدأت هجومها على عمال الخلافة الفاطمية، واتبعت كل أنواع ما سماه ابن عذاري بـ

---

(3) فتحت تاهرت في شوال سنة 296هـ/909م (ابن عذاري: البيان ج2 ص 197)، ويعتبر هذا التاريخ هو تاريخ قدوم الداعي الشيعي لمدينة تاهرت، ولكن نلاحظ أن الدكتور محمود إسماعيل (الخوارج في بلاد المغرب ص 181-182) يؤرخ لسقوط تاهرت في يد العبيديين بسنة 297هـ/910م بينما تتفق جميع المصادر على سقوطها في سنة 296هـ/909م، وتروي المصادر الإباضية فظائع الداعي أبي عبد الله الشيعي، وحرقه لمكتبة «المعصومة» بعد أن انتقى منها ما يناسبه. وعين عليها أول حاكم شيعي وهو دواس بن صولات اللهيصي.
أنظر : الباروني: الأزهار ج2 ص 291 وما بعدها. أبو زكرياء: سير الأئمة : ص 113-124. الدرجيني: الطبقات ج1 ص 95 وما بعدها. القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 236-238. موسى لقبال: كتامة ص 345.
André Négre: La Fin de l'Etat Rustamide, Revue d'Histoire de la Civilisation du Maghreb, (R.H.C.M.), Faculté des lettres d'Alger, Année 1969, p.19. Lewicki: Etude Ibadites, p.98.

(4) تؤكد المصادر التاريخية على أن أبا عبد الله الداعي الشيعي عندما كان متوجها من إفريقية إلى سجلماسة لتخليص الإمام عبيد الله. فرت أمامه زناتة أو على الأقل ابتعدت من طريقه. (ابن خلدون: العبر، ج4 ص 75)، قارن بكلام ابن عذاري: البيان ج1 ص 153-155، وكذلك قارن كلام القاضي النعمان في افتتاح الدعوة، ص 236 وما بعدها. ولاحظ اضطراب كلام ابن عذاري في موضوع زعيم مغراوة محمد ابن خزر.

أولا: الزحف العبيدي الفاطمي الأول على المغربين الأوسط والأقصى من 296هـ/909م - 312هـ/924م.

لقد استعملت الخلافة الفاطمية العبيدية وسيلة القوة، بتطبيق سياسة «العصا الغليظة»، لفرض سلطتها، واتبعت في سبيل ذلك جميع الوسائل، وأهمها في نظرنا «ضرب المغاربة بعضهم ببعض» في كل المناسبات. ولهذا كان بطش الخليفة العبيدي حاضرا في كل وقت حتى مع أخلص اتباعه وأنصاره[1]. وهذا الأسلوب سلكه البيزنطيون مع البربر في المغرب عموما.

لقد أدرك العبيديون منذ بداية تأسيس خلافتهم، أنهم مضطرون إلى أتباع سياسة قبلية متميزة في المغربين الأوسط والأقصى عن سياستهم في الجهات الشرقية من المغرب الكبير، فاعتمدوا على سياسة «فرق تسد». ومع ذلك لم تنجح هذه الخطة، مما أعطى نتائج خطيرة على مصير الخلافة العبيدية الفاطمية في المغرب كله، وفرض على الخلافة الفاطمية نقل مركز الخلافة إلى مصر، بعد فتحها وبناء مدينة القاهرة 362هـ/972م [2].

لقد واجهت قبيلتا مغراوة وبنو يفرن، الفاطميين بالعداء منذ بداية التدخل العبيدي في الجهات الغربية، وتزعم هذه المقاومة «محمد بن خزر»

---

(1) ابن عذاري : البيان ج1 ص 160-164. ابن الأثير: الكامل ج8 ص 50-53 موسى لقبال: كتامة ص 320 وهامش 487. الداعي إدريس: عيون الأخبار ، ص 187 (ورقة 168).

F. Dachraoui: Califat Fatimide au Maghreb, pp. 131-132. Art;"Mahdi Ubayd Allah" (dans Encyclopédie de l'Islam, (N.E), T.V.pp.1233-34. Art," D'a'i"T.II,p.100 et Art, Abu Abd Allah Shi'i.T.I, pp.106-107.

(2) سنعالج مسألة المؤثرات القبلية المغربية على الانتقال الفاطمي من بلاد المغرب إلى مصر، في الفصل اللاحق.

«الالتياث»[5] وإفساد الطرق. وأدت الاصطدامات المتكررة بين الطرفين إلى تصعيد في الخلاف بينهما. وحاول العبيديون استمالة قبيلة «مكناسة» المغرب الأوسط، بدلا من مغراوة وبني يفرن. وكانت مكناسة ذات نفوذ قبلي في شرق نهر ملوية، وكانت تعمل على زعامة هذه المنطقة الغربية من المغرب الأوسط إلى جانب بني يفرن ومغراوة. فركز الفاطميون على اكتسابها باستقطاب زعيمها «مصالة بن حبوس» سنة 300هـ/912م. بعد أن واجهتهم مجموعة مغراوة في معركة « فلك مديك»[6] التي قتل فيها من زناتة عدد لايحص. وأهم ما يلفت نظر المؤرخ بعد هذه التحولات، هو أن تولية «مصالة بن حبوس المكناسي» على تاهرت قاعدة القيادة العبيدية في الجهات الغربية. قد أدت إلى نقل ثقل المعارك والتدخلات العسكرية الكبرى إلى المغرب الأقصى. فقد عينه الخليفة عبيد الله المهدي واليا على المغرب الأقصى، وفوض له حق التصرف في الرقاب والأموال، وكل أنواع التصرف العسكري والسياسي[7].

وهكذا ظهر الوضع القبلي في آخر القرن الثالث الهجري بداية العاشر الميلادي، منقسما على مستوى المواقف الولائية. مما يعني أن «التجمع الحلفي الزناتي» قد انقسم. مغراوة وبنويفرن ضد العبيديين ، ومكناسة بزعامة

---

(5) ابن عذاري: البيان ج 1 ص 160.

(6) نفسه ص 165. ابن خلدون : العبر 78/4 على مافيه من اضطراب.

(7) البكري: المسالك الفقرات 1291-1296 مصالة ونكور بشمال المغرب الأقصى. الفقرات 1351-1355 مصالة والأدارسة. الفقرة 1402 مصالة وسجلماسة. ثم أنظر ابن عذاري: البيان ج1 ص 166. ابن أبي زرع: القرطاس ص 48. ابن خلدون: العبر 81/4. ابن الخطيب أعمال الأعلام 210/3 وقد نسبه إبن الخطيب إلى كتامة وهو تحريف من النساخ في الأصل. يحي ابن خلدون: بغية الرواد ص 81. حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية ص 85 وما بعدها. موسى لقبال: دور كتامة ص 342. محمود إسماعيل : الخوارج ص 209.

مصالة بن حبوس مع العبيديين، وعملت الخلافة الفاطمية على استغلال هذا الموقف إلى أبعد الحدود. وفي مقابل ولاء مكناسة للعبيديين إتجه المغراويون لبني أمية في الأندلس. وقد اهتمت المصادر التقليدية بمصالة ابن حبوس المكناسي، باعتباره القائد العسكري الشيعي، ويهمنا هنا مصالة بن حبوس مغير الخريطة القبلية في الجهات الشرقية والشمالية من المغرب الأقصى.

جاء «مصالة بن حبوس المكناسي» إلى الجهات الغربية لفرض الحكم الشيعي الفاطمي في هذه الجهات، بعد فشل «دواس بن صولات اللهيصي»[8] الذي أعدمه الخليفة المهدي العبيدي، في آخر سنة 299هـ/913م عقابا على فشله. وقام «مصالة» بحملة كبرى لتأديب المعارضين، وأدى ذلك إلى انتقال مجموعة من القبائل الموالية للحكم الفاطمي إلى المغرب الأقصى، إما على شكل حاميات حول المدن المفتوحة كما فعل في عملية فتح مدينة نكور. أو على شكل قبائل فارة من الشرق إلى الغرب خوفا من الانتقام الفاطمي، كما حصل مع القبائل الزناتية التي اتجهت من الشمال إلى الجنوب حيث «ورجلة» في المناطق الصحراوية. وفي الحملة الكبرى التي قادها «مصالة» لإخضاع المغرب الأقصى، (305هـ/918م-312هـ/925م) انتقلت من مكناسة المغرب الأوسط، ومن كتامة

---

(8) فرحات دشراوي: الخلافة الفاطمية في المغرب (بالفرنسية) ص 123 وهامش 43، ص 134 معالجة إعدام «دواس» في 4 صفر 299هـ/ فاتح أكتوبر 912م وقارن بما جاء في هامش 113 الذي اعتمد ماجاء في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان. موسى لقبال: كتامة ص 352. أما فرع قبيلة «ولهاصة» أو «لهيصة» الذي كان في عهد الداعي الشيعي، فقد كان يضرب في نواحي ميلة وتازروت. ولم تكن قبيلة لهيصة كثيرة العدد، ولذلك التحقوا بكتامة، ثم هاجر مع الجيش الفاطمي المتدخل في المغرب الأقصى إلى الجهات الغربية، كما انتقل بعضهم إلى المشرق مع الانتقال الفاطمي إلى مصر.

ومن صنهاجة إلى شمال المغرب الأقصى، مع الجيش العبيدي[9]. وبدراسة القائمة القبلية التي ذكرها موسى بن أبي العافية في رسالته إلى الخليفة الأموي بالأندلس، عندما انقلب من التأييد الفاطمي إلى التأييد الأموي[10]، يتضح وجود قبائل زناتية كانت مواطنها في المغرب الأوسط ثم تحولت في ظرف يسير إلى حوض ملوية الأوسط. مما يعني أن المرحلة التي عرفت اتفاق مصالة بن حبوس قائد الجيش العبيدي وزعيم مكناسة المغرب الأوسط، مع موسى بن أبي العافية زعيم ورئيس مكناسة الجبل بالمغرب الأقصى، هذه المرحلة (305هـ-308هـ) التي عين فيها ابن أبي العافية على حكم المغرب الأقصى، أعطت انتقال قبائل إلى المغرب الأقصى في ظل النفوذ القبلي المكناسي المتحالف، مكناسة مصالة ومكناسة ابن أبي العافية[11]. والمهم هو أن المهدي

(9) موسى لقبال: دور كتامة، ص 117-124.

(10) ابن حيان: المقتبس ص 370 (ورقة 251)، وقد عدد موسى ابن أبي العافية أهم القبائل الموالية له في سنة 323هـ/935م. وقد جاء في هذه الرسالة ما يثبت فرار القبائل البربرية من الجهات الشرقية إلى المغرب الأقصى، فقال: «... وتساقط كثير منهم ومن شيعهم علينا، متبرئين منهم، وهرب طوائف من عسكرهم، مستأمنين إلينا، حتى صارت الطريق سالكة إلينا من عندهم بالهاربين، ومن فتيانهم وأولي البأس كمكاسة ابن ناصر المكناسي، أمير الغرب، ومن قدم بعده من رجال مكناسة، ولواتة، وهوارة وزناتة، وأهل جبل بوجان بني عدم داود بن مصالة، وزواغة، وأهل شلف...» ويضيف موسى ابن أبي العافية في هذه الرسالة: «وصارت إلينا قبائل أهل المغرب بأجمعهم من كل مكان». وقد أجمل هذه الوضعية الباحث هنري روجي إدريس في دراسته «الدولة الصنهاجية» ج1 ص 42.

(11) وقد لخص هذه الوضعية «هنري طيراس = "H. Terrasse"ولكن على أساس تطور الوضع السياسي للمرحلة التي نعالجها.
أنظر: Terrasse (H): Histoire du Maroc, T.I, pp. 165-169.

.../...

-الخليفة العبيدي- أغرق نفسه في بحر الصراع في أوعار المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وأدى هذا الصراع إلى انتقالات قبلية من الجهات الشرقية إلى الجهات الغربية.

تطورت الأحداث الوقائعية على مستوى الصراع القبلي، فالجماعة المكناسية برئاسة مصالة بن حبوس عملت على بسط النفوذ الفاطمي، ولكن الجماعة الأخرى المعارضة بزعامة مغراوة أعلنت العصيان والحرب، وتزعم هذه الجماعة «محمد بن خزر» الذي استأسد في المغرب الأوسط، ودخل في حرب معلنة ضد مكناسة والعبيديين وقائدهم مصالة بن حبوس وتمكن من تحقيق انتصار كبير بقتل مصالة سنة 312هـ/924م.

وهنا نطرح الأسئلة الضرورية والتي لانستطيع الجواب عليها وثائقيا، وهي ماهو أثر ذلك على حلف مكناسة الجبل في المغرب الأقصى بزعامة موسى بن أبي العافية؟ ثم هل الفروق الجهوية بين مكناسة الجبل ومكناسة المغرب الأوسط لم تساعد على تكوين حلف متضامن في فترة رئاسة مصالة لمكناسة؟ ثم هل المهام الرسمية التي أناطها العبيديون بمصالة حالت بين تحقيق التضامن المكناسي في المغربين الأقصى والأوسط؟

والمهم في الوضعية هو أن المرحلة التي أعقبت مقتل مصالة بن حبوس، عرفت تنامي مغراوة بزعامة بني خزر، وشهدت تقلب ولاء مكناسة الجبل بزعامة موسى بن أبي العافية. وهذا الوضع لايمكن تفسيره بنظرية صراع المذاهب وحدها، وإنما يجب أن ننظر إليه أولا وقبل كل شيء من زوايا أخرى وخاصة نظرية «التكيف الإجتماعي=L'ADAPTATION SOCIALE» التي تعالج

.../... كما عالج الوضعية كل من الباحثين شارل اندري جوليات والأستاذ عبد الله العروي، في تصور تركيبي. أنظر تاريخ إفريقيا الشمالية ج2 ص 79-81 (الترجمة العربية). وقارن ماجاء عند العروي L'histoire du Maghreb Maspero 1970. pp. 127-128.

الظواهر من زاوية الملاءمة والإنسجام بين الجماعات الإجتماعية وبيئتهم، أو بين الجماعات المختلفة. صحيح أن مذهب الخوارج كان ضد الشيعة في بلاد المغرب[12]، ولكن الرعاة الرحل أو أنصاف الرحل ضد المزارعين المستقرين[13]. وقد أدركت الخلافة العبيدية والخلافة الأموية بالأندلس الفروقات القبلية، وأدخلتها في صراعهما على المغربين الأقصى والأوسط.

ولم تتوقف التدخلات العبيدية الفاطمية في المغربين الأوسط والأقصى بعد مقتل «مصالة بن حبوس»، فقد جاءت حملة أخرى من إفريقية بقيادة ابن الخليفة، حيث أسند المهدي إلى الأمير «أبي القاسم بن عبيد الله» سنة 315هـ/927م قيادة جيش لتهدئة الجهات الغربية، وتأديب المغراويين، فاسترجع تاهرت، وواصل مسيرته إلى «أن بلغ نكور وجراوة حيث هزم الأدارسة، ولكنه لم يذهب إلى أبعد من ذلك ، إذ لاحظ أن سلطة القائد المكناسي موسى بن أبي العافية قوية بما فيه الكفاية»[13م].

---

(12) وهنا نحيل على أبحاث الدكتور محمود إسماعيل، وخاصة أطروحته الموسومة بـ«الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري» طبعة الدار البيضاء 1976م. أنظر خاصة مقدمة المؤلف ص 5–6 ثم الصفحات 42–57 حيث انتهى إلى أن الاتجاه الخارجي في المغرب مثل «بداية جديدة في تاريخ البلاد» (ص 57).

(13) ش. أ. جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج2 ص 79. حيث دافع على رأي مؤرخ الحماية الفرنسية بالمغرب الأقصى، «هنري طيراس» الذي يرى أن «جميع الأحداث الواقعة حتى أواخر القرن (4هـ/10م) في الشطر الغربي من المغرب لم يكن محورها انتصار الشيعة أو الخوارج، بل تفوق زناتة أو صنهاجة، وستنضاف إلى ذلك العداوة بين الامبراطورية الفاطمية والإمبراطورية الأموية في قرطبة» H. Terrasse: Histoire du Maroc; T.I., p. 164.

(13م) هـ. ر. إدريس : الدولة الصنهاجية ج 1 ص 42–43.

.../...

وفي الفترة التي أعقبت إعلان الخلافة في الأندلس 316هـ/928م تزايد النفوذ الأندلسي في المدن والمرافئ بالمغربين الأوسط والأقصى، مما أدى إلى زعزعة النفوذ العبيدي الفاطمي في المنطقة، وعندما تولى أبو القاسم الخلافة الفاطمية بالمهدية، دشن «القائم»(14) خلافته بحملة كبرى ضد قبائل الجهات الغربية وأسند قيادتها إلى أخلص قواده وعبيده وهو «ميسور الخصي»(15).

.../... Latham, (J.D): Musâ Abi Afiya, Art. dans l'Encyclopédie de l'Islam, T.VII, pp. 640-642, Farhat D. Khilafat, p.152-3.

ونسجل أن هذه الفترة (316هـ/929م-319هـ/931م) هي فترة التضييق الشديد على الأدارسة في شمال المغرب الأقصى. وقد قام موسى ابن أبي العافية بهذا الدور خدمة للخلافة الفاطمية التي رأى فيها أولا أنها هي الخلافة التي تضفي على زعامته شرعية تمثيلها في المغرب الأقصى. وعندما لم يجد ذلك انقلب مباشرة في سنة 319هـ/931م إلى الخلافة الأموية بقرطبة (ص641). فرحات دشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 154 وما بعدها (الأصل الفرنسي).

(14) أعلنت خلافة أبي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي بالبيعة له في نفس اليوم الذي توفي فيه أبوه، 15 ربيع الأول سنة 322هـ/5 مارس 934م. ولقب بـ«القائم بأمر الله». واستمر إلى وفاته في شوال سنة 334هـ/ ماي 946م. وحول مصطلح «القائم بأمر الله» في النظام الشيعي، أنظر: الموسوعة الإسلامية في طبعتها الجديدة « E.I. 2ème Kä'im » فقد أشار صاحب المقال «ماديلانج= W.Madelung أنه بدأ يستعمل على الأقل في القرن الثاني الهجري /8م بمعنى الرجل المنحدر من السلالة النبوية الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والذي يملا الأرض عدلا كما ملئت جورا، وهذا هو «المهدي المنتظر» في النظام الشيعي. وهذا يعني أن الخليفة الفاطمي الثاني لقب بلقب والده بصيغة أخرى. ثم قارن ماجاء في مقال «فرحات دشراوي: القائم بأمر الله» ج4 ص 478-480 (بالفرنسية) .

(15) ميسور من العبيد الصقالبة الذين أدرجهم الفاطميون في خدمتهم، ونال شهرة عظيمة في الجيش العبيدي قام بمهام عسكرية كبيرة في عهد عبيد الله المهدي وعهد ابنه محمد القائم. قتل في حرب أبي يزيد صاحب الحمار سنة 333هـ/945م.

.../...

إن هذه الحملة التي قادها ميسورفي الجهات الغربية من الخلافة الفاطمية بالمغرب، ظهرت وقائعها قلقة ومضطربة ومتداخلة في المصادر، مما يفرض إعادة النظر في تحقيقها، كما نبه على ذلك الدكتور سعد زغلول عبد الحميد[16]«بأسلوب علمي» ولايعنينا هنا دراسة هذه المسألة، بقدر ما يهمنا أثر هذه الحملة على الإطار القبلي المغربي[17]. فهذه الحملة انطلقت من إفريقية بهدف استرجاع مدينة فاس إلى الطاعة الفاطمية العبيدية. وشارك فيها بوجه خاص قبائل صنهاجة إفريقية والمغرب الأوسط الذين أسسوا مدينة «أشير»[18] في سنة 324هـ/936م، في عهد الخليفة الفاطمي الثاني أبي القاسم

.../... وسماه العزيزي الجوذري مؤلف سيرة الأستاذ جؤذر «ميسور الكبير» (ص 96، 127) وص 80-81 ثم تعليق 103. أنظر: منصور العزيزي الجوذري: سيرة الأستاذ جؤذر (تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة، طبعة دار الفكر العربي مصر) بدون تاريخ للطبع ومقدمة الطبع مؤرخة 1954م. ص 180-181 تعليق 103. ثم أنظر: ابن عذاري: البيان ج1 ص 209،296. المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج 1 ص 77. ابن خلدون: العبر 83/4،86، 135/6. ابن أبي زرع: القرطاس ص 52 ص 85-86. الناصري : الإستقصا ج 1 ص82.

Lévi-Provençal: Histoire de l'Espagne Musul.T.II, PP.100-102.

(16) الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج3 ص 166. وحاول الأستاذ فرحات دشراوي صياغة أحداث هذه الحملة بصورة متقاربة مع ترتيب الدكتور سعد زغلول عبد الحميد. (أنظر: الخلافة الفاطمية في المغرب ص 163 من الأصل الفرنسي). الدكتور حسن إبراهيم حسن، الدولة الفاطمية ص 89.

(17) سنعالج هذا الموضوع في الفصل السادس من هذا الباب الثاني. في موضوع الخلاف السياسي بين الأدارسة وموسى بن أبي العافية.

(18) حول مسألة تأسيس مدينة أشير ، التي أسسها زيري بن مناد في جبل «تيطري» باعتبارها قلعة حصينة، لايمكن الوصول إليها إلا من جهة واحدة، أنظر التفاصيل عند هـ. ر. إدريس: الدولة الصنهاجية، ج2 ص 94-98. ،بحث جورج مارسي في الموسوعة الإسلامية في طبعتها الجديدة بالفرنسية، ج1 ص 720-721 برسم «أشير= Ashir». النويري: نهاية الأرب ج24 ص 160-163 (طبعة القاهرة 1983).

القائم بأمر الله، لتكون قاعدة أمامية غربية لمواجهة القبائل الغربية المعارضة للفاطميين. وهذا يعني أن السياسة العبيدية اتجهت عمليا نحو ضرب قبائل التجمعات القبلية الغربية، بالتجمع الصنهاجي الشمالي، وقد تأكد ذلك بإعطاء بني موناد سلطة قبلية تمكنهم من تحقيق هذا المشروع[19]. ولعل الحوار الذي جرى بين الخليفة الفاطمي القائم مع زيري بن مناد الصنهاجي أقوى دليل على ذلك، فقال الخليفة[20] «مجاورة العرب خير لنا من مجاورة البربر».

ويظهر أن القبائل الصنهاجية ساهمت بحظ كبير في حملة ميسور الخصي على المغرب الأقصى. وفي طريقها إلى فاس استرجعت مكناسة المغرب الأوسط إلى الطاعة الفاطمية ولكن لم تنجح في استرجاع مكناسة المغرب الأقصى (مكناسة الجبل)، حيث استمر موسى بن أبي العافية في ولائه للأمويين رغم الهزائم التي لحقت به، وفراره أمام الجيش الفاطمي إلى جبل «لكاي»[21]، وأجبر على الانسحاب إلى الصحراء، وكان الأدارسة الموالون

---

(19) تشير المصادر إلى أحداث قبلية من هذا النوع، مثل ماذكره النويري من أن زيري بن مناد قام بهجوم واسع في الجهات الغربية، وصل به إلى جراوة التي كانت تحت سلطة موسى بن أبي العافية الذي حول ولاءه إلى بني أمية في الأندلس. ويعنينا هذا الخبر من حيث تعبيره عن الخطة الجديدة التي بدأت تتبعها الخلافة الفاطمية من الزعامات القبلية في الجهات الغربية. (أنظر النويري: نهاية الأرب ، ج24 ص 162).

(20) النويري : ج 24 ص 161، ونلاحظ أيضا أن الخليفة يستميل الزيريين وصنهاجة الشمال بالإعتراف بنسبها الحميري العربي، وهذه أيضا إحدى أساليب الفاطميين في اكتساب الأنصار.

(21) هذا الجبل يقع في الشمال الشرقي من عمالة تاونات، وبه يقع الحصن القديم «أيشتوم»، وأفضل من عرف به من الجغرافيين القدماء هو الحسن بن محمد الوزان الفاسي في كتابه المشهور «وصف إفريقيا» وضبطه «لويس ماسنيون» .../...

للفاطميين هم أول المستفيدين سياسيا من حملة ميسور الفتى[22]. وانتهت هذه الحملة لصالح الفاطميين سياسيا ولوبصفة مؤقتة، بالقضاء على زعماء «الرفض الفاطمي الشيعي» وتعيين شخصيات جديدة قبل أن يعود إلى إفريقية في آخر سنة 324هـ/935م[23].

وأثناء عودة ميسور الخصي تصرف مع زعماء القبائل المعارضة للفاطميين بقسوة وخاصة من كان منهم مواليا للتجمع المغراوي في المغرب الأوسط، مما نتج عنه نوع من الهدوءالنسبي من سنة 324هـ/936م إلى 333هـ/944م. فهذه الحملة من بدايتها إلى نهايتها، أثبتت حقيقة هامة على المستوى القبلي، وهي بداية الصراع المعلن بين صنهاجة وزناتة، أو بين القبائل الشرقية والغربية، أو بين المستقرين والرحل.

.../... في دراسته لهذا الكتاب. وقد ذكرت مصادرنا القديمة جبل «لوكاي» والذي مازال يحمل هذا الإسم حاليا ، باعتباره معقلا لموسى بن أبي العافية. أما قبيلة التسول أو بلاد تسول فيفصلها عن جبل لوكاي حوض سبو ومضيق تازة. وتدعى صنهاجة لوكاي باسم صنهاجة مصباح. وترتفع قمة جبل لوكاي حوالي 1629م، ولعل اسم لوكاي تحرف إلى اسم «الجاية» أنظر في هذا الصدد: الحسن بن محمد الوزان: وصف إفريقيا، ج1 ص 261 وهامش 139. Massignon (L): Le Maroc,p. 247 ثم قارن بما جاء عند البكري: المسالك ص 809 فقرة 1354، (طبعة تونس 1992)، حيث تكلم على أن موسى بن أبي العافية سجن يحيى بن إدريس في مدينة لكاي. (وهذا ماحدث في الحملة الأولى التي قام بها الجيش العبيدي الفاطمي على المغرب الأقصى بقيادة مصالة بن حبوس سنة 305هـ/917م عندما عين مصالة بن حبوس، موسى بن أبي العافية واليا أو عاملا على المغرب الأقصى.

(22) هـ ر. إدريس : الدولة الصنهاجية، ج 1 ص 46.

(23) أنظر التفاصيل في: ابن عذاري: البيان ج1 ص 296 وما بعدها، القرطاس ص 85. ابن الأثير: الكامل ج8 ص 284. العبر 135/6.

ولفت نظرنا الأستاذ الباحث موسى لقبال[24] قوله «ويخيل إلى الباحث أن الأميرين: الزناتي والمكناسي، لو نسيا خلافاتهما العارضة بسبب وضع مدينة جراوة العلوية، ونسقا جهودهما، وأحكما صلاتهما مع الأمويين في الأندلس، ومع أمراء نكور من بني سعيد بن صالح، ثم مع أدارسة فاس، وأمراء سجلماسة الصفرية، لما كان للفاطميين تاريخ سياسي يذكر، وخلفاء بعد وفاة عبيد الله المهدي سنة 322هـ/934م».

ولكن لم يحدث ذلك، واستمر التنافس القبلي، والتقلب في مواقف زعماء القبائل في شمال المغربين الأوسط والأقصى، وتزايدت تدخلات وصراعات المجموعات القبلية الكبرى. ولعل بداية التدخل الصنهاجي في مواطن زناتة في المغرب الأوسط ابتداء من حملة ميسور الخصي 324هـ/936م، كانت أحد العوامل الرئيسية التي أشعلت فتيل ثورة «أبي يزيد مخلد بن كيداد» الخارجي النكاري الزناتي التي هددت بجدية الخلافة الفاطمية بالمغربالكبير كله منذ سنة 332هـ/944م[25].

---

(24) موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 358. ونعلق على رأي الباحث الذي ندرك ما يرمي إليه بقولنا، ما أشبه الأمس باليوم ! وهل بمنتهى السهولة يتحقق ما تمناه الأستاذ الباحث موسى لقبال؟

(25) لقد كتب الكثير حول ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، ودرست من عدة جوانب، وباعتبارها ثورة خارجية نحيل على دراسة الدكتور محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 236-254. والذي يتلخص رأيه فيها بقوله «... لكن المؤكد أن ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، كانت في المحل الأول رد فعل للخارجية الإباضية في مواجهة الشيعة الإسماعيلية، فكانت حربا مذهبية شهر فيها سلاح المبادئ الخارجية للإطاحة بالعقائد الإسماعيلية الغريبة على البربر، وإذا كان البربر قد أيدوا حركة أبي يزيد في مراحلها الأولى ، فذلك لايعني أن أبا يزيد كان سنيا» ص 237 وهامش 185. وقد اهتمت الموسوعة الإسلامية في طبعتها الجديدة بهذه .../...

لقد اتضح في حملة ميسور الخصي وما بعدها بقليل تغيير كبير في حركة القبائل المغربية، حيث أخذت تظهر تكتلات جديدة وانقسامات داخل التكتلات القديمة، مثل هوارة ولماية، وبني يفرن، ومغراوة، ومكناسة، فكلما ضعف حلف إلا وبرز تجمع آخر. فوفاة موسى بن أبي العافية أثرت على قوة حلف مكناسة الجبل بالمغرب الأقصى، كما أثرت وفاة مصالة بن حبوس على حلف مكناسة المغرب الأوسط بتاهرت. وبعد نهاية حملة ميسور الخصي، ظهر انقسام بين مغراوة وبني يفرن، وبدأ معه تطور «التجمع اليفراني». وفي غمرة اضطراب الأوضاع بسبب الصراع القبلي بين بني يفرن ومغراوة، تمكن «يعلى بن محمد اليفرني» من السيطرة على تاهرت[26]، وفرض سيادة بنييفرن عليها من قاعدتهم الحصينة «إفكان»[27]. وهو الوضع الذي استمر إلى حملة «جوهر الصقلي» على المغرب سنة 347هـ/958م. وانتهى الوضع العام

.../... الثورة وخصصت لنا أبحاثا هامة نحيل عليها، ولكن أهم ماجاء فيها هو الإحالات المصدرية التي ذكرتها. أنظر التفاصيل في الأبحاث الآتية:

Stern (S.M): Abu Yazid, Art. dans l'E.I.2ème ,: T.I.,pp. 166-168.

ثم أنظر: دراسة الهادي روحي إدريس: الدولة الصنهاجية ج 1 ص 48 وما بعدها. وبحث الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج3 ص 170–185 مع ملاحظة هوامشه، وآخر الأبحاث في الموضوع – على ما نعلم – ماكتبه الدكتور حسين مؤنس في كتابه الأخير تاريخ المغرب وحضارته ج1 ص 495 وما بعدها. وكذلك دراسة محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي ص 197–214.

(26) موسى لقبال: دور كتامة، ص360.

(27) تعتبر مدينة أو قلعة «إفكان» ورسمها البكري بـ«فكان» من المدن المندرسة، عرفت بها معظم كتب الجغرافية العربية القديمة، ويكفي أن نحيل على أبي عبيد البكري: المسالك، ص 749. فقرة 1255، وابن حوقل صورة الأرض ص 88. ويؤرخ البكري تأسيس «إفكان» بسنة 338هـ/950م وتقع جنوب شرق مدينة «معسكر» الحالية. وبدأ التنافس بين بني يفرن ومغراوة بقتل رئيس بني يفرن محمد بن صالح على يد إبن عمه عبد الله بن بكار اليفرني المتحيز لمغراوة. وولي بني يفرن بعد

بالنسبة لنفوذ الدولة الفاطمية العبيدية في الجهات الغربية، إلى ضعف مكانتها وهيبتها وبالتالي تراجعت هيبتها في هذه الجهات، وفي المقابل تزايد نفوذ الخلافة الأموية الأندلسية، حيث تحول المغرب الأقصى إلى تقديم الولاء لقرطبة، من موسى بن أبي العافية وخلفائه، ومصامدة شمال المغرب الأقصى. وتبادل البرغواطيون المراسلات، إلى حد تبادل البعثات، كما ساندت قرطبة ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد. بالإضافة إلى مغراوة وبني يفرن في المغرب الأوسط.

هذه الأوضاع أزمت الموقف الفاطمي، وحملته على التفكير بجدية بحثا عن الحلول. فقد مارسوا سياسة تهجير السكان ونقلهم من منطقة إلى أخرى، إذا ما رأوا في ذلك مصلحة سياسية وعسكرية كما حدث مع بعض بطون مكناسة، وسماتة، وكتامة، ودنهاجة، وصنهاجة الشمال. ورغم ذلك فشلوا في القضاء على نفوذ الأمويين الأندلسيين في المغرب. فهل يرجع ذلك إلى احتفاظ الأندلسيين على قواعدهم العسكرية في شمال المغرب الأقصى؟ وكذلك حاول الفاطميون التفاوض مع قبائل الجهات الغربية، على أساس تقسيم مناطق النفوذ. وفي هذا الصدد ذكرت المصادر الإباضية، أن «المعز الفاطمي» أرسل إلى الثائرين ضده من الخوارج قائلا[28]: «أرجعوا إلى بلادكم التي كانت أوائلكم، ونكون قبل هذا

.../... ذلك إبنه يعلى بن محمد وهو مؤسس «إفكان». ابن خلدون: العبر 94/4. ابن أبي دينار: المؤنس ص 63. ابن عذاري: البيان 222/1. L.Provençal; Hist. Esp. Musul, T.2, p.109.
H.Terrasse: Histoire du maroc, T.I, p.185.

(28) الدرجيني: الطبقات، ج 1ورقات 148،150،152. العماني سعيد بن سرحان: كشف الغمة الجامع لاخبار الأمة. (مخطوط المكتبة الوطنية بتونس رقم 2524، ورقة (379-380). ونسجل أن هذا التفاوض بهذا المضمون الجهوي لمجال النفوذ بين الفاطميين وقبائل الجهات الغربية، كان في عهد المعز الفاطمي سنة 358هـ/969م، أي بعد نهاية ثورة أبي يزيد الخارجي (صاحب الحمار)، وبعد حملة .../...

من تاهرت وغيرها، فتكونوا على ماكانت عليه أوائلكم، ونكون على ما كانت عليه أوائلنا».

هذه الوضعية يمكن أن نقرأها سياسيا، فنطرح مسألة الصراع الفاطمي والأموي الأندلسي. وبالتالي انتقال مركز وعاصمة الخلافة الفاطمية إلى مصر ببناء مدينة القاهرة. ويمكن أن نقرأها من زاوية الصراع المذهبي فنطرح مسألة الصراع بين بقية الخوارج والشيعة الإسماعلية، ويمكن أن نقرأها من الوجهة الإجتماعية القبلية، وهنا تتبلور مسألة حتمية أفرزها التنافس بين مجتمع سكان الجبال وأهل السهوب، أو بين المستقرين بالجبال الشرقية بالأوراس، وبين الرحل وأنصاف الرحل في الجهات الغربية. لكن ورغم كل شيء يتبادر إلى الباحث سؤال ضروري وهو لماذا لم يدخل الفاطميون العبيديونبإفريقية مع الأمويين الأندلسيين بقرطبة في مواجهة مباشرة(29)، واكتفى كل طرف منهما بالمواجهة غير المباشرة؟ ثم لماذا اكتفى كل جانب منهما

.../... جوهر الصقلي الكبرى سنة 347هـ/958م. فهل يعني هذا اعتراف الفاطميين بإفريقية بتفوق الأمويين الأندلسيين في المغربين الأوسط والأقصى بطريقة غير مباشرة؟ ثم أنظر ماذكره ابن الأثير في الموضوع (الكامل 598/8 وما بعدها)، وكذلك النويري في نهاية الأرب ج4 ص 165 وما بعدها. ثم قارن بما جاء عند البكري: المسالك ص 739 فقرة 1238 من الطبعة التونسية 1992م.

(29) حاولت الأبحاث الحديثة الجواب على هذا السؤال، مثل الباحث الإيطالي «مشيل أماري= M.Amari» والدكتور أحمد مختار العبادي، والدكتور محمد جمال سرور، والدكتور حسن إبراهيم حسن، والدكتور محمد علي مكي، وعبد العزيز فيلالي وغيرهم. لكن إذا انطلقنا من المصادر القديمة، وقرأنا بطريقة تركيبية تعتمد الأوضاع العامة الشمولية يتبين بوضوح أن النزاع الفاطمي الأموي لم يتجاوز تأمين «الطرق التجارية» مع إفريقيا جنوب الصحراء، ولكن الخلاف المذهبي بين الخلافتين كان عائقا فقط، ولهذا اكتفى كل طرف بالتنافس البعيد الذي يكون عادة ذا ردود فعل في خارج المجال المباشر للنفوذ، وكأنها صورة من صور «الحرب الباردة» وفي سنة 344هـ/955م بدأت تظهر ملامح المعركة المسلحة، حيث بدأت تمس مباشرة. المصالح التجارية البحرية في حوض الأبيض المتوسط. (أنظر النصوص التي جمعها الباحث الإيطالي ميشيل أماري: في الكتاب الذي سماه (المكتبة الصقلية ص 411 ط ليبسك 1857) وذكره المؤلف المجهول لكتاب «العيون والحدائق في أخبار الحقائق» الذي./.

بالإنسحاب السياسي والعسكري عندما يشن الجانب الآخر حملة على المنطقة الغربية؟ ثم هل كانت البنية الإجتماعية تكتفي بحملات التأديب في مقابل الولاء الصوري والشكلي فقط، والذي لايحقق إلا تأمينا لحركة القوافل التجارية، وما يتبع ذلك من استخلاص للأموال، بالهبات والمصادرات. وأيضا لماذا اقتصرت التدخلات على الجهات الشمالية والمراكز الكبرى من المغربين الأوسط والأقصى؟.

هذه أسئلة طرحتها معالجة مرحلة النصف الأول من القرن الرابع الهجري/10م. ودراستها تتطلب توجها آخر في البحث. ولهذا نؤجلها إلى حين. وننتقل إلى الجانب الذي يرتبط بمنهج بحثنا في هذه الدراسة، وهو المعالجة الإجتماعية. وتبعا لسياق تحليلنا نطرح السؤال الآتي: وهو ما مقدار تمثيل تلك الأحداث والوقائع للسكان عموما في الأرياف والمدن، فهل كانت مواقفهم من كل ما يجري أمامهم أو بمشاركتهم معبرة عن حياتهم الإجتماعية التي يعيشونها، أم كانوا يتجيشون لغيرهم؟ وبالتالي هل كانوا يمثلون العناصر المناهضة لغيرهم، أم كانوا يمثلون أنفسهم ويدافعون عن مصالح فئاتهم الإجتماعية؟

.../...حققه الأستاذ التونسي «عمر السعيدي» طبعة دمشق 1973م الجزء الرابع، القسم الثاني ص 475 ورقة 256ب، وص 487-488 ورقة 264 ب وورقة 265. الداعي إدريس: عيون الأخبار ص 585. ابن عذاري: البيان ج2 ص 220 ثم أنظر العبادي: البحرية الإسلامية ص 140. ودرسات في تاريخ المغرب ، ص 80. حسن إبراهيم حسن: المعز لدين الله ص 39. عبد العزيز: العلاقات السياسية، ص 175-181. ارشبالد: القوى البحرية والتجارية ص 225. الدكتور عبد العزيز سالم: مدينة المرية ص 121. ابن خلدون العبر 96/4.

Lévi.Provençal: Histoire Esp. Musul., T. II, pp. 207-210.

J.Bosch-Vila: Al -Mariyya, Art. dans l'Encyclopédie de l'Islam, T. VI, pp.560-562.

ونسجل غياب نصوص المؤرخ الأندلسي التي من شأن الإطلاع عليها أن يكشف على الموقف الأندلسي في أحداث الصراع البحري الأموي الأندلسي.

وعلى رأس الأحداث تظهر مجموعة من زعماء القبائل ، وفي أكثر الأحيان زعيم وحيد (موسى بن أبي العافية وأبو يزيد مخلد بن كيداد ومحمد بن خزر ويعلى بن محمد اليفرني، وأمراء الأدارسة وأمراء بنو مدرار وبنو واسول وأمراء بورغواطة ...). وفي الامكان أن نميز حقيقتين في تطور هؤلاء الزعماء. أولها أنهم كانوا زعماء أمر واقع اعترفت لهم الخلافة الفاطمية والأموية على حد سواء بالزعامة والرئاسة على قومهم وقبائلهم التي يتزعمونها، والحقيقة الثانية أن نظامي الخلافة في المغرب الإسلامي لم يتطلب من أولئك الزعماء إثبات نظام سياسي يحقق لهم استقلالا سياسيا، وإنما توقف الإعتراف عند حد مستوى الزعامة القبلية التي كانت مبنية في وجودها على قوة شخصية القائد أو الرئيس القبلي الذي يعرف في النظام القبلي المغربي بـ «أمغار». ويعني هذا أن تعينه أو الاعتراف به في نظام الخلافة هو أمر واقعي لامناص منه، والتخلي عنه هو تخل عن الحضور الرمزي للخلافة، سواء من جانب الفاطميين الشيعة أو الأمويين السنة. ومن هنا نعتقد أن طرح مسألة الولاء السياسي في هذه المرحلة على أساس الارتباطات المذهبية، مسألة غير كافية منطقيا لمعالجة تاريخ المغرب الأقصى بوجه خاص. ومن هنا نتساءل عن وسائل الإقناع التي كان زعماء الأحداث القبلية في المغرب الأقصى يقومون بها ليحصلوا على الأنصار والتجييش في حروبهم التي كانوا يقومون بها؟ فهل مسألة ضياع مجال النفوذ الحيوي لرعي ماشيتهم، وأراضيهم التي يزرعونها هي المحرك لجماعتهم؟ أم مسألة الضرائب والجبايات المرهقة والمصادرات[30]

---

(30) من أهم الأبحاث الجيدة التي كشفت عن السياسة المالية الفاطمية في المغرب بحثان للأستاذ الحبيب الجنحاني اللذان نشرهما مع مجموعة من الأبحاث بعنوان «دراسات في التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للمغرب الإسلامي» طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986 ص 57-155.87-177. ثم الفصل الثاني من

التي رافقت الحملات الكبرى في المنطقة؟ أم مسألة فقدانهم لنظام الخفارة (الزطاطة) القوافلية كان أحد عناصر التجييش في هذه الحقبة؟.

نحن نعتقد أن أي صراع لابد أن يؤطر بفكرة، أية فكرة، تحقق الإنفعال الإجتماعي، على مستوى التضامن أو التقاطع . إن التضامن الجماعي، لاتظهر أهميته إلا ببديله النقيض وهو الصراع، فقد استمر التضامن والتقاطع هما المحركان للنظام القبلي المغربي القديم، واستمر طغيانهما باستمرار مكوناتهما المادية. ولم تتمكن أشكال التضامن الإيمانية الروحية أن تحل محلها بصورتهما الدينية الإسلامية، إلا في المرحلة اللاحقة لعصر دراستنا وهي المرحلة المرابطية. (على حد تصورنا).

.../... القسم الثاني من أطروحة فرحات دشراوي: «الخلافة الفاطمية بالمغرب» (بالفرنسية) من ص 323-345 بالإضافة إلى استخداماته المصدرية. والبحث الهام الذي يكمل البحثين السابقين، وهو بحث «هـ .ر . إدريس» في أطروحته: «الدولة الصنهاجية» ج2 ص 215-301 من الترجمة العربية طبعة دار الغرب الإسلامي 1992 م. ومن خلال المتابعة المصدرية يتأكد أن الخلفاء الفاطميين في المغرب كانوا لايترددون في الحصول على الأموال مهما كانت الوسائل والمصادر، ولذلك كانوا يولون على مسؤولية بيت المال، وجبايته رجالا لايتصفون بالرحمة والأنصاف، فالمهم هو تحصيل الأموال. وهذا ما يفسر ماقام به الخليفة المعز إبتداء من سنة 341هـ/953م، برسم خطة بعيدة المدى لإصلاح ماخربته ثورة «أبي يزيد مخلد بن كيداد» (انتهت في سنة 336هـ/947م) فاختار رجالا جدد من أصدق مؤيديه لتحصيل الأموال، والقيام بالحملات العسكرية وجمع أقصى ما يمكن جمعه من بلاد المغرب كله وكذلك فعل في المناطق الشرقية إلى برقة. ويجمل ذلك الدكتور حسين مؤنس: «وبعد ذلك أرسل القواد وخاصة جوهر، فاجتاحوا المغربين الأوسط والأقصى وسجلماسة ونهبوا الناس نهبا ذريعا حتى امتلأت خزائن الفاطميين». حسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته، ج1 ص 511. ابن خلدون: العبر 4/96-98، ج 7/37. ابن عذاري: البيان المغرب 1 /188.

نعم كان الجميع يعيش تحت مظلة الإسلام، ولكن المعطى البرهاني على وجود تضامن إيماني عملي لم يكن واضحا. فقد ظل غامضا في الأرياف والبوادي، ولكن يجب أن نسجل أنه كان موجودا في «المدن» المغربية التي كانت موجودة في المغرب الأقصى في عصر دراستنا وهي : فاس، وسبتة، ونكور، وطنجة، وأصيلا، والبصرة، وسجلماسة، وتلمسان، وتاهرت، ووهران. وفي مراكز أخرى أقل تمدينا في هذا العصر وهو القرن الرابع الهجري/10م مثل أرشقول، ومليلة، ثم شالة، وأنفا، وداي، وأغمات، ودرعة، ونول لمطة ... .

وهكذا نرى أن مبحث التضامن الإجتماعي لايتم إلا في المصالح القبلية، تلك التي أعطت تكتلات معينة، وهو الوضع الموروث منذ ماقبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الكبير. فالمسألة دقيقة وتحتاج إلى دراسة أعمق، ولذلك استمر التنظيم القبلي في تقاليده التضامنية بالمغرب، على نظامه التقليدي الموروث مع تعديل طفيف أحدثه فيه الصراع الذي شهده المغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري/10م، سواء كان هذا الصراع مذهبيا (خوارج، شيعة، سنة) أو إقتصاديا وخاصة ما قامت به تجارة القوافل على المدى البعيد. وما لعبته الظروف الطبيعية من تقلب مناخي (مواسم ممطرة، وفترات جفاف) في حياة ونظام هذه التكتلات. مما يظهر تلك التجمعات في أغلب الأحيان عبارة عن تنظيمات ظرفية تجر معها جماهير بشكل غير عضوي وغير ثابت. وتظهر أيضا أنها تمثل شيئا غير واضح ماعدا مصالحها النفعية المحدودة. وبذلك كانت حقبة مليئة بالإضطرابات التي ميزت القسم الأول من القرن الرابع الهجري/10م وكانت غنية بمظاهر الإنقسام الإجتماعي، وبتنظيمات «قطاع الطرق» أو إفساد السابلة. فكيف صارت الأمور في النصف الثاني من القرن 4هـ/10م؟ وهل التغيرات والتحولات التي ظهرت في المرحلة الثانية من هذا القرن كانت نتيجة لها بالإضافة إلى قضايا أخرى ؟

ثانيا : حملة جوهر الصقلي على المغرب الأقصى347هـ/958م

بذل العبيديون الفاطميون جهودا كبيرة من سنة 304هـ/917م إلى 324هـ/936م لاخضاع الجهات الغربية ولقيت مقاومة شديدة في المغرب الأوسط، وبذلك كان التجمع الزناتي القديم أكبر خصم للفاطميين، وسبب ذلك اتعابا كبيرة تحدثت عنها المصادر الفاطمية بمرارة[31].

إندلعت الثورة الزناتية في بلاد زناتة وهددت الخلافة الفاطمية في المغرب بالأنهيار. ولولا جهود الخليفة العبيدي «المنصور» لتغير مجرى التاريخ الفاطمي برمته، تلك الثورة التي تزعمها «أبو يزيد(بويزوض) صاحب الحمار»، والتي تم القضاء عليها سنة 336هـ/947م.

أما في المغرب الأقصى فيختلف الوضع فيه من وجهة إلى أخرى.فالوضع في شماله حيث الأمراء الأدارسة[32]، ورؤساء أو شيوخ القبائل المستقرة، ثم النفوذ الأندلسي الأموي متباين عن أوضاع حوض نهر سبو، وعن حوض نهر ملوية، حيث مكناسة الجبل. واختلاف هاته الجهات عن أوضاع بلاد

(31) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، والمجالس والمسايرات. الداعي إدريس: عيون الأخبار (القسم الخاص بالخلفاء الفاطميين بالمغرب). المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج1 بتحقيق الشيال. وكتاب المقفى الكبير بتحقيق محمد اليعلاوي ، طبعة دار الغرب الإسلامي سنة 1991 في 8 أجزاء.

(32) نعني هنا الوضع الإدريسي الأميري المتعدد المتجزئ الذي انكمش في قبائل غمارة والريف بعد يحيى الرابع (يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس الثاني مؤسس فاس) والذي تولى سنة 292هـ/905م إلى 308هـ/921م حيث ابعده القائد الشيعي المكناسي مصالة بن حبوس، وأبدله بموسى بن أبي العافية في سنة 305 هـ/918م ثم في سنة 308هـ/921م ولى مكانه ريحان الكتامي. وأمام الضغط العبيدي من زوايا متعددة فقد أصبح الأدارسة جماعة تبحث بكل الوسائل عن عودة مجدهم السابق، ولكن الوضعية التي خلقها التدخل الفاطمي والأندلسي في المغرب الأقصى والأوسط غيرت المسار التاريخي الإدريسي. إلى أن جاءت حملة

تامسنا حيث برغواطة، وأوضاع جبال درن (الأطلس الكبير)، وكذلك اختلفت عما هو عليه الحال في منطقة سجلماسة ودرعة وبلاد السوس الأقصى، وكذلك في الجهات الصحراوية مفتاح طريق قوافل التجارة مع بلاد السودان الغربي.

ولكن الخلافة الفاطمية شغلتها مشكلة مدينة فاس، ومسألة الشمال المغربي من مصب نهر شلف إلى طنجة، واهتمت أيضا بموضوع سجلماسة بوجه خاص هذه المنطقة التي تحول إليها في القرن الرابع الهجري/10م ثقل تجارة القوافل مع إفريقيا جنوب الصحراء(32م).

وقد أكد تاريخ العملة المغربية هذه الوضعية الصعبة، حيث ثبت عدم وجود عملة إدريسية فالدراسات التي أجراها المختصون في «المسكوكات المغربية» مثل الباحث الفرنسي «أوسطاش=Eustache»(33) الذي اهتم بالعملة الإدريسية لم يعثر على أية عملة إدريسية ترجع إلى مابعد القرن الثالث

.../... جوهر الصقلي سنة 347هـ/958م، فأذنت بنهاية التاريخ السياسي للأدارسة في المغرب الأقصى، الذي تحقق بنهاية الحسن بن القاسم كنون (375هـ/985م) أنظر :
Beck (H.L): L'Image d'Idris II.p.28-29 et p. 70-79, p.p 68-69 Eustache: Idris, E.I. 2ème ,T.III, p.p.1056-1058, et Idrisides, E.I. 2ème III,P.P. 1061-1063.
وقد اكتفينا بهاتين الإحالتين المرجعيتين لاحالتهما على جميع المصادر التي تناولت تاريخ الأدارسة، وأهم الدراسات المرجعية الخاصة بالموضوع، ومع ذلك لابد من الاحالة على الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج 3 ص 90 حيث لخص نهاية يحيى الرابع.

(32م) إن أهم الدراسات التي أفادتنا في الموضوع هي أبحاث الموسوعة الإسلامية في طبعتها القديمة والجديدة (التجارة، الذهب، عبيد، مسالك ...) ودراسة أرشبالد لويس، وجويتن، وموني، وبوفيل ودراسة أحمد إلياس حسين الذي إهتم بالعلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية في القرون المبكرة للتاريخ الإسلامي في المنطقة . بوفيل تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، بنغازي 1988.

(33) إن دراسة أوسطاش المعروفة بهذا العنوان:
(D) Eustache: Corpus des dirhams Idrisites et contemporains,Rabat, 1970/1 هي آخر

الهجري /9م. وكذلك الباحث الجزائري «صالح بن قربة»[34]، ولعل أهم عملة مغربية ضربت في الجهات الغربية خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري/10م هي عملة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي. أثناء ثورته الكبرى، ثم عملة الشاكر لله المدراري في سجلماسة[35]. فلم تتوقف مراكز ضرب العملة في المغرب الأقصى، ولكن بإسم الخلافة الفاطمية، هذا ما حدث في مدينة فاسمنذ بداية التدخل الفاطمي في المنطقة ، وتخبرنا المصادر[36] بضرب

.../... الأبحاث العلمية الجادة في تاريخ العملة المغربية . وأنهى بحثه بعملة الأدارسة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/9م، مع دراسة مقارنة لعملة أدارسة المغرب الأوسط السليمانيين في نفس الفترة. ورصد أماكن ضرب العملة الإدريسية وقد مثلنا بعضها على الخريطة رقم 21 من هذه الدراسة.

(34) صالح بن قربة: المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.
وجاء في هذه الدراسة الملاحظة الهامة الآتية: «والظاهرة العامة المميزة لدنانير عبد الله الشيعي هي مخالفتها للنقود التي ضربها الحكام المنتصرون قبله، وسجلوا عليها أسماءهم كالأمويين بالأندلس والأدارسة والأغالبة بالمغربين الأقصى والأدنى» ص 273.

(35) ضرب أبو يزيد صاحب الحمار عملته في مدينة القيروان على أثر دخوله إليها في أواخر صفر سنة 333هـ/سبتمير- أكتوبر 944م (أنظر صالح بن قربة: المسكوكات المغربية ص 413 وهامشي 4و5). أما عملة المدراري الشاكر لله، محد بن الفتح (332هـ/945م-347هـ/958م) لم تكن تشكل خطرا على الفاطميين من الناحية النقدية، ولكن في سنة 341هـ/947م لقب نفسه بلقب «الخلافة «الشاكر لله» وضرب عملة ذهبية مستقلة بإمارته السجلماسية المدرارية وبذلك أصبح يمثل خطرا مذهبيا واقتصاديا على الفاطميين، فتعين على خلفاء بني عبيد توجيه حملة كبرى لحسم هذه المستجدات. أنظر : صالح بن قربة: المسكوكات المغربية، ص 429-459. القاضي النعمان: المجالس والمسايرات ص 388،255 وأماكن أخرى: Ch.Pellat: Medrar, Art dans l'E.I., 2ème , T.VI pp. 1031-35.

(36) أنظر: ابن عذاري: البيان ج1 ص 150 وص ص 209-212. وما بعدها. حسن حسني

العملة الفاطمية بفاس أثناء حملة «ميسور الخصي» في عهد الخليفة «محمد القائم»، حيث تم الصلح بين أهل فاس والقائد الفاطمي على أن يكتبوا بيعتهم إلى أبي القاسم محمد القائم بأمر الله، وأن ينقشوا اسمه في السكة، ويخطبوا له على منابرهم. وفي هذه الحملة سيطر الفاطميون على الموارد الإقتصادية والمالية التي كانت متعددة في المغرب الأقصى. ولعل ماذكره ابن حوقل(37) عن سجلماسة خير دليل على ذلك. بل وكانت المسألة المالية هي التي تمثل نقطة المركز التوافقية أو التقاطعية في السياسة الفاطمية خلال مرحلتها المغربية. بحيث كان المطلب المالي للخليفة لايمكن رده أو مخالفته أو حتى مناقشته، وأي موقف من هذا الجانب يفضي إلى عقاب صارم بدون هوادة ولارحمة(38). والمهم عندنا هو أن السيطرة الفاطمية على الجهات الغربية جعلتهم يقومون بضرب

.../... عبد الوهاب: الورقات ج2 ص 372-397، وص 436 وما بعدها. المقريزي: النقود الإسلامية (تحقيق وتعليق الأستاذ محمد بحر العلوم). ابن أبي زرع: القرطاس ص 61، ص 124 وما بعدها 133. الناصري: الاستقصا ج1 ص 81. ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية في الإسلام طبعة القاهرة 1961 ص 349 وما بعدها. الدكتور عبد الهادي التازي: جامع القرويين ج1 ص 49 هامش 40، ص 56. وقارن بما جاء في مؤلفه العام: التاريخ الدبلرماسي للمغرب، ج4 ص 71 وما بعدها.

(37) صورة الأرض ص 94، وص 96. المقريزي: اتعاظ الحنفا 230/1 وحاول الباحث المغربي حميد التريكي دراسة بعض قطع عملة الشاكر لدين الله المدراري، ونشرها في الدورية «هسبريس تمودة» 1986.

(38) ولعل أحسن حدث تاريخي يمثل ما ذهبنا إليه هو ماقام به الخليفة المعز لدين الله، مع قبيلة كتامة بإنزال العقاب الشديد والإعدام الجماعي، عندما رفضوا مطلبه الجبائي عندما كان يتهيأ للإرسال قائده جوهر الصقلي إلى الجهات الغربية في حملته الكبرى سنة 347هـ/ 958م. أنظر التفاصيل المقريزي: في اتعاظ الحنفا 98/3 والخطط ج1 ص 352. موسى لقبال: دور كتامة ص 441 وما بعدها. فرحات دشراوي: الخلافة الفاطمية (بالفرنسية) ص 364 وما بعدها. القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص 239.

عملتهم في عهد المعز الفاطمي بأماكن مختلفة من المحيط الأطلسي غربا إلى برقة شرقا وذلك قبل الإنتقال الفاطمي من بلاد المغرب إلى القاهرة في سنة 362هـ/972م. وخاصة في كل من مدينة فاس وسجلماسة وتاهرت والمهدية والمنصورية وطرابلس، وضربت هذه النقوذ الفاطمية من ذهب وفضة ونحاس. بالاضافة إلى عملة «الصنوج» الزجاجية. التي كان الغرض منها محاربة تزييف العملة الشرعية(39).

هذه الوضعية الإقبتصادية والمالية والنقدية، أثبتت حقيقة هامة على مستوى شخصية المجتمع في المغرب الأقصى، وهي توقيف أحد رموز كيان دولته التاريخية، ونعني توقيف ضرب العملة الإدريسية التي كانت جغرافية ضربها في مراكز الضرب الآتية والتي بلغ عددها حسب دراسة أوسطاش(40):

1- أصيلا	2- البصرة	3- بهت
4- تاجراجرا	5- تدغة	6- تلمسان
7- تهليط	8- زيز	9- سبو
10- طنجة	11- العلية	12- مريرة
13- ورزيغة	14- ورغة	15- وزقور
16- وطيط	17- وليلة	18- ومهنا
19- يجرهان	20- يكم	21- أمعدن
22- وحبة؟	23- وحمسة؟	

---

(39) نسجل أننا لم نعثر على دراسة متخصصة للعملة المضروبة بالمغرب الأقصى والأوسط خلال العهد الفاطمي في المغرب. فمازال هذا الجانب يشكل ثغرة في تاريخ المسكوكات المغربية، على حد ما نعلم.

(40) Eustache (DA): Corpus, p.105.

ثم درس الباحث المذكور أعلاه عملة هذه المراكز مع تعريف علمي دقيق بمراكزها المذكورة (ص 107-176 من الأصل بالفرنسية). وهذا التوقيف لم يسترجع مكانته وبمضمون الدولة المغربية إلا في العصر المرابطي، في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/11م يدل كل ذلك على تراجع مغربي في القرن الرابع الهجري/10م فقد تراجعت الحياة الزراعية وتراجع الإستقرار والأمن الإجتماعي، وتراجعت السيادة المغربية، وتراجع النظام النقدي. وحل محل كل ذلك إنقسام وانشطار قبلي وتدخلات استنزافية متلاحقة طيلة هذا القرن الرابع الهجري/10م.

ونعود إلى قراءة تاريخ المغرب الأقصى من الداخل، فنترك الخلافة العبيدية الفاطمية في المهدية بإفريقية. تنظم الحملة الكبرى على الجهات الغربية بقيادة «جوهر الصقلي»(41). ونطرح السؤال الآتي: ما هي النتائج الملموسة التي أعطتها ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي على المغرب

---

(41) هنا يجب أن نشير إلى إشادة الخليفة الفاطمي المعز بالقائد جوهر الصقلي قبل بدء حملته على المغرب الأقصى، وهو ما نقلته لنا المصادر الفاطمية، وخاصة:

1- القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص 256. حيث قال الخليفة في تزكية جوهر الصقلي «وقد قدمت عليكم من قد علمتموه، وأقمته فيكم مقام نفسي، وجعلته معكم كأذني وعيني، وكل إمرئ منكم على نفسه بصيرة».

2- الداعي إدريس : عيون الأخبار (تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب تحقيق اليعلاوي)، ص 601، وقد جاء عنده «وأمر بتجهيز الجيوش إلى أرض المغرب لتتبع كل من مال إلى بني أمية بالقتل واجتياحهم عن جديد الأرض».

3- المقريزي: كتاب المقفى الكبير (تحقيق محمد اليعلاوي طبعة دار الغرب الإسلامي / بيروت 1991)، ج3 ص 83-111 ترجمة رقم 1102 وقد تكلم عليه المقريزي في معظم أجزاء كتابه المقفى، أنظر فهرسة الأعلام ج8 ص 229. ونحيل على الهامش الهام الذي حرره المحقق 83/3 هامش 3 الذي ذكر فيه أن جوهر الصقلي لم يكن خصيا وأنه أنجب ابنين على الأقل وهما الحسين وجعفر، وأنه ولد سنة 312هـ/925-381هـ/991م.

الأقصى؟[42].

لكي نصل إلى نتيجة معقولة، ننظر إلى ثورة أبي يزيد[43] صاحب الحمار من الزاوية «الإستراتيجية»، فقد انطلقت من جبال الأوراس، وكان ميدان نشاطها من بدايتها إلى نهايتها (331هـ/942م-336هـ/947م) هو الجهات الشرقية من بلاد المغرب الكبير. ولم تقم بأي تحرك في الجهات الغربية إلا طلبا للأنصار والمؤيدين لها، خصوصا وأن قبيلة زعيمها تعتبر من الحلف اليفرني، وهي قبيلة «واركو» (حسب أبي زكرياء في سير الأئمة ص 167) وكان أبوه يمارس التجارة في السودان. وفي «كوكو» ولد، ونشأ في توزر (تقع على بعد 370كلم في الجنوب الغربي من مدينة تونس، و192 كلم غرب مدينة قابس). فهو من ثوار الجنوب بإفريقية، على الخلافة الفاطمية، كان يعرف ما يمارسه جباة العبيديين وخاصة على قوافل التجارة الصحراوية، وقد وجد في مبادئ الخوارج بالمغرب أسس ومبررات ثورته، ثم رحل إلى تاهرت، وتقيوس، وربما رحل إلى سجلماسة، ثم انتقل إلى قسطيلية، وجبل نفوسة. فهو بذلك كله كان خبيرا بالبلاد والعباد في المنطقة المغربية. وفي كل الحالات كانت أيضا توجهاته

---

(42) أهملت الأبحاث تبعا لتجاهل المصادر القديمة هذا الجانب، وفي جميع الحالات، فإن هذه الحركة كان لها تأثير غير مباشر بوجه عام.

(43) أبو زكريا يحي بن أبي بكر: كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمان أيوب، ط تونس 1985 ص 167 هامش 19، ثم أنظر ما ذكره أبو زكيراء عن سبب ثورته مع قراءة ذلك قراءة تأويلية تاريخية ليستقيم التفسير (ص168-169 فقرة 2/24. وقد اختلفت المصادر القديمة في التأريخ لبداية حركة «أبي يزيد» فابن خلدون يؤرخ البداية بسنة 310هـ/922م (العبر 13/7). أما ابن عذاري فيؤرخها بسنة 316هـ/928م (البيان 193/1). وجوابنا على ذلك هو أن حركته بدأت بعد قيامه بالحج، أما حجته فكانت سنة 325هـ/936م (أبو زكيراء: السيرة: فقرة 2/24 ص 169).

نحو العمل القيادي في الجهات الشرقية للخلافة الفاطمية بهدف أن «يصير الأمر شورى». ولما بدأ هجوماته على معاقل العبيديين ابتداء بمدينة «بغاي» سنة 332هـ/943م، انعزلت الجهات الغربية عن الجهات الشرقية. وبذلك انفصلت المنطقتان، وصارت جموع «صاحب الحمار» درعا حاجزا وفاصلا بين التدخل العسكري الفاطمي في المغربين الأوسط والأقصى، بل وتوقفت موارد أعشار التجارة القوافلية على بيت مال الفاطمين أو على الأقل ضعفت إلى حد تحويل مطالب الخلافة نحو المناطق التي لم تصلها حركة أبي يزيد مخلد صاحب الحمار(44).

هذا الانشغال الفاطمي بإخماد ثورة أبي يزيد مخلد حول الوضع في الجهات الغربية لصالح أمويي الأندلس أعطى متنفسا لعناصر المعارضة في المغرب الأقصى، لتنشغل بخلافاتها الداخلية. وهذا ما يفسر التحركات الجديدة في هذه الفترة التي أعقبت نهاية حملة «ميسور الخصي» والتي انتهت في

---

(44) نسجل أن التفسير الإسمي لكنيته «أبي يزيد» له عدة أوجه وتفسيرات، كما أعطيت لعلاقته بالحمار عدة تفسيرات كذلك، وبدورنا نشاغب في هذه التفسيرات، وننبه إلى أن البربر يسمون الحيوان المعروف بالضبع والحمار في العربية ب «أمزوض»، فهل لذلك علاقة بكل ما وصف به من ألقاب ونعوت؟ والملاحظ أنه وصف لاصلة له بنظام «الإمامة» أو «الرئاسة» في النظام الخارجي الإباضي سواء كانوا وهبية أو نكارية. أنظر : سليمان بن الحاج داود، ثورة أبى يزيد، ط الجزائر 1981 ص 25-27 ومحمد شفيق: المعجم العربي الأمازيغي، مادة «حمر» ص 289. ونسجل أن المصادر أشارت إلى أن جيش أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجي كان يتكلم البربرية في حياته اليومية. فيقول المالكي في رياض النفوس ج 2 ص 371 (طبعة دار الغرب الإسلامي 1981). (ترجمة عبد الله بن فطيس رقم 245): «فتكلم (أبو يزيد مخلد صاحب الحمار) كلاما بالبربرية أظنه قال : اسكتوا» . ثم انظر : ابن خلدون: العبر 94/4 الذي يشير إلى أن الفاطميين العبيديين كانوا يعتمدون على التراجمة باعتبارهم من أطر الجيش الفاطمي في بلاد البربر الذي مازال التعريب لم يشمل الجوانب كلها.

سنة 324هـ/936م. ولم يكن في إمكان الفاطميين إلا الاعتماد على الواجهة القبلية، ولذلك خططوا بإحكام لضرب «زناتة المغرب الكبير بصنهاجة الشمال» فالمعركة بذلك تحولت إلى صراع قبلي، بدلا من الجيش الذي لم ينجح النجاح الحاسم الذي كان الفاطميون يريدونه، أو في أقصى الحالات المزج بين السلاحين الجيش، والقبائل. وقد بذلت الخلافة الفاطمية جهودا ناجحة لخلق وصناعة «حلف صنهاجة الشمال» لتعويض «حلف كتامة» الذي قامت على اكتافه «الخلافة العبيدية الفاطمية». وهكذا أدت ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد إلى تغيير في نظام التكتلات والتجمعات القبلية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري /10م. وكلف الفاطميون «زيري بن مناد» بزعامة ورئاسةالحلف الصنهاجي الجديد(45) وهكذا اتجه مسار الأحداث في مسار صراع القوات القبلية الكبرى، وبرزت في داخل المجتمع المغربي في الجهات الشرقية زعامتان، زعامة تدعمها الخلافة الفاطمية بأحكام تام وهي زعامة «بني زيري»،

(45) إن الرواية الفاطمية متفقه مع الرواية السنية في مسألة دعم الخلفاء العبيديين لزعامة زيري بن مناد وأقاربه للتكتل الصنهاجي الشمالي في إفريقية ومنطقة جبال الأوراس، كما أنها متفقه في موضوع نقل الزعامة القبلية المحلية من كتامة (حلف قبائل الدعوة) إلى صنهاجة (حلف استمرار الخلافة الفاطمية في المغرب). رغم المعارضة الشديدة لهذا الوضع الجديد «إذ أن ثورات كتامة لم تنقطع، وتمنعهم عن السلطة الزيرية كان واضحا بتنكيل الزيريين بهم كان منقطع النظير» كما قال موسى لقبال (دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، ص 362). لقد اجتمعت قبيلة «صنهاجة» ومن والاها من قبائل المغرب الأوسط وبايعت «زيري بن مناد» بالزعامة والرئاسة، وأطاعته قبل أن يقدمه الخليفة الفاطمي المنصور باسمه على قومه أثناء حرب أبي يزيد مخلد بن كيداد. والراجح أن هذا التقديم جاء مع بناء مدينة «أشير» سنة 324هـ/936م. أنظر بوجه خاص: فرحات دشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 164 وهامش 12، وص ص 199-203، وهامش 47 وهامش 52. وقارن نتائج الباحث فرحات دشراوي بما جاء عند ابن الأثير: الكامل ج8 ص 422 وما بعدها. وص 623 وما بعدها. ويهمنا من كلامه «اجتمعت صنهاجة ومن والاها بالمغرب على طاعته قبل أن يقدمه المنصور» وهذا الكلام صحيح بالنسبة لزيري وليس بالنسبة لابنه بلكين. مع ملاحظة أنه أرخ

وزعامة تعتمد على جهودها النضالية يدعمها الحماس والإندفاع الذي لايرقى إلى مستوى «الابرام والحبك السياسي» مما يؤدي في النهاية إلى إجهاضها بسرعة، وهذا ما حصل لهذه الزعامة الممثلة في «أبي يزيد مخلد بن كيداد».

وعلى امتداد الصراع المسلح بين الفاطميين وانصارهم مع أبي يزيد، نلاحظ أن أبا يزيد كلما تفوقت عليه قوة العبيدين، إلا ونجده فارا وطريدا، تارة إلى جبال «كيانة» بالمغرب الأوسط ومواطن «بني برزال»، وتارة نجده يلهث باحثا عن الأنصار والدعم الأندلسي الذي توقف عند حدود الإبتهاج بانتصاراته على الفاطميين. ورغم جهود فقهاء المالكية بإفريقية الذين انتصروا له عليالشيعة في مرحلة انتصاراته(46)

.../... تأسيس مدينة أشير بسنة 364هـ/974م وهو خطأ واضح أوقعه فيه منهجه الحولي في كتابة التاريخ العام. ثم قارن بما جاء عند النويري: نهاية الأرب، ج 24 ص 159–167. ثم قارن بما جاء عند المؤرخ الفاطمي: الداعي إدريس: عيون الأخبار (تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب) تحقيق اليعلاوي، ص 405 (ورقة 402). ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد، تحقيق التهامي نقرة، وعويس، طبعة، تونس 1987 ص 72–83. هـ ر. إدريس : دولة صنهاجة ، ج 1 ص 39–60 بل والدراسة كلها.

(46) تخبرنا المصادر السنية باستنجادات واتصالات أبى يزيد مخلد بن كيداد بأمويي الأندلس، وأهمها إرسال ولده «أيوب بن أبي يزيد» الذي وصل قرطبة في آخر ربيع الأول سنة 335هـ/946م. (ابن الآبار: الحلة 29/2 نقلا عن ابن حيان من القسم الذي مازال غير معروف لدينا). ابن عذاري: البيان 321/2. ابن خلدون: العبر 45/4، 14/7 ولم تحقق هذه البعثة نتائج عملية لصالح أبي يزيد، فتركه الأمويون يلقي مصيره بعد ذلك بقليل. أما الفقهاء زعماء المعارضة السنية ضد الشيعة الإسماعيلية، فقد ناصروا وتحالفوا مع أبي يزيد مخلد الخارجي، وقدموا له خدمات كبرى على مستوى المشاركة في حروبه ضد الفاطميين، وعلى مستوى الصراع المذهبي وتطوعهم الحماسي في إقناع الخلافة الأموية بنصرة ثورة أبى يزيد، ويكفي أن نجد صورة هذه المواقف في كتاب «طبقات علماء إفريقية» لأبى العرب محمد بن تمام التميمي (333هـ/945م)، الذي ألفه في مرحلة هذه الثورة. كما نحيل على ماجاء في كتاب «رياض النفوس»
../..

وفي أوج انتصارات أبي يزيد مخلد بن كيداد على الفاطميين. بإفريقية، عمل الأمويين الأندلسيون على بسط نفوذهم وسلطتهم في المغرب الأقصى. ففي سنة 332هـ/943م قررالخليفة عبد الرحمان الناصر(300هـ/913م-350هـ/960م) توجيه أول حملة عسكرية إلى المغرب الأقصى برئاسة وقيادة أحد كبار قواده وهو «قاسم بن محمد»[47]، وكان هدفها هو إخضاع الأدارسة الذين صارعوا موسى بن أبي العافية قبل حملة ميسور الخصي التي انتزعت منهم بيعة الفاطميين بالمهدية.

.../... للمالكي ج2 ص 309 طبعة دار الغرب الإسلامي 1981 ترجمة رقم 230، وص 338-346 ترجمة الفقيه «ربيع القطان» ورقم ترجمته 235 والمعلومات الواردة في هذه الترجمة غنية جدا بمادة موضوعنا، وتلقي الضوء على أسس ومبررات تأييد فقهاء القيروان لثورة أبي يزيد. ومهما كانت تلك المبررات نطرح السؤال الآتي: هل هذا التفاهم الخارجي السني يعني بداية ذوبان وانصهار المذهب الخارجي في الاتجاه السني ؟ ولعل قراءة كتاب الشيخ هود بن محكم الهواري (وهو من علماء القرن الثالث الهجري) كما أنه يعتبر من علماء الخوارج الإباضية بالمغرب، وكتابه هو : تفسير كتاب الله العزيز» طبعة دار الغرب الإسلامي، 1990. أقول لعل قراءة هذا العمل قراءة دقيقة ومتأنية وفاحصة يتضح فيه الانتصار السني على النزعة الخارجية. بمعناها المتشدد. ثم أنظر : القاضي عياض في ترتيب المدارك في ج2 و3 و4 خاصة.

(47) عرفه «ليفي بروفانسال» بأنه القاسم بن محمد بن طملوس، توجه إلى سبتة في ربيع الأول 332هـ/943م، وكلف بمهمته استرجاع الولاء الإدريسي للخلافة الأموية. وطمأنه الأمراء البربر من مغراوة وبني يفرن، وحقق نجاحا ملحوظا بنقل الزعماء المحليين إلى قرطبة لتقديم طاعتهم لعبد الرحمان الناصر. أنظر : ابن عذاري: البيان 213/2، 230 . ابن خلدون : 33/4.

Lévi- Provençal: Hist.Esp. Musulman, T.II, pp. 104-105.

وقارن بما جاء عند ابن خلدون : العبر 451/6 حيث تكلم على هذه الشخصية في أحداث سنة 362هـ/972م وهو عصر المستنصر الأموي.

وفي سنة 333هـ/924م وجه عبد الرحمان الناصر قائده البحري إلى المغرب «محمد بن رماحس»(48) حاكم القاعدة البحرية الأندلسية «المرية» وكلف أيضا بإكمال مهمة القائد «قاسم بن محمد». وفي المرحلة من 336هـ/947م إلى 343هـ/954م. تلاحقت على قرطبة وفود زعماء المغربين الأقصى والأوسط(49). ولكن الخلافات الداخلية بين زعماء القبائل في المغربين وأمرائه أدت إلى تجديد صراعات الثأر والتنافس والانقسام القبلي، الذي أفضى إلى إحياء «عداوات الظهور القبلي» في المغربين الأوسط والأقصى الشيء الذي

---

(48) نسجل أن المعلومات التاريخية الأندلسية عن هذه المرحلة قليلة، وقليلة جدا، خصوصا أن غياب نصوص المؤرخ الأندلسي ابن حيان عن هذه الفترة أثر في زيادة غموض تاريخ البحرية الأندلسية في هذه المرحلة التي كانت في أزهى عصورها. وتذكر الدراسات الحديثة أن محمد بن رماحس قاد حملة بحرية كبرى (15 مركبا بحريا وشينيين وفتاش) إلى المغرب الأقصى، ثم قام بحملة على سواحل إفريقية الفاطمية. أنظر : الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، طبعة دار النهضة العربية، 1969 ص 38. الدكتور أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، طبعة دار النهضة العربية 1969 ص 138 مع مصادر هذين البحثين: Lévi-Provençal:Hist.esp.Musulman:T.II,pp.105-10 الدكتور عصام سالم سيسالم: جزر الأندلس المنسية، طبعة دار العلم للملايين، بيروت 1984ص 94–96. ابن خلدون: العبر: 96/95/4. ابن عذاري : البيان 232/2.

(49) إن الدراسات التي أنجزت على عهد عبد الرحمان الناصر (300هـ–350هـ) سواء منها ما أنجزه الباحثون العرب أو الاسبان لم تستطع سد الثغرة التي أحدثها غياب نصوص ابن حيان في بعض فترات تاريخه، ومنها تاريخ بحريته في مرحلة (330هـ/360هـ). وعلاقته مع بلاد «العدوة». وقد أفادنا الباحثان الاسبانيان «فيكيرا:Jesus,Viguera» و«كوريينتي: Federice CORRIENTE» مترجما الجزء الخامس من كتاب المقتبس لابن حيان إلى الإسبانية، بقائمة هامة جدا من المصادر والأبحاث المتعلقة بعصر عبد الرحمان الناصر. أنظر الصفحات الأخيرة (457–461) من طبعته الإسبانية (Zaragoza 1981) ثم أنظر مبحث «قرطبة:kurtuba» في دائرة المعرف الإسلامية الطبعة الجديدة ج5 ص 513–516 الذي حرره الباحثان المتخصصان: سيبولد، وخمينيز. وخاصة مصادر البحث.

استغلته قرطبة للإحتفاظ بسيادتها البحرية في الساحلين المغربيين على المتوسط والمحيط الأطلسي.

وهكذا أفرزت الفترة التي امتدت من 336هـ/947م إلى سنة 345هـ/956م[(50)]، النتائج الآتية:

1- أن الخلافة الفاطمية حصرت جهودها الفعلي عسكريا في مدينة أشير التي دعمتها لتكون قاعدتها الأمامية لمواجهة الجهات الغربية. وجعلت من قبائل صنهاجة القوة الضاربة في المنطقة وخاصة في الجهات الغربية،. وهذا يعني أن الفاطميين اهتموا بالجبهة الغربية من بلاد المغرب على مستوى العمل البري، وهذا ما يؤكد أن قضيتهم الأساسية في المناطق الغربية مركزة في تحصيل الضرائب والخراج وتأمين تجارة القوافل مع إفريقيا جنوب الصحراء.

2- أن الخلافة الأموية الأندلسية، ركزت اهتمامها ببلاد العدوة (المغربين الأقصى والأوسط) في استمرار المرافئ البحرية المغربية، وخاصة مدينة «سبتة» التي كانت قاعدتها البحرية المركزية في العدوة. وعملت ما في وسعها في الإحتفاظ بها قاعدة بحرية متقدمة في الجهات الجنوبية لمجال النفوذ الأندلسي في المنطقة ، لخدمة الأسطول البحري الأندلسي الذي كان يقوم بأدوار عسكرية وتجارية حيوية في غرب البحر الأبيض المتوسط. واعصوصبت الخلافة السنية بكل التجمعات القبلية في المنطقة. وكان يعني التدخل في

---

(50) لقد بذل العلامة ابن خلدون جهدا مضنيا في متابعة وضبط أحداث هذه المرحلة في الأجزاء الثلاثة التي اهتم فيها بتاريخ المغرب الإسلامي من العبر. ويكفي متابعة عمله لاستخلاص ماذهبنا إليه، ومع ذلك هناك ثغرات نعتقد أن ملأها متوقف على اكتشاف نصوص المقتبس لابن حيان، رغم أن مفاخر البربر تضمن طرفا منها، وكذلك ابن عذاري في بيانه والنويري في نهاية أربه وقد أجمل ابن خلدون الخريطة السياسية العامة قبيل حملة جوهر في 347هـ. أنظر: ابن خلدون: العبر 96/4، 36/7-37.

المغرب الأقصى عند الأمويين تهديد هذا الوجود الفعلي الذي لايمكن التساهل في تهديده.

3- كشفت هذه المرحلة على التخلي عن التدخل المباشر في المناطق الداخلية البعيدة، مادامت لاتهدد المصالح الحيوية للخلافتيين. وهذا ما يفسر انحسار الأحداث والوقائع التي دونتها المصادر القديمة، في الجهات الشمالية الغربية، ماعدا سجلماسة، مدينة الملتقى القوافلي التجاري العابر لبلاد الذهب في الجنوب.

4- كشفت هذه المرحلة عن دخول المجتمع المغربي القبلي في مرحلة تشكيل جديد مبني على الجهوية الإقليمية الطبيعية، وتكوين تكتلات مصلحية حلفية مستقلة على أساس مادي، وليس على أساس سلالي عرقي دموي.

5- كشفت أيضا هذه الفترة على استمرار البحث عن إعادة الرمزية السياسية للمغرب الأقصى الموحدة ، تلك الظاهرة المتمثلة في «الإمارة الإدريسية».

هذه النتائج حاولت التدخلات الفاطمية والأموية إعطاءها توجها يخدم مصالحها وأهدافها، كل جهة من زاويتها الخاصة.

وكانت المبادرة القوية التي قام بها العبيديون الفاطميون هي أقوى التدخلات بعد هذه المرحلة مباشرة، تلك هي حملة «جوهر الصقلي». هذه الحملة التي قلبت الموازين من جديد على المستوى القبلي. بتغيير المواطن والمواقع، وإعادة التكتل والتجمع، والاستقلالات الجهوية، وظهرت وكأنها «حملة تفجير اجتماعي جديد».

فكيف تطورت الوضعية تبعا لمجريات الأحداث في حملة جوهر الصقلي (347هـ/958-348هـ/960م) ؟.

حملة جوهر الصقلي في الجهات الغربية (51)

انطلق جوهر على رأس عشرين ألف مقاتل (20.000 مقاتل) جلهم من قبائل كتامة وصنهاجة(52)، وبرر المعز الفاطمي توجيه هذه الحملة إلي المغرب الأقصى، بأنها تهدف إلى معاقبة من خالف ونقض الطاعة الفاطمية، أو انتحل لقب الخلافة(53)، وليس لدفع شر أو مكروه، أو جلب مال». وساعد جوهر

---

(51) أنظر مقال الموسوعة الإسلامية في طبعتها الجديدة، ج2 ص 507. «جوهر الصقلي».

(52) يظهر في التراتب العسكري لهذه الحملة أن المعز الفاطمي يولى لصنهاجة مكانة أفضل من كتامة. فقد أحدث تغييرا في سياسة تجنيد الجيش، حيث فسح المجال لصنهاجة الذين قدمهم على غيرهم من كتامة. أنظر : سنوسي يوسف إبراهيم: زناتة والخلافة الفاطمية مصر 1986 ص 263. وهذه الحملة هي الحملة الثانية عشر من عدد الحملات التي شنها الفاطميون في الجهات الغربية من سنة 296هـ/909م إلى سنة 347هـ/958م، فشلت جميعها بعد نهايتها، بسبب المعارضة المحلية المبنية على المناورة والمساعدة الأموية لجميع الذين لجأوا إلى الأندلس من أهل العدوة سواء كانوا زعماء قبائل أو أمراء سياسيين أو رجال علم وفكر. ونرجح من الأسباب القوية التي أدت إلى قيام الفاطميين بهذه الحملة مالاحظه الفاطميون من تفوق بحري عند الأمويين بالنسبة إلى البحرية الأندلسية. فكأن هذه الحملة التي قادها جوهر الصقلي ماهي إلا تقليم لأظافر بني أمية في الجهات البرية، وتوقيف للتجارة الأندلسية في إفريقيا جنوب الصحراء، وقد اتضح لهم ذلك منذ تزايد النفوذ الأندلسي في المغرب منذ عهد ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد التي انتهت سنة 336هـ/947م. وتفوق البحرية الأندلسية في غرب البحر المتوسط في سنة 345هـ/956م (ابن عذاري: البيان 330/2). القرطاس، ص 89-90. الناصري: الاستقصا ج1 ص 114 وص 180-182.

(53) القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص 256 وانتحال لقب الخلافة هنا في كلام الخليفة الفاطمي موجه ضد الشاكر لله المدراري بسجلماسة.

الصقلي في قيادة هذه الحملة «زيري بن مناد»[54]الصنهاجي، وجعفر بن علي الأندلسي[55].

وفي جمادى الأخيرة سنة 347هـ/ سبتمبر 958م خرج جوهر الصقلي على رأس جيشه البري العظيم إلى المغرب الأقصى[56]، واتبع خطة جديدة هذه المرة مع عصاة الأمر الفاطمي، وخطة مركبة من «ضرب القبائل ببعضها البعض» إلى جانب تدمير الحصون والمعاقل التي أنشأها زعماء التجمعات القبلية. وكأنها سياسة الأرض المحروقة. وأيضا اتبعت خطا رئيسيا معينا، والذي يعني السيطرة على المجال الحيوي للقبائل الرعوية المغربية وكذلك الجهات الفلاحية، وكأنها موجهة نحو ضبط وإخضاع أنصاف الرحل. ثم أنها اهتمت بالسيطرة على خطوط التجارة المغربية، وأحكام قبضتها على مدن ومراكز هذه التجارة تاهرت وتلمسان، وفاس ، والريف، وغمارة ثم جنوبا سجلماسة وفي الغالب درعة. وفي وسط المغرب الأقصى منطقة أغمات ونفيس. وهكذا ظهرت الخريطة الجغرافية لخطوط حملة جوهر الصقلي، بمظهر قطع الروابط الإقتصادية بين الأندلس وبلاد العدوة. ولذلك أدرجت في مسلسل الصراع بين الفاطميين والأمويين.

ولكن إذا قرأناها من زاوية تأثيرها الإجتماعي، فإننا نجدها حملة منظمة تهدف بالقوة إلى تغيير نظام الولاء القبلي على مستوى التوطين والمواقع،

---

(54) أنظر عنه: هـ.ر. إدريس : الدولة الصنهاجية ج1 ص 39 وما بعدها. القرطاس ص 54. ابن الخطيب: أعمال الأعلام القسم 3 ص 220.

(55) أنظر عنه: هـ.ر. إدريس ج 1 ص 64-68. ابن خلدون: العبر 97/4، 315/6، 33/7-34. سعد زغلول عبد الحميد: 231/3.

(56) مفاخر البربر ص 6 (القسم المطبوع) ابن عذاري: البيان 316/1. القرطاس ص 59 -60. الناصري : الإستقصا 81/1-82.

وعلى مستوى التنظيم التجمعي في الجهات الغربية. ولعل مهمة صنهاجة الشمال بزعامة بني زيري هي هذه. ويعني هذا تدخل أهل الجبال الشرقية من بلاد المغرب الكبير (جبال الأوراس) في الجهات السهوبية، لإعادة تركيب نظامهم القبلي بشرط استمرار تبعيتهم للخلافة الفاطمية.

وبالنسبة لقيادة الحملة كانت المحطات الكبرى للقيام بمهمتها تقتصر على تاهرت وتلمسان، وفاس، وسجلماسة. وأهم ما يلفت نظر الباحث هو توقف جيش جوهر الصقلي في منطقة «تاهرت» حيث كانت السيادة لقبائل بني يفرن في مرحلة هذه الحملة 347هـ/958م، أو على الأصح كانا لظهور الزعامة اليفرنية(57) في حوض نهر شلف، وللزعامة

---

(57) إن أحداث الصراع الداخلي بين قبائل المغرب الأوسط في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/10م، بلورت الخلاف القبلي بين تجمعاته المحلية (بنويفرن، ومغراوة، ومكناسة)، وكان الصراع الأموي الفاطمي من أقوى المؤثرات الفاعلة في توجيهه واستثماره (أنظر بحث لويكي حول بني يفرن بالموسوعة الإسلامية في طبعتها الجديدة بالفرنسية، ج3 ص 1065-1070، وخاصة ص 1068). وقبل حملة جوهر الصقلي حدث انقسام في التجمع اليفرني، ففي سنة 336هـ/947م انشقت المجموعة إلى جناحين: قسم تزعمه محمد بن صالح اليفرني وجناح ترأسه عبد الله بن بكار اليفرني. فالأول معارض لمغراوة، والثاني مؤيد لها (ابن خلدون العبر 7/35-36). وأدى هذا الانقسام الداخلي إلى مقتل محمد بن صالح على يد عبد الله بن بكار، مما نتج عنه استقلال أبناء الضحية بحصن أو مدينة «إفكان :Ifgan» الذين تولى رئاستهم ابنه «يعلى بن محمد بن صالح» (ابن حوقل: صورة الأرض ص 88. الادريسي: النزهة ص 250-251). وفي غمرة الصراع الفاطمي الأموي كان يعلى بن محمد من أنصار بني أمية الأندلسيين، وعندما وصلت جيوش الفاطميين بقيادة جوهر الصقلي 347هـ/958م كان يعلى بن محمد ذا نفوذ قوي من تاهرت إلى طنجة حسب ماذكر ابن خلدون (العبر 7/36 وابن أبي زرع: القرطاس، ص 54). لذلك كله كان جوهر الصقلي يرى في بني يفرن بزعامة «يعلى» أقوى ممثل للنفوذ الأموي الأندلسي، وأقوى خطر قبلي منافس لصنهاجة، فمن الضروري تصفيته بكل الوسائل والطرق المناسبة لعصره.

المغراوية[58] في تلمسان ووهران. وبدأت الحملة مهمتها بشن حملة تأديبية على قبيلة «بني يرنان» حول مدينة «هاز»[59] مما أدى إلى انتقال رجال هذه القبيلة إلى الأندلس للعمل في جيش عبد الرحمان الناصر. وبعد هذا التدخل الأول في الجهات الغربية لحملة جوهر الصقلي، بدأ الأعداد لضرب أقوى التجمعات القبلية الزناتية. وهنا بالذات وصلتنا الوقائع التاريخية بروايتين مختلفتين:

---

(58) لقد عرفنا بمغراوة في أماكن متعددة من هذه الدراسة، ويهمنا هنا منها موقفها من حملة جوهر الصقلي (347هـ/958م). (أنظر بحث «مغراوة: Maghrawa» في الموسوعة الإسلامية، الطبعة الجديدة بالفرنسية) ج5 ص 1163-1173 الذي حرره لويكي، ونحيل على ماجاء في ص 1165-1166 وص 1169. ويعتبر هذا البحث من أمتن وأجود البحوث المتخصصة في موضوع مغراوة. وقد انضم قسم كبير من مغراوة إلى التأييد الأموي الأندلسي، بزعامة محمد بن خزر المغراوي، ولما وصلت حملة جوهر حاولت مغراوة المراوغة وإبداء التأييد للفاطمي. وأدى ذلك إلى إنقسام داخلي في التجمع المغراوي، كما حدث في التجمع اليفرني. (لويكي: الموسوعة الإسلامية. E.I.2ème ,T 5, p.1165) والدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج 3 ص216. لقد كان الامتداد المغراوي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/10م. قويا في حوض نهر شلف إلى جانب بني يفرن، وقام الأمير محمد بن خزر وإخوته وأبناؤه بدور كبير في نشر التأييد الأموي الأندلسي في المغرب الأوسط. وبعد القضاء على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد سنة 336هـ/947م وخضعت بعض بطون مغراوة مؤقتا للفاطميين ابتداء من سنة 335هـ/946م (بناءا على المصادر الفاطمية مثل ماجاء عند القاضي النعمان في افتتاح الدعوة والمجالس). ولعل هذا الوضع هو الذي لعب دورا رئيسيا في تخفيف الضغط الفاطمي على مغراوة بالمقارنة مع ما حدث لبني يفرن. ومع ذلك فقد كانت المطاردة والمعاقبة الفاطمية لقبيلة مغراوة شديدة نظرا لموقفها المؤيد للأندلسيين أنظر أيضا «طلوع سعد السعود» للأغا بن عودة المزاري ج 1 ص 121-122. الميلي: تاريخ الجزائر ج2 ص 146. الجيلاني: تاريخ الجزائر العام ج 1 ص 248-250.

(59) الجيلالي: تاريخ الجزائر 249/1. البكري: المسالك ص 830 فقرة 1385. ابن خلدون: العبر 49/7. ابن الآبار: الحلة السيراء 51/2 هامش المحقق.

رواية ابن خلدون ومؤداها أن «يعلى اليفرني» قبل الخضوع للفاطميين، ولكن جوهر الصقلي دبر مؤامرة لاغتياله اغتيالا قبليا حتى لايتحمل دمه. وأكمل روايته بتخريب المدينة «إفكان». ويظهر أن هذه الرواية الخلدونية[60] منسجمة مع سياق التحليل القبلي الخلدوني. ولكن لاتنسجم مع سياق أحداث حملة جوهر التي تتوافق معها رواية ابن أبي زرع[61] الأقدم من رواية ابن خلدون، والتي مفادها أن يعلى اليفرني عندما بلغته أخبار حملة جوهر الصقلي، استعد لمواجهته، وحشد جموعه القبلية، وتلقاه عسكريا بتاهرت، متحمسا للنصر والهزيمة معا. ودارت بينهما معركة انهزمت فيها قبائل بني يفرن وفرت جموعهم أمام جوهر الصقلي بعد مصرع أميرهم «يعلى اليفرني».وهناك رواية ابن الأثير[62] الذي يلخص الموقف كله بقوله «فحضر

(60) ابن خلدون: العبر 93/4 (ج2 ص 24 طبعة دوسلان من الترجمة الفرنسية) ويؤيد هذه الرواية ماذكره ابن عذاري: البيان ج2 ص 224 من وصول رسالة محمد بن يعلى، التي أرسلها من مدينة «إسلان» يذكر فيها أن جوهر الصقلي قتل والده «يعلى». وكان أهم رد على ذلك هو تكليف إحدى فرق البحرية الأندلسية بغزو شواطئ إفريقية الفاطمية (ابن عذاري: البيان، 221/2-222). ثم قارن ما جاء أيضا في العبر 96/7-97 وهو ماكرره بصورة أوضح في الجزء 37/7.

(61) ابن أبي زرع: القرطاس ص 54 ونقل الناصري هذه الرواية في الاستقصا ج 1 ص 86. ونفس المضمون نجده في مفاخر البربر ص 4-5 ولكن أشار إلى إعدام (يعلى) أثناء عودة جوهر الصقلي بعد إنهاء مهمته في المغرب الأقصى. وقد ذكر إبن خلدون هذه الرواية 37/7.

(62) ابن الأثير الكامل ج 8 ص 524. ثم أنظر ردود الفعل في الأندلس حسب الروايات الفاطمية عند القاضي النعمان: المجالس والمسايرات ص 217و275 وروى المقريزي في المقفى الكبير (ج 3 ص 84-85) هذه المسألة مع تفصيل غير مقنع لاعدام «يعلى بن محمد اليفرني» واعتقال ولده «يدو بن يعلى». فرحات دشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب ، ص 230-231 (بالفرنسية) فقد اعتبر إعدام «يعلى اليفرني» ناتج عن مؤامرة داخلية، بين القبائل المحلية، أكمل تنفيذها جوهر الصقلي.

عنده يعلى بن محمد الزناتي، فأكرمه وأحسن إليه، ثم خالف على جوهر، فقبض عليه، وثار أصحابه فقاتلهم جوهر فانهزموا وتبعهم جوهر إلى مدينة إفكان فدخلها بالسيف ونهبها، ونهب قصور يعلى وأخذ ولده وكان صبيا، وأمر بهدم إفكان وإحراقها بالنار وكان ذلك في جمادى الأخيرة سنة 347هـ/958م.

ويهمنا من هذه الأحداث ماذكرته المصادر وخاصة ابن خلدون[63]، من «فرار زناتة»أمام جوهر، وكأنها قطيع من الغنم يفر من مطاردة الذئاب. فهي إذن هجرة قسرية جماعية من الشرق إلى الغرب، من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى. ويهمنا أيضا ماذكره القاضي النعمان[64]، في معرض حديثه على مقتل «يعلى اليفرني» قوله «وأتى مركب به بعض أهل يعلى اللعين يخبرون بقتله، وقتل أهل بيته، واستيلاء العساكر في ساعة واحدة على مدينته وقياطينه».

إن معظم المصادر ذكرت فرار القبائل إلي المغرب الأقصى، وهذا فعلا حدث اجتماعي، غير الخريطة القبلية فيه في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/10م، وقلب معادلة التحالفات القديمة في الجهات التي قصدتها القبائل الفارة إليه، ولعل هذه الظاهرة هي التي جعلت المؤرخين يصفون المرحلة في المغرب الأقصى بـ «عصر زناتة».

---

(63) إبن خلدون 96/4، وخاصة ماجاء في الجزء 37/7 حيث قال «وخرب جوهر مدينة إفكان، وفرت زناتة أمامه وكشف القناع في مطالبتهم».
أنظر: Gautier: p. 393.

(64) القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص 217. والملاحظ أن الداعي إدريس في «عيون الأخبار» جعل مقتل «يعلى اليفرني» خلال عودة جوهر إلى إفريقية، كما فعل صاحب مفاخر البربر (العيون ص 610 ورقة 60/2 بتحقيق اليعلاوي). وتاريخ تخريب إفكان في جمادى الأخيرة سنة 347هـ/ غشت 958م وهو أقوى الأدلة على وقوع ما وقع في بداية حملة جوهر.

وانتقل الجيش الفاطمي بقيادة «جوهر الصقلي» من منطقة تاهرت وتلمسان إلى مدينة «فاس» التي كانت مستقلة، تحت سلطة «ولاة أو حكام» تعينهم المدينة عليها، وفي الغالب كانوا تابعين للزعامة والرئاسة اليفرنية، وبموافقة «يعلى بن محمد اليفرني». وبدأت هذه الظاهرة الإستقلالية منذ نهاية حملة ميسور الخصي، وبداية نجاح ثورة أبي يزيد مخلد ابن كيداد في سنة 331هـ/943م واستمرت كذلك إلى أن وصلت الحملة الفاطمية بقيادة جوهر الصقلي في سنة 347هـ/958م.

وقبل معالجة حملة جوهر الصقلي على المغرب الأقصى في أهم محطاتها الكبرى، نسجل أن المصادر تباينت في مواقفها من هذه الحملة. فالمصادر المغربية التي لم تعاصر أحداثها أعطت عنها صورة مخالفة للصورة التي أعطتها عنها المصادر الفاطمية. فهي في المصادر المغربية والأندلسية حملة غزو وظلم، أما في المصادر الفاطمية حملة تأديب واسترجاع حق شرعي. ومن هنا تهمنا النتائج الكبرى لأحداثها تلك النتائج التي كان لها بعد اجتماعي كبير على المغرب الأقصى.

ولما وصلت حملة جوهر الصقلي إلى فاس التي أغلقت أبوابها واستعدت للحصار والمقاومة، كان الفصل شتاء، ويظهر أنه بدأ حصاره لفاس في محرم 348هـ/ مارس 959م(65). وقد أفضت أحداث مدينة فاس إلى إحياء الزعامة العربية فيها، حيث كان رئيس المدينة المحاصرة هو «أحمد بن بكر الجذامي»(66)، وتصوره المصادر الفاطمية تصويرا يجعله مستقلا بالسلطة فقد

(65) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي 233/3.

(66) نعتمد ماجاء عند القاضي النعمان: المجالس ص 491 ثم أنظر الفصل اللاحق الذي خصصناه لمدينة فاس وهامش 77 . الداعي إدريس: عيون الأخبار، ص 610 (ورقة 60/2-61).

«تسمى بالإمام وجعل على قصره مظلة ينصبها علامة لجلوسه وترفع إذا قام»(67). وأثناء هذا الحصار يظهر أن إستراتيجية قيادة الجيش الفاطمي قامت بتوزيع المسؤولية والعمل وذلك على أن يقوم جوهر القائد العام بتصفية مشكلة سجلماسة. ويتولى «زيري بن مناد الصنهاجي» متابعة حصار فاس وفتحا للفاطميين.

وهكذا يصبح الوضع من وجهته القبلية في حصار فاس ضرب قبائل المغرب الأقصى بحوض نهر سبو بقبائل صنهاجة إفريقية والمغرب الأوسط. وحاولت السلطة المركزية بإفريقية إنطلاقا من مدينة المهدية مقر الخليفة الفاطمي العبيدي أن تقرب وتستميل «أهل فاس» وطلبت منهم الاستسلام في مقابل الأمان(68) «وقد كان كتب لهم كتابا بالامان إن أنابوا» وأثناء هذا الحصار «كانت في فاس حروب وملاحم وحصار أحد عشر شهرا من ظاهر السور، ومات في الحصار أحمد بن بكر وبقي ولده محمد بن أحمد بن بكر»(69). ولم تسقط

---

(67) الداعي إدريس ص 610 (60/2) .

(68) المجالس ص 492. الداعي إدريس: عيون الأخبار ص 612 (ورقة 61/2)، ثم أنظر ص 486 هامش 244. المقريزي: المقفى الكبير ج3 ص 85-86 ويقدم لنا صيغة أخرى في الغالب مختصرة من القاضي النعمان : «ودخل حتى انتهى إلى فاس وبها أحمد بن بكر فامتنع من جوهر وقاتله مدة، فلم يقدر عليه جوهر ورحل عن فاس إلى سجلماسة» . اتعاظ الحنفا، ج 1 ص 94. المؤنس ص 63.

(69) الداعي إدريس: عيون الأخبار، ص 611 (ورقة 60/2). وهذه الرواية هي التي ذكرت مقتل أحمد بن بكر في حصار فاس، مما يؤدي إلى أن يكون الأسير هو إبنه «محمد» وليس والده «أحمد»، ونصوص القاضي النعمان صريحة في ضبط اسم الأسير الفاسي الذي نقل إلى المهدية وهو «أحمد» وهذا ما نرجحه على خلاف ماذكره الداعي إدريس. ابن عذاري: البيان 222/1. أنظر ابن الأثير 524/8. إبن خلدون 314/6. ثم قارن بما جاء عنده في ج 4 ص 97.

مدينة فاس إلا بعد العملية الجريئة التي قام بها «زيري بن مناد» عند تسلق جيشه أسوارالمدينة في خطة محكمة انتهت بفتح أبواب المدينة وسقوطها في يد الجيش الفاطمي(70)، في 10 رمضان 348هـ/15 نوفمبر 959م. ويذكر الأستاذ عبد الهادي التازي(71) «كانت حملة جوهر المحمومة على فاس ، فقتل عددا من المالكية، وحمل الناس على مذهب الشيعة، وصحب معه خمسة عشر من أشياخ فاس رهائن، ونصب على المحراب (محراب جامع القرويين) أرصادا تدل على الوجود الشيعي في القرويين».

لقد نجح «زيري بن مناد» في فاس، أما القائد العام جوهر الصقلي فقد توجه إلى سجلماسة التي كانت بدورها مدينة تجارية كبرى في هذه الفترة، ومستقلة تميل بل تعمل على بقاء مركزها ودورها في نظام الطرق التجارية القوافلية، فهي أساسا لاتملك إلا أن تماليء أية قوة قاهرة لاتقدر على مقاومتها. فلم تكن مدينة عسكرية وإنما كانت تقوم بدور مدني سلمي تجاري. والدراسات التحليلية الحديثة التي أجراها الباحثون المحدثون على مدينة سجلماسة يؤكدون على الدور الذي تعكسه المصادر القديمة التي روت أخبارها في العصور الوسطى.

وعندما توجه جوهر الصقلي بجيشه إلى سجلماسة يظهر أنه كان بهدف توثيق السيطرة على جميع محطات طرق التجارة مع السودان، ولهم في ذلك مآرب أخرى.

---

(70) إبن أبي زرع: القرطاس ص 90 يؤرخ سقوط فاس ب 20 رمضان 349هـ/13-11-960م. سعد زغلول عبد الحميد: 235/3. النويري: نهاية الأرب ج 26 ص 88 ثم القطعة التي نشرها مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء 1988 ص 59.

(71) جامع القرويين 119/1 ، واعتمد في ذلك على ابن أبي زرع: القرطاس ص 55. وذكر أسماء هؤلاء الأسرى ابن الخطيب: أعمال الأعلام ق 3 ص 220. وفيات الأعيان ج 4 ص 313. هنري روجي إدريس: الدولة الصنهاجية ج 1 ص 60 من ترجمتها العربية، ثم قارن بما جاء في هامش 79.

ولكن ماهي الطريق التي سلكها «جوهر» إلى سجلماسة؟ لاشك أنه سلك طريق «فاس -سجلماسة» الذي حدده البكري نقلا عن الوراق[72]. وليس طريق «تاهرت -سجلماسة» ماعدا إذا افترضنا أن يكون قد وجه من تاهرت أو تلمسان فرقة إلى سجلماسة ليلحق بها بعد تصفية معضلة مدينة فاس، كما ترى بعض الدراسات[73].

والمهم أن جوهر الصقلي لم يلق مقاومة في سجلماسة كما وجدها في مدينة فاس، كما أنه لم يجد في طريقه من فاس إلى سجلماسة أية صعوبات. وتمكنت قواته من السيطرة على المناطق التي خطط للسيطرة عليها. ولما وصل إلى مدينة القوافل التجارية. فر أميرها «محمد بن الفتح» الذي لقب نفسه بلقب الخلافة وهو «الشاكر لله»[74].

---

(72) البكري المسالك ص 149 (834 فقرة 1391) ومحطاتها فاس - صفروى - الأصنام - المزي - تاسفمرت - أمغاك ومنه إلى سجلماسة. أو الطريق الثاني وهو أطول وأشد خطرا (ص 834-835 فقرة 1392).

(73) نعني هنا دراسة محمد الملوكي: EL Mellouki (M) Contribution à l'Etude de l'Histoire des villes Medievales du Maroc, Sigilmassa des origines à 668h/1269,Aix-en- Provence,1985 (thèse de Doctorat, 3ème Sycle).

(74) يوجد في إقليم سجلماسة «مدشر= قصر سكني» يحمل إسم «أولاد شاكر» بالرتب، ولعل إسمه من لقب الأمير المدراري الشاكر لله. أما مدغرة فهي قبيلة بربرية أعطت إسمها لمنطقة وجودها في مرحلة القرن الرابع الهجري/ 10م وتقع على وادي زيز، كما تبعد عن سجلماسة بـ 80 كلم. أما الشاكر لله أو محمد بن الفتح يكنى بابن واسول وهو عاشر بني مدرار. وأشار الدشراوي (الخلافة الفاطمية بالمغرب ص 352 بالفرنسية) إلى المثقال الشاكري الذي ضربه محمد بن الفتح المدراري. ويوجد المثقال الشاكري المضروب سنة 336 هجرية وضمن التراث النقدي ببنك المغرب - الرباط. أنظر مقال: شارل پلا: الموسوعة الإسلامية في طبعتها الجديدة، ج 6 ص 1034 برسم «مدرار».

والملاحظ أن المصادر المغربية لم تعتبر هذا اللقب تحولا نحو إعلان «خلافة إسلامية» جديدة على غرار مافعله الفاطميون والأمويون، وإنما اعتبرته شعارا للعملة، فكأنه حل اقتصادي للسيولة المالية، وتسهيل لعملية التداول النقدي التجاري، لكن هذا يعتبر أمر خطير بالنسبة لدولة نظامية مثل الخلافة الفاطمية. ومن هنا جاء هجومها عنيفا لاهوادة فيه، لايستحق التأديب وإنما يتطلب حلا جذريا حتى لا يتطور إلى ماهو أخطر، خصوصا وأنه يتضمن تحولا من الطاعة الشيعية إلى الطاعة السنية. لقد هرب الأمير السجلماسي الدراري أو على الأصح «الواسولي» إلى منطقة «مدغرة»[75] التي أخطأ الكتاب في تحديد موقعها من سجلماسة. ونرجح أنه لم يكن محمد ابن الفتح أو الشاكر لله بنفس الحجم الذي وضعته فيه الخلافة الفاطمية، وبالتالي لم يكن الاستحقاق العقابي الذي صبته عليه الدولة العبيدية في مكانه. ولعل هذا الاهتمام راجع إلى أهمية السيطرة على أهم مركز هام وحساس من مراكز الطرق التجارية العالمية آنذاك. كما يرمز إلى إحكام السيطرة الفاطمية على بلاد البربر كلها[76].

وهذا يعني في أساسه الإقتصادي أن حملة جوهر الصقلي، ماهي إلا حملة «تأمين الطرق التجارية» لصالح الفاطميين، فالسيطرة على فاس تضمن مداخيل وأعشار التجارة في الشمال، أما سجلماسة فهذه أشدها حساسية

---

(75) ابن عذاري: البيان 222/1. إبن الأثير 524/8 (189). البكري: ص 151 Dachraoui. (F) Califat, p.231. إبن الخطيب: أعمال الاعلام ق 3 ص 148.

(76) إبن حوقل: صورة الأرض 79. البكري: المسالك ص 840 فقرة 1403 ابن عذاري: البيان 239/1. إبن خلدون 97/4. إبن أبي زرع : القرطاس ص 90، الذي يقول بالنسبة للحملة كلها: «وسار جوهر في بلاد المغرب يقتل أولياء المروانيين، ويفتح البلاد والمعاقل وفرت أمامه القبائل من زناتة وغيرهم فأنفذ الأمر بالمغرب ثلاثين شهرا».

ومردودية، ولم يكن بمقدور الفاطميين تغيير طريق القوافل ولكن بمقدورهم معاقبة المخالفين. ولم يبق إلا إعادة تنظيم القبائل المطيعة لهم. ولهذا اتبعوا خطة وسياسة ضرب العصاة منهم بالمطيعين، وبذلك بدأت عملية استمالة القبائل وإعادة توطينها من جديد. ولكن الخلافة الأموية الأندلسية كانت بالمرصاد وعيونها في كل مكان، ولاتنتظر إلا فراغ الساحة العسكرية لتقلب الأوضاع من جديد ضد الفاطميين. وكأنها الحرب الإقتصادية الباردة في المغرب الأقصى بين القوتين في المنطقة. ولكن الضحية هم أهل البلاد وبشتاتهم القبلي الإنقسامي.

فمن المنطقي أن يتحرك نحو تأمين الطريق المؤدية من سجلماسة إلى فاس وهي: سجلماسة- أغمات- فاس أوأزقور ثم شالة والبصرة وطنجة وسبتة. وبذلك يتم لجوهر الصقلي تطويق أهم الطرق والجهات الكبرى للمغرب الأقصى.

فالمحور الذي شملته غزوة جوهر الصقلي كان إلى حد ما درسا هو «تاهرت-تلمسان. وفاس ثم سجلماسة» وهذا هو المحور الذي اهتمت به المصادر المغربية والفاطمية معا. ولكن كان هناك محور أخر جاء في المصادر بصورة استطرادية وهو محور طرقي هام جدا وهو «فاس- أغمات وفاس- سبتة أو طنجة ثم أغمات- أو زقور ببلاد دكالة أي منطقة برغواطة»، ثم «أغمات - تامدلت ونول لمطة». ومحور سجلماسة، أغمات».

يظهر أن جوهر لم يهمل هذه الجهات فاقتصر على استقبال زعماء قبائلها في منطقة «أغمات- نفيس»، ولعل تأثير «البجلية»[77] في هذه الجهات كان عاملا ممهدا لاستقباله -على الأقل مذهبيا- كما أن الظروف والبنيات القبلية

(77) أنظر الفقرة التي خصصناها للبجلية من هذه الدراسة بالفصل الثالث من الباب الثاني.

في هذه الجهات (جبل درن) كانت على استعداد لقبول شروطه وهي الاعتراف بالخلافة الفاطمية وتأمين قوافلها التجارية.

ولتحقيق هذه الأهداف اتجه «جوهر الصقلي» مع كبار رجالة وخاصة «زيري بن مناد» إلى منطقة «أغمات» بعد أن فرغت قواته من فاس وسجلماسة وأرغمتها على الطاعة الشيعية، وهذا ما يفيده مبدئيا كلام ابن خلدون[78] المقتضب «وجاءته هدايا الأمراء الادركالن[79] من السوس»، ثم اتجه بعد ذلك إلى شمال المغرب الأقصى وأخضعه ماعدا مدينة سبتة وطنجة اللتان كانتا تحت القبضة الأندلسية.

ولكن السؤال المطروح هنا لماذا لم يهتم الفاطميون في حملة جوهر (347هـ/958م) بالمسألة البرغواطية؟. والجواب يأتي سريعا إذا قرأنا الأحداث من الزاوية الإقتصادية ودور الحملة من ناحية تأمين الطرق التجارية، أما إذا

---

(78) ابن خلدون العبر ج 4 ص 97.

(79) الادركالن: وردت هذه الكلمة في النسخ المطبوعة من كتاب العبر لابن خلدون (4/ 97) برسم «الادكرنية» وهو خطأ بناء على الأساس اللغوي البربري بجبال درن وعلى هذا الأساس اعتمدنا في تصويب هذه الكلمة التي اعتبرناها خطأ من النساخ. فالأصل أنها من تسمية قوم «هم إيدوكالن» أي أهل الأراضي السفلى بمعنى سكان السفوح الجبلية، ومن هنا جاءت تسمية فرقة مجاورة، لحوز مراكش كانت تسمى «إدركالن»، وإدرا معناه عميق لمن ينظر من أعلى. ومنها «درا» أي بلاد درعة التي يشرف عليها سكان الأطلس الكبير في الجهة المعاكسة أي الجنوبية بينما ينظرون إلى دكالة إذا نظروا نحو الشمال. وبهذا تأخذ كلمة ابن خلدون «الادركالن» بعدها الكبيرا والأصيل مغربيا.
أنظر التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق ط الرباط 1984 ص 114 هامش 98. ثم قارن بما جاء عند محمد شفيق في المعجم العربي الأمازيغي، طبعة أكاديمية المملكة المغربية مادة «روح» التي اشتقت منها «راحة اليد» ج 1 ص 458.

قرأنا الأحداث على أساس الصراع المذهبي، فإن الموضوع يأخذ بعدا لايفسر عدم الاكتراث الفاطمي بها في هذه الحملة العاصفية الكبرى على المغرب الأقصى. أما على المستوى القبلي فإننا نجد أرضية أخرى وهي وصول قبائل زناتة القديمة إلى سهل تادلا ومنطقة «داي» وضواحي أغمات ونفيس وبالتالي مناطق النفوذ البرغواطي، وهذا ما جعل القاعدة القبلية لبرغواطة تتوسع شرقا لتصل على مستوى الأحلاف في القرن الرابع الهجري /10م إلى إمارة بني «توالي» بجبال فزاز (الأطلس المتوسط) ثم منطقة أغمات فضلا عن الساحل الغربي للمغرب[80] (تامسنا، والهبط).

بعد أن نجحت مهمة جوهر الصقلي في المغرب الأقصى عاد إلى إفريقية، بعد أن أحدث رجة كبرى في البلاد كلها، خلخل فيها البناء القبلي المغربي وقلب أوراق الوضع السابق الذي أنتجه غياب النفوذ الفاطمي طيلة انشغالهم بإخماد ثورة أبي يزيد الخارجي (336هـ/948م). ووصل ر قادة[81] بإفريقية يوم 18 شعبان 349هـ/12 أكتوبر 960م. ومعه غنائم المغرب الأقصى سياسيا وماليا، فقد أسر زعماءه وجاء برهائنه من رجالاته ووجهائه وأمرائه، كما نقل معه إلى رقادة هداياه وأمواله، فكانت فعلا حملة الظفرالكبيرفي الجهات الغربية للخلافة الفاطمية. ويجمل ذلك كل من القاضي النعمان والداعي إدريس[82]،

---

(80) أنظر معالجتنا للقاعدة القبلية لبرغواطة في الفصل الثاني من الباب الثاني.

(81) القاضي النعمان: المجالس ص 483 وفي مواطن أخرى منه. الداعي إدريس: عيون الأخبار (تحقيق اليعلاوي) ص 613 (ورقة 62/2) –614. المقريزي: المقفى الكبير (تحقيق اليعلاوي) ج 3 ص 86. ويذكر أن وصول جوهر إلى إفريقية كان في 18 شوال.

(82) عيون الأخبار (بتحقيق محمد اليعلاوي، طبعة دار الغرب الإسلامي)، ص 614-618 (ورقة 62/2-65) وقارن بما جاء عند القاضي النعمان، في المجالس الذي ينقل منه الداعي إدريس.

ونفضل كلام القاضي لمعاصرته للأحداث(83) فقال «ولما قفل الجيش المنصور من أرض المغرب بعد أن أظفر الله تعالى وليه بإبن واسول المدعي الإمامة، وإبن بكر الناكث المتغلب بفاس، وفتحها الله تعالى على وليه وما والاها من أرض المغرب، أخذ قائد ذلك الجيش أبناء جميع وجوه أهل المغرب ورؤسائهم رهائن عنده، وقدم بهم وبكل وجه كان بذلك الصقع ممن يطاع به ويخاف جانبه. وجاء فيهم بجماعة من الحسنيين الذين تناسلوا من ولد إدريس وتأمروا في القبائل وادعوا الملك».

وكان موقف الخليفة العبيدي من الحملة مرضيا جدا، ولكنه قضى بإعدام ابن واسول أمير سجلماسة، وأمير فاس أحمد بن بكر، وسرح الأدارسة الذين كانوا رهائن فقط. وفي الغالب أن الحكم بالعفو على الزعماء الآخرين شملهم وإن سكتت المصادر على ذلك. ونفذ الإعدام في الزعيمين السابقين بعد التشهير بهما وكان مشهد إعدامهما مؤلما جدا(84).

والآن أين نضع هذه الحملة الفاطمية على الجهات الغربية من بلاد المغرب الكبير؟ هل نضعها كما جاء في مصادرنا، ضمن الصراع الفاطمي الأموي على طرق التجارة العالمية آنذاك؟ أم نقرأها قراءة أخرى؟.

لقد عالجت موضوع الصراع الفاطمي الأموي أبحاث كثيرة، وأدت إلى حصر نتائجها في التاريخ السياسي والمذهبي، لذلك نرى أن البحث الداخلي في تاريخ المغرب الأقصى يؤدي إلى رؤية أخرى لهذه الحملة الكبرى التي

---

(83) المجالس والمسايرات ص 483. ثم أنظر:

Farchat Dachraoui: Califat Fatimide au Maghreb, p.231-34, Les Notes 39-55.

(84) القاضي النعمان: المجالس ص 484. الداعي إدريس: عيون الأخبار ص 633. ابن عذاري: البيان 222/1. إبن أبي زرع: القرطاس ص 90. الناصري: الاستقصا 164/1، مفاخر البربر ورقة 28-29.

أسقطت زعامات وغيرت مواطن قبائل متعددة «وفرت أمامه القبائل من زناتة وغيرهم»[85]. وهذا على مستوى الصراع بين الكبار لايتجاوز مستوى الطاعة أو عدمها، ولكن على مستوى العلاقات الداخلية داخل النظام القبلي المغربي، فذلك أمر آخر أشد تعقيدا، إذا أدخلنا في حسابنا صراع الإنسان على الأرض ومنافعها، وإمكانيات الحياة عليها بمعطياتها المتنوعة من حيث توفر المياه، والنباتات وتنوع أشكال التضاريس وتنوع شروط الحياة عليها.

ففرار زناتة وغيرها أمام جوهر يعني دخول القبائل الرافضة للطاعة الفاطمية إلى مخابيء وأوعار المغرب الأقصى. وهذا الفرار موجه نحو فرار «بني يفرن» و«مغراوة» و«هوارة» و«بعض بطون مكناسة المغرب الأوسط». كما يعني بداية دخول العناصر الصنهاجية التي كانت تابعة لحلف زناتة المغرب الأوسط. كما يعني توجه قبائل زناتية إلى الجهات الصحراوية بالجنوب المغربي.

وهذه خلخلة كبيرة للخريطة البشرية القبلية بالمغرب من شأنها أن تؤدي إلى صراع مرير بين القبائل التي كانت في البلاد قبل الجماعات الفارة أمام جوهر الصقلي. وهذا الصراع هو الذي سيحدث تحولات كبرى على مستوى التاريخ السياسي والعسكري والإجتماعي للمغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/10م.

فالنتيجة الكبرى لحملة جوهر الصقلي في المغرب الأقصى هي أنها لم تقطع دابر الفتنة والخلاف، وإنما أدخلت البلاد في صراع وانقسام كبير وجديد إنعدم فيه مفهوم الزناتية وبرز فيه مفهوم الجهوية المكانية في الأرياف والمراكز والمدن.

---

(85) إبن أبي زرع: القرطاس، ص 90.

وهذه النتيجة العامة جعلتنا نخصص لمدينة فاس دراسة خاصة، باعتبارها المدينة الناشئة في هذا النظام القبلي، وحاولت دراستها اجتماعيا ومن زاوية تأثير البناء الإجتماعي الذي ساد في المغرب الأقصى منذ القرن الثالث الهجري إلى منتصف القرن الرابع الهجري/10م. فكيف كانت المدينة على ضوء هذه المعطيات، بالإضافة إلى المعطيات السياسية المؤثرة فيها؟.

هذا ما سنحاول رصده في الفصل اللاحق الخاص بمدينة فاس.

الفصل السادس من الباب الثاني

مدينة فاس من تأسيسها إلى منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي

أو

فاس من عاصمة الإمارة إلى المدينة المستقلة

الفصل السادس من الباب الثاني
فاس من المدينة العاصمة إلى المدينة المستقلة

إن معلوماتنا الوثائقية عن مدينة فاس منذ قيامها عاصمة للإمارة الإدريسية في نهاية القرن الثاني للهجرة/ الموافق لبداية القرن التاسع الميلادي، إلى قيام المرابطين في أواسط القرن الخامس الهجري./أواسط القرن الحادي عشر الميلادي، نادرة ونادرة جدا[1]. ومن هنا لانستطيع القيام بدراسة تحليلية لمجتمع مدينة فاس في هذه الفترة بما يكفي من الدقة والتفسير المقنع. وكل مايمكن القيام به هو رصد بعض الوقائع التي تلقي بعض الضوء على فاس في هذه المرحلة التي اعتبرناها زمنيا موضوعا لدراستنا.

ومن هنا أيضا تبقى المصادر الجغرافية العربية القديمة، ومصادر التاريخ الحدثي أهم مصادرنا في هذا الجانب. أما المادة الفقهية التي ترجع زمنيا إلى عصر دراستنا فتكاد تكون منعدمة، اللهم إذا حاولنا القيام بمبدأ القياس وهذا مقبول في الدراسات الفقهية وعلى أساسه جرى العمل في المدن الإسلامية العتيقة.

---

(1) حاولت وزارة الثقافة المغربية القيام بوضع كشاف ببليوغرافي لمدينة فاس، ونشرته بتقديم وزير الثقافة الأديب المغربي اللامع المرحوم «محمد أبا حنيني»، (وصدر هذا الكشاف بدون تاريخ)، ولكن هذه المحاولة التي قام بها «قسم الممتلكات الثقافية» بالوزارة المذكورة، لاتقدم لنا أيضا مادة وثائقية على عصر دراستنا سواء في قسمها البيبليوغرافي العربي أو قسمها الخاص باللغات الأجنبية.

يشير إبن أبي زرع الفاسي (القرن الثامن الهجري /14م) إلى النواة البشرية المتنوعة العناصر التي كونت سكان فاس فيقول[2]: «وقيل كان يسكن مدينة فاس قبيلتان من زناتة وزواغة وبني يزغثن» ثم إن إدريس الثاني احتضن في المدينة الجديدة «فاس» عناصر عربية، جاءت من إفريقية والأندلس في نحو خمس مائة فارس من العرب القيسية والازد ومدلج وبني يحصب والصدف وغيرهم من القبائل العربية اليمنية الجنوبية «وجعلهم بطانته دون البربر»[3]. وهكذا تكونت القاعدة البشرية الأولى لمدينة فاس من العرب والبربر الذين كانوا هم الزعامة المسيرة قبليا لحلف «التجمع الأوربي» في هذه المرحلة التأسيسية للمدينة والدولة الإدريسية. التي تكونت في بيئة بربرية، ولم يكن إدريس ابن إدريس مؤسسها قادرا على الإدعاء بقيادة حزب

(2) القرطاس ص 31(39 ط. محمد الهاشمي الفيلالي). ابن خلدون: العبر 216/4 ونص كلامه في هذه الطبعة بيروت 1958 «وكانت فاس موضعا لبني بوغش (كذا) وبني الخير من زواغة». إن مسألة تأسيس مدينة فاس مازالت موضوع نقاش وبحث بين الباحثين المختصين، فالنصوص المكتوبة ترجع تاريخ بناء المدينة إلى سنة 193هـ/809م في أقصى زمن لتأسيسها، أما علم المسكوكات فيرجع تاريخ التأسيس إلى سنة 172هـ/789م ويذهب أصحاب هذا الإتجاه إلى أن مدينة فاس، بناها البربر وعمروها (بروفانسال، ولوطورنو). أنظر ماذهب إليه لوطورنو في دراسته عن «فاس قبل الحماية» (الترجمة العربية) ج 1 ص 60 وكذلك دراسة «أوسطاش= Eustache: corpus des Dirhams Idrissides, p.29-30» ولقد ناقش رأي «ليفي بروفانسال» في دراسة المشهورة المبنية على دراسة ضرب العملة الإدريسية بالعلية أو بالعالية. أنظر: أوسطاش ص 146-149 وهوامشها ص 150. ونسجل إنعدام المصادر الأثرية التي مازالت لم تدخل ميدان التأريخ لمدينة فاس الإدريسية. كما نسجل أيضا أن الباحثين المحدثين يؤيدون نتائج أبحاث المسكوكات التي تثبت وجود المدينة قبل 193هـ/9-808م. أنظر : محمد الطالبي: الدولة الأغلبية ص 5-406.

(3) إبن أبي زرع: القرطاس ص 29.

العلويين للهجوم على بغداد بالبربر ولا حتى التفكير في ذلك[4]. ولعل أهم ما يمكن استخلاصه من هذه التركيبة البشرية الأولى لمدينة فاس الإدريسية هو إنشاء مدينة جديدة في المغرب الأقصى على غرار مدينة القيروان. ومن هنا ستكون مهمتها الأساسية هي تعريب المغرب وترسيخ الإسلام وكأن إدريس الثاني يكرر عقبة بن نافع في بلاد المغرب الكبير.

وابتداء من سنة 210هـ/826م أخذت فاس تعرف حركة تمدينية حقيقية، فبدأت الهجرة إليها من الجهات البعيدة، من إفريقية وخاصة من مدينة القيروان بعد مأساة معركة «سبيبة»[5]، فقد انتقلت منها إلى فاس ثلاثمائة عائلة، فأقرها إدريس الثاني في مدينة «العالية» بالضفة الشرقية من واد فاس[6]، ومن شهيرات المهاجرين: فاطمة بنت محمد الفهري التي قدمت مالها

---

(4) محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 411.

(5) نفسه ص 206 وما بعدها.

(6) إن مسألة توطين المهاجرين من مدينة القيروان إلى فاس، مسألة لها أهميتهما التاريخية بالمقارنة مع توطين المهاجرين من الأندلس، فأولئك مدنوا العدوة التي عرفت بهم (عدوة القرويين)، وهؤلاء مدنوا العدوة التي نسبت إليهم (عدوة الأندلس). ولعل مسألة حذف إسم «العالية» الذي يعني عدوة القرويين راجع إلى عملية إنتشار أهل القيروان في عدوتهم، ومن المعقول أن يبقى إسم العالية موجودا في دار السكة (ضرب الدرهم الإدريسي) فقط. ففرق بين المصطلح النقدي، والاسم الناتج من الحياة العامة، الذي لايصبح ذا دلالة مكانية (طوبونيمية= Toponyme) إلا بعد مرحلة زمانية من الشهرة والاستمرار.

Voir: Beck (H.L.) : L'Image d'Idris II, p.44-46.

فقد ناقش مسألة نشأة فاس وتقسيمها إلى عدوتين، مناقشة علمية دقيقة مؤيدة في نهاية المطاف لنظرية ليڤي بروڤانسال، ومفسرة لتقسيمها إلى عدوتين: القرويين وفاس. ثم قارن بما جاء في الموسوعة الإسلامية في مقالي لوطورنو وهنري طيراس. E.I. 2ème , T.II,PP.837-403.

لبناء«جامع» بالعاصمة الجديدة للأدارسة[7]. والذي توسع في سنة 245هـ/850 م فصار في عهد «يحيى ابن محمد بن إدريس الثاني» من أوسع مساجد عدوة القرويين[8]. وهي المنطقة التي سكنتها الجماعة المهاجرة من إفريقية. وبحكم

---

(7) إهتم الباحثون ب «جامع القرويين» باعتباره المسجد الأعظم في مدينة فاس، وباعتباره المؤسسة العلمية بها وفي النظام العقلي بالمغرب. ومن أهم الأبحاث في هذا الصدد، دراسة الدكتور عبد الهادي التازي «جامع القرويين، المسجد والجامعة بمدينة فاس» طبعة دار الكتاب اللبناني - بيروت. الطبعة الأولى 1972. ثم البحث الهام الذي كتبه «دوڤيردان» في الموسوعة الإسلامية E.I.2ème T.IV,p.657

(8) إهتم الجغرافيون العرب بمدينة فاس، وأقدم وصف لها يرجع إلى الجغرافي اليعقوبي في منتصف القرن الثالث الهجري/9م. الذي قال في كتابه «البلدان» ص 357-358 « ... المدينة العظمى التي يقال لها مدينة إفريقية على النهر العظيم الذي يقال له فاس بها يحيى بن يحيى بن إدريس، وهي مدينة جليلة كثيرة العمارة والمنازل» . (أنظر أيضا الترجمة الفرنسية لبلدان اليعقوبي ص 223). ولوطورنو: فاس قبل الحماية في الأصل الفرنسي:

R.Le Tourneau: Fès avant le protectorat, p.47...et Voir: G/Marçais: La Berbèrie Musulmane,p.47-9.H.Terrasse: Fas,E.I; 2ème, T.II,p.840-3. Maslow: Les Mosquées de Fès et du Nord du Maroc, Paris 1937.

وبالإعتماد على هذه الأبحاث يمكن أن ننتهي إلى أن بناء جامع القرويين تم في عهد الأمير الإدريسي «يحيى بن محمد بن إدريس الثاني» (234هـ/849م - 249 هـ/863م). أنظر : عبد الهادي التازي: جامع القرويين 47/1 وهامش 20. وقد تطوعت سيدتان شقيقتان قيروانيتان بتمويل بناء جامع القرويين، وكذلك جامع الأندلس بعدوة الأندلسيين من مدينة فاس. والسيدتان هنا فاطمة ومريم بنتا محمد بن عبد الله الفهري القيرواني. أنظر التفاصيل في سلوة الأنفاس للكتاني ج1 ص 91. وجني زهرة الآس للجزنائي ص 45 وما بعدها. القرطاس ص 45 وما بعدها. محمد الطالبي : الأغالبة ص 412. الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج 2 ص 444-455، 463 وما بعدها.

ذلك صار «المسجد الجامع» الذي تصلى فيه «صلاة الجمعة»[9] الجامعة، وتبعا لذلك فقد عرف منذ عهد «يحيى بن محمد ابن إدريس الثاني» ب «جامع القرويين» نسبة للجماعة المهاجرة من «قيروان إفريقية».

وإلى جانب عدوة القرويين ومسجدها الأعظم ، كانت مدينة فاس في عهد تعميرها الأول، تتألف من العدوة الثانية وهي «عودة الأندلس»[10] التي تكونت قاعدتها البشرية من مهاجرين أخرين أتوا من الأندلس، فسكنوا هذه

---

(9) أنشئ مسجد «القرويين» ليكون أول مسجد جامع في عدوة القيروانيين بفاس في أواسط القرن الثالث الهجري/9م. وكان من الطبيعي أن يزداد اتساع «مسجد القرويين» بازدياد اتساع المدينة، وانتشار أرباضها، وترافق مع توسع المدينة ظهور مساجد محلية جديدة تلبي حاجة المصلين. وقد أثبت الفقيه الونشريسي في المعيار أ ن «الخطبة «بدأت في القرويين إبتداء من سنة 245هـ وهو ما أكدته جميع مصادرنا المستخدمة في هذه الدراسة. (أنظر التازي: جامع القرويين 46/1 -47. والدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي 2/464-467).

(10) بناء على المصادر المكتوبة يظهر أن عدوة الأندلس هي أول مناطق المدينة تعميرا، بناء على أن أول المهاجرين إلى فاس كانوا من الأندلس في سنة 202هـ/ 818م. فابن الخطيب: (أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص 16) يشير إلى عدد الربضيين الذين لجأوا إلى المغرب الأقصى، عشرين ألف مهاجر، انتقلوا إلى بلاد البربر، ونزلت الأغلبية منهم بمدينة فاس، وقدرت المصادر المغربية عدد الأندلسيين الذين استقروا بالعدوة الشرقية من المدينة، بأربعة ألاف (4000 مهاجر) أو 8000 مهاجر في رواية أخرى، ولكثرة عددهم في هذه العدوة سيطروا عليها، فسميت بإسمهم وعرفت بمدينة الأندلسيين (أنظر ابن عذاري: البيان 2/ 76-77.النويري: نهاية الأرب ج 23 ص 370-373. المقري: نفح الطيب ج 1 ص 318. ابن الأثير ج 6 ص 277 ص 298-300. القرطاس ص 47. الاستقصا ج 1 ص 152 وص 163)

Lévi - Provençal: Hist; Esp. Musul., T.I,p.169.

الدكتور: السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ج 2 ص 487-501.

العودة إلى جانب البربر[11]. وأهم القبائل البربرية التي سكنت هذه العدوة زناتة وصنهاجة ولواتة، والغالب أن المجموعات البربرية كانت مركزة بعدوة الأندلس في عهد إدريس الثاني.

والصورة العامة لمدينة فاس في القرن الثالث الهجري /9م، كانت مدينة ذات طابع بربري أولا وعربي ثانيا، ولما اكتمل بناء سورها الذي أتمه إدريس الثاني في سنة 193هـ/808م، ورتب أبواب المدينة، بدأ تعميرها الذي تكون من ثلاثة عناصر: 1- البربر 2- العرب 3- اليهود (أو أهل الذمة)

ويحتمل أن يكون من بين سكان المدينة قوم نصارى[12]، والظاهر من تطور الأحداث الأولى لمدينة فاس بعدوتيها، أن الفترة الممتدة من 202هـ/817م إلى سنة 210هـ/825م هي المرحلة التي أعطت البنية الديموغرافية الأولى للمدنية الناشئة «فاس». فالقبيلتان البربريتان المذكورتان في المصادر: ترمز مبدئيا إلى وحدة تسوير المدينة منذ بداية بنائها، وكل منهما من «التجمع الزناتي» في القرن الثاني الهجري/8م. ويغلب على الظن أنهما من «الحلف الأوربي» في منطقة حوض نهر سبو، وهما: زواغة، ومن بطونها بطن «بني الخير» (بناء على المصادر المتأخرة التي تكلمت على بناء فاس، ونشك في هذه التسمية)، وهؤلاء كانوا منتشرين بعدوة القرويين بخيامهم. ثم بطن «بني يزغثن» أو «يرغثن» وكانوا بعدوة الأندلس.

---

(11) تذكر المصادر أسماء قبلية بربرية من دون تفصيل ولادقة تجعلنا نقتنع بالوضع الداخلي للمدينة في مرحلة نشأتها لكي نعطي تصورا قريبا من الواقع لبنائها الإجتماعي.
أنظر: القرطاس ص 26. الاستقصا 149/1. ابن خلدون: العبر 19/4. التنسي: دولة الأدارسة ص 144.

(12) Voir: Terrasse (H): Fas, Article dans E.I., 2ème ,T.II,p.840-3.
Histoire du maroc, T.I., p. 117, Note

وبقراءة الخلاف الذي كان قائما بين العدوتين «القرويين» و«الأندلس» حول مسألة «المسجد الجامع» في المدينة الكبرى فاس[13]. ومن الأسبق منهما والأحق منهما بالخطبة الجامعة؟ يتبين لنا أن مدينة فاس أنشئت في عهد إدريس الثاني مدينة موحدة، وأن الخلاف طارئ وجاء متأخرا، أي أنتجته فترة مابعد إدريس الثاني، أي مرحلة الإنقسام الحضاري للمدينة إبتداء من سنة 213 هـ/830م. ومن هذا التاريخ ظهرت فاس على شكل «مدينتين مستقلتين» وكأن هذا الإنشطار المديني ناتج عن الانشطار السياسي الذي عرفه المغرب الأقصى، واستمر كذلك معبرا على ظواهر الإنقسام التجزئة التي عرفتها البلاد، إلى قيام المرابطين في أواسط القرن الخامس الهجري/11م. وقد انتبه الباحث «ليفي بروفانسال» إلى هذه المسألة وغيرها، فقال بمنتهى الموضوعية[14]، إنه يجب التفريق بين المعلومات الخاصة بكل عدوة على حدة، وهما في دور النشأة.

ونتفق مع الدكتور سعد زغلول عبد الحميد[15]: في رأيه «أنه لاينبغي المبالغة في عظم مدينة فاس الفتية على أيام إدريس بن إدريس»، ولم تتجاوز «حدود مدينة ملكية ناشئة، لم يزد عمرها على عشرين سنة». وأنها كانت تحمل طابعا بربريا مماثلا في عدوتيها، حيث كانت قوات التسيير في داخلها تعتمد على نظام «الأشياخ»، ولعل إعطاء هذه الصفة لأول مسجد بالمدينة «جامع

---

(13) الونشريسي: المعيار ج 3 ص 109. عبد الهادي التازي: جامع القرويين ج 1 ص 49. القرطاس ص 47-55.

(14) ليفي بروفنسال: تأسيس مدينة فاس. نشر معربا في سلسلة الألف كتاب، ضمن مجموع مقالات أخرى سنة 1956. Lévi-Provençal: La fondation de Fès, in Annales de l'Institut d'Etudes orientales IV, Alger 1938, pp.23-53.
ونحيل على ملاحظاته في ص 13-17 من الترجمة العربية أو ص 20-21 من الأصل الفرنسي. ونحيل أيضا على مناقشة المسألة كلها في دراسة الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج 2 ص 450-1 وهامش 120.

(15) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج 2 ص 453.

الأشياخ» يعتبر أقوى دليل على ذلك [16].

بناء على ماسبق نطرح السؤال الآتي: ماهي البنية الديموغرافية لفاس إدريس الثاني؟.

لانستطيع الجواب بطبيعة الحال، ولكن بفحص المصادر، وترتيبها ترتيبا علميا يمكن الخروج بتصور تقديري أولي عن المدينة الجديدة في المغرب الأقصى. وفي هذا السياق فإن النصوص تتحدث عن تعمير المدينة الجديدة بتوطين قبائل بربرية (وهؤلاء أهل بادية)، وهم الذين كانوا يكونون جند «الإمام إدريس الثاني». وكانوا من الناحية العملية تحت إمرة ونظر القبيلة المركزية وهي قبيلة «أوربة» وتحدثت مصادرنا أيضا عن توطين بيوت أو عائلات عربية (وهؤلاء حضر) انتقلوا إلى فاس إما من المدينة الأصل للأدارسة «وليلي»، أو من القيروان (بعد سنة 210هـ/826م) أو انتقلوا من الأندلس إلى فاس بعد حدث الربض (198-202هـ/818م).

ونسجل أولا أن المنطقة التي حددت لبناء مدينة فاس لم تكن غير معمورة بالسكان، وجميع الأوصاف التي وصفتهم بها المصادر قبل بناء المدينة تجعلهم فلاحين ورعاة. فمدينة فاس أنشئت في منطقة «أنصاف الرحل»، ثم تحدد هذه المصادر ولاءهم الحلفي فتجعلهم من «زناتة»، وهذا بالطبع ينقلنا إلى التصورات التي تعرضنا لها في الباب الأول لتكوين التجمع الزناتي، وما تعرض له من تحولات منذ ماقبل الفتح الإسلامي إلى سيطرة «التجمع الأوربي» في حوض نهر سبو. فهل كان للنظام القبلي بعد ودور في اختيار

(16) جامع الأشياخ أنشئ في عدوة الأندلس، وهو أول منشأة دينية بالمدينة الجديدة. ثم جاء بعده جامع الإشراف بعدوة القرويين. أنظر التازي: جامع القرويين ص 46 وهامش 18، الذي ناقش كلام الجغرافي البكري، والجزنائي في جني زهرة الآس. ثم أنظر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج 2 ص 447 هامش 106.

موقع المدينة الجديدة فاس؟ وبالتالي في تخطيطها وتنظيمها؟.

ونسجل ثانيا أن عملية اختيار مكان المدينة ساهمت فيها الخبرة العربية التي بدأت تسير القيادة الإدريسية، باعتبار تلك الخبرة أرستقراطية جديدة لها قوتها ونفوذها على مستوى النظام العام للدولة الناشئة، وهذا يذكرنا بالصور التي تأسست بها المدن التي أنشأها العهد الإسلامي في بلاد المغرب الكبير مثل القيروان، وتاهرت، وسجلماسة. ولم تكن الخبرة العربية هي الوحيدة في اختيار المكان، بل ساهمت الخبرة المحلية مساهمة فعالة، وما تكرار البناء ومحاولة البناء إلا دليل على ازدواج الخبرة المحلية بالخبر الاستشارية التي اتخذها «إدريس الأول» قبيل بناء عاصمة جديدة لدولته.

ونسجل ثالثا أن عملية بناء مدينة «فاس» تعتبر عملية تمدينية إسلامية بصورة كلية، خاضعة لنظام تأسيس المدن في العالم الإسلامي آنذاك. ورعايتها وضبطها وتخطيطها، وهذا وضحه لنا الإنتاج الفقهي المؤسس تشريعيا لتنظيم المدينة الإسلامية عمرانيا ومعماريا، ولعل أهم عمل فقهي يضبط قوانين المدينة الإسلامية في المغرب الكبير (خاصة المغرب الأقصى) هو ماجمعه أحد خبراء البناء في مدينة فاس[17] في القرن الثامن الهجري /14م.

ولما اكتمل تسوير إدريس الثاني لمدينة فاس بعدوتيها، بدأ تعميرها بالسكان، فخططت خططها (بضم الخاء) وفقا لحجمها آنذاك، وظهرت المدينة في النصف الأول من القرن الثالث الهجري /9م بسكانها على الصورة الآتية:

---

(17) المقصود به: محمد بن ابراهيم اللخمي البناء المشهور بابن الرامي التونسي. ومؤلفه هو «الإعلان بأحكام البنيان» طبع طبعتين، الأولى على الحجر في فاس سنة 1332هـ. والثانية طبعة عصرية بتحقيق وعناية العلامة عبد الله الداودي، ونشره في مجلة «الفقه المالكي» التي تصدرها وزارة العدل المغربية. وقد أنجزت عليه دراسة علمية قام بها الدكتور عبد الستار عثمان، نشرها سنة 1988 بدار المعرفة الجامعية - الاسكندرية - مصر.

أولا : قبائل بربر (زناتة) :

1- زواغة من[18] حلف أوربة

بنو "عير (كذا) : كانوا بالعدوة الغربية للوادي الذي أقيمت عليه المدينة (عدوة القرويين) بعد بناء المدينة

بنو يزغتن : كانوا بالعدوة الشرقية للوادي الذي أنشئت عليه المدينة(عدوة الأندلسيين) فيما بعد .

---

(18) تعتبر قبيلة «زواغة» في الأبحاث الأثنية قبيلة بربرية تابعة للتجمع اللواتي الزناتي القديم، فكانت مواطنها الأولى بمنطقة طرابلس، انتقلت من الجهات الشرقية إلى حوض نهر سبو مع الفتح الإسلامي للمغرب. وأشار ابن خلدون صراحة إلى مشاركة بعض بطونهم مع الخوارج في منطقة قسطيلية سنة 244هـ/ 849م، فقال (العبر 428/4) : «وخرج عليه (أبو عقال الأغلبي) بقسطيلة خوارج زواغة ولواتة ومكناسة وقاتلوا عاملها بها». (ابن عذاري: البيان 107/1). ولايستبعد أن تكون البطون التي مازالت تسمى بزواغة قد انقطعت العلاقات بينها مع أصولها في الجهات الشرقية Desanges : Catalogue ,P.40 . ومن هنا يمكن مقاربة «زواغة» بالأصول القديمة، فهم من شعوب البربر المعروفة في المصادر الكلاسيكية «بالزيكرنسيس= Zegrensii» الذين انتشروا في الجهات الغربية ابتداء من الضغط البزنطي في أوائل القرن السادس الميلادي (533م). وفي القرن الثالث الهجري أشار المؤرخ ابن الصغير إلى زواغة المغرب الأوسط (أخبار الأئمة الرستميين ص 115). أبو زكرياء يحيى في كتاب السير: ص 288 فقرة ج 11/12. وبطونهم التي انضمت إلى «حلف أوربة» في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة /8م هي التي ناصرت قيام الأدارسة وتعمير مدينة فاس، وقد تركت بصماتها في المدينة ونواحيها الجنوبية حيث استمر إسم زواغة إسما مكانيا (طوبونيميا) في هذه الجهات.

2- أوربة[19] (أوبقية حلف أوربة):

- لواتة
- مصمودة
- صنهاجة
- أشنيخن
- مغيلة
- جراوة[20]
- هوارة

---

(19) سبق لنا في الفصل الثالث من الباب الأول أن عالجنا تطور زناتة وأحلافها القبلية ومن بينها «تجمع أوربة» إبتداء من زعيمها الرئيسي «كسيلة» إلى بداية الأدارسة في منطقة «وليلي» في أيام زعامة عبد الحميد. وفي مرحلة بناء مدينة فاس كان الحلف القبلي الأوربي، مازال قويا. وفي هذه الأثناء كان تجمعه يضم مجموعات قبلية تنتظم في سلطة الزعامة الأوربية، فكانت بطون من: زواغة، وكذلك مغيلة، ومصامدة الشمال، وصنهاجة، وهوارة وجراوة ولواتة هي أهم قبائل التجمع الأوربي المكون للبنية البشرية لمدينة فاس المدينة الجديدة في أوائل القرن الثالث الهجري /9م. وقبيلة أوربة الرئيسية التي تحمل هذا الإسم قد ذابت في التجمعات القبلية التي نشأت في القرن الرابع الهجري /10م وقد بقي إسمها في منطقة تازة بإسم «أوربة» على صيغة التصغير في الكلام الشعبي المغربي.

أنظر ابن خلدون: العبر 216/4. في حديثه على رئاسة كسيلة لأوربة التي كانت فيها رئاسة البربر.

(20) جراوة: أنظر الفصل الثاني من الباب الأول في القسم الذي خصصناه للكاهنة. وهنا في المرحلة الإدريسية نجد قبية جراوة الزناتية مرتبطة بالحلف الأوربي، سواء في منطقة بني يزناسن وبنائها لمدينة «جراوة»، ونجدها من بين القبائل البربرية المؤسسة والمعمرة لمدينة فاس. وكانت جراوة موطنة في عدوة .../...

ويظهر أن القبائل البربرية التي ذكرت في بيعة الإمام إدريس الأول وكذلك الإمام إدريس الثاني، كانت ضمن العناصر التي سكنت مدينة فاس بعد تسويرها مباشرة، وساهمت في تعميرها، وهذا ليس ببعيد لأنهم كانوا تابعين للتجمع الأوربي أولا، وكانوا من جنده ثانيا. خصوصا وأن المصادر تتحدث بإسهاب على تخصيص أرباض لجند الإمام إدريس الثاني في الدوتين معا: عدوة القرويين وعدوة الأندلس حيث ذكرتهم بالتعميم ولم تتكلم عليهم بالتخصيص، ولعل هذا ما يعنيه كلام ابن أبي زرع بقوله[21]: «وكان أول من بايعه قبائل أوربة «وكانت أوربة في ذلك الوقت أعظم قبائل المغرب وأكثرها عددا وأشدها قوة وبأسا وأحدها شوكة» ثم يضيف أسماء قبيلة مبايعة هي: زواغة، وزواوة، ولماية، وسدراتة، وغياثة، ونفزة، ومكناسة، وغمارة.

ومن أخلص المبايعين كون جيشه وجنده، الذي كونه تكوينا قبليا. فجعله من وجوه قبائل زناتة وأوربة، وصنهاجة وهوارة. وهذه القاعدة القبلية هي التي بايعت إدريس الثاني[22]، وأضاف إليها قاعدة قبلية عربية إلى جانب البربر، ووطنهم في عاصمته الجديدة فاس.

.../... الأندلس، فهل هناك علاقة بين إسم قبيلة «جراوة» وإسم الحي الذي يسمى ب «جرواوة»؟ نطرح السؤال رغم محاولة الدراسات تفسير إسم الحي المذكور بالمعنى اللغوي للكلمة البربرية «أكراو» التي تعني «المكان المسيح» أو «أكارو» «أكيروا» وتجمع ثكاروان = الحظيرة لحفظ الحبوب. أنظر محمد شفيق: المعجم العربي الأمازيغي. مادة «حوط» ص 299. ثم قارن بما جاء عند ليفي بروفانسال: الإسلام في المغرب والأندلس: ص 35. وسعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج 2 ص 447 هامش 106.

(21) القرطاس ص 20، الاستقصا ج 1 /151.

(22) نفسه ص 28 أوسطاش: الجامع في الدرهم الإدريسي ص 28-30، والهوامش المرجعية (ص 29) من الأصل بالفرنسية.

ثانيا: الجماعات العربية المهاجرة إلى فاس الإدريسية

من المؤكد أن العنصر العربي في المغرب الأقصى كان قليلا، ويكاد ينحصر وجوده في المراكز الرئيسية، وخاصة تلك التي كانت محصنة وممدنة مثل : سبتة ونكور وطنجة ووليلي وسجلماسة وتاهرت. ومن الطبيعي أن تولد «الامارة الإدريسية» ولادة مغربية بربرية، وأن تكون القيادة تابعة للتسيير الإجتماعي المحلي. ولذلك كان «الامام إدريس الأول» وكذلك ابنه إدريس الثاني يعملان على تأطير قوي لامارته، ولايحقق ذلك إلا بالعرب.

وساعدته الظروف التاريخية التي عرفتها كل من الأندلس، وإفريقية في آخر القرن الثاني الهجري /8م وبداية القرن الثالث الهجري /9م وكون من نبهاء الجماعة المهاجرة إلى فاس ما يمكن أن نسميه «حكومته» في «عاصمته الجديدة فاس».

وكانت هذه الجماعات العربية المهاجرة إلى فاس على الشكل الآتي:

أ- المهاجرون من إفريقية وخاصة من القيروان الذين بلغ عددهم ثلاثمائة عائلة (300عائلة). موزعون كالآتي:

1) العرب القيسيون، (برحبة القيس) بعدوة القرويين .

2) العرب الازد بجوار القيسين، بعدوة القرويين.

3) العرب اليحصبيون(23) بجوار القيسيين بعدوة القرويين.

ب- المهاجرون من الأندلس، إلى فاس، من ربض قرطبة، وبلغ عددهم في رواية

---

(23) يعتبر بيت اليحصوبيين من أقدم بيوتات فاس ذات الأصل العربي. فهم من المهاجرين من القيروان إلى فاس في عهد إدريس الثاني. ولكن إبن القاضي عياض وهو أبو عبد الله محمد، في تعريفه بوالده يقول «استقر أجدادنا في القديم بالأندلس جهة بسطة، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس، وكان لهم استقرار بالقيروان، لاأدري أقبل استقرارهم بالأندلس أم بعد ذلك؟ » ثم يؤكد انتقال والد جد أبيه (القاضي عياض) من فاس إلى سبتة: «وكان عمرون والد جد أبي... انتقل من مدينة فاس إلى مدينة سبتة بعد دخول بني عبيد المغرب» أنظر .../...

4000 رفي أخرى 8000 مهاجر وكانوا إما من العرب، أو من بربر الأندلس، أو من المولدين.

ثالثا: أهل الذمة (اليهود خاصة)[24].

وصفها البكري[25] نقلا عن الوراق عن النوفلي بأنها «أكثر بلاد المغرب يهودا يختلفون منها إلى جميع الآفاق»، ولعل ذلك راجع إلى عصر بداية المدينة

.../... «التعريف بالقاضي عياض» لأبي عبد الله محمد (بتحقيق الدكتور محمد بن شريفة، طبعة وزارة الأوقاف، الرباط، مطبعة فضالة (د.ت) ص 2-3 من ترقيم نص التعريف بالقاضي عياض وهامش 6). ونلاحظ أن بيت اليحصوبيين لم يرد ذكرهم في بيوتات فاس (طبعة دار المنصور- الرباط 1972)، مما يؤكد أن اليحصوبين الذين وصلوا إلى فاس في سنة 210هـ/826م انتقلوا إلى سبتة والأندلس في القرن الرابع الهجري، وهذا ما يؤكده صاحب التعريف بالقاضي عياض (ص3) «فأخذ ابن أبي عامر رهنا من أعيان مدينة فاس، فأخذ فيهم أخوي عمرون: عيسى والقاسم، فخرج عمرون إلى مدينة سبتة ليقرب من أخبارهما بمدينة قرطبة».

(24) إن المصطلح الإسلامي «أهل الذمة» غلب على استعماله في المغرب الأقصى بمعنى «اليهود» ويرجع ذلك في الغالب إلى نهاية الديانة النصرانية في المغرب، وقد اهتم التراث الفقهي المغربي بنظام العلاقة بين أهل الذمة (خاصة اليهود) والمغاربة المسلمين، وضبطت أحكام تلك العلاقات في إطار مجتمع تعايشي إسلامي. ضمن لأهل الذمة في العالم الإسلامي ومن ضمنه بلاد المغرب وضعا قانونيا وواقعا تعايشيا مدنيا على أساس الآية القرءانية الكريمة « لاإكراة في الدين». ونحيل بالخصوص على الدراسة الهامة التي تدرس الوضع القانوني لأهل الذمة في دار الإسلام عموما. أنظر الدكتور عبد الكريم زيدان: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام. ط. مكتبة القدس - بغداد، 1982. وفي موضوع اليهود في المغرب نحيل على المقال الذي خصصته الموسوعة الإسلامية في طبعتها الجديدة E.I.2ème,T.IV,P.32 بقلم حيم زفراني أو زعفراني= H. Zafrani

- E.I. 2ème , Article : Judeo- Berbère".

- Bat Ye'or: le Dhimmi, Edit, Antropos, Paris 1980, pp.141-160.

ونحيل أيضا على دراسة الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة: يهود المغرب العربي، نشر معهد البحوث والدراسات العربية، طبعة القاهرة 1973، ص 5-40، وأشارت هذه الدراسة إلى تزوير الوثائق من أجل التخفيف الضريبي. ويوجد أصل إحدى هذه الوثائق التي أدلوا بها في عهد السلطان مولاي إسماعيل العلوي (1082هـ/1671م - 1139هـ/1727م) في نوازل العلمي ج 3 ص 263 وما بعدها.

(25) البكري: المسالك ص 795 فقرة 1331.

التي بدأ تعميرها بعناصر متنوعة الأصول والديانات، ومن بين ذلك العنصر اليهودي. ابن أبي زرع في القرطاس (ص46) «وقصدها الناس من جميع الجهات، وأتاها من رغب في جوار السلالة الكريمة الطاهرة أهل بيت المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومن ركن إلى الأمن والعافية، فاجتمع بها خلق كثير من اليهود وغيرهم ممن رغب في العافية، فنزلهم بناحية إغلان إلى باب حصن سعدون، وفرض عليهم الجزية، فكان مبلغ جزيتهم في كل سنة ثلاثين ألف دينار».

هذا النص من الأهمية بمكان إذا وضعناه بمقابلة نص كلام ابن خلدون[26] عن اليهود الذي تحدث فيه عن الكاهنة وقبيلتها «جراوة» (أنظر مناقشة مسألة جراوة في الفصل الثاني من الباب الأول من هذه الدراسة). ونظرا لأهميته في سياق كلامنا ننقله على طوله بعد تصويبه وضبطه:

«... وكذلك ربما كان بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية أخذوه عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم، لقرب الشام وسلطانه منهم، كما كان «جراوة» أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة مقتولة العرب لأول الفتح، وكما كانت نفوسة من برابرة إفريقية، وفندلاوة، ومديونة، وبهلولة، وغياثة، وبنو فازاز من برابرة المغرب الأقصى، حتى محا إدريس الأكبر الناجم بالمغرب من بني حسن بن الحسن جميع ماكان في نواحيه من بقايا الأديان والملل».

يتبين من النصين أن الجماعة اليهودية التي عمرت فاس كانت من «اليهود البربر» الذين بقوا على دينهم وأدوا الجزية في مقابل بقائهم على يهوديتهم، ويغلب على الظن أنهم كانوا من «زناتة» وفي الغالب من قبيلة «جراوة»، ومن هنا يمكن أن يحرف اسم جراوة إلي «جرواوة» وأيضا يظهر أنهم

---

(26) إبن أبي زرع: القرطاس ص 46. ابن خلدون : العبر 214/6.

كانوا داخلين في التجمع الأوربي الزناتي. منذ عهد كسيلة زعيم أوربة في القرن الأول للهجرة/7م. وقد سكتت المصادر عن التفاصيل، وسكتت عن بيوتاتهم في المدينة، ولكنها ذكرت قيمة الجزية التي كانوا يؤدونها لادريس الثاني بالمدينة، ومن هنا يتبين أيضا أنهم كانوا قوة بشرية لاتقل أهمية عن العناصر المدنية الأخرى التي سكنت المدينة الجديدة (فاس) في منطقة «حصن سعدون» وهو ما يوافق في عصرنا مابين فندق اليهودي وباب الجيسة». وهذا يعني أن توطين اليهود في فاس تعرض لنقل من عدوة الأندلس إلى عدوة القرويين، أو على الأقل نقلت العناصر اليهودية التي في الغالب كانت مقيمة بوليلي إلى العاصمة الجديدة بعد اكتمال بنائها.

وهذا يؤكد حقيقة لها أهميتها في عصر دراستنا، وهي انتشار «الديانة اليهودية» و«النصرانية» في الأرياف والبوادي المغربية، وقد حدد ابن خلدون في النص السابق أهم القبائل البربرية التي اعتنقت اليهودية، وبقيت على يهوديتها إلى حدود عصر إدريس الثاني[27]. ونضيف أن كتب الجغرافية[28] القديمة أشارت إلى المدن المغربية التي نزلها «اليهود المغاربة» وصاروا يكونون

---

(27) يشير أبو الحسن علي بن سعيد المغربي صاحب كتاب : «الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة»، تحقيق إبراهيم الابياري، طبعة دار المعارف، القاهرة 1954 ص 98. إلى قبيلة «كوراية» (ولعلها تحريف لاسم جراوة) كانت يهودية الديانة. وكوراية توطن حول مركز «داي» بتادلا على الخط التجاري الرئيسي بين فاس وأغمات وسجلماسة. كما أنه كانت لها علاقة بإمارة برغواطة في عصر دراستنا، (أنظر ما كتبناه عن القاعدة القبلية لامارة برغواطة في الفصل الثاني من الباب الثاني). ثم قارن بما جاء عند البكري حول جراورة التي حرفت أحيانا إلى كوراية.

(28) البكري: المغرب، الاستبصار ص 187، 202، الروض المعطار ص 435. الإدريسي: نزهة المشتاق.

شريحة اجتماعية مدنية ومتميزة بدياناتها. ومشاركتها في الحياة الإقتصادية، فقد انتشروا في فاس مكناسة الزيتون، وقلعة مهدي بني توالي (جبل فزاز أو الأطلس المتوسط). وداي، وسجلماسة وتلمسان، وأغمات. ونشير أيضا إلى أن حضور «أهل الذمة» في الأندلس كان كبيرا، ومن الغالب أن تنتقل إلى مدينة فاس طائفة يهودية مع أهل الربض رغم أن المصادر المستخدمة في هذه الدراسة لاتدقق في الموضوع.

أما بالنسبة لموضوع وجود النصارى في فاس والمغرب الأقصى خلال العهد الإدريسي، فالموضوع مازال في بداية دراسته رغم المحاولات التي حاولها الباحثون الغربيون والتي تثبت وجودهم في فاس وفي منطقتها خلال العهد الإدريسي، ومن أهم الباحثين نجد «هنري طيراس ، ودي فورك» حيث بنى كل واحد رأيه على النصوص العامة وبعض الشواهد الاركيولوجية، ورأينا أن الموضوع مازال في بدايته، ولذلك يبقى موضوع الديانة النصرانية ... في المدن المغربية وخاصة في مدينة فاس خلال عصر دراستنا، موضوعا قابلا للدراسة. ونسجل أن «البربر» الذين بقوا على نصرانيتهم منذ الفتح الإسلامي، كانوا قليلين جدا، ويظهر من خلال قراءة تاريخ المرحلة الممتدة من العصر الروماني في بلاد المغرب الكبير، إلى القرن الثاني للهجرة /8م. أن الديانة النصرانية في الجهات الغربية من بلاد البربر، كانت على المذهب المسيحي «الدوناتي» (سبق أن عالجنا هذه المسألة في الفصل الأول من الباب الأول من هذه الدراسة). ويعني ذلك أن نصرانية بربر الجهات الغربية كانت موجهة لمعارضة الحكم الروماني، فاعتنقوها تعبيرا عن تذمرهم وسخطهم، وبضعف النفوذ الروماني في هذه الجهات إبتداءا من منتصف القرن الثالث الميلادي (معركة 284م) يظهر تخلي بربر الجهات الغربية تدريجيا عن المسيحية الدوناتية، ولكنها تركت في بربر هذه الجهات الغربية وكذلك في مناطق السهوب الرعوية روح المعارضة

المذهبية لأية سلطة جديدة في بلاد البربر[29]. فلم يقم الدين عائقا ومانعا للأحلاف السياسية والإجتماعية عائليا وقبليا، فضلا عن الميدان الإقتصادي تجاريا وفلاحيا.

والمهم أن يهود فاس تطور عددهم البشري فيها، رغم ما تعرضوا له أحيانا من ضغوط في فترات الأزمات التي عرفتها المدينة في عصورها الأولى، وأهم صور تلك الضغوط في عصر دراستنا ماقام به الأمير اليفرني «تميم» الذي قتل منهم سنة 424هـ/1033م ستة آلاف بناء على ماذكره ابن أبي زرع الفاسي[30].

رابعا: سكان فاس الإدريسية من عناصر أخرى.

في المدة التي استغرقت أربع سنوات لبناء وتسوير مدينة فاس من سنة 193هـ/808م إلى 197هـ/813م). تمكن الإمام إدريس الثاني من جعلها عاصمة لامارته الإدريسية، ومدينة متكاملة عمرانيا ومعماريا، ومن هذا التاريخ أخذ التنظيم التمديني لفاس يأخذ أبعادا جديدة، بسكنى الناس فيها الذين فتحت أبوابها لهم، فلم تنشأ أول مرة للجند أو قبائل الدولة الجديدة، وإنما قصدها

---

(29) هذه المسألة ناقشتها الأبحاث المتخصصة في التاريخ المغربي القديم والوسيط، ومازالت مناط جدل كبير بين الباحثين، وأهم الآراء التي أثارت ردودا متعددة رأي الباحث «جوتيي= Gautier» الذي يرى أن الثورة الخارجية في بلاد المغرب ماهي إلا تعبير جديد عن الدوناتية المسيحية البربرية. (أنظر: Gautier: Le Passé de l'Afrique du Nord, p. 266) ومن أهم الباحثين المختصين الذين حاوروا «جوتيي» نجد الدكتور محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب. ص 56 هامش 217) ثم سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج 1ص 117-26. وسواهما من الباحثين العرب.

(30) القرطاس ص 69.

أقوام آخرون ليعيشوا فيها حياة سليمة مدنية، من تجار، وصناع، وحرفيين واستمر تزايد روادها وساكنيها مع تطور وتعاقب السنين اللاحقة رغم الأزمات التي عرفتها.

ومن العناصر التي يمكن اعتبارها من الأقليات الشعبية في فاس خلال عهدها الإدريسي الأول، تلك التي ذكرتها المصادر إما رمزيا أو تلميحا، حيث يشير ابن أبي زرع إلى:

أ- العبيد السود: فقد أشار إلى وجود عبد أسود كان يقطع الطريق في منطقة بناء مدينة فاس، قبل بنائها. «وكان يعرف بـ«علون»[31]. والمهم أن الإشارة إلى عبد أسود تربط الصلة القوافلية بين حوض نهو سبو ونتائج تجارة الصحراء. وقد لعبت شريحة العناصر السوداء في المدينة دورا كبيرا حيث إعتبرت في العصور الوسطى من أهم أسواق تجارة العبيد في المغرب الأقصى، وأنشئت فيها مراكز خاصة لهذه التجارة وهي التي عرفت ب «البركات» بالجمع أو البركة بالأفراد.

---

(31) نلاحظ أن إسم «علون» الذي ذكرت المصادر أنه إسم لعبد أسود كان يقطع الطريق في منطقة فاس قبل بنائها، يثير كثيرا من التساؤلات، سواء بالنسبة لصيغة تسميته التي تماثل الأسماء الأندلسية. أو بالنسبة للصيغة التي لاندري أصلها، فهي تسمية غير عربية وغير بربرية. فهل هي صيغة ذات أصول إفريقية زنجية؟ أم أن المسألة متأخرة على عهد تأسيس المدينة. فامتزجت الأسطورة مع الحقيقة التي نجهلها إلى حد الآن؟. أنظر القرطاس ص 39 وهامش 27 (من طبعة دار المنصور - الرباط 1973) أو ص 51 (طبعة الفيلالي) هامش 3 فأشارت هذه الطبعة إلى احتمال وهو أن يكون «عليون» تصحيفا لـ «عليو»، وهو ما تتفق معه نسختنا الخطية للقرطاس والمنسوبة لابن عبد الحليم. ثم أنظر الجزنائي: جني زهر الآس ص 25. فقد ورد الإسم أيضا : «علون». وكلام الجزنائي منقول من القرطاس أو ينقلان معا من أصل واحد.

ب- عناصر أخرى جاءت إلى فاس من جهات أخرى: فأشار ابن أبي زرع إلى جماعة «ملوية الذين نسبهم إلى فرس العراق. وأيده في هذه النسبة صاحب كتاب بيوتات فاس الكبرى الذي قال عنهم أنهم انقرضوا[32].

ولانستطيع أن نضبط باقي العناصر الأخرى التي سكنت فاس في عهدها الإدريسي الأول، وكل ما يمكن أن نشير إليه هو تعاليق المؤرخين حول ما وصلت إليه المدينة في عهد إدريس الثاني، فقال صاحب القرطاس:فقصدها الناس من جميع الجهات والآفاق»، ووضع الدكتور محمود إسماعيل مدينة فاس في السياق العام لسياسة مؤسسها فقال[33] معلقا على ابن أبي زرع: «وهكذا نجح إدريس الثاني بفضل دهائه السياسي أن يلعب لعبة الموازنة باقتدار مكرسا جهود كافة القوى الداخلية لتأكيد هيبة المخزن. وقد تجلى ذلك فيما وصلت إليه مدينة فاس من بهاء وازدهار في عهده حتى غدت قبلة للمشارقة والمغاربة والأندلسيين».

هذا التصور التقريبي للتركيب البشري لمدينة «فاس» في عهدها الأول وفي عصر مؤسسها، من شأنه أن يعطي تصورا تقريبيا للتحول الجديد الذي شهده القسم الشمالي من المغرب الأقصى انطلاقا من حوض نهر سبو. وكأننا نتعامل مع مرحلة انتقالية تاريخية على المستوى الإجتماعي: مرحلة «وليلي» التي أنتجها التاريخ الروماني في المغرب الأقصى (أو موريطانيا الطنجية)، ومرحلة «فاس التي أثمرها التاريخ الإسلامي في المنطقة المغربية.

---

(32) القرطاس ص 39 وهامش 26. بيوتات فاس ص 38.

(33) الدكتور محمود إسماعيل: الأدارسة في المغرب الأقصى ، ص 83.

لقد تطورت المدينة تطورا كبيرا بعد مرحلة التأسس والنشأة، على المستوى المعماري، وفي العصر المريني يشير ابن أبي زرع[34] إلى أن «دور مدينة فاس أكثرها على طبقتين بالأعلى والأسفل، ومنها ما يكون على ثلاث طبقات وأربع طبقات» ويظهر أن هذا التطور المعماري في المباني لم يبدأ إلا بعد العصر الزناتي الأول في مدينة فاس. وبذلك يتزامن دخول مدينة فاس عهدها الزاهر الحقيقي مع بداية النفوذ المرابطين في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري /11م. وأما الدور الزناتي الأول فقد اقتصر الوضع فيها على التسوير والتحصين وكأنها «قلعة موسعة» تزاوج بين الدور المدني والحربي على النمط الإسلامي. فقد تخطت مستوى «الرباط» إلى مستوى «الحاضرة العسكرية».

وهكذا يمكن أن نعتبر القوة البشرية التي تحكمت في نظام المدينة «فاس» من القرن الثالث الهجري/9م إلى أواسط القرن الخامس الهجري11م، قوة ملشيات ظهرت زعامتها إما من أرستقراطية فاس الزناتية، أو من ارستقراطية المهاجرين إليها من القيروان أو من الأندلس. ومن هذا التركيب البشري المتحكم في نظام المدينة تكونت ظاهرة «بيوتاتها الكبرى» بعد ذلك ابتداء من العصر المرابطي إلى ما بعد ذلك.

ونعود إلى مدينة فاس التي كانت هدفا لغزو الفاطميين العبيديين في القرن الرابع الهجري /10م.

فقد انتهينا إلى أن وضع الإجتماعي في فاس الإدريسية جعلها مدينة بربرية زناتية، وعربية وأندلسية، من إفريقية والأندلس. وبحكم موقف الفاطميين بإفريقية من معارضة زناتة في الجهات الغربية (القرن الرابع الهجري /10م)، وبحكم موقفهم أيضا من المؤثرات الأندلسية الأموية في المغرب

---

(34) ابن أبي زرع: القرطاس ص 43.

الأقصى، وبحم مكانة فاس في طرق تجارة القوافل التجارية. بحكم كل ذلك، هل كان الفاطميون العبيديون يعتبرون مدينة فاس مركزا للمعارضة الرئيسية ضدهم في الجهات الغربية؟ ثم لماذا لم يعاملوها كما عاملوا مدن المغرب الأوسط وخاصة مدينة تاهرت؟ ولماذا اقتصر مطلبهم من فاس على الطاعة والاعتراف، والحصول على الأموال وأداء الخراج لهم فقط؟.

لعل المرحلة التي عرفتها المدينة (فاس) بعد وفاة إدريس الثاني إلى قيام العبيديين (القرن 3هـ/9م) قمينة بإلقاء الضوء على هذه الأسئلة. ونسجل مبدئيا أننا لانعالج مسألة المشكل الداخلي للبيت الإدريسي بقدر ما تهمنا البنية الداخلية لمدينة فاس. ولذلك كيف تطورت مدينة فاس في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي؟.

فالأسرة الإدريسية بعد وفاة إدريس الثاني في سنة 213هـ/830م أظهرتها المصادر، وكأنها طريدة من المدينة إلى البوادي إلى القبائل أو إلى حكم أو توجيه حكم التجمعات القبلية التي عرفها المغرب الأقصى في بداية القرن الثالث الهجري /9م. فهل كان توزيع الأمراء الأدارسة في الأرياف المغربية توزيعا «أوربيا زناتيا» ؟ ثم هل كان احتفاظ أكبر أبناء إدريس الثاني وهو محمد ابن إدريس، بمدينة فاس احتفاظا سياديا مبنيا على نظام بيعة «الأدارسة» أم كان أمرا فصل فيه أشياخ الزعامة الأوربية في المدينة العاصمة؟.

المهم أن المسألة تطرح أسئلة عديدة لاداعي الآن للجواب عليها، لأنها تتطلب دراسة دقيقة ومفصلة، وكل ما نملك قوله هو أن توجه التوزيع الذي وزع إليه أبناء إدريس الثاني كان نحو الجهات الشمالية من المغرب الأقصى، أما الجهات الجنوبية فكان حظها ضعيفا جدا من أبناء إدريس الثاني. وهذه المسألة مرتبطة بالوضع القبلي المغربي وتشكلاته.

أما تطور مدينة فاس منذ عهد الأمراء الأدارسة: الابن الأكبر محمد بن إدريس الثاني (213هـ/830م - 221هـ/836م)[35] وعهد ابنه علي بن محمد بن إدريس الثاني» (221هـ/234هـ/836م-849م). وعهد أخيه «يحي بن محمد ابن إدريس الثاني» (234هـ/849م-249هـ/864م)، فقد حدث فيها تطور تمديني واضح أبرز مظاهره هو زيادة سكانها عن طريق المهاجرين إليها: إما تجار أو أهل البوادي من القبائل التابعة للحلف الأوربي. أو أطر دينية وعلمية من إفريقية أو من الأندلس، أو من الجهات الجنوبية الصحراوية.

وفي هذا العهد الذي امتد ثلث قرن (36 سنة) من 213هـ إلى 249هـ ازدادت الكثافة السكانية مدنيا وعسكريا، وبدأت تظهر في المدينة مرافق تجارية تمثل في حد ذاتها طابع المدن التجارية في العصور الوسطى، التي لها صلات تجارية ذات المدى البعيد، فبدأ ظهور «الفنادق» والأسواق المتخصصة، إلى جانب المنشآت الصناعية المرتبطة بتجارة العصور الوسطى مثل «دار الدبغ» والنظام الحرفي بجميع فروعه. وأهم ما يميز هذه المرحلة هو تطور المنشات الدينية في المدينة، فكان بناء جامع القرويين 245هـ/860م. بعدوة القرويين، ونشأة جامع الأندلس[36] في نفس السنة من أهم ما يميز هذه الفترة التي كانت محطة جديدة في تاريخ المدينة أنتجها التوافق بين التجمع الأوربي والجماعات العربية المهاجرة إلى المدينة الناشئة «فاس». وهذا التطور

---

(35) أوسطاش: الجامع في الدراهم الإدريسية، ص 31 وهوامش ص ص 32-34 من الأصل بالفرنسية. Beck (H.L.): L'Image d'Idris II,pp. 68,85.

(36) حول نشأة جامع القرويين. أنظر دراسة الدكتور عبد الهادي التازي: جامع القرويين ج1 ، أما عن مسجد أو جامع الأندلس بنفس العدوة أنظر دراسة (هنري طيراس) ثم : Beck (H.L.): L'Image d'Idris II, p. 69, Note 3.

التمديني هو الذي استقطب نظر المؤرخ ابن أبي زرع واعتمده المؤرخون بعده[37]. «فضاقت بسكانها، فبنى الناس الارباض بخارجها» ولعل هذه أول إشارة صريحة إلى بداية بناء المنازل خارج السور الذي بناه مؤسسها إدريس الثاني. ولكن السؤال ماذا عن الحماية التي يمكن توفيرها لهؤلاء نيابة عن الأسوار؟ ثم هل هؤلاء من جند الدولة وقبائل حامياتها وحلفها؟.

ومن ظواهر التوسع التمديني في هذه الفترة بناء الحمامات، وإقامة الارحاء، وتنظيم توزيع «الماء» على منشئات المدينة بعدوتيها تنظيما يظمن توفير هذه المادة الحيوية بأقساط عادلة مع ملاحظة أن مسألة توزيع الماء رافقت تطور المدينة فاس[38] مع تطور تاريخها.

---

(37) القرطاس ص 32، ابن خلدون: العبر 15/4، الجزنائي جني زهرة الآس ص 25. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي 464/2. حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته 389/2. محمود اسماعيل: الأدارسة ص 91-105 حيث أطلق الباحث على هذه المرحلة تسمية «مرحلة النمط الإقطاعي». ورغم أننا لانستطيع إضفاء هذه التسمية على هذه المرحلة فإننا نسجل مع الدكتور محمود إسماعيل حقيقة «تفشي الإقليمية والمحلية والقبلية» (ص 94). وهذا الوضع لايمنع من أن تستقطب مدينة فاس الطالبين للأمن الإجتماعي، مما ينتج تطوير المدينة الفتية عمرانيا ومعماريا.

- Eustache : Corpus des Dirhams , p.36, Note I.
- Massignon : Le Maroc, pp. 219-224.
- Beck (H.L.): L'Image d'Idris II, pp.68-70.

(38) مسألة «الماء بفاس» تعتبر من المعضلات التاريخية، ودراسة الشبكة المائية القديمة في المدينة من أهم موضوعات التاريخ الحضاري لفاس. ومازال هذا الموضوع بكرا في الدراسات التاريخية عموما. وقد اهتمت المصادر الفقهية بمسائل الماء في العدوتين الأندلس والقرويين. ورغم أن أقدم مشاكل ماء فاس .../...

تهمنا هنا نهاية الأمير الإدريسي بعد فضيحة «الحمام»[39] باعتبارها ظاهرة اجتماعية جديدة في المدينة الجديدة. إننا نقرأ فيها صورة أخرى بالنسبة لمسؤولية الدولة وعاصمتها. حيث يتأكد منها أن الأمير لايهتم بالأمور الجدية في فاس، تلك الأمور التي كانت بيد ذوي المسؤولية في مجتمع الحلف الأوربي الزناتي، وشيوخ المدينة هم المتحكمون المسيرون لتلك الأمور، وتحت أنظارهم كانت التصرفات العابثة التي يقوم بها شباب الأسرة الإدريسية، بحيث يغض عنها الطرف ما لم تؤد إلى فضيحة ولم ينكشف أمرها للعامة في المدينة. ويتضح من هذا الحدث الذي يغلب أن يكون وقوعه في سنة 252هـ/866م. أنه فجر «ثورة الجماعة العربية» بفاس. بزعامة بيت من بيوتها الكبرى الذين وطنهم إدريس الثاني بعدوة القرويين. وهو بيت «الجذاميين»[40] الذي

.../... نجدها في المعيار للونشريسي الذي ألف في القرن العاشر الهجري /16م. فإن جذور الموضوع ترجع تاريخيا إلى مرحلة دراستنا القرن الثالث والرابع الهجريين /9-10م. أنظر : عبد الهادي التازي: جامع القرويين ج1 ص 59 وهامش 16.

(39) ابن عذاري: البيان ج 1 ص 211. القرطاس ص 77-78. البكري: المسالك ص 807-808 فقرة 1351. الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج 2 ص 468-471.

(40) من قبيلة «جوذم» العربية اليمنية الأصل، والتي ساهمت في الفتح الإسلامي لبلاد المغرب (أنظر الموسوعة الإسلامية E.I.2ème, T.2,p.588) ثم أنظر عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة. طبعة مؤسسة الرسالة -بيروت، طبعة 2 سنة 1978. مادة (جذام) ج 1 ص 174. وكانوا من جند الدولة بإفريقية، والأندلس حيث كانوا مع قبيلة «لخم» من القبائل العربية الأولى ذات الامتياز في جند الفتوحات الإسلامية ببلاد المغرب الكبير والأندلس (أنظر ليفي بروفانسال: تاريخ إسبانيا المسلمة ج 1 ص 50). وأنظر : الدكتور عبد الواحد .../...

كان يتزعمه «عبد الرحمان بن أبي سهل الجذامي» وهو أقوى وأكبر شخصية في مدينة فاس بعدوة القرويين

.../... ذنون طه: الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، ص 222. الناصري: الاستقصا ج1 ص 148 و152. وكان بيت «الجذاميين» بإفريقية في القيروان وضواحيها، قبل انتقالهم إلى مدينة فاس في سنة 212هـ/828م. بعد أن عرفت الإمارة الأغلبية ثورة أبناء جند القبائل العربية ضد زيادة الله الأمير الأغلبي (201هـ/817م -223هـ/837م). وعالج محمد الطالبي هذه الثورة أو الفتنة الكبرى التي أدت إلى هجرة الجماعات العربية القيروانية إلى فاس وهي التي أعطت إسمها إلى أحد وأهم رموز التاريخ الحضاري المغربي (م. الطالبي: الأغالبة ص 183-238)، وشاركت العامة في هذه الثورة ضد الأمير الأغلبي «فقد أمطرت موالي الأمير بالحجارة» (ص 197). واضطرمت إفريقية نارا (ابن عذاري: البيان ج 1 ص 100) في سنة 209هـ/824م. وكان الجند من العرب يحملون شعارا وهو «أن زيادة الله الأول إمام ظالم، وأنه يحل قتله شرعا» وقدم أهل القيروان مناصرتهم ومساعدتهم لزعماء الثورة على الأمير الأغلبي زيادة الله. وقاتلوا في صفوفهم (فكان منهم اليحصوبيون، والازديون، والقيسيون، والجذميون والمذحجيون).

وكان تدخل جيش زيادة الله في ثورة القيروان حاسما وسريعا وناجحا في القضاء على الثائرين، وأدى ذلك إلى هدم «سور مدينة القيروان هدما تاما، وبذلك انعدمت الحماية في المدينة الغاضبة على الأمير الجائر في نظرها. وبدأت هجرة أسرها إلى غيرها ومنها مدينة فاس بالمغرب الأقصى. ازدادت الهجرة من القيروان بعد معركة «سبيبة» في سنة 210هـ/825م. وعلل ذلك الطالبي بأنهم خافوا من أن يتحول أهلهم إلى رهائن (الأغالبة ص 211). فجلا عن القيروان وجوهها من العرب. وضرب قائد الثورة «منصور الطنبذي» السكة باسمه (الأغالبة ص 211 وهامش 218). وتمكن الأغالبة من استرجاع الأمور والسيطرة على المنشقين ففشلت ثورة الجند من العرب ومعها ثورة القيروان. وعبرت الهجرة إلى فاس عن ذلك. لكن هل تكررت ظاهرتها في فاس وبصور أخرى سنة 252هـ/866م؟.

ثورة العامة في فاس سنة 252هـ/866م:

في بداية النصف الثاني من القرن الثالث الهجري /9م كانت الوضعية في داخل مدينة فاس بعدوتيها صعبة جدا، فكانت منقسمة إلى مدينتين مستقلتين وبلغ الإنقسام بيهما إلى حد بناء السور بينهما. فصارتا فاس الشرقية، وفاس الغربية. وكذلك نتج عن ذلك سلطتان واحدة حول جامع القرويين، وثانيتهما حول جامع الأندلس. وهذا ناتج مما أحدثه الخلاف بين جماعة القيادة الإجتماعية في مدينة «فاس الكبرى ، ولكن الملاحظ كان أبناء البيت الإدريسي لايمسكون بزمام الأمور عمليا، إما لصغر سنهم، وإما لغلبة الجماعات المحلية القوية في العدوتين. فكان بذلك تاريخ مدينة فاس في هذه المرحلة ، ليس تاريخا للأدارسة أو الإمارة الإدريسية، وإنما تاريخ الإنقسام الإجتماعي الذي صنعه التركيب البشري الأول للمدينة في عهد إدريس الثاني. إن الحوليات[41] لاتقدم لنا سببا إقتصاديا لهذه الحركة الساخطة في داخل فاس القرويين على وجه الخصوص. ومن هنا يكون سببها شيئا أخر نابعا إما من العلاقات الإجتماعية بداخل المدينة، أو ناتج من استنكار لتصرفات غير أخلاقية، وغير دينية، وهذا الافتراض الأخير هو الذي جاء في سياق أخبارها عند مؤرخي فاس خاصة ابن أبي زرع في قرطاسه[42]. ويقوى هذا السبب عندما نرى أن «عامة فاس قد احتجوا على تصرف الأمير الإدريسي المحصن،

---

(41) على قدر ما نعلم فإن المصادر التي رجعنا إليها لم تشر إلى تعرض مدينة فاس في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة. ماعدا إشارة الناصري (الاستقصا 1/ 164) إلى مجاعة وقحط سنة 253هـ/873م التي كانت إشارة عامة وتكاد تخص الأندلس لنقله عن مصدر أندلسي. والمهم أنها مسألة وقعت بعد وقوع أحداث مدينة فاس. القرطاس ص 96.

(42) القرطاس ص 77-78. الاستقصا 162/1. البكري : المسالك.

ذلك التصرف الذي كان علانية، وبأسلوب مكشوف، ومع شريحة تعتبر في أي مجتمع إسلامي مناطا للتهمة الأخلاقية. وهي يهوديات فاس القرويين.

لكن الأسرة الإدريسية استمرت رمزية وجودها في الإمارة الإدريسية، وكان مطلب الساخطين الغاضبين في المدينة هو مطلب «النهي عن المنكر»، ويعني ذلك في أقصى مداه إقامة الحد على المقترفين للذنب تعزيزا وتأديبا. أدى حدث الحمام إلى هيجان شعبي، وأيضا تطور إلى ضده وهو تدخل جميع القوى الإجتماعية في الأحداث وتحول إلي مشكل سياسي داخل الأسرة الإدريسية، مما أسفر إلى نقل الاعتراف الفاسي بالأدارسة من أبناء «محمد بن إدريس الثاني» إلى أبناء «عمر بن إدريس الثاني».

ونسجل أن الفئة الإجتماعية التي قادت هذه الحركة، هي جماعة العرب المهاجرين إلى فاس وكانت زعامتهم في «الجذاميين»[43] يعني هذا بالنسبة لسياق بحثنا سيطرة الجماعة العربية في فاس على قيادة المدينة وتسييرها حضاريا. ولقد لعبت أميرات البيت الإدريسي في فاس دورا رئيسيا في علاج المشكلة المطروحة أخلاقيا بإظهار غض الطرف والتسامح عما بدر من الأمير الإدريسي باقتحامه الحمام الذي كانت بداخله عشيقته اليهودية، وباستدعاء كبير الأسرة الإدريسية «علي بن عمر بن إدريس الثاني» الذي كان حاكما إدريسيا في صنهاجة وغمارة في الريف بشمال المغرب الأقصى ليتولى رئاسة الأسرة الإدريسية بفاس، (فاستدعي لرئاسة الإمارة الإدريسية في فاس) بعد أن توفي الأمير الذي ثارت العامة عليه. وتجمع الروايات على أنه توفي في

(43) الجذاميون الذين كانوا زعماء مدينة فاس في هذه الثورة الشعبية الاستنكارية، يظهر أنهم لم يكونوا قوة عددية بقدر ما كانوا أرسقراطية عربية في المدينة. وحافظوا على مكانتهم بها إلى حملة جوهر الصقلي القائد الشيعي فاتح فاس للفاطميين سنة 347هـ/958م. أنظر القاضي النعمان: المجالس والمسايرات ص 385 وهامش 2.

عدوة الأندلس بعد فراره من عدوة القرويين بليلة، إما متأثرا بجراحة أو ندامة(44).

ورغم تولي «علي بن عمر بن إدريس الثاني» شوون الإمارة بفاس، فإن السلطة الحقيقية المسيرة للمدينة ظلت بيد الوجيه العربي القيرواني الأصل«عبد الرحمان بن سهل الجذامي». ودليل ذلك أنه ضرب عملته(45) تشير عمليا إلى إزدواج السلطة بين الأدارسة والأسرة العربية الجذامية.

---

(44) البكري: المسالك ص 807 فقرة 1351. ابن عذاري : البيان ج 1 ص 211-212. ابن خلدون ج 4 / 15. القرطاس ص 78-79. الاستقصا 1 /162. الكتاني: سلوة الأنفاس ج 1 ص 168.

(45) أوسطاش: الجامع في الدراهم الإدريسية، ص 38 وهامش 1، وخاصة ص 65، حيث أكد الباحث أوسطاش أن ابن سهل كان «المشرف» بالمدينة على ضرب العملة الإدريسية وبالتالي «وزيرا للمالية» في عهد يحيى الأول (240-249هـ) وفي عهد يحيى الثاني في السنوات (249-250هـ). ولعب ولده دورا رئيسيا، بل زعيما لفاس في ثورتها سنة 252هـ/866م. (أنظر أيضا ص 149 وهوامش ص 150 من الأصل الفرنسي) فظهر إسم «أبو سهل» في الدرهم الإدريسي الذي ضرب في سكة مدينة فاس بين 240هـ/855م وسنة 250هـ/864م. وبذلك يكون «عبد الرحمان» رجل ثورة عامة فاس هو إبن «أبي سهل» التي ضربت العملة بإسمه في فاس. وينتج أيضا أن يكون عبد الرحمان هذا هو جد «أحمد بن أبي بكر» زعيم فاس في مرحلة جوهر الصقلي على فاس سنة 347هـ/958م. وبذلك تشكلت زعامة هذه الأسرة في فاس كالآتي:

أبو سهل الجذامي القيرواني القادم إلى فاس سنة 210 هـ

↓

عبد الرحمان (رجل ثورة عامة فاس في سنة 252هـ

↓

أبو بكر

↓

أحمد (زعيم فاس وقتيل الفاطميين بالمهدية في سنة 349هـ/ 859م

ونسجل أن دار ضرب العملة لم تقم بضرب النقود من سنة 249هـ/863م إلى سنة 252هـ/866م وهو عهد يحيى إبن يحيى بن إدريس الثاني.

وبناء على ذلك نتساءل «على أي شيء يعبر هذا الوضع في مدينة فاس؟ في نظرنا مبدئيا، نراه يعبر عن تحول حضاري جديد في المدينة، ويعبر عن وجود قوتين» قوة جند قبائل البربر من أوربة وغيرهم، وهؤلاء احتفظوا بالسلطة العسكرية واختصوا بالعمل الحربي. والقوة الثانية هي الجماعة المدنية من أرسقراطية عربية، وتجار وحرفيين، وفئات أخرى. وهذه الجماعة المدنية هي التي أخذت تسير المدينة، وتأخذ شرعية المسؤولية فيها. ومن الطبيعي أن تعمل على بقاء النفوذ الإدريسي مادام حاميا لها رمزيا. وهذه الجماعة الجديدة أو الفئة الناشئة في داخل المدينة، هي التي تمثل الجيل الثاني المكون لحضارة فاس هي التي يمكن أن نسميها «عصبية الظل في المدينة المغربية».

هذه الوقائع أثبتت أمرا واقعيا وطبيعيا في مركز قيادة مدينة فاس وهو عدوة القرويين، وهو تقسيم رئاسة وزعامة التوجيه والتسيير بين «الإمارة التاريخية» وهي «الأسرة الإدريسية»، والوجهاء أو السلطة الارستقراطية المالية في المدينة. يعني هذا أن الأمير الإدريسي «علي بن عمر» المستقدم إلى فاس بعد فضيحة صهره، لايمكنه التخلي عن «بني سهل الجذاميين». ولهذا لم تسقط مدينة فاس «ثمرة ناضجة بين يد عبد الرحمان بن أبي سهل» كما قال الدكتور سعد زغلول عبد الحميد[46]. وأنما تظافرت الجهود المدنية لقطع الطريق على تدخل القبائل «الجند» في المدينة المركز. وكأن بني سهل في فاس 866/252م لايريدون أن يتكرر ما حدث في القيروان سنة 209 هـ/825م[47]. وهذا ما يفسر الدخول السلمي لعلي إبن عمر بن إدريس الثاني إلى مدينة فاس «وخطب له على جميع منابرها» ويجمل إبن خلدون نهاية

---

(46) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ لمغرب العربي ج 2 ص 471.

(47) أنظر هامش 72 من هذا الفصل.

المسألة بقوله الرائع[48] «وبلغ الخبر بشأن يحيى بن عمه علي ابن عمر صاحب الريف، واستدعاه أهل الدولة من العرب والبربر والموالي، فجاء إلى فاس ودخلها وبايعوه، واستولى على أعمال المغرب إلى أن ثار عليه عبد الرزاق الخارجي».

كانت أحداث مدينة فاس المصيرية جارية في عدوة القرويين، وفي نفس الوقت كانت عدوة الأندلس تقوم بدور الدرع الوقائي لعدم استفحال الأخطار، فهل يرجع الأمر إلى تركيبها السكاني والإجتماعي؟ أم إلى تركيز جند المدينة فيها؟.

لقد سبق لنا في موضوع بناء مدينة فاس الكبرى بعدوتيها، أن «عدوة الأندلس» خططت على شكل قاعدة للجند، فقسمت على قبائل جند الإمارة الإدريسية أول مرة. ويتضح ذلك من أسماء أحيائها وأرباضها: مثل «صريوه» و«مصمودة» و«جرواوة» ... ويفيدنا ابن أبي زرع[49] بالخصوصية التنظيمية الأولى لعدوة الأندلس :

«وأنزل جميع أجناده وقواده بعدوة الأندلس، وجعل بها جميع كسبه من الخيل والإبل والبقر والغنم بأيدي ثقاته. ولم ينزل معه بعدوة القرويين غير مواليه وحشمه وسائر رعيته من التجار والصناع والسوقة».

نص هام جدا على مستوى التصنيف التخصصي والوظيفي لمدينة فاس الكبرى. «فكان أهل عدوة الأندلس أهل نجدة وشدة، وأكثرهم ينتحل الحراثة والفلاحة، وأهل عدوة القرويين أهل رفاهية ونخوة في البناء واللباس والفراش والمطعم والمشرب، وأكثرهم صناع وتجار وسوقة، ورجال عدوة القرويين

---

(48) ابن خلدون: العبر ج 4 ص 30.

(49) القرطاس ص 46.

أجمل من رجال عدوة الأندلس، ونساء عدوة الأندلس أجمل من نساء عدوة القرويين»[50].

فعدوة الأندلس سورت لتحافظ على طابعها القبلي البربري، فهي مدينة الجند[51]، فكانت بحق مهيأة لتكون «مدينة بربرية» طعمت منذ بدايتها بالمهاجرين الأندلسيين[52]، الذين كانوا في بداية أمرهم «لاجئين سياسيين» نقلوا إليها تجربتهم في الحياة الحضرية. وتقنياتهم العتيقة في الحياة الفلاحية

---

(50) نفسه، ص 43.

(51) يظهر من عملية الفصل بين العدوتين في عهد إدريس الثاني ، أنها عملية مقصودة للفصل بين جماعتين متباينتين اجتماعيا ووظيفيا. أنظر لوطورنو: فاس قبل الحماية ج 1 ص 76 وما بعدها من الترجمة العربية.

(52) تعتبر نهاية القرن الثاني الهجري /بداية التاسع الميلادي مرحلة الثورات الداخلية في الأندلس. وزاد في تفاقمها القحط والمجاعة وخاصة ماعرفته الأندلس سنة 197هـ/813م. ومن بين تلك الثورات ثورة عامة قرطبة في هذه الأثناء التي زاد في تفاقمها الانتقادات التي وجهت ضد سياسة الأمير الأموي «الحكم بن هشام». ولعب «المولدون» دورا بارزا في هذه الحركة الشعبية. وكان أشد العناصر المعارضة أحد الأحياء الشعبية بقرطبة وهو حي «الربض» الجنوبي، في ضاحية «شقندة». وفي يوم 13 رمضان سنة 202هـ/25 مارس 818م. زحفت جموع الثوار على قصر الإمارة بقرطبة، ولكن قوة الأمير الحكم بن هشام سحقت بالقوة الغليان الشعبي، وأضرمت النار في مناطق الثورة، وفي غمرة إطفاء النيران، استمرت قوة وجيش الحكم بن هشام في القتل وإبادة الثائرين ومطاردتهم، وفر منهم من استطاع الفرار، واستمر القتل فيهم ثلاثة أيام. وفي نهاية هذه الثورة، أمر الحكم بهدم ديار الثائرين، فهدمت عن آخرها، كما أمر بطرد من بقي منهم إلى خارج قرطبة. فعبر البحر كثير منهم إلى المغرب الأقصى، وإلى المشرق وخاصة الإسكندرية. جميع مصادرنا تؤرخ لهذه الثورة، ولكن نحيل على ماجاء عند المؤرخ الأندلسي، إبن حيان: المقتبس، ص ص 103-110. نقلا عن ليفي بروفانسال: تاريخ إسبانيا المسلمة ج 1 ص 169 من الأصل

.../...

وأساليبهم في الصناعة والبناء، فأعطوها إسمهم وخبرتهم، فحملت إسم "«عدوة الأندلس» إسما ومسمى". ولكن بالمقارنة بين العدوتين في القرن الثالث والرابع الهجريين /9-10م نلاحظ أن عدوة الأندلس طغى عليها الطابع البدوي، فهي أقل تحضرا بالنسبة لعدوة القرويين، فقد استمرت منطقة فاسية لاقامة «جند المدينة»

لقد لعب الوادي الذي يفصل بين العدوتين الأندلس والقرويين دورا كبيرا وحاسما في تاريخ الصراع بينهما وكذلك في تاريخ التوحيد بين العدوتين، فهل كان له حضور في تاريخ الفصل بين الجماعات القبلية التي كانت موجودة على ضفتيه قبل بناء العدوتيين؟ وبالتالي هل كانت المنطقة محط خلاف وصراع بين القبائل التي سكنت ضفتي النهر، وإستمرت بذرة هذا الخلاف بعد تسوير المدينة الكبرى فاس؟.

إذا ربطنا الموضوع بالمسألة القبلية في المغرب الأقصى، فإننا نجدها حاضرة في كل ذلك، ونجد دور الوادي والجبل فاعلا في ضبط وتحديد المجال

.../... الفرنسي. وعالج مسألة هجرة الربضيين إلى فاس (ص 169-171) بالإعتماد على قطعة من تاريخ ابن حيان. أنظر دراسة مصطفى أبو ضيف: القبائل العربية في الأندلس، ص 215-225.

Guichar(Pierre): Structure sociales orientales et occidentales dans l'Espagne Musulmane, Mouton , Paris 1977,p.140.

وقد اعتمد الأستاذ إبراهيم حركات على هنري طيراس، وجوليان وكوتيي عندما اعتبر الجماعة الربضية الأندلسية التي هاجرت إلى المغرب، فقال أنهم في معظمهم من «صل سلتي روماني» ولكن هذا الرأي فيه مبالغة كبيرة» (أنظر: المغرب عبر التاريخ ج 1 ص 110). ثم قارن بما جاء عند مصطفى أبو ضيف: أثر القبائل العربية ج 1 ص 320 هامش 123، وص 323-324، وما ذكره الباحث عن عدوة الأندلس متأخر عن مرحلة دراستنا. Lévi-Provençal:L'Espagne musulmane au Xè S.,p.208

الحيوي لكل جهة من العدوتين. وهكذا مثلت فاس في عهدها التمديني الأول، دور الصراع القبلي في المجالات المفتوحة خارج مدينة فاس. فكانت صورة «النزاع» بين عدوتيها صورة متماثلة مع صور التنافس القبلي التي لمسناها بين الأحلاف القبلية في الأرياف والبوادي المغربية.

وأقدم نص جغرافي عربي يصف مدينة فاس بعدوتيها ويذكر في نفس الوقت بالخلاف والنزاع الذي كان قائما بينهما، ويسجل الظاهرة الإستقلالية في المدينتين، هو الجغرافي ابن حوقل(53)، فقال: «وفاس مدينة جليلة يشقها نهر، وهي جانبان يليهما أميران مختلفان، وبين أهل الجانبين الفتن الدائمة والقتل الذريع المتصل». هذا الوصف الذي وصفها به إبن حوقل يتضمن سكوتا عن الوضع السياسي للمدينة، مع أنه زارها إبان الصراع الفاطمي الأموي على فاس والمغرب الأقصى عموما. ولكن «المقدسي» يأتي بعده فيذكر الاتجاه السياسي لكل عدوة من عدوتي المدينة. هذان الموقفان اللذان كانا قائمين في المدينة الكبرى فاس. فقال(54): «... وفاس بلدان جليلان كبيران كل واحد منها محصن، بينهما واد جرار عليه بساتين وأرحية، قد استولى على أحدهما الفاطمي، وعلى الآخر الأموي، وكم ثم من حروب وقتل وغلبة». ويأتي أبو عبيد البكري(55) في القرن الخامس الهجري /11م ليقدم لنا معلومات هامة جدا عن «النزاع» بين عدوتي فاس «وباب الحوض غربي يقابل عدوة القرويين، وباب سليمان مثله، ومن هذين البابين يخرج أهل هذه العدوة إلى الحرب إذا كان

---

(53) صورة الأرض، ص 89 فقرة 42.

(54) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 219.

(55) البكري: المسالك ص 796 (116) فقرة 1332. وناقش الآراء والنصوص المتعلقة بهذا الخلاف بين العدوتين الباحث إسماعيل العربي في دراسته عن الأدارسة: دولة الأدارسة ص 104 وما بعدها.

بينهم إختلاف، وتقوم الحرب حينئذ بموضع يعرف بكدية الفول، وباب الفوارة». وتستمر الظاهرة حيث يؤكد ذلك الشريف الإدريسي(56): في القرن السادس الهجري /12م فيقول: «ومدينة فاس مدينتان بينهما نهر كبير، يأتي من عيون تسمى عيون صنهاجة، وعليه في داخل المدينة أرحاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلا ثمن له خطر. والمدينة الشمالية منها تسمى القرويين، وتسمى الجنوبية الأندلس، والأندلس ماؤها قليل لكن يشقها نهر واحد يمر بأعلاها وينتفع منه بعضها، وأما مدينة القرويين فمياهها كثيرة تجري منها في كل شارع وفي كل زقاق ساقية ... وبين المدينتين أبدا فتن ومقاتلات، وبالجملة إن أهل مدينة فاس يقتل فتيانها بعضهم بعضا». ويقدم لنا نتيجة هامة للدور الحضاري الذي قامت به مدينة فاس في بواديها، هذه النتيجة الواقعية في عصر الشريف الإدريسي، وهي تعريب بواديها فيقول(57): «ومدينة فاس قطب ومدار لمدن المغرب الأقصى، ويسكن حولها قبائل من البربر ولكنهم يتكلمون بالعربية، وهم بنو يوسف وفندلاوة وبهلول وزواوة (كذا ولعل الأصوب زواغة) ومجاصة وغياثة وسلالحون (كذا ولعل الأصوب شلالخون)».

أوردنا هذه النصوص رغم طولها لما يظهر فيها من التطور الذي عرفته المدينة على مستوى الصراع الداخلي بالمدينة (فاس) ولما يظهر فيها من إشعاع عام لدور فاس في البوادي. ولكن الذي نريد معالجته بوجه خاص هو«النزاع الداخلي» بين العدوتين إلى عصر دراستنا وهو القرن الرابع الهجري/10م.

ففي عصر إدريس الثاني مؤسس المدينة (فاس)، كانت المدينة منقسمة على أساس وظيفي، الأندلس خاصة بالجند وقبائله الذين كانوا فلاحين

---

(56) الإدريسي: نزهة المشتاق ج 1 ص 242 (ط. إطاليا).

(57) نفسه ص 246. إسماعيل العربي: دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة. طبعة دار الغرب الإسلامي 1983 ص 105-113.

ومزارعين ورعاة. والقرويين خاصة بالدور السياسي والحياة الصناعية والحرفية ولكن كانت تسير الجميع سلطة المؤسس وتوجيهاته. واستمرت مدينة فاس تحت سيادة واحدة بعدوتيها في عهد محمد ابن إدريس الثاني، بدليل أن تقسيم الولايات بين الأمراء الأدارسة بعد وفاة والدهم إدريس الثاني (213هـ/830م) لم يشر إلى تولية على عدوة الأندلس باعتبارها مستقلة عن عدوة القرويين[58]، صحيح كان الخلاف بين الإخوة الأدارسة قويا وحادا وصل إلى الصراع المسلح، ولكنه كان خارج مدينة فاس الكبرى، كان في الأرياف والقبائل، وبذلك كان لهذا الصراع وجه قبلي ريفي بدوي أكثر من أن يأخذ بعدا مدنيا في العاصمة. إلا أن هذا الخلاف خارج فاس، من شأنه أن تتولد عنه مضاعفات في قيادة المدينة العاصمة. فالمصادر لاتشير ولاتتحدث إلا عن المواقف خارج فاس. ومن هنا يكون الوضع في فاس مازال خاضعا لسلطة واحدة حتى بعد وفاة الأمير الإدريسي محمد بن إدريس سنة 221هـ/836م.

وبعد وفاة الأمير محمد بن إدريس الثاني تنتقل مسؤولية أمور الدولة، وشؤون المدينة (فاس) إلى «الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة»[59]. وهذا يؤدي بالطبع إلى خلق ظروف جديدة في داخل المدينة الفتية، أبسط صورها، من يتولى المسؤولية العليا في المدينة عاصمة الدولة؟ هل الجند والزعامة فيه لاوربة؟ أم الأعيان والأولياء المقربون من العرب والرئاسة فيهم للأزد أصهار محمد بن إدريس الثاني؟ يعني على مستوى المدينة أن الجند في عدوة الأندلس، وأن المقربين من العرب في عدوة القرويين. وبالتالي أن الخلاف حول موضوع المسؤولية العليا هو الذي يقرر مسألة استمرار وحدة العاصمة أو انقسامها.

---

(58) البكري: المسالك، ص 806 فقرة 1349.

(59) ابن خلدون: العبر 4/ 29.

لقد تطورت الأمور لصالح الحفاظ على وحدة المدينة، ولكن بقيت جبهة الجند تراقب الأحداث مادامت الظروف تحتم مشاركتهم في حسم أمور الإمارة، ومادامت سيادة «الحلف الأوربي» خارج العاصمة فاس هي المسيرة للقبائل، وكلمة «أوربة» مسموعة في الولايات التابعة لفاس، خصوصا وأن التجمع الأوربي تمكن من توقيف تمردات الأمراء الأدارسة في ولاياتهم المنشقة أو التي حاولت الإنشقاق في كل من سلا حيث تمرد «عيسى بن إدريس الثاني»[60]، وكانت حركته أخطر عصيان في عهد أخيه محمد، وما بعده، وكذلك تمرد الأمير

(60) عيسى بن إدريس الثاني: بلاعتماد على ضرب العملة الإدريسية ودراسة «أوسطاش» نجد إسم عيسى بن إدريس الثاني على الدرهم الذي ضرب بـ «زيز» سنة 213هـ/828م وسنة 233هـ/847م. ويحمل الدرهمان إسم عيسى وصفته «أمير وزقور» وكذلك ضرب «عيسى» عملته بأزقور في السنوات 225هـ/839م، وسنة 226هـ/840م وسنة 232هـ/848م. واحتفظت هذه العملة المضروبة بـ «أزقور» بشعار «علي بن أبي طالب». وضرب عملته أيضا بدار السكة بـ«بهت» في السنوات 229هـ/843م. و233هـ/847م و246هـ/860م. وضرب العملة بإسمه في مركز مازلنا لم نعرف مكانه بالتحديد وهو موقع «ومهنة» (أنظر أوسطاش: الجامع ص 170). وضرب عملته ب: «ورزيغة» سنة 247هـ/861م. ويظهر من ذلك أن الجهات المغربية الواقعة جنوب سلا خضعت نقديا للأمير الإدريسي عيسى بن إدريس الثاني (213-247هـ/828-861م). وهذا يعبر عن جهوية هذه المناطق التي انتشرت فيها عملة عيسى وعبرت ماليا ونقديا عن استقلال سيادي عن مدينة فاس العاصمة. وهذا ما يتفق مع تحليلنا لنظام الأحلاف الكبرى واستقلالاتها الجهوية، وتتطلب إمارة عيسى دراسة متخصصة، فمازالت شخصيته وثورته غامضة من جوانب كثيرة قبليا ومذهبيا واقتصاديا. وعندما حدد البكري نفوذ الأمير الإدريسي عيسى بن إدريس الثاني ضبطه من شالة إلى أزقور، (المسالك ص 4-155/806 فقرة 1349). وبذلك يكون ضرب العملة بإسمه في «زيز» ناتج عن العلاقات التجارية مع سجلماسة. وتمييز الأمير عيسى بتعيينه على هذه الجهات البرغواطية التي تعتبر منطقة حربية، ويجعل منه أقوى الأمراء أو على الأقل من أقدرهم حزما وقوة. وفي حديث ابن عذاري (البيان 211/1) عن ثورة عيسى، نجده يتكلم عليها باعتبارها حركة انفصالية مستقلة تماما عن فاس، مما استدعى القيام بضربة عسكرية كبرى وحاسمة (ابن خلدون 28/4 والتنسي: الأدارسة ص 42). ويمكن أن يكون عيسى قد استقل عن فاس منذ 216هـ/831م. بناء على ضرب عملته بأزقور.

«القاسم ابن إدريس الثاني»، الذي أنهى عصيانه لفاس بالتخلي كلية وانقطع متزهدا قرب أصيلا[61]. وكان زعيم إخماد هذه التمردات هو الأمير «عمر بن إدريس الثاني»[62] الذي ستنتقل الإمارة إلى ابنه «علي» سنة 252هـ/866م.

---

(61) القاسم بن إدريس الثاني: بناء على خريطة دور ضرب العملة الإدريسية بعد إدريس الثاني نجد أن إبنه «عمر» ضرب عملته في مدينة البصرة سنة 234هـ/848م، وسنة 245هـ/859م. وفي مدينة أصيلا سنة 245هـ/859م ، وسنة 254هـ/868م. وهذا يتفق مع ماذكرته المصادر المكتوبة من أن القاسم إبن إدريس الثاني. عين بعد وفاة والده أميرا وحاكما على غمارة (وكان المقصود بها في الاصطلاح الحديث بلاد جبالة الغربية) ويذكر البكري في مسالكه (ص 155/ ص 806 فقرة 1349) أن القاسم قدم إلى أصيلا وبها دفن وهو الذي بنى سورها. ويغلب على الظن أن يكون ذلك بعد وفاة إدريس الثاني مباشرة في (213هـ). وحولها كانت بطون قبيلة «لواتة». و«هوارة»، ثم يقول ضابطا لولاية «القاسم بن إدريس الثاني»: «فولى القاسم البصرة وطنجة وما والاها» ص 155 (806 فقرة 1349). وهنا نلاحظ أن السهول الغربية الممتدة على المحيط الأطلسي، قسمت إلى ولايتين: وكان الفاصل بينهما فيما يظهر هو نهر «سبو» فما كان جنوبا في اتجاه سلا وتامسنا أسند إلى «عيسى بن إدريس الثاني» وما كان شمالا من مصب نهر سبو أسندت ولايته إلى «القاسم بن إدريس». وكانت هذه المنطقة مجالا لنفوذ وتأثير «برغواطة». وهنا نطرح وبصورة أخرى مسألة موقف الموافقة لأخيه عيسى في حركة عصيانه لطاعة أخيه «محمد بن إدريس» أمير مدينة فاس. فقد رفض القاسم أن يتدخل عسكريا لقمع حركة أخيه عيسى. وفضل اعتزال الحياة العامة، والانقطاع إلى العبادة في خلوة بموضع قرب أصيلا على وادي «تاهدارت». فهل لعب الحلف القبلي البرغواطي دورا في ذلك؟ أم هناك علاقة بالاتجاهات المعاصرة للأخوين في مواقفهما من سيادة العاصمة فاس؟.

(62) عمر بن إدريس الثاني: المصادر المكتوبة تذكر أن الأمير الإدريسي «عمر بن إدريس الثاني» عين بعد وفاة والده سنة 213هـ/830م. على الجهات الشرقية من بلاد غمارة بما في ذلك منطقة الريف بشمال المغرب الأقصى. وكان مركز نفوذه في هذه الجهات التي نعتت بـ« صنهاجة» هو مدينة «تغساس» ثم مركز «ترغة» ولما توفي بـ«فج الفرس» نقل جثمانه إلى مدينة فاس ليدفن فيها، وهو «جد الأسرة الحمودية» التي أنشأت الدولة الحمودية بالأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس في بداية القرن الخامس الهجري / 11م.

.../...

وهذه الزعامة التي بلورها «علي ابن عمر بن إدريس الثاني» كانت معتمدة على تجمعات قبائل بربر شمال المغرب الأقصى. الذين جاؤوا بجموعهم وفرسانهم إلى أبواب فاس مع «علي» لينصبوه أميرا على فاس الكبرى عاصمة الإمارة الإدريسية، فجاءت معه كتامة، ولواتة، وهوارة، ومصمودة. وكان غرب شمال المغرب «أصيلا» و«البصرة» و«طنجة» هو مركز هذا التجمع القبلي المؤيد للقاسم بن إدريس الثاني وأخيه عمر بن إدريس الثاني. وهذه منطقة الهبط الفلاحية، مما يظهر من جموع هؤلاء، أنهم فلاحين قادمين لينصبوا أميرهم بفاس. فهل يعني هذا بداية تحرك «عصبية الظل» سياسيا على غرار ما فعله الحلف الأوربي في بداية قيام الأدارسة؟ ثم إن هذا

.../... وعندما نرتب زمنيا مصادرنا المكتوبة التي تكلمت على «عمر بن إدريس الثاني» نجدها على الشكل الآتي: البكري وإبن حزم الأندلسي وإبن حيان الأندلسي، وابن عذاري، وابن أبي زرع الفاسي، وابن خلدون، وابن الخطيب، والتنسي، وابن عبد العظيم الأزموري، ثم أخيرا شجرات الأنساب الإدريسية المتأخرة. وكلها تثبت المنطقة الشمالية من المغرب الأقصى ماعدا شجرة الأنساب التي تذكر منطقة الجنوب المغربي «دادس» و «أحوازها». والمهم أن عمر بن إدريس في فترة ولايته كان «الرجل الثاني» في الإمارة الإدريسية على مستوى النفوذ السياسي والروحي. ثم أضيفت له صنهاجة الهبط بعد عصيان أخويه عيسى والقاسم، وتوفي بفج الفرس سنة 220هـ/835م. في عملية إخضاع أخيه القاسم. ولكن نلاحظ أن إسم «عمر بن إدريس الثاني» لم يظهر في العملة الإدريسية على أساس ما وصلنا من الدراهم الإدريسية، ولم تكن مدينة «تغساس» ومدينة «ترغة» مركزا لضرب العملة الإدريسية. (أنظر : أوسطاش: الجامع في الدراهم، ص 33 هامش 13-172 من الأصل بالفرنسية البكري، ص 124، 806. ابن حزم: الجمهرة ص 49. ابن حيان: المقتبس ج 5 ص 348 (236). ابن عذاري: 305/211/1. ابن أبي زرع 71/62/51/30. ابن خلدون: ج 82/4 (الترجمة 2 /564). ابن الخطيب: الإعلام ق 3 ص 206- التنسي ص 87 ط الجزائر، و 330/4 بنو حمود. ابن عبد العظيم: البهجة، ورقة 108. شجرة الأنساب: 35) .

الوضع كان له أثره الإنقسامي على مستوى التأييد القبلي للإمارة الإدريسية، مما كان له أثره على طبيعة التجزئة الإدريسية؟ وكذلك على مدينة فاس التي ستصير وتتحول إلى مدينتين مستقلتين إحداهما عن الأخرى؟

فكانت بداية النصف الثاني من القرن الثالث الهجري /9م مرحلة جديدة في تاريخ فاس الكبرى. فقد أثر عليها طابع تلاحق الهجرة إليها، وأثرت فيها وضعية التنافس الأسروي للإمارة الإدريسية، كما أثر على المغرب واقع التدخلات الخارجية. كل ذلك حولها إلى مدينة مستقلة، وجعلها مجتمعا مدنيا تعتصره ظواهر التضاد والتقاطع إلى جانب مظاهر التضامن والتوافق.

ولما دخل «علي بن عمر بن إدريس الثاني» إلى «فاس» رحبت به العدوتان معا، فأصبح «أميرا لفاس الكبرى»[63]، بدأت تظهر في الأفق ظواهر أخرى غيرت الوضع الداخلي للمدينة، مما أفضى بها إلى الانقسام الحقيقي بين عدوتيها. وأبرز تلك الظواهر هجوم قبائل الأطلس المتوسط (فزاز) على فاس تحت راية «الحركة الخارجية»[64] التي تزعمها أحد الأندلسيين المطرودين إلى

---

(63) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج 2 ص 471، وهامش 195.

(64) كان الأدارسة مختلفين مع الخوارج على المستوى المذهبي، ولكن لم يدخلوا مع إمارتهم في سجلماسة وتاهرت في حرب معلنة ومسلحة، مثل مافعل الفاطميون في القرن الرابع الهجري /10م. فالخلاف المبدئي بين فاس وتاهرت لم يقف حاجزا وعائقا أمام التعايش بين الأدارسة وبني رستم وبني مدرار، فحرص كل من الأدارسة، وإمارتي الخوارج على مصالحهما الاقتصادية التي تمثلها بوجه خاص «حركة القوافل التجارية». وكان لهذا الوضع التعايشي نتائج على مستوى العلاقات السلمية فكريا وإجتماعيا. وقد تحدث باهتمام كبير الجغرافيون الأوائل عن أهمية الطريق التجاري الرابطة بين تاهرت - و - فاس (اليعقوبي ص 356، ابن حوقل ص 88) بالإضافة إلى ما أكده ابن الصغير ص 13 (45 طبعة دار الغرب) وبعد سنة 252هـ/866م حدث أول هجوم خارجي على الإمارة الإدريسية وعلى .../...

المغرب الأقصى، وهو عبد الرزاق الخارجي(65).

إن هجومه على فاس كان مفاجئا، وبجماعة قبلية تعتبر مبدئيا من قبائل «الإمارة الإدريسية» وهي التي كانت في نفس الوقت من قبائل «تجمع حلف أوربة» بحوض نهر سبو، وهي «مديونة، ولواتة، وغياتة وغيرها من القبائل التي كانت مواطنها بين مدينة «صفرو» الحالية وجبل «بويبلان» فهي إذن ثورة الجهات الجبلية الجنوبية التبي يسقي ماء أنهارها مدينة فاس، ويبني خشبها مباني نفس المدينة، وتعبرها قوافلها التجارية إلى الجهات الجنوبية المغربية. لذلك نتساءل ماذا حدث في العلاقات الإجتماعية والإقتصادية بين المدينة فاس والبادية وهي تجتاز أزمتها في منتصف القرن الثالث الهجري /9م؟.

نفترض مبدئيا أن يكون قد حدث في حلف قبائل الإمارة الإدريسية تصدع نتيجة للأوضاع الجديدة في تاريخ المدينة، وفي تاريخ الإمارة الإدريسية خصوصا وأن قبيلة مديونة وأوربة عرفتا منافرة بلغت إلى مستوى الصراع

.../... عاصمتها فاس بالذات، ولكن هذا الهجوم انطلق من المناطق التي تعتبر تابعة للأدارسة وهي الجهات الجبلية الواقعة في جنوبها (جبال فزاز). وهذا يسترعي الاهتمام الكبير من كل الجوانب. أنظر : البكري ص 125. القرطاس 112-115. إبن خلدون: العبر 27/4. إبن الخطيب ق 3 ص 208. الاستقصا ج 1 / 162. :.Beck (H.L.) L'Image d'Idris II, p.50.

(65) عبد الرزاق الخارجي: لانعلم عنه شيئا قبل ظهوره محاصرا لمدينة فاس في سنة 252هـ/866م على رأس قبائل الأطلس المتوسط، وكان ظهوره بصورة مفاجئة. ووصفته المصادر المتأخرة عن عصره بقرون وقرون بـ «الخارجي» فهل فعلا كان من الخوارج الصفرية كما تذهب الدراسات إلى ذلك؟ (أنظر: محمود إسماعيل : الخوارج ص 138. ج مؤنس: تاريخ المغرب 389/1-390. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي 472/2-473. ليفي بروفانسال: تاريخ إسبانيا المسلمة ج 2 ص 81-82 بالفرنسية). أم كان من نوع آخر، تحرك من أجل هدف آخر؟.

المسلح والحرب المعلنة[66]. وجميع المصادر والأبحاث التي أمكننا الرجوع إليها، لم تذكر تاريخ هجوم هذه القبائل بقيادة «عبد الرزاق الخارجي» على مدينة فاس، كما أنها إقتصرت على ذكر خبرين أحدهما متعلق بخبر الهجوم في عمومياته، وثانيهما وهو خبر تولية الأميرين الإدريسيين «علي بن عمر» و«يحي المقدام بن القاسم». وضمن هذين الخبرين ذكرت خبر الانقسام الداخلي لمدينة فاس الكبرى.

وهذا الوضع الغامض القلق والمضطرب يستمر فترة طويلة من تاريخ المدينة في القرن الثالث الهجري /9م. من 252هـ/866م إلى 292هـ/905م أي 40 سنة. وهي فترة زمنية غامضة جدا من تاريخ فاس. وفي نظرنا أن هذه المرحلة تأثرت فيها البنية الحضرية بالصراع القبلي البدوي، فكان انقسامها إلى مدينتين مستقلتين، نتيجة للإنقسام القبلي في بواديها.

وبناء على ذلك نرى أن تدخل قبيلة «مديونة»[67] بزعامة عبد الرزاق،

---

(66) المصادر تجعل الحرب والصراع على تولي الحكم والإمارة في العاصمة فاس فجعلوها حربا على الرئاسة والشرعية، في حين الأمور تتحكم فيها التنظيمات القبلية المتسمة بظاهرة الاستقلال القبلي. أنظر : اليعقوبي ص 357 (223). البكري : المسالك ص 125 (807 فقرة 1351). إبن عذاري 212/1. إبن أبي زرع القرطاس ص 112 (78-79). ابن خلدون: العبر ج 15/4. إبن الخطيب: أعمال الأعلام، ق 3 ص 208-209. الإستقصا 162/1-4.

Marçais : La Berbérie Musulmane, p.126.

Eustache (D): Corpus des Dirhams, P.18, Note 15.

Lewicki (T): Midyuna , Art. E.I. 2ème , T.VI, pp. 1035-7.

(67) قبيلة مديونة في المصادر القديمة تعتبر «تجمعا قبليا» مكونا من مطماطة ومدغرة وصدينة ومغيلة، وملزوزة (حسب ابن خلدون). وكشاتة وضريسة.

.../...

لايمثل إلا موقفا قبليا انقساميا في حلف أوربة. فانتصار عبد الرزاق في مدينة «الأندلس» مدينة جند الامارة الإدريسية، أدى إلى فرار الأمير الإدريسي «علي بن عمر» إلى «مكناسة الزيتون» المركز القبلي للحلف الأوربي. لكن متى حدث ذلك وكيف؟ هذا ما نجهله وتسكت عنه المصادر، وأقدم نص متعلق بالموضوع هو ماذكره البكري على قدر ما نعلم، يكتفي بذكر الخبر بدون تدقيق ولاتفصيل(68). ثم جاءت بعده تأويلات وتفسيرات، وأهمها ما طرح سياق كلام البكري في تاريخ العلاقة بين صفرية سجلماسة وزيدية فاس، وهذا لايفسر الإنقسام الداخلي للمدينة كلها. ومن هنا كان علينا أن نقرأ الحدث من زاوية البناء الإجتماعي القبلي والإقتصادي لمدينة فاس الكبرى في هذه الفترة. وهو ما نراه واضحا في أحداث تاريخها في القرن الرابع الهجري /10م.

وهكذا نرى أن حركة قبيلة «مديونة» بزعامة عبد الرزاق الخارجي، ماهي إلا بداية لحركة «موسى بن أبي العافية» في أوائل القرن الرابع الهجري. فكلاهما حركتان من نفس المنطقة إلى فاس، وموجهتان ضد حاف أوربة. وإذا

.../... فمديونة هي تجمع قبلي ظهر في القرن الثاني الهجري/8 م.بين تلمسان وحوض نهر ملوية ثم غرب مضيق تازا إلى الضفة الجنوبية لنهر سبو قرب مدينة فاس في القرن الثالث الهجري/9م. وكانوا قبل هذه المرحلة موزعين في المنطقة الممتدة بين ليبيا والمغرب الأقصى. ولعل أهم إشارة وأقدمها تسجل إسم «مديونة» نجدها في مصادر الفتح الإسلامي للأندلس، حيث تكلمت على وجود عناصر قبيلة مديونة في جيش طارق بن زياد. كل ذلك يقوي وجود علاقة بين «مديونة المغرب الأقصى» بصفرو جنوب فاس وما يجري في نهاية القرن الثالث الهجري /9م بعدوة الأندلس من مدينة فاس الكبرى. أنظر : لويكي: الموسوعة الإسلامية ج 6 ص 1035 وص 1036 (الطبعة بالفرنسية).

(68) أنظر : البكري: المسالك ص 124 (807). اليعقوبي : البلدان ص 357 (223 من ترجمته إلى الفرنسية). إبن عذاري: البيان المغرب ج 1 / 211-212.

حاولنا أن نضع هجوم» عبد الرزاق الخارجي» على مدينة فاس في الإطار الزمني التاريخي، فإننا لانستطيع تحديده بدقة، ولكن المعطيات العامة تقربنا من ذلك على الأقل.

أولا : نجد إبن أبي زرع[69] يربط دخول الأمير الإدريسي: «يحي المقدام ابن القاسم بن إدريس الثاني» إلى فاس بطرد عبد الرزاق من المدينة ولكنه لايعطي تحديدا زمنيا لذلك. مما يضفي الغموض علي منطق أحداث مدينة فاس في هذه الفترة، كما أن ضرب العملة بإسم «علي بن عمر» في دار الضرب بفاس «العالية» نلاحظ توقفه منذ سنة توليته سنة 252هـ/866م. هذه السنة التي عرفت ضرب العملة برسم «علي بن عمر»، واحتفاظ العملة الفاسية بشعار الوحدة السياسية وهو «المنتصر بالله»[70]. ولم يظهر بعد هذه السنة - بناء على دراسة أوسطاش - الدرهم الإدريسي المضروب في فاس ابتداء من سنة 252هـ/866م، كما لم تظهر العملة الفاسية المضروبة بإسم زعماء المدينة الآخرين من غير أبناء بني إدريس الثاني. ولم تضرب العملة الإدريسية بعد سنة 252هـ ألا في دور الضرب بخارج مدينة فاس[71] بإسم الأمراء الأدارسة: عيسى في سنة 267هـ وداود سنة 270هـ/884م.

لعل هذا الوضع النقدي المتأزم في فاس أو على الأقل المجهول لدينا، يعبر عن دخول المدينة في أزمة كبرى، صارعت فيها من أجل توازنها الإجتماعي. فلم يضرب الأمير «يحيى المقدام بن القاسم «عملته في فاس على قدر ما نعلم. وكأن الإمارة الإدريسية في فاس لم تكن قائمة سياسيا، ولم تكن كذلك السلطة

---

(69) القرطاس ص 79-80.

(70) أوسطاش (د) : الجامع في الدراهم الإدريسية ص 70.

(71) نفسه ص 178-179 (الجدول) .

المالية موجودة. وهذه الوضعية لاتمثل إلا مرحلة سيطرة الفرضى والأزمة الإجتماعية الداخلية التي سببتها عوامل كثيرة: أهمها أن السنوات التي جاءت بعد سنة 252هـ/866م تلاحقت فيها النكبات والأزمات الإقتصادية المزمنة :

ثانيا: في سنة 253هـ/867م بدأت أزمة القحط والمجاعة واستمرت إلى سنة 265هـ/879. حتى غاضت المياه[72]. وعم القحط والغلاء جميع بلاد الأندلس والمغرب وإفريقية ومصر والحجاز، وعدمت الأقوات فهلك خلق كثير. وأكملت المأساة ب «زلزلة عظيمة لم يسمع بمثلها، تهدمت منها القصور، وانحطت منها الصخور من الجبال، وفر الناس من المدن إلى البرية من شدة اضطراب الأرض» في 22 شوال سنة 267هـ/26 ماي 881م. ثم استمرت سلسلة الأزمات في آخر القرن الثالث الهجري /9م فكانت المجاعة الشديدة التي عمت جميع بلاد الأندلس وبلاد العدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضا، ثم أعقب ذلك وباء ومرض وموت كثير، هلك فيه من الناس مالا يحصى، في سنة 285هـ/898م[73].

هذه الوضعية الصعبة على مستوى الضغوط الطبيعية التي تركزت وتلاحقت طيلة النصف الثاني من القرن الثالث الهجري /9م من شأنها أن تحدث شرخا إجتماعيا في المدينة وباديتها، ويؤدي ذلك إلى اختلال التوازن في حياة مجتمع فاس الذي كان مرتبطا أوثق إرتباط بالمجتمع القبلي المغربي وخصوصا الجهات القريبة منها. ومن هنا يكون سكوت المصادر ناتجا عن طبيعة المرحلة التي كادت الحياة تتوقف في المجال العام. في البادية والمدينة.

(72) القرطاس ص 96. الإستقصا 164/1. ابن حيان : المقتبس (القطعة التي حققها محمود علي مكي ط بيروت 1973) ص 324،321. وعن مجاعة سنة 261 هـ أنظر ص 343.

(73) ابن أبي زرع: القرطاس ص 97-98. الإستقصا ج 1 ص 146.

هذه الوضعية تجعلنا نرجع وقوع هجوم قبيلة مديونة على فاس بين سنتي (253هـ - 265هـ) وكان رجل الزعامة في هذه الأحداث «عبد الرزاق الخارجي الأندلسي».

لعل هجوم القبائل الجنوبية والواقعة بين «صفرو» وجبل «بويبلان» بنواحي مدينة «تازا»، لم يكن في هذه المرحلة (النصف الثاني من القرن الثالث الهجري /9م) مبنيا على «مسألة الشرعية» في فاس، ومن أجل السلطة بقدر ماهو مسألة إجتماعية.

أما مدينة فاس الكبرى لايمكن لها أن تستعيد توازنها ووحدتها أمام تمزقها، وانهيار اقتصادها، وزاد في تعميق هذا الوضع موقف الأمير الإدريسي «داود بن إدريس الثاني»[74] الذي كان واليا على: هوارة (تازلت) أو تاسلمت (بنطق السين بين الزاي والصاد، على الطريقة البربرية) وهي واقعة في

---

(74) داود بن إدريس الثاني: ظهر داود بن إدريس الثاني في قائمة الأمراء الأدارسة المعينين بعد وفاة إدريس الثاني (213هـ) على الجهات القبلية التابعة للأدارسة، وكان تعيينه على مديونة ومكناسة الجبل (تازة). وبعد وفاة الأمير «محمد بن إدريس الثاني» (221هـ) عرفت الإمارة الإدريسية تغييرات واضحة مست الأوضاع القبلية انعكست على مواقف الأمراء من مدينة فاس العاصمة. وفي هذا السياق كان موقف «داود بن إدريس الثاني» بعد سنة 221هـ/836م، هذا الموقف الذي يمكن أن نقول عنه أنه كان معارضا أو على الأقل كان غير راض لما يجري في فاس. بعد وفاة أخيه «محمد بن إدريس الثاني» سنة 221هـ. وهذا أيضا ما يفهم من كلام إبن عذاري (البيان 211/1): «... فملك إخوته أنفسهم، واستمالوا القبائل، وقالوا لهم: إنما نحن أبناء أب واحد، وقد ترون ماصار إليه أخونا يحيى من إضاعة أمره » يعني هذا أن داود بن إدريس الثاني يعتبر قد استقل بإمارته عن فاس منذ سنة 221هـ ويزكي هذا الاستقلال ماذكره اليعقوبي عن «داود بن إدريس الثاني»، رغم قلق واضطراب كلام الجغرافي اليعقوبي ـالبلدان ص 223-257). وعندما كان الأمير الإدريسي «يحيى بن يحيى بن محمد بن .../...

بلاد مكناسة الجبل (بالتسول)، وصدينة. فقد حارب أخاه يحيى الثاني (249هـ/ 863م - 252هـ/866م)، ونعلم أن «داود» توفي بين سنة 263هـ / 877م وسنة 270هـ/885م، وفي سنة 270هـ/885م ضرب إبنه «محمد بن داود» عملة بإسمه خارج فاس. هذا يعني أن داود بن إدريس وإبنه محمد لعبا دورا في أحداث المرحلة ابتداء من أواخر عهد يحيى الثاني الذي اشتهر بفضيحة «الحمام». ويعني أيضا أن «داود» قام بحملة على مدينة فاس انطلاق من جبال مكناسة وتسول وغياثة ومديونة. وفي الغالب أن توقيتها الزمني بين سنة 249هـ/ 863م. وسنة 252هـ/866م. وهذا ما يفسر أيضا دخول «داود ابن إدريس الثاني» إلى مدينة فاس قبل وفاته بعد سنة 263هـ/877م. وهذا التدخل الذي قام به «داود بن إدريس الثاني» في فاس متزامن مع المرحلة التي وضعنا فيها تاريخ هجوم «عبد الرزاق» على فاس. فهجومهما (داود وعبد الرزاق) من نفس المنطقة على مدينة فاس. ثم إن كلا من الأمير الإدريسي» داود» والثائر «عبد الرزاق احتل عدوة الأندلس، ولكن دخول وسيطرة الأمير «داود» بن إدريس الثاني سجلته لوحة تذكارية في مسجد القرويين[75]. تحمل إسمه وتاريخ إقامتها بجامع القرويين وهو سنة 263هـ/877م. ونصها: «إن الله وملائكته

.../... إدريس الثاني» يحكم فاس في سنة 249هـ/863م إلى سنة 252هـ/866م. نجد الأمير الإدريسي «داود بن إدريس الثاني » يحكم جزاءا منها، فكلا هما كان يخالف على صاحبه ويحاربه ويدافعه». Voir Eustache (D) : corpus p.47.

(75) اكتشفت اللوحة المذكورة التي تحمل تاريخا أخر لبناء جامع القرويين الذي نسبت بناءها للإمام داود بن إدريس الثاني في سنة 263هـ/877م، أثناء إجراء ترميمات بجامع القرويين، ودرسها الباحث الفرنسي «دفردان = Duverdun» وقدم دراسة عليها سنة 1957 ونشرها في :

Le Mélange d'Histoire et Archéologie , Alger, 1957, T.II. p.67-72.

.../...

يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما، شهد الله أن لا إله إلا هو سبحان الله العظيم. بني هذا المسجد في شهر ذي القعدة من سنة ثلاث وستين ومائتي سنة، مما أمر به الإمام أعزه الله داود بن إدريس أبقاه الله وأكرمه وكلاه ونصره نصرا عزيزا، وفتح له فتحا مبينا».

بناء على هذه المعطيات نخرج بالنتائج الآتية :

أولا: إن الإمارة الإدريسية دخلت في تنافس وصراع أسري (وعائلي) على مدينة فاس الكبرى، وكان ذلك بين أبناء محمد وعمر والقاسم وداود.

ثانيا: إن هذا التنافس اكتسى طابعا قبليا جهويا، بنو محمد في داخل مدينة فاس، وبنو عمر في الشمال الشرقي من بلاد غمارة (بمعنى جبال الريف الحالية) وبنو القاسم من منطقة الهبط وجبالة وطنجة وأصيلا والبصرة. وداود من منطقة تسول وتازة وغياثة ومديونة صفرو.

.../... وخلقت ضجة كبرى حول تاريخ تأسيس «جامع القرويين» وقد ناقش هذا الموضوع باستفاضة الدكتور عبد الهادي التازي في دراسته عن جامع القرويين (ج 1 ص 47، 48، 52، 53، وهوامش 28 و 29، 30، 31، 32، 33، 34، 35). والإشكال التاريخي الذي طرحته هذه اللوحة التذكارية في موضوع تاريخ بناء جامع القرويين هل بني في 245هـ أو 263هـ؟ وحاولت الأبحاث الجواب بافتراض تعرض جامع القرويين المؤسس في سنة 245هـ إلى تأثر البناء الأول لسيل مائي هدم الأول فاستدعي تجديده في سنة 263هـ رغم ما عرفته المدينة من صعوبات وأزمة اقتصادية واجتماعية. وبذلك يكون عمل الأمير الإدريسي داود عملا ترميما أو عبارة عن إحداث زيادات في الجامع المؤسس في سنة 245هـ ولكن هذا الإفتراض يتطلب تزايدا في عدد سكان مدينة فاس أو على الأقل في عدوة القرويين وهذا أمر محتمل لأن المجاعة القاتلة والمهلكة ستكون في سنة 285هـ/898م. أنظر: صورة هذه اللوحة في :د.ع. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 4 ص 23. وهذه اللوحة التذكارية توجد حاليا محفوظة في مصلحة الآثار المغربية بالرباط. وهي مكتوبة بخط كوفي يغلب على الظن أن يكون راجعا إلى تاريخها وهو سنة 263هـ.

ثالثا: إن حركة عبد الرزاق ماهي إلا وجها قبليا تأييديا لحركة داود بن إدريس الثاني أفضى إلى انقسام حلف أوربة المؤيد لثورة عامة المدينة الكبرى بفاس سنة 252هـ/866م.

رابعا: إن مدينة فاس دخلت مرحلة إنقسامية وغامضة مما جعل طابع التراجع التمديني أهم ما يميز وضعها في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي. واستمر هذا الوضع في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

مدينة فاس المستقلة في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/10 م

انتهى القرن الثالث الهجري /9 م ومدينة فاس لم تحل مشكلتها الكبرى، وهي مشكلة الانقسام الى عدوتين مستقلتين، فاستمر الوضع فيها مبنيا على زعامتين حاكمتين فيهما، كما استمر مسجد الأندلس ينافس جامع القرويين، والأهم من هذا وذلك أنها فقدت شخصيتها النقدية التي استمرت بعد مؤسسها إدريس الثاني.

أسفر وضع المدينة في نهاية القرن الثالث الهجري /9 م، عن ازدياد ضعف نفوذ الأمراء الأدارسة، وتعدد الزعامات داخل العدوتين بفاس فكان الأندلسيون في عدوتهم هم زعامتها في هذه المرحلة، ومثلت تلك الزعامة أسرة «ثعلبة بن محارب» (76) من عرب الأندلس المهاجرين إلى فاس. وكانت عدوة القرويين خاضعة للأمير الإدريسي «يحيى بن القاسم»(77) المعروف في المصادر بالمقدام (وحرف هذا الوصف إلى صيغ متعددة وأشهرها الحجام والعوام أو العدام)/ واستمر في الحكم الى سنة 292 هـ/905 م حيث يظهر أنه قتل في مؤامرة سرية دبرها حكام عدوة الأندلس الذين كان على رأسهم « ثعلبة بن محارب بن عبد الله المهلبي»(78). و كان هؤلاء من عرب

---

(76) القرطاس، ص 52 (79)، الاستقصا ج1 ص163 . سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب 476/1 .

(77) أوسطاش : الجامع في الدراهم ص 40 وهامش 1 .

(78) نفسه والصفحة والهامش.

الأزد الذين ينحدرون من المهلب بن أبي صفرة، دبرت مؤامرة اغتيال الأمير الإدريسي» يحي المقدام» في عدوة الأندلس ونفذها » ربيع بن سليمان ».

وبعد اغتيال «يحي بن القاسم» عين على رأس الإمارة الادريسية بفاس الأمير « يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس الثاني» سنة 292 هـ/ 905 م واستمر إلى أن عزله الجيش العبيدي الفاطمي في حملته الكبرى على بلاد المغرب الأقصى سنة 308 هـ/920 م[79]، وبذلك دخلت مدينة فاس عهدا جديدا من التمزق والانشطار.

لقد عالجنا مسألة التدخل الفاطمي في الحملة الأولى التي شنها الجيش العبيدي على الجهات الغربية منذ سنة 296 هـ/909 م، وعالجنا مسألة حملة مصالة ابن حبوس المكناسي في سنة 305 هـ/918 م. وما أفضت إليه من نتائج سياسية وعسكرية، والآن نحاول أن نعالج الوضع بالنسبة لمدينة فاس.

فالمعطى الأول والأساسي هو أن المدينة بعدوتيها وقفت ضد الهجوم العبيدي، كما أن الانتصار الفاطمي على المدينة لم يكن عملية سهلة في كل حصار عسكري لها.

والمعطى الثاني، أن مدينة فاس لم تكن وضعيتها المالية والإقتصادية مرضية مما يساعدها على مقاومة الحصار وتدخل الجيوش الكبرى، وتوقف أو على الأقل ضعف دار ضرب العملة يعبر على ذلك.

والمعطى الثالث هو أن درعها القبلي في البوادي القريبة لم يكن متضامنا وإنما كان منقسما، فقد انفصلت القبائل الواقعة في الجنوب الشرقي (فزاز) عن حلف « أوربة»، حيث ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري /9 م مجموعة «مديونة» ضد حلف أوربة، وأدى هجومها

---

(79) نفسه ص41 وما بعدها من الأصل بالفرنسية.

على فاس بزعامة «عبد الرزاق الخارجي» إلى انحياز قبائل مجموعة مديونة إلى جبهة المعارضة لحلف أوربة، وبحكم الهزيمة المديونية، من الطبيعي أن تتحول زعامة هذه القبائل إلى الزعامة الجديدة والناشئة في المنطقة وهي جماعة «حلف مكناسة الجبل» ورجل الزعامة فيها هو «موسى بن أبي العافية».

والمعطى الرابع هو أن طريق جيوش الفاطميين من المغرب الأوسط إلى فاس وشمال المغرب الأقصى، هو مضيق «تازا» ولا تصل هذه القوات إلى فاس إلا بعد أن تقوم بعملية تمشيطية، وقد عهدنا ذلك في تاريخ الفاطميين في بلاد البربر.

والمعطى الخامس هو أن البنية البشرية في المدينة متنوعة وبدأت زعامة البيوتات في العدوتين تطغى على زعامة جند القبائل فيها.

كل هذه المعطيات مع ملاحظة اعتبارات اجتماعية أخرى، تجعلنا نتصور «مدينة فاس» في بداية القرن الرابع الهجري /10 م، مدينة مريضة تبحث عن خلاصها، والمعضلة الأساسية هنا يعبر عليها موضوع تولية مسؤولية حكم المدينة لرجل قبلي كان أمثاله من التابعين لها ولرجال الحكم فيها، نعني هنا تولية موسى بن أبي العافية» المكناسي على فاس. فهل هذا هو خطأ الفاطميين العبيديين مع أهل فاس؟ أم أن الأمر مرتبط بتصرفات ومواقف أخرى؟ ثم إن هذا الوضع الجديد حول سادة الأمس إلى مسودين اليوم بالإضافة الى مصادرة أملاكهم وإذلال كبرياء كبرائهم، وملاحقة وجهائهم. وهكذا جرد النظام الجديد مدينة فاس من مضمونها التاريخي باعتبارها عاصمة للدولة الادريسية» وحولها الى مجرد مركز لولاية من ولايات الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الكبير. ويضاف الى ذلك كله تأثر مدينة فاس بالصراع الجهوي عليها. فتنافس الأمراء الأدارسة الذين كانوا

موزعين في الجهات المختلفة من المغرب الأقصى (الريف وغمارة والهبط، ووليلي، جبال تازة وبويبلان، ثم سلا وأغمات ...) كل ذلك عمل على توجه كل جهة نحو فاس ودعم من تولى من الأدارسة، إلا أن الجهات المحيطة والقريبة من مدينة فاس كانت أقوى تأثيرا وفعالية، ومن هنا سيتخلص التنافس الجهوي على مستوى المدينة وتركيبها الإجتماعي في القرن الرابع الهجري 10/ م بين القبائل الواقعة في شمال الضفة اليمنى لحوض نهر سبو (الريف، وبلاد غمارة والهبط). وبين القبائل الواقعة في جنوب الضفة الجنوبية لسبو (مكناسة الزيتون وصفرو وبويبلان).

عاد الأمر الى رئاسة الإمارة الادريسية بفاس، إلى أبناء عمر بن ادريس الثاني. فقد بويع في عدوة القرويين من فاس العاصمة الأمير «يحيي بن إدريس ابن عمر بن إدريس الثاني» سنة 292 هـ/ 905 م واستمر أميرا بفاس الى أن عزله عن المسؤولية سنة 305 هـ/ 918 م مصالة بن حبوس، وولى مكانه موسى بن أبي العافية. ثم أنهى الموضوع سنة 307هـ/ 919 م. وقدم «يحيي الرابع» إلى فاس من غمارة « فدخلها ورجع الأمر إلى بني عمر، فلم تزل بيد يحيى حتى قدم مصالة بن حبوس سنة سبع وثلاثمائة»(80)

إن الخطر الحقيقي الذي هدد كيان الأدارسة هو الحلف المكناسي(81). الذي استكمل تكوينه في بداية القرن الرابع الهجري، وقد أفادنا المؤرخ

---

(80) البكري : ص125 (808 فقرة 1351)، وفقرة 1353.

(81) مكناسة: سبق لنا أن وقفنا عندها في فصول هذه الدراسة، وخاصة في الفصل الثاني من الباب الثاني، ص ولكن في بداية القرن الرابع الهجري 10/ م. نبه الباحث « التام="J.D.Latham"أنظر: E.I.2ème T.VII, p.641. في مقالته عن موسى بن أبي العافية، وكذلك «فونك- برونتانو» في بحث « مكناس ». بنفس الموسوعة، والجزء ص37 .

الأندلسي ابن حيان[82]، بمنظومته القبلية في رسالة رسمية أرسلها «موسى بن أبي العافية» إلى الخليفة الأموي بقرطبة في سنة 323 هـ/ 935 م[83] فقال وصارت إلينا قبائل أهل المغرب بأجمعهم من كل مكان حول فاس ». ثم يذكر تلك القبائل التي كونت حلفه القبلي الذي تزعمته في هذه المرحلة قبيلة مكناسة الجبل بالمغرب الأقصى:

« من زواغة ولماية. ومن درعة (كذا) ومكناسة، أهل الجبل وجيرانهم نفزة أهل الظواعن من بني مرزحون وبني مدساع (كذا)، وبني حماية (كذا)، وبني يرناين وبرنازة، وبني محمد، ومديونة، أهل مدهن، وجراوة أهل أغريس، وزناتة من بني سنان، وحيمال، وبني مراين، وبني دهنة. ومجاصة، وبني مصلان، ومن كان على ملوية، وصاع من قبائل بني راسن، وبني يفرن، وبني يزناسن، وبني وريمش، مطماطة أهل ملوية الى حوز جراوة بن أبي العيش، إلى ما أحاط بنا نحن من قبائل البربر، من مكناسة وأوربة، وهوارة، وصدينة، ونفزة، ولماية، وكرناطة، وصاريوة، وقاصونة، ولواتة، وسماتة، وبني مسرة، أهل نفدلاوة، وقبائل غيرها».

هذا الجرد القبلي الذي كان مكونا لقوة موسى بن أبي العافية في سنة 323هـ/935 م. هو الذي تمكن به «موسى» أو على الأقل بقبائله الواقعة قرب مدينة فاس، تحقيق زعامة في المنطقة، ولعل التدخل الفاطمي في مدينة فاس سنة 305 هـ/918 م لعب دورا كبير لصالح إبن أبي العافية.

---

(82) ابن حيان: المقتبس، ج5 ص370 (ورقة 251).

(83) والأشكال الذي طرحته هذه الوضعية خاص بتخلي قبائل هذه الجهات عن الأدارسة، خصوصا وأن الأمير الإدريسي داود كان أميرا على هذه المنطقة الجبلية من صفرو إلى تازة وهي المنطقة المركزية لحلف مكناسة الجبل بزعامة موسى بن أبي العافية؟

وأيضا يظهر أن «اتحادية مكناسة الجبل» هاته وجدت في فشل حركة مديونة بزعامة عبد الرزاق الخارجي منطلقها، كما وجدت زعامتها في موسى بن أبي العافية رجل أظهارها على مسرح الأحداث بين (305 هـ/918 م-328 هـ/940 م).

فالهدف الذي يمكن أن نضع فيه أحداث وتصرفات موسى بن أبي العافية هو العمل من أجل تحقيق رئاسة قبلية لـ « مكناسة الجبل»(83). ولذلك تقلب موقفه وتأييده بين الشيعة العبيديين الفاطميين. وبين الأمويين الأندلسيين. وكان مسرح التنافس المقرر لكل ذلك هو مدينة فاس، والسيطرة على أمرائها الأدارسة، هو مفتاح الوصول إلى هدف الحلف المكناسي الجبلي بالمغرب الأقصى.

فكيف كانت أوضاع المدينة أمام تطور بواديها التي امتازت بحركة قبائلها والمتأثرة بالتدخلات الفاطمية المباشرة (حملات مصالة، وحملة ميسور الخصي، ثم حملة جوهر الصقلي).

كانت فاس بعدوتيها قبيل الغزو الفاطمي في سنة 305 هـ/918 م منقسمة بين «يحي الرابع» من عمر بن إدريس الثاني، الذي كان أميرا على عدوة القرويين، وبين الزعامة العربية « بني ثعلبة» من الأزد. و بالتالي كانت عدوة الأندلس تحت نفوذ الارستقراطية التي هاجرت اليها من ربض قرطبة. ثم توحدت المدينة كلها أثناء محنة الحصار الفاطمي عليها. وكان «يحيى الرابع»(84) هو زعيم مقاومتها ضد « مصالة بن حبوس» قائد غزو الجهات الغربية في سنة 305 هـ/918 م. ولكن التدخل العسكري الفاطمي

---

(84) البكري: ص 125 (808)، ابن عذاري 119/1 . ابن أبي زرع ص80 . ابن خلدون: العبر 32/4 ، 274/6 ، 52/7 حيث يذكر ابن خلدون أن الأمير الادريسي يحي الرابع « خلع نفسه ودان بطاعتهم» أي طاعة العبيديين.

أسقط مدينة فاس في يد العبيديين. وبذلك أخذت الدولة الادريسية تلفظ أنفاسها. وتحولت عاصمتهم الي وضع آخر سياسيا واجتماعيا.

والسؤال الآن بالنسبة لمدينة فاس باعتبارها أهم حواضر المغرب الأقصى، هل مشكلتها مع شرعية الحكم الفاطمي العبيدي الشيعي الاسماعيلي؟ أم مسألتها قائمة في صراعها مع القبائل البدو، الذين يرأسهم موسى بن أبي العافية؟ و بالتالي هل الموضوع خاص بالأسرة الادريسية أم متعلق بصراع البدو والحضر؟

إن المصادر تعالج الموضوع في سياق مصير الأسرة الادريسية، وعودنا الفاطميون أن يكونوا قساة مع خصومهم في مدينة «نكور» بشمال المغرب، ومع بني مدرار بسجلماسة، ولكنهم كانوا في فاس مكتفين بدخول المدينة وعزل أميرها ومصادرة أموالها.

فكانت تصفية الإمارة الادريسية[85]، تعني دخول المدينة (فاس) بعدوتيها في مرحلة صراع قواتها الاجتماعية مع القبائل المحيطة بها، ومع السلطات النظامية الكبرى من عبيديين وأنصارهم في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، وإن استبدال الفاطميين لحكم مدينة فاس من موسى بن أبي العافية بشخصية كتامية وهي «ريحان الكتامي» في حملة مصالة

---

(85) فالتصفية التي نعنيها هي التصفية السياسية، ولعل الموقف الذي انتهت به حياة يحيى الرابع في إفريقية في المهدية بالذات 334 هـ/946م، تعبر على الموقف السياسي الذي وقفه العبيديون من الإمارة الادريسية. البكري: 125 (808). إبن خلدون: العبر 32/4 . أوسطاش: الجامع في الدراهم ص18هامش 23 و ص20 هامش 71 (ص41 حيث عالج نهايته وكذلك في ص 117 هامش 21). وقد رجعنا الى مصادره في الموضوع ولا داعي لتكرارها ونضيف الى ذلك المتابعة المصدرية التي قام بها الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج2 ص.ص87-90 .

الثانية على فاس سنة 307 هـ/920 م، ما هي إلا نتيجةللسخط الإجتماعي الفاسي على ما حدث عندما ولي عليهم موسى بن أبي العافية. فقد اعتبر ذلك من باب استبدال الذي هو أعلى (الأدارسة) بالذي هو أسفل (موسى بن أبي العافية). ومع ذلك لم تحل المشكلة. حيث ظهرت شخصيات فاسية وإدريسية تعمل بجدية على استرجاع الأمور الى نصابها وكانت شخصية «حسن بن محمد بن القاسم بن إدريس الثاني»(86) هي التي تولت المقاومة والزعامة الجديدة ضد الفاطميين.

صارت مدينة فاس موحدة من جديد تحت راية « *الحسن الحجام* » في سنة 310 هـ/926 م. بعد أن خلصها من «حكم ريحان الكتامي» الذي تولى حكمها باسم العبيديين الفاطميين. وعبأ المدينة (فاس) بعد أن انضافت إليه القبائل الشمالية (غمارة)، وكون من الجميع قوة عسكرية ليحارب بها أعداء الإمارة الادريسية وحاضرتها فاس، وآنئذ كان الخصم الرئيسي هو حلف مكناسة الجبل بزعامة« موسى بن أبي العافية» وخرج « الحسن الحجام» إلى مكناسة التي تهيأت بدورها لحرب أهل فاس وزعامتهم، فكانت الحرب شديدة في شرق فاس حيث دارت المعركة الحاسمة في «وادي المطاحن»(87) (وهو واد اللبن أو إيناون) في سنة 311 هـ/924 م. وانهزم فيها جيش إبن أبي

---

(86) حول زعامة حسن الحجام للحركة الإدريسية الجديدة. أنظر: البكري: 126-127 (810 فقرة 1355-1356). القرطاس ص82 . أوسطاش الجامع في الدراهم، ص21 هامش 89 ، و ص 41-42 .

(87) إبن خلدون: العبر 32/4 . حيث أشار الى جذور الخلاف بين الأدارسة وموسى بن أبي العافية « وكان بين موسى بن أبي العافية وبين يحيى بن إدريس شحناء وعداوة يضطغنها كل واحد لصاحبه». 274/7-275 حيث ذكر إسم ميدان المعركة وهو « فحص أداد بين فاس وتازة» ثم أضاف «ويعرف لهذا الا عهد بوادي المطاحن».

العافية، وفقد فيها إبنه «منهال»[88] في بداية أيام المعارك. ثم انتهت أحداثها بهزيمة جيش فاس، فعاد الحسن الحجام إلى فاس مفلولا، ولكن نتيجة المعركة غيرت الموقف التأييدي له، حيث انقلب عليه عامله على فاس «حامد بن حمدان الهمداني»[89]. وتحول إلى تأييد موسى ابن أبي العافية، الذي طارد الحسن الحجام وجيشه، ولكن هذا التأييد كان مشروطا بعدم تسليم الأمير الادريسي، لموسى قصد الاقتصاص منه مقابل مقتل «منهال» في وادي المطاحن. ولم يقبل هذا الشرط، مما غير الموقف الفاسي من موسى، واحدث موقفا جديدا لزعيم مكناسة. فصار الوضع ذا أبعاد جديدة. ملخصها كالآتي:

أولا:رأي أهل فاس بعد هزيمتهم اتجه نحو تأييد الفاطميين بافريقية والمهدية.

ثانيا:رأي موسى ابن أبي العافية المنتصر على حسن الحجام هو الاستقلال تماما عن الفاطميين وتكوين إمارة مكناسية عاصمتها فاس.

ثالثا: رأي فلول الأدارسة هو العمل على بقائهم وشرعية إمارتهم.

وأسفرت الأحداث عن سيطرة موسى ابن أبي الهافية على فاس. كما أسفرت عن انقسام حقيقي في مواقف أهل فاس بعدوتيها: القرويين والأندلس، وفي جميع الحالات أصبح ابن أبي العافية رجل الساعة في فاس. وبالتالي فتحت أبواب المدينة أمام رجال القبائل التابعة لحلف مكناسة

---

(88) يظهر أن الأحداث خطط لها «موسى» تخطيطا كمائنيا، ونجحت خطته رغم مقتل ولده «منهال». كما يظهر أنه لم يكن يحارب لا باسم الشيعة العبيديين، ولا بإسم أي شعار مذهبي. مما يؤكد حقيقة الحرب القبلية، ضد مدينة فاس.

(89) البكري ص 126 (808-809). القرطاس ص 82-83 .، العبر 32/4-33 ، 275/7 . الاستقصا 167/1-168 .

الجبل، فهي فعلا هجمة البداوة المنتصرة على المدينة الكسيحة منذ سنة 305هـ/918 م.

وظهرت معالمها في ملحمة دخول جيش موسى بن أبي العافية الى العدوتين الفاسيتين، وبذلك خلا الجو لموسى بن أبي العافية ليس للاستلاء على فاس فقط، بل ولتكوين دولة مغربية عرفت عند الكتاب باسمه[90].

والآن ماذا أعطت التجربة الشيعية العبيدية الفاطمية في مدينة فاس من 305 هـ/ إلى 312 هـ؟

لتلمس ثوابت تلك التجربة، نترك قعقعة السلاح وسفك الدماء، وحديث الصراعات الدموية، وننتقل الى الحياة العامة اليومية في الأسواق، والمطاحن، والأزقة، والمساجد، والمساكن والبيوت، ثم شرائح المجتمع الأخرى من أهل الذمة إلى الخدم والحشم والسوقة بمعنى اليد العاملة في المدينة.

في الواقع، المادة المصدرية لا تهتم بهذه الجوانب تفصيليا، وحتى وإن أشارت إلى بعض تلك الجوانب، فإن ذكرها لها يأتي استطرادا وعرضا. ففي ترجمة الإمام الادريسي «يحيي الرابع» تطنب كتب الأنساب والتراجم المغربية في وصف عهده بأوصاف تدل على وجود الاستقرار، والازدهار. فقد كان يعقد المجالس العلمية، وكان ينسخ له الكتب عدد من الوراقين. وبرزت في عهده بيوت فاسية علمية مثل بيت «بني بكار» الذين تعاقب بعض أفرادها على مناصب العلم والقضاء بمدينة فاس[91]. وعرف جامع القرويين

---

(90) الدكتور سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي 104/2 وهامش102

(91) عبد الهادي التازي: جامع القرويين، ج1 ص49 ، 108-109 . ثم ص153 ترجمة 7 و 8 . ثم أنظر ابن أبي زرع: القرطاس ص80-81 . الاستقصا ج1 ص165 مفاخر البربر ورقة 41 .

تحولا بترسيم «الخطبة» فيها بدلا من مسجد الشرفاء[92]. وازداد قاصدوا المدينة. من بواديها، ومن الأندلس ومن إفريقية وغيرها.

ولكن تسوية المشكل السياسي الذي طرحه الجيش العبيدي في فاس طيلة (305 هـ- 308 هـ/ 918 م-921 م)، أدى إلى انقسامات اجتماعية وسياسية خطيرة على مصير المدينة (فاس).

والمعضلة التاريخية سياسيا واجتماعيا في فاس خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري /10 م. وهي مسألة المواقف الداخلية لسكان فاس في هذه الفترة. فمسألة الخلاف الداخلي بين الأمراء الأدارسة في المدينة ومؤيديهم من بيوتاتها الذين يكونون ارستقراطيتها، وكذلك أشياخ وزعماء القبائل البربرية المنقسمين في مواقفهم واتجاهاتهم، وخاصة الخلاف بين أشياخ قبائل حلف أوربة جند الامارة الادريسية وبين مؤيدي الخلافة العبيدية الفاطمية مثل إبن أبي العافية زعيم مكناسة الجبل بجنوب شرق مدينة فاس في أول حركته الكبرى، ثم بعد تغير موقفه الى الأمويين الأندلسيين وكذلك موقف خلفائه من أبنائه.

فقد قبل الأدارسة بزعامة « يحي الرابع» الطاعة العبيدية، فلماذا لم توافق الخلافة الفاطمية على استمراريتهم تحت طاعتها؟ ثم لماذا تغير موقفها من موسى بن أبي العافية؟ فهل يرجع الأمر إلى وجود تقاطع بين سياسة الخلافة وفوضوية القبائل البدوية في المدينة بزعامة موسى بن أبي العافية؟ ثم هل فعلا كان ابن أبي العافية مصرا على إنشاء إمارة مكناسية في مدينة فاس على أنقاض الإمارة الادريسية؟ أم جاء موقف موسى بن أبي العافية الذي تمثل في مطاردة الأدارسة نتيجة لتطور أحداث العقد الأول من القرن الرابع الهجري /10 م؟

---

(92) التازي : جامع القرويين ص49 .

هذه أسئلة متداخلة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا. وليس من السهل الجواب عليها وخاصة أن المادة المصدرية ضنينة جدا. سواء كان الأمر متعلقا بالأوضاع العامة للمغرب الأقصى أو بمدينة فاس في واقعها الاجتماعي.

تبعا لما جاء في المصادر الفاطمية والمغربية عموما، فإن الفاطميين بدأوا مطاردتهم لـ «زناتة» من وطنها بالمغرب الأوسط كما يقول ابن خلدون في حملة مصالة الثانية سنة 309 هـ/ 921 م[93]. وسار في اتباعه زناتة في نواحي المغرب فكانت بينه وبينهم حروب هلك مصالة في بعضها على يد محمد بن خزر». ويحدد ابن عذاري تلك المتابعة الملحمية الكبرى بتاريخ 312 هـ/924م[94].

واستمرت هذه المتابعة الفاطمية للقبائل المغربية الرافضة للطاعة في كل حملة من حملاتها على الجهات الغربية:

1- حملة سنة 315 هـ/ 928 م[95]، التي قادها بن الخليفة الفاطمي أبو القاسم محمد، الذي وصل إلى مدينة بالريف المغربي - حسب رواية ابن خلدون - الذي يضيف أن أبا القاسم «دوخ أقطار المغرب». والمؤكد أنه توقف بحوض نهر ملوية بما في ذلك مدينة جراوة شمالا وتامغيلت جنوبا.

---

(93) ابن خلدون: العبر 81/4 (وفي ترجمة دي سلان ج2 ص35). ابن عذاري: البيان 185/1 .

(94) ابن عذاري: البيان ج1 ص189 ، عبد الله العروي: تاريخ المغرب ص 128 (الأصل بالفرنسية في طبعته الأولى).

(95) ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد ص49 (ط تونس 1987) و ص12 من الطبعة المصرية. ابن عذاري 191/1 . العبر 82/4 .

Dachraoui (F): Califat: p.152-153.

2-حملة حميد بن يصل سنة 319 هـ/930 م[96] . وهذه الحملة كانت موجهة إلى المغرب الأقصى لضرب موسى بن أبي العافية الذي غير موقفه من الشيعة الفاطميين إلى موالاة الخلافة الأموية الأندلسية. وتمكن القائد الفاطمي من سحق موسى بن أبي العافية بفحص «مسون». ثم توجه حميد بن يصل إلى مدينة فاس فدخلها وولى عليها حاكما شيعيا هو «حامد ابن حمدان الهمداني» خلفا لمدين بن موسى بن أبي العافية الذي فر منها عندما وصلها الجيش الفاطمي. ثم عاد القائد العبيدي بن يصل بعد ذلك إلى إفريقية بعد تغيير أوضاع فاس لصالح الفاطميين مؤقتا.

وبعد ذلك جاءت الأخبار بسرعة الى مدينة فاس تخبر بوفاة الخليفة الفاطمي «عبيد الله» الذي توفي سنة 322 هـ/934 م وأخبرت ببيعة إبنه «أبي القاسم محمد» في 15 ربيع الأول 322 هـ موافق 5 مارس 934م . ولقب بالقائم بأمر الله. وكان هذا الخبر محركا لثورة مدينة فاس على العبيديين، وتزعم الثورة ورفض طاعة الفاطميين أحد زعماء المدينة من بيوتات الزعامة العربية فيها منذ قيامها عاصمة للأدارسة، وهو «أحمد بن بكر بن عبد الرحمان بن أبي سهل الجذامي»[97] والذي يعتبر حاكم فاس الحقيقي بعدوة القرويين، وبمنتهى السرعة قتل الوالي الفاطمي على فاس وهو « حامد بن حمدان» وبعث برأسه وولده الى زعيم مكناسة موسى بن أبي العافية الذي بعثهما بدوره الى الخليفة الأموي بقرطبة « عبد الرحمان الناصر». وبذلك

---

(96) ابن عذاري: 195/1 و 204 . ابن خلدون 82/4 (306/4 من الترجمة إلى الفرنسية). القرطاس 85 . الاستقصا 82/1 . البكري: المسالك ص128 (ص811 فقرة 1357) وقد وضع هذه الحملة في سنة 321 هـ/ 933م واعتمده ابن خلدون والناصري نقلا. ليفي بروفانسال: تاريخ إسبانيا المسلمة ج2 ص-2 100(بالفرنسية). Dachraoui, Ibid p.153-154.

(97) أنظر هامش 77 من هذا الفصل (السادس).

يظهر من هذه الأحداث أن فاس غيرت موقفها من موسى بن أبي العافية بحكم الاعتراف الأموي الأندلسي بزعامة رئيس مكناسة الجبل. وهذا ما نتج عنه أن اعترف إبن أبي العافية بأحمد بن بكر فعينه عاملا وحاكما بمدينة فاس. وأخذت الأمور تتطور بداخل مدينة فاس بين الأموية والعبيدية بشكل خطير انعكس على تاريخ المدينة الكبرى في هذه المرحلة الصعبة على المستوى السياسي والمذهبي والإجتماعي.

3- حملة ميسور الخصي(98)، فخرج على رأس جيش كبير إلى مدينة فاس، فوصلها في آخر سنة 323 هـ/935 م وأرغم أهل فاس بزعامة أحمد بن بكر على طاعة الفاطميين وقبل هديتهم ولكن أرسل زعيمهم رهينة إلى المهدية بإفريقية، وكان هذا التصرف سببا في تغيير موقف فاس من الطاعة الفاطمية، وتزعم هذا الموقف الجديد أحد زعمائها من أصل لواتي أي من بيوتات فاس الذين انحدروا من قبائل جند المدينة. وهو «حسن بن قاسم اللواتي».

(98) ميسور الخصي (العبر 83/4) ميسور الفتى (البكري ص128فقرة 1359). ابن عذاري 209/1 . القرطاس ص52 (85). Dachraoui (F): Ibid, p.163-4. وكانت السياسة المالية العامة للخلافة الفاطمية العبيدية مبنية على جمع الأموال بأية وسيلة كانت (ابن عذاري: البيان 1 /181). فقد انتهب الجيش الفاطمي بقيادة مصالة ابن حبوس سنة 309 هـ/ 922 م. «أموال سكان مدينة سجلماسة» وأدى ذلك الى اندلاع انتفاضات سكان المدن. وكان جمع الأموال الطائلة لفائدة بيت المال الفاطمي وسيلة للحظوة لدى الخليفة، وتولي المناصب العليا (الجنحاني: السياسة المالية في الدولة الفاطمية في المغرب: ملتقى القاضي النعمان /تونس 1977 ص197). وهذا ما فعله ميسور الخصي مع أهل فاس في حملته سنة 323 هـ/ 935 م ويظهر أن نفس التصرف كان مع أهل الأرياف في المغرب الأقصى بمعنى في الجهات التي وصلتها حملة ميسور الخصي.

وهكذا تلخص الوضع في المغرب الأقصى بالنسبة للخلافة الفاطمية في مشكلتين رئيسيتين:

أولا : موقف مدينة فاس من الفاطميين الذي لم يتضح لصالحهم بصفة نهائية.

ثانيا : مشكلة موسى بن أبي العافية الذي غير الموقف في الأرياف والقبائل من صالح الخلافة الفاطمية إلى صالح الخلافة الأموية بالأندلس(99).

وعلى ضوء هاتين المشكلتين يتبين أن المغرب الأقصى في الأرياف، ومدينة فاس، ويمكن أن نقول في المدن التي كانت قائمة في القرن الرابع الهجري /10 م كان أمويا أندلسيا و بالتالي كان مذهبه سنيا. لا يمتثل للشيعة الإسماعيلية الفاطمية إلا بالقوة، وما يلبث ذلك أن يزول وبمنتهى السرعة، ولذلك إذا حدث خلل في السلطة الفاطمية، فالأمور في المغرب الأقصى تطرب لها وتنقلب ضدهم، وهذا ما نلاحظه أثناء ثورة «أبي يزيد (بويزوض) مخلد بن كيداد الخارجي».

حاول ميسورالخصي حل مشكلة فاس سلميا عندما صالح أهلها بتقديمهم للخليفة الفاطمي غرامة مالية ثقيلة، وكتابة بيعتهم لمحمد القائم العبيدي. ولكن مشكلة موسى بن أبي العافية كانت أخطر لأنها قطعت السبل على القوافل التجارية الفاطمية. فارتحل ميسور الخصي عن فاس الى ملاحقة موسى بن أبي العافية الذي وضع الكمائن لميسور وجيشه في الجهات التي حاول الجيش الفاطمي ملاحقته فيها. وانتهت الأحداث باستمرار حرب العصابات والاستنزاف مما أرغم ميسور الخصي على العودة الى إفريقية دون أن يصفي مشكل البوادي المغربية وزعامتها تصفية نهائية.

---

(99) ابن حيان: المقتبس، ج5 ص370 (ورقة 251). مجلة الوثائق: عدد ارسالة رقم 21 ص106 .

أمام هذه الأوضاع المحمومة التي طغى عليها طابع المطاردة الملاحقة، بدلا من الاستقرار والتفاهم والأمن، أمام هذه الظروف صار المغرب مجتمعا انشطاريا متقلبا. وأصبح الوجود لمن تكون له الغلبة سواء في البوادي والأرياف أو في الحواضر والمدن التي كانت قليلة العدد جدا.

على امتداد العشرين سنة التي عرفها المغرب الأقصى من حملات التدخل الفاطمي بعنف وقسوة (من 305 هـ - 324 هـ/ 918 م-936 م)، كانت الجماعات البشرية في أريافه ومدنه لا ترى في الفاطميين إلا قوة الظلم والتشريد والمطاردة، أما موقفها من الأندلسيين الأمويين فكان غير ذلك. لكن هناك الأدارسة الذين طردوا من مدينة فاس إلى شمال المغرب الأقصى، حيث تحولوا إلى «جماعة روحية» أو بالأحرى إلى «سلطة معنوية رمزية» بدلا من قوة لها فعلها في الأحداث، هؤلاء لم يفقدوا الأمل في عودة مجدهم الادريسي، وظلوا يراقبون أحداث التدخل الفاطمي العاصفي، ويواكبون التحركات الجانبية الأندلسية في المدن البحرية الساحلية للمغرب الأقصى، حيث تركزت القوة البحرية الأندلسية بسبتة خاصة.

وبناء على تمركز تحركاتهم ومواقفهم في الأرياف والبوادي وخاصة في شمال المغرب الأقصى (الريف وغمارة). فإننا نعتبرها عبارة عن ردود فعل ريفية بدوية وجبلية مغربية، تمثل جهويا موقف شمال المغرب الأقصى من الأحداث التي تجري في فاس وحوض نهر سبو على وجه الخصوص، وكأنهم زعماء قبائل الشمال وليسوا كيانا سياسيا موحدا حقيقة.

نترك هذه المؤثرات الخارجية وندخل الى المدينة (فاس) ونتساءل عن المدينة وواقعها التنظيمي الإجتماعي في المرحلة التي عرفت بعصر التدخل الفاطمي المباشر في المغرب الأقصى؟

ندخل إلى المدينة مع الدكتور عبد الهادي التازي[100] الذي وصفها بقوله « وكانت فاس قد بلغت أوجها على عهد الإمام يحيى بن إدريس (يحيى الرابع) المذكور من حيث البناء والعمران، لأنه كان فعلا أوسع ابناء إدريس ملكا وأكثرهم عددا، ولذلك غدت العاصمة فاس وجها مشرقا لذلك الملك الواسع، ازداد عدد قاصديها من مختلف الجهات ومن سائر الطبقات».

هذا التصور على مستوى الافتراض مقبول، لكن إذا انطلقنا من خضم الأحداث وما يمكن أن تنتجه في المدينة من واقع حضاري في منتصف القرن الرابع الهجري / منتصف القرن العاشر الميلادي. فماذا نجد؟ وبالتالي ما هي مدينة فاس في هذه الفترة؟

أول مؤشر لتحول الأوضاع على مستوى الحياة الدينية. هو نقل «الخطبة» من مسجد الاشراف الى جامع «القرويين» سنة 307 هـ/ 920 م[101] وهذا يعني أن مسجد القرويين بدأ تاريخه الجديد مع الفاطميين الشيعة الاسماعيلية.

والمؤشر الثاني هو الانقسام الداخلي لفاس الكبرى إلى عدوتين، وتزايد الخلاف بينهما في العلاقات العامة. مما جعل الدخول إلى عدوة القرويين من الجهات الغربية فكانت الباب الرئيسية هي باب الشريعة (باب

---

(100) عبد الهادي التازي: جامع القرويين 49/1 .

(101) الجزنائي: جني زهرة الآس ص 35 (46). القرطاس ص33 (55) الذي أرخ نقل الخطبة إلى القرويين بسنة 321 هـ الاستقصا 166/1 . ابن القاضي:جذوة الاقتباس 53/1 . محمد بن تاويت: فاس جولة في أحداثها الكبرى (مقال في مجلة المناهل عدد 5 مارس 1976 ص 182-183 . عبد الهادي التازي: جامع القرويين 49/1 وهامش 40 . ويرى الأستاذ عبد الهادي التازي أن سبب نقل الخطبة إلى القرويين كان سببا سياسيا (التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج4 ص68 هامش 2).

المحروق). وجعل الدخول الى عدوة الأندلس من الجهة الشرقية فكانت الباب الرئيسية للدخول اليها هي باب الكنيسة (باب الخوخة حاليا). وقد أمدنا البكري بمعلومات «مورفولوجية» هامة عن مدينة فاس اعتمدها الجغرافيون الذين جاءوا بعده. ولكنها معلومات لا تمثل التصور الحقيقي لما كانت عليه المدينة في النصف الأول من القرن الرابع الهجري 10/ م.

صحيح كان الدخول إلى فاس من أبواب متعددة[102] ومتفرقة. ولكن النظام التخطيطي لاحياء المدينة ومنشآتها المدنية غير وارد بصورة دقيقة في المصادر، وقد حاولت الكتابات التي جاءت في العصر المريني مثل الجزنائي أن تعطي صورة عنه، مما جعل بعض الباحثين الأجانب يستخلص خريطة مدينة فاس القديمة[103].

إن المؤشرين المذكورين جعلا من مدينة فاس الكبرى منطقتين حضاريتين متفاوتتين على مستوى التنظيم الإجتماعي في هذه المرحلة التي ندرسها. رغم أن المدينة الكبري كانت فعلا مدينة حقيقية، نظمت تنظيما اسلاميا. ونعني بالتنظيم الإسلامي : تخطيط المساكن والدور، ثم تخطيط الأسواق والاحياء. فكانت «مدينة فاس المزدوجة المسلمة دينيا ودنيويا»[104]. فكان سكانها نشيطين بهدوء رغم الأزمات التي تعرضت لها مدينتهم. وكانت إدارة المدينة منوطة إلى «ثالوث من الموظفين: الوالي أو

(102) ابن أبي زرع: القرطاس ص 39-43 . التازي: جامع القرويين ج3 ص 684 وهامش 233 . حيث كان يبدتئ سور عدوة القرويين. وبه كان باب أفريقية.

(103) لوطورنو: فاس قبل الحماية ج1 ص70-71 وقارن بين الرسمين رقم 2 ورقم 3 (من الترجمة العربية). Massignon (L):Le Maroc, pp.221-223.

(104) نفسه ص79 .

الوليين (حسب انقسام المدينة إلى عدوتين مستقلتين)، والمحتسب. والقاصي، وكان تحت أمرهم المنفذون»[105].

هذا الثالوث هو الذي يسير المدينة ويقرر في مصيرها الإجتماعي والحضاري. ولعل أروع ما أنتجه مجتمع المدينة هو نظامها المائي، الذي وفرت «بيئتها الطبيعة» شروط تنظيمه بعدالة وببراعة متناهية. وماز لنا نجهل تطور هذا التنظيم. وفي اعتقادي أن اكتشاف الشبكة المائية في تطورها التاريخي والحضاري يكشف عن تاريخ المدينة وعبقرية فاس الخالدة.

تحدث ابن حوقل[106] عن مدينة فاس باعجاب كبير في منتصف القرن الرابع الهجري /10 م فقال :«وفاس مدينة جليلة يشقها نهر. وهي جانبان يليهما أميران مختلفان» ثم يصف أزقتها، ويذكر ما قامت به الهيئة المسيرة للمدينة من ترصيف وتهيء حضري « وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة، أحدثها إدريس إبن إدريس، في كل يوم من أيام الصيف يرسل في أسواقها من نهرها الماء فيغسلها، فتبرد الحجارة، وجميع ما بها من الفواكه والغلات والمطاعم والمشارب والتجارات والمرافق والخانات، فزائد على سائر ما قرب منها وبعد في أرض الهبط موقعه».

و بالنسبة لتنظيم العلاقات الإجتماعية، فإننا نعترف بأن المصادر القديمة التي أرخت لفاس الادريسية أهملت هذا الجانب، لكن إذا اعتمدنا

---

(105) نفسه 311/I .

(106) ابن حوقل: صورة الأرض ص 89-90 . وهذا الوصف الذي قدمه صاحب صورة الأرض يعتبر من الأهمية بمكان لمعاصرته للزمن التاريخي الذي ندرس فيه مدينة فاس. ويضاف الى ذلك معاينة ابن حوقل لمدينة فاس ودخوله لها وإذا قارنا وصفه بما جاء عند البكري ندرك التطور الذي عرفته المدينة من القرن الرابع الهجري /10 م الى القرن الخامس الهجري الذي عاصره البكري (تـ 487 هـ).

المصادر الفقهية المتأخرة أي التي انتجها علماء وفقهاء القرويين يمكن أن نقدم إطارا عمليا لهذه التنظيمات الإجتماعية التي تضبط المجتمع الفاسي الداخلي، والذي سيتحول بعد ذلك الى مثال لتنظيم المغرب الأقصى في مدنه وبواديه.

والأساس في هذا الجانب -حسب نظرنا- هو فقه «العمل المطلق» والذي يعرف عادة « بالعمل الفاسي»[107] ونلحق به النوازل الفقهية الأخرى والعديدة مثل نوازل أبي الحسن الصغير، ونوازل الونشريسي في معياره، ثم نوازل المهدي الوزاني، في نوازله الكبرى أو «المعيار الجديد» هذه الأصول والمظان المعرفية الفقهية تقدم لنا مضمونا جديدا لمدينة فاس، وخطتنا في قراءتها هو المنهج التراجعي.

إذا كيف كانت مدينة فاس بناء على هذه الأسس، في القرن الرابع الهجري /10 م؟

ننطلق أساسا من العمل الفاسي، الذي يعتبر نظرية تشريعة إقليمية مبنية على «مقاصد الشريعة الإسلامية» في دفع المضار وجلب المصالح. وهذه مسألة تشريعية من خصوصيات المغرب الإسلامي في نظامه التشريعي الإسلامي. بدليل أننا لا نعثر في المشرق الإسلامي على كتابات فقهية تتعلق بنظرية عمل الأمصار أو بمسائله وجزئياته عند فقهاء المالكية به. وبذلك كان العمل الفاسي مستندا على أصول التشريع الإسلامي، وعلى البيئة المكانية للمغاربة، وما ساد فيها من أعراف لا تعارض الشرع الإسلامي. فهو من باب

---

(107) نعتمد في معالجة هذا الجانب على مصدرين هما:
1- شرح العمل المطلق للسجلماسي العشاوي، وقد سبق أن اعتمدنا عليه في فصول هذه الدراسة (مخطوطة خاصة بنا).
2- شرح العمل الفاسي للمهدي العمراني الوزاني، مطبوع طبعة حجرية بفاس في جزئين.

«العموم والخصوص». ونتج عن ذلك قابليته للتطور والتغيير، إذا تجددت الأعراف وتطورت أوضاع المجتمع على أساس المصالح المرسلة. ومن هنا جاءت تاريخيته وصلاحية نصوصه في الدراسات التاريخية.

ويظهر أن مسألة تكوين «العمل المطلق» في المغرب الإسلامي عاصرت القرن الرابع الهجري/10 م، وهذا العصر هو عصر الصراع المذهبي في المنطقة المغربية، كما أنها مرحلة التنافس القبلي وتشكيلات الأحلاف الإجتماعية في البوادي والحواضر(108). ورغم أن بعض الأبحاث الحديثة ترجع قيام العرف الجاري به العمل في الأحكام القضائية، إلى بداية العصر المرابطي بحكم الارتباط المغربي بالأندلس(109) فإننا نرجعها الى ما قبل ذلك أو على الأقل نرجعها إلى بداية القرن الرابع الهجري/10 م. «وقد طبق فقهاء الأقاليم المغربية الأخرى نظرية العمل، لكنهم كانوا يختلفون أثناء تطبيق الكليات على الجزئيات، باختلاف خصوصيات مجتمع كل واحد منهم، لأن بعض أعراف الأقاليم تختلف من حيث الزمان والمكان، وحتى المصالح والأضرار تختلف»(110).

فالعمل الفاسي كما ضبطه فقهاء المغرب الأقصى هو مجموع القواعد الإجتماعية التي تنظم أشكال التعامل شرعا وعرفا في الأسواق ونظام الحرف والصنائع والحياة المدنية العامة في داخل مدينة فاس وفي محيطها

---

(108) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج7 ص146-147 ترجمة أحمد بن سعيد الهمداني المعروف ب ابن الهندي الأندلسي ت. 399 هـ/ 1009 م.

(109) عبد السلام العسري: نشأة نظرية بما جرى به العمل عند فقهاء الأندلس والمغرب، مجلة دار الحديث الحسنية. عدد 3 ص337-338

(110) نفسه ص339 .

الإجتماعي العام[111].

وبدراسة مدققة للعمل الفاسي اتضح تأثير المؤثرات التاريخية التي عرفتها مدينة فاس، ونقصد هنا بالمؤثرات تلك الأعراف والتنظيمات التي كونتها المجموعات البشرية التي دخلت المدينة من أبناء القبائل المغربية أو الجماعات التي هاجرت إليها واستقرت بها من القيروان وغيرها، أو من الأندلس وكورها، من الجنوب المغربي الصحراوي. فامتزجت تلك الأعراف في فاس وتلاحمت مع قواعد الضبط الإجتماعي الإسلامي. ثم انصهرت في بوتقة الشريعة الإسلامية، وانتجت نظاما متماسكا في الحياة العامة لمدينة فاس، مع ملاحظة تغييره وتطوره مع التحولات التاريخية التي عرفها تاريخ المغرب الأقصى في مراحل تاريخه الإسلامي الوسيط، ومع ملاحظة أخرى ترتبط بعصر دراستنا وهي أن الفاطميين عملوا في مرحلة خلافتهم بالمغرب الكبير على نشر التفسير الفقهي الجعرفي الذي شرحه القاضي النعمان في أعماله ومؤلفاته وخاصة «دعائم الإيمان» الذي نشر باسم «تأويل الدعائم»[112].

---

(111) فالعمل الفاسي الذي ضبطه وقننه فقهاء مدينة فاس يعالج المسائل الإجتماعية الآتية:
1- مسائل العلاقات الزوجية في جميع مراحلها وقضاياها (الأحوال الشخصية) من إرث ومحاجير.
2- مسائل التعامل التجاري (البيوع)، والرهن والضمان والشركات. والديون والقراض.
3- مسائل الشفعة والوكالة (قضايا المنازعات) .
4- مسائل الأحباس والأوقاف .
5- قضايا أخرى متفرقة تعالج قضايا التعامل العام .
Encyclopedie de l'Islam-TIpp:440-441,Art."Amal".

(112) القاضي النعمان: تأويل الدعائم، تحقيق محمد حسن الأعظمي، طبعة دار المعارف المصرية في ثلاث مجلدات، القاهرة 1972 .

ويقرر القاضي النعمان في أعماله أن الإسلام مبني على سبع دعائم أو أركان بدلا من خمسة كما هو مقرر عند أهل السنة. وهي عنده على الترتيب[113].

الولاية والطهارة والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد.

ومن أهم القضايا المطروحة في العمل الفاسي والتي مكن اعتبارها من المؤثرات الفاطمية في مدينة فاس، مسألة «توريث ذوي الأرحام»[114] بمعنى تقديم القرابة على العصبة. فإذا مات رجل عن بنت وإبن إبن فالمال كله للبنت عند الشيعة الإسماعيلية. وعند السنة فإن البنت لا ترث إلا نصف الميراث. وكذلك مسألة زواج المتعة، وإباحته عند الشيعة. وفي مسائل أخرى متعلقة بالدعاء في الصلاة وطريقة الآذان لها[115].

وانعكس ذلك على البوادي المغربية، فكانت الآراء الجديدة التي جاء بها الفاطميون أساس لظهور انحرافات دينية غير مألوفة، ومن مظاهر ذلك:

أولا حركة «منيب بن سليمان المكناسي»[116] الذي أظهر «التشريق» بجبال الونشريس جنوب تاهرت سنة 309 هـ/ 921م.

---

(113) أنظر ترتيب كتاب تأويل الدعائم في أجزائه الثلاثة المنشورة (هامش 112). أنظر الدكتور محمد أحمد عبد المولى: القوى السنية في المغرب. طبعة دار المعرفة الجامعية / الاسكندرية 1985 ، ج1 ص162 .

(114) وفي هذه المسألة خلاف طويل على مستوى الإمامة، والعمل القضائي والفقهي، ولكن أهل فاس انتهى رأيهم إلى تطبيق رأي أهل السنة. أنظر العمل الفاسي، شرح المهدي الوزاني، ج2 ص125 .

(115) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، قـ3 ص51 . ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد، ص16 طبعة الجزائر أو ص54-55 (طبعة تونس 1987). ابن عذاري البيان 220/1 .

(116) ابن عذاري: البيان 260/1 . ابن حوقل صورة الأرض 91 . الكبرى: المسالك 102. القاضي النعمان افتتاح الدعوة ص 273 . مجهول: العيون والحدائق، قـ 1 ص95 . المقريزي: اتعاظ الحنفاء، 97/1 .

ثانيا : حركة «حميم»[117] بن أبي خلف، الزعيم المجكسي الغماري المصمودي، ويلقب حميم بـ «المتنبئ المفتري»، فقد أعلن نبوته أو على الأصح «زندقته» سنة 313 هـ/925 م بمنطقة جبلية تقع بين مدينة شفشاون الحالية ومدينة تطوان. ويظهر أنه انتهى بتدخل الخلافة الأموية الأندلسية في سنة 315 هـ/927 م بمنطقة جبلية تقع بين مدينة شفشاون الحالية ومدينة تطوان. ويظهر أنه انتهى بتدخل الخلافة الأموية الأندلسية في سنة 315هـ/927م بمصمودة الساحل من أحواز طنجة[118].

أما بالنسبة لمدينة فاس فإن نقل الخطبة الى جامع القرويين، وإقامة «الأرصاد الشيعية» بها يؤشر على وجود نشاط مذهبي شيعي اسماعيلي بالمدينة، بالإضافة الى التخلي الإدريسي عن إمارتهم الادريسية واعترافهم قهرا بالخلافة الفاطمية، يدل على النشاط المذهبي الاسماعيلي ووجوده كرها في عاصمة الادارسة. ويساعدنا مؤشر آخر في إثبات ذلك هو ضرب العملة

---

(117) البكري: المسالك ص97 ، 100 (ص 776 فقرة 1-1302)، ابن خلدون:العبر -446 445/6 وطن قومه بوادي «لو» ووادي راس قرب تطوان. أنظر أيضا: مجهول: الاستبصار ص 191-192 . ابن عذاري: البيان ج1ص271 ، 283 . النويري : نهاية الأرب ج22 ص134 . ابن حيان: المقتبس ج5 ص261 (ورقة 172)، مصطفى أبو ضيف: أثر القبائل العربية ص267-271

-Halima Farhat:Le Maghreb aux XIIIème Siècles p.270 pp.164-6.

-Le Tourneau (R):Hamim, Art. E.I.2ème,T.III, p.137.

(118) البكري : ص 101 (778) ، ابن عذاري : البيان 192/1 ابن خلدون 446/6. الاستبصار ص 192. مفاخر البربر ص 77 . ونفترض أن يكون «حاميم» من صنائع الإسماعيلية في غمارة ، ومن هنا يمكن أن نقارن حركته بحركة «أبي الخير» القرطبي الشيعي الزنديق (عياض : ترتيب المدارك 425/4 . دائرة المعارف الإسلامية 443/10 (الترجمة العربية للطبعة الأولى مادة زنديق) هـ - ر - إدريس : الدولة الصنهاجية .

(H) Farhat : Sabta op.cit p 63-64.

في فاس باسم الفاطميين ثم الموقف المريب الذي وقفه الخليفة السني الأموي الأندلسي عبد الرحمان الناصر من الأمراء الأدارسة في شمال المغرب سنة 317هـ/930م. والذين وصفهم المؤرخ الأندلسي ابن حيان[119]: بـ« عصابة الأشراف العلويين الصرحاء» وفي موطن آخر من كتابه المقتبس[120] قال في موضوع الولاء للعبيديين الفاطميين :«...فهوي إلى دعوته الضالة أكثر هؤلاء الأمراء الأدارسة نصرا للعصبية وإغماضا على الدنية وإبعادا في الأذية وانحرافا عن هوادة بني أمية للأحقاد القديمة»، وفي رسالة من أحد الأمراء الأدارسة الذين لم يقبلوا الدعوة الشيعية العبيدية، وهو إدريس بن إبراهيم السليماني الحسني أمير أرشقول يتبرأ من أقاربه الأدارسة[121]، سنة 317 هـ/930م قال مخاطبا عبد الرحمان الناصر بقرطبة :« فلما نجاني الله من ضلالته (التشيع الاسماعيلي) وعصمني بولاية أمير المؤمنين سيدي، وحباني بمحبته، تسامع بذلك بنو عمي وبلغهم ما صنعته في ذاته، أيده الله فتبرأوا مني وتمالا واعلي ورموني عن قوس واحدة وقالوا ليس هذا الرجل منا، إذ فارق دعوته إلى ضدها، وخرج من عترة علي ابن أبي طالب رضي الله عنه».

كل هذه المؤشرات تحملنا على الشكل في المصادر السنية التي أرخت لمدينة فاس، وما قامت به تلك المصادر من طمس لأخبار التاريخ الفاطمي الشيعي في مدينة فاس. ومع ذلك بقيت مؤثرات في أعراف المدينة وتاريخها الاجتماعي مع تعديلها واحتوائها بعد الانتصار السني في المغرب

---

(119) المقتبس ج5 ص261 (ورقة 173).

(120) نفسه ص 262 (ورقة 174).

(121) نفسه ص 264 (ورقة 175).

الأقصى ابتداء من الانتقال الفاطمي من بلاد المغرب الى مصر سنة 362 هـ/ 973 م. ويظهر من نصوص العمل الفاسي[122]، أن فقهاء وعلماء أهل السنة أفتوا ببطلان أحكام قضاتهم في فاس وفي خارجها، ومن ذلك، فإن العمل بفاس هو «حمل تصرفات الفاطميين على وقوعها وليس على جوازها شرعا» لأن تلك التصرفات والأعراف «خارجة عن المذهب المالكي» الذي يعتبر المذهب التشريعي في المغرب منذ القرن الثالث الهجري /9 م. وقد وضع فقهاء فاس تلك التصرفات في سياق احكامهم الخاصة بـ «الجوائح» وتصرفات «اللصوص» فهي من باب « السرقات وتسلط الجيوش»[123].

نماذج من العمل الفاسي:

I- ويثير الإنتباه جانب من جوانب التعامل بين «أهل المدينة» فاس مع بواديها، ونعني به «نظام الخماسة»، فأغنياء المدينة كانت لهم أراض زراعية يرتبون عليها فلاحين مقيمين بها يعملون بها لصالح أصحابها من الفاسيين ولصالح أولائك المزارعين. ونظم العمل الفاسي هذه العلاقات التي امتزج في تنظيمها العرف القبلي الريفي مع شروط أصحاب الأرض من الفاسيين أو المموّلين لذلك النشاط الفلاحي. فظهرت مدينة فاس وكأنها مدينة فلاحية اقتبست تلك التنظيمات الزراعية من مدينة القيروان بافريقية، ومن قرطبة بالأندلس، ومن هنا جاء الاستدلال بأراء الإمام

---

(122) أبو القاسم العشاوي السجلماسي : شرح العمل المطلق ورقة 23 (مخطوط خاص) عمر ابن عبد الكريم الجيدي : العرف والعمل في المذهب المالكي : ص 344-347.

(123) نفسه ورقة 31

سحنون، وآراء فقهاء قرطبة بالأندلس[124]. فقال :« سئل ابن لبابة الذي يشترط على المناصف والمثالث والرباع والخماس أن لا يصحد رب الأرض معه ولا يدرس، وأن يكون العمل كله عليه. فأجاب هذا العمل الجاري في بلادنا وعليه كان مشايخنا الذين مضوا، وهو مذهب عيسى بن دينار، وعلى مذهب عيسى مضى العمل ببلدنا» وتطور الوضع بعد ذلك فصار «العرف الجاري الآن (القرن 8 هـ) في الخماس الذي عليه العمل أن عليه نصف الحصاد والدراس والتصفية وعلى صاحب الأرض النصف».

2- نظام وضع الأزقة في بناء المدينة: كان العمل في مدينة فاس مبنيا على التمييز بين «السكة» بمعنى الطريق الواسعة والضيقة. فالواسعة كان عرف المدينة يحددها بـ «تسعة أذرع فأكثر»[125]، والسكة الضيقة أو التي سميت بالسكة النافدة. ويمنع فتح الأبواب والنوافذ إلا بإذن جميع أهل الزقاق. وهو عمل أهل قرطبة وبه العمل عندنا (بفاس)[126]. وجرى العمل في فاس على رفع الضرر، واعتباره على الحدوث والأشكال والتنازع.

---

(124) نفسه ورقة 46-47 ونلاحظ أن المغاربة في مدينة فاس طبقوا على أراضيهم المسقية نظام التعامل فيها بالذي جرى العمل به في أرض وادي النيل. « جرى العمل في أرض السقي المأمونة كأرض النيل إذا رويت يجب فيها تعجيل الكراء بناء على فتوى ابن القاسم صاحب الإمام مالك »أنظر نفس المصدر، ورقة 67 ظ/و، وعلق على ذلك « وبه استمر العمل » ثم أيضا ورقة 183/ و. فأشار إل« أن العمل جرى بالتساهل في مسألة الخماس للضرورة الداعية الى الارتفاق.

(125) نفسه ورقة 48 وجه.

(126) نفسه والورقة.

و جرى العمل في فاس أن «الدار»[127]: «لا تجوز قسمتها حتى يصير لكل واحد من ذوي الحقوق فيها ما ينتفع به من مدخل ومربط دابته (وهذا خاص بعدوة الأندلس). وإن اتضحت قيمتها». وتطور هذا العمل فجوزوا القسمة في الدار إذا تشاح الورثة، وبذلك صار العمل على أساس القرعة. وتتم القسمة بحضور صاحب الشرطة[128] العدل في أحكامه وحاله.

3- في المعاملات التجارية بفاس: جرى العمل في فاس أن «القراض» (التعامل التجاري بين التجار) لا يكون إلا بالدنانير والدراهيم لأنها اثمان المبيعات، وأصل قيم الممتلكات، وجرى العمل أيضا بنقد الذهب والفضة بالوزن، أما الفلوس فجرى العمل بها يوميا، كما جرى العمل في العروض ولكن بالمثل. وأشار صاحب شرح العمل الفاسي إلى أن العمل في فاس خلال عصر بني مرين اقتصر على قبول «القراض» بالدنانير والدراهم. وهذا يدل على التطور الذي عرفته مدينة فاس عندما تحولت الى عاصمة للدولة المرينية وقد فقدت دور عاصمة للدولة منذ العصر الفاطمي فيها ابتداء من سنة (305 هـ/ إلى 668 هـ/ 918 م إلى 1269 م).

وإذا اختلف المتعاقدان تجاريا فجرى العمل في فاس على حمل المتعاقدين على «سنة البلد والمتعارف بينهم وبه مضى العمل»[129].

---

(127) نفسه والورقة.

(128) نفسه، الورقة 61

(129) نفسه، الورقة 64 . ظ ثم ضبط تاريخ العملة التي جرى التعامل بها في مدينة فاس ابتداء من بني مرين وما بعدهم، أنظر ورقة 126 . وفي المرحلة العبيدية التي نعالجها في تاريخ مدينة فاس، أشار صاحب العمل الفاسي الى الخلاف بين فقهاء المالكية وغيرهم الذين عاشوا في القرن .../...

4- في موضع الأحباس أو الأوقاف بفاس: ارتبطت الأحباس الخاصة والعامة بمدينة فاس، ويكاد لا يوجد ملك عقاري أو مال ثابت في المدينة إلا وفيه حق حبسي. ونظرا لتطور المدينة وظهور منشئات عامة مثل توسيع الطرقات، وإعادة تهيء المدينة، ودعت الضرورة إلى التصرف في الممتلكات الوقفية، لذلك فقد جري العمل[130] «بابتياع الحبس ليوسع به طريق المسلمين لجيوشهم أو للزيادة فيمسجد الجماعة أو في مقبرة الجماعة إذا أمر به الإمام بابتياع ذلك من بيت المال».

5- في موضوع اليهود بفاس: جرى العمل في فاس[131]: «جرى العمل ببلدنا فاس إذا تظالم اليهود فيما بينهم والأموال والحقوق ودعا أحد الخصمين منهم إلى حكم الإسلام، ودعا الثاني إلى قضاتهم أن يرفعوا إلى قضاتهم، وأن لا يخير حاكم المسلمين في الحكم بينهم، ويصرفهم إلى قضاتهم. إلا إذا جاءوا راضين بحكم الإسلام».

6- المسطرة القضائية في مدينة فاس[132]: كان القضاء في فاس وفق ما جرى به العمل في إفريقية أولا ثم الأندلس ثانيا. «فقد كان العمل حين حدث الضرب على الخطوط باستصحاب شاهدي عدل كتاب القاضي إلى

.../... الرابع الهجري /10 م ومنهم ابن أبي زيد القيرواني. والذين قدموا فتوى أصبحت بعد ذلك من العمل الفاسي عمليا. حيث افتى الفقهاء «بجمع الذهوب في دار السكة، وبعد ضبط وزنها ووزن ما لكل واحد من أصحابها، وخلطها في الضرب بعد تصفيتها ومعرفة وزنها. فإذا خرجت أخذ كل واحد على حسب ذهبه. وذلك للرفق بالناس» (أبو القاسم العشاوي: شرح العمل الفاسي، ورقة 132).

(130) نفسه، ورقة 70 و، 71 ظ

(131) نفسه، ورقة 76 ظ وورقة 196

(132) نفسه، ورقة 81 ظ.

المكتوب اليه، بعد أن كان العمل قبل ذلك بالاكتفاء بالكتاب المختوم... ومن أصل المذهب أن القاضي ينفذ ما خاطبه به غيره من القضاة كان الذي خاطبه به مما يوافق مذهبه أم لا فذلك إذا كان المخاطب قد حكم بما خطب به. وإنما خاطبه بما ثبت عنده حسب مذهبه. وعلى هذا العمل».

7- جواز بيع المضغوط[133]: «جرى العمل بفاس في الأزمنة القديمة من مدينة فاس بنفوذ بيع المضغوط، لكثرته، وكونه يدفع في مظلمة أو في مغرم، دفعا للمضرة وإذاية أعراض الناس».

8- مسألة الخفارة أو ما يعرف عند بربر المغرب بالزطاطة[134]: «الزطاطة عند الناس معروفة وهي ما يعطيه لمجيزهم وحاميهم في الطريق المخوفة، وجرى العمل بالحكم بالزطاطة لمن يحمي المسافرين بالسلاح والشجاعة. ولا من وجه الإجارة الجائرة ولا لمن يحمي بجاهه، ثمن الجاه. وتفرض على عدد الاحمال، لا على قيمتها ... والمقصود أن هدية الطريق حراسة للمهج والأموال من غوائله والنفع في ذلك متفاوت بكثرة المال وقلته، وتكون الاجارة بحسب ذلك للضرورة، وعلى قدر المنفعة. وقد افتى أحمد بن نصر الداودي (تـ 402 هـ) في رفقة استأجرت من يحرسها خوف اللصوص والقطع ونحو ذلك فيخرج بهم الى موضع الأمن: أن الاجارة على ما لكل واحد من الناض والمتاع، وعلى قدر قيمة المتاع، فرب متاع كبير القيمة قليل المونة. وبه جرى العمل في فاس وبواديها».

---

(133) نفسه ورقة 145 ظ.

(134) نفسه، ورقة 177 ط/ و. ثم تطور العمل بالزطاطة أو الخفارة نتيجة لتطور الدولة المغربية وسيطرتها على البوادي والقبائل، فصارت بشروط « أن يكون ممن له جاه قوي يعلم بمستقر العادة». أنظر المهدي الوزاني: شرح عمليات فاس. طبعة حجرية بفاس ج1 ص262 .

9- فاس وموقف فقهائها من القبائل الرحل(135) : «فالقبائل الرحل في الزمن الذي لا سلطان فيه، أن من قطع منهم طريقا أو نهبا ولا يمتثل، وصار لا يمكن زجره لا بعقوبة المال أو البدن، وإذا حاول تعرض لوقوع ما هو أنكى وأعظم. صار جواز إغرام أهل الجنايات ما يكون زجرا لهم من باب العقوبة، وإذا عدم إقامة الحدود الشرعية عليهم، وعظمت المفسدة بالقبائل التي لا تنالها الأحكام السلطانية، يمكن إقامة العقوبة البدنية، لأنهم خرجوا عن الطاعة وامتثال الشرع ولم يذعنوا للشرع العام، والقبائل الرحل بعيدة عن تنفيذ الزواجر فيها على الوجه الشرعي، وكان العمل بفاس في الزمن القديم جاريا. بفرض العقوبة بالمال وغيره، والجواز في العقوبة بالمال وغيره كان زمانه زمان هرج وفتن، وإن اجتمع قوم والتزموا أن من فعل منهم كذا وكذا، فإنه ملتزم».

إن هذه النماذج والنصوص التي اقتبسناها من المخطوطات القديمة لشروح العمل الفاسي الذي جمع ودون في منظومة ليسهل تداولها ومعرفتها. وقد قام بذلك الفقيه « عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي»(136) المتوفى سنة 1096 هـ/ 1685 م. هذه النماذج تساعدنا على استخلاص صورة تقريبية لما كانت عليه المدينة في أوضاعها القديمة. لكن يجب أن نسجل ملاحظة وهي أن مدينة فاس في القرون الثلاثة الأولى من تاريخها، كانت في مرحلة تكوينها الإجتماعي وبدأت في القرن الرابع الهجري تتبلور خصوصيتها الفاسية. وهذه الخصوصية هي التي جعلتها «بنية اجتماعية

---

(135) نفسه، ورقة 256/ظ. المهدي الوزاني:شرح عمليات فاس ج2ص195-198.

(136) أنظر عنه محمد بن الطيب القادري: التقاط الدرر، بتحقيق هاشم العلوي القاسمي، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت 1983 ص230-232 (ترجمة 347 وهوامش الترجمة)

مغربية أصيلة». وكان الإطار السني هو محك الحياة»، فيها، إلا أن هذا الإطار السني لم يكتمل وجوده النمطي في فاس إلا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/10 م. فمدينة فاس أسست لتكون مدينة، ولم تؤسس لتستمر قلعة عسكرية حصينة، على عكس مدينة «المهدية»(137) بافريقية التي بنيت لتحمي الأسرة العبيدية الحاكمة. فقد كان ممنوعا على غير الأسرة الفاطمية العبيدية سكناها. فهي مدينة رسمية لا يوجد بداخلها إلا الخليفة وأهل بيته وحاميته والثقاة من اتباعه. فكان الناس يدخلون المهدية في النهار للاتجار وتعاطي الصناعات والحرف، ثم يغادرونها بالليل.

وفي مدينة فاس التقى الشاعر الأندلسي «ابن هاني» بالقائد الفاطمي «جوهر الصقلي»(138) سنة 348 هـ/ 959 م. ومدحه بقصيدة ذكر فيها الثوار الذين قهرهم جوهر سماهم فيها بأسمائهم، كما ذكر فيها هدايا جوهر من المغرب الأقصى الى المهدية بإفريقية، وأشاد في قصيدته بأهمية فتح فاس للفاطميين. كما مدح أحد القادة العسكريين المغمورين في الجيش الفاطمي(139): فقال مخاطبا له: من بحر (البسيط).

---

(137) ويرى الدكتور محمد الطالبي أن الهدف من بناء الفاطميين لمدينة «المهدية» كان هو انشاء « معقل للعائلة» وفي نفس الوقت كان « لبنة هامة جدا في سياسة الفاطميين البحرية، وهذه السياسة العسكرية التوسعية لا نستطيع أن نفهمها إلا إذا افترضنا - والافتراض ممكن - بأن الفاطميين استولوا على طريق الذهب أو على معظمها على الأقل مما سمح لهم بأن يؤمنوا بحرية عسكرية هامة». أنظر: ملتقى القاضي النعمان، تونس 1977 ص150 ، (الدورة الأولى).

(138) محمد اليعلاوي: ابن هاني المغربي الأندلسي، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985 ص47 ، 117 .

(139) نفسه ص 98 ص244-245 .

شيعي أملاك بكر إن هم انتسبوا

ولست تلقى أدبيا غير شيعي

من أصلح المغرب الأقصى بلا أدب

غير التشيع والدين الحنيفي؟

كفئت عن ذلك الثغر المخوف فقد

تركته بالعوالي جد مكفـــــي

وفرت أمواله إد ضعن فاجتبيت

منها القناطير من بعد الأواقي

ثم مدح «جوهر الصقلي» بعد سقوط مدينة فاس، وذكر الأسرى المغاربة من سجلماسة وفاس، وشيوخ مكناسة الجبل أنصار بني موسى بن أبي العافية. ويشير بالخصوص الى « الجذامي» أمير فاس وهو أحمد بن أبي بكر[140]. وابن واسول أمير سجلماسة، فقال في قصيدته الحائية من بحر (الطويل):

وكان الجذامي الطويل نجـــاده

بهيما مدى اعصاره فتوضحا

أقول له في موثق الأسر عاتبا

تجاذبه الاغلال والقيد مقمحــا

لئن حملت اشياع بغيك فادحا

يغول، لقد حملت ما كان افدحا

(140) محمد اليعلاوي: ابن هانئ المغربي، ص117 .

ثم ذكر أمير سجلماسة ابن واسول[141]:

وأدركت سولا في ابن واسول عنوة

وزحزحت منه يذبلا فتزحزحا

ثم ذكر آل موسى بن أبي العافية حلفاء الخلافة الأموية بالأندلس:

وفي آل موسى قد شننت وقائعا

أهبت لهم تلك الزعازع لقحـــا

واهتم الشاعر بن هانئ بوصف ما حمله جوهر إلى المعز بإفريقية من المغرب الأقصى في حملته الكبرى[142]، فوصف الخيل، والنوق.

أعتقد أن هذه المؤشرات تؤكد حقيقة العمل المذهبي الشيعي الاسماعيلي في فاس وشمال المغرب الأقصى. ولعل كلام الخليفة الفاطمي «المعز» يقوي هذا الرأي الذي ذهبنا اليه عندما قال[143] :«... فما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون الينا، ويدلون علينا، ويأخذون تبعتنا، ويذكرون رجعتنا، وينشرون علمنا وينذرون بأسنا،

(141) نفسه ص47 .

(142) اليعلاوي: نفسه ص59 ثم ديوان ابن هانئ في قصيدته الرائية ص 140 طبعة صادر، بيروت. الداعي إدريس: عيون الأخبار (تحقيق اليعلاوي) ص 620-622 ، و ص602-604 .

(143) أنظر: مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الاسماعيلية. طبعة دار الأندلس الطبعة الثالثة، بيروت 1979 ص209-210 ثم الصفحات 29 ، 178-180 . أعلام الاسماعيلية، ط. بيروت 1964 ص 526-541 . و عند القاضي النعمان في المجالس والمسايرات ما يمثل ذلك في المعنى، أنظر ص468 و ص265 وهامش 3 . ثم أنظر المقريزي: اتعاظ الحنفا ج1 ص145 ، طبعة دار الفكر 1948 حيث أشار الى معرفة الخليفة المعز بلهجات عصره.

ويبشرون بأيامنا، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن ...». ثم تكلم القاضي النعمان[144] عن موقف الخليفة الفاطمي المعز من المدن التي قاومت الدعوة الاسماعيلية، هذا الموقف الذي لا يتردد في تخريبها «وما ألونا في طلب عمارتها ولكنها وغيرها من المدن التي دافعت أوليائنا في ابتداء أمرنا لن تفلح أبدا، ولا تزال الفتن بها حتى تأتي عليها» وأشار القاضي النعمان الى أن «المعز» ذكر في مجلسه «المدن التي سلمت ودخلت في الطاعة، وما أعقبها الله به من الأمن والخير والعمارة».

والمهم أن العمل الفاطمي في فاس والمغرب الأقصى لم يكن غائبا في النصف الأول من القرن الرابع الهجري /10م. وهذا ما أكدته المصادر الفاطمية. ويلخص الأستاذ موسى لقبال[145]: الموقف الفاطمي المتساهل مع أدارسة المغربين الأوسط والأقصى بقوله «إن الخلفاء الفاطميين في المغرب لم تخفى عنهم أهمية الأدارسة ومدى تعلق السكان بهم، ولذلك اكتفوا بمجرد خضوع مدينة فاس وإعلان أميرها يحيى بن إدريس ولاءه للدولة الفاطمية في المهدية، كما أن الخليفة المعز لدين الله لم يترك أية فرصة سنحت له، لكي يشعر العلويين وخاصة الأدارسة بأنهم إن كانوا حقا من آل البيت فيجب أن يبرهنوا على ذلك بالبقاء على الطاعة والولاء ويساندوا مجهودات أقاربهم الفاطميين».

وإذا كان الغموض قد خيم على المؤثرات الشيعية الاسماعيلية في المغرب الأقصى عموما خلال القرن الرابع الهجري /10 م، فإننا نرجع ذلك الى التحول الإجتماعي الذي عرفه المغرب بانتقاله من مجتمع الشتات القبلي

---

(144) القاضي النعمان : المجالس 203 ، 482 ، 497 .

(145) دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص214 وهامش 81 ، المجالس: ص-486 483 الداعي إدريس : عيون الأخبار ص615 وما بعدها.

الى مجتمع الأحلاف الجهوية، ومن الولاء بالقوة للفاطميين الى الولاء بالرضى للأمويين الأندلسيين. والأهم من هذا وذاك هو الارتباط التاريخي بين المغرب الأقصى والأندلس أو على الأصح بشمال غرب البحر الأبيض المتوسط عن طريق مضيق جبل طارق، ثم دور طرق تجارة الصحراء وقرطبة، ولكن هذا لا يعني عدم وجود رواسب وبقايا شيعية اسماعيلية في البلاد ما لبثت أن ذابت وتعدلت وامتزجت مع الأعراف والتقاليد المحلية القديمة بعد الانتصار السني الشامل في بلاد المغرب الإسلامي، ابتداء من الانتصار المرابطي في القرن الخامس الهجري /11 م. ولعل الهجرة القبلية التي عرفها المغرب «قبل العصر الفاطمي ونشطت أثناءه»[146] كان لها أثر ودور في كل ذلك، دون أن ننسى التاريخ الإدريسي في المغرب الأقصى في آخر القرن الثالث الهجري /9 م. والذي غلبت عليه القبلية بدلا من السلطة المنظمة التي تحكم الأنظمة الحاكمة حقيقة. والتي لا يمكن أن تثبت وجودها إلا في بوتقة نظام المدن والتمدين. وهذا ما لم تستطع مدينة فاس القيام به في النصف الأول من القرن الرابع الهجري /10 م. حيث اقتصرت على مجاهدة البقاء والوجود ليس إلا.

بقي علينا أن نعالج الدور الأموي الأندلسي في تاريخ مدينة فاس خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري /10 م. هذا الدور الذي كان متداخلا مع الدور الفاطمي العبيدي فيها، ويكاد لا يظهر إلا من وراء حجاب، بمعنى كان منوطا بزعماء المدينة الذين تعرضوا للامتحان الشيعي الاسماعيلي في كل حملة من حملات الجيوش الفاطمية على المغرب الأقصى.

---

(146) موسى لقبال: دور كتامة، ص163

قبل كل شيء أريد أن أسجل أن المصادر المغربية المتأخرة[147] التي أرخت لفاس في النصف الأول من القرن الرابع الهجري اعتبرت هذه المرحلة من «المرحلة الزناتية» وهذا يعني في مضمونه الداخلي عدم الاعتراف بالمرحلة التاريخية الفاطمية الشيعية التي عرفها المغرب الأقصى ومدينة فاس بالذات، ولعل ذلك هو الذي جعل صاحب القرطاس[148] ينسب بعض زعماء المدينة من العرب إلى زناتة كما فعل مع «أحمد بن أبي بكر الجذامي».

فمنذ أن انهزم موسى بن أبي العافية أمام جيش الفاطميين بقيادة «ميسور الخضي» سنة 324 هـ/936 م. تقوى النفوذ العبيدي في المغرب الأقصى الى أن اندلعت ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، والتي أدت الى تغيير الموقف في المغرب الأقصى لصالح أمويي الأندلس. وفي هذه الفترة (324هـ - 331 هـ) كانت فاس تحت السيادة الفاطمية وكان الأمير الادريسي «القاسم بن محمد ابن القاسم بن إدريس الثاني» الملقب بكنون، زعيما للأدارسة في شمال المغرب[149]، ولم يتمكن من السيطرة على فاس، بحيث ظل نشاطه السياسي في المناطق الريفية من شمال المغرب الأقصى انطلاقا من حصنهم الجبلي «حجر النسر». واستمرت مدينة فاس تتقاذفها الأمواج، لا تكاد سنة تمر عليها دون حصار أو هجوم شديد، تارة لصالح العبيديين الفاطميين وتارة لصالح الأمويين الأندلسيين:

(147) نقصد بالمصادر المتأخرة جميع المؤلفات التي اهتمت بمدينة فاس منذ العصر المريني فما بعده انطلاقا من كتاب القرطاس. أنظر في هذا الصدد الدراسة الهامة التي قامت بها الباحثة «ماياشاتزميلير "Maya Shatzmiller=" بعنوان «الأسطوغرافية المرينية: ابن خلدون ومعاصروه» L'historiographie Mérinide, Ibn Khaldun et ses contemporains, Leiden, E.J, Brill, 1982.

(148) القرطاس ص90-91 .

(149) كان الأدارسة في هذه الفترة قد لجأوا الى قلعتهم الجبلية المعروفة ب «حجر النسر» التي أنشأوها في سنة 317 هـ/ 930 م. (البكري: المسالك 811 فقرة 1357).

حكام فاس بين 305هـ -348هـ /918م - 958م

إسم الوالي	فاس والعدوتين	الولاء السياسي	المدة الزمنية	الملاحظات
يحيى الرابع من الأدارسة [150]	عدوة القرويين	فاطمي عبيدي	305هـ-308هـ	ترسيم الخطبة بالقرويين
ريحان الكتامي [151]	"	فاطمي شيعي عبيدي	307هـ	
الحسن الحجام [152]	فاس الكبرى	إدريسي	311هـ	
حميد بن حمدان الهمداني [153]	" "	" "		
عبد الله بن ثعلبة	عدوة الأندلس			
موسى ابن أبي العافية [154]	" "	قبلي / مستقل	313هـ	سيطرة
- البوري بن موسى		حلف مكناسة الجبل	321هـ	قبائل مكناسة
- مدين بن موسى	عدوة القرويين	" " "		الجبل على فاس

(150) يحيى الرابع أو يحيى بن إدريس بن عمر يعتبر أميرا إدريسيا في فاس بين (292هـ-305هـ) . ثم حاكما لفاس باسم العبيديين الفاطميين (305هـ-308هـ) . وبعد ذلك سجنه موسى ابن أبي العافية في جبل «لكاي» ، ثم إنتقل إلى أصيلا ، ثم أنهى حياته بإفريقية في المهدية سنة 334هـ/946م.
أنظر: أوسطاش: *الجامع في الدراهم*، ص 41و117وهامش 21، وهامشي رقم 84و85 من هذا الفصل السادس .

(151) هو ريحان بن علي الكتامي ، عينه مصالة بن حبوس على حكم مدينة فاس في سنة 307هـ . كما عين شخصيات أخرى على أصيلا والبصرة. أنظر: أوسطاش: *الجامع*، ص 21 هامش 89. وهو من كتامة المغرب الأوسط . أنظر موسى لقبال : ص 442.

(152) الحسن الحجام: ورد في القرطاس ص 82 أنه سيطر على فاس سنة 311هـ أما أوسطاس فيعتبر سيطرته عليها في سنة 313هـ/925م . واستمرت سيطرته عليها لمدة عامين . أنظر أوسطاش ص 41-42.

(153) حميد بن حمدان الهمداني القرطاس ص 83 . ووصفه البكري (المسالك ص 810 فقرة 1356) ، وفي طبعة دي سلان ص ص 126-127 باللوزي. مصطفى أبو ضيف: *أثر القبائل العربية* ، ص 342. وكان في سنة 311هـ حاكما لعدوة القرويين تابعا لزعيم الأدارسة الحسن الحجام .

(154) موسى ابن أبي العافية كان في الفترة : (309هـ-312هـ) تابعا للفاطميين الشيعة ، وفي سنة (313هـ - 319هـ) كان مستقلا.وفي سنة319هـ صار تابعاللخلافة الأموية الأندلسية . أنظر: ابن حيان : *المقتبس* ، ص 371 ورقة 251 ، أوسطاش : *الجامع في الدراهم* ، ص 24 ، هامش 193و ص 42.

(تابع)

- محمد بن ثعلبة	عدوة الأندلس	. . .		
- طوال بن يزيد	. . .	. . .		
حميد بن حمدان الهمداني [155]	فاس الكبرى (عدوة القرويين)	شيعي فاطمي عبيدي	320هـ أو سنة 321هـ.	
أحمد بن بكر الجدامي [156] (المرحلة الأولى)	عدوة القرويين	أموي أندلسي سني	321هـ-322هـ	حليف لموسى بن أبي العافية
حسن بن قاسم اللواتي [157]	فاس الكبرى	باسم الشيعة الفاطمية	323 هـ	مدن فاس بما فيها عدوة الأندلس.
أبو يوسف محارب الأزدي	عدوه فاس الأندلس	عامل موسى ابن أبي العافية (أموي أندلسي)	324هـ و سنة 325 هـ.	

(155) أنظر الهامش أعلاه رقم 153.

(156) أحمد بن بكر : أنظر هامش 45 من هذا الفصل (السادس) . ثم القاضي النعمان: المجالس، ص 385 هامش 2. ففي سيطرته الأولى على مدينة فاس كان تابعا لموسى ابن أبي العافية الذي كان حاكما للمغرب الأقصى باسم الخليفة الأندلسي إبتداءا من سنة 319هـ .

(157) حسن بن قاسم اللواتي : يؤرخ ابن أبي زرع في القرطاس (ص 86-87) فترة حكم اللواتي على فاس بسنة 323هـ إلى سنة 341هـ . وقد حكمها أولا باسم الشيعة الفاطميين العبيديين ولكن لايدرى هل بقي كذلك أم لاً ؟ ومن المحتمل أن يتغير موقف أهل فاس من الشيعة الإسماعيلية في هذه الفترة التي عرفت ثورة أبي يزيد مخلد التي أدت إلى تراجع النفود العبيدي في الجهات الغربية من دولتهم . وخاصة في عهد المنصور إسماعيل (334هـ - 341هـ) ، ولعل الفكرة التي اعتمدها الأدارسة في مبايعتهم للفاطميين ، هي التي اعتمدها أهل فاس في دفع مضرة الشيعة، وهي فكرة « التقية ». فقد كتبوا إلى الخليفة عبد الرحمان الناصر بقرطبة،بأنهم ليسوا شيعة ولكنهاالتقية (المقتبس، 385/5). والمهم أن فاس في عهد حكم حسن بن قاسم اللواتي ، وعهد أحمد بن بكر الجذامي أي من سنة (323هـ إلى 348هـ) كانت مدينة مستقلة في حكمها الداخلي ، كانت تسيرها زعامتها الأرستقواطية المحلية، هذه الزعامة التي كان ولاؤها السياسي فاطميا أو أمويا . أنظر : ابن عذاري ، 296/1. البكري ص 811 ، ابن خلدون 7 /16 وص 86. العبر 6/ 277 . القرطاس ، ص 85.

(تابع)

عودة الحكم الإدريسي (158) - كنون وبنوه - ابراهيم النفود اليفراني الزناتي	فاس	المدينة بين الادارسة وزعامتها المستقلة فاس تحت الحكم	328 هـ-340هـ 340هـ-348هـ	

---

(158) بعد وفاة موسى بن أبي العافية في سنة 326هـ/ 938م . بدأت الزعامات الإدريسية تتطلع إلى إحياء المجد الإدريسي واتبعوا في سبيل ذلك جميع الطرق الممكنة ، من الإعتماد على قبائل الشمال المغربي ، إلى مداهنة ومصانعة قوتي الخلافتين المتنافستين على المغرب الأقصى ، تارة يبايعون الفاطميين بإفريقية ، وأخرى يوالون الأمويون بقرطبة . وفي المرحلة التي واكبت فترة أزمة الخلافة الفاطمية بسبب ثورة أبي يزيد مخلد بن كبداد، كان أدارسة المغرب الأقصى خارج مدينة فاس ، واستمر نشاطهم في البوادي بشمال المغرب . وكان أبرز زعماء هذه المرحلة ابراهيم وأبا العيش إبنا إدريس والحسن بن كنون .

وظهرت زعامتهم في أعقاب هزيمة موسى بن أبي العافية ووفاته في شوال 326هـ/938م . وعادوا في هذه المرحلة إلى تأييد خلافة بني أمية بقرطبة. وتداخلت تحركات الأدارسة مع تحركات أبناء موسى بن أبي العافية . وكان الرجل الذي واصل العداء مع الأدارسة من أبناء موسى هو « مدين » والذي حكم فاس في عهد والده موسى (أنظر رسالة مدين إلى الخليفة الناصر في المقتبس لابن حيان ج 5 ص 427) .

ثم أن الخلافة الأموية الأندلسية عملت على بسط نفوذها عن طريق « تجمع بني يفرن » ، وهذا يعني أن الخلافة الأموية حولت اعتمادها من « حلف مكناسة الجبل» بعد وفاة موسى ابن أبي العافية ، إلى الحلف الجديد الناشئ ، وهو حلف بني يفرن الذي توافق مع مغراوة المغرب الأوسط . وكانت سنة 328هـ/ 940م هي بداية هذا التحول الجديد ، وقد احتفظ المقتبس لإبن حيان بنصوص ومراسلات مكناسة الجبل وبربر المغرب الأوسط التي تلقي الضوء على هذه المرحلة ومشاكلها التاريخية . أنظر المقتبس ج 5 ص 459 -461 . ابن خلدون العبر 276/6-279.

(تابع)

- أحمد بن خير اليفراني الزناتي [159]	.	اليفرني باسم الخلافة أموي أندلسي سني	340هـ	ولاه يعلى كبير بني يفرن. بنى صومعة القرويين
- أحمد بن عثمان اليفراني	.	. . .	344هـ	
أحمد بن بكر الجدامي [160] (المرحلة الثانية)	.	. . .	344هـ-348هـ	**أكمل بناء** صومعة القرويين

(159) ابن خلدون: العبر 36/7: «فعقد على فاس لحمد بن خير بن محمد بن عشيرة». وعرفه ابن خلدون بابن أخ يعلى أمير المغرب، المولى عليه باسم الخليفة الأموي عبد الرحمان الناصر. وذكر ابن خلدون (ج 36/7) أن «يعلى اليفرني» استخلف على عمله ابن عمه «أحمد بن عثمان بن سعيد» وأظاف أنه هو الذي إختط مئدنة القرويين سنة أربع وأربعين (344)؟

(160) تتفق المصادر المغربية والمصادر الفاطمية في موضوع أحمد بن بكر الجذامي، وخاصة في مسألة عودته إلى حكم مدينة فاس في المرة الثانية. بعد أن نجا بحياته من القبضة العبيدية الفاطمية. ويظهر أن نجاته من الأسر الأول الذي كان سنة 324هـ ارتبطت بالوضع الصعب الذي بلغته الخلافة الفاطمية أثناء ثورة أبي يزيد الخارجي.مما جعل عودته سنة 341هـ من إفريقية إلى فاس مبنية على إتفاق نجهل تفاصيله رغم أن ابن أبي زرع يصرح في قوله: «إلى أن قدم أحمد بن أبى بكر من المهدية مطلقا مكرما» القرطاس ص 86.
القاضي النعمان: المجالس ص 385 هامش 2. ثم أنظر هامش رقم 156 أعلاه من هذا الفصل السادس، ونص كلام القاضي النعمان ص (386): «فاعتقل باقي مدة القائم ثم من عليه المنصور، وأطلق سبيله». وقال القاضي النعمان على لسان الخليفة المعز: «... وما لهذا الفاسق (يعني أحمد بن بكر الجذامي) الذي أقدرنا الله عليه، بعد الذي كان منه من مناصبتنا وحربنا بعد عفونا قديما عنه وإحساننا إليه».
(المجالس ص 484).ثم أنظر البكري ص811-812 طبعة تونس، فقرة 1358 وفقرة 1359.

يظهر من جدول «حكام فاس» في النصف الأول من القرن الرابع الهجري 10/ م أن المدينة عاشت تحت ضغط السندان والمطرقة، هجوم الجيوش الكبرى، وقهر القبائل المجاورة. ثم تدخلات الزعماء المحليين، فلم تتهيأ لها فترة استقرار تمكنها من استعادة تنظيمها وتطوير نظامها باعتبارها مدينة اسلامية. والفترة الوحيدة التي أشارت فيها المصادر الى عملية « التمدين» هي المرحلة التي حكمها فيه «حسن بن قاسم اللواتي» الذي اختاره السكان لتولي الحكم. ووافق على هذا الاختيار القائد الشيعي الفاطمي «ميسور الخصي». فالتمدين الذي عرفته المدينة خص عدوة الأندلس مدينة الجند التي تحولت من تحصينات عسكرية، الى احياء مدنية كما هو الواقع في عدوة القرويين. وهذا أيضا يقتضي تنظيم توزيع الماء على الاحياء الجديدة ودورها، وإنشاء مساجد للاحياء، ومتاجر وتخصيص أسواق وتعميرها. ومن المنطقي أن إنجاز ذلك يتطلب الاستقرار والأمن، والرصيد المالي.

وإذا قارنا بين التدخل الفاطمي الشيعي في فاس، والتدخل الأموي الأندلسي فيها، نلاحظ وجود مفارقة كبيرة بينهما على مستوى الدعم والمساعدة المادية، فكلما جاءت حملة فاطمية الا واهتمت بنهب المدينة وجمع الأموال، أما الموقف الأندلسي، فإن تدخله يكون مرفوقا بالهدايا والألطاف والدعم المالي. وفرق بين الموقفين. لذلك يمكن أن نسجل ملاحظة وهي أن مدينة فاس في فترة حكم «حسن بن قاسم اللواتي» كانت شيعية فاطمية في بداية أمرها ثم تحولت الى أندلسية أموية. وهذا الوضع الذي صارت عليه فاس هو نفسه الذي انعكس على «الأدارسة» وكان ممن تولي رئاسة ذلك من الأدارسة الأمير «قاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس «الملقب بـ «كنون»[161] الذي تحول في سنة

(161) كنون: أنظر عنه: البكري ص 114 (812 فقرة 1359 وفقرة 1360). ابن عذاري: البيان 214/1 . أوسطاش: الجامع في الدراهم ص 42 و ص117 هامش 30 .

332 هـ- 943 م من الطاعة الفاطمية الى الطاعة الأموية بقرطبة. ثم ابنه « أبو العيش أحمد » الملقب بـ «الفاضل» الذي تولى زعامة الأدارسة بعد وفاة والده سنة 337 هـ/949 م. وقد التزم بطاعة عبد الرحمان الناصر في قرطبة. ودعا لمقاطعة العبيديين الشيعة.، وفي حملة جوهر على المغرب الأقصى كان زعيم الأدارسة هو الحسن كنون، الذي عينه أخوه «أبو العيش أحمد الفاضل» على رأس أدارسة الشمال، ولما وصلت حملة جوهر الصقلي «صانع العبيديين وبايعهم» واستمر في ولائه للفاطميين معلنا مخالفته للأمويين الذين أرسلوا حملة كبرى بقيادة ابن عمه «عسكلاجة» الذي أخضع «الحسن بن كنون». وبذلك تم القضاء على آخر أمل للأدارسة في استرجاع مجدهم السياسي. شهدت مدينة فاس أهم معارك نهاية الإمارة الادريسية، سنة 375 هـ/985 م.

ولكي تستقيم الرؤيا لتطور الأحداث في المغرب الأقصى منذ حملة ميسور الخصي «إلى حملة «جوهر الصقلي» من 324 هـ- 347 هـ يجب أن نقف عند:

أولا : موسى بن أبي العافية بعد سنة 324 هـ

ثانيا : التحركات القبلية في تلك الفترة أي بعد 324 هـ

فقد تزايد نشاط البحرية الأندلسية على الساحل الشمالي للمغرب، وقد افادنا ابن حيان [162] بمعلومات هامة جدا. ففي سنة 325هـ/936م كتب موسى بن أبي العافية الى الخليفة عبد الرحمان الناصر يخبره باحتلال نكور وجزيرة أرشقول وجراوة «ثم قصدنا مدينة جراوة بجميع ما كان معنا بعد تدويخنا الساحل، ونكايتنا أهله ومنعنا المراكب من الحلول به وصرفنا جميعها إلينا»[163]، وفي سنة 325 هـ/936 م. ارتفع مستوى الخلاف بين ابن أبي العافية

(162) المقتبس ج5 ص385-390 (ورقات 260-264) Halima Farhat: Sabta pp.73-79.

(163) ابن حيان: المقتبس ج5 ص414 (ورقة 282).

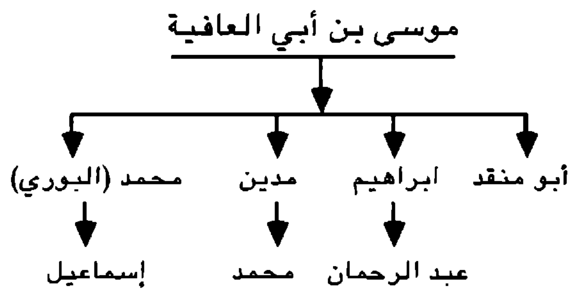
والأدارسة في المغربين الأقصى والأوسط. وفي سنة 326 هـ/ 937 م صار أبناء موسى بن أبي العافية زعماء في الأحداث اللاحقة الى جانب والدهم «موسى» حيث برز من أبنائه بعد أن هزمه ميسور الخصي وطرده من مسرح أحداث فاس، ظهر من أبنائه: البوري، ومدين، ومنقذ، وهم الذين قاموا بأدوار هامة في أحداث «حلف مكناسة الجبل» بعد والدهم «موسى بن أبي العافية»، ولذلك سماهم إبن خلدون(164) «ثلاث الأثافي».

ولكن المسألة التي تضبط دخول أبناء موسى بن أبي العافية في خضم الأحداث، هي وفاة والدهم، وقد تضاربت المصادر في التأريخ لوفاة «موسى»(165)، ونعتمد ما جاء عند المؤرخ الأندلسي ابن حيان الذي أرخها بـ (شوال 326 هـ/ غشت 938 م). فقال «وكان موت موسى في شوال من هذه السنة» وهو يؤرخ لأحداث سنة 326 هـ ثم أشار إلى وفاة موسى وهو يؤرخ

---

(164) العبر 278/6.

(165) المقتبس ج5 ص427 (ورقة 290)، و ص459 (ورقتي 311-312). وأضاف ابن حيان أن موسى بن أبي العافية خلف من الولد الأسماء الآتية:



ونلاحظ أن ابن أبي زرع والمصادر التي نقلت عنه يؤرخون وفاة موسى بن أبي العافية بسنة 341 هـ القرطاس 126/1 نشر محمد الهاشمي الفيلالي ط 1936. أوص86ط.دار المنصور 1973، وتتفق مع هاتين الطبعتين نستختنا الخطية. الاستقصا 173/1. E.I.,2e èd, T.VII, P.641.

لوقائع سنة 327 هـ فقال [166] «وفي شعبان منها (327هـ) ورد على الناصر لدين الله محمد بن مدين بن موسى بن أبي العافية المكناسي ، وافدا عن أبيه «مدين» الوالي بعد أبيه موسى القريب الوفاة» .

وبعد وفاة موسى بن أبي العافية، واستفحال ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، وتقوية المراكز البحرية الأندلسية على المغربين الأوسط والأقصى، استيقظت الحركة القبلية في الجهات الغربية كلها، وبدأت تظهر تكتلات جديدة وأهمها تكتلات «مغراوة» وتكتلات «بني يفرن» وتكتلات «مكناسة» وأدى إلى ذلك المساندة الأندلسية لهذه التجمعات القبلية. تلك المساندة التي كانت تخدم تحقيق هدفين: إضعاف الوجود الفاطمي في الجهات الغربية، وكسب القبائل التي عرفت بقبائل «زناتة» إلى جانبها. ولهذا كانت جهود الخلافة بقرطبة متوجهة نحو المراكز الآتية : موانئ المغرب على البحر المتوسط، ثم المدن التي تعبرها القوافل التجارية: تاهرت وتلمسان، وفاس وسجلماسة ثم منطقة تامسنا.

ورغم ظاهرة « التقلب» التي طبعت سلوك الزعامة المغراوية في مرحلة «ثورة أبي يزيد الخارجي»، فإن الزعامة المغراوية الممثلة في «محمد بن خزر وإبنه الخير» كانت تارة مع الفاطميين وأخرى مع الأمويين. فقبل سنة 331 هـ/943 م. كانت تابعة للأندلس، وطيلة ثورة أبي يزيد صانعت مغراوة العبيديين وقدمت لهم خدمات للقضاء على أبي يزيد الخارجي. وبعد ذلك تحولت الزعامة المغراوية الى تأييد عبد الرحمان الناصر بقرطبة. وهو الموقف الأصلي لمغراوة. وهو ما أكده المؤرخ الأندلسي [167] : «أن الخليفة عبد

---

(166) ابن حيان : المقتبس ج 5 ص 459 ورقة 311.

(167) المقتبس 460/5 ورقة 312 .

الرحمان الناصر أرسل في سنة 328 هـ/940 م إلى زعيم مغراوة «الخير بن محمد بن خزر» خاتما من خواتمه الخاصة فصه زمردة رفيعة القدر شريفة الجوهر منقوش عليها إسمه. أمر أن يقتصر على الطبع به لما ينفذه من كتبه في أكثر أوقاته» . وهذا في حقيقة الأمر تفويض على أعلى مستوى منحه الخليفة بالأندلس، لا يمنح الا للثقاة من اتباعه، فلماذا خدمت الزعامة المغراوية بني عبيد؟ فهل هي السياسة والدفاع على المصالح؟ وبعد انتهاء ثورة أبي يزيد عادت الزعامة المغراوية الى التأييد الأندلسي، ومن هنا أي من سنة 336 هـ/947 م اتجهت مغراوة المغرب الأوسط نحو المغرب الأقصى، وبهذا التوجه ظهرت المنافسات الحادة والشديدة بين الزعامات القبلية الأخرى وخاصة مع مكناسة وبني يفرن وصنهاجة المغرب الأوسط.

وأمام هذا الوضع التنافسي القبلي المتشابك والمعقد الذي تداخلت وقائعه وتضاربت مواقفه في المغربين الأوسط والأقصى، أمام كل ذلك أصبح واقع الجهات الغربية يعيش حربا أهلية حقيقية، وأزمة إنقسامية فعلية انعكست على نظام المجتمع القبلي كله في المنطقة، وتحولت معها البلاد الى مجال للصراع الدموي في الأرياف والمدن. والنتيجة التي أعطتها تلك الأحداث هي استمرار التحركات الجماعية لقبائل المغرب الأوسط نحو الجهات الواقعة غرب حوض نهر ملوية.

والمصادر التي أمكننا الاطلاع عليها، لا تشير الى أي عمل عسكري أو سياسي يكون المنصور الفاطمي العبيدي قد قام به في الجهات الغربية (المغربين الأوسط والأقصى) منذ أن عاد الى المهدية سنة 336 هـ/947 م إلى أن توفي بالمنصورية سنة 341 هـ/953 م. ولكن مصادرنا اهتمت بأخبار الصراع القبلي التنافسي في آخر عهد «المنصور الفاطمي» بالجهات الغربية ومن ذلك قيام الحرب بين مغراوة وصنهاجة سنة 340 هـ/951 م. ثم تغلب «يعلى

بن محمد اليفرني» على وهران وتقريب الخلافة الأندلسية له ودعمه ضد من خالف التأييد الأندلسي الأموي في المنطقة المغربية.

وبذلك تكون سنة 340 هـ/ 951 م هي بداية التفوق اليفرني في المغربين الأوسط والأقصى. أما مغراوة في هذه السنة فكان ولاؤها شيعيا فاطميا. ويرجع سبب هذا الانقسام - على ما يفهم من نصوص ابن خلدون(168) إلى كون يعلى بن محمد الفرني، انتهز فرصة انشغال الأميرين المغراويين محمد بن خزر، وإبنه الخير بحرب صنهاجة فاستولى على مدينة «وهران» مركز قيادة الحلف المغراوي الذي أيد الشيعة الفواطم في مرحلة ثورة أبي يزيد الخارجي صاحب الحمار. وبهذه الضربة التي وجهها بنو يفرن لمغراوة أسند الخليفة عبد الرحمان الناصر لزعيم بني يفرن « ولاية المغرب وأعماله» وكان هذا التعيين ما بين 340 هـ وسنة 341 هـ وبهذا التعيين انتقل زعيم مغراوة للفاطميين ، فقدم «ابن خزر» ولاءه للمعز ولهذا يقرر ابن خلدون(169): «وتغلب يعلى بن محمد اليفرني على بلاد زناتة والمغرب الأوسط فعقد له الناصر الأموي عليها وعلى تلمسان أعوام أربعين وثلاثمائة» (340 هـ). ثم يقرر في مكان آخر(170) «واستفحل سلطان يعلى في ناحية

---

(168) ابن خلدون: العبر 93/4-96 ، 278/6 ، النويري: نهاية الأرب 166/24-167 ابن دينار: المؤنس ص63 .

(169) العبر 158/7 .

(170) العبر 36/7 ، 295/6 ، وقد تناول ابن أبي زرع موضوع النفوذ اليفرني في فاس والمغرب الأقصى بطريقة أخرى وإن حدد بقاء عامل يعلى وهو محمد بن الخير اليفرني بسنة « فأقام أميرا على مدينتي فاس نحو سنة وارتحل عنها الى الأندلس برسم جهاد الروم، واستخلف عليها ابن عمه أحمد بن بكر وهو الذي بنى صومعة القرويين». أنظر القرطاس ص 54 (56).

.../...

المغرب، وخطب على منابرها لعبد الرحمان الناصر ما بين تاهرت الى طنجة، واستدعى من الناصر تولية رجال بيته على أمصار المغرب» ثم أشار[171] «وعلى تاهرت وإفكان يعلى بن محمد اليفرني» واستمر التفوق اليفرني الزناتي في المغربين الأوسط والأقصى إلى « أن أغزا المعز لدين الله كاتبه «جوهر الصقلي» من القيروان الى المغرب سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، 347 هـ/958 م.

ونعود إلى مدينة فاس بعد أن حاولنا وضع تصور عام لسياق الأحداث في المنطقة المغربية من حملة ميسور الخصي في سنة 324 هـ/936 م إلى حملة جوهر الصقلي في سنة 347هـ/958 م. واتضح فيها واقع له خصوصيته خلال هذه الفترة وهو ارتباط أحداث المنطقة بالنظام القبلي وفعاليته في توجيهها، ثم خضوع المراكز والمدن وخاصة مدينة فاس لهذه الحركية القبلية وتأثرها بها.

وخلال هذه الفترة اقتصر حديث النصوص التاريخية على حدثنين عمرانيين هما:

أ- تمدين عدوة الأندلس وهو ما أشرف عليه حاكمها حسن بن قاسم اللواتي بعد توليته عليها ابتداء من سنة 323 هـ/935 م. وفي ظل النفوذ الشيعي الفاطمي.

.../... التازي: جامع القرويين ج1 ص57 . وهنا نسجل أن الشخصية التي حكمت فاي في سنة بناء صومعة جامع القرويين تضاربت النصوص التاريخية في ضبط إسمها، ولعل ما ذكره ابن خلدون هو أقرب الى الصواب وأنسب مع سياق الأحداث التاريخية وبذلك يكون بانيها هو عامل يعلى اليفرني الذي عينه على فاس وهو إبن عمه أحمد بن عثمان الزناتي وليس أحمد بن بكر الجذامي.

(171) العبر 96/4 .

ب- بناء صومعة جامع القرويين سنة 344 هـ/955 م وهو ما أشرف عليه الحاكم اليفرني الزناتي «أحمد بن عثمان». والذي كان تابعا للخليفة الأموي الأندلسي، وهذا الحاكم هو الذي تولى بعده «أحمد بن بكر الجدامي» وهو الذي أكمل بناء صومعة القرويين، واستمر الجدامي على حكم فاس الى أن قبض عليه جوهر الصقلي وأرسله الى المهدية مع رهائن المغرب الأقصى الذين قبض عليهم.

وأخيرا نخلص الى أن مدينة فاس في القرن الثالث الهجري والنصف الأول من القرن الرابع الهجري /9 م- 10 م استمرت قاعدة مركزية للتمدين وهيكلة المغرب الأقصى على أساس ارتباطها بالمدن المغاربية كلها، فقد ساهمت في بناء مجتمعها مدينة القيروان، وقرطبة، ثم المنظومة القبلية المغربية. كل ذلك أطره التنظيم الإسلامي الذي وجه الأعراف والعادات المحلية، فكانت بذلك مدينة فاس «بوتقة» الصهر الإجتماعي. فتهيأت لتصير المنارة العلمية الرئيسية التي يمتد اشعاعها على الجهات التي ربطتها بها طرق التجارة القوافلية في العصور الإسلامية اللاحقة.

ومن رجالات الحياة العقلية الإسلامية التي كونت نواة المجد العلمي الفاسي الذين ذكرتهم المصادر في هذه المرحلة نخص منهم: أحمد بن القاسم بن إدريس الأول المتوفى سنة 296 هـ/909 م(172) . وبكر ابن حماد الزناتي التاهرتي(173) (تـ296 هـ) وعبد الله بن محمد الفارسي، وهو أول خطيب على المنبر الفاطمي بجامع القرويين سنة 307 هـ/920 م(174). والأمير الإدريسي

---

(172) البكري: المسالك ص814 فقرة 1362 . فقد اشتهر بالعلم «فكان له علم وقدر بالمغرب» ويعرف بالكرتي. أنظر التازي : جامع القرويين 152/1-153 .

(173) البكري: نفسه الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج1 ص210 . التازي 153/1 .

(174) القرطاس ص55 . التازي: 153/1 .

يحيى[175] بن إدريس بن عمر بن إدريس الثاني (308 هـ) وتوفي في المهدية بإفريقية سنة 334 هـ وابن بكار[176]، وأبو الحسن علي بن محمد الخطيب الأول لمسجد الأندلس واشتهر بالصدفي[177] توفي سنة 321 هـ/ 933م، والقاضي محمد بن عبد الله بن أبي عيسى[178]. المتوفى سنة 332 هـ/ 944 م. والفقيه الزاهد جبر الله بن القاسم الأندلسي[179] المتوفى سنة 350 هـ/960 م. وكان ملازما لمسجد الأندلس وساعد على انتشار المذهب المالكي في فاس الكبرى. والفقيه عيسى بن سعادة[180] المتوفى 355 هـ/964 م. والفقيه دراس بن اسماعيل[181] توفي سنة 357 هـ/967 م. والفقيه الشيخ أبو جيدة بن أحمد الفاسي اليزغيتني (من بطون قبيلة يازغة) وكان من علماء فاس

---

(175) هو يحيى الرابع من الأمراء الأدارسة العلماء، وقد سبق أن درسنا مواقفه السياسية في مواطن من هذا الفصل، ونذكره هنا من زاويته العلمية. أنظر التازي 153/1 .

(176) ابن بكار من أسرة علم وقضاء بمدينة فاس في عصرها الأول وقد ورد ذكر هذه الأسرة العلمية الفاسية العريقة في الحوالات الحبسية الفاسية: أنظر التازي 153/1 .

(177) الصدفي من فقهاء عدوة الأندلس بفاس. أنظر القرطاس ص55 ، الجزنائي: جني زهرة الآس 42 (92). التازي 153/1 .

(178) وصفه عبد الهادي التازي بقاضي الجماعة في فاس (154/1).

(179) جبر الله من فقهاء عدوة الأندلس، وساعد على نشر المذهب المالكي بفاس. أنظر التازي: جامع القرويين 154/1 ترجمة 12 .

(180) ابن سعادة تتلمذ على الفقيه جبر الله، انتقل الى الأندلس والقيروان ومصر. أنظر التازي 154/1 .

(181) دراس بن اسماعيل رجل علم شهير في تاريخ علماء المذهب المالكي في المغرب الإسلامي. أنظر عنه التازي: 154/1 ترجمة 14 .

الذين اشتهروا في عصرها الأول باتقانهم لفقه المذهب المالكي والشافعي. وهو مع الفقيه دراس بن اسماعيل، وعيسى ابن سعادة، والفقيه جبر الله بن القاسم، هؤلاء هم الذين كونوا الركائز الفكرية والعلمية لمدينة فاس، وكانوا محل تقدير واجلال من رجال المدينة والمغرب عموما.

ثم جاء بعد هؤلاء رجال علماء عاملون طوروا هذا الأساس المعرفي في فاس الى أن تحولت الى مدرسة للمغرب كله في القرن السابع الهجري/13م مع العصر المريني بوجه خاص وما بعده.

أما جوانب الحياة الأخرى في فاس وما يرتبط بها من شرائح اجتماعية. فقد غاب الحديث عنها في المصادر، ولكن إذا انطلقنا من التاريخ النقدي للأدارسة في فاس، ومن المصادرات التي كانت الجيوش الكبرى تقوم بها في فاس، مثل ما فعله قائد الجيش الفاطمي «مصالة بن حبوس » في سنوات 305 هـ/918 م وسنة 308 هـ/920 م. وكذلك ما قام به القائد الشيعي «ميسور الخصي» في سنة 324 هـ/936م. يظهر من نتائج ما استخلصته تلك الحملات من مدينة فاس أن هذه المدينة كانت فيها حياة «حرفية نشيطة» ومتنوعة، وحياة تجارية ذات علاقات بعيدة المدى، فضلا عن التجارة المحلية التي كانت تهم الاستهلاك المحلي أو المحيط القريب من المدينة.

ففي حملة ميسور الخصي على مدينة فاس ذكرت المصادر المغربية(182) ثمن فك الحصار الفاطمي على المدينة، هذا الثمن الذي كان ثقيلا وباهضا جدا، رغم أن المؤرخ الأندلسي اب ن حي ان يقلل من ذلك

---

(182) الداعي إدريس: عيون الأخبار (تحقيق اليعلاوي) ص263 . القرطاس ص 86 الاستقصا 172/1 . ابن عذاري: البيان ج 210/1 . البكري: المسالك 127-128 (812 فقرة 1359). إبن خلدون: العبر 277/6 . الدكتور السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير 504/2-506 .

فيقول[183]:«وجاء بعده كتاب منه ثان، يذكر فيه رجوع الكلبين ميسور وصاحبه، ومن معهما من جيش المشارقة وشيعهم عن مدينة فاس، خائبين خاسرين خاسئين» رغم هذا التقليل من ثمن رفع الحصار الشيعي على فاس فإن القرطاس يفصل في ذكر ذلك[184] «فصالحهم ميسور على أن أعطوه ستة آلاف دينار، وأنطاعا، ولبودا وسروجا وقربا للماء وأثاثا». وهذه الأشياء التي قدمها أهل فاس للقائد الشيعي ميسور الخصي في سنة 324 هـ/936 م تؤكد حقيقة وجود نشاط صناعي حرفي بالمدينة، وبصورة كبيرة جدا من شأنها أن تتمكن من تزويد جيش بما يكفيه من المواد اللازمة له في حركته الكبرى، ويؤكد هذا أن فاس بعدوتيها عرفت نموا ديموغرافيا نسبيا مما فرض على أهل العدوتين توسيع المسجدين الأعظمين فيها هما مسجد الأندلس وجامع القرويين. وعرفت المدينة ذلك رغم ضغط الجيوش القبلية والنظامية، ورغم الأزمة الانقسامية التي ما زالت تعرفها فاس الكبرى في منتصف القرن الرابع الهجري/10 م. وهكذا خرجت مدينة فاس من الطاعة الشيعية الفاطمية منذ انتهاء حملة ميسور الخصي، ويظهر أن انفصال فاس عن الفاطميين كان متزامنا مع بداية ثورة صاحب الحمار الذي فصل الجهات الشرقية عن الجهات الغربية من الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب، ولما جاءت حملة جوهر الصقلي في 347 هـ/958 م، عادت فاس قهرا إلى الطاعة الشيعية الفاطمية، وظل النفوذ الفاطمي قائما بها إلى أن أرسل الخليفة الحكم المستنصر الأموي قائده «غالب» الى المغرب[185] في سنة 362 هـ/972 م فسار الى فاس ودخلها واستعمل عليها «محمد بن أبي علي بن قشوش» بعدوة القرويين، وعبد

---

(183) المقتبس ج5 ص385 ورقة 260 .

(184) القرطاس ص 86 .

(185) المقتبس (تحقيق الحجي) ص108 وما بعدها.

الكريم بن ثعلبة بعدوة الأندلس، ثم استأنف بنوا زيري الصنهاجيون خلفاء الفاطميين في بلاد المغرب محاولات اخضاع المغرب الأقصى وخاصة مدينة فاس للطاعة الشيعية الفاطمية، فكانت الحملة الكبرى التي قادها «بلكين ابن زيري»[186] ورغم نجاحها المؤقت فإن فاس عادت الى الطاعة الأموية الأندلسية السنية. وذلك هو قرارها المصيري الذي ابتدأت به حياتها التاريخية.

(186) الداعي إدريس: عيون الأخبار ص730 ورقة 134/2 . د.السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير 507/2 . هـ.ر. إدريس: الدولة الصنهاجية ج1 ص91-92 .

خاتمة البحث أو حصيلة ونتائج

لقد تابعنا التاريخ المغربي الداخلي منذ ما قبل الإسلام، وقمنا برصد ما عرفه تاريخ المجتمع المغربي - على قدر ما أمكننا رصده فيه من ظواهر - فكانت الصورة الناتجة من كل ذلك، هي سيطرة «الظاهرة القبلية» على كل شيء فيه. وثبت من خلال ذلك تحكم « المكان المغربي» في توجيه الحياة العامة وخاصة في المغرب الأقصى. فوجب بناء على ذلك ملاحظة المكان وتأثيره في التشكيل والتنظيم. ومن هنا كانت دراسة المناطق المرتبطة بكل بنية اجتماعية في الجبال والسهول أو السهوب والواحات، وتخوم رمال الصحراء، هي المفتاح العملي لفك الغموض الذي طغى على تاريخ المغرب الأقصى وتكويناته عبر عصوره التاريخية وخاصة في عصوره الإسلامية الأولى فضلا عما قبل ذلك.

لقد انتهى بنا البحث إلى مرحلة الإنتقال الفاطمي العبيدي من بلاد المغرب الى مصر، أو بالأحرى انتهينا أو أوقفنا البحث عند منعطف جديد في التاريخ المغربي، وهو ما عبرت عليه « الوصية الفاطمية» التي وجهها الخليفة «المعز» لخليفته الزيري «يوسف بلكين ابن زيري الصنهاجي». فقد أوصاه يوم التقليد الرسمي بولاية إفريقية أو على الأصح « المغرب» في يوم الأربعاء 20 حجة سنة 361 هـ 2 أكتوبر 972م فقال[1] :« يا يوسف، إن نسيت مما أوصيتك به فلا تنسى ثلاثة أشياء: لا ترفع الجباية عن أهل البلاد

---

(1) أنظر: المقريزي: اتعاظ الحنفاء 145/1 . النويري: نهاية الأرب 170/24 . ابن عذاري 263/3 . ابن خلدون 318/6 . ابن دينار: المؤنس 74 . وفيات الأعيان 93/I . ابن الأثير : الكامل 244/8 . الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية 78/1 .

(البادية)، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تول أحدا من أخوتك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، وافعل مع أهل الحضر خيرا».

حقيقة كانت هذه الوصايا هي خلاصة التجربة السياسية الفاطمية في بلاد البربر، ومن شأنها أن تحملنا على ربط الأوضاع السابقة عليها بما سيأتي بعدها. وهذا الربط لا يتأتى إلا باستقراء التطورات والتحولات التي عرفها النسق الاجتماعي المغربي. وأهم ما عبرت عليه هي تأصيل العداء بين الحاكمين والمحكومين، وكذلك تأصيل سياسة ضرب تجمع بربري بتجمع آخر وهي سياسة «فرق تسد»، ولايخفى ما لهذه السياسة من آثار سيئة على المغرب الإسلامي، وأهم ما تؤدي اليه فقطعا تفضي إلى خلق العداء بين السكان وتشتيتهم، و بالتالي تعميق الصراع والتقاطع بين الصغار لصالح الكبار.

لقد ركزنا في تحليلنا على المجتمع المغربي دون أن نهمل العلاقات الخارجية، على أساس ملاحظة الأبعاد البعيدة المؤثرة، فكانت الحصيلة هي استجابة المجتمع المغربي للنظريات الفاطمية والأموية الأندلسية[2] مع ميول واضحة للنظرية السنية الأندلسية التي كانت متلاحمة مع آراء ومفاهيم فقهاء المالكية القيروانيين. ولعل هذا الاتجاه السني هو الذي وجد فيه «أهل المغرب الأقصى» ذاتهم وشخصيتهم الإسلامية التي تحملهم على معارضة التعصب المذهبي. وهذا ما يفسر المقاومة الشديدة والصارمة لخصومهم من أي اتجاه غير سني إسلامي[3].

---

(2) أنظر: فقرة مجتمع المغرب الأقصى والصراع المذهبي في القرن الرابع الهجري /10 م. من الفصل الثالث- الباب الثاني.

(3) فقرة المغرب الأقصى والحماية الأندلسية/ الفصل الثالث من الباب الثاني. ثم قبلها، فقرة ظاهرة التشتت القبلي في المغرب الأقصى من نفس الفصل والباب.

وخلصنا في دراستنا الى أن الحياة الإجتماعية توجهها أزمنة تاريخية إجتماعية. وحقائقها التاريخية متعددة وأحيانا متناقضة ومتضاربة، ولكنها لا تخرج عن المضمون النسقي لكل بنية من بنيات المجتمع الكلي، فهي حقيقة وفعلا مادة الماضي التاريخي، كما أنها نسيج الحياة الإجتماعية الراهنة[4]. وكانت النتيجة الهامة في هذا السياق، أن المغرب الأقصى استمر في مرحلة الانقسام القبلي ولكن انتقل من الشتات الى مرحلة «التجمع الجهوي»، كل جهة تسيطر عليها زعامة محلية مكناسة الجبل، وبنو يفرن، ومغراوة ومصمودة الشمال المغربي، وصنهاجة الجنوب. وهسكورة جبل درن.

إن الزمن التاريخي هو في نفس الوقت زمن اجتماعي، ولكن اكتشاف التاريخ رهين باكتشاف الزمن الإجتماعي، وهذا الاكتشاف لا يتحقق ولا يتم إلا باستخدام الآليات العلمية الحديثة من دون اغفال أو تهميش أقدم العلوم واستخداماتها في عصور تكوينها وتوظيفها فيها، فهي بذلك مفتاح مغلقات عصرها.

وبذلك أدت عملية تفكيك الأزمنة التاريخية التي قمنا برصد وقائعها الكرونولوجية، إلى إعادة النظر في قراءة عصر دراستنا وهي مرحلة القرن الثالث ومنتصف الرابع الهجري /9-10م. وجاءت الأرضية الاقتصادية والإجتماعية أساسا لصيرورة التحولات الكبرى التي عرفها المغرب الأقصى في الزمن المحدد قبله[5]. ومن ثم تولد في مسيرة دراستنا حذر حاد إزاء قراءة المصادر التقليدية، فجاءت التفسيرات التي اعتمدناها في الدراسة

(4) أنظر الفصل الثاني من الباب الأول ثم الفصل الثاني من الباب الثاني.

(5) عالجنا هذه المسألة في الفصل الأول من الباب الثاني، وكذلك في الفصل الخامس من الباب الأول.

مبنية على رصيد «الزمن الطويل» أو المدى البعيد. ولهذا أين توجد الحقيقة؟ هل في الوثيقة التاريخية أو في رصيدها الزمني داخل العمق الإجتماعي للمغرب؟

فالزمن التاريخي بهذا المعنى لم يعد زمنا سياسيا في بحثنا، وإنما تحول إلى زمن اجتماعي تاريخي، ولذلك انتج البحث نمطا آخر من التحليل والسرد التاريخي، هذا النمط الذي لا يعطي للحسم الزمني أهمية بقدر ما يعطي للتحول الجذري في الحياة العقلية والإجتماعية والذهنية أهمّية خاصة ومتميزة. فالمحطة التاريخية في دراستنا، محطة نوعية وليست لحظة انتقال سياسي حربي. واتجه البحث في معظم فصوله ، سواء في الباب الأول أو الباب الثاني إلى إعطاء الأولوية «للبنيات الإجتماعية» ولهذا حسب منهجنا في الدراسة - لا يمكن معالجتها في مستوى لحظة الحسم أو ما يمكن تسميته بالدراسة القيصرية، فهي عملية توليدية غير طبيعية. فجاءت البنيات الإجتماعية للمغرب الأقصى في دراستنا نتاج تجميع ومعمار تاريخي، امتازت به كل جماعة متحالفة أو متضامنة، أو متقاطعة متعارضة. وهذا ما عبر عنه المسار التاريخي المغربي، فثبات البنيات والعمل على تعديلها أو تغييرها، مسألة تتحقق في الزمن الطويل ولعدد من الأجيال وبجهود مضنية، من أجل التغيير والتواصل(6).

لقد أثبت البحث أن الإنسان المغربي لا ينسى تجاربه السابقة على كل تحول جديد في بنياته، وإنما يختزنها ليظهرها بأشكال جديدة في فترات المواجهة مع الجديد(7). كما أثبت أيضا أن المجال الجغرافي المتنوع في المغرب الأقصى ومقومات الحياة عليه، عمل على تكوين ونمو علاقات بينه وبين

(6) أنظر هذه الجوانب في مواطن متعددة من فصول الباب الأول.

(7) الفصل الثالث والرابع من الباب الأول، ثم الفصل الثالث من الباب الثاني.

الإنسان المغربي الذي يعيش عليه وفيه. فكان المكان المغربي ذا بعد جغرافي واجتماعي في آن واحد[8]. ومن هنا جاءت الجهوية المغربية مبنية على الجهوية الجغرافية، ولكن الشمولية الوحدوية جاءت نسقا مذهبيا وروحيا ترابطت خيوطه بتكامل طرق المواصلات التجارية التي انتجها القرن الرابع الهجري /10 م.

وأثبت البحث أن المجتمع المغربي في عصر دراستنا كان تحت حكم «شيوخ القبائل» وهو النظام الذي وافقت عليه التقاليد المغربية القديمة، وأثبت البحث عراقة النظام الوراثي في حكم الشيوخ، وخاصة على مستوى الزعامة العليا للتجمعات الحلفية القبلية[9]. ولذلك لاحظنا أن التطورات المرتبطة بالتاريخ السياسي والعسكري وثيقة الصلة بالظروف الجغرافية والإثنية القبلية. مما جعل المحيط البشري للمغرب الأقصى خاضعا لعملية تغيير كبيرة في خريطته القبلية أو الإثنية. مما جعلنا أيضا لا نستطيع القيام بوضع خريطة قبلية قارة وثابتة. لقد كان تغير المواقع والمواطن شيئا مألوفا ما عدا بعض الجهات الاستثنائية وخاصة في شمال المغرب الأقصى أو بجبل درن الأطلس الكبير. وهذا يعني أن مناطق الاستقرار القبلي كانت قادرة على تلبية حاجات سكانها رغم قناعتهم.

وأثبت البحث حقيقة أخرى وهي أن مجتمع المدن مثل مدينة فاس[10]، لم يكن مجتمعا حربيا هجوميا، وإنما كان مجتمعا منظما للدفاع عن نفسه، فلم يكن سكان المدن يساهمون في الحروب إلا دفاعا، ولذلك لم يتأثر سير حياتهم بالنظام الإجتماعي الحربي. ولهذا كان علينا أن نعيد

---

(8) الفصل الأول من الباب الأول، وكذلك الفصل الثاني من الباب الثاني.

(9) الفصل الثاني من الباب الثاني.

(10) الفصل السادس من الباب الثاني.

النظر في المعنى التاريخي الذي يمكن استنتاجه من أقوال الاخباريين الذين يضخمون الخسائر والضحايا والنتائج عندما يروون أخبار وقائع التاريخ السياسي والحربي، ومع مزيد من الحذر والتحفظ واخضاع الأخبار للفحص والتحري، أمكننا الاقتناع بأنه لا يمكن أن نغتر بتهويلات وتضخيم أقوال الاخباريين.

والمهم من هذا وذلك أن الصراع السياسي والمذهبي الذي عرفه المغرب الأقصى بين الخلافة الفاطمية الشيعية وبين الخلافة السنية الأموية الأندلسية، لم يكن له أثر واضح على بنيات المجتمع القبلي المغربي، وكل ما حدث هو خلخلة الخريطة القبلية وتغيير المواقع وأماكن الإنتقال. ومن هنا صار مدلول «زناتة»[11] مرتبطا بنمط من أنماط الحياة وهو نمط الرعي والترحال، وليس قرابة دموية سلالية نسبية. وهذا النمط السائد في الجهات التي وصفت ببلاد زناتة لم يتغير واستمر معبرا على مجتمع أنصاف الرحل أو الرحل في مناطق السهوب. فكان موضوع « التوازن الإجتماعي» بين المستقرين والرحل هو مشكلة العصر، هذا التوازن الذي لم يتحقق، وأدى عدم تحقيقه الى توسيع دائرة الخلاف بين أنظمة الخلافتين الفاطمية والأموية، وبين مجتمعات القبائل المتنوعة في نمط حياتها وعيشها ومجالاتها الجغرافية التي انتشرت فيها أو تطمح الى الإنتشار فيها.

والجدير بالملاحظة أن المغرب الأقصى في عصر دراستنا وخاصة في النصف الأول من القرن الرابع الهجري / النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، أظهرته الأحداث التاريخية عموما وكأنه معبر للموارد الاقتصادية التي أنبنت عليها ميزانية وخزائن أنظمة « الخلافة الإسلامية»[12] الجديدة.

---

(11) الفصل الثالث من الباب الأول، والفصل الأول من الباب الثاني.

(12) الفصل الخامس من الباب الأول: الفصل المخصص لطرق القوافل.

فكان منطقة لمرور الأدوات الاستراتيجية في عصرها من ذهب وعبيد وخيول ومجندين وآليات أخرى. ومن شأن هذا الوضع أن يعمق الانقسام الداخلي للسيطرة عليه، كما أن هذا الانقسام الداخلي يزداد حدة كلما تعرض لضغوط خارجية عنيفة وشديدة القسوة.

وعلى المستوى الداخلي للمجتمع في المغرب الأقصى، حاولنا رصد البنيات التي كان لها فعل عملي في الحياة، ولكن لم تظهر في تاريخ الأحداث مباشرة، وهو ما سميناه «بعصبية الظل»[13]، فلا ندعي أنها عملية اكتشاف، ولكنها ساعدتنا على التمييز بين طبيعة الشرائح التابعة، وبين الجماعات التي ظهرت في نصوص مصادر التاريخ التقليدي الذي انبنى على تاريخ الحروب والسياسة. ومهما كانت المحاولة فإنها أوصلتنا إلى «تصور جديد» للتاريخ المغربي في الأرياف والقرى والمدن[14].

وهكذا انتهى بنا البحث الى الخلاصة العامة الآتية وهي أن المجتمع المغربي في منتصف القرن الرابع الهجري /10م. عمل بجدية من أجل الوصول الى بلورة ذاته وشخصيته المستقلة، داخل النظام الإسلامي السني وفي إطار المحافظة على نظامه القبلي العام المرتبط بالبيئة المغربية الجهوية، على أساس تعايش مصلحي مع القوى المجاورة.

فكانت الوقائع الإجتماعية والأحداث التاريخية ناطقة بتلك المقولة التي انتهينا اليها، ونجمل أمر ذلك في الخلاصات الآتية:

أولا: إن المجتمع المغربي خضع للنظام القبلي، الذي امتاز بالحركة والتداخل والانقسام. فاتجهت عموما حركة القبائل البربرية في اتجاهين: الأول من الشرق إلى الغرب، وكان ممر تازة هو أهم معبر لحركة القبائل.

---

(13) الفصل الرابع من الباب الثاني.

(14) الفصل الرابع من الباب الأول، والفصل الثالث من الباب الثاني.

وثانيا من الشمال الى الجنوب وأحيانا من الجنوب الى الشمال. وهذه الحركة جعلت الأندلس مركزا وهدفا للإنتقال البشري المغربي، وجعلت الصحراء عبر طرق التجارة الصحراوية إحدى مناطق الاستقطاب البشري. فكان محور نهر ملوية، ومجال فاس وسجلماسة أبرز مجال للعبور وتشكيل التنظيمات والتجمعات القبلية المغربية تضامنا وانشطارا.

ثانيا : أدت تلك الحركة القبلية وما أثر فيها من تدخلات عسكرية وسياسية الى تكوين تكتلات جديدة نتجت من داخل التكتلات القديمة، أي تلك التي نشأت مع الفتح الإسلامي واستمرت الي أواسط القرن الثالث الهجري /9 م. حيث كان البتر والبرانس وبعد ذلك أي في أواسط القرن الثالث الهجري وما جاء بعده الى بداية القرن الخامس الهجري /11 م. وانقسمت التجمعات القبلية: بنو يفرن، ومغراوة، ومكناسة، وهسكورة، وبنو توالي، وبورغواطة، ومصمودة بشمال المغرب الأقصى. ثم ظهر في الجنوب الصحراوي - على انقاض حلف صنهاجة «أنبية» - انقسام في هذا التجمع نتيجة لتطور وتعدد طرق قوافل تجارة الصحراء. مما تولد عن ذلك التجمع المسوفي اللمتوني والجزولي اللمطي.

ثالثا : إن المغرب الأقصى في عصر هذه الدراسة خضع لصراع الأحلاف القبلية، مما نتج عن ذلك تكوين دويلات الأحلاف. وهذه المرحلة هي التي سميناها بمرحلة «الدولة القبلية الجنينية». وهذه المرحلة سبقتها مراحل تهييئية:

أ- مرحلة الشتات القبلي، ويظهر أنها بدأت منذ آخر القرن الثالث الميلادي (أنظر الفصل الأول والفصل الثاني من الباب الأول). واستمرت الى بداية القرن الثاني للهجرة/ بداية القرن الثامن للميلاد.

ب- مرحلة التمركز والتجمع، وبداية تكوين الأحلاف القبلية، بأشكال متعددة، مذهبية دينية إسلامية، وبأشكال نمطية توافقية اجتماعيا. ومصلحية إقتصادية. واستمرت هذه المرحلة- حسب ما تبين لنا في الدراسة- من أواسط القرن الثاني للهجرة/ أواسط القرن الثامن للميلاد، إلى أواخر القرن الثالث الهجري/بداية القرن العاشر الميلادي.

حـ - مرحلة تكوين « دويلات الأحلاف القبلية » المستقلة جهويا، وهذه هي الخطوة الثانية في تطور « الدولة القبلية الجنينية » وهذه المرحلة هي المؤدية الى مرحلة «دولة العصبية»، التي تبدأ بقيام «الدولة المرابطية» في أواسط القرن الخامس الهجري /11 م.

رابعا : كان للتدخل الفاطمي والأموي في المغرب الأقصى أثر كبير على مجتمع الأرياف والبوادي، وخاصة من حيث توطين القبائل وحركتها في المجال الجغرافي المغربي، وكان التأثير الفاطمي العبيدي قويا وواضحا في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، أما التأثير الأموي الأندلسي فكان حذرا جدا في مرحلة قوة التدخل الشيعي، ثم تحول الى عنصر قوة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري /10 م. وكان المغرب الأقصى في كلا التدخلين متأرجحا في تبعيته لأي منهما، وإن كان الاتجاه العام نحو التبعية الأندلسية السنية.

خامسا : من النتائج التي انتهينا اليها ظهور التمدين ونشأة المدن في المغرب عموما خلال القرن الثاني للهجرة /8 م. ثم تراجعت نشأة المدن، بل وتراجع تطور بعضها. ثم عوضت حركة التمدين ببناء وقيام « الحصون » مثل قيام حصن « حجر النسر » بشمال المغرب الأقصى. وواكب عملية بناء الحصون، عملية مضادة وهي تدمير أو إحراق المدن أو الحصون الجديدة، مثل

تدمير مدينة البصرة(14م) وإفكان وتاهرت، وما قام به البرغواطيون بتدميرهم قرى خصومهم بتامسنا.

سادسا : من نتائج البحث الهامة، ما ثبت بالنسبة لأهم مدينة في المغرب الأقصى «فاس» التي فقدت كيانها باعتبارها عاصمة للإمارة الإدريسية، وتحولت الى مدينة تابعة، فصارت مدينة مستقلة، تعتمد على زعامتها المحلية، رغم أنها استمرت منقسمة الى مدينتين منفصلتين: عدوة القرويين وهي مركز قيادة المدينة ومقر سلطتها الشرعية. وعدوة الأندلس التي أنشأت لتكون مدينة الجند، والحماية المدافعة عن المدينة المركز عدوة القرويين.

وأثبت البحث أن مدينة فاس في القرن الثالث الهجري /9م ومنتصف القرن الرابع الهجري /10م. نظمت على غرار مدينة القيروان بحكم الجماعات المهاجرة اليها، ولكن تأثير الأندلس بدأ في عدوة الأندلس. وفي هذه المرحلة المحددة بدأت مدينة «فاس العالمة» تتحفز لتكون كذلك، ولعل عدم تحقيق ذلك في عصر دراستنا راجع الى المحيط الذي تحكم فيها طيلة النصف الثاني من القرن الثالث الهجري /9 م. وطيلة القرن الرابع الهجري /10م. فقد شهدت في هذه الفترة انهيار الإمارة الادريسية، حيث طرد الأدارسة من فاس بحكم غزو الفاطميين لها وبحكم التدخل القبلي الريفي فيها، فصار الأمراء الأدارسة شتاتا في شمال المغرب الأقصى. وهي

(14م) تقع البصرة الأثرية في قيادة «اثنين سرافح «دائرة» حد كرت » الحالية على الطريق الرابطة بين مدينة «وزان» ومدينة « سوق أربعاء الغرب» وتبعد عن الطريق الرابطة بين سوق الأربعاء والقصر الكبير بحوالي 14 كلم. تقع بالضبط في وسط المدشر الذي يعرف حاليا «دار جعاونة» «دار البصرة».

مرحلة «الشتات الأميري الادريسي» الذي قابله «الشتات القبلي» في الأرياف المغربية.

وأخيرا أثبت البحث أنّ المغرب الأقصى فقد في منتصف القرن الرابع الهجري /10 م قوة الدولة المركزية التي عملت مدينة فاس في فترة نشأتها (192 هـ - 213 هـ/808 م - 830 م) على تحقيقها على أساس تحالف قبلي (حلف أوربة). واستمر المغرب يعمل ويلملم جهوياته لإعادة وحدته الشمولية، مما تحقق مع المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري /11 م.

وأثبت البحث في نهاية المطاف، أن تاريخ المغرب عموما والمغرب الأقصى بوجه خاص لا يمكن فهمه ولا تفسيره إلا بالعودة الى الجذور السابقة للعصور الإسلامية في تاريخه، ونعتقد أن مقولة «الغموض» مهما كانت حمولتها ودلالتها في استعمالات المؤرخين المحدثين من غربيين وعرب، ترجع الى عدم الربط بين ما قبل الإسلام وما بعده. ولا نزعم أننا أمطنا لثام الغموض بقدر ما برهنا على ضرورة الربط بين العصور التاريخية القديمة والعصور الإسلامية.

لقد كانت عملية الربط شاقة وشائكة جدا، ولقد واجهناها رغم ما يكتنفها من صعوبات، ورغم ما يمكن أن تواجهه من نقد ومعارضة. وقد قدمت تلك العملية خدمة في إعادة قراءة التاريخ المغربي، التي ركزنا فيها على القضايا الإجتماعية، وبحكم طبيعة التاريخ الإجتماعي التي تمتاز باستمراريتها وخضوع تغييرها وتحولها لزمن التاريخ في الفترات الطويلة المدى، بحكم ذلك كان عملنا انتقائيا وموجها نحو القضايا التي كان لها حضور في الحياة اليومية والعامة على حد سواء، وتبين أنها أثرت فعلا على الذهنية التاريخية للمغاربة عموما، وإن امتازت في كل عصر بخصوصية تاريخية

تميزها، فكانت لها تاريخية تؤطرها وتكسبها تصورا يميزها في كل مرحلة من مراحل التاريخ المغربي.

وعلى هذا ، فإنني أقول بوضوح أنني لم أنتـه إلى حقائق ومسلمات جاهزة ، بقدر ما أثرت طرح أسئلة على تاريخنا الإجتماعي أو على مغرب عصر دراستنا . لقد كان في إمكاننا ترك النصوص والوثائق تتكلم عن لحظتها الزمنية ، ولكن الإستخدام المنهجي الذي شرحناه في مقدمة هذا البحث ، أفضى بنا إلى إعادة النظر في القراءات السابقة لتاريخنا المغربي دون أن ننطلق مسبقا من البحث عن الإيجابي وتهميش أو تغطيه الجوانب السلبية في حركية عصر دراستنا .

الفهارس العامة

1- مكتبة البحث او البيبليوغرافية

2- فهرس الموضوعات

3- فهرس الخرائط

مكتبة البحث او البيبليوغرافيا

خطة ترتيب مكتبة البحث Bibliographie

رتبنا مكتبة دراستنا على الأساس الترتيبي الأبجدي لأسماء المؤلفين، وقسمناها نوعيا إلى:

أولا : المؤلفات بالعربية. وهذه رتبناها إلى ثلاثة أنواع:

أ- المخطوطات والمطبوعات الحجرية.

ب- المطبوعات الحديثة، والأبحاث المرقونة.

ج- الموسوعات، والدوريات بالعربية والمترجمة.

ثانيا : المؤلفات باللغات الأجنبية. وهذه أيضا خضعت للتقسيم السابق من القسم الأول.

أ- المؤلفات

ب- الموسوعات والمقالات باللغات الأجنبية:

أولا: مكتبة البحث بالعربية

1- الأزموري: محمد بن عبد العظيم الأزموري.

- بهجة الناظرين. مخطوطة خزانة القرويين بفاس. ونسخة خطية خاصة بمكتبتنا. كما عدنا إلى نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم د.1051 .

2- ابن أبي زرع:

الأنيس المطرب بروض القرطاس، من أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس، الطبعة الحجرية بفاس سنة 1303 هـ/886 م.

3- ابن أبي زيد القيرواني :(386 هـ).

1- النوادر والزيادات : مخطوطة خزانة القرويين رقم 338 .

2- المختصر :(مختصر ابن أبي زيد)، خ. القرويين 339 .

3- فتوى في موضوع طلب الحكم الشرعي حول الفتن بالمغرب خلال القرن الرابع الهجري. ضمن مخطوطة مفاخر البربر، المعنون بكتاب الأنساب، لآبن عبد الحليم. مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم ك 1275 .

4- ابن بطال : ت449هـ .

- شرح صحيح البخاري. مخطوطة خزانة القرويين رقم 127 ونسخة رقم 134 .

5- ابن الحذاء: محمد بن يحيى ت 347 هـ

تقييد مبتور، فيه معلومات جيدة في موضوعات فقهية وتاريخية. مخطوطة خزانة القرويين رقم 179 .

6- ابن الخطيب: لسان الدين

أعمال الاعلام (غير تام)، مخطوط خزانة القرويين، نسخة رقم 559و 565 .

7- ابن الرامي: محمد بن ابراهيم اللخمي:

- الإعلان بأحكام البنيان. طبعة حجرية 1332 هـ .

8- ابن رشد (الجد): محمد بن أحمد ت 520 هـ .

-البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة. مخطوطة خزانة القرويين رقم 329 .

وطبع أخيرا بتحقيق مجموعة من العلماء، طبعة دار الغرب الإسلامي / بيروت 1984 . وقد اعتمدنا النسخة الخطية.

9- ابن سهل: القاضي أبو الأصبغ عيسى (ت 486 هـ).

- الأحكام الكبرى (النوازل). مخطوطة خزانة القرويين رقم 1174 . ونشرت أقسام محققة منها - حققها الدكتور محمد عبد الوهاب خلاف، لم نتمكن من الاطلاع عليها كلها.

10- ابن عبد الحليم: صالح أبو محمد.

الأنيس المطرب، بروض القرطاس من أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.

نسخة تامة خطية في مجلد واحد، بخط مغربي مجوهر، مموه بالألوان، عدد أوراقها 146 ، ومسطرتها 27 ، مق 19/25 على ورق شطبي قديم عار عن تاريخ النسخ واسم الناسخ . نسخة خاصة بمكتبتنا.

11- ابن مغيث: أبو جعفر أحمد بن محمد.

- الوثائق. مخطوط خاص بمكتبتنا و به كشط وحذف (غير تام).

12- برحال: أبو علي الحسن

- رفع الالتباس في شركة الخماس. طبعة حجرية بفاس 1331 هـ / 1913 م.

13- البرزلي: أحمد بن محمد البلوي القيرواني ت 844 هـ/1440 م.

- النوازل/ مخطوطة القرويين رقم 384.

14- البطليوسي:

- المسائل والأجوبة. مخطوطة خزانة القرويين رقم 1231 .

14 م- التنسي محمد بن عبد الله:

تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مخطوطة خ.ع بالرباط رقم ق444 .

15- الداودي: أحمد بن نصر ت 402 هـ .

1- كتاب الأموال. خ،ع بالرباط.

2- شرح الموطأ. خ-ق 175 .

16- الدرجيني: أبو العباس أحمد.

-طبقات المشايخ. نسخة مصورة عن مخطوطة المكتبة الوطنية التونسية في جزئين.

17- الراشدي : عبد الرحمن بن عبد القادر.

- التعريج والتبريج من أحكام المغارسة والتصيير والتوليج. طبعة حجرية بدون تاريخ.

18- الزرويلي الصغير: أبو الحسن علي.

- الدر النثير، نسخة مخطوطة خاصة بمكتبتنا.

19- سحنون: عبد السلام بن سعيد التنوخي (ت240 هـ/ 854م).

- المدونة. مخطوطة القرويين رقم 574 .

20- الشماخي: أبو العباس أحمد بن سعيد

- كتاب السير.

طبعة حجرية بقسنطينة - الجزائر 1303هـ.

20 م- الطنغري : عبد الله بن مالك

- زهر البستان ونزهة الأذهان. مخطوطة الخزانة العامة بالرباط.

21- العشاوي السجلماسي: محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الجليل.

- فتح الجليل الصمد من شرح التكميل المعتمد.

مخطوطة خاصة بمكتبتنا. مسطرتها 35 ومقياسها 21/30 . في مجلد كبير، بخط مغربي فيلالي. صعب القراءة، تنقصه في آخره ورقات، لا يحمل تاريخا لنسخه ولا إسم ناسخه.

22- العلمي: عيسى بن علي الحسني:

- كتاب النوازل: مخطوطة خاصة تحمل طررا هامة جدا. واعتمدنا طبعتها الحجرية في جزئين. وطبعت طبعة حديثة (1983) بعناية المجلس العلمي بفاس في 3 مجلدات.

23- العماني : سعيد بن سرحان

- كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة. مخطوطة المكتبة الوطنية بتونس رقم 2524 (صورة مصورة عنها).

24- الفاسي: عبد الرحمن ت 1096 هـ/ 1685 م.

- منظومة «العمل الفاسي » طبعة حجرية بدون تاريخ.

25- الكتاني : محمد بن جعفر (ت 1345 هـ/ 1927 م). سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن قبر من العلماء والصلحاء بفاس. 3 أجزاء طبعة حجرية بفاس 1316 هـ.

26- المازري: محمد بن علي ت 536 هـ..

- المعلم بفوائد مسلم، مخطوطة القرويين رقم 152-154 .

- شرح التلقين، مخطوطة خاصة.

27- مجهول المؤلف:

1- عيون الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الأمصار. مخطوط القرويين رقم 467 .

2- كتاب الأنساب، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ك 1275 .

3- تعليق على المدونة. مخطوط القرويين رقم 1174 .

4- نبذة مطولة عن أصل البربر. مخطوطة الخزانة الحسنية/ الرباط. رقم 12424 .

5- القول السديد في اختيار الأماء والعبيد.
مخطوطة القرويين رقم 1529 .
6- شرح مختصر الطليطلي في الفقه.
مخطوطة خزانة القرويين رقم 1187 .
7- الواقدي: محمد بن واقد (ت 207 هـ).
- الفتوحات. مخطوطة القرويين رقم 1818 .
8- الحلل الموشية. نسخة خطية خاصة بمكتبتنا.
28- الوزاني: المهدي العمراني.
- شرح العمليات الفاسية التي نظمها عبد الرحمان الفاسي. طبعة حجرية فاسية في جزئين بدون تاريخ للطبع.
29- الونشريسي: أحمد بن يحيي ت 914 هـ.
- المعيار المعرب، والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب.
وقد استخدمنا طبعته الحديثة التي نشرتها وزارة، الأوقاف / الرباط 1981 (12 مجلدا). كما عدنا لنسخته الخطية التي تتوفر عليها مكتبتنا. وكذلك طبعته الحجرية الفاسية.

ب- المطبوعات الحديثة والأبحاث المرقونة:

1- إبراهيم الشريف أحمد.
- مكة والمدينة. ط دار الفكر العربي. القاهرة 1965 م .
2- ابن الأبار: أبو عبد الله محمد القضاعي.
- الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس ط1، 1963م . الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة.

3- ابن الأثير: عز الدين علي بن محمد. ت 630 هـ.
1- الكامل في التاريخ. ط دار صادر - بيروت 1979م .
2- أسد الغابة في معرفة الصحابة. تحقيق محمد إبراهيم البنا، ومحمد عاشور ، ومحمد عبد الوهاب فايد-القاهرة.
4- ابن أبي دينار: أبو عبد الله محمد الرعيني القيرواني.
- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام. نشر المكتبة العتيقة، تونس 1967م .
5- أبن أبي زرع الفاسي: علي بن عبد الله (ت في القرن 8 هـ).
- الأنيس المطرب بروض القرطاس، من أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس.
وقد استخدمنا القسم الذي نشره الهاشمي الفلالي وعلال الفاسي - المطبعة الوطنية بالرباط 1963م (جزءان). واستخدمنا كذلك الطبعة التي قام بها الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور. دار المنصور - الرباط 1973م.
6- ابن أبي زيد القيرواني (ت 386 هـ):
- الرسالة .طبعة الحلبي، مصر بدون تاريخ.
مع شروحها المغربية وخاصة شرح المغراوي/ ط دار الغرب الإسلامي بيروت 1986م .
7- ابن بصال: أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الطيطلي (ت ق 6 هـ).
- كتاب الفلاحة. نشر خوسي ماريامياس بيبكروسا، ومحمد عزيمان، ط معهد مولاي الحسن-تطوان 1955م .

8- ابن حربيط : ماجدة علمي.
- الزحف البيزنطي على شمال افريقيا.
دراسة جامعية مرقونة/ كلية الأداب/ فاس ظهر المهراز 1991 م.
9- ابن البيطار : عبد الله بن أحمد.
- الجامع لمفردات الأدوية والأغدية. نشر مكتبة المثنى - بغداد (ب.ت)
10- ابن حزم: علي بن أحمد الأندلسي ت 456 هـ.
1- جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون. طبعة دار المعارف بمصر 1962م .
2- رسائل، ابن حزم بتحقيق إحسان عباس ط1بيروت 1981 . (4 مجلدات).
3- الفصل في الملل والأهواء والنحل. الطبعة الأولى بالمطبعة الأدبية. سوق الخضار القديم القاهرة- مصر 1317 -1320 هـ.
4- المحلى في الفقه الظاهري، ط بيروت 1986م.
11- ابن حماد: محمد بن علي الصنهاجي:
- أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم.
وقد رجعنا الى نشراته القديمة والحديثة، واعتمدنا في الإحالات خاصة النسخة التي حققها أخيرا: التهامي نقرة، وعبد الحليم عويس. طبعة تونس 1987م وكذلك طبعة الجزائر:1927م .
12- ابن حمدة: عبد المجيد.
- المدارس الكلامية بإفريقية الى ظهور الأشعرية ط1/ تونس 1986م
13- ابن حوقل: أبو القاسم محمد النصيبي ت 380 هـ.
- صورة الأرض. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1979م . وطبعة ليدن 1872م الذي نشرته باسم المسالك والممالك.

14- ابن حيان: أبو مروان حيان بن خلف الأندلسي القرطبي ت 469 هـ.

- المقتبس في أخبار بلد الأندلس - أو المقتبس من أنباء أهل الأندلس، وليس هناك إجماع على إسم الكتاب كاملا ونشرت حديثا قطع منه، وقد رجعنا اليها، وهي:

أ- قطعة منه نشرها الراهب الاسباني المستشرق مشلور أنطونيا. في باريس 1937م وأعاد نشرها الأستاذ إسماعيل العربي باسم «كتاب المقتبس في تاريخ الأندلس» عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام (275 هـ - 300 هـ). منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب/ الدار البيضاء. ط1 سنة 1990م .

ب- ثم نشر الدكتور محمود علي مكي، القطعة المتعلقة بتاريخ الأندلس من 232 هـ إلى سنة 267 هـ ونشرها محققة باسم «المقتبس من أنباء أهل الأندلس» بدار الكتاب العربي. بيروت 1973م .

ج- ونشر المستشرق الاسباني ب شالميتا، و-ف كورينطي، و.م. صبح: قطعة منه باسم «المقتبس» الجزء الخامس. طبعها المعهد الاسباني العربي للثقافة- مدريد، وكلية الآداب بالرباط سنة 1979 م .

د- ونشر الدكتور عبد الرحمن علي الحجي، قطعة منه باسم «المقتبس في أخبار بلد الأندلس» طبعة دار الثقافة بيروت 1965 م.

15- ابن خرذدابة: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 300 هـ).

- المسالك والممالك، تحقيق دي غويه، ليدن 1889م. وترجمة الحاج صادق الى الفرنسية مع التعليق عليها.

16- ابن الخطيب لسان الدين أبو عبد الله محمد (ت 776 هـ).

- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. القسم الثاني، والقسم الثالث الأول، نشره ليفي بروفنسال، ط بيروت 1956م

والثاني - نشره إبراهيم الكتاني والعبادي طبعة الدار البيضاء سنة 1964 م.

17- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ).

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر من تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

وقد رجعنا الى طبعاته العربية، وترجمته الى الفرنسية التي قام بها البارون « دي سلان » وأحلنا على طبعة بيروت خاصة التي صدرت في 1958م و 1968م وكذلك طبعة دي سلان التي نشرت ثاني مرة في باريس 1982م . برسم «تاريخ البربر» في أربع مجلدات وهو القسم الذي يخص بلاد المغرب. ووضعناها في اللائحة البيبليوغرافية الخاصة باللغات الأجنبية. واعتمدنا الطبعة التونسية « للمقدمة » التي صدرت عن الدار التونسية للنشر 1984م .

18- ابن خلكان : أبو العباس أحمد بن محمد ت 681 هـ.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس. بيروت 1972م .

18 م- ابن الخوجة: محمد الحبيب.

- يهود المغرب العربي، طبعة القاهرة 1973 م .

19- ابن خياط : خليفة أبو عمرو شباب ت (240 هـ) - تاريخ خليفة ابن خياط. تحقيق أكرم ضياء العمري، ط2 . دار القلم، دمشق، مؤسسة الرسالة- بيروت 1977م .

20- ابن رسته أحمد بن عمر ت. بعد 290 هـ.

- الأعلاق النفيسة . ليدن بريل 1891م . وكذلك ترجمة الحاج صادق. وقد أدرجناها في القسم المتعلق باللغات الأجنبية.

21- ابن رشد: أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي (ت 520 هـ).
1- فتاوي ابن رشد. تحقيق المختار بن الطاهر التليلي. ط. دار الغرب الإسلامي 3 مجلدات بيروت 1987م .
2- البيان والتحصيل. بتحقيق مجموعة من العلماء. ط2 ، دار المغرب الإسلامي، بيروت 1988م .
22- ابن زيدان: عبد الرحمن.
1- العز والصولة في معالم نظم الدولة، المطبعة الملكية - الرباط 1961م .
2- إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. ط2 بالمطبعة الوطنية، الرباط 1931 م .
23- ابن زيري: عبد الله ت 483 هـ..
- كتاب التبيان. نشره ليفي بروفنسال باسم مذكرات الأمير عبد الله، ط دار المعارف بمصر 1955 م .
24- ابن سعيد المغربي.
1- بسط الأرض في الطول والعرض تحقيق خوان قرنيط خينيس طبعة تطوان معهد مولاي الحسن 1958 م.
2- نزهة الأنظار مقتبس من كتاب المغرب في حلى المغرب ج1 طبعة دار المعارف 1964 م- القاهرة- مصر.
25- ابن سهل: القاضي أبو الأصبغ عيسى.
-الأحكام الكبرى: نشرمحمد عبد الوهاب خلاف طبعة القاهرة 1980م.
26- ابن سودة: عبد السلام بن عبد القادر.
- دليل مؤرخ المغرب الأقصى الطبعة الثانية 1960م - 1665م الدار البيضاء.

27- ابن صاحب الصلاة.

- المن بالإمامة تحقيق عبد الهادي التازي طبعة دار الأندلس1964م .

28- ابن الصغير.

- أخبار الأئمة الرستميين تحقيق محمد ناصر وابراهيم بحازا. طبعة دار الغرب الإسلامي 1968م وطبعة الجزائر 1905م بنشر موتيلانسكي.

29- ابن عاشور: محمد الفاضل.

- أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ط مكتبة النجاح. تونس (ب، ت).

30- ابن عبد الحكم: عبد الرحمن بن عبد الله ت 275 هـ.

- فتوح مصر وأخبارها. تحقيق شارل طوري ط. ليدن -بريل 1920م . واعتمدنا أيضا الطبعة المحققة التي قام بها عبد الله أنيس الطباع برسم «فتوح افريقية والأندلس» ط القاهرة- بيروت 1964م .

31- ابن عبدون: محمد بن أحمد التجيبي.

- رسالة في القضاء والحسبة نشر ليفي بروفنسال - القاهرة 1955م

32- ابن عذاري المراكشي.

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب دار الثقافة بيروت (4 مجلدات).

33- ابن العطار محمد بن أحمد الأموي (330-399 هـ).

- الوثائق والسجلات تحقيق ب. شالميتا. و ف كورينطي نشر المعهد الإسباني العربي للثقافة مدريد 1983م .

34- ابن عميرة محمد .
- دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي. المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1984 م .
35- ابن فرحون محمد.
تبصرة الحكام، طبعة أولى - دار الكتب العلمية- بيروت مصورة عن الطبعة الأميرية المصرية 1301 هـ
36- ابن الفقيه.
كتاب مختصر البلدان. مطبعة ليدن 1302 هـ-1885 م.
37- ابن القاضي أحمد.
جذوة الاقتباس. القسم الأول طبعة دار المنصور الرباط 1973 م.
38- ابن قربة: صالح.
المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي الى سقوط دولة بني حماد طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986 م.
39- ابن القطان المراكشي: حسن بن علي الكتامي:
- نظم الجمان تحقيق محمد علي مكي. وطبعته وأحلنا على طبعته الثانية الصادرة عن : دار الغرب الإسلامي بيروت 1990م .
40- ابن المرتضى: المهدي لدين الله أحمد بن يحيى.
المنية والأمل في شرح الملل والنحل، طبعة تجارية بدون تاريخ
- ونشر حديثا باسم « طبقات المعتزلة» بيروت 1961م .
41- ابن هشام: عبد الملك بن أيوب الحميري ت 218 هـ.
- السيرة النبوية تحقيق السقا وآخرين في 4 أجزاء طبعة الحلبي
- القاهرة 1955م .

42- أبو الحسن الأشعري.

- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين طبعة ألمانيا 1980م .

43- أبو الحسن علي بن سعيد المغربي.

- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الأبيار. طبعة دار المعارف القاهرة 1954م .

44- أبو الخير الأندلسي.

كتاب الفلاحة الطبعة الأولى - المطبعة الجديدة بفاس 1939 م.

45- أبو زكريا يحيى بن أبي بكر.

كتاب السيرة وأخبارالأئمة تحقيق عبد الرحمان أيوب-تونس 1985م.

45 م- أبو زيان: حمو.

- واسطة السلوك في سياسة الملوك ط. تونس، 1279 هـ

46- أبو ضيف مصطفى : أبو ضيف أحمد.

1- القبائل العربية في الأندلس الدار البيضاء 1983 م.

2- أثر القبائل العربية في الحياة المغربية ج1 طبعة دار النشر المغربية - الدار البيضاء 1986 م.

47- أبو العرب محمد بن تميم القيرواني.

طبقات علماء افريقية بتحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، طبعة الدار التونسية للنشر 1968م .

48- أرشبالد لويس.

- القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ترجمة أحمد محمد عيسى. القاهرة د.ت.

49- أركون محمد.

1- تاريخية الفكر العربي الإسلامي.

ترجمة هاشم صالح- منشورات مركز الإنماء القومي- بيروت 1968م

2- الإسلام الأخلاق والسياسة.

ترجمة هاشم صالح. طبعة مركز الإنماء القومي- بيروت 1990م .

50- الإسفرايني.

- التبصير في الدين. طبعة مكتبة الخانجي بمصر 1955م .

51- أشتور.

- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى ترجمة عبد الهادي عبلة- طبعة دار قتيبة - دمشق 1985م.

52- الاصطخري الكرخي: أبو الحسن ابراهيم.

المسالك و الممالك تحقيق جابر عبد العالي. نشر دار القلم-القاهرة 1961م.

53- الأصفهاني: أبو الفرج ت 356 هـ.

- مقاتل الطالبيين. تحقيق أحمد صقر. طبعة دار إحياء الكتب العربية- القاهرة 1949م .

54- أغا بن عودة المزاري.

- طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا الى أواخر القرن 19م تحقيق ودراسة الدكتور يحيى بوعزيز دار الغرب الإسلامي بيروت 1990 م.

55- إلياس حسين أحمد.
- العلاقات بين مملكة غانا والمغرب العربي فيما بين القرنين الثاني والخامس الهجريين (8-11 ميلادية) رسالة دكتوراة مرقونة مقدمة لجامعة القاهرة 1982 م.
56- ميشيل أماري:
المكتبة الصقلية/ نصوص مقتبسة من الأصول. ط. ليبسك 1857م
57- أمليل (علي).
الخطاب التاريخي. منشورات معهد الإنماء القومي بيروت 1979 م.
58- البيروني النفوسي عبد الله.
- الأزهار الرياضية في أئمة الملوك الإباضية دار بوسلامة للطباعة والنشر تونس 1986 م.
59- برنشفيك روبار.
- تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ترجمة حماد الساحلي طبعة دار الغرب الإسلامي 1988م. بيروت.
60-بروديل فرناند.
- البحر المتوسط: ترجمة عمر بن سالم تونس 1990م .
61- بروفنسال ليفي.
الحضارة العربية في اسبانيا. ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي دار المعارف القاهرة 1979 م.
62- البزاز محمد الأمين.
- تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 و 19 م.
- منشورات كلية الأداب - الرباط 1992م .

63- البغدادي : عبد القاهر (أبو منصور) ت 429 هـ.
- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم. بيروت، د-ت. وهي الطبعة التي صدرت في مصر سنة 1948م بتحقيق محمد زاهد الكوثري.
64- البكري: أبو عبيد الله (ت 487 هـ).
- المسالك والممالك.
بنشرتيه وترجمة دوسلان، والطبعة الأخيرة، نشرت بتونس 1992 م في مجلدين - الدار العربية للكتاب تحقيق ادريان فان ليوفر واندري فيري.
65- البلوي - أبو محمد عبد الله المديني.
سيرة أحمد بن طولون. تحقيق محمد كرد علي-طبعة دمشق 1358 هـ.
66- بن منصور عبد الوهاب.
- قبائل المغرب ج الأول، المطبعة الملكية- الرباط 1968م .
67- بل ألفرد.
- الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي، ترجمة عبد الرحمان بدوي
- بنغازي، دار ليبيا للنشر 1969 م.
68 - البيدق: أبو بكر الصنهاجي.
- كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين.
تحقيق وترجمة. أ.ليفي بروفنسال باريس- كتنير - 1928م.
68م- بيرك جاك :مدلول القبيلة بشمال افريقيا، بحث بترجمة عبد الأحد السبتي، نشر ضمن مجموعة أبحاث الانطروبولوجيا والتاريخ، طبعة توبقال البيضاء 1988م.

69- التادلي أبو يعقوب يوسف بن يحيى المعروف بابن الزيات.
- التشوف الى رجال التصوف.
تحقيق أحمد التوفيق مطبوعات كلية الآداب - الرباط 1984م ونشرة أدولف فور بالرباط 1958 م.
70- التازي عبد الهادي.
1- جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس - طبعة دار الكتاب اللبناني بيروت 1972 م.
2- التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور الى اليوم. مطابع فضالة- المحمدية 1989 .
71- التازي سعود محمد.
حرب يوغرطة للمؤرخ اللاتيني سالوست
طبعة جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس 1979م .
72- التنسي: محمد بن عبد الله.
- دولة الأدارسة، تحقيق محمد بوعياد. طبعة الجزائر 1984 م.
- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، بتحقيق محمد بوعياد طبعة الجزائر 1985 م.
73- التوفيق أحمد.
المجتمع المغربي في القرن 19م (اينولتان) 1850-1912 م- ط2 - الرباط 1983 م.
74- الجابري محمد العابد.
العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي- دار الثقافة- الدار البيضاء 1971 م.

75- الجزنائي: علي.
جني زهرة الآس - المطبعة الملكية الرباط 1972م .
76- جعيط هشام.
- الشخصية العربية- الترجمة العربية بيروت.
77- جولد زهير: أجناس
- العقيدة والشريعة في الاسلام: تعريب محمد يوسف موسى.
القاهرة 1946 م.
78- الجيلاني عبد الرحمان بن محمد
- تاريخ الجزائر العام ط4 - دار الثقافة بيروت 1980 م.
79- الجنحاني الحبيب.
1- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي.
دار الغرب الإسلامي - بيروت 1986 م.
2- القيروان ط الدار التونسية للنشر 1968م.
3- دراسات مغربية . دار الغرب الإسلامي- بيروت.
4- الغرب الإسلامي ط دار الغرب الإسلامي، بيروت.
80- جودة عبد الكريم يوسف.
العلاقات الخارجية للدولة الرستمية.
طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1984 م.
81- جوليان شارل أندري.
- تاريخ افريقيا الشمالية ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة.
الدار التونسية للنشر 1978 م.

82- الجيدي عمر بن عبد الكريم.
- العرف والعمل في المذهب المالكي، مطبعة فضالة- المحمدية، 1982 م.
83- حافظي علوي حسن.
-سجلماسة واقليمها في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. مساهمة في دراسة مجتمع الواحات في العصر الوسيط. رسالة موقوفة بكلية الآداب. ظهر المهراز فاس 1988 م.
84- حجاب محمد فريد.
-الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا طبع الهيأة المصرية العامة للكتاب- القاهرة 1982 م.
85- حسن ابراهيم حسن.
1- تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب الطبعة 2سنة 1958م - مكتبة النهضة المصرية القاهرة.
2- تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والإجتماعي ط4 سنة 1958 م. مكتبة النهضة المصرية القاهرة (أربعة أجزاء).
86- حسن حسنين عبد الوهاب.
ورقات عن الحضارة العربية في افريقية التونسية نشر مكتبة المنار - تونس 1966 م.
87- حميد الله محمد.
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة الطبعة الخامسة. دار النفائس، بيروت 1985م .
88- الحميري عبد المنعم: الروض المعطار.
- تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت 1975 م.

89- الحسيني هاشم معروف.
- الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة.
90- الخشني محمد بن الحارث.
1- كتاب طبقات علماء افريقية.
دار الكتاب اللبناني د .ت . وطبعة باريس 1914م بتحقيق ابن أبي شنب.
2- أخبار الفقهاء والمحدثين بالأندلس.
تحقيق خالد السقاط. رسالة مرقونة كلية الآداب-ظهر المهراز. فاس 1992م .
91- الخليل النحوي.
بلاد شنكيط. طبعة تونس 1987 م.
92- الداعي إدريس عماد الدين.
عيون الأخبار (تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب) .
تحقيق محمد اليعلاوي. طبعة دار الغرب الإسلامي. بيروت 1985م .
93- الداودي أحمد بن ناصر (ت 402 هـ).
كتاب الأموال-قطعة نشرها حسن حسني. عبد الوهاب وفرحات دشراوي ضمن الأبحاث المهداة لليفي بروفنسال سنة 1962م .
Etude d'Orientalisme G.P. Maisonneuve. Paris
ونشر حديثا في الرباط بتحقيق رضا محمد سالم شحادة ونشره مركز إحياء التراث- الرباط. 1988م .
94- الدباغ عبد الرحمان بن محمد الأنصاري.
معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان- الجزء الأول بتحقيق إبراهيم شبوح، طبعة مكتبة الخانجي بمصر 1968م . الجزء الثاني والثالث

والرابع - طبعة المطبعة الرسمية العربية 1320 هـ.
95- - دبوس صلاح الدين.
الخليفة توليته وعزله. طبعة مؤسسة الثقافة الجامعية الأسكندرية.
96- الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد.
- كتاب طبقات المشايخ بالمغرب. تحقيق إبراهيم طلاي - مطبعة البعث قسنطينة 1394 هـ.
97- دنش عصمت عبد اللطيف.
دولة المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، طبعة دار الغرب الإسلامي - 1988 م.
98- دوزي :(ر)
تاريخ مسلمي اسبانيا، ترجمة حسن حبشي. طبعة دار المعارف بمصر- 1963 م.
99- رجب محمد:
- دولة بني صالح في تامسنا بالمغرب الأقصى طبعة القاهرة- دار التوفيق النموذجية 1991م .
100-رستو فيتريف :(م):
تاريخ الأمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي ترجمة زكي على ومحمد سليم سالم. طبعة القاهرة د.ت.
101 - الريس ضياء الدين.
1- الخراج والنظم الإسلامية في الإسلام. طبعة القاهرة - 1961م .
2- النظرية السياسية الإسلامية. دار المعارف بمصر طبعة -1966-1967م .

102- الزحيلي وهبة.
أثار الحرب في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة دار الفكر-دمشق 1981 م.
103- زغلول: سعد عبد الحميد.
تاريخ المغرب العربي ثلاثة أجزاء. طبعة منشأة المعارف الاسكندرية 1979-1990 م.
104- زيدان عبد الكريم.
أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام طبعة مكتبة القدس -بغداد- 1982م .
105- سالم عبد العزيز السيد.
1- المغرب الكبير، طبعة القاهرة- الاسكندرية 1969م.
2- تاريخ مدينة المرية الإسلامية، طبعة دار النهضة العربية 1969م .
3- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس. طبعة دار المعارف بيروت 1963 م.
4- تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس (بالاشتراك مع أحمد مختار العبادي). دار النهضة العربية- بيروت 1969م .
106- سحاب فيكتور.
- ايلاف قريش رحلة الشتاء والصيف. الطبعة الأولى- بيروت - 1992م .
107- سحنون : ابن سعيد التنوخي.
مدونة الإمام مالك، طبعة السعادة-مصر 1323 هـ
وطبعة بالأفسيت في بيروت 1980م. دار الفكر.

108- سعدي عثمان.
عروبة الجزائر عبد التاريخ. طبعة الجزائر - 1983 م.
109- سلوم: السامراني عبد الله.
- الغلو والفرق الغالبة في الحضارة الإسلامية (نشر معه كتاب الزينة) لصاحبه ابن حمدان الرازي طبعة دار الحرية للطباعة بغداد 1972 م.
110- سليمان : بن الحاج داوود.
- ثورة أبي زيد. طبعة الجزائر 1981 م.
111- السنهوري: عبد الرزاق.
- فقه الخلافة وتطورها طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب 1989 م.
112- السنوسي: يوسف ابراهيم
- زناتة والخلافة الفاطمية، مصر، 1986 .
113- سوسة : أحمد.
- العرب واليهود في التاريخ. ط-2 دمشق 1972 م.
114- السوسي : محمد المختار.
1- المعسول: 20 جزءا مطبعة النجاح ومطبعة الجامعة الدار البيضاء ومطبعة فضالة المحمدية 1960-1963م.
2- سوس العالمة: مطبعة فضالة 1960م.
3- من خلال جزولة 4 أجزاء ... مطبعة المهدية (د.ت) بتطوان.
115- سيسالم: سالم عصام.
- جزيرة الأندلس المنسية، دار العلم للملايين - بيروت 1984 م.

116- الشافعي : الإمام محمد بن إدريس ت 204 هـ
- الأم، تصحيح محمد زهري النجار. طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت 1973م.
117- شاكر: مصطفى.
- التاريخ العربي والمؤرخون. ط. 1 - دار العلم للملايين - بيروت 78-1979م.
118- الشريف الادريسي.
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. طبعة ايطاليا 1978م ونشر دار الثقافة الدينية بالقاهرة في مجلدين.
119- الشريف: د.قاسم عون.
- نشأة الدولة الإسلامية على عهد الرسول. ط- 2 دار الكتاب اللبناني- بيروت 1981 م.
120- شنيتي: محمد البشير.
- التغييرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني - طبعة الجزائر 1984 م.
121- الشهرستاني:
- الملل والنحل بهامش كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم. ط1- المطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم 1320 هـ.
122- الشيخ : سعادة.
- المجتمع المغربي في عهد الولاة. رسالة لنيل دبلوم د.ع كلية الآداب- فاس ظهر المهراز 1987م مرقونة).
123- الصاحب: إسماعيل بن عباد.
- نصرة مذاهب الزيدية، تحقيق الدكتور ناجي حسن - ط. بغداد1977م.

124- صاعد الأندلسي (ت 462 هـ/ 1070 م).
- طبقات الأمم. تحقيق حياة علوان- ط دار الطليعة- بيروت 1985م .
125- صبحي: أحمد محمود.
- نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنى عشرية. ط . دار المعارف مصر- 1969م .
126- الطالبي: محمد.
1- دراسة في تاريخ افريقية - تونس 1982 م.
2- الدولة الأغلبية- التاريخ السياسي. ترجمة المنجي الصيادي. طبعة دار الغرب الإسلامي بيروت 1985 م.
127- الطبري: محمد بن جرير.
- الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل - ط. دار المعارف. القاهرة. د.ت.
128- العبادي: أحمد مختار.
1- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس طبعة الاسكندرية 1968 م.
2- الصقالبة في اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية- مدريد 1953م.
129-عبد المولى: محمد أحمد: القوى السنية في المغرب من قيام الدولة الفاطمية الى قيام الدولة الزيرية. طبعة دار المعرفة الجامعية الاسكندرية 1985 م.
129 م- عبدلاوي علوي: مولاي أحمد.
- مدغرة : إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث (رسالة مرقونة). كلية الآداب، ظهر المهراز فاس. 1994م .

130- عثمان: عبد الستار.

- دراسة حول الإعلان بأحكام البنيان،

دار المعرفة الجامعية الاسكندرية 1988م .

131- العربي: إسماعيل.

1- دولة الأدارسة، ملوك تلمسان وفاس وقرطبة. ط. دار الغرب الإسلامي 1983 م.

2- المدن المغربية. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1984 م.

132- العروي: عبد الله.

مجمل تاريخ المغرب ج1 ، 2 - الرباط 1984-1994م.

133- عز الدين : أحمد موسى.

- النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي. ط1 - دار الشروق بيروت والقاهرة 1983م .

134- العميم: محمد.

- قبائل المغرب وأقوامه خلال القرنين الأولين للميلاد رسالة مرقونة كلية الآداب-ظهر المهراز فاس- 1989 م.

135- عياض: القاضي السبتي (ت 544 هـ)

1- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.

تحقيق مجموعة من الباحثين، ط. وزارة الأوقاف المغربية في 8 أجزاء - الرباط- 1983 م.

2- مشارق الأنوار على صحاح الآثار، ط. المكتبة العتيقة - دار التراث 1915 م.

3- مذاهب الحكام في نوازل الأحكام. تحقيق الدكتور محمد بنشريفة، ط دار الغرب الإسلامي بيروت 1990 م.

4- الغنية، فهرست شيوخ القاضي عياض. تحقيق ماهر زهير جرار - دار الغرب الإسلامي. ط1 - بيروت 1982 م.

136- عياض: أبي عبد الله محمد (الابن).

- التعريف بالقاضي عياض. تحقيق محمد بنشريفة ط. وزارة الأوقاف المغربية- مطبعة فضالة- الرباط. د.ت.

137- غالب: مصطفى.

1- أعلام الإسماعيلية. ط. بيروت 1964م.

2- تاريخ الدعوة الإسماعيلية. ط3 ، دار الأندلس بيروت 1979م.

137- م- الفاسي: محمد العابد بن عبد الله.

- فهرست مخطوطات خزانة القرويين، (4 مجلدات). طبعة الدار البيضاء 1980م .

138- فيصل: شكري.

- المجتمعات الإسلامية في القرن الأول. ط. دار العلم للملايين- بيروت 1973م.

139- القادري: محمد بن الطيب.

التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر بتحقيق هاشم العلوي القاسمي. ط. دار الآفاق الجديدة بيروت 81-1983 م.

140- قدامة: ابن جعفر (ت 329 هـ).

-الخراج وصناعة الكتابة تحقيق: الدكتور محمد حسين الزبيدي طبعة بغداد- 1981 م.

141- القوصي: ابن عطية.

دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية. ط الكويت 1980م.

142- القيرواني: الرقيق.
تاريخ افريقية والمغرب. تحقيق: عبد الله زيدان وعز الدين عمر موسى ط. دار الغرب الإسلامي بيروت 1990م. واستخدمنا كذلك طبعته الأولى بتحقيق المنجي الكعبي. ط تونس 1964 م.
143- كراتشوفسكي.
- تاريخ الآداب الجغرافي العربي. نشر جامعة الدول العربية ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم القاهرة- موسكو- 1957 م.
144- الكناني: عبد الله بن سلمون.
العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام. مطبوع على هامش كتاب تبصره الحكام. ط المطبعة العامرة الشرفية بمصر 1301 هـ.
145- لاكوست: ايف.
- العلامة ابن خلدون. ترجمة ميشل سلمان - ط/ بيروت 1973 م.
146- اللخمي: ابن محمد بن ابراهيم.
الإعلان باحكام البنيان. تحقيق عبد الله الداودي نشر بمجلة الفقه المالكي- وزارة العدل- الرباط 1989م .
147- لقبال : موسى.
1- دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1979 م.
2- المغرب الإسلامي: ط/ 3 - المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر 1984 م.

148- لوسيان: فيفر.
- الأرض والتطور البشري، ترجمة محمد السيد غلاب. ط/ دار المطبوعات الجديدة -القاهرة 1973 م.
149- لوطورنو: روجي.
- فاس قبل الحماية. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر- ط/ دار الغرب الإسلامي بيروت 1986 م.
150- مالك: بن أنس.
- المدونة الكبرى، دار صادر- بيروت- طبعة جديدة بالأوفست المصورة عن طبعة السعادة- مصر- 1323 هـ.
151- المالكي: أبو بكر عبد الله بن محمد.
رياض النفوس. تحقيق البشير البكوش- ط/ دار الغرب الإسلامي بيروت 1981 م نسخة كاملة في جرأين.
152- ماهر: محمد حمادة.
- الوثائق السياسية والادارية بالأندلس وشمال افريقيا (64 هـ 897 هـ /683 م- 1492 م). ط1/ مؤسسة الرسالة- 1980م.
153-مبكر: محمد.
- حركة الدوارين في شمال إفريقيا. رسالة مرقونة قدمت لكلية الآداب ظهر المهراز - فاس 1981 م.
154- المجدوب : عبد العزيز.
- الصراع المذهبي بإفريقية الى قيام الدولة الزيرية، ط 2/ تونس 1985 م.

155- مجهول المؤلف.

1- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم - مدريد 1867 م.

2- العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق عمر السعيدي ط/ دمشق 1972م- 1973م.

3- بيوتات فاس الكبرى. ط/ دار المنصور - الرباط 1972م.

4- الدخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، نشره محمد بن شنب، الجزائر 1920م ، ونشر منسوبا الى ابن أبي زرع- دار المنصور - الرباط 1972م.

5- الحلل الموشية- ط- علوش الرباط .

6- مفاخر البربر: نشر ليڤي بروڤانسال نشر قطعة منه سنة 1934م بالرباط.

7- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد - الاسكندرية - 1958م.

156- محمد بن حسن.

- القبائل والأرياف المغربية، ط، دار الرياح الأربع، تونس 1986م.

157- محمود اسماعيل:

1- سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج1 و2 - دار الثقافة -البيضاء - 1980 م . ج 3 القاهرة 1992 م.

2- الأدارسة في المغرب الأقصى - حقائق جديدة- ط/ مكتبة الفلاح، الكويت ط 1/ 1989 م.

3- الخوارج في بلاد المغرب، الدار البيضاء 1976م .

4- مغربيات . مطبعة فضالة، المحمدية، 1977 م.

158- محمود: حسن.
- انتشار الإسلام طبعة 2 - القاهرة 1989م.
159- مختار يونس : عبد الله.
-الملكية في الشريعة الاسلامية، ودورها في الاقتصاد الإسلامي. نشر مؤسسة شباب الجامعة. الاسكندرية 1987 م.
160- المراكشي: عبد الواحد.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب. الدار البيضاء، 1978م.
161- المراكشي: محمد.
- الذيل والتكملة، تحقيق محمد بن شريفة. الرباط 1984م.
162- المسعودي: علي بن الحسين (ت 345 هـ).
- مروج الذهب، تحقيق شارل بلا. ط، بيروت 1966 م.
163- المقدسي: أبو عبد الله محمد ت 387 هـ.
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المكتبة الجغرافية. طبعة بريل -ليدن 1967 م.
164- المقري : أحمد.
1- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. طبعة وزارة الأوقاف. الرباط
2- نفح الطيب. ط/ دار الإرشاد الحديثة. دار الفكر العربي بيروت 1986م.
165- المقريزي:تقي الدين أحمد بن علي.
1- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء بطبعتيه: تحقيق جمال الدين الشيال. القاهرة ط1/ 1947، 1967 م.

2- المقفى الكبير. تحقيق محمد اليعلاوي ط1/ دار الغرب الإسلامي 1991 م.
3- الخطط. ط القاهرة 1325 هـ ، في مجلدين.
4- النقود الإسلامية. تحقيق وتعليق محمد بحر العلوم.
166- المكناسي : محمد.
- المدن الأثرية بالمغرب، تطوان 1952م.
167- منصور : العزيزي الجوذري.
- سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق : محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة. ط/ دار الفكر العربي. د.ت ومقدمة المحقق بتاريخ 1954 م.
168- المنوني : محمد.
1- المصادر العربية لتاريخ المغرب
ط/ كلية الأداب - الرباط - 1983-1989 م.
2- تاريخ الوراقة المغربية. ط/كلية الآداب الرباط 1991 م.
3- الأدب والفنون في العصر الموحدي. منشورات كلية الآداب، الرباط.
4- فهرست مكتبة تامكروت. ط/ كلية الآداب - الرباط 1986 م.
5- ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين ط/ كلية الآداب- الرباط 1979 م.
169- موس (هـ س ب).
- ميلاد العصور الوسطى، ط/ القاهرة 1969م.
170- مؤنس : حسين.
1- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس. ط/ معهد الدراسات الإسلامية - مدريد 1967م.
2- فتح العرب للمغرب. ط/ القاهرة 1984م .

3- تاريخ المغرب وحضارته. ط/ بيروت 1992 م.

171- ميكيل: أندري.

-جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر.
ترجمة إبراهيم خوري. ط/ دمشق 1983 م.

172- الميلي محمد بن مبارك :- تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب - د.ت.

173- الناصري: أحمد بن خالد السلاوي.

- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ط/ الدار البيضاء -1954 م.

174- ناعيمي: مصطفى.

- الصحراء من خلال بلاد تكنة. منشورات عكاض - الرباط 1988 م.

175- نصار : ناصف.

- الفكر الواقعي عند ابن خلدون، دار الطليعة- بيروت 1981 م.

176- النعمان: القاضي النعمان بن محمد ت 363 هـ.

1- رسالة افتتاح الدعوة. تحقيق وداد القاضي ط/ دار الثقافة - بيروت 1970 م.

2- المجالس والمسايرات. تحقيق : الحبيب الفقي وابراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي. ط/ الجامعة التونسية- 1978م.

3- دعائم الإيمان، نشر دار المعارف- القاهرة 1972م.

177- النويري: شهاب الدين.

- نهاية الأرب في فنون الأدب. ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة 1983م واستفدنا كذلك من القطعة التي نشرها مصطفى أبو ضيف أحمد بدار النشر المغربية- الدار البيضاء.1984م.

178- الهادي: روجي إدريس.
- الدولة الصنهاجية: تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 م الى القرن 12 م. ترجمة حمادي الساحلي. دار الغرب الإسلامي 1992 م.
179- هايد:فون.
تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضى، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة 1985 م.
180- الهشتوكي : عبد السميع الأوزالي.
الفتاوي، نسخة مرقونة خاصة.
181- هود : بن محكم الهواري.
تفسير كتاب الله العزيز دار الغرب الإسلامي 1990 م.
182- هويدي : فهمي.
فلاسفة الإسلام في المغرب العربي، ط. القاهرة، د.ت.
183- واطسون : اندريو.
الإبداع الزراعي في بدايات العالم الإسلامي. ترجمة أحمد شقور منشورات جامعة حلب - سوريا 1985 م.
184- الوزان: الحسن بن محمد.
- وصف افريقيا. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر- الرباط 80- 1982 م.
185- اليعقوبي : أحمد بن واضح (ت 284 هـ).
1- كتاب البلدان الملحق بالاعلاق النفيسة وترجمته التي قام بها جورج وايت ط/ ليدن.
2- تاريخ اليعقوبي . ط/ دار صادر - بيروت د.ت.

188- اليعلاوي : محمد.
ابن هاني المغربي الأندلسي. ط/ دار الغرب الإسلامي بيروت 1985 م.

جـ – الموسوعات والدوريات العربية والمترجمة :

1- ابن تاويت محمد.
- فاس جولة في أحداثها الكبرى - مقال في مجلة «المناهل» مارس 1976م، العدد 5 و كذلك العدد 6 .
2- ابن شريفة: محمد.
- من منافرات العدوتين. مجلة كلية الآداب بالرباط، العدد 1 سنة 1977 م.
3- ابن منظور: محمد بن مكرم ت 711 هـ/ 1311 م.
- لسان العرب المحيط - إعداد يوسف خياط ونديم موعشلي - طبعة دار لسان العرب بيروت (د.ت).
4- بروفنسال (ليفي):
1- نص جديد عن فتح العرب للمغرب، بحث في دورية « صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد »1954 م.
2- تأسيس مدينة فاس، مقال في حوليات معهد الدراسات الشرقية بجامعة الجزائر.ج4 الصادر في 1933م. وترجمه الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم والأستاذ صلاح الدين حلمي. وصدر ضمن مجموعة أبحاث بعنوان « الإسلام في المغرب والأندلس» سلسلة الألف كتاب - طبعة مكتبة نهضة مصر، القاهرة 1956 م.
5- بروكلمان : كارل (ت 1956 م).
- تاريخ الأدب العربي (G.A.L) الأصل الألمانية. والترجمة العربية. طبع

دار المعارف بمصر. خلال سنوات (59-1962 م).

6- الخطيبي : عبد الكبير.

-نحو علم اجتماع للعالم العربي. بحث تأسيسي منهجي. مجلة مواقف، ع30-31 ص1970 م.

7- دائرة المعارف الإسلامية: الترجمة العربية للطبعة الأولى من الموسوعة الإسلامية. طبعة القاهرة (14 مجلدا).

8- السعداني : عبد اللطيف.

- ادريس الإمام منشئ دولة وباعث دولة. بحث صدر بمجلة كلية الآداب بفاس، العددان 4 ، 5 لسنتي 80-1981 م.

9- سزكين : فؤاد.

- تاريخ التراث العربي. الأصل بالألمانية، وترجمة الدكتور فهمي أبو الفضل والدكتور محمود فهمي حجازي طبعة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. القاهرة ج1 سنة 1971 م و ج2 سنة 1978م .

10- شفيق : محمد.

- المعجم العربي الأمازيغي - طبعة أكادمية المملكة المغربية -1990 م.

11- العسري : عبد السلام.

- نشأة نظرية ما جرى به العمل عند فقهاء الأندلس والمغرب. بحث صدر بمجلة دار الحديث الحسنية. عدد 3 سنة 1982م .

12- العلوي : م. التقي.

- أصول المغاربة. سلسلة أبحاث صدرت بمجلة «البحث العلمي». تصدر عن المركز الجامعي للبحث العلمي - الرباط.

13- الفاسي : علال.

- المولى إدريس الأكبر. مجلة « الوثائق» التي تصدرها مديرية

الوثائق الملكية-الرباط العدد الأول 1976م .
14- فخار: ابراهيم .
- الجماعات الإباضية. مجلة الثقافة. وزارة الاعلام - الجزائر، عدد 3.
15- كحالة: عمر رضا.
1- معجم المؤلفين العرب والمسلمين في التراث الإسلامي (15 جزءا) ط. دمشق (57-1961م).
2- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة. طبعة مؤسسة الرسالة-بيروت 1978 م.
16- محمود (حسن أحمد محمود):
1- قيام دولة المرابطين - القاهرة 1957م .
2- الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة 1986 م.
3- المرحلة الافريقية من تاريخ المرابطين. « المجلة التاريخية المصرية »
17- كشاف بيبليوغرافي لمدينة فاس.
1- كشاف صدر عن وزارة الثقافة بالمغرب (د.ت).
2- كشاف أعده مصطفى القصري.الكشاف البيبليوغرافي لمدينة فاس. منشورات وزارة الثقافة-الرباط 1993 م.
18- وهبة: مراد.
المعجم الفلسفي. ط. القاهرة 1979م .
19- اليونسكو U.N.E.S.C.O.
-تاريخ إفريقيا العام. أعده مجموعة من الباحثين المختصين بالفرنسية وترجم الى العربية. ج1 سنة 1980م و ج2 في 1985 م.

20- الندوات:

1- أعمال ندوة ابن خلدون. كلية الآداب بالرباط - منشورات كلية الآداب - جامعة محمد الخامس 1979 م.

2- أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته. مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والإجتماعية- الجامعة التونسية تونس 1979 م.

3- ندوة عن « الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع». ط تونس 1979م.

4- ندوات «ملتقى القاضي النعمان» وزارة الثقافة بتونس:

- الندوة الأولى في سنة 1975م .

- والندوة الثانية في سنة 1977م.

ونشرت الوزارة المعنية أعمال وأبحاث الندوتين المذكورتين في كتب مستقلة وفي نفس السنة التي انعقد فيها الملتقى.

5- ندوة «بناء المغرب العربي » تونس 1983 م.

21- الموسوعة الإسلامية الطبعة الجديدة بالفرنسية:

المجلدات (1-7) الصادرة بين (1975م - 1993م) . وقد أحلنا على الأبحاث التي رجعنا إليها في صلب هذه الدراسة.

22- التوراة السامرية، ط دار الأنصار - مصر 1978 م.

23- تطوان، مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية، الأعداد الصادرة منها (1-10).

ثانيا : باللغات الاجنبية

أ- المؤلفات :

1- ABITBOL (M) : Communotés juives des marges sahariennes du Maghreb. Jerusalem 1982.

2- ADAM (A): Histoire de Casablanca, Paris 1968.

3- A Ahmed (A) : les Historiens tunisiens des XVIII et XIX siècles, essai d'histoire cuLturelle Paris -Tunis, 1973.

4- ALBERTINI et autres : L'Afrique du Nord française dans L'histoire,Paris,S.d;

5- AMIN (Ghali Ibrahim): L'Orient chrétien et les juifs, Paris, ed. Cujas,1970.

6-BAT-YE-OR : Le Dhimmi,Paris, ed. Antropos, 1980 .

7- BECK (H,L) : L'image d'Idriss II , ses descendants de Fas , et la politique Shârifienne des sultans Merinides (658 -869/1258-1465), Leïden , ed. J.Brill , 1989.

8- BEGUIN (H) : L'organisation de l'espace au Maroc, Bruxelles , 1974.

9- BENABOU (M): La Résistance africaine à la romanisation , Paris 1976.

10- BENCHKROUN (M) : La vie intellectuelle marocaine sous les Mérinides et Les Wattassides, Rabat , 1974.

11- BERQUE (J), 1) Les structures sociales du Haut- atlas, Paris , ed, P.U.F, 1978.

2) Les Arabes d'hier à demain, Paris , 1960.

3) Magreb , Histoire et société , Alger (S.N.E.D) , 1974.

4) L'intérieur du Maghreb Paris 1978

12-BERTHIER (P) : Les Anciennes sucreries du Maroc , et leurs réseaux hydrauliques , étude archéologique et d'histoire économique , Rabat , 1966.

13-BLOCH (M): La société féodale , Paris , éd . Albin Michel , 1968.

14- BRAUDEL (F) : La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Paris , Armand Colin , 3è éd . 1976.

15- BORDIEU (P) : Le sens pratique , Paris , 1980.
16- BOVILL (E.W) : The Golden trade of the moors, 2ème ed , 1968.
17- CAHEN (C) : Introduction à l'histoire du Monde musulman médieval VII, XVè siècle; Méthodologie et éléments de bibliographie, Paris , 1982.
18-CAMPS (G) : 1) Les Berbères aux marges de l'histoire, Paris , 1980.
2) Haratin éthiopiens, Réflexions sur les origines négroïdes sahariens , Coll .Inter -biologique Sahara , 1969.
3) Les Berbères , mémoires et identités , Paris , E, errance, 1987.
19- CARCOPINO (J) : Le Maroc antique , Paris , 1943.
20- CHEVALIERS (R) : Les Voies Romaines , Paris , Armand Colin 1972.
21- CHOURAQUI (A) : Histoire des juifs en Afrique du Nord , Paris , éd , Hachettes , 1985.
22- CORNU (G) : Atlas du monde arabo-musulman, Leïden , 1985.
23- COURTOIS (Ch): Les Vandalles de l'Afrique , Paris , 1955.
24-CUOQ (Jo.M): Recueil des sources arabes concernants l'Afrique occidentale du XIII au XVI siècle , C.N.R.S, 1975.
25- DE SANGES (Jehan) : Catalogue des tribus africaines de l'Antiquité classique à l'Ouest du Nil. Dakar , 1962.
26- DENYS (F) : The defense of Bysantine africa from Justinin to The arab conquest , Oxford , 1981.
27-DIEHL (Ch) : L'Afrique Byzantine , Paris , éd . Ernest-bioux , 1896.
28- DOZY (R) : 1) Dictionnaire détaillé : noms des vétements chez les arabes , Amsterdam , 1945.
2) Histoires des musulmans d'Espagne , Leiden 1861 4 Vol .
29- DUBY (G): 1) L'Economie rurale et la vie des compagnes dans l'occident médiéval , paris , Champs -Flammarion, 1977.
2) Trois ordres ou l'imaginaire du Féodalisme Paris , 1978.

30- DUFOURQUE (Ch.E): La Coexistance des Chrétiens et des musulmans dans l'Andalus et dans le Magreb au Xè siècle,Paris, Société des belle - Lettres , 1979.

31- DUREAU : Algérie. Histoire des guerres des Romains .Vandalles et byzantins , Paris 1850.

32- EUSTACHE (Daniel) : Corpus des dirhames idrisides et contemporains , Rabat , 1970 -1971.

33- FARHAT (Halima) : 1) Sabta des origines au XIVè siècle , Rabat , édi . Al Manahil , 1993

2)Le Magheb au XII è siècle. les siècles de la foie, Casablanca , Wallada , 1993.

34-FARHAT (Dachraoui) : Califat fatimide au Maghreb (296-362), Tunis , 1981.

35-FEKI (Habib) : Les Idées religieuses et phisophiques de l'Ismaïlisme fatimide , Tunis , éd, P.U.F, 1978.

36- FERGUSON : Classical contact with africa , Lbaden , 1969.

37- FERNANDES (L.S): Les Juifs espagnols au moyen âge, Paris , Gallimard , 1983.

38- GAUTIER (E.F) : 1) Le Passé de l'Afrique du Nord, paris Payot , 1952.

2) La Sahara , Paris , Payot , 3è éd. 1923.

3) Moeurs et coutumes des musulans , Paris , Payot 1949.

39- GERMET (L) : De l'origine des morts selon Procoppe , Tours , 1937.

40- COEITTEIN (S.D): A Mediterranen Society , Berkeley and Los Angeles University Press , 1967.

41- GORDON : L'Esclavage dans le monde arabe VII-XXè siècle , Paris 1987.

42- GSELL (S): 1) Herodote Textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du Nord , Alger , 1915.

2) Histoire ancienne de l'Afrique du Nord , Paris , 1913, 1929.

3) Atlas historique de l'Afrique , Paris 1911.

43- GUICHARD (P) : Structures sociales orientales et occidentales dans l'Espagne musulmane , Mointor , Paris , 1977.

44- IBN-AWAM :Kitab Al -fillaha : trad et annotté par Clément MULLET Tunis , 1977.
45- IBN-KHALDUN : Histoire des berbères : trad De slane, Paris , 1982 , 4 Vols .
46- IBN, Khurradâdhbih , Ibn Alfaqîh : Description du Maghreb et de l'Europe du VII - IXè siècle , Alger , éd . CARBONEL 1949.
47- JULIEN (Ch) : Histoire de l'Afrique du Nord , Paris , Payot , 1978.
48- KABLY (M) :Société , pouvoir , Religion au Maroc à la fin du Moyen âge, Paris , Maisonneuve - Larose , 1986.
49- LAROUI (A) : 1)Les Origines sociales et culturelles du Nationalisme marocain 1830-1912 , Paris, Maspero , 1977.
2) Histoire du Maghreb , Paris , Maspero , 1970.
50- LAOUST (E) : 1) Mots et choses berbères , casablanca , 1983.
2) Contribution à l'étude de la toponymie du Haut Atlas à Drâ d'après les contes de jean Dresch , Paris , éd . (L.O.P.G); 1942.
51- LEGOFF (J) : Pour un autre moyen âge , Paris , Callimard , 1977.
52-LETHULLEUX (J) : Ourgala , Paris , éd , Guethner , 1983.
53- LETOURNEAU (R): Fès avant le Protectorat , Casablanca , 1949.
54- LOMBARD (M) : 1) Espaces et réseaux du Haut moyen âge , Paris , 1972.
2) L'Islam dans sa première grandeur , Paris , éd , Champs Flammarion , 1971.
55-MANTRAN (R) : L'Expansion musulmane VII-XIIè siècle. Paris , P.U.F, 1969 . (Nouvelle clio).
56- MARCAIS (G) : 1) La Berbérie musulmane et l'Orient au moyen âge, Paris , éd. Montagne , 1940.
2) Les Arabes en Berbéries du XI au XIV siècle , Paris , 1913.
57- MARCY (G) : Le droit coutumier Zemmour , paris , éd. P.I.H.E.M, 1949.
58- MARCUS : Histoire des Vandales depuis leur apparition sur la seine historique , paris , 1836.
59- MASLOW : Les Mosquées de Fès et du Nord du Maroc , Paris 1937.

60- MASSIGNOL (L) : Le Maroc dans les premières années du 16e siècle . Tableau géographique d'après léon l'Africain , Alger, 1906.
61-MASQUEREY(E): 1)Formations des cités chez les populations sedentaires de l'Algerie , Paris 1886.
2) Chronique d'Abou Zakaria , Alger 1979.
62-MAUNY (R) : 1) Les Siècles obscurs de l'Afrique Noir , Paris 1970.
2) Tableau géographique de l'Ouest africain au moyen âge . Dakar , Ifan , 1961.
63- MAZARD : Corpus mummorum Numidine mauretaniques , Paris , Arts et Métiers Graphiques , 1955.
64- MELLOUK (M) : Contribution à l'étude de l'histoire des villes médievales du maroc . Sigilmassa . des origines à 668h/1269, Thèse inédite, Université d'aix- en Provence 1985.
65- MERCIER (P): Histoire de l'Afrique septemtrionale, 3 Vol , Paris , 1891.
66- MERCIER (F) : La Population indigène de l'Afrique Romaine, Vandale et byzantine , S.L, 1896.
67- MESANGE (J) : Le Christianisme en Afrique, Alger , Paris , 1914.
68- MEUNIE (J) : Le Maroc saharien des origines à 1670 , 2t , Paris , éd . Klincksieck , 1982.
69- MOUHSINE (M): Ibn Khaldun . New-York , 1967.
70- VANACKER (Ch) : Géographie économique de l'Afrique du Nord,
71-PIRENNE (H) : Mohammed et Charlomagne, Alcan , 1937.
72-POLY (J.P) et BOURNAZEL (E) : La Mutation féodale (Xè-XIIè siècle) , éd . Nouvelle CLIO, 1980.
73-PICARD : Civilisation de l'Afrique romaine, Paris , Plon , 1959.
74- PROVENCAL (L) et Garcia Gomez : Une Cronica . Anonima de Abd-Al-Rahman III Al -Nasir III, Madrid , 1950.
75- PROVENCAL (L) :1) Documents Arabes Inédits sur la vie sociale et économique en Occident musulman au moyen âge , Caire , 1955.

2) Les Histoiriens des Chorfa , essai sur la Litterature historique et biographie au Maroc du XVI au XX siècle , Paris , Larose , 1922.
3) Histoire de l'Espagne musulmane , Paris , éd . Maisonneuve , 1950.
76- RABBATH (edmond): La Conquête arabe sous les quatres premiers Califes , Beyrouth , Publications de l'Université libanaise , 1985.
77- RICHARDS (W.B) : Botr et Béranés , hypothèses sur l'histoire des berbères .
78-SADOK (hadj Mohamed): Description du maghreb et de l'Europe au IIIè - IX siècle , Alger , 1949. (voir n.46) .
79-SALAMA (P) : Les voies romaines de l'Afrique du Nord , Alger , 1951.
80- SHATZMILLER (Maya) : l'Historiographie Mérinide Ibn khaldun et ses contemporains , Leiden , E.J.Brill , 1982.
81- SIMON (M) et BENOIT (A) : Le Judaïsme et le Christianisme antique , Paris , P.U.F, 1968 , Coll. N. Clio.
82- SIMON (M) : Recherche d'histoire Judéo-chretienie , Paris La Haye , Mouton, 1962.
83- TALBI (M) 1) Ibn Khaldoum et le sens de l'histoire, Tunis , 1973.
2) Hérésie , acculturation et nationalisme des berbères Barghwata Tunie, 1982;
84-TERRASSE (H) : Histoire du Maroc , Casa , 1949.
85- TROIN (J-F) : Le Maghreb , Hommes et espaces , Paris , éd. Armond Colin , 1985.
86- VALENSI (L) : Fellahs tunisiens , Paris-La Haye , Mouton,
87- VICTRIS VITENSIS , Histoire de la persécution des vandales , traduits et annoté par H. Le cluc , Tours 1921.
88- VOINOT (L) : Oujda et Amalat , Publication de la (S.G.A.P.O) éd.Oran , Paris , 1912.
- ANDALOUS, revue espagnole des études islamiques institut arabo-espagnole , MADRID.
- AL QANTARA , REVISTA DE ESTUDIOS ARABES , MADRID;

ب- المقالات

1- André Négre :

- La fin de l'état Rustomide , (R.H.C.M) , n.6-7, Faculté des lettres , Alger , 1969.

2- Bosh - Vilà (J) :

- Mariyya : E.I 2ème T.6, Leiden , Paris 1991.

3- Boube (J) :

Les éléments de ceinturon Wisigothiques et Byzantins trouvés au Maroc in B.A.M t25 , 1983-84.

4- Brunschvig (R) .

- La conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes (R.H.A) Alger , 1942 , ou (A.I.E.O) 6-7.
- Etudes d'eslamologie , t.2 , Paris ed . Maison neuve 1976.

5- Bulliet (R) .

-Botr et Baranis in les Annales E.S.C n.1 , 1980.

6- Collu (J.P) .

- Remarques sur le trésor de Thamusida in M.E.F.R t.86 , 1974.

7- Camps (G).

- Recherches sur les origines des cultivateurs noirs du Sahara , in (R.O.M.M) t.3. 1970.
- " Aux origines de la Berbérie : Massinissa ou les débuts de l'histoire", Libyca 8,1 1960.
- "Aux origines de la Bérbérie : Monuments et rites funétraires protohistorique , Paris , 1.M.G 1961.
- 1965" Le tombeau de Tin Hinan à Abalessa , trav . I.R.S. vol . 24 1965.
- "Haratin - Ethiopiens , réflexions sur les origines des négroctes sahariens", Coll . Intern . Biolog. Pop-Sahar 1969.
- " Les relations du monde méditerranéen et du monde sud - saharien durant la préhistoire et la protohistoire , Aix - en - provence 1978.

8- Cauvet (Gt.).

L'origine des Zénata "Bulletin Aprovisoire de la société de géographie d'alger et de l'Afrique du Nord". 2ème trimestre , 1942.

9- Cheddadi (A).

- Le système du pouvoir en Islam d'après Ibn Khaldoum , in Annales E.S.C n.4 Mai - Août 1980.

10- Colin (G).

- Gudàla: Encyclopédie de l'Islam 2ème édition t.2.

- Lamta (E.I. 2ème E.) t.5.

11- Darmol (Ali).

-"Les Epaves Sarasines ; Contribution à l'étude des techniques de constructions navales musulmane , et méditerranéenes". dans les travaux du colloque sur thème : (L'homme Méditerranéen et la mer) Tunis Jerba Avril 1981. Ed Tunis 1985.

12- Devisse (J) .

-Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerrannée du 11ème au 16ème siècle . in R.H.E.S n.1 , 1972 et n.2 , 1973.

- Tegaoust , Recherches sur Aoudaghost , Paris 1970.

13- Djait (Hicham).

- La Wilaya d'Ifriquia au 2ème /7ème siècle . in Etudes institutionnelles . Studia Islamica , t. 27 1967. pp 77-121 et t.28. pp 79-107.

14- Funck (C) - Bientano:

- Miknas in: E.I 2ème éd. Leiden - Paris 1993.

15- Galand (L):

- Baquates et Barghawata in Hespéris 1948.

16- Garein (CJ.CI) :
-Ibn Hawkal , L'orient et le Maghreb in : Revue de l'occident musulman (R.O.M.M) 1983.

17- Latham (J.D):
-Musà , Abi Afiya in E.I. 2ème éd . t.7 . Paris 1993.

18-Le fébure (C):
-Réserves céréalières et société in (C.E.N.R.S). Paris 1985.

19-Lenoir (E) :
-Volubilis des Baquates aux Rabedis , une histoire sans paroles in (B.A.M) t. 15 1984.

20- Le tourneau (R):
- Hamim , in E.I 2ème éd t.3.

21- Le wicki (T) :
- Midyuna , in E.I 2ème éd t.6.
- Lamtuna , in E.I 2ème éd t.5.
- Une langue romaine oubliée de l'Afrique du Nord in , revue orientale , vol 17 1951 -52.
- Etudes ibâdites nord-africaine, 1, Warszawa, 1955.
- La répartition géographique des groupements ibâdites dans l'Afrique du Nord au Moyen - Age R.O. T 21 , 1957.
- Les premiers commerçants arabes en Chine R.O Vol II 1935 , pp. 173-186.
- Les ibâdites en Tunisie au Moyen - Age , Conferenze publicate a cura de l'accademia di scienze et lettre Rome , 1950.
- Quelqies extraits inédits relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires ibâdites nord-africains au pays du Sudan F.O, 1960 / 1961.
- L'Etat Nord-africain de Tahert et ses raltions avec le Sudan occidental à la fin du 8èmeet 9ème siècle , C.E.A n. 8 . 1962.
-Traits d'histoire du commerce transsaharien marchands et missionnaires ibâdites au Soudan Occidentale et central au

cours des $8^{ème}$ $12^{ème}$ siècle . Etnographia polska vol 8, 1964.

22- Lombard (M).

-L'évolution urbaine pendant le Haut moyen âge , in (A.E.S.C) n.12 , 1957.

23- Madelung (W).

- Kà'im in (E.I $2^{ème}$ éd.) Vol 4 , 1978.

24- Marçais (W).

- L'arabisation des villes in : Annales de l'institut des études orientales , 1938.

25- Marcy (E).

- L'alliance par colactation (Tad'a) chez les berbères du Maroc central in Hespéris 1946.

26- Marcy (G).

- Ashir , art in (E.I) Nouvelle édition II.

27- Marion (J).

- Les trésors monétaires de Volubilis et de Banasa (A.A) in antiquité africaine t. 12, 1978.

28- Mercier (G).

-Dieu des Abâdites et des Bargwata in Hespéris 1965.

29- Monceaux (P).

-"L'église donatiste aux temps de St . Augustin" in Revue d'histoire de religions 1910.

30- Nahoume Slouche :

- L'Empire des Bargwata et des origines du Blad-Siba , in Hésperis.

31- Pellat (Ch).

- Midrar in (E.I $2^{ème}$ éd.) t.6.

32- Provençal (L).

- La fondation de Fès in (A.I.E.O) t.4 Alger 1938. pp 23-53.

-Maghrawa , dans (E.I) t.3, pp 111-113.

-Maisara , dans (E.I) t.3, pp 163-164.

- Mizwar , dans (E.I) t.3, p 616.

- Okba b. Nàfi , dans (E.I) t.3 pp 1040 -1041.

- Histoire des Musulmans d'Espagne par R.R. Dozy, nouvelle éd. revue de mise à jour , 3 vol , in 8ème Leyde (Brill), 1932.

- Grenade musulmane , dans Annales Universitaires de l'Algérie 1937, pp 76-94.

- Le Malékisme Andalous et les apports doctrinaux de l'orient , dans R.I.E.E.I. 1, 1953 , pp. 165-171.

- La civilisation arabe en Espagne . Vue générale , 1 vol in 8ème. p 205 . Caire 1938.

33- Rebuffat (R).

- Notes sur les confins de la Maurétanie Tangitane et de la Maurétanie Cesarienne in, Studi-Maghrebine vol 4, 1971.

34- Rosemberger (B) .

- Réserves de grains et pouvoir dans le Maroc précolonial . (C.E.N.R.S).

35- Rosemberger (B) et Triki (M).

- Famines et épidémies au Maroc au 16ème et 17ème siècle . in Hespéris- Tamuda , vol 5 . 1974 et vol 6. 1975.

36-Shatzmiller (M).

-l'historiographie Mérinide (Ibn Khaldoun et ses contemporains, Ed.Leiden-Brill , 1982.

- Le Mythe d'origine bernère , Aspects historiographiques et sociaux . in (R.O.M) n.35 , 1983.

37- SIMON (M) .

- Recherches d'histoire Judéo- chretienne (Mouton- Paris). Lahaye 1962.

- Les Judaismes Berbères dans l'Afrique Ancienne . (R.H.P.R), 1946 et 1962 , Lahaye.

38-Sipold et Khenimiz:

Kurtuba. E. I 2ème . T.5.

39- SLOUSCHZ (N).

- Hebraco - Pheniciens et judeo-Berberes , Archives Marocaines (A.M) , vol 14 Paris 1908.

40- Sterm (S.M):

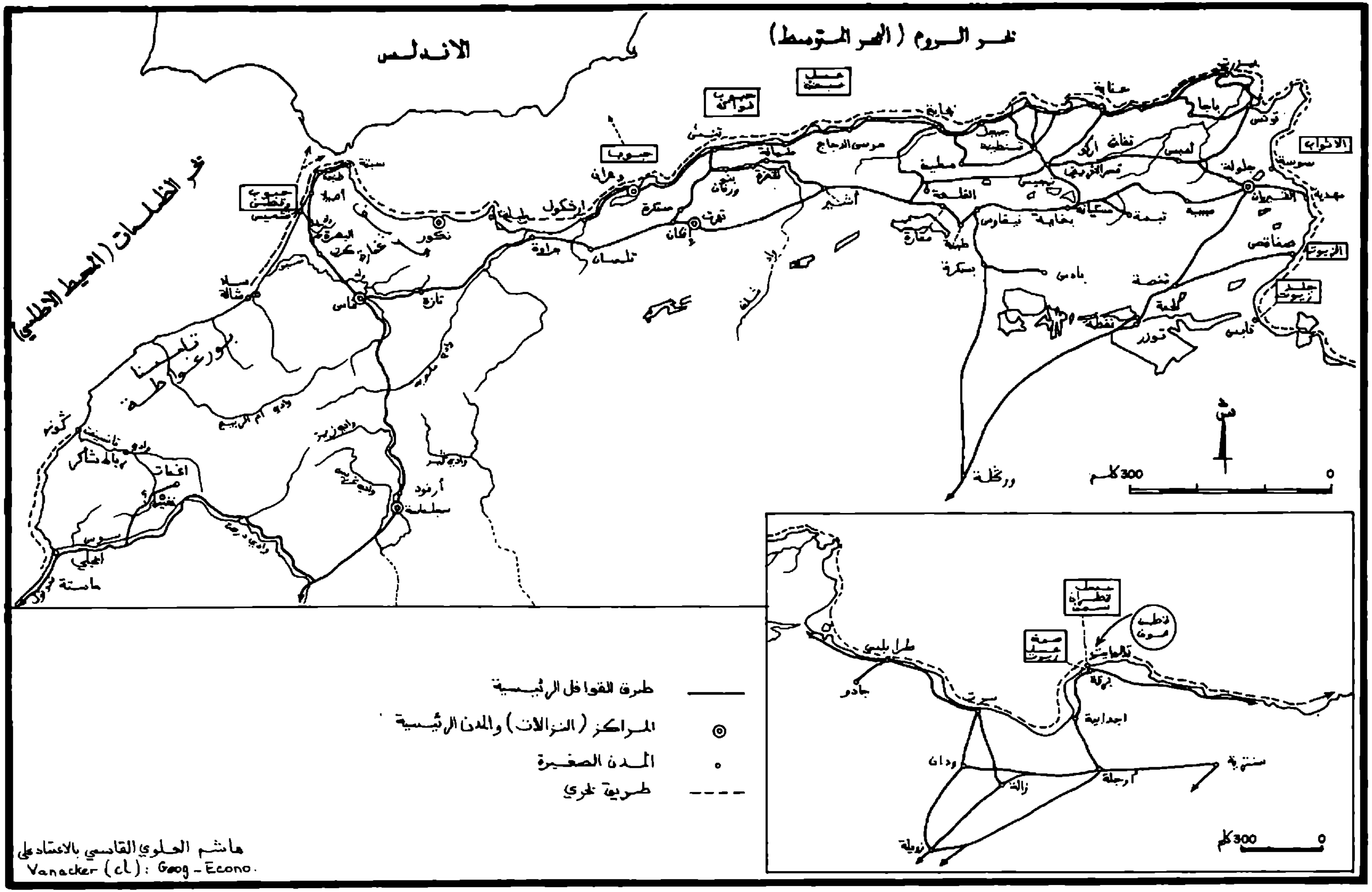
- Abu yazid , E.I 2ème . ed T.I.

41- Terrasse (H) :
- Fas, E.I 1ème T.II.
42-Thouvenot :
- Les origines Chrétiennes en Maurétanie Tingitane, Oran (B.S.GA.O) T 56, Fascicule 199.
43- Triki (Hamid)
Héspéris - Tamuda , 1984.
44- Vanacker (C):
- Géographie Economique de l'Afrique du Nord , selon les auteurs arabes du IX ème siècle au XII siècle . in Annales (E.S.C), n.1 , 1971.
45-Zafrani (H) :
- Judeo- berbère - E.I 2ème ed T.4.
46- Zeiller (L) :
- L'Arianisme en Afrique avant l'invasion Vandale , (Revue , historique C.L XXIII - 1934) .
47- U.N.E.S.C.O/ N.E.A:
- Histoire Générale de l'Afrique . (8 vols) 1985.

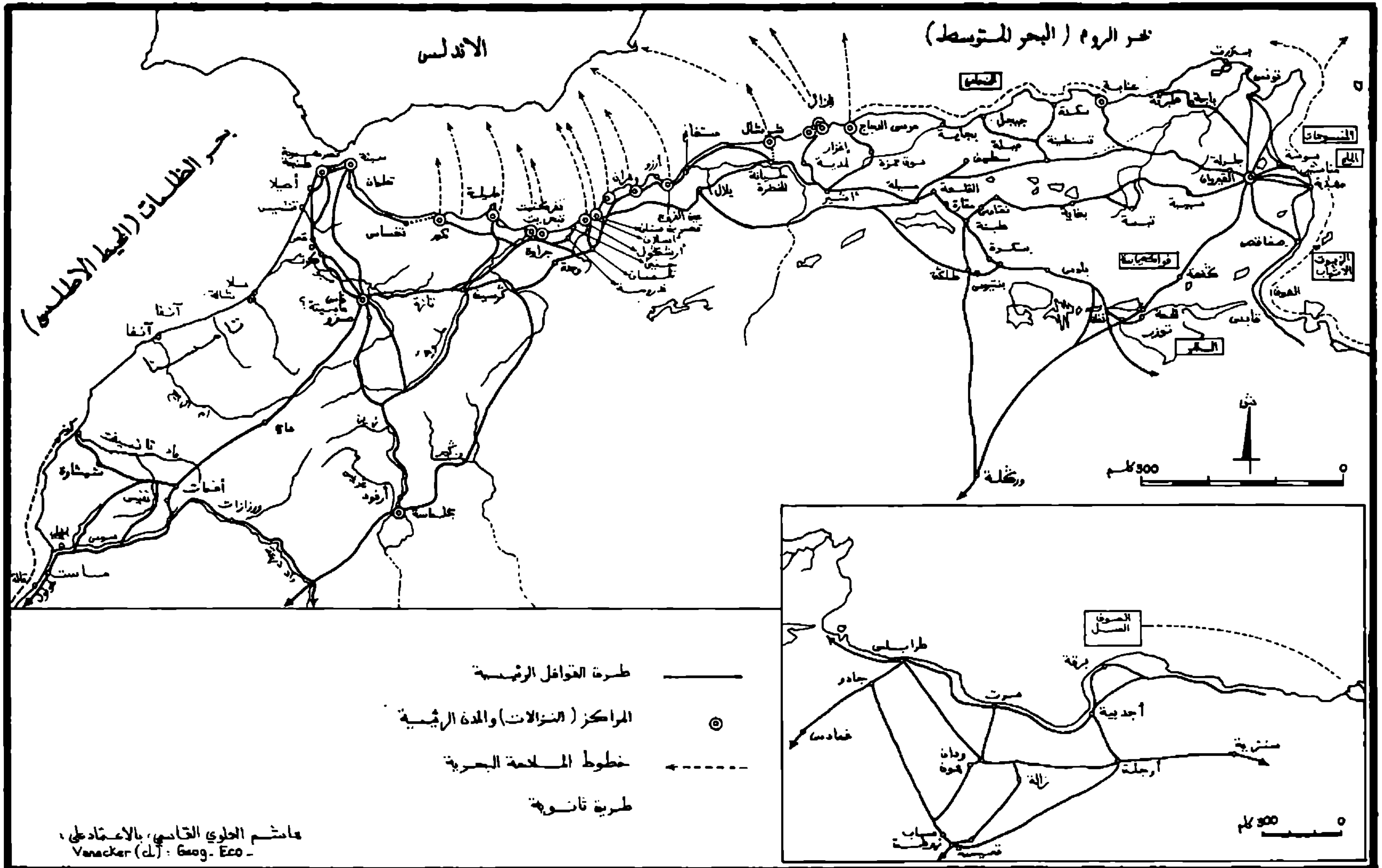
الفهرس التفصيلي لموضوعات الكتاب

الجزء I

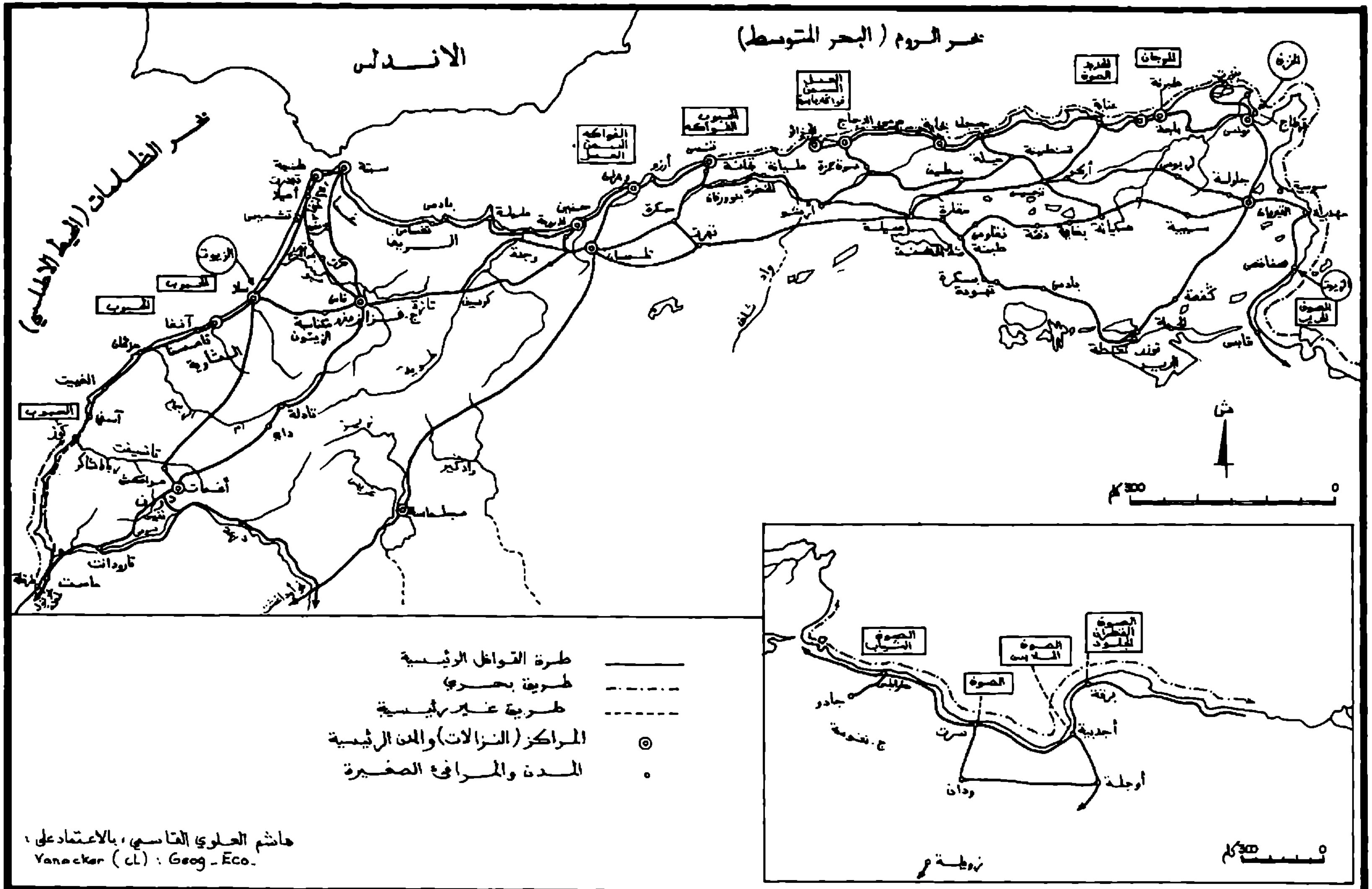
الجزء II



خريطة 1 - الطرق القوافلية بالمغرب في القرن 3 هـ/9 م وبداية الرابع الهجري/ العاشر الميلادي

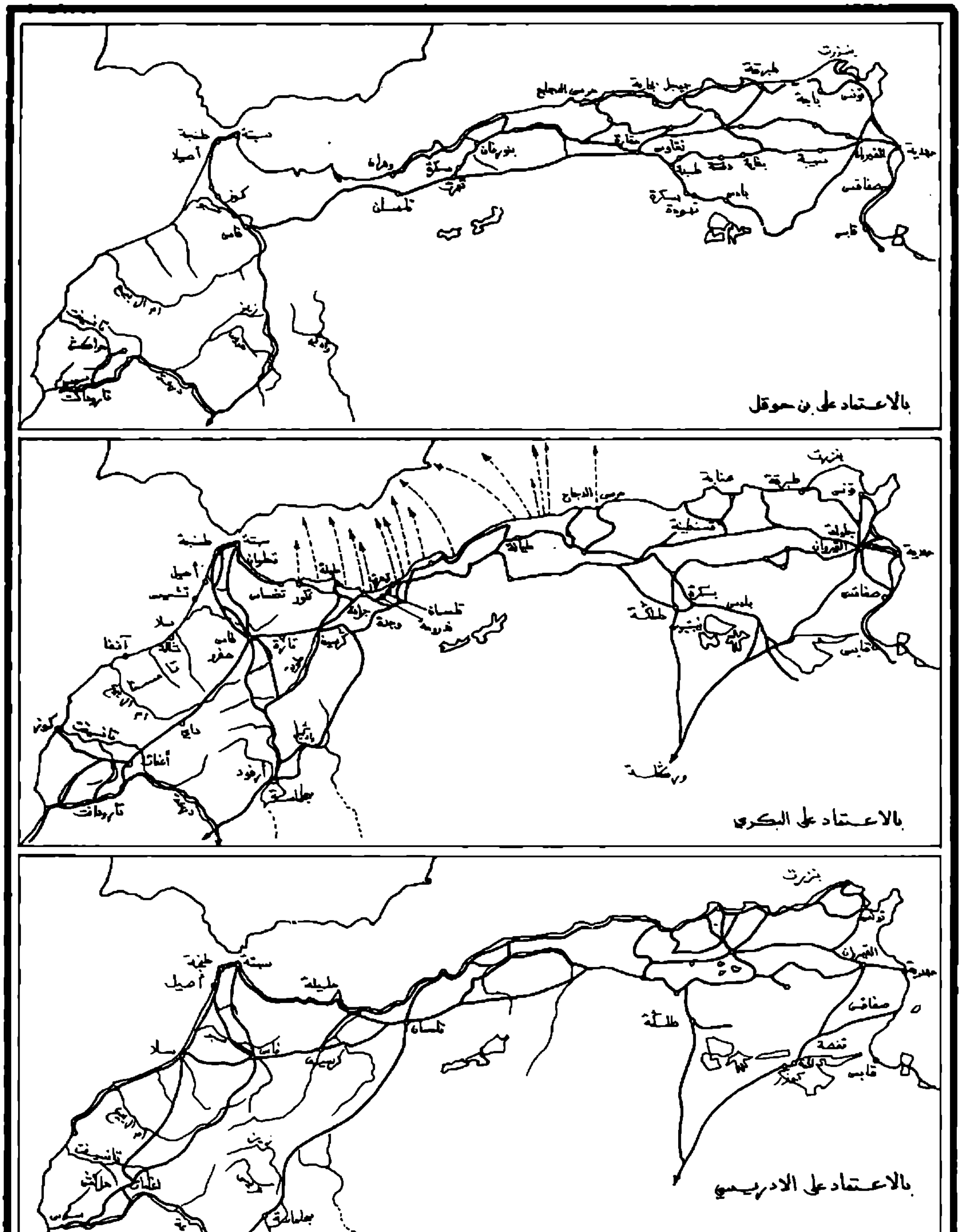


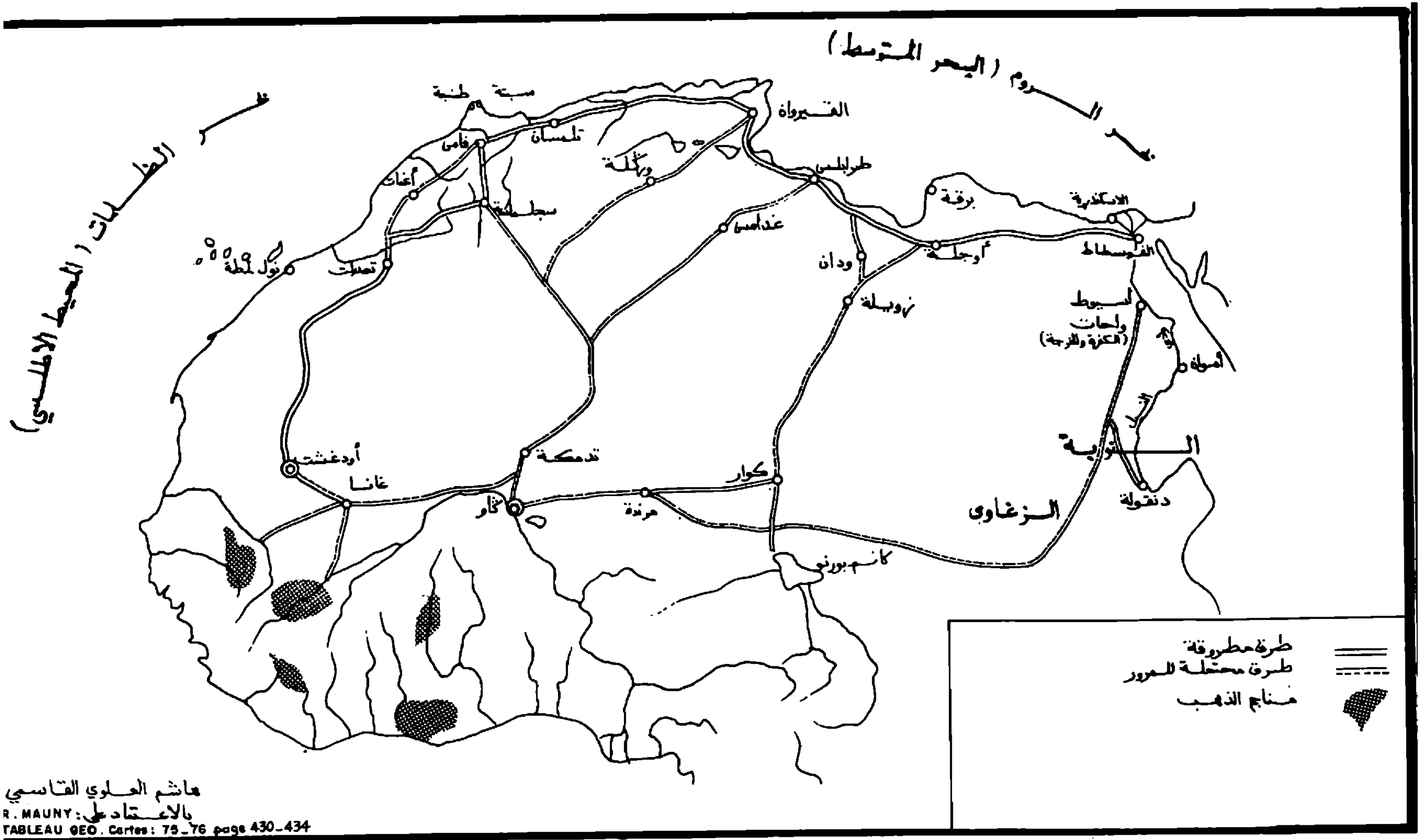
خريطة 2 - الطرق والمرافئ (الموانئ) بالمغرب في القرن 5 هـ 11 م



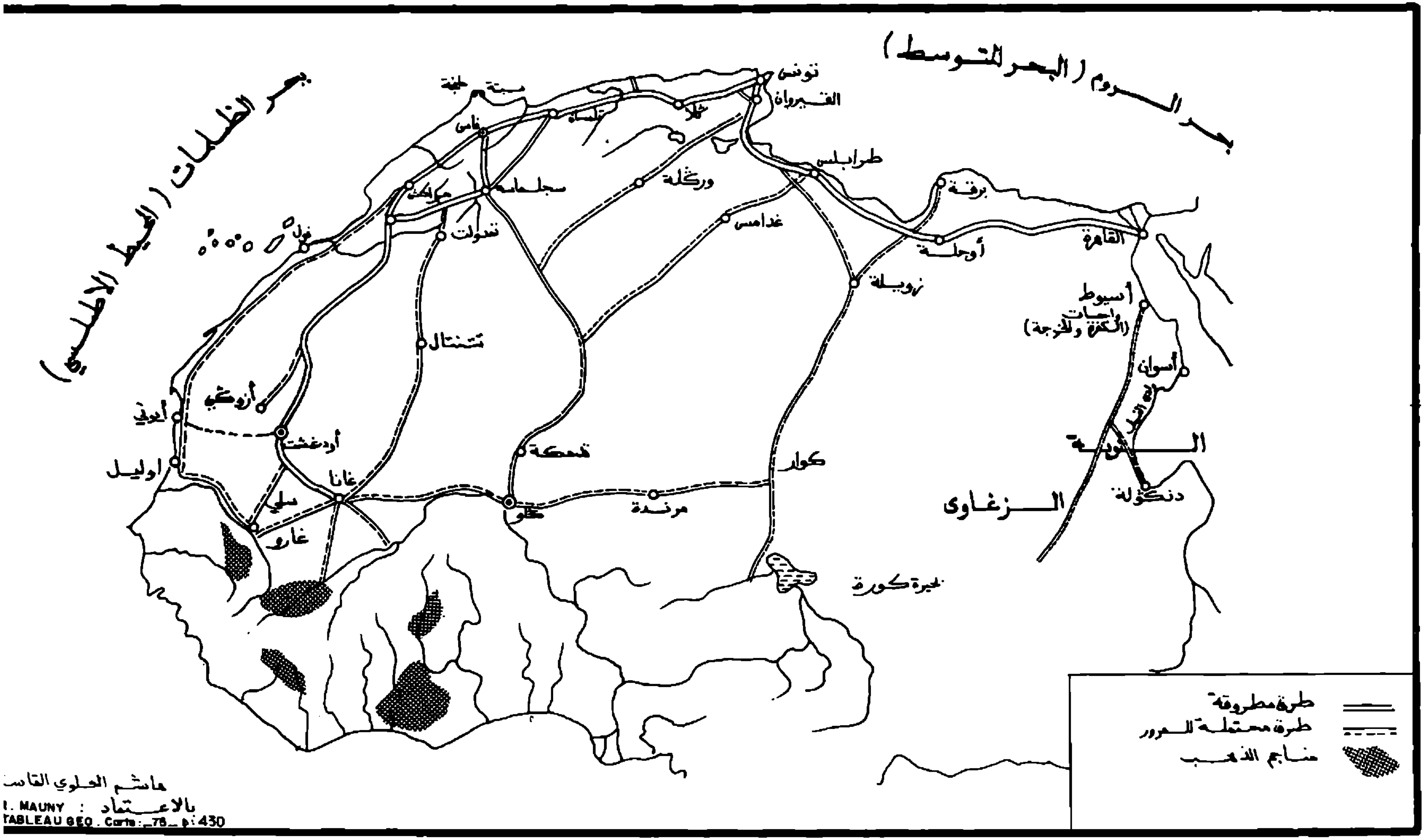
خريطة ـ 3 ـ الطرق والمرافئ (الموانئ) بالمغرب الشمالي في القرن 6 هـ/ 12 م

خريطة- 4- تطور شبكة الطرق من القرن 10 م إلى القرن 12م (4 هـ إلى 6 هـ)

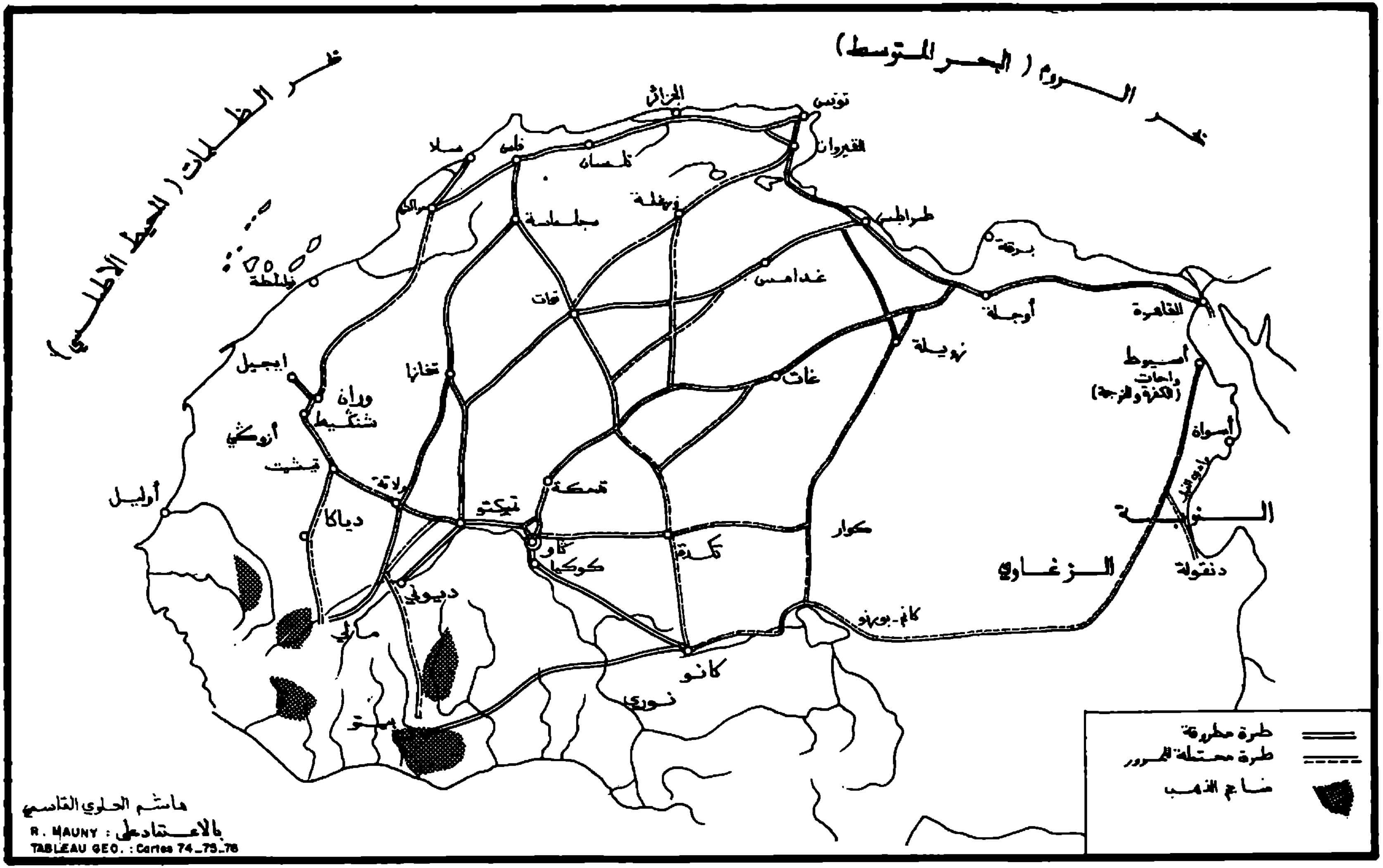




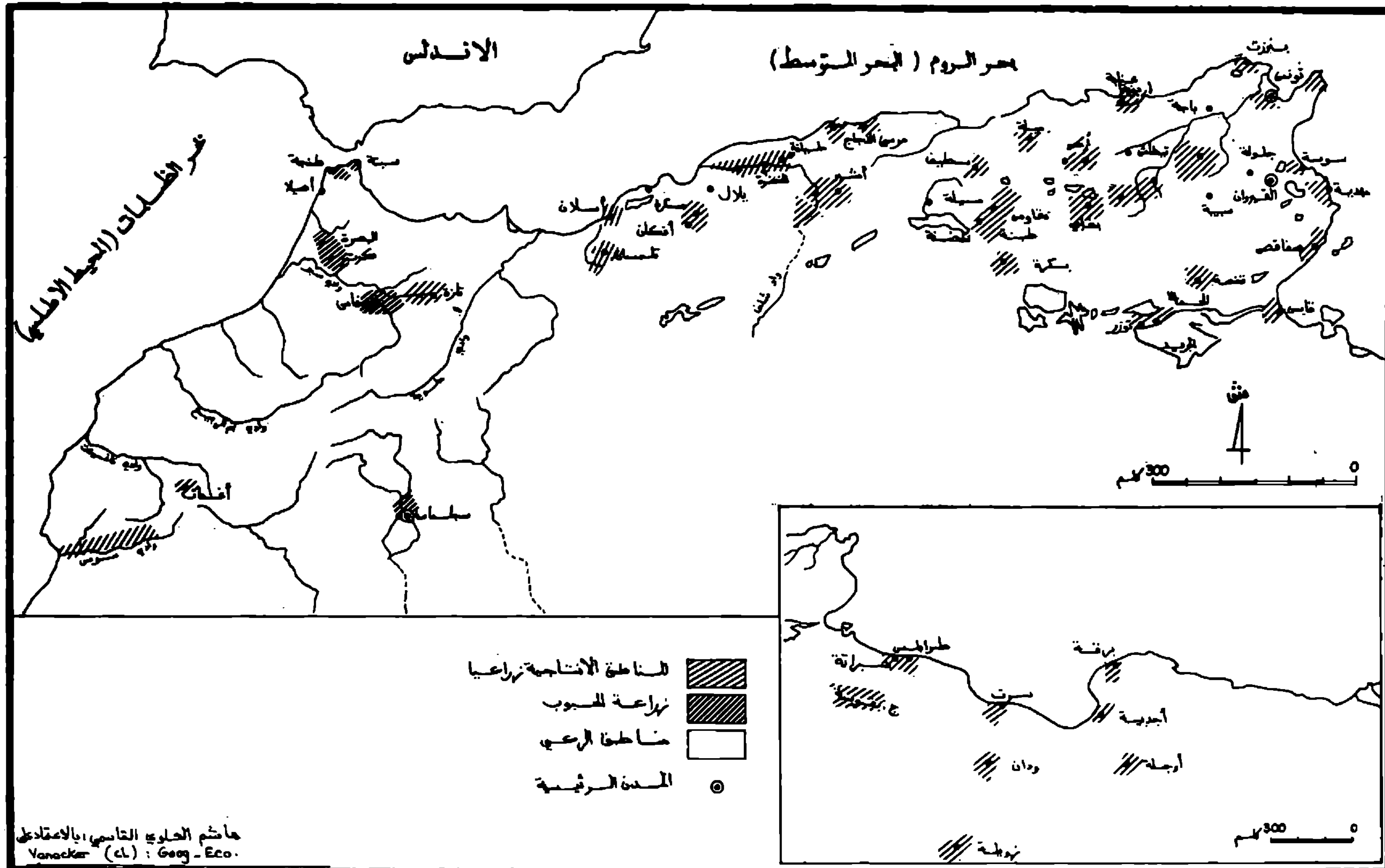
خريطة 5 - الطرق القوافلية بافريقيا الغربية من القرن 1 هـ 8 م إلى 3 هـ 9 م



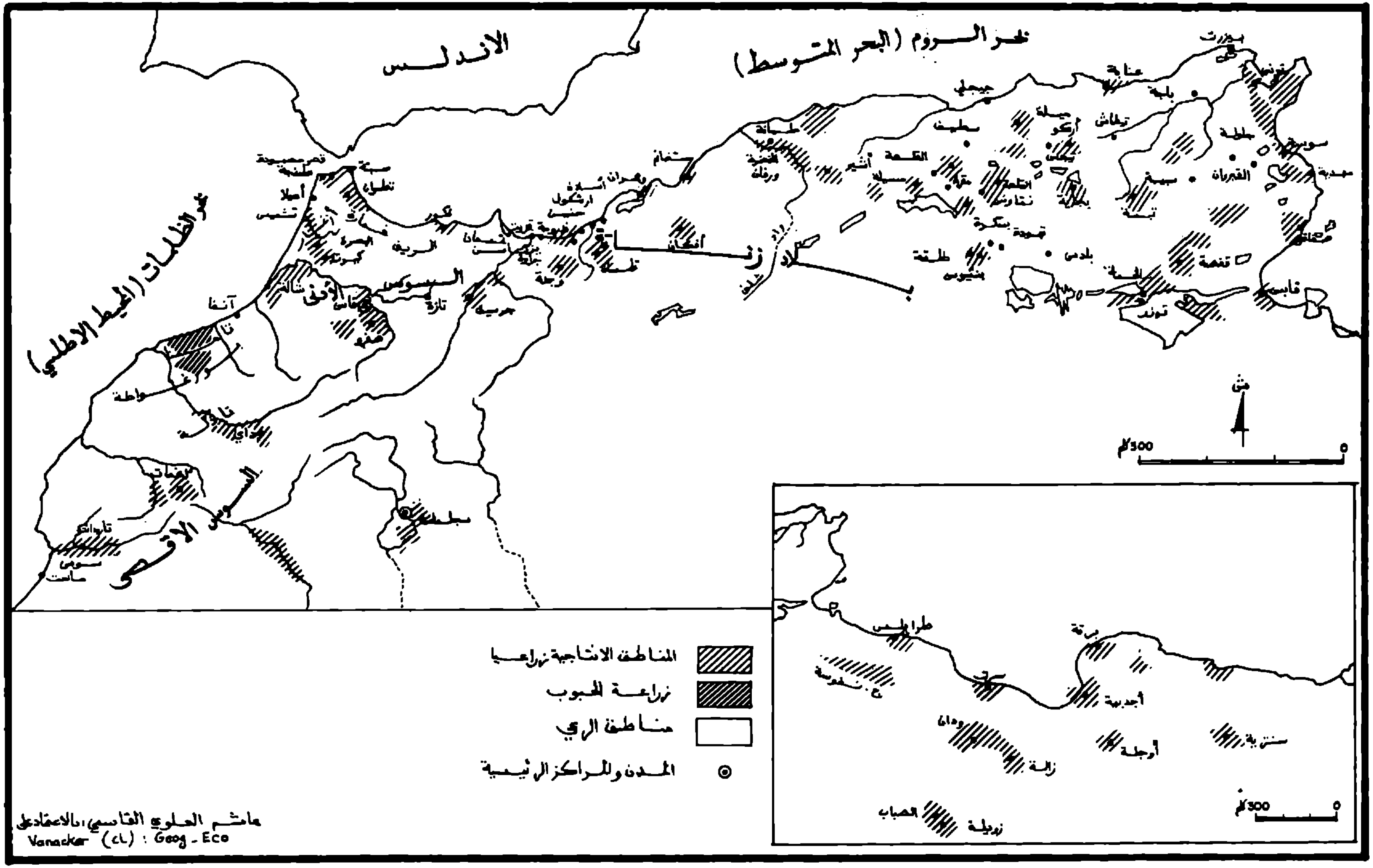
خريطة ـ 6 ـ الطرق التجارية بافريقيا الغربية من القرن 4 هـ/10م إلى 6 هـ/12م



خريطة - 7 - الطرق التجارية بافريقيا الغربية من القرن 7 هـ/ 13م - إلى القرن 9 هـ/ 15 م

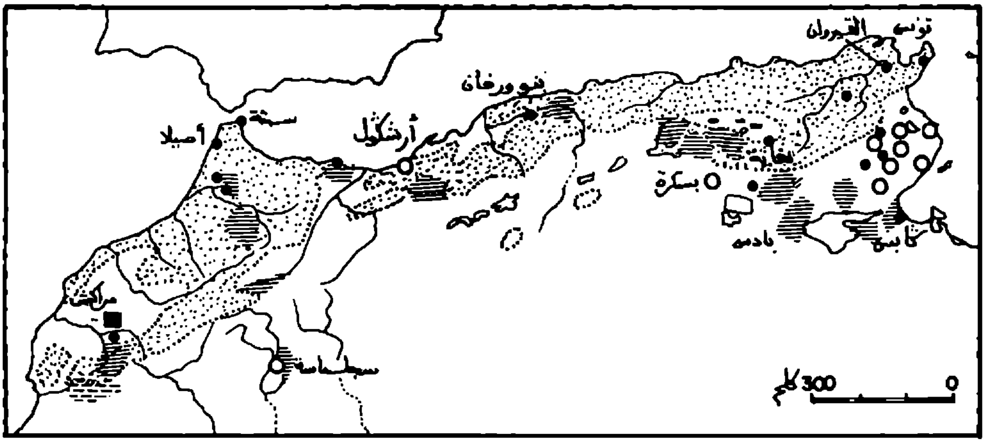


خريطة 8 - المناطق الفلاحية المغربية من القرن 3هـ/ 9م إلى 4 هـ/ 10م

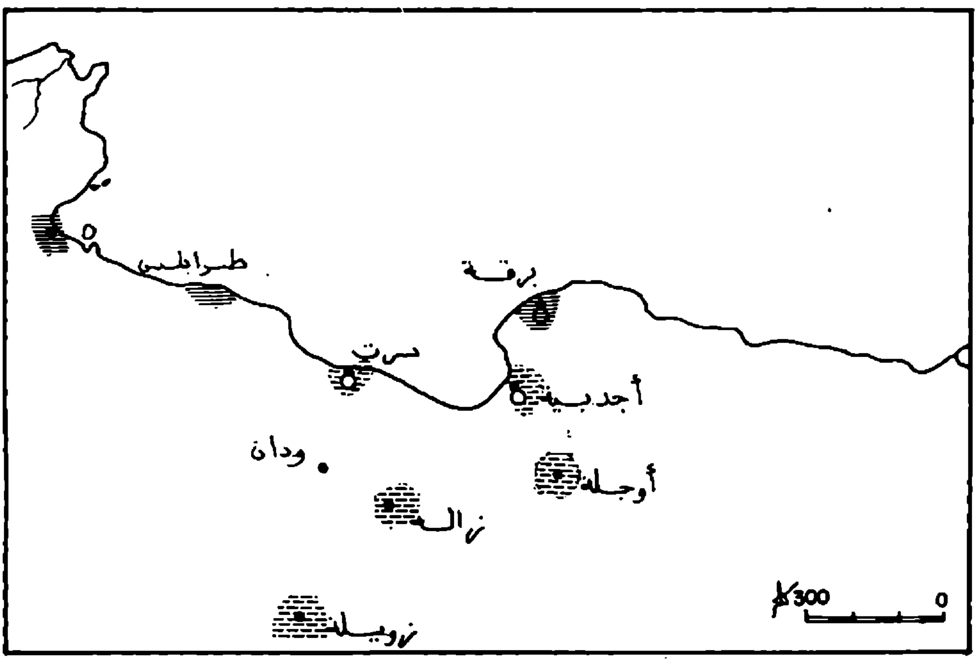


خريطة ـ 9 ـ المناطق الفلاحية المغربية في القرن 5 هـ / 11 م

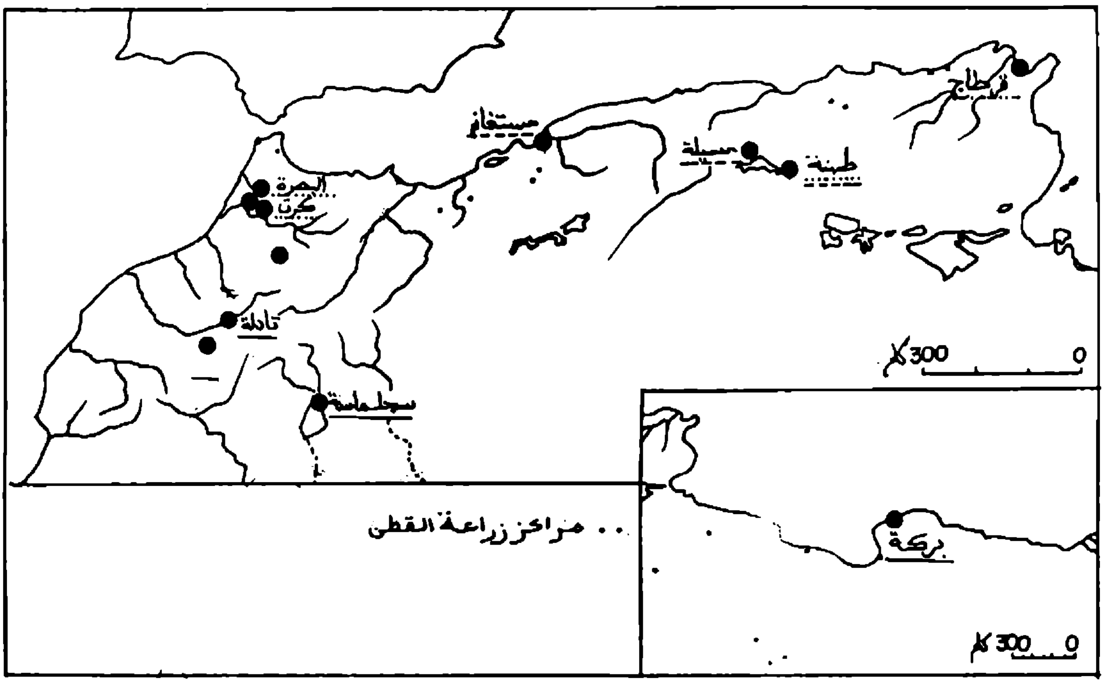
10- الري



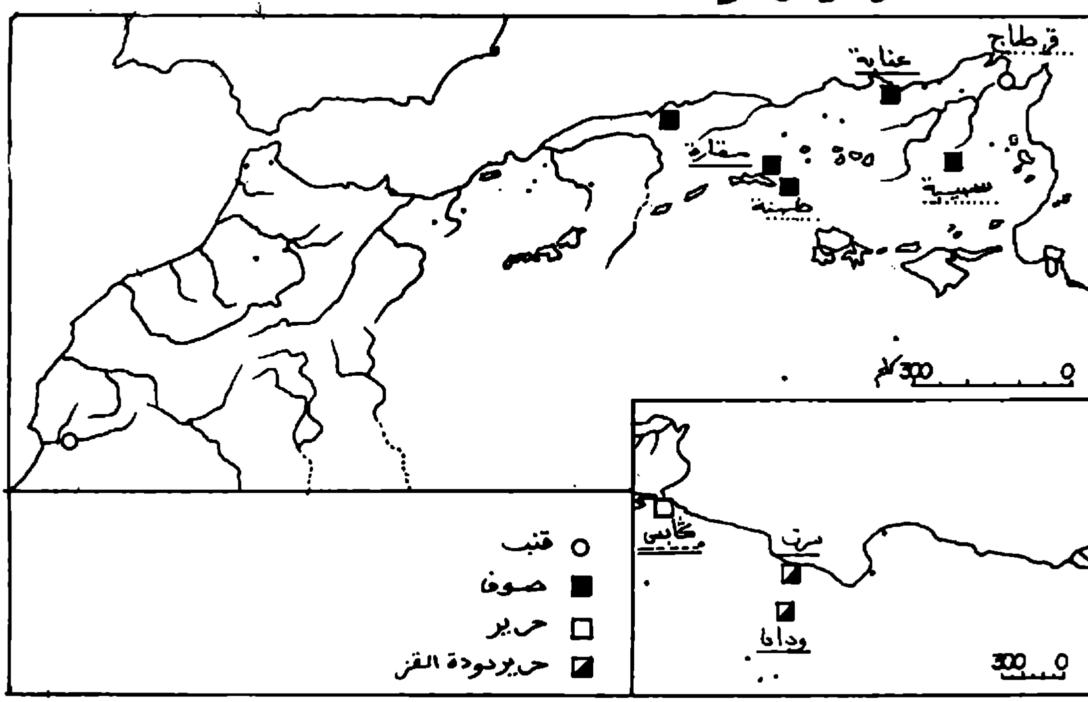
المناطق الرطبة (أكثر من 400 مم) ● آبار
خط التساقط -400مم- ○ خزانات
المناطق المسقية ■ سد نهر تقليدي
المناطق المحتمل سقيها



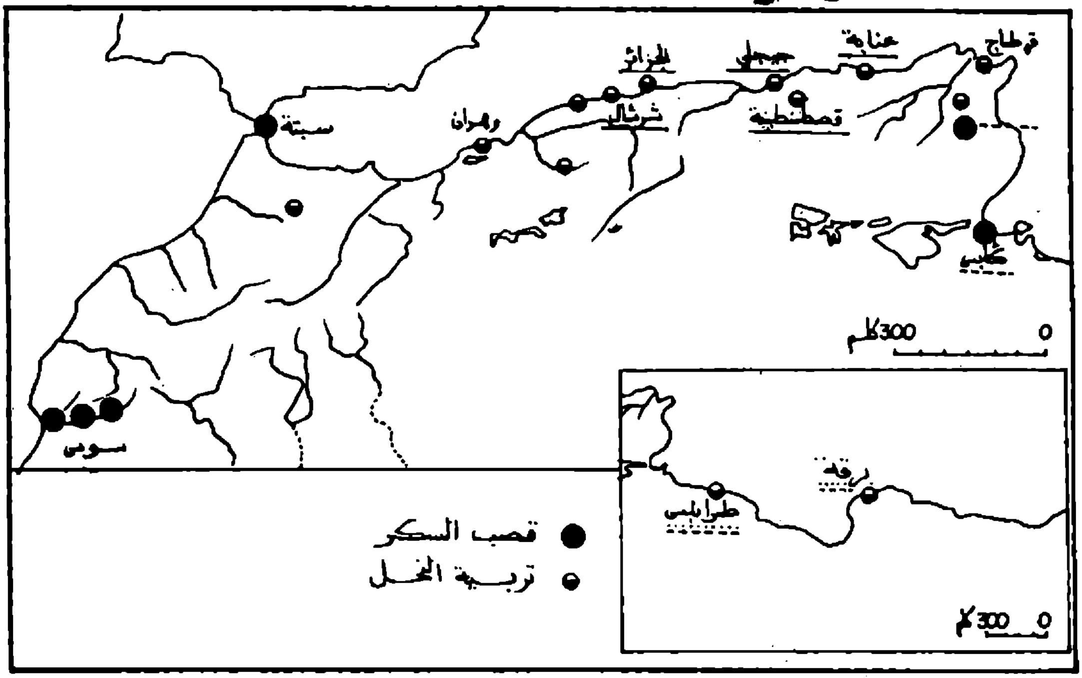
11- القطن



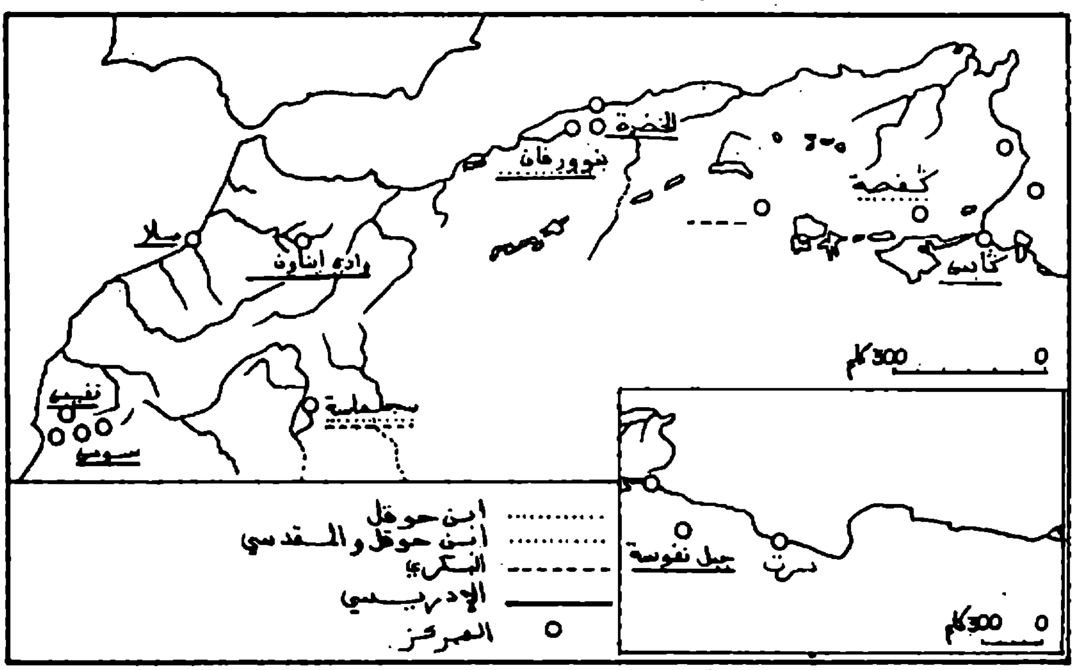
12- قنب ،صوف وحرير



13- قصب السكر وتربية النحل

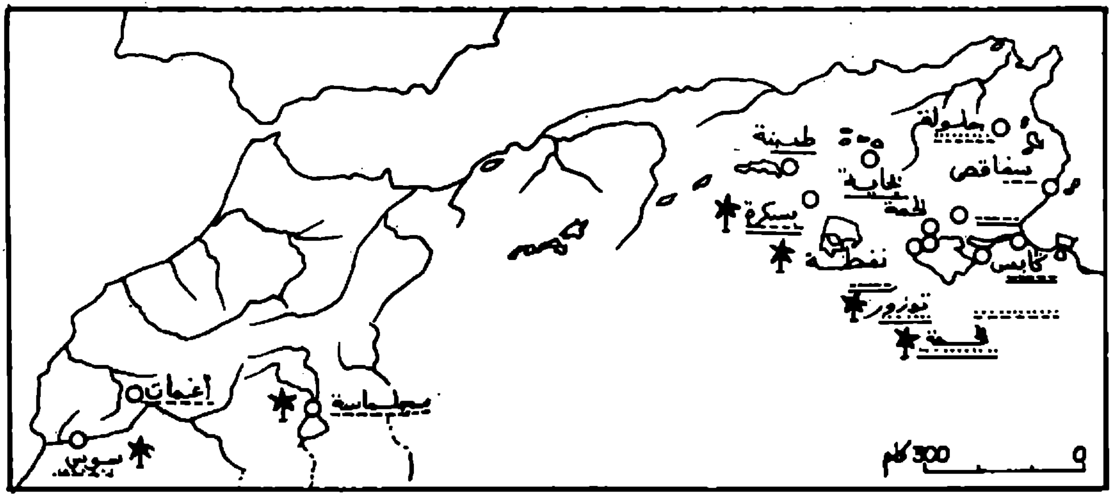


14- القنب والكتان والحرير



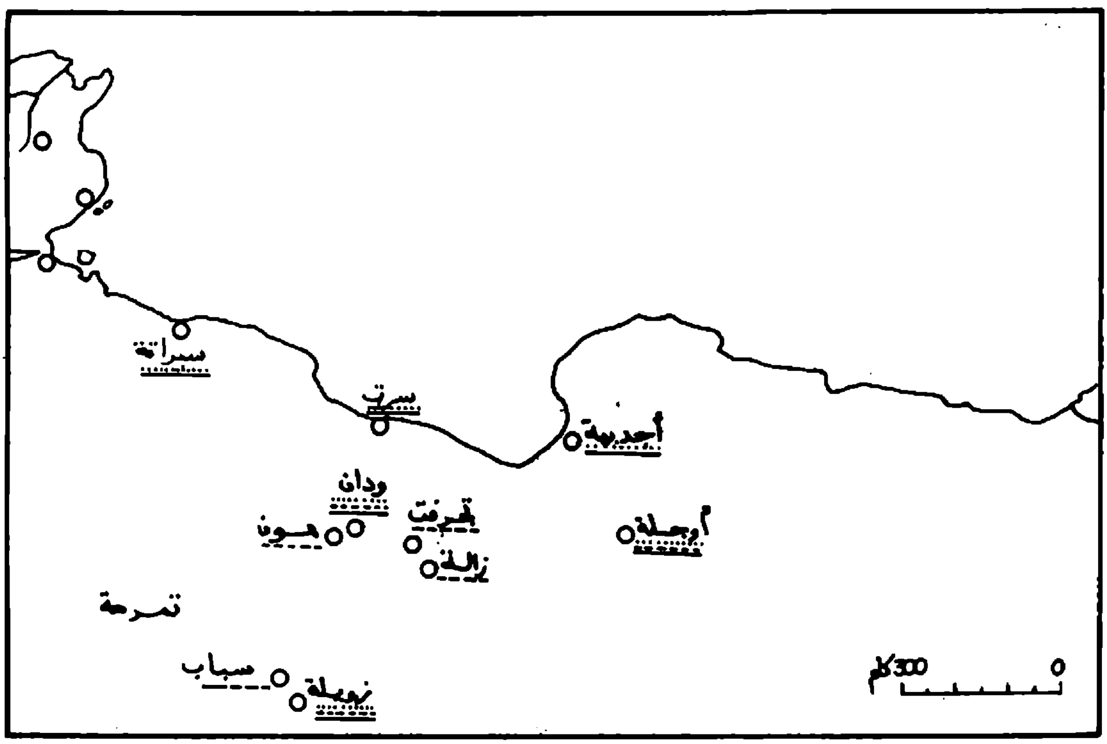
المرجع: ابن حوقل، والبكري، والادريسي.

15- النخيل

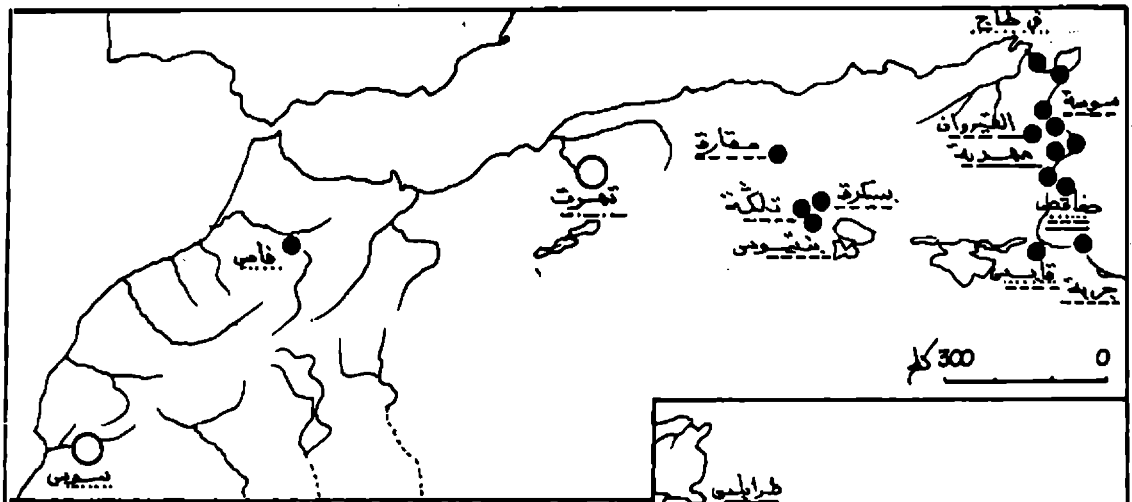


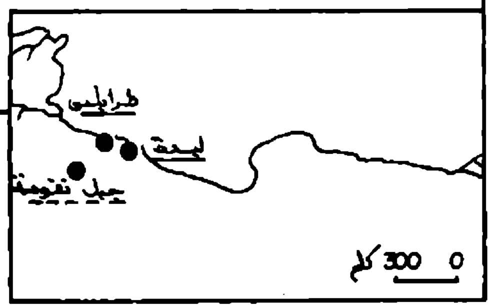
o المركز
* النخيل

ابن حوقل
---- البكري
—— الادريسي

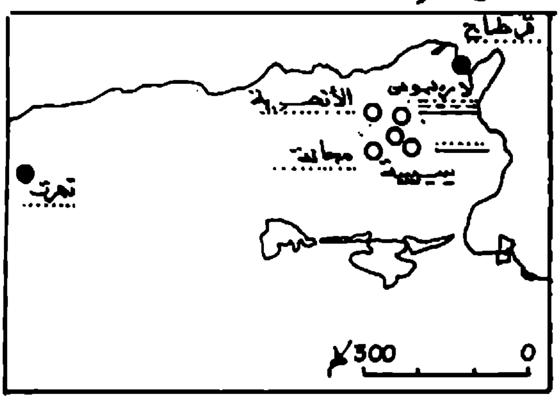


16 - الزراعات الزيتية





17 - الزعفران



● ○ مراكز الإنتاج الرئيسية

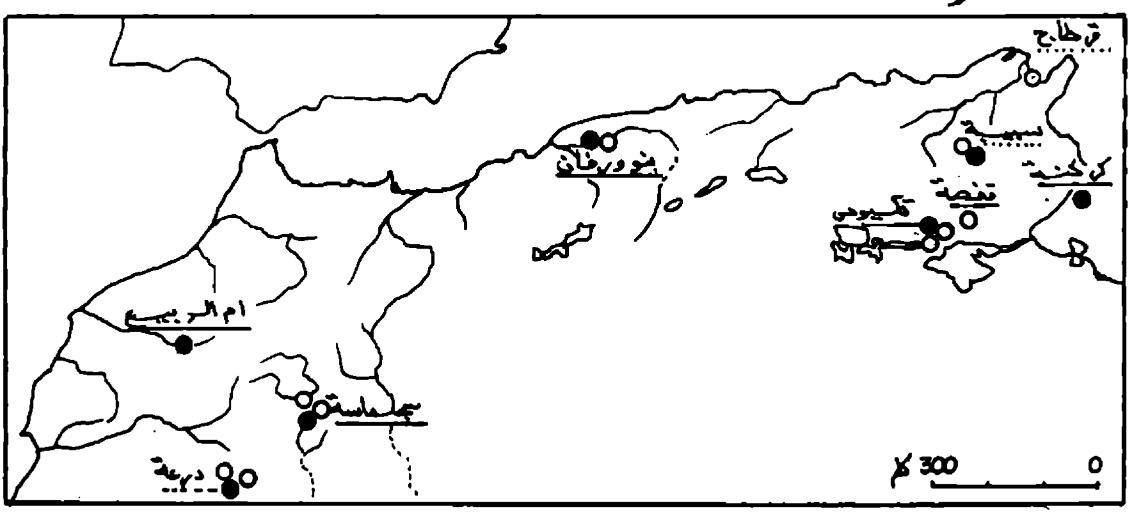
—.—.— اليعقوبي

.... ابن حوقل

- - - - البكري

——— الإدريسي

18 - الكامون الحناء



19 ـ تطور الساحل الشمالي المغربي من القرن 3هـ / 9م ـ 6هـ/12م

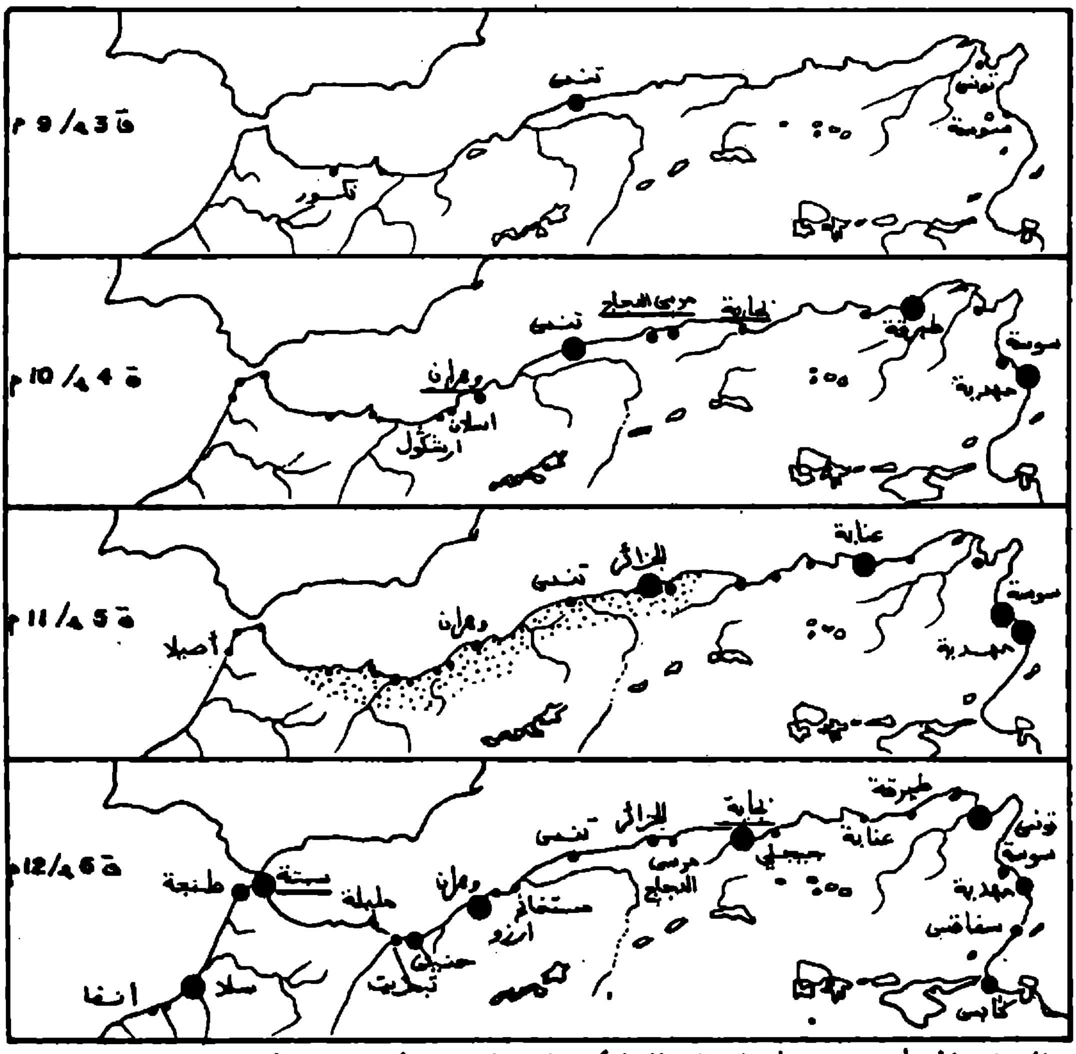


● مراكز رومانية أحياها المسلمون

○ مراكز رومانية هجرت بالتدريج

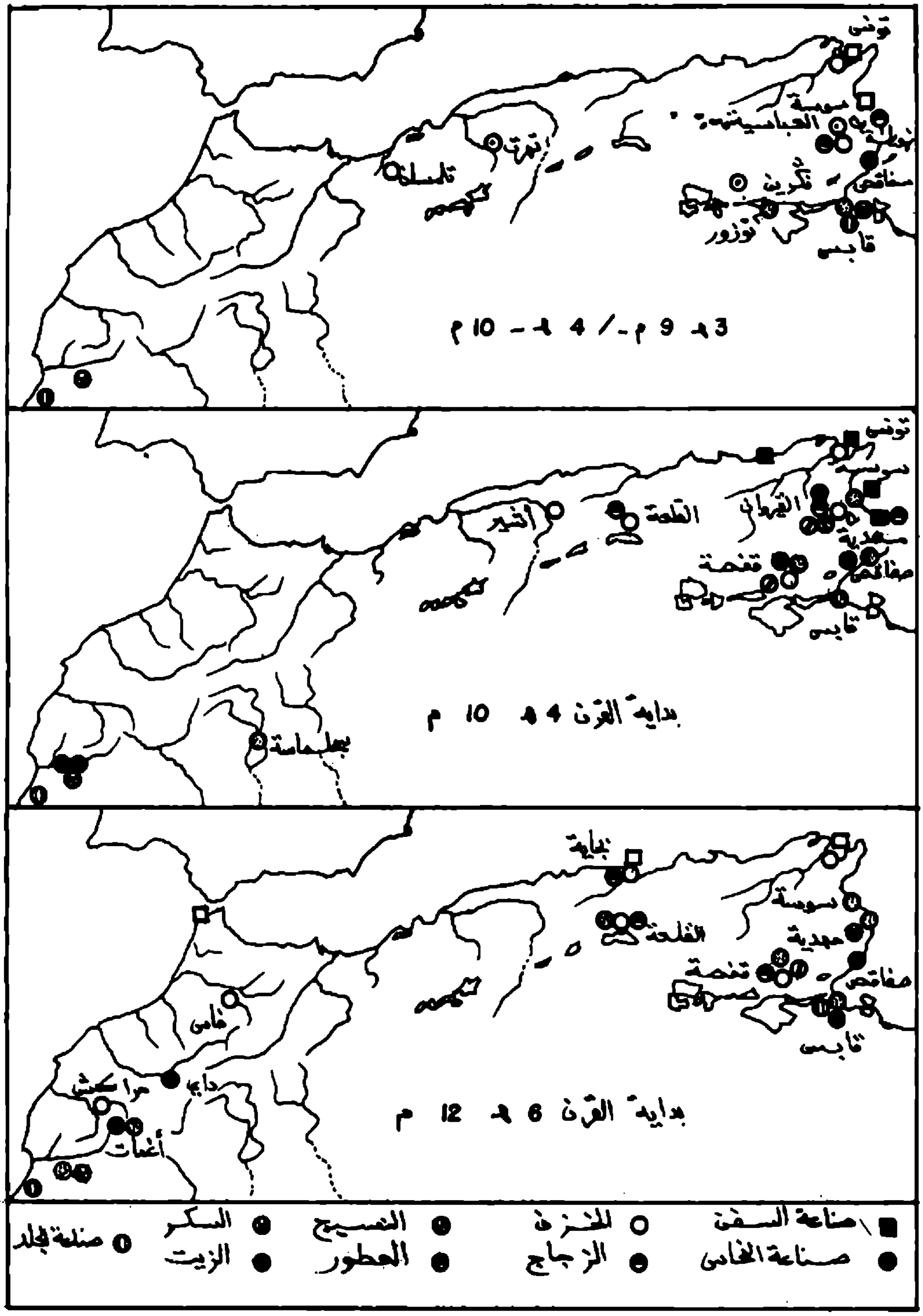
★ تأسيس إسلامي

0 ـــــــــ 300كلم

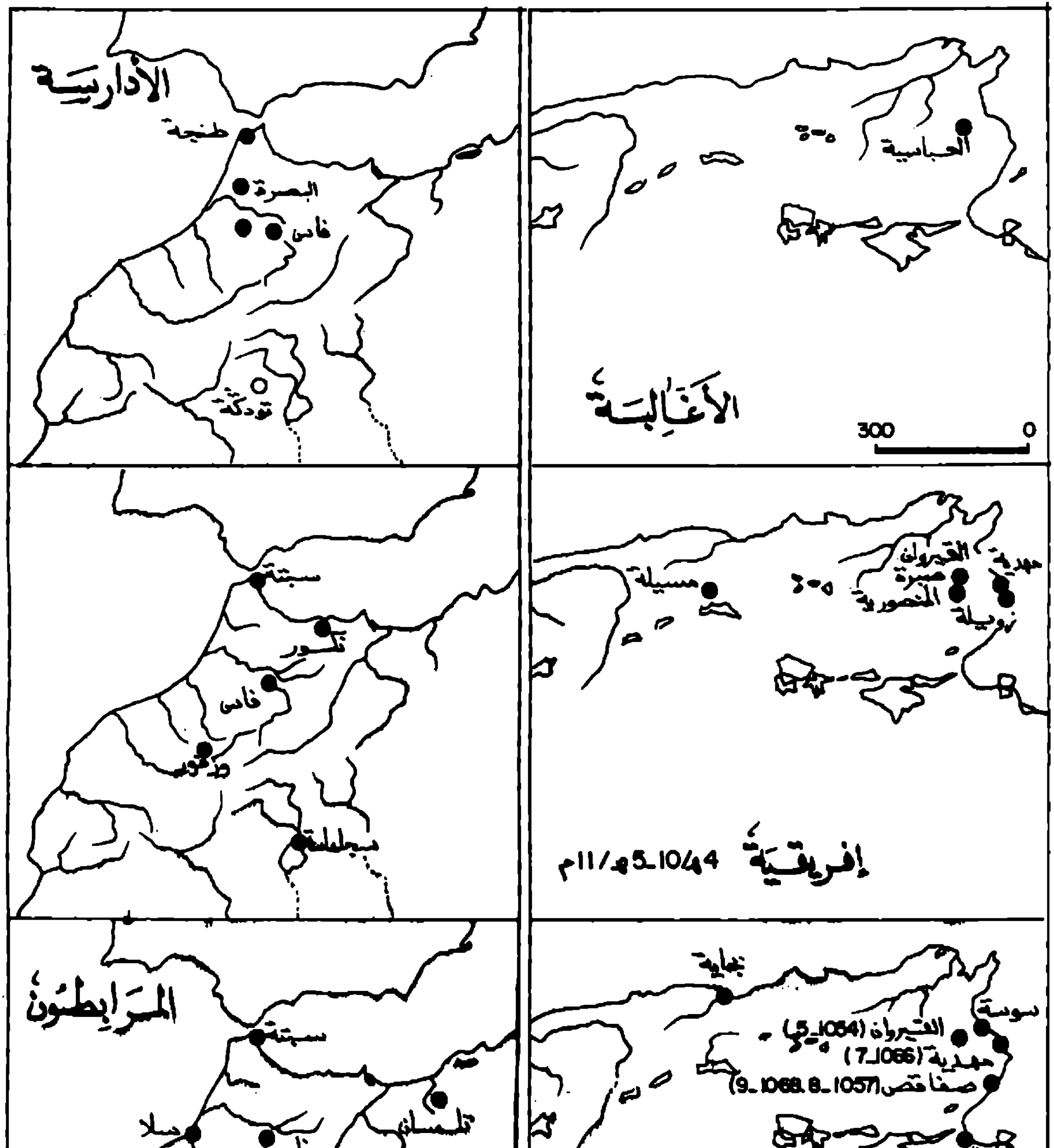


- المراكز المحاطة بسطر تمثل المراكز الاندلسية في القرن 4هـ/ 10م
- النقط تمثل جهات التأثير الاسلامي الاندلسي في القرن 4هـ/10م ـ إلى ق6هـ/12م

20 ـ الصناعات



21- مراكز ضرب العملة



الفهرس التفصيلي لموضوعات الكتاب

الباب الثاني
التطور التاريخي للمغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري/ 10 م
(رصد مرجعي ومتابعة وقائعية)

رقم الإيداع القانوني : 911 / 1994
مطبعة فضالة
3 زنقة ابن زيدون المحمدية (المغرب)
الهاتف : 32.46.43 / 32.46.45 (03)
فاكس : 32.46.44(03)